الأمثل

في تفسير كتاب الله المنزل

العلامة الفقيه المفسر

الشيخ ناصر مكارم الشيرازي

١٥

بسم الله الرحمن الرحیم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل

کاتب:

آیت الله ناصرمکارم شیرازی

نشرت فی الطباعة:

مدرسه الامام علی بن ابی طالب (علیه السلام)

رقمی الناشر:

مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة

الفهرس

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل المجلد ۱۵

اشاره

سرشناسه : مکارم شیرازی، ناصر، - ۱۳۰۵

عنوان و نام پدیدآور : الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل/ تالیف ناصر مکارم شیرازی؛ [با همکاری جمعی از فضلا]

وضعیت ویراست : [ویرایش]۲

مشخصات نشر : قم: مدرسه الامام علی بن ابی طالب(ع)، ۱۴۲۱ق. = ۱۳۷۹.

مشخصات ظاهری : ج ۲۰

شابک : ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۳-X(دوره) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۹-۱(ج.۱) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۳-۲(ج.۲) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۸-۳(ج.۳) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۲-۴(ج.۴) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۷-۵(ج.۵) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۱-۶(ج.۶) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۶-۷(ج.۷) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۰-۸(ج.۸) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۵-۹(ج.۹) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۴-۰(ج.۱۰) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۲-۱(ج.۱۱) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۷-۲(ج.۱۲) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۱-۳(ج.۱۳) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۰-۵(ج.۱۵)

وضعیت فهرست نویسی : فهرستنویسی قبلی

یادداشت : کتاب حاضر ترجمه و تلخیص "تفسیر نمونه" است

یادداشت : کتاب حاضر در سالهای مختلف توسط ناشرین مختلف منتشر گردیده است

یادداشت : کتابنامه

موضوع : تفاسیر شیعه -- قرن ۱۴

شناسه افزوده : مدرسه الامام علی بن ابی طالب(ع)

رده بندی کنگره : BP۹۸/م۷ت ۷۰۴۴۷ ۱۳۷۹

رده بندی دیویی : ۲۹۷/۱۷۹

شماره کتابشناسی ملی : م ۷۹-۱۰۳۹۱

ص: ۱

اشاره

سوره الزّمر

اشاره

محتوى سوره الزّمر:

هذه السوره نزلت فى مكّه المكرمه،و لهذا السبب فإنّها تتطرق للقضايا المتعلقه بالتوحيد و المعاد،و أهميّه القرآن،و مقام نبوّه نبيّ الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كما هو الحال فى بقيه السور المكّيه.

فالمرحله التى قضاها المسلمون فى مكّه كانت مرحله للبناء الإيمانى و العقائدى،و لذلك فإن السور المكيه حوت أقوى البحوث و أكثرها تأثيرا فى هذا المجال.و كانت الأساس القوى المحكم الذى ظهرت آثاره العجيبه فى المدينه،و فى الغزوات و عند مواجهه العدو،و أمام عراقيل المنافقين،و فى قبول النظام الإسلامى،و إذا أردنا معرفه سر الانتصار السريع للمسلمين فى المدينه فإنّ علينا أن نطالع دروس مكّه المؤثره.

و على أيه حال فإنّ هذه السوره تضم عدّه أقسام مهمّه:

۱-تتطرق السوره إلى مسأله الدعوه إلى توحيد اللّه،توحيده فى الخلق، توحيده فى الربوبيه،توحيده فى العبوديه،كما تسلط الضوء على مسأله الإخلاص فى العباده للّه،و آيات هذه السوره فى هذا المجال مؤثره جدّا بحيث تجذب قلب الإنسان و تدفعه نحو الإخلاص.

۲-الأمر المهم الآخر الذى تكرر فى عدّه آيات فى هذه السوره من بدايتها و حتى نهايتها،هو مسأله(المعاد)و المحكمه الإلهيه الكبرى،و مسأله الثواب

و العقـاب،و غرف الجنّه،و كور النّار فى جهنّم،و مسأله الخوف و الرهبه من يوم القيامه،و ظهور نتائـج الأعمال فى ذلك اليوم،و تجسّدها فى ذلك المشـهد الكبير، إضافه إلى أنّها تستعرض قضيه اسوداد أوجه الكاذبين و الذين افتروا على اللّه الكذب،و سوق الكـافرين صوب جهنم،و تعرض الكـافرين لتوبيـخ و ملامه ملائكه العـذاب و دعوه أهل الجنّه إلى دخول الجنّه و تقـديم ملائكه الرحمه التهـانى و التبريكـات لهم،و هـذه الأـمور التى تـدور حول محور المعـاد ممزوجه مع قضايا التوحيـد بشـكل كبير و كأنّها تشكل معها نسيجا واحدا.

٣-قسم آخر من السوره يتناول أهميه القرآن المجيـد،و رغم قلّه عـدد آيات هـذا القسم،فهو يجسّـد بصوره لطيفه القرآن و تأثيره القوى على القلوب و الأرواح.

۴-قسم آخر أيضا يبيّن مصير الأقوام السابقين و العذاب الإلهى الأليم الذى نزل بهم من جراء تكذيبهم لآيات اللّه الحقّ.

۵-و أخيرا قسم آخر من هـذه السوره يتحـدث عن مسـأله التوبه،و كون أبواب التوبه مفتوحه لمن يرغب فى العوده إلى اللّه،و قد تضـمّن هـذا القسم أقوى آيـات القرآن تأثيرا فى مجال التوبه،و يمكن القول بأن آيات هـذا القسم تزف البشـرى و تحمل أخبارا سارّه قد لا يوجد مثيل لها فى بقيه آيات القرآن.

هـذه السـوره معروفـه بـاسم سـوره(الزّمر)و هـذا الاـسم مـأخوذ مـن الآـيتين(٧١) و(٧٣)مـن هـذه السـوره،و تعرف أيضـا باسـم سوره(الغرف)و هذا الاسم مأخوذ من الآيه(٢٠)إلّا أن هذه التسميه غير مشهوره.

فضيله سوره الزمر:

لقد أولت الأحاديث الإسـلاميه أهميه كبيره لتلاوه هذه السوره،و قد ورد حديث عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يقول فيه:«من قرأ سوره الزّمر لم يقطع اللّه رجاه،

و أعطاه ثواب الخائفين الذين خافوا اللّه تعالى» (۱) .

و ورد فی حدیث آخر عن الإمام الصادق علیه السّلام«من قرأ سوره الزمر أعطاه اللّه شرف الدنیا و الآخره،و أعزه بلا مال و لا عشیره،حتی یهابه من یراه و حرم جسده علی النّار» (۲) .

مقارنه فضائل تلاوه سوره الزمر مع محتویاتها فی مجال الخوف من اللّه، و رجاء رحمته،و الإخلاص فی العبودیه،و التسلیم المطلق لذات اللّه،یوضح أنّ هذه المکافآت إنّما تعطی لمن کانت تلاوته مقدمه للتفکر و التفکر وسیله للإیمان و العمل.

و بعباره اخری:

أن یتوغل محتوی السوره فی اعماق روحه.و یتجلّی فی کافه مظاهر الحیاه الاجتماعیه و الفردیه.أجل فمثل هؤلاء الافراد لائقون لهذا الثواب العظیم و الرحمه الواسعه.

۱- ۱) -مجمع البیان بدایه سوره الزمر.

۲- ۲) -مجمع البیان و ثواب الأعمال و تفسیر نور الثقلین.

الآیات [سوره الزمر (٣٩): الآیات ١ الی ٣]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِ تَنْزِیلُ اَلْکِتٰابِ مِنَ اَللّٰهِ اَلْعَزِیزِ اَلْحَکِیمِ (١) إِنّٰا أَنْزَلْنٰا إِلَیْکَ اَلْکِتٰابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اَللّٰهَ مُخْلِصاً لَهُ اَلدِّینَ (٢) أَلاٰ لِلّٰهِ اَلدِّینُ اَلْخٰالِصُ وَ اَلَّذِینَ اِتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِیٰاءَ مٰا نَعْبُدُهُمْ إِلاّٰ لِیُقَرِّبُونٰا إِلَی اَللّٰهِ زُلْفیٰ إِنَّ اَللّٰهَ یَحْکُمُ بَیْنَهُمْ فِی مٰا هُمْ فِیهِ یَخْتَلِفُونَ إِنَّ اَللّٰهَ لاٰ یَهْدِی مَنْ هُوَ کٰاذِبٌ کَفّٰارٌ (٣)

التّفسیر

اشاره

علیک الإخلاص فی الدین!

هذه السوره تبدأ بآیتین تتحدثان عن نزول القرآن المجید:الأولی تقول:إن اللّه هو الذی أنزل القرآن،و الثانیه:تبیّن محتوی و أهداف القرآن.

فی البدایه تقول: تَنْزِیلُ الْکِتٰابِ مِنَ اللّٰهِ الْعَزِیزِ الْحَکِیمِ (١) .

من الطبیعی أنّ کلّ کتاب تتمّ معرفته من خلال مؤلفه أو منزله،و عند ما ندرک

١- ١) – تَنْزِیلُ الْکِتٰابِ خبر لمبتدأ محذوف و التقدیر«هذا تنزیل الکتاب»،و احتمل بعض المفسّرین أن«تنزیل الکتاب» مبتدأ و«من اللّه»خبر.لکن الرأی الأوّل أصحّ،و«تنزیل»مصدر بمعنی المفعول.فتکون إضافته إلی الکتاب من باب إضافه الصفه إلی موصوفها،و المعنی(هذا الکتاب منزل من اللّه).

أنّ هذا الكتاب السماوی الکبیر مستلهم من علم اللّه القادر و الحکیم،الذی لا یقف أمام قدرته المطلقه شیء،و لا یخفی علی علمه المطلق أمر،لأیقنّا بلا عناء أن محتویاته حقّ و کلّها حکمه و نور و هدایه.

مثل هذه العبارات عند ما ترد فی بدایات سور القرآن،ترشد المؤمنین إلی هذه الحقیقه،و هی أن کلّ ما هو موجود فی القرآن المجید هو کلام اللّه و لیس بکلام الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم،و رغم کون کلامه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بلیغا و حکیما أیضا.

ثم تنتقل السوره إلی عرض محتویات هذا الکتاب السماوی و أهدافه إِنّا أَنْزَلْنا إِلَیْکَ الْکِتابَ بِالْحَقِّ .

لا یوجد فیه غیر الحقّ،و لهذا السبب یتبعه طلاب الحقّ،و الباحثون عن الحقیقه مشغولون بالبحث فی محتویاته،من هنا،و لکون هدف نزول القرآن یتحدد فی إعطاء الدین الخالص للبشریه،فإنّ آخر الآیه یقول: فَاعْبُدِ اللّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّینَ .

قد یکون المراد هنا من کلمه(دین)هو عباده اللّه،لأنّ الجمله التی وردت قبلها فَاعْبُدِ اللّهَ فیها أمر بالعباده،و لذا فإنّ العباره التی تلیها مُخْلِصاً لَهُ الدِّینَ تبیّن شروط صحه العباده و التی تتمثل فی الإخلاص و فی الشرک و الریاء.

علی کلّ حال فإنّ اتساع مفهوم(الدین)و عدم ذکر قید أو شرط له،یعطی معنی واسعا،بحیث یشمل العبادات و بقیه الأعمال إضافه إلی العقائد،و بعباره أخری فإنّ(الدین)یتناول مجموعه شؤون الحیاه المادیه و المعنویه للإنسان، و یجب علی عباد اللّه المخلصین أن یخلصوا کلّ حیاتهم للّه و أن یطهروا قلوبهم و أرواحهم و ساحه عملهم و دائره حدیثهم عن کل ما هو لغیر اللّه،و أن یفکروا به و یعشقوه،و أن یتحدثوا عنه و یعملوا من أجله،و أن یسیروا دائما فی سبیل رضاه، و هذا هو(إخلاص الدین).

و لذا لا یوجد أیّ داع أو دلیل واضح لتحدید مفهوم الآیه فی شهاده(لا إله إلا

اللّه)أو بخصوص(العباده و الطاعه).

الآيه التّاليه تؤكد مرّه اخرى على مسأله الإخلاص،و تقول: أَلاٰ لِلّٰهِ الدِّينُ الْخٰالِصُ و هذه العباره ذات المعنيين:

الأوّل:هو أنّ البارئ عزّ و جلّ لا يقبل سوى الدين الخالص،و الاستسلام الكامل له من دون أىّ قيد أو شرط،و لا يقبل أى عمل فيه رياء أو شرك،أو خلط للقوانين الإلهيه بغيرها من القوانين الوضعيه.

و الثّانى:هو أنّ الذين و الشريعه الخالصه يجب أخذها من اللّه فقط،لأن أفكار الإنسان ناقصه و ممزوجه بالأخطاء و الأوهام.

و لكن وفق ما جاء فى ذيل الآيه السابقه فإنّ المعنى الأوّل أنسب،لأن الذين يؤدون المطلوب منهم بإخلاص هم العباد،و لهذا فإنّ هذا الخلوص فى الآيه مورد بحثنا يجب أن يراعى من جانب أولئك.

و هناك دليل آخر على هذا الكلام،و هو حديث

ورد عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، جاء فيه أن رجلا قال لرسول اللّه:يا رسول اللّه!إنّا نعطى أموالنا التماس الذكر،فهل لنا من أجر فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:لا،قال:يا رسول اللّه!إنّا نعطى التماس الأجر و الذكر،فهل لنا أجر؟فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«إن اللّه تعالى لا يقبل إلاّ من أخلص له،ثمّ تلا هذه الآيه: أَلاٰ لِلّٰهِ الدِّينُ الْخٰالِصُ . (1)

و على أيه حال،فإنّ هذه الآيه فى الواقع استدلال للآيه التى جاءت قبلها، فهناك تقول: فَاعْبُدِ اللّٰهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ و هنا تقول: أَلاٰ لِلّٰهِ الدِّينُ الْخٰالِصُ .

مسأله الإخلاص تناولتها الكثير من الآيات القرآنيه و الأحاديث الإسلاميه، و بدء الجمله مورد بحثنا ب(ألا)التى تستعمل عاده لجلب الانتباه،هو دليل آخر على أهميه هذا الموضوع.

ثم تنتقل الآيه إلى إبطال المنطق الواهى الضعيف للمشركين الذين تركوا

١- ١) -روح المعانى،المجلد ٢٣،الصفحه ٢١٢ ذيل آيات البحث.

طريق الخلاص،و ضاعوا فى طرق الشرك و الانحراف: وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيٰاءَ مٰا نَعْبُدُهُمْ إِلاّ لِيُقَرِّبُونٰا إِلَى اللّهِ زُلْفىٰ،إِنَّ اللّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مٰا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (۱) ،و هنا سيتّضح للجميع فساد أفكارهم و أعمالهم و بطلان عقائدهم..

هذه الآيه هى تهديد قاطع للمشركين فى أنّ البارئ عزّ و جلّ سيحاكمهم فى يوم القيامه،اليوم الذى تنكشف فيه الالتباسات و تظهر فيه الحقائق،ليجزوا و يعاقبوا على ما ارتكبوه من الأعمال المحرّمه،إضافه إلى فضيحتهم أمام الجميع فى ساحه المحشر.

منطق عبده الأصنام واضح هنا،فأحد أسباب عباده الأصنام هى أنّ مجموعه كانت تزعم أنّ اللّه سبحانه و تعالى أجلّ من أن يحيط به الإدراك الإنسانى من عقل أو وهم أو حس، فهو منزّه عن أن يكون موردا للعباده مباشره،فلذا قالوا:من الواجب أن نتقرّب إليه بالتقرب إلى مقربيه من خلقه،و هم الذين فوض إليهم تدبير شؤون العالم،فنتخذهم أربابا من دون اللّه ثمّ آلهه نعبدهم و نتقرب إليهم ليشفعوا لنا عند اللّه و يقربونا إليه زلفى،و هؤلاء هم الملائكه و الجن و قد يسو البشر.

و لما أحسّوا بأن ليس باستطاعتهم الوصول إلى أولئك المقدسين،بنوا تماثيل لهم،و أخذوا يعبدونها،و هذه التماثيل هى نفسها الأصنام،و لأنّهم كانوا يزعمون أن لا فرق بين التماثيل و أولئك المقدسين و أنّ لهما نوعا من التوحّد،لذا عمدوا إلى عباده الأصنام و اتخاذه آلهه لهم.

و بهذا الشكل فإنّ الأرباب فى نظرهم،هم أولئك الذين خلقهم اللّه و قربهم إلى نفسه،و فوض إليهم تدبير شؤون العالم حسب زعمهم،و كانوا يعتبرون البارئ عزّ و جلّ هو(رب الأرباب)و هو خالق عالم الوجود،و من النادر أن يوجد من الوثنيين من يقول بأن هذه الأصنام المصنوعه من الحجر و الخشب،أو حتى آلهتهم

۱- ۱) -من الواضح أنّ فى الآيه المذكوره أعلاه و قبل عباره مٰا نَعْبُدُهُمْ جمله تقديرها«و يقولون ما نعبدهم».

الوهميه-أى الملائكه و الجن و أمثالهم-هى التى خلقت هذا الكون و أوجدته (١) و بالطبع فإنّ هناك أسبابا أخرى لعباده الأصنام،و منها أنّ الاحترام الفائق الذى يكنونه فى بعض الأحيان للأنبياء و الصالحين يتسبب فى احترام حتى التمثال الذى ينحت أو يصنع لهم بعد وفاتهم،و مع مرور الزمن تأخذ هذه لتماثيل طابعا استقلاليا،و يتبدل الاحترام إلى عباده،و لهذا فإنّ الإسلام نهى بشدّه عن صنع التماثيل.

و قد ورد فى كتب التأريخ أنّ عرب الجاهليه كانوا يكنون احتراما فائقا للكعبه الشريفه و لأرض مكّه المكرّمه،و لهذا كانوا يأخذون معهم قطعه حجر صغيره من تلك الأرض عند ما يذهبون إلى مكان آخر،و يضفون عليها الاحترام و التقديس،و من ثمّ يعمدون إلى عبادتها.

و ما ورد فى قصه(عمرو بن لحى)التى جاء فيها،أنّ عمرا فى إحدى رحلاته إلى بلاد الشام شاهد بعض مشاهد عبده الأصنام،و فى طريق عودته إلى الحجاز، اصطحب معه صنما من بلاد الشام،و منذ ذلك الحين بدأت عباده الأصنام فى الحجاز هذه القصّه لا تتعارض مع ما ذكرناه لأنّه يبيّن بعض جذور عباده الأصنام، و هدف أهل الشام من عباده الأصنام كان مأخوذا من أحد تلك الأمور أو نظائرها.

عباده الأصنام-بأى شكل كانت-ما هى إلاّ أوهام و خيالات لا صحه لها ترشحت من أفكار ضعيفه و عاجزه،حرفت الناس عن الطريق الرئيسى الأصيل لمعرفه اللّه.

و القرآن المجيد يؤكّد بصوره خاصّه على أنّ الإنسان يستطيع أن يتصل باللّه من دون أى واسطه،و أن يتحدث معه و يناجيه و يطلب منه حاجته،و يطلب العفو

١- ١) -تفسير الميزان،المجلد ١٧،الصفحه ٢۴٧ مع بعض التغييرات.

و التّوبه،فكلّ هـذه الأمور من اللّه و تحت تسـلط قدرته.و سوره الحمد توضّح هذه الحقيقه،لأنّ قراءه العباد المسـتمر لهذه السوره فى صـلواتهم اليوميه،تجعل العبد على اتصال مباشـر مع البارئ،عزّ و جلّ،إذ أنّه يقرؤها و يطلب من اللّه-دون أى واسطه-حاجاته منه.

سبـل الاسـتغفار و التوبه،و كـذلك طلب العون من البـارئ،عزّ و جلّ و ما ورد فى الأدعيه المأثوره،كلها تبيّن أنّ الإسـلام لا يرى وجود واسـطه فى هـذا الأمر، و هـذه هى حقيقه التوحيد.حتى أن مسأله الشـفاعه و التوسل بأولياء اللّه مشـروطه بإذن البارئ عزّ و جلّ و سماحه، و هذا تأكيد على مسأله التوحيد.

و يجب أن تكون العلاقه هكذا،لأنّ اللّه سـبحانه و تعالى أقرب إلينا من أىّ شىء،كما يقول بذلك القرآن: وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (۱) ، وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ (۲) .

و بهـذا الشـكل فالبارئ،عزّ و جلّ ليس ببعيـد عنّا،و لسـنا بعيدين عنه كى تكون هناك حاجه للوساطه بين الطرفين،إنّه أقرب إلينا من كلّ قريب،و موجود فى مكان و فى أعماق قلوبنا.

و فقأ لهذا فإنّ عباده الوسطاء من الملائكه و الجنّ و نظائرهم،أو الأصنام الحجريه و الخشبيه،عمل باطل لا صحّه له،إضافه إلى أنّه يعـدّ كفرا بنعمه اللّه،لأنّ الـذى يهب النعم أجـدر بالعباده من تلك الموجودات الميته،أو المحتاجه إلى الآخرين من أعلى رأسـها إلى أخمص قدمها.لذا يقول القرآن المجيد فى نهايه الآيه: إِنَّ اللّهَ لا يَهْدِى مَنْ هُوَ كاذِبٌ كَفّارٌ .

فلا يهديه إلى الطريق الصحيح فى هذا العالم،و لا إلى الجنّه فى العالم الآخر،

۱- ۱) -سوره ق،۱۶.

۲- ۲) -سوره الأنفال،۲۴.

لأنّه أو صد بكلتا يديه أبواب الهدايه أمامه،و لأنّ البارئ عزّ و جلّ يبعث فيض هدايته إلى من يراه لائقا و مستعدا لاستقبالها،و لا يبعثها إلى الذين تعمدوا قتل الاستعدادات الموجوده فى قلوبهم و ذاتهم.

ملاحظه

اشاره

الفرق بين التنزيل و الإنزال:

فى الآيه الأولى وردت عباره تَنْزِيلُ الْكِتابِ ،و فى الثانيه عباره أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ ، فما الفرق بين الإنزال و التنزيل؟و ما المراد من تباين العبارتين فى هاتين الآيتين؟ كتب اللغه تقول:إنّ كلمه(تنزيل)تعنى نزول الشيء على عدّه دفعات،فى حين أن كلمه(إنزال)لها معنى عام يشمل النّزول التدريجى و النّزول دفعه واحده (۱) .

قال بعضهم إنّ لكل منهما معنى خاصا بها و أن(تنزيل)تعنى-فقط-النّزول على عدّه دفعات،و(إنزال)تعنى-فقط-النّزول دفعه واحده (۲) .

اختلاف العبارتين المذكورتين أعلاه إنّما يعود إلى أن القرآن المجيد نزل بصورتين:

الأولى:نزل دفعه واحده على قلب النّبى محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى ليله القدر فى شهر

ص: ۱۴

۱- ۱) -مفردات الراغب ماده(نزل)و الفرق بين الإنزال و التنزيل فى وصف القرآن و الملائكه،أن التنزيل يختص بالموضع الذى يشير إليه إنزاله مفرقا و مرّه بعد اخرى و الإنزال عام.

۲- ۲) -هذا الاختلاف ورد فى التّفسير الكبير للفخر الرازى نقلا عن آخرين.

رمضان المبارک کما ورد فی الآیات المبارکه: إِنّٰا أَنْزَلْنٰاهُ فِی لَیْلَهِ الْقَدْرِ (۱) و إِنّٰا أَنْزَلْنٰاهُ فِی لَیْلَهٍ مُبٰارَکَهٍ (۲) و شَهْرُ رَمَضٰانَ الَّذِی أُنْزِلَ فِیهِ الْقُرْآنُ (۳) .

و فی کلّ هذه الآیات استخدمت عباره(الإنزال)التی تشیر إلی نزوله دفعه واحده.

و یوجد نزول آخر تمّ بصوره تدریجیه استغرقت(۲۳)عاما،أی طوال فتره نبوّه الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إذا کانت تنزل فی کلّ حادثه و قضیه آیه تناسبها،و تنقل بالمسلمین من مرحله إلی اخری لیرتقوا سلم الکمال المعنوی و الأخلاقی و العقائدی و الاجتماعی، کما ورد فی الآیه(۱۰۶)من سوره الإسراء: وَ قُرْآناً فَرَقْنٰاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَی النّٰاسِ عَلیٰ مُکْثٍ وَ نَزَّلْنٰاهُ تَنْزِیلاً .

و الذی یثیر الانتباه،هو أنّ الکلمتین(تنزیل)و(إنزال)تأتیان أحیانا فی آیه واحده للتعبیر عن مقصودین،کما ورد فی الآیه(۲۰)من سوره محمّد: وَ یَقُولُ الَّذِینَ آمَنُوا لَوْ لاٰ نُزِّلَتْ سُورَهٌ فَإِذٰا أُنْزِلَتْ سُورَهٌ مُحْکَمَهٌ وَ ذُکِرَ فِیهَا الْقِتٰالُ رَأَیْتَ الَّذِینَ فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ یَنْظُرُونَ إِلَیْکَ نَظَرَ الْمَغْشِیِّ عَلَیْهِ مِنَ الْمَوْتِ .

فکأن المسلمین یطلبون أحیانا نزول السوره القرآنیه تدریجا کی یهضموا محتویاتها بصوره جیده،لکن الضروره کانت تستدعی فی بعض الحالات نزول السوره دفعه واحده،و خاصه السور التی تتناول مسائل الجهاد فی سبیل اللّه،لأنّ نزولها التدریجی کان قد یؤدی إلی سوء استغلالها من قبل المنافقین الذین کانوا یتحینون الفرص لبث سمومهم.ففی مثل هذه الحالات-کما ذکرنا-کانت السوره تنزل دفعه واحده.و هذا آخر شیء یمکن ذکره بشأن التباین الموجود بین العبارتین،و طبقا لهذا فإنّ آیات بحثنا أشارت إلی طریقتی النّزول بصوره جامعه

۱- ۱) -القدر،۱.

۲- ۲) -سوره الدخان،۳.

۳- ۳) -سوره البقره،۱۸۵.

کامله.

و مع هـذا فـإنّه توجـد هنـاک بعض الأمور الاسـتثنائیه لتفسـیر و بیان الاختلاف المـذکور أعلاه،کما ورد فی الآیه(۳۲)من سوره الفرقان: وَ قالَ الَّذِینَ کَفَرُوا لَوْ لا نُزِّلَ عَلَیْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَهً واحِدَهً کَذلِکَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَکَ وَ رَتَّلْناهُ تَرْتِیلاً .

بالطبع،لکل من(التنزیل)و(الإنزال)فوائد و آثار خاصّه به،سنتطرق إلیها فی مواضعها (۱) .

۱- ۱) -هناک بحث مفصل عن فوائد النّزول التدریجی للقرآن تعرضنا له لدی تفسیر الآیه(۳۴)من سوره فرقان.

الآيتان [سوره الزمر (۳۹): الآیات ۴ الی ۵]

اشاره

لَوْ أَرٰادَ اَللّٰهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لاَصْطَفىٰ مِمّٰا يَخْلُقُ مٰا يَشٰاءُ سُبْحٰانَهُ هُوَ اَللّٰهُ اَلْوٰاحِدُ اَلْقَهّٰارُ (۴) خَلَقَ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اَللَّيْلَ عَلَى اَلنَّهٰارِ وَ يُكَوِّرُ اَلنَّهٰارَ عَلَى اَللَّيْلِ وَ سَخَّرَ اَلشَّمْسَ وَ اَلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلاٰ هُوَ اَلْعَزِيزُ اَلْغَفّٰارُ (۵)

التّفسير

اشاره

ما حاجه اللّه إلى الأولاد؟

المشركون إضافه إلى أنّهم يعتبرون الأصنام وسيطا و شفيعا لهم عند اللّه،كما استعرضت ذلك الآيات السابقه،فقد اعتقدوا-أيضا-أن بعض المخلوقات- كالملائكه-هي بنات اللّه،و الآيه الأولى في بحثنا تجيب على هذا الإعتقاد الخاطئ و التصور القبيح بالقول: لَوْ أَرٰادَ اللّٰهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لاَصْطَفىٰ مِمّٰا يَخْلُقُ مٰا يَشٰاءُ سُبْحٰانَهُ هُوَ اللّٰهُ الْوٰاحِدُ الْقَهّٰارُ .

ذكر المفسرون آراء مختلفه في تفسير هذه الآيه:

قال البعض:يقصد منها لو أنّ اللّه كان راغبا في انتخاب ولد له،فلم ينتخب

البنـات اللاـتى تزعمون أنّهنّ لا قيمه لهنّ؟فلم لا ينتخب له أبناء؟و هـذا-فى الحقيقه-نوع من أنواع الاسـتدلال وفق ذهنيه الطرف المقابل كى يفهم أن كلامه لا أساس له من الصحه.

و قال آخر:إنّما يقصد منها لو أنّ اللّه كان راغبا فى انتخاب ولد له،لكان قد خلق موجودات اخرى أفضل و أرفى من الملائكه.

و بالنظر إلى كون مكانه الأنثى لا تقلّ عن مكانه الذكر عند البارى عزّ و جلّ، و بالنظر إلى كون الملائكه أو عيسى عليه السلام-و الذين اعتبرهم بعض المنحرفين أبناء اللّه-من الموجودات الشريفه و المحترمه،فإنّه لا يعدّ أىّ من التّفسيرين السابقين مناسبا.

و الأفضل هو القول بأنّ الآيه تريـد القول:إنّ الابن مطلوب إمّا لتقديم العون أو لمؤانسه الروح،و بفرض المحال فإنّ اللّه عزّ و جلّ لو كان محتاجا لمثل هـذا الأمر، لاصـطفى لهـذا بعضا ممّن يشاء من أشـرف خلقه،فلم يتخـذ ولدا؟ و لكن لكونه الواحد الذى لا نظير له و القاهر و الغالب لكل شـىء و الأزلى و الأبـدى،فإنّه لا يحتاج إلى مساعـده أىّ أحـد،و لا يسـتوحش من وحدانيته حتى يزيلها عن طريق الإنسان مع الآخرين،لهذا فهو منزّه و مقدّس عن الولد،حقيقيا كان أو منتخبا.

و إضـافه إلى مـا ذكرنـاه من قبـل،فـإنّ أولئـك الجهله الـذين يتصورون أحيانـا أن الملاـئكه هم أبناء اللّه،و أحيانا اخرى يقولون بوجـود نسـبه بين البـارى،عزّ و جـلّ و الجن،و أحيانـا يقولـون بـأن(المسـيح)أو(العزيز)هم أبنـاء اللّه،يجهلون الكـثير من الحقـائق الواضحه،فإن كان قصدهم هو الولد الحقيقى:

فأولا:يجب أن يكون البارى تعالى جسما.

ثانيا:التركيب من أجزاء(لأنّ الوالد جزء من الأب ينفصل عن وجود أبيه).

ثالثا:حتميه وجود شبيه و نظير له(لأنّ الأولاد على الدوام يشبهون الآباء).

رابعا:احتياجه لزوجه،و اللّه منزّه و مقدّس عن كلّ تلك الأمور.

و إنّ كان المقصود هو الولـد المنتخب أى(المتبنىّ)فإن ذلك إنّما يتمّ لأجل احتياجه لمساعـده جسـديه أو لمؤانسه روحيه،و اللّه القادر القاهر لا يحتاج إلى كلّ هذه الأمور.و بهذا فإنّ وصفه ب(الواحد)و(القهار)هو جواب مختصر على كلّ تلك الاحتمالات.

على أيه حال،فإنّ عباره(لو)التى تستخدم عاده للشرط المستحيل إشاره إلى أن هذا الفرض محال فى أن ينتخب البارئ عزّ و جلّ والـدا له،و بفرض المحـال أنّه يحتـاج،فـإنّه غير محتـاج لما يقولونه من اتخاذ الولـد،بل إن مخلوقاته المنتخبه هى التى تؤمن هـذا الأمر.

و لإثبـات حقيقه أنّ اللّه لا يحتاج إلى مخلوقاته،و لبيان دلائل توحيـده و عظمته،يقول البارئ عزّ و جلّ: خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ .

كون تلـك الأـمور حقّـا دليـل على وجود هـدف كبير من وراء خلقهـا،و ذلـك لتكامل المخلوقات و فى مقـدمتها الإنسان،ثمّ لا تنتهى عند البعث.

بعـد عرض هـذا الخلق الكبير،تشير الآيه إلى جوانب من تـدبيره العجيب، و التغيرات التى تطرأ بحسابات دقيقه،و الأنظمه الدقيقه أيضا التى تحكم أولئك،إذ يقول القرآن المجيد: يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهٰارِ وَ يُكَوِّرُ النَّهٰارَ عَلَى اللَّيْلِ .

مـا أجملها من عباره!فلو وقف الإنسان فى منطقه تقع خارج نطاق الكره الأرضـيه،و نظر إلى مشـهد حركه الأرض حول نفسـها و تكوّن الليل و النهار اللـذين يطوقان سـطحها المكور،لشاهـد-بصوره منتظمه-أن سواد الليل يسـتولى على طرف النهار من جهه و من الجهه المقابله يرى بأن ضوء النهار يستولى محركه مستمره على ظلام الليل.

«يكون»من(تكوير)و تعنى الشـىء المتكور أو المنحنى،و يعتبر أصـحاب اللغه تكوير العمـامه على الرأس نموذجـا للتكوير،و هـذا التعبير القرآنى الجميل

يكشف عن بعض الأسرار،لكن الكثير من المفسّرين نتيجه عدم التفاتهم إلى كرويه الأرض ذكروا مواضيع اخرى لا تناسب مفهوم كلمه(التكوير)،فمن هذه الآيه يتجلّى لنا أن الأرض كرويه و تدور حول نفسها،و من جراء هذا الدوران، يطّوق الأرض دائما شريطان،أحدهما سواد الليل،و الثّانى بياض النهار،و لا يبقى هذان الشريطان ثابتين،و إنّما يغطى الشريط الأسود الأبيض،من جهه و الشريط الأبيض يغطى الأسود من جهه اخرى،أثناء حركه الأرض حول نفسها.

و على أيه حال،فإنّ القرآن المجيد يبيّن ظاهره الليل و النهار و(النور)و (الظلمات)فى عدّه آيات مختلفه،كلّ واحده منها تشير إلى نقطه معينه،و تنظر إلى هذه الظاهره من زاويه خاصه،فأحيانا يقول: يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهٰارِ وَ يُولِجُ النَّهٰارَ فِى اللَّيْلِ (1) .

الحديث-هنا-يتطرق لتوغّل الليل فى النهار و توغل النهار فى الليل التى تتمّ بصوره بطيئه و هادئه.

و أحيانا اخرى يقول: يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهٰارَ (2) ،و هنا تمّ تشبيه الليل بستائر مظلمه تنزل على ضياء النهار و تحجبه.

ثمّ تنتقل إلى جانب آخر،ألا و هو التدبير و النظام الدقيق المسير لشؤون هذا العالم،قال تعالى: وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُسَمًّى .

فلا يظهر فى حركه الشمس التى تدور حول نفسها،أو التى تتحرك مع بقيه كواكب المجموعه الشمسيه نحو نقطه خاصّه فى مجره درب التبانه أدنى خلل، فهى تتحرك وفق نظام خاص و دقيق جدّا،و لا يظهر أى خلل فى حركه القمر أثناء دورانه حول الأرض أو حول نفسه،فالكلّ يخضع لقوانين(الخالق)و يتحرك وفقها،و سيستمر فى التحرك وفق هذه القوانين حتى آخر يوم من أجله.

١- ١) -سوره فاطر،١٣.

٢- ٢) -سوره الأعراف،٥۴.

و یوجد احتمال آخر،و هو أنّ المراد من تسخیر الشمس و القمر هو تسخیرها للإنسان بإذن اللّه،کما ورد فی الآیه(۳۳)من سوره إبراهیم: وَ سَخَّرَ لَکُمُ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ دائِبَیْنِ .و لکن بالالتفات إلی الجمله السابقه و اللاحقه فی هذه الآیه مورد البحث،إضافه إلی عدم ورود کلمه(لکم)فی الآیه،یجعل التّفسیر المذکور أعلاه مستبعدا بعض الشیء.

نهایه الآیه کانت بمثابه تهدید و ترغیب للمشرکین إذ تقول: أَلا هُوَ الْعَزِیزُ الْغَفّارُ فبحکم عزّته و قدرته المطلقه لا یمکن لأیّ مذنب و مشرک أن یهرب من قبضه عذابه،و بمقتضی کونه الغفّار،فإنّه یستر عیوب و ذنوب التائبین،و یظلمهم بظلّ رحمته.

«غفار»صیغه مبالغه مشتقّه من المصدر(غفران)و تعنی فی الأصل لبس الإنسان لشیء یقیه من التلوّث،و عند ما تستخدم بشأن الباری،عزّ و جلّ فإنّها تعنی ستره لعیوب و ذنوب عباده النادمین و حفظهم من عذابه و جزائه،نعم فهو (غفار)فی أوج عزته و قدرته،و هو(قهار)فی أوج رحمته و غفرانه،و الهدف من ذکر هاتین الصفتین فی آخر الآیه،هو إیجاد حاله من«الخوف»و«الرجاء»عند العباد،و هما عاملان رئیسیان وراء کلّ تحرک نحو الکمال.

ص :۲۱

الآیتان [سوره الزمر (۳۹): الآیات ۶ الی ۷]

اشاره

خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وٰاحِدَهٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهٰا زَوْجَهٰا وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ اَلْأَنْعٰامِ ثَمٰانِيَهَ أَزْوٰاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهٰاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمٰاتٍ ثَلاٰثٍ ذٰلِكُمُ اَللّٰهُ رَبُّكُمْ لَهُ اَلْمُلْكُ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ فَأَنّٰى تُصْرَفُونَ (۶) إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اَللّٰهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَ لاٰ يَرْضىٰ لِعِبٰادِهِ اَلْكُفْرَ وَ إِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَ لاٰ تَزِرُ وٰازِرَهٌ وِزْرَ أُخْرىٰ ثُمَّ إِلىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذٰاتِ اَلصُّدُورِ (۷)

التّفسیر

اشاره

الجمیع مخلوقون من نفس واحده:

مرّه اخری تستعرض آیات القرآن الکریم عظمه خلق اللّه،و تبیّن فی نفس الوقت بعض النعم الأخری التی منّ بها اللّه سبحانه و تعالی علی الإنسان.

فی البدایه تتحدّث عن خلق الإنسان و تقول: خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وٰاحِدَهٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهٰا زَوْجَهٰا .

ص :۲۲

خلق كلّ بنى آدم من نفس واحده إشاره إلى مسأله خلق آدم أبى البشر،إذ أنّ كل البشر و بتنوع خلقتهم و أخلاقهم و طبائعهم و استعداداتهم و أذواقهم المختلفه يعودون فى الأصل إلى آدم عليه السّلام.

و عباره: ثُمَّ جَعَلَ مِنْها زَوْجَها (۱) إشاره إلى أن اللّه خلق آدم فى البدايه،ثمّ خلق حواء ممّا تبقى من طينته.

و على هذا الأساس فإنّ عمليه خلق حواء تمّت بعد خلق آدم،و قبل خلق أبناء آدم.

عباره(ثمّ)لا تأتى دائما كتأخير للزمان،و إنّما تأتى أحيانا كتأخير للبيان، فمثلا يقال:رأيت ما عملته اليوم ثمّ رأيت ما عملته بالأمس، فى حين أنّ عمل الأمس قد نفذ قبل عمل اليوم،و لكن المراد هنا أنّ مشاهدته تمّت بعد عمل اليوم.

و البعض اعتبر الآيه المذكوره أعلاه تشير إلى(عالم الذّر)و خلق أبناء آدم بعد خلق آدم و قبل خلق حواء بشكل أرواح،هذا التّفسير غير صحيح،و قد بيّنا هذا فى تفسير و توضيح«عالم الذّر»فى ذيل الآيه(۱۷۲)من سوره الأعراف.

و ممّا يجدر ذكره أنّ زوجه آدم عليه السّلام لم تخلق من أى جزء منه،و إنّما خلقت ممّا تبقى من طينته التى خلق منها،و ذلك كما ورد فى الرّوايات الإسلاميه،و أمّا الرّوايات التى تقول بأنّها خلقت من ضلع آدم الأيسر،فإنّه كلام خاطئ مأخوذ من بعض الرّوايات الإسرائيليه،و مطابق فى نفس الوقت لما جاء فى الفصل الثّانى من كتاب التّوراه(سفر التكوين)المحرّف،إضافه إلى كونه مخالفا للواقع و العقل، إذ أنّ تلك الرّوايات ذكرت أنّ أحد أضلاع آدم قد أخذ و خلقت منه حواء،و لهذا فإنّ الرجال ينقصهم ضلع فى جانبهم الأيسر،فى حين أنّنا نعلم بعدم وجود أيّ فارق بين عدد أضلع المرأه و الرجل،و هذا الاختلاف ليس أكثر من خرافه.

بعد هذا ينتقل الحديث إلى مسأله خلق أربعه أنواع من الانعام تؤمّن للإنسان

۱- ۱) -فى قوله تعالى: ثُمَّ جَعَلَ مِنْها زَوْجَها محذوف تقديره(خلقكم من نفس واحده خلقها،ثمّ جعل منها زوجها).

ضروریات الحیاه،حیث یستفید من جلودها لملابسه،و من حلیبها و لحمه الغذائه، و من جهه أخری یصنع من جلودها و أصوافها عدّه أمور یستفید منها فی حیاته، و من جهه ثالثه یستخدمها کوسیله لتنقّله و حمل أثقاله: وَ أَنْزَلَ لَکُمْ مِنَ الْأَنْعٰامِ ثَمٰانِیَهَ أَزْوٰاجٍ و المقصود من(الأزواج الثمانیه)الذکر و الأنثی لکلّ من الإبل و البقر و الضأن و المعز، و من هنا فإنّ کلمه(زوج)تطلق علی کلّ من الذکر و الأنثی،و لهذا فأنّ عدده یکون ثمانیه أزواج.(و لذا فی بدایه الآیه هذه أطلقت کلمه زوج علی حواء).

و عباره أَنْزَلَ لَکُمْ و التی تخص هنا الأنعام الأربعه-کما بیّنا ذلک من قبل- لا تعنی فقط إنزال الشیء من کان عال،و إنّما فی مثل هذه الحالات تعنی(تدنی المقام)و النعم من مقام أعلی الی أدنی.

کما ذکروا احتمالا آخر فی أن(إنزال)مشتقّه هنا من(نزل)علی وزن(رسل) و تعنی ضیافه الضیف،أو أوّل ما یقدم للضیف،و نظیر هذا المعنی ورد فی الآیه (۱۹۸)من سوره ال عمران بخصوص أهل الجنّه،قال تعالی: خٰالِدِینَ فِیهٰا نُزُلاً مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ .

و قد ذهب بعض المفسّرین الی أنّ الأنعام الأربعه مع أنّها لم تنزل من مکان أعلی إلی الأرض،فأنّ مقدّمات توفیر متطلبات حیاتها و تربیتها و التی هی قطرات المطر و أشعه الشمس هی التی تنزل من الأعلی إلی الأرض.

و ورد تفسیر رابع لهذه العباره هو أنّ کلّ الموجودات کانت من البدایه موجوده فی خزائن علم و قدره الباریء عزّ و جلّ،أی فی علم الغیب،ثمّ انتقلت من الغیب إلی الشهاده أی إلی(الظهور)،و لهذا أطلقوا علی هذا الانتقال عباره (الإنزال)کما ورد ذلک فی الآیه(۲۱)فی سوره الحجر: وَ إِنْ مِنْ شَیْءٍ إِلاّٰ عِنْدَنٰا خَزٰائِنُهُ وَ مٰا نُنَزِّلُهُ إِلاّٰ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (۱) .

۱- ۱) -تفسیر المیزان؛و روح المعانی ذیل آیات البحث.

لكنّ التَّفسير الأوّل أكثر مناسبه من غيره،رغم عدم وجود أى تعارض بين هذه التفاسير،بل من الممكن أن تصب جميعها فى نفس المفهوم و المعنى.

و

ورد عن أمير المؤمنين عليه السّلام حديث فى تفسير هذه الآيه جاء فيه: «إنزاله ذلك خلقه إياه» أى أن إنزال تلك الأزواج الثمانيه من الأنعام يعنى خلقها من قبل اللّه.

ظاهر الحديث يشير إلى التّفسير الأوّل،لأنّ اللّه سبحانه و تعالى هو خالق الخلق،و له المقام الأسمى و الأرفع.

و على أيه حال،فرغم أنّ الأنعام المذكوره قليلا ـ ما يستفاد منها اليوم فى عمليات النقل و حمل الأثقال،لكنّها تقوم بمنافع مهمّه اخرى يزداد و يتسع حجم الاحتياج إليها يوما بعد آخر،لأنّها تغطى اليوم الجانب الأعظم من احتياجات الإنسان الغذائيه كالحليب و اللحوم،إضافه إلى أصوافها و جلودها التى كانت منذ السابق و حتى يومنا هذا تستخدم فى صناعه الألبسه و غيرها من الأمور التى يحتاج إليها الإنسان،حتى أنّ أحد المنابع الماليه المهمّه بيد الدول الكبيره فى العالم يأتى عن طريق تربيه و تكثير هذه الحيوانات.

ثمّ تتطرق الآيات إلى حلقه اخرى من حلقات خلق اللّه،و هى عمليه نمو الجنين إذ تقول الآيه: يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهٰاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمٰاتٍ ثَلاٰثٍ .

يتضح أنّ المقصود من خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ هو الخلق المتكرر و المستمر، و ليس الخلق مرتين فقط.

«يخلقكم»:فعل مضارع يعطى معنى الاستمراريه،و هو هنا بمثابه إشاره قصيره ذات معان عميقه إلى التحولات العجيبه و الصور المختلفه التى تطرأ على الجنين فى مراحل وجوده المختلفه فى بطن الأم.و طبقا لأقوال علماء علم الأجنّه

فإنّ عمليه خلق و نمو الجنين فى بطن الأمّ تعدّ من أعجب و أدقّ صور خلق البارئ عزّ و جلّ، و نادرا ما نلاحظ أنّ المطلعين على دقائق هذه القضايا لا تلهج ألسنتهم بحمد الخالق و ثنائه.

و قوله ظُلُمٰاتٍ ثَلاٰثٍ إشاره إلى ظلمه بطن الأمّ و ظلمه الرحم و ظلمه المشيمه(الكيس الخاص الذى يستقر فيه الجنين)التى هى فى الحقيقه ثلاثه أغلفه سميكه تغطى الجنين.

فالمصورون-الآن-بحاجه إلى ضوء ساطع و نور من أجل التصوير،أمّا خالق الإنسان فيخطط فى تلك الظلمه بشكل عجيب و يصور بشكل يدهش العقول،و يمدّه بأسباب العيش فى مكان لا يمكن لأحد أن يوصل إليه رزقه الذى هو فى أمسّ الحاجه إليه للنمو.

الإمام الحسين عليه السّلام سيد الشهداء يقول فى دعائه المعروف بدعاء عرفه،الذى يعدّ دوره دراسيه كامله و عاليه فى التوحيد،يقول عند استعراضه للنعم التى منّ بها البارى عزّ و جلّ عليه:

«و ابتدعت خلقى من منى يمنى،ثمّ أسكنتنى فى ظلمات ثلاث:بين لحم و جلد و دم لم تشهدنى خلقى،و لم تجعل إلىّ من أمرى ثمّ أخرجتنى إلى الدنيا تامّا سويّا» (۱) .

(ممّا يذكر أنّنا قد تطرقنا إلى عجائب خلق الجنين و مراحل خلقه فى ذيل الآيه(۶)من سوره آل عمران و فى ذيل الآيه(۵)من سوره الحج).

و فى نهايه الآيه،بعد ذكر الحلقات التوحيديه الثلاث الخاصه بخلق الإنسان و الأنعام و مراحل خلق الجنين،يقول البارئ عزّ و جلّ: ذٰلِكُمُ اللّٰهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ فَأَنّٰى تُصْرَفُونَ .

۱- ۱) -دعاء عرفه،مصباح الزائر،ابن طاووس.

فأحيانا يصل الإنسان بعد مشاهدته لهذه الآثار التوحيديه العظيمه إلى مقام الشهود.ثمّ أشار تعالى إلى ذاته القدسيه،حيث يقول: ذٰلِكُمُ اللّٰهُ رَبُّكُمْ حقّا لو كانت هناك عين بصيره فيمكنها أن تراه إنّه وراء هذه الآثار...فعين الجسم ترى الآثار،و عين القلب ترى خالق الآثار.

عبارتي«ربّكم»و«له الملك»تدلان في الحقيقه على حصر الربوبيه بذاته الطاهره المقدسه،و الذي اتضح بصوره جيده في عباره لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ فعند ما يكون هو الخالق و المالك و المربي و الحاكم لكلّ عالم الوجود،فما هو دور غيره في هذا العالم كي يستحق العبوديه؟! و هنا تصرخ الآيه بوجه مجموعه من النائمين و الغافلين قائله: فَأَنّٰى تُصْرَفُونَ أي كيف ضللتم و انحرفتم عن سبيل التوحيد (١) ؟ بعد ذكر هذه النعم الكبره التي منّ بها البارئ عزّ و جلّ على عباده،تتطرق الآيه التاليه إلى مسأله الشكر و الكفر،و تناقش جوانب من هذه المسأله.و في البدايه تقول: إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللّٰهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ اي إن تكفروا أن تشكروا فإنّ نتائجه تعود عليكم،و اللّه غني عنكم في حال كفركم و شكركم.

ثمّ تضيف،إنّ غناه و عدم احتياجه لا يمنعان من أن تشكروا و تتجنبوا الكفر، لأنّ التكليف إنّما هو لطف و نعمه إلهيه،نعم،قال تعالى: وَ لاٰ يَرْضىٰ لِعِبٰادِهِ الْكُفْرَ وَ إِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ (٢) .

و بعد استعراض هاتين النقطتين تستعرض الآيه نقطه ثالثه و هي

١- ١) -نلفت الانتباه إلى أن(أنّى)تأتي أحيانا بمعنى(اين)و أحيانا أخرى بمعنى(كيف).

٢- ٢) -وفق القراءات المشهوره،فإن(يرضه)تقرأ بضم الهاء و بدون إشباع الضمير،لأنّها كانت في الأصل(يرضاه)و قد أسقطت الألف بسبب الجزم و أصبحت(يرضه)و الضمير فيها يعود على الشكر.و رغم أن كلمه(شكر)لم ترد من العباره السابقه بصوره صريحه،إلاّ أن عباره(إن تشكروا)تدل عليها،كما هو الحال بالنسبه إلى الضمير في اِعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوىٰ الذي يعود على العداله.

تحمل شخص مسئولیه أعماله،لأن قضیه التکلیف لا یکتمل معناها بدون هذا الأمر،قال تعالی: وَ لاٰ تَزِرُ وٰازِرَهٌ وِزْرَ أُخْریٰ .

و لأنّه لا معنی للتکلیف إن لم یکن هناک عقاب و ثواب،فالآیه تشیر فی المرحله الرّابعه إلی قضیه المعاد،و تقول: ثُمَّ إِلیٰ رَبِّکُمْ مَرْجِعُکُمْ فَیُنَبِّئُکُمْ بِمٰا کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

و لکون مسأله الحساب و العقاب لا یمکن أن تتمّ ما لم یکن هناک اطلاع و علم کاملین بالأسرار الخفیه للإنسان،تختتم الآیه بالقول: إِنَّهُ عَلِیمٌ بِذٰاتِ الصُّدُورِ .

بهذا الشکل،و من خلال جمل قصار،استعرضت فلسفه التکلیف و خصوصیاته و مسئولیه الإنسان و مسأله العقاب و الجزاء و الثواب.و هذه الآیه جواب قاطع لمن یتولی المذهب الجبری،الذی انتشر-ممّا یؤسف له-فی صفوف بعض الطوائف الإسلامیه،لأنّ الآیات الکریمه تقول و بصراحه: وَ لاٰ یَرْضیٰ لِعِبٰادِهِ الْکُفْرَ .

و هذا دلیل واضح علی أن إراده الکفر لم تفرض علی الکافرین(کما یقول بذلک أتباع المذهب الجبری)لأنّ من البدیهی أنّ من لا یرتضی شیئا لا یأتی به، فهل یمکن أنّ تکون إراده اللّه منفصله عن رضاه؟متعصبو المذهب الجبری یثیرون العجب عند ما یعمدون إلی ستر هذه العباره الواضحه من خلال حصر کلمه (العباد)بالمؤمنین أو المعصومین،فی حین أنّها کلمه ذات معنی مطلق و تشمل بصوره واضحه کلّ العباد،نعم،فالباری،عزّ و جلّ لا یرتضی الکفر لأحد من عباده،مثلما یرتضی الشکر لکلّ عباده من دون أی استثناء (۱) .

۱- ۱) -هناک بحث مفصل فی ذیل الآیه(۵)من سوره إبراهیم-عن أهمیه و فلسفه الشکر و عن مفهومها الحقیقی و أبعادها.

و هـذه النقطه تلفت الانتبـاه،و هى أنّ أسـاس تحمّل كلّ إنسان لمسؤوليه أعماله يعـدّ من الأسـس المنطقيه و المسـلم بها فى كلّ الأديان السماويه (۱) .

و بـالطبع يمكن أحيانـا أن يكون الإنسـان مشتركـا فى ذنوب الآـخرين،و ذلك عنـد ما يكون مضـطلعا أو مساهما مع آخرين فى تهيئه مقـدمات أو أسـس ذلك العمل،كالـذين يبتدعون البدع أو السـنن الضاله،فى هذه الحاله تكون ذنوب أى شـخص يرتكب تلك المحرمات فى ذمه مسببها الرئيسى دون أن تقل ذنوب ذلك الشخص الذى ارتكب الذنب (۲) .

۱- ۱) -بهذا الخصوص هناك بحث فى ذيل الآيه(۱۵)من سوره الإسراء.

۲- ۲) -هناك بحث بهذا الشأن فى ذيل الآيه(۱۴)من سوره الأنعام.

الآيتان [سوره الزمر (٣٩): الآيات ٨ الى ٩]

اشاره

وَ إِذا مَسَّ اَلْإِنْسانَ ضُرٌّ دَعا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِیَ ما کانَ یَدْعُوا إِلَیْهِ مِنْ قَبْلُ وَ جَعَلَ لِلّهِ أَنْداداً لِیُضِلَّ عَنْ سَبِیلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِکُفْرِکَ قَلِیلاً إِنَّکَ مِنْ أَصْحابِ اَلنّارِ (٨) أَمَّنْ هُوَ قانِتٌ آناءَ اَللَّیْلِ ساجِداً وَ قائِماً یَحْذَرُ اَلْآخِرَةَ وَ یَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ یَسْتَوِی اَلَّذِینَ یَعْلَمُونَ وَ اَلَّذِینَ لا یَعْلَمُونَ إِنَّما یَتَذَکَّرُ أُولُوا اَلْأَلْبابِ (٩)

التّفسير

اشاره

هل العلماء و الجهله متساوون؟

الآيات السابقه تحدث بالأدله و البراهين عن توحيد و معرفه البارئ عزّ و جلّ،و ذلك من خلال عرض بعض الظواهر العظيمه له فى الآفاق و الأنفس، أما آيات بحثنا فتتحدث فى البدايه عن التوحيد الفطرى و توضح أن ما يدركه الإنسان عن طريق العقل أو الفهم أو المطالعه فى شؤون الخلق موجود بصوره فطريه فى أعماقه،و أنّه يظهر أثناء المشاكل و أعاصير الحوادث التى تعصف به، و لكن هذا الإنسان الكثير النسيان يبتلى مرّه اخرى بالغفله و الغرور فور ما تهدأ

العواصف و المشاكل و تقول الآيه الكريمه: وَ إِذٰا مَسَّ الْإِنْسٰانَ ضُرٌّ دَعٰا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ و نادما من ذنوبه و غفلته.

و عند ما يمنّ اللّه على الإنسان بالنعم ينسى المشاكل و الابتلاءات السابقه التى دعا اللّه عزّ و جلّ من أجل كشفها عنه،قال تعالى: ثُمَّ إِذٰا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مٰا كٰانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ (1) .

إذ يجعل للّه أندادا و شركاء و يعمد إلى عبادتها،و لا يكتفى بعبادتها بل يعمد- أيضا-لإضلال و حرف الناس عن سبيل اللّه: وَ جَعَلَ لِلّٰهِ أَنْدٰاداً لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ .

المقصود هنا من(الإنسان)هم الناس العاديون الذين لم يتربّوا فى ظل إشعاعات أنوار تعاليم الأنبياء،و لا يشمل هذا الكلام المؤمنين الذين يذكرون اللّه فى السراء و الضراء و يطلبون العون من لطفه دائما.

المراد من(ضر)هنا كلّ أذى أو محنه أو ضرر يصيب الجسم أو الروح.

«خولناه»:من ماده(خول)على وزن(عمل)و تعنى المراقبه المستمره لشىء ما،المراقبه و التوجّه الخاص يستلزم العطاء و البذل،فقد استخدمت هنا بمعنى الهبه.

و قال البعض:إنّ(خول)على وزن(عمل)و تعنى الخادم،و لهذا فإنّ كلمه «خوله»تعنى الخادم الذين وهب لصاحبه،ثمّ استعملت فى كافه أشكال هبه النعم بالتخويل.

و البعض الآخر قال:إنّها تعنى الفخر و التباهى،و لهذا فإنّ العباره المذكوره

1- 1) -هناك اختلاف بين المفسّرين حول المعنى الذى تعطيه(ما)فى عباره: نَسِيَ مٰا كٰانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ البعض يعتقد أن(ما) موصوله تشير إلى(ضر)و لكون هذا المعنى هو الأنسب،فقد قدم على المعانى الأخرى،و قال البعض أيضا:إن(ما)موصوله و المراد منها هو اللّه سبحانه و تعالى:و مجموعه أخرى قالت:إن(ما)مصدريه و تعنى الدعاء،و إمعان النظر فى الآيه(12)من سوره يونس: وَ إِذٰا مَسَّ الْإِنْسٰانَ الضُّرُّ دَعٰانٰا لِجَنْبِهِ أَوْ قٰاعِداً أَوْ قٰائِماً فَلَمّٰا كَشَفْنٰا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنٰا إِلىٰ ضُرٍّ مَسَّهُ يبيّن أن هذه الآيه شاهد على صحه المعنى الأوّل.

أعلاه تعنى حصول الإنسان على الفخر عن طريق منحه و هبته النعم (۱) .

و يصوره عامه فإنّ هذه الجمله تعكس إضافه إلى العطاء و الهبه،اهتمام البارئ عزّ و جلّ الخاصّ بعبده.

عباره مُنِيباً إِلَيْهِ تبيّن أنّ الإنسان فى الحالات الصعبه يضع كافّه ستائر غروره و غفلته جانبا،و يترك وراءه كلّ ما كان يعبده أو يتمسك به من دون اللّه، و يعود إلى البارى،عزّ و جلّ،و يستشفّ من مفهوم(الإنابه)هذه الحقيقه و هى أن مبدأ الإنسان و مقصده و غايته هو اللّه تعالى.

«أندادا»:جمع(ند)على وزن(ضد)و تعنى الشبيه و المثيل،مع وجود بعض الاختلاف و هو أنّ(مثل)لها مفهوم واسع،و لكن(ند)لها معنى واحد،و هو المماثله فى الذات و الجوهر.

عباره(جعل)تبيّن أن تصورات و خيالات الإنسان تصنع مثيلا و شبيها للّه، الأمر الذى لا يمكن أن ينطبق مع الواقع.

و عباره لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ تبيّن أن الضالين المغرورين لا يقتنعون بإضلال أنفسهم،و إنّما يعمدون لجر الآخرين إلى وادى الضلال.

و على أيه حال،فإنّ آيات القرآن المجيد أشارت-مرّات عديده-إلى العلاقه الموجوده بين(التوحيد الفطرى)و(الحوادث الصعبه فى الحياه)كما عكست اضطراب الإنسان المغرور الذى يلجأ إلى اللّه و يوحده بإخلاص فور ما تعصف به العواصف و الأعاصير،و كيف أنّه ينسى اللّه و يعود إلى غروره و لجاجته فور هدوء العاصفه ليسير من جديد فى طريق الشرك و الضلال.

و ما أكثر أمثال هؤلاء الأشخاص المتلونون،و ما أقل من ينقلب و يتغير عند ما يمنّ البارئ عزّ و جلّ عليه بالنصر و النعم و الاستقرار.

نعم،فأبسط نسمه هواء تمرّ على حوض ماء تجعل مياه مضطربه،أمّا المحيط

۱- ۱) -يراجع(لسان العرب)و(مفردات الراغب)و تفسير(روح المعانى).

الهادی فإنّه لا یتأثر أبدا بأشدّ الأعاصیر و لذا سمّی المحیط الهادی.

نهایه الآیه تخاطب مثل أولئک الأشخاص بلغه ملؤها التهدید الصریح و الحازم و القاطع: قُلْ تَمَتَّعْ بِکُفْرِکَ قَلِیلاً إِنَّکَ مِنْ أَصْحابِ النّارِ .

فهل یمکن أن یکون لإنسان کهذا مصیر أفضل من هذا؟! الآیه التالیه استخدمت أسلوب المقارنه،الأسلوب الذی طالما استخدمه القرآن المجید لإفهام الآخرین القضایا المختلفه،حیث تقول:هل أن مثل هذا الشخص انسان لائق و ذو قیمه: أَمَّنْ هُوَ قانِتٌ آناءَ اللَّیْلِ ساجِداً وَ قائِماً یَحْذَرُ الْآخِرَهَ وَ یَرْجُوا رَحْمَهَ رَبِّهِ (۱) .

أین ذلک الإنسان المشرک و الغافل و المتلون و الضالّ و المضلّ من هذا الإنسان ذو القلب الیقظ الطاهر الساطع بالنور،الذی یسجد للّه فی جوف اللیل و الناس نیام،و یدعو ربّه خائفا راجیا؟! فهؤلاء فی حال النعمه لا یدعون أنفسهم فی مأمن من العقاب و العذاب،و فی حال البلاء لا ییأسون من رحمته،و هذان العاملان یرافقان وجودهم أثناء حرکتهم المستمره بحذر و احتیاط نحو معشوقهم.

«قانت»من ماده«قنوت»بمعنی ملازمه الطاعه المقرونه بالخشوع و الخضوع.

«آناء»هی جمع(انا)-علی وزن کذا-و تعنی ساعه أو مقدارا من الوقت.

التأکید هنا علی ساعات اللیل،لأنّ تلک الساعات یحضر فیها القلب أکثر، و تقلّ نسبه تلوثه بالریاء أکثر من أیّ وقت آخر.

قدمت الآیه السجود علی القیام،و ذلک لکون السجود من أعلی درجات العباده،و إطلاق الرحمه و عدم تقییدها بالآخره دلیل علی سعه الرحمه الإلهیه التی تشمل الحیاه الدنیا و الآخره.

۱- ۱) -فی هذه العباره شق محذوف،و التقدیر(أ هذا الذی ذکرنا خیر أمن هو قانت آناء اللیل).

و فی حدیث ورد فی کتاب«علل الشرائع»و فی کتاب«الکافی»نقلا عن الإمام الباقر علیه السّلام،إنّه فسّر هذه الآیه: أَمَّنْ هُوَ قٰانِتٌ آنٰاءَ اللَّیْلِ بأنّها صلاه اللیل (۱) .

من الواضح أن هذا التّفسیر یشبه الکثیر من التفاسیر الأخری التی بیّنت فی ذیل آیات مختلفه فی القرآن الکریم من قبیل ذکر مصادیقها الواضحه،و لا ینحصر مفهوم الآیه بصلاه اللیل.

و تتمه الآیه تخاطب الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بالقول: قُلْ هَلْ یَسْتَوِی الَّذِینَ یَعْلَمُونَ وَ الَّذِینَ لاٰ یَعْلَمُونَ .

کلا،إنّهم غیر متساوین: إِنَّمٰا یَتَذَکَّرُ أُولُوا الْأَلْبٰابِ .

لا شک فی أن السؤال المذکور أعلاه سؤال شامل،و أنّه یقارن ما بین الذین یعلمون و الذین لا یعلمون،أی بین العلماء و الجهله،لأنّه قبل طرح هذا السؤال، کان هناک سؤال آخر قد طرح،و هو:هل یستوی المشرکون و المؤمنون الذین یحیون اللیل بالعباده،فالسؤال الثّانی یشیر أکثر إلی هذه المسأله و هو:هل أن الذین یعلمون بأن المشرکین المعاندین لا یتساوون مع المؤمنین الطاهرین، یتساوون مع الذین لا یعلمون بهذه الحقیقه الواضحه؟ و علی أیه حال فهذه العباره التی تبدأ باستفهام استنکاری،توضح أحد شعارات الإسلام الأساسیه و هو سمو و علو منزله العلم و العلماء فی مقابل الجهل و الجهله.و لأنّ عدم التساوی-هذا-ذکر بصوره مطلقه،فمن البدیهی أن تکون هاتان المجموعتان غیر متساویتین عند الباریء،عزّ و جلّ،و غیر متساویین فی وجهه نظر العقلاء،و لا یقفون فی صفّ واحد من الدنیا، و لا فی الآخره و أنّهم مختلفون ظاهرا و باطنا.

۱- ۱) -علل الشرائع،و الکافی نقلا عن نور الثقلین،المجلد ۴،الصفحه ۴۷۹.

ملاحظه

تتضمّن هاتان الآيتان إشارات لطيفه إلى نقاط مهمّه:

۱-فی الآیه الأولی،ذکرت فلسفه الحوادث المرّه و الصعبه،و انشکاف ستائر الغرور و الغفله عن عین القلب،و صیروره شعاع الإیمان شعله وهّاجه،و العوده و الإنابه إلی للّه سبحانه و تعالی،و أجابت الآیه فی نفس الوقت أولئك الذین یتصورون أنّ وجود مثل تلك الحوادث الصعبه فی الحیاه إنّما هی نقص فی مسأله نظام الخلق و فی عداله الباریٔ عزّ و جلّ.

۲-الآیه الثّانیه تبدأ بالدعوه إلی العمل و بناء الذات و تنتهی بالعلم و المعرفه، لأنّ من لم یبن ذاته،لا تشع أنوار المعرفه من قلبه،حیث لا یمکن أصلا فصل العلم عن بناء الذات.

۳-قوله تعالی: قانِتٌ آناءَ اللَّیْلِ وردت هنا بصیغه اسم فاعل،و کلمه (اللیل)جاءت مطلقه لتشیر إلی استمرار عبودیه و خضوع أولئک للّه سبحانه،لأنّ العمل إذا لم یستمر فیکون ضعیف جدّا.

۴-إنّ العلم الاضطراری المتولّد من نزول البلاء و الذی یربط الإنسان بخالقه،لا یکون مصداقا حقیقیا للعلم الاّ إذا استمر إلی ما بعد هدوء العاصفه.لذا فإنّ الآیات المذکوره أعلاه تجعل الإنسان الذی یستیقظ حال نزول البلاء و یعود إلی غفلته عند زواله تجعله فی عداد الجهله.إذن فإنّ العلماء الحقیقیین هم المتوجهون إلیه تعالی فی کلّ الحالات.

۵-ممّا یلفت الانتباه أنّ نهایه الآیه الأخیره تقول:إنّ الفرق بین الجاهل و العالم لا یدرکه سوی أولی الألباب!لأنّ الجاهل لا یدرک قیمه العلم!و فی الحقیقه إنّ کلّ مرحله من مراحل العلم هی مقدمه لمرحله أخری.

۶-العلم فی هذه الآیه و بقیه الآیات لا یعنی معرفه مجموعه من المصطلحات،أو العلاقه المادیه بین الأشیاء،و إنّما یقصد به المعرفه الخاصه التی

تدعو الإنسان إلى(القنوت)أى إلى طاعه البارئ عزّ و جلّ و الخوف من محكمته و عدم اليأس من رحمته،هذه هى حقيقه العلم،و إن كانت العلوم الدنيويه تؤدى إلى ما ذكرناه آنفا،فهى علم أيضا.و إلاّ فهى سبب الغفله و الظلم و الغرور و الفساد فى الأرض،و لا يحصل منها سوى«القيل و القال»و ليس«الكيفيه و الحال».

٧-على عكس ما يعتقد به الجهله الذين يعدّون الذين مخدرا(أفيونا)،فإنّ أهم ما يدعوا إليه الأنبياء هو طلب بالعلم و المعرفه،و قد أعلنوا عداءهم للجهل أينما كان،و إضافه إلى أنّ القرآن الحكيم استغل الكثير من المناسبات كى يوضح هذا الأمر،كما وردت فى الروايات الإسلاميه أحاديث تصور عدم وجود شيء أفضل من العلم.

فقد ورد فى حديث عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «لا خير فى العيش إلاّ لرجلين:عالم مطاع،أو مستمع واع» (١) .

كما

ورد حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام،جاء فيه: «إنّ العلماء ورثه الأنبياء و ذاك أنّ الأنبياء لم يورثوا درهما و لا دينارا،و إنّما أورثوا أحاديث من أحاديثهم،فمن أخذ بشيء منها فقد أخذ حظا وافرا،فانظروا علمكم هذا عمن تأخذونه فإن فينا أهل البيت فى كلّ خلف عدولا ينفون عنه تحريف الغالين و انتحال المبطلين و تأويل الجاهلين» (٢) .

٨-الآيه الأخيره تتحدث عن ثلاث مجموعات،هم العلماء و الجهله و أولو الألباب،و

قد شخصهم الإمام الصادق عليه السّلام فى حديث له،عند ما قال: «نحن الذين يعلمون،و عدوّنا الذين لا يعلمون،و شيعتنا أولوا الألباب» (٣) .

-٩

ورد فى الحديث خرج أمير المؤمنين عليه السّلام ذات ليله من مسجد الكوفه

١- ١) -الكافى،المجلد الأوّل،باب صفه العلم و فضله الحديث(٧).

٢- ٢) -الكافى،المجلد الأوّل،باب صفه العلم و فضله الحديث(٢).

٣- ٣) -تفسير مجمع البيان ذيل آيات البحث.

متوجّها إلی داره و قد مضی ربع من اللّیل و معه کمیل بن زیاد رحمه اللّه و کان من خیار شیعته و محبّیه فوصل فی الطّریق إلی باب رجل یتلو القرآن فی ذلک الوقت و یقرأ قوله تعالی أَمَّنْ هُوَ قانِتٌ آناءَ اللَّیْلِ ...الآیه بصوت شجی حزین فاستحسن کمیل ذلک فی باطنه و أعجبه حال الرّجل من غیر أن یقول شیئا،فالتفت صلوات اللّه علیه إلیه و قال:یا کمیل لا یعجبک طنطنه الرّجل إنّه من أهل النّار سأنبئک بعد، فیما یصدر فتحیّر کمیل مکاشفه له علی ما فی باطنه و لشهادته بدخول النّار مع کونه فی هذا الأمر و تلک الحاله الحسنه و مضی مدّه متطاوله إلی أن ال حال الخوارج إلی ما ال و قاتلهم أمیر المؤمنین علیه السّلام و کانوا یحفظون القرآن کما أنزل، فالتفت أمیر المؤمنین علیه السّلام إلی کمیل و هو واقف بین یدیه و السیف فی یده یقطر دما و رؤوس أولئک الکفره الفجره مجلقه علی الأرض فوضع رأس السیف علی رأس من تلک الرؤوس و قال:یا کمیل أمّن هو قانت...الآیه أی هو ذلک الشخص الذی کان یقرأ القرآن فی تلک اللیله فأعجبک حاله فبّل کمیل قدمیه علیه السّلام و استغفر اللّه (۱) .

۱- ۱) -سفینه البحار،المجلد الثّانی،الصفحه ۴۹۶ أحوال کمیل.

الآیات [سوره الزمر (۳۹): الآیات ۱۰ الی ۱۶]

اشاره

قُلْ یا عِبادِ اَلَّذِینَ آمَنُوا اِتَّقُوا رَبَّکُمْ لِلَّذِینَ أَحْسَنُوا فِی هٰذِهِ اَلدُّنْیا حَسَنَهٌ وَ أَرْضُ اَللّٰهِ واسِعَهٌ إِنَّما یُوَفَّی اَلصّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَیْرِ حِسابٍ (۱۰) قُلْ إِنِّی أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اَللّٰهَ مُخْلِصاً لَهُ اَلدِّینَ (۱۱) وَ أُمِرْتُ لِأَنْ أَکُونَ أَوَّلَ اَلْمُسْلِمِینَ (۱۲) قُلْ إِنِّی أَخافُ إِنْ عَصَیْتُ رَبِّی عَذابَ یَوْمٍ عَظِیمٍ (۱۳) قُلِ اَللّٰهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِینِی (۱۴) فَاعْبُدُوا ما شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ اَلْخاسِرِینَ اَلَّذِینَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ أَهْلِیهِمْ یَوْمَ اَلْقِیامَهِ أَلاٰ ذٰلِکَ هُوَ اَلْخُسْرانُ اَلْمُبِینُ (۱۵) لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ اَلنّارِ وَ مِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذٰلِکَ یُخَوِّفُ اَللّٰهُ بِهِ عِبادَهُ یا عِبادِ فَاتَّقُونِ (۱۶)

التّفسیر

اشاره

الخطوط الرئیسه لمناهج العباد المخلصین:

تتمه لما جاء فی بحث الآیات السابقه التی قارنت بین المشرکین المغرورین و المؤمنین المطیعین للّه،و بین العلماء و الجهله،فإنّ آیات بحثنا هذا تبحث

ص:۳۸

الخطوط الرئیسیه لمناهج عباد اللّه الحقیقیین المخلصین و ذلک ضمن سبعه مناهج وردت فی عدّه آیات تبدأ بکلمه(قل).

الآیه الأولی تحثّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم علی التقوی: قُلْ یٰا عِبٰادِ الَّذِینَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّکُمْ (۱) .

نعم،فالتقوی هی الحاجز الـذی یصدّ الإنسان عن الذنوب،و تجعله یحسّ بالمسؤولیه و بتکالیفه أمام الباریء،عزّ و جلّ،هی المنهج الأوّل لعباد اللّه المؤمنین و المخلصین،فالتقوی هی الـدرع الـذی یقی الإنسان من النّار،و العامل الرئیسی الـذی یردعه عن الانحراف،فالتقوی هی ذخیرته الکبیره فی سوق القیامه،و هی میزان شخصیه و کرامه الإنسان عند الباریء عزّ و جلّ.

المنهج الثّانی یختص بالإنسان و العمل الصالح فی هذه الـدنیا التی هی دار العمل،و قد شجعت الآیه الناس و حثتهم علی عمل الإحسان،من خلال بیان نتیجه ذلک العمل: لِلَّذِینَ أَحْسَنُوا فِی هٰذِهِ الدُّنْیٰا حَسَنَهٌ (۲) .

نعم فالإحسان بصوره مطلقه فی هذه الدنیا-سواء کان فی الحدیث،أو فی العمل،أو فی نوع التفکر و التفکیر بالأصدقاء و الغرباء-یؤدّی إلی نیل ثواب عظیم فی الدنیا و الآخره،لأنّ جزاء الإحسان هو الإحسان.

و فی الواقع فإنّ التقوی عامل ردع،و الإحسان عامل صلاح،و کلاهما یشمل (ترک الذنب)و(أداء الفرائض و المستحبات).

المنهج الثّالث یدعو إلی الهجره من مواطن الشرک و الکفر الملوثه بالذنوب، قال تعالی: وَ أَرْضُ اللّٰهِ وٰاسِعَهٌ .

ص:۳۹

۱- ۱) -من البدیهی أنّ الخطاب بعباره«یا عبادی»هو من اللّه،و إن کان المخاطب هو رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فالمقصود هنا أن أبلغهم خطابی.

۲- ۲) -أغلب المفسّرین اعتبروا عباره(فی هذه الدنیا)تعود علی عباره(أحسنوا)،و استنادا لهذا فإن«حسنه»مطلقه تشمل کل حسنه فی الدنیا و الآخره،و مع انتباه إلی أن استعمال التنوین فی مثل هذه الموارد إنّما هو لإعطاء الکلمه طابع التفخیم و العظمه، فإنه یفید بیان عظمه الثواب.

هذه الآیه-فی الحقیقه-ردّ علی ذوی الإراده الضعیفه و المتذرعین بمختلف الذرائع الذین یقولون: إنّنا عاجزون عن أداء الأحکام الإلهیه لأنّنا فی أرض مکّه التی یحکمها المشرکون،و القرآن یردّ علیهم بأن أرض اللّه لا تقتصر علی مکّه،فإن لم تتمکنوا من أداء فرائضکم فی مکّه فالمدینه موجوده،بل إن الأرض کلها للّه،هاجروا من المواطن الملوثه بالشرک و الکفر و الظلم التی لا یمکنکم فیها أداء الأحکام الإلهیه بحریه إلی آخر.

مسأله الهجره هی إحدی أهم المسائل التی لم تلعب دورا أساسیا فی صدر الإسلام بانتصار الحکومه الإسلامیه فحسب،بل إنّ لها أهمیه فی کلّ زمان،لأنّها من جهه تمنع مجموعه من المؤمنین أن یستسلموا لضغط و کبت محیطهم،و من جهه اخری تکون عاملان مساعدا لتصدیر الإسلام إلی نقاط مختلفه فی أنحاء العالم.

و القرآن المجید یقول: إِنَّ الَّذِینَ تَوَفّاهُمُ الْمَلائِکَهُ ظالِمِی أَنْفُسِهِمْ قالُوا فِیمَ کُنْتُمْ قالُوا کُنّا مُسْتَضْعَفِینَ فِی الْأَرْضِ قالُوا أَ لَمْ تَکُنْ أَرْضُ اللّهِ واسِعَهً فَتُهاجِرُوا فِیها فَأُولئِکَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ ساءَتْ مَصِیراً (۱) .

و هذا یوضح-بصوره جیده-أنّ المؤمن الذی تحیط به الضغوط و الکبت، و یستطیع أن یهاجر فی سبیل اللّه علیه أن یهاجر،و إلاّ فإنّه غیر معذور أمام اللّه.

(بشأن أهمیه الهجره فی الإسلام و أبعادها المختلفه کانت لنا بحوث مختلفه و مفصله فی ذیل الآیه(۱۰۰)من سوره النساء،و فی ذیل الآیه(۷۲)من سوره الأنفال).

و لأنّ الهجره ترافقها بصوره طبیعیه مشکلات کثیره فی مختلف جوانب الحیاه،فالمنهج الرابع إذن یتعلق بالصبر و الاستقامه،قال تعالی:

ص: ۴۰

۱- ۱) -النساء،۹۷.

إِنَّمٰا يُوَفَّى الصّٰابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسٰابٍ

(۱)

.

و عباره(يوفى)مشتقّه من(وفى)و تعنى إعطاؤه حقّه تاما كاملا.و عباره (بغير حساب)تبيّن أن للصابرين أفضل الأجر و الثواب عند اللّه،و لا يوجد عمل آخر يبلغ ثوابه حجم ثواب الصبر و الاستقامه.

و الشاهد على هذا القول ما

جاء فى الحديث المعروف الذى رواه الإمام الصادق عليه السّلام عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الذى جاء فيه:«إذا نشرت الدواوين و نصبت الموازين لم ينصب لأهل البلاء ميزان،و لم ينشر لهم ديوان،ثمّ تلا هذه الآيه:

إِنَّمٰا يُوَفَّى الصّٰابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسٰابٍ

(۲)

.

و البعض يعتقد أنّ هذه الآيه تخصّ الهجره الأولى للمسلمين،أى هجره مجموعه كبيره من المسلمين إلى أرض الحبشه تحت قياده جعفر بن أبى طالب عليه السّلام،و كما قلنا مرارا رغم أنّ أسباب النّزول توضيح مفهوم الآيه،إلاّ أنّها لا تحددها.

أمّا المنهج الخامس فقد ورد فيه أمر الإخلاص و التوحيد الخالى من شوائب الشرك،و هنا تتغير لهجه الكلام بعض الشيء،و يتحدث الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عن وظائفه و مسئولياته،إذ يقول: قُلْ إِنِّى أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللّٰهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ

.

ثم يضيف: وَ أُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ .و هذا هو المنهج السادس الذى يعترف بأنّ النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هو أول الناس إسلاما و تسليما لأوامر البارئ عزّ و جلّ.

أمّا المنهج السابع و الأخير فيتناول مسأله الخوف من عقاب البارئ عزّ و جلّ يوم القيامه،قال تعالى: قُلْ إِنِّى أَخٰافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذٰابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ .

۱- ۱) -«بغير حساب»من الممكن أن تكون متعلقه ب(يوفى)،أو أنها(حال)ل(أجرهم)لكن الاحتمال الأول أنسب.

۲- ۲) -تفسير مجمع البيان ذيل آيات البحث،و نفس المعنى مع اختلاف بسيط ورد فى تفسير القرطبى نقلا عن الإمام الحسين

بن علی علیهما السلام عن جده رسول الله صلی الله علیه و آله و سلم.

التأمل فی هذه الآیات یکشف بوضوح عن أنّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم هو عبد من عباد اللّه،و هو مکلف أیضا بعباده اللّه بإخلاص،لأنّه-هو أیضا-یخاف العذاب الإلهی،و هو مکلّف بإطاعه الأوامر الإلهیه،کما أنّه مکلّف بتکالیف و واجبات أثقل و أعظم من تکالیف الآخرین،و لذا یجب أن یکون أفضل و أسمی من الآخرین.

إنّه لم یدّع الألوهیه أبدأ،و لم یخط خطوه واحده خارج مسیر العبودیه،بل إنّه یفتخر و یتباهی بهذا المقام،و لهذا السبب کان قدوه و أسوه،و هو(صلّی اللّه علیه و آله و سلّم)لم یفضّل نفسه علی الآخرین،و هذا دلیل علی عظمته و أحقّیته،فهو لیس کالمدّعین الکذّابین الذین کانوا یدعون الناس إلی عبادتهم،و یعتبرون أنفسهم أرقی من البشر،و أنّهم من معدن ثمین أفضل من الناس،و أحیانا یدعون أتباعهم إلی التبرع سنویا بالذهب و الجواهر بقدر وزنهم.

إنّه یقول:إنّی لست مثل السلاطین المتجبرین علی رقاب الناس الذین یکلفون الناس ببعض التکالیف و یعتبرون أنفسهم«فوق تلک التکالیف»و هذا فی الواقع إشاره إلی موضوع تربوی هامّ،و هو أنّ کلّ إنسان-مربیا کان أم قائدا- علیه أن یکون السباق فی تنفیذ من أجلها ما یملیه علیه نهجه،فیجب أن یکون أوّل مؤمن بشریعته أو سنته و أکثر الساعین و المضحین کی یؤمن الناس بصدقه، و یتخذونه أسوه و قدوه لهم فی کلّ الأمور.و من هنا یتضح أن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لم یکن أوّل مسلم من حیث الزمان و حسب،و إنّما کان أوّل إسلاما من کلّ النواحی، من ناحیه الإیمان و الإخلاص،و العمل،و التضحیه،و الجهاد،و الصمود، و المقاومه،و تأریخ حیاه الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یؤید هذه الحقیقه بصوره جیده.

بعد استعراض المناهج السبعه المذکوره فی الآیات أعلاه(التقوی، الإحسان،الهجره،الصبر،الإخلاص،التسلیم،الخوف).

و لکون مسأله الإخلاص لها میزات خاصه فی مقابل العلل المختلفه للشرک،

تعود الآيات لتؤكّد عليها مرّه أخرى،إذ تقول و بنفس اللهجه السابقه: قُلِ اللّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِی (۱) .

أما أنتم فاعبدوا ما شئتم من دون اللّه: فَاعْبُدُوا مٰا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ .

ثمّ تضیف: قُلْ إِنَّ الْخٰاسِرِینَ الَّذِینَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ أَهْلِیهِمْ یَوْمَ الْقِیٰامَهِ .

أی إنّهم لم یستثمروا طاقاتهم و عمرهم،و لا من عوائلهم و أولادهم لإنقاذهم،و لا لإعاده ماء الوجه المراق إلیهم،و هذا هو الخسران العظیم: أَلاٰ ذٰلِکَ هُوَ الْخُسْرٰانُ الْمُبِینُ .

الآیه الأخیره فی بحثنا هذا تصف إحدی صور الخسران المبین،إذ تقول: لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النّٰارِ وَ مِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ .

و بهذا الشکل فإنّ أعمده النیران تحیط بهم من کلّ جانب،فهل هناک أعظم من هذا؟و هل هناک عذاب أشدّ من هذا؟ «ظلل»جمع(ظلّه)علی وزن«سنّه»و تعنی الستر الذی ینصب فی الجهه العلیا.و طبقا لهذا فإنّ إطلاق هذه الکلمه علی ما یفرش تحت اهل النّار اطلاق مجازی و من باب التوسع فی معنی الکلمه.

بعض المفسّرین قالوا:بما أنّ أصحاب النّار یتقلبون بین طبقات جهنم،فإنّ ستائر النّار محیط بهم من فوق رؤوسهم و من تحت أرجلهم. و الآیه(۵۵)من سوره العنکبوت تشبه هذه الآیه: یَوْمَ یَغْشٰاهُمُ الْعَذٰابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَ یَقُولُ ذُوقُوا مٰا کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

هذا فی الحقیقه تجسید لأحوالهم و أوضاعهم فی هذه الدنیا،إذ أن الجهل و الکفر و الظلم محیط بکلّ وجودهم،و مستحوذ علیهم من کلّ جانب،ثمّ تضیف الآیه مؤکّده و واعظه إیاهم: ذٰلِکَ یُخَوِّفُ اللّٰهُ بِهِ عِبٰادَهُ یٰا عِبٰادِ فَاتَّقُونِ .

إضافه کلمه(العباد)إلی لفظ الجلاله فی هذه الآیه،و لعدّه مرّات اشاره إلی أنّ

۱- ۱) -تقدیم(اسم الجلاله)و الذی هو مفعول(اعبد)یفید الحصر هنا،و قوله(مخلصا له دینی)التی هی حال یؤکّد معنی الحصر.

تهدیـد الباریٔ عزّ و جلّ لعباده بالعـذاب إنّما هو لطف و رحمه منه،و ذلک کی لا یبتلی عباده بمثل هـذا المصـیر المشؤوم،و من هنا یتضح أنّه لا حاجه لتفسیر کلمه(العباد)هنا علی أنّها تخصّ المؤمنین،فهی تشمل الجمیع،کی لا یأمن أحد من العذاب الإلهی.

ملاحظات

اشاره

۱-حقیقه الخسران!

یری الراغب فی مفرداته أنّ الخسـران یعنی ذهـاب رأس المال کلّه أو بعضه، و أحیانا تنسب إلی الإنسان،عنـد ما یقال:(الشـخص الفلانی خسر)و أحیانا تنسب إلی العمل عند ما یقولون:(خسرت تجارته).

و تسـتخدم کلمه(خسـران)أحیانا فی حاله فقدان الثروه الظاهریه،کالمال و الجاه،الدنیوی،و أحیانا أخری تستخدم فی حاله فقدان ثروه معنویه کالصـحه و السـلامه و العقل و الإیمان و الثواب،و هذا هو الشیء الذی سمّاه الباریٔ عزّ و جلّ (الخسران المبین)فکلّ خسـران ذکره البـاریٔ عزّ و جـلّ فی القرآن الکریم إنّمـا یشـیر إلی المعنی الثّـانی و لیس إلی الخسـران الخـاص بثروات الـدنیا و تجارتها (۱) .

و قـد شـبّه القرآن الإنسان بتجاره الأثریاء الـذین یدخلون أسواق التجاره العالمیه برؤوس أموال کبیره،فالبعض منهم یجنی أرباحا کبیره،و البعض الآخر یخسر خساره فادحه.

آیات کثیره فی القرآن المجیـد تطرقت إلی مثل هـذا التعبیر و التشبیه،حیث توضح الحقیقه التالیه:إنّ النجاه من العذاب الإلهی لا تتحقق بالجلوس و انتظار

۱- ۱) -مفردات الراغب ماده(خسر).

هذا و ذاک،و إن السبیل الوحید للنجاه هو الاستفاده من الثروه،و بذل الجهود و المساعی فی هذه التجاره الکبیره،لأنّ کلّ شیء یعطی بثمن،و لا یعطی بالمعاذیر! و قد یتساءل البعض:ما هی أسباب وصف خساره المشرکین و المذنبین بالخسران المبین؟ الجواب هو:

أوّلا:لأنّهم باعوا أفضل ثروه لدیهم-أی العمر و العقل و الإدراک و العواطف الانسانیه-بدون مقابل.

ثانیا:لو أنّهم باعوا تلک الثروه من دون أن یشتروا العذاب و العقاب لکان أمرا هینا بعض الشیء،لکنّ الأمر لم یکن کذلک إذ أنّهم بخسرانهم لتلک الثروه العظیمه هیأوا لأنفسهم عذابا ألیما و عظیما.

ثالثا:إنّ هذه الخساره التی لا یمکن أن تعوّض بأیّ ثمن، و هذه هی (الخسران المبین).

۲-ما هو المراد من الآیه: فَاعْبُدُوا مٰا شِئْتُمْ

عباره فَاعْبُدُوا مٰا شِئْتُمْ جاءت بصیغه أمر تهدیدی،و هذا الأسلوب یستعمل عند ما لا تؤثر النصیحه و الموعظه بالشخص المجرم و المذنب،إذ أنّ آخر ما یقال له:(افعل ما تشاء،و لکن انتظر العقاب أیضا)و یعنی أنّک وصلت إلی درجه لا تستحقّ معها النصیحه و الموعظه،و أنّ مصیرک و علاجک هو العذاب الألیم.

۳-من هم الأهل؟

الآیات المذکوره أعلاه تقول:إنّ أولئک الخاسرین لم یخسروا ثروه وجودهم فحسب،و إنّما خسروا أهلیهم أیضا.

بعض المفسّرين قال:إنّ المراد من(أهل)هم أتباع الإنسان و السائرون على نهجه.

و البعض الآخر فسّرها بأنّها تعنى الزوجات القاصرات الطرف فى الجنّه، اللواتى خسرهن المشركون و المجرمون.

و البعض الآخر يقول:إنّها تعنى العائله و الأرقاب فى الدنيا.

و المعنى الأخير-مع الالتفات إلى أنّه المعنى الأصلى لهذه الكلمه-يعد أنسب من الجميع،لأن الكافر يخسر أهله يوم القيامه،إذ ينفصلون عنه و إن كانوا مؤمنين، و أما إذا كانوا مشركين فمضافا إلى أنّهم لا ينفعونهم،سيكونون سببا فى زياده العذاب الأليم.

ص:۴۶

الآیات [سوره الزمر (٣٩): الآیات ١٧ الی ٢٠]

اشاره

وَ اَلَّذِینَ اِجْتَنَبُوا اَلطّاغُوتَ أَنْ یَعْبُدُوها وَ أَنابُوا إِلَی اَللّهِ لَهُمُ اَلْبُشْری فَبَشِّرْ عِبادِ (١٧) اَلَّذِینَ یَسْتَمِعُونَ اَلْقَوْلَ فَیَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولئِکَ اَلَّذِینَ هَداهُمُ اَللّهُ وَ أُولئِکَ هُمْ أُولُوا اَلْأَلْبابِ (١٨) أَ فَمَنْ حَقَّ عَلَیْهِ کَلِمَهُ اَلْعَذابِ أَ فَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِی اَلنّارِ (١٩) لکِنِ اَلَّذِینَ اِتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِها غُرَفٌ مَبْنِیَّهٌ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا اَلْأَنْهارُ وَعْدَ اَللّهِ لا یُخْلِفُ اَللّهُ اَلْمِیعادَ (٢٠)

التّفسیر

اشاره

عباد اللّه الحقیقیون:

استخدم القرآن الکریم مرّه اخری أسلوب المقارنه فی هذه الآیات،إذ قارن بین عباد اللّه الحقیقیین و المشرکین المعاندین الذین لا مصیر لهم سوی نار جهنّم، قال تعالی: وَ الَّذِینَ اجْتَنَبُوا الطّاغُوتَ أَنْ یَعْبُدُوها وَ أَنابُوا إِلَی اللّهِ لَهُمُ الْبُشْری .

و لکون کلمه(البشری)جاءت هنا بصوره مطلقه و غیر محدوده،فتشمل کافه

أنواع البشری بالنعم الإلهیه المادیه و المعنویه،و هذه البشری بمعناها الواسع تختص فقط بالذین اجتنبوا عباده الطاغوت و عمدوا إلی عباده اللّه وحده من خلال إیمانهم به و عملهم الصالح.

و کلمه«طاغوت»من ماده(الطغیان)تعنی الاعتداء و تجاوز الحدود،و لذا فإنّها تطلق علی کلّ متعدّ،و علی کلّ معبود من دون اللّه،کالشیطان و الحکام المتجبرین(و تستعمل هذه الکلمه للمفرد و الجمع) (۱) .

فعباره اِجْتَنَبُوا الطّاغُوتَ بمعناها الواسع تعنی الابتعاد عن کلّ أشکال الشرک و عباده الأصنام و هو النفس و الشیطان،و تجنب الانصیاع و الاستسلام للحکام المتجبرین الطغاه.

أمّا عباره أَنابُوا إِلَی اللّهِ فإنّها تجمع روح التقوی و الزهد و الإیمان،و أمثال هؤلاء یستحقون البشری.

و یجب الالتفات إلی أنّ عباده الطاغوت لا تعنی فقط الرکوع و السجود له، و إنّما تشمل کلّ طاعه له،کما

ورد فی حدیث عن الإمام الصادق علیه السّلام «من أطاع جبارا فقد عبده» (۲) .

ثم تعرج الآیه علی تعریف العباد الخاصّین فتقول: فَبَشِّرْ عِبادِ (۳) الَّذِینَ یَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَیَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولئِکَ الَّذِینَ هَداهُمُ اللّهُ وَ أُولئِکَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبابِ .

الآیتان المذکورتان بمثابه شعار إسلامی،و قد بیّنتان حریه الفکر عند المسلمین،و حریه الإختیار فی مختلف الأمور.

ص: ۴۸

---

۱ – ۱) -بعض المفسّرین،و منهم الزمخشری صاحب الکشّاف یعتقدون أنّ أصل کلمه(طاغوت)هو(طغوت)علی وزن(فعلوت) (کملکوت)،ثمّ تقدمت لام الفعل علی عین الفعل و أصبحت(طغوت)،و بعد إبدال الواو بالألف أصبحت(طاغوت)و یستدل صاحب الکشّاف علی هذا الکلام من عدّه مصادر(تفسیر الکشاف ج ۴ ص ۱۲۰).

۲- ۲) -مجمع البیان،الجزء السابع،الصفحه ۴۹۳،ذیل آیه البحث.

۳- ۳) -(عباد)کانت فی الأصل(عبادی)و قد حذفت الیاء و عوض عنها بالکسره.

ففی البدایه تقول(بشر عباد)ثمّ تعرّج علی تعریف أولئک العباد المقربین بأنّهم أولئک الذین لا یستمعون لقول هذا و ذاک ما لم یعرفوا خصائص و میزات المتکلم،و الذین ینتخبون أفضل الکلام من خلال قوّه العقل و الإدراک،إذ لا تعصب و لا لجاجه فی أعمالهم،و لا تحدید و جمود فی فکرهم و تفکیرهم،إنّهم یبحثون عن الحقیقه و هم متعطشون لها،فأینما وجدوها استقبلوها بصدور رحبه، لیشربوا من نبعها الصافی من دون أیّ حتی یرتووا.

إنّهم لیسوا طالبین للحق و متعطشین للکلام الحسن و حسب،بل هم یختارون الأجود و الأحسن من بین(الجید)و(الأجود)و(الحسن)و(الأحسن)،و خلاصه الأمر فإنّهم یطمحون لنیل الأفضل و الأرفع،و هذه هی علامات المسلم الحقیقی المؤمن الساعی وراء الحق.

أمّا ما المقصود من کلمه(القول)فی عباره یَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فإنّ المفسّرین أعطوا عدّه آراء لتفسیرها،منها:

البعض فسّره بأنّه یعنی(القرآن)الذی یحتوی علی الطاعات و المباحات، و اقتفاء الأحسن یعنی اقتفاء الطاعات.

و البعض الآخر فسّرها بأنّها تعنی مطلق الأوامر الإلهیه المذکوره فی القرآن و غیر المذکوره فیه.

و لکن لم یتوفّر أیّ دلیل علی هذین التّفسیرین،بل أن ظاهر الآیه یشتمل کلّ قول و حدیث،فالمؤمنون هؤلاء یختارون من جمیع الکلمات و الأحادیث ما هو (أحسن)،لیترجموه فی أعمالهم.

و الطریف فی الأمر أنّ القرآن الکریم حصر فی الآیه المذکوره أعلاه الذین هداهم اللّه بأولئک القوم الذین یستمعون القول و یتبعون أحسنه،کما أنّه اعتبر العقلاء ضمن هذه المجموعه،و هذه إشاره إلی أنّ أفراد هذه المجموعه مشمولون بالهدایه الإلهیه الظاهریه،و الباطنیه،الهدایه الظاهریه عن طریق العقل و الإدراک،

و الهدايه الباطنيه عن طريق النور الإلهى و الإمداد الغيبى،و هاتان مفخرتان كبيرتان للباحثين وراء الحقيقه ذوى التفكير الحرّ.

و لكون رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان يرغب-بشدّه-فى هدايه المشركين و الضالين، و كان يتألّم كثيرا لانحراف أولئك الذين لم يعطوا آذانا صاغيه للحقائق،فأنّ الآيه التاليه عمدت الى مواساته بعد أن وضحت له حقيقه أنّ عالمنا هذا هو عالم الحريه و الامتحان،و مجموعه من الناس-فى نهايه الأمر-يجب أن تدخل جهنم،إذ قالت: أَ فَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذٰابِ أَ فَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النّٰارِ (1) .

عباره حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذٰابِ إشاره إلى آيات مشابهه،كالآيه(85)من سوره ص التى تقول بشأن الشياطين و أتباعهم: لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَ مِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ .

و من البديهى أنّ حتميه تعذيب هذه المجموعه لا تحمل أىّ طابع إجبارى، بل إنّهم يعذبون بسبب الأعمال التى ارتكبوها،و نتيجه إصرارهم على ارتكاب الظلم و الذنب و الفساد،بشكل يوضح أنّ روح الإيمان و التعقل كانت ميّته فى أعماقهم،و أنّ وجودهم كان قطعه من جهنم لا أكثر.

من هنا يتبيّن أنّ قوله تعالى: أَ فَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النّٰارِ هو إشاره إلى حقيقه أنّ كونهم من أصحاب النّار يعد أمرا مسلما به و كأنّهم الآن هم فى قلب جهنم، حتّى أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الذى هو(رحمه للعالمين)لا يستطيع إنقاذهم من العذاب،لأنّهم قطعوا كافّه طرق الاتصال باللّه سبحانه و تعالى و لم يبقوا أىّ سبيل لنجاتهم.

و لبعث السرور فى قلب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و لزياده الأمل فى قلوب المؤمنين،

1- 1) -فى الحقيقه،إنّ الآيه تحوى جمله محذوفه تدل عليها الجمله التى تلتها،و تقديرها(أ فأنت تخلصه)إذ يصبح تقدير الجمله كالتالى(أ فمن حق عليه كلمه العذاب أ فأنت تخلصه(بقرينه الجمله التاليه)أ فأنت تنقذ من فى النّار)و قال البعض الآخر:إن تقدير الآيه هو كالتالى(أ فمن حقت عليه كلمه العذاب ينجو منه).

جاء فی آخر الآیه: لٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهٰا غُرَفٌ .

فإن کان أهل جهنم مستقرین فی ظلل من النّار،کما ورد فی الآیه السابقه:

لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النّارِ وَ مِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ

فإنّ لأهل الجنّه غرفا من فوقها غرف اخری،و قصور فوقها قصور اخری،لأنّ منظر الورود و الماء و الأنهار و البساتین من فوق الغرف یبعث علی اللذه و البهجه بشکل أکثر.

«غرف»جمع«غرفه»من ماده«غرف»و علی وزن حرف-بمعنی تناول الشیء و لذا یطلق علی من یتناول الماء بکفه لیشربه«غرفه»ثمّ أطلقت علی الطبقات العلیا من المنازل.

و کشفت الآیه أیضا عن أن غرف أهل الجنّه الجمیله قد زینت بأنهار تجری من تحتها تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهٰارُ نعم،هذا وعد اللّه وَعْدَ اللّهِ لاٰ یُخْلِفُ اللّهُ الْمِیعٰادَ (1) .

بحوث

اشاره

1-منطق حریه التفکیر فی الإسلام

الکثیر من المذاهب الوضعیه تنصح أتباعها بعدم مطالعه و مناقشه مواضیع و آراء بقیه المذاهب، إذ أنّهم یخافون من أن تکون حجّه الآخرین أقوی من حجّتهم.

الضعیفه و بالتالی فقدان اتباعهم.

إلاّ أنّ الإسلام-کما شاهدنا فی الآیات المذکوره أعلاه-ینتهج سیاسه الأبواب المفتوحه فی هذا المجال،إذ یعتبر المحققین هم عباد اللّه الحقیقیین الذین لا یرهبون سماع آراء الآخرین،و لا یستسلمون لشیء من دون أی قید أو شرط،

1- 1) -یقول«الزمخشری»فی الکشاف: وَعْدَ اللّهِ منصوب لکونه مفعولا مطلقا للتأکید،و لأنّ عباره لَهُمْ غُرَفٌ تعنی و عدهم الله غرفا.

و لا يتقبلون كلّ وسواس.

الإسلام الحنيف يبشّر الذين يستمعون القول و يتبعون أحسنه،الذين لا يكتفون بترجيح الجيد على السيء،و إنّما ينتخبون الأحسن ثمّ الأحسن من كلّ قول و رأى.

و يوبّخ-بشدّه-الجهله الذين يضعون أصابعهم فى آذانهم و يستغشون ثيابهم كلما سمعوا صوت الحق،كما ورد فى قول نوح صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عند ما شكى قومه للبارئ عزّ و جلّ: وَ إِنِّي كُلَّمٰا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصٰابِعَهُمْ فِي آذٰانِهِمْ وَ اسْتَغْشَوْا ثِيٰابَهُمْ وَ أَصَرُّوا وَ اسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبٰاراً (١) .

و أساسا فإنّ المذهب القوى الذى يملك منطقا قويا لا يرهب أقوال الآخرين، و لا يخاف من طرح آراء تلك المذاهب،لأنّه أقوى منها و هى التى ينبغى أن تخافه.

هذه الآيه وضعت-فى نفس الوقت الذين يتبعون أىّ قول يقال لهم من دون أىّ تفكير فى مدى صدقه،و حتى أنّهم لا يحققون و لا يبحثون فيه بقدر ما تبحث الأغنام عن الغذاء الجيد فى المراعى،وضعتهم خارج صف(أولوا الألباب) و الذين(هداهم اللّه).فهاتان الصفتان تختصّان بالذين لم يبتلوا الاستسلام المفرط من دون أىّ قيد أو شرط،و الذين لم يفرطوا فى تعصبهم الجاهلى الأعمى.

٢-الردّ على بعض الأسئله

من الممكن أن تطرح على ضوء البحث السابق عدّه أسئله،منها:

١-لماذا يمنع الإسلام بيع و شراء كتب الضلال.

٢-لماذا يحرم إعطاء القرآن الكريم بيد الكفار.

٣-كيف يمكن لإنسان ليس له إلمام بموضوع ما أن ينتخب و يميز الجيد من

١- ١) -سوره نوح،الآيه ٧.

السیء،ألا یستلزم هذا المعنی الدور؟ الجواب علی السؤال الأوّل واضح،لأنّ البحث المتعلّق بالآیات المذکوره أعلاه یتناول أقوالا یؤمل منها الهدایه،ففی أی وقت یتضح بعد البحث و التحقیق أن الکتاب الفلانی هو مضل فإنّه یخرج من هذا الأمر،فالإسلام لا یسمح بأن یسلک الناس فی طریق ثبت انحرافه.و بالطبع فإنّه ما دام الأمر لم یثبت لأحد،أی ما زال الشخص فی حاله التحقیق عن المذاهب الأخری لقبول الدین الصحیح، لا بأس بمطالعه کلّ تلک الکتب،و لکن بعد ثبوت ذلک الأمر یجب اعتبارها مادّه سامّه،و یجب إبعادها عن متناول الجمیع.

أمّا بالنسبه إلی السؤال الثّانی،فإنّه لا یجوز إعطاء القرآن لغیر المسلم إن کان ذلک الشخص یهدف إهانه و هتک القرآن،و لکن إن حصل علم بأن ذلک الکافر یفکر حقّا بالتحقیق فی الإسلام من خلال القرآن للوصول إلی هذا الهدف،فإن إعطاء القرآن هنا لا یعدّ أمرا ممنوعا،بل یعدّ واجبا،و العلماء الذین حرّموا ذلک لا یقصدون هذا المعنی.

و لهذا فإنّ الجمعیات الإسلامیه الکبیره تصرّ بشدّه علی ترجمه القرآن إلی بقیه اللغات الحیه فی العالم،لیوضع تحت تصرف المتعطشین لمعرفه الحقیقه.

و أمّا بشأن السؤال الثّالث،فیجب الالتفات إلی أنّه فی کثیر من الأحیان لا یستطیع شخص ما إنجاز عمل ما،و لکن عند ما ینجزه الآخرون یتمکن هو من تشخیص الجید من الردیء فی ذلک العمل.

و علی سبیل المثال،من الممکن أن یوجد شخص لا إطلاق له بفنّ الإعمار و البناء حتی أنّه لا یستطیع وضع لبنتین فوق بعضهما البعض بصوره صحیحه، و لکنّه یستطیع تمییز البناء الجید ذی الکیفیه العالیه من البناء السیء غیر المتناسق، کما أنّ هناک أشخاصا کثیرین لیسوا بشعراء،إلاّ أنّهم یتمکون من تقییم أشعار شعراء کبار و تمیزها عن الأشعار الفارغه التی ینظمها بعض ناظمی الشعر.هناک

أشخاص ليسوا برياضيين و لكنّهم يتمكنون من التحكيم بين الرياضيين، و انتخاب الجيد منهم.

۳-نماذج من الروايات الإسلاميه التى تؤكد على حريه التفكير

وردت بعض الأحاديث الإسلاميه فى تفسير الآيات المذكوره أعلاه،كما وردت أحاديث مستقله تؤكّد على هذا الموضوع،و منها ما

ورد عن الإمام موسى بن جعفر عليه السّلام، خاطب فيه أحد أصحابه و هو هشام بن الحكم قائلا:«يا هشام،إن اللّه تبارك و تعالى بشر أهل العقل و الفهم فى كتابه،فقال فَبَشِّرْ عِبٰادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ » (۱) .

و

ورد حديث آخر عن الأمام الصادق عليه السّلام فى تفسير الآيه المذكوره أعلاه، قال فيه: «هو الرجل يسمع الحديث فيحدث به كما سمعه،لا يزيد فيه و لا ينقص» (۲) .

و بالطبع،فإنّ تفسير فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ هو المقصود فى هذا الحديث،لأن إحدى علامات اتباع القول الحسن،هو أن لا يضيف الإنسان من عنده أى شيء على القول،و ينقله ذاته للآخرين.

و نقرأ

فى البلاغه فى حقل الكلمات القصار لأمير المؤمنين عليه السّلام: (الحكمه ضاله المؤمن،فخذ الحكمه و لو من أهل النفاق» (۳) .

۴-سبب النّزول

ذكر المفسّرون أسبابا لنزول هذه الآيات،و منها،أنّ الآيه:

۱- ۱) -الكافى،المجلد الأول،كتاب العقل الحديث(۱۲).

۲- ۲) -نور الثقلين،المجلد ۴،الصفحه ۴۸۶،الحديث ۳۴.

۳- ۳) -نهج البلاغه،قصار الكلمات،الخطبه(۸۰).

وَ الَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطّاغُوتَ...

و الآیه التی تلتها نزلنا بحق ثلاثه أشخاص(لم یستسلموا فی عهد الجاهلیه لغوغاء المشرکین فی مکّه)کانوا یقولون لا إله إلا اللّه،و الثلاثه هم (سلمان الفارسی و أبو ذر الغفاری و زید بن عمرو) (۱) .

و قد ورد اسم(سعید بن زید)بدلا(زید بن عمرو)فی بعض الرّوایات (۲) .

و البعض الآخر قال:إنّ الآیه: أَ فَمَنْ حَقَّ عَلَیْهِ کَلِمَهُ الْعَذابِ... نزلت بشأن (أبی جهل)و أمثاله (۳) .

و غیر مستبعد أن تکون هذه الرّوایات من قبیل تطبیق الآیه علی المصادیق الواضحه و لیس أسبابا للنزول.

۱- ۱) -تفسیر القرطبی،و مجمع البیان ذیل آیات البحث.

۲- ۲) -الدر المنثور نقلا عن تفسیر المیزان،المجلد ۱۷،صفحه ۲۶۷.

۳- ۳) -القول هذا أورده صاحب تفسیر روح المعانی نقلا عن آخرین.

الآيتان [سوره الزمر (٣٩): الآيات ٢١ الى ٢٢]

اشاره

أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اَللّٰهَ أَنْزَلَ مِنَ اَلسَّمٰاءِ مٰاءً فَسَلَكَهُ يَنٰابِيعَ فِي اَلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوٰانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرٰاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطٰاماً إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَذِكْرىٰ لِأُولِي اَلْأَلْبٰابِ (٢١) أَ فَمَنْ شَرَحَ اَللّٰهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلاٰمِ فَهُوَ عَلىٰ نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقٰاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اَللّٰهِ أُولٰئِكَ فِي ضَلاٰلٍ مُبِينٍ (٢٢)

التّفسير

اشاره

الذين هم على مركب من نور!!

فى هـذه الآيات يسـتعرض القرآن الكريم مرّه اخرى دلائل التوحيـد و المعاد، ليكمل البحوث التى تناولت مسأله الكفر و الإيمان الوارده فى الآيـات السـابقه.إذ تشـرح أحـد آثـار عظمه و ربوبيه البارئ عزّ و جلّ فى نظام عالم الكون،و ذلك عنـد ما تشـير إلى مسـأله(نزول المطر)من السـماء،ثمّ إلى نمو آلاـف الأـنواع من الزرع بمختلف الأـلوان بعـد أن تسـقى من ماء عـديم اللون،و إلى مراحـل نموهـا حتى وصولهـا إلى المرحله النهائيه و تقول موجهه الخطاب الى النبى الأكرم صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم باعتباره القدوه لجميع المؤمنين أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللّٰهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمٰاءِ مٰاءً فَسَلَكَهُ يَنٰابِيعَ فِي

الْأَرْضِ

(۱)

.

قطرات المطر التی تبعث الحیاه حینما تنزل من السماء تمتصها الطبقه الأولی من طبقات الأرض،و عند ما تنفذ إلی داخل هذه الطبقه تقف عند طبقه اخری فی الأرض و لا تتمکن من النفوذ خلالها،لتبعث مرّه اخری إلی سطح الأرض بصوره عیون و قنوت و آبار.

کلمه(سکله)تعنی(نفوذ میاه الأمطار فی داخل قشره الأرض)و هذه إشاره مختصره لما ذکرناه آنفا.

«ینابیع»هی جمع(ینبوع)مشتقّه من(نبع)و تعنی فوران الماء من داخل الأرض.و لو کانت للأرض قشره واحده لا تمتلک القابلیه علی الامتصاص،فإنّ میاه الأمطار النازله سوف تتجه بأکملها بعد هطولها إلی البحار لتصب فیها من دون أن تخزن داخل قشره الأرض،و فی هذه الحاله ینعدم وجود العیون و القنوات و الآبار.و إذا کانت الأرض ذات قشره واحده نفوذیه تماما،فإنّ کلّ میاه الأمطار تتجه نحو أعمق مناطق باطن الأرض،و فی تلک الحاله یستحیل الوصول إلیها و استخراجها،فتنظیم قشره الأرض بحیث توجد طبقتان إحداها نفوذیه و الأخری غیر نفوذیه،و بدرجات معینه،کلّ ذلک ثمّ وفق حسابات خاصه،تبیّن قدره البارئ عزّ و جلّ.

و الملفت للنظر أنّ قشره الأرض تکون أحیانا ذات طبقات متعدده،بعضها نفوذی و البعض الأخری غیر نفوذی،و مرتبه الواحده فوق الأخری و یستفاد منها فی عملیات حفر الآبار(السطحیه)و(العمیقه)و(نصف العمیقه).

و تضیف الآیه فیما بعد: ثُمَّ یُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوٰانُهُ ذات الأشکال المختلفه.

ص:۵۷

۱- ۱) -«ینابیع»علی ما هو المشهور یکون منصوبا بنزع الخافض،و هو جمع ینبوع من نبع الماء(راجع تفسیر روح المعانی، ج ۲۳،ص ۲۵۶،روح البیان،ج ۸،ص ۹۳.

أی مختلف الأنواع کالحنطه و الشعیر و الزر و الذره،ذات الأشکال المختلفه و الألوان الظاهریه المتعدده،فمنها الأخضر الغامق،و الأخضر الفاتح،و بعضها ذو أوراق عریضه و کبیره،و البعض الآخر ذو أوراق دقیقه و صغیره.

و ممّا یذکر أن کلمه(زرع)تطلق علی النباتات ذات الساق الدقیق،فیما تطلق کلمه(شجر)علی الأشجار ذات السیقان القویه،و کلمه(زرع)ذات معان کثیره تشمل النباتات الطبیعیه التی لا یمکن الاستفاده منها للغذاء،و أنواع الورد و نباتات الزینه و الأعشاب الطبیعه التی یؤخذ منها الدواء،و أحیانا نری فی غصن واحد،و لربّما فی ورده واحده عدّه ألوان جمیله جذابه،تسبح و توحد الباریٔ عزّ و جلّ بلسان صامت.

ثمّ تنتقل الآیه إلی مرحله اخری من مراحل حیاه هذه النباتات،إذ تقول:

ثُمَّ یَهِیجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا

(۱)

حیث تعصف به الریاح من کلّ جانب لتقلعه من مکانه بسبب ضعف سیقانه و یضیف تعالی: ثُمَّ یَجْعَلُهُ حُطَاماً .

نعم،إن فی هذا لذکری لأصحاب القول و أهل العلم إِنَّ فِی ذَلِکَ لَذِکْرَی لِأُولِی الْأَلْبَابِ .

هذا المشهد یذکّر الإنسان بالنظام الدقیق و العظیم الذی وضعه الباریٔ عزّ و جلّ لعالم الوجود،و إنّه تذکیر بنهایه الحیاه و انطفاء شعلتها،و من ثمّ بمسأله البعث و عوده الأموات إلی الحیاه.فرغم أنّ هذا المشهد یتعلّق بعالم النبات،إلّا أنّه یتنبّه الإنسان إلی أن مثل هذا الأمر سوف یتکرر فی حیاته و عمره هو أیضا مع وجود بعض الاختلاف فی مدّه الأعمار،و لکن الأساس واحد إذ یبدأ بالولاده یتدرج إلی النشاط و الشباب،و من ثمّ الذبول و الکهوله،و فی النهایه الموت.

و کتتمه لهذا الدرس الکبیر فی التوحید و المعاد،تنتقل الآیات إلی المقارنه

۱- ۱) -«یهیج»من ماده(هیجان)و لها معنیان فی اللغه،الأوّل هو جاف النبات و اصفراره،و الثّانی هو التحرک و الانتفاض،و من الممکن أو یعود المعنیان إلی أصل واحد،لأنّ النبات حینما یجفّ فإنه یستعد للانفصال و الانتشار و التحرک و الهیجان.

بين المؤمنين و الكافرين،كى توضح حقيقه أنّ القرآن و الوحى السماوى هما كقطرات المطر التى تهطل على الأرض،و كما أنّ الأرض التى لها الاستعداد هى التى تستفيد من قطرات المطر،فكذلك القلوب المستعده لبناء ذاتها بالاستعانه بلطف اللّه،هى-فقط-التى تستفيد من آيات اللّه،و ذلك طبقا لقوله تعالى: أَ فَمَنْ شَرَحَ اللّٰهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلاٰمِ فَهُوَ عَلىٰ نُورٍ مِنْ رَبِّهِ (1) كمن هو قاسى القلب لا يهتدى بنور!! أمّا القاسيه قلوبهم،فهم الذين لا تؤثر بهم المواعظ و لا الوعيد و لا البشرى، و لا الآيات القرآنيه المؤثره،و لا ينمى مطر الوحى الباعث للحياه عندهم ثمار التقوى و الفضيله،و بصوره موجزه يمكن القول بأنّهم كالنباتات التى لا طراوه فيها و لا أوراق و لا ثمار و لا ظلّ.

نعم أُولٰئِكَ فِي ضَلاٰلٍ مُبِينٍ .

«القاسيه»مشتقّه من(قسوه)و تعنى الخشونه و الصلابه و التحجر،لذلك تطلق صفه(قاسيه)على الأحجار الصلبه،و يقال للقلوب التى لا تظهر أى استجابه لنور الحق و الهدايه،و لا تلين و لا تستسلم لها،و لا تسمح بنفوذ نور الحقّ و الهدايه إليها (قلوب قاسيه).

على آيه حال،فإنّ هذه العباره جاءت فى مقابل(انشراح الصدر)وسعه الروح،لأنّ الرحابه و الاتساع كنايه عن الاستعداد للاستقبال،فالشارع و البيت الواسع يمكنهما أن يضمّا أناسا كثيرين،و كذلك الصدر الواسع و الروح المنشرحه، فإنّها مستعدّه لتقبّل حقائق أكثر.

و نقرأ فى إحدى الرّوايات

أنّ ابن مسعود قال: سئل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عن تفسير هذه الآيه: أَ فَمَنْ شَرَحَ اللّٰهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلاٰمِ فَهُوَ عَلىٰ نُورٍ مِنْ رَبِّهِ

۱- ۱) -هذه الآيه تتضمّن جمله محذوفه تتضح من خلال الجمله التى تليها و عند تقديرها تصبح الآيه(أ فمن شرح اللّه صدره للإسلام فهو على نور من ربّه كمن هو قاسى القلب لا يهتدى بنور).

فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«إذا دخل النور فى القلب انشرح و انفتح».

ثم قلنا:يا رسول اللّه ما هى علامات انشراح الصدر؟فقال:«الإنابه إلى دار الخلود،و التجافى عن دار الغرور،و الاستعداد للموت قبل نزوله» (1) .

أمّا على بن إبراهيم فيقول فى تفسيره أن عباره: أَ فَمَنْ شَرَحَ اللّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلاٰمِ نزلت فى حقّ أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب عليه السّلام.و قد ورد فى تفاسير اخرى أنّ عباره: فَوَيْلٌ لِلْقٰاسِيَهِ قُلُوبُهُمْ نزلت بحقّ(أبى لهب و أبنائه) (2) .

و من الواضح أنّ أسباب النّزول هنا هى فى الحقيقه من باب تطبيق المفهوم العام على المصاديق الواضحه.

إنّ ما يلفت النظر فى عباره: فَهُوَ عَلىٰ نُورٍ مِنْ رَبِّهِ أنّ النور و الضياء جعل هنا بمثابه مركبه يركبها المؤمنون تفسير بهم بسرعه عجيبه و مسير واضح و قدره على طواف العالم كلّه.

بحث

اشاره

عوامل(شرح الصدر)و(قسوه القلب)

الناس ليسوا على وتيره واحده من حيث قبول الحق و إدراك الأمور، فالبعض يتمكّن من إدراك الحقيقه بمجرّد إشاره واحده أو جمله قصيره،و هذا يعنى أنّ تذكيرا واحدا يكفى لإيقاظهم فورا،و موعظه واحده قادره على إحداث صيحات فى أرواحهم و فى حين أنّ البعض الآخر لا يتأثّر بأبلغ الكلمات و أوضح الأدلّه و أقوى العبارات،و هذه المسأله ليست بالأمر السهل أو الهيّن.

۱- ۱) -تفسير القرطبى،المجلد الثامن،الصفحه ۵۶۹۱(تفسير سوره الزمر ذيل آيات البحث)نقل هذا الحديث مع اختلاف جزئى عن(روضه الواعظين)للشيخ المفيد.

۲- ۲) -تفسير الصافى ذيل آيات البحث.

و كم هى جميله التعابير القرآنيه فى هذا المجال،و ذلك عند ما تصف البعض بأنّهم ذو و صدور منشرحه و أرواح واسعه،و تصف البعض الآخر بأنّهم ذو و صدور ضيقه،كما ورد فى الآيه(۱۲۵)من سوره الأنعام: فَمَنْ يُرِدِ اللّٰهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلاٰمِ وَ مَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمٰا يَصَّعَّدُ فِي السَّمٰاءِ .

هذا الموضوع يتّضح بصوره كامله فى حاله دراسه أوضاع و أحوال الأشخاص،فالبعض لهم صدور منشرحه رحبه تتسع لاستيعاب أىّ مقدار من الحقائق،فى حين أنّ البعض الآخر على العكس،إذ أنّ صدورهم ضيقه و أفكارهم محدوده لا يمكنها أحيانا استيعاب أىّ حقيقه،و كأن عقولهم محاطه بجدران فولاذيه لا يمكن اختراقها.و بالطبع لكلّ واحد منهما أسبابه.

فالدراسه الدائمه و المستمره و الاتصال بالعلماء و الحكماء الصالحين،و بناء الذات و تهذيب النفس،و اجتناب الذنوب و خاصه أكل الطعام الحرام،و ذكر اللّه دائما،كلها أسباب و عوامل لانشراح الصدر،و على العكس فإنّ الجهل و الذنب و العناد و الجدل و الرياء،و مجالسه أصحاب السوء و الفجار و المجرمين و عبيد الدنيا و الشهوات،كلّها تؤدّى إلى ضيق الصدر و قساوه القلب.

فعند ما يقول القرآن الكريم: فَمَنْ يُرِدِ اللّٰهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلاٰمِ وَ مَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً .فهذه الإراده و عدم الاراده ليست اعتباطيه و بدون دليل.بل هى نابعه من اعماقنا و ذواتنا فى البدايه.

و

قد ورد حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام جاء فيه: «أوحى اللّه عزّ و جلّ إلى موسى:يا موسى لا تفرح بكثره المال،و لا تدع ذكرى على كلّ حال،فإن كثره المال تنسى الذنوب،و إن ترك ذكرى يقسى القلوب» (۱) .

و

فى حديث آخر عن أمير المؤمنين عليه السّلام،جاء فيه: «ما جفت الدموع إلاّ

۱- ۱) -بحار الأنوار،المجلد ۷۰،الصفحه ۵۵،الحديث ۲۳.

لقسوه القلوب،و ما قست القلوب إلا لكثره الذنوب» (۱) .

كما

ورد فى حديث ثالث أنّ من جمله كلام اللّه سبحانه و تعالى مع موسى عليه السّلام «يا موسى لا تطول فى الدنيا أملك،فيقسو قلبك،و القاسى القلب منى بعيد» (۲) .

و أخيرا،

ورد حديث آخر عن أمير المؤمنين عليه السّلام جاء فيه: «لمتان:لمه من الشيطان و لمه من الملك،فلمّه الملك الرقه و الفهم،و لمّه الشيطان السهو و القسوه» (۳) .

على أيه حال،فإن من يريد انشراح صدره و إزاله القساوه من قلبه،عليه أن يتوجه نحو البارئ عزّ و جلّ كى يبعث الأنوار الإلهيه فى قلبه كما وعد بذلك الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.و عليه أن يصقل مرآه قلبه من صدأ الذنوب،و يطهّر روحه من أوساخ هوى النفس و الوساوس الشيطانيه،استعدادا لاستقبال المعشوق،و أن يسكب الدموع خوفا من اللّه و حبا له،فإنّ فى ذلك تأثيرا عجيبا لا نظير له على رقّه و لين القلب و رحابه الروح،و فى المقابل فان جمود العين هو إحدى علامات القلب المتحجر.

ص: ۶۲

۱- ۱) -بحار الأنوار،المجلد ۷۰،الصفحه ۵۵،الحديث ۲۴.

۲- ۲) -الكافى،المجلد الثّانى،باب القسوه الحديث(۱).

۳- ۳) -نفس المصدر السابق الحديث(۳).

الآیات [سوره الزمر (۳۹): الآیات ۲۳ الی ۲۶]

اشاره

اَللّٰهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ اَلْحَدِیثِ کِتٰاباً مُتَشٰابِهاً مَثٰانِیَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ اَلَّذِینَ یَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِینُ جُلُودُهُمْ وَ قُلُوبُهُمْ إِلیٰ ذِکْرِ اَللّٰهِ ذٰلِکَ هُدَی اَللّٰهِ یَهْدِی بِهِ مَنْ یَشٰاءُ وَ مَنْ یُضْلِلِ اَللّٰهُ فَمٰا لَهُ مِنْ هٰادٍ (۲۳) أَ فَمَنْ یَتَّقِی بِوَجْهِهِ سُوءَ اَلْعَذٰابِ یَوْمَ اَلْقِیٰامَهِ وَ قِیلَ لِلظّٰالِمِینَ ذُوقُوا مٰا کُنْتُمْ تَکْسِبُونَ (۲۴) کَذَّبَ اَلَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتٰاهُمُ اَلْعَذٰابُ مِنْ حَیْثُ لاٰ یَشْعُرُونَ (۲۵) فَأَذٰاقَهُمُ اَللّٰهُ اَلْخِزْیَ فِی اَلْحَیٰاهِ اَلدُّنْیٰا وَ لَعَذٰابُ اَلْآخِرَهِ أَکْبَرُ لَوْ کٰانُوا یَعْلَمُونَ (۲۶)

سبب النّزول

نقل بعض المفسّرین عن(عبد اللّه بن مسعود)أنّ جمعا من الصحابه ملّوا و تضجّروا،فقالوا لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:حدّثنا حدیثا یزیل السأم من نفوسنا و الملل من قلوبنا،فنزلت أول آیه من الآیات المذکوره أعلاه معرّفه القرآن ب(أحسن الحدیث) (۱) .

۱- ۱) -سبب النّزول ورد باختلاف یسیر فی تفسیر(الکشاف)المجلد الرابع ص ۱۲۳ و فی تفسیر(القرطبی)و(الآلوبسی)و(أبو

التّفسير

اشاره

الآيات السابقه تحدثت عن العباد الذين يستمعون القول و يتبعون أحسنه، كما تحدثت عن الصدور الرحبه المستعده لتقبل الحقّ.

الآيات التى يدور حولها البحث تواصل التطرق إلى هذا الأمر،كى تكمل حلقات البحوث السابقه الخاصه بالتوحيد و المعاد مع ذكر بعض دلائل النبوّه،إذ تقول الفقره الأولى من الآيه: اَللّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ .

ثم تستعرض خصائص القرآن الكريم،حيث تشرح الخصائص المهمّه للقرآن من خلال بيان ثلاث صفات له:

أمّا الخاصيه الأولى فهى كِتاباً مُتَشابِهاً

المقصود من(متشابه)هنا هو الكلام المتناسق الذى لا تناقض فيه و يشبه بعضه البعض،فلا تعارض فيه و لا تضادّ،و كلّ آيه فيه أفضل من الأخرى و المتماثل من حيث اللطف و الجمال و العمق فى البيان.

و هذا بالضبط على عكس العبارات التى يصوغها الإنسان،و التى مهما اعتنى بصياغته فإنّها لن تخلو من الاخطاء و الاختلافات و التناقضات،خصوصا عند ما يتسع مجالها و تأخذ أبعادا أوسع،إذ تلاحظ أنّ بعضها فى قمّه البلاغه،و البعض الآخر عادى و طبيعى،و دراسه آثار الكتّاب الكبار المعروفين فى مجالى النثر و الشعر هى خير شاهد على هذا الموضوع.

أمّا كلام اللّه المجيد فليس كذلك،إذ نرى فيه انسجاما خارقا،و تناسقا لا نظير له فى المفاهيم و الفصاحه و البلاغه،و هذا بحدّ ذاته يجعل آيات القرآن تحكم و تشهد بأنّه ليس من كلام البشر.

(١)

-الفتوح الرازى)و غيرها،و ذلك فى ذيل آيات البحث.

أما الخاصيه الثّانيه فهى مَثّانِىَ –أى المكرر–

و هذه الكلمه تشير إلى تكرار بحوثه المختلفه و قصصه و مواعظه،التكرار الذى لا يملّ منه الإنسان،و إنّما على العكس من ذلک،إذ يتشوق لتلاوته أكثر، و هذه إحدى أسس الفصاحه،إذ يعمد الإنسان أحيانا إلى التكرار و بصور مختلفه و أساليب متنوعه،و ذلک إذا أراد التأكيد على أمر ما و جلب الانتباه إليه و التأثّر به، كى لا يملّ السامع أو يضجر منه.

إضافه إلى أنّ مواضيع القرآن المكرره تفسّر إحداها الأخرى،و تحل الكثير من ألغازه عن هذا الطريق.

بعضهم اعتبرها إشاره إلى تكرار تلاوه القرآن و بقائه غضا طريا من جراء تكرار تلاوته.

و البعض الآخر اعتبرها إشاره إلى تكرار نزول القرآن،فمرّه نزل دفعه واحده على صدر الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و ذلک فى ليله القدر،و مرّه أخرى بصوره تدريجيه استمرت لفتره(۲۳)عاما.

و من المحتمل أن يكون المراد من التكرار هو ملاءمه القرآن لكلّ زمان، و انكشاف بعض الأمور الغيبيه فيه بمرور السنوات.

و التّفسير الأوّل أنسب من بقيه التفاسير،رغم عدم وجود أىّ تعارض بين الجميع،بل من الممكن أن تكون جميعها صحيحه (۱) .

أمّا الخاصيه الثّالثه فهى تقشعر منه الجلود

و هذه الخاصيه للقرآن فهى مسأله نفوذه و تأثيره العميقين و الخارقين تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَ قُلُوبُهُمْ إِلىٰ ذِكْرِ اللّهِ .

ص: ۶۵

۱– ۱) –قال الزمخشرى فى الكشاف:إن(مثانى)يمكن أن تكون جمع(مثنى)على وزن(مصلّى)و تعنى المكرّر،و يمكن أن تكون جمع(مثنى)على وزن(مبنى)من التثنيه بمعنى التكرار،الكشاف،المجلد الرابع،الصفحه ۱۲۳.

إنّه لوصف و تجسيد لطيف و جميل لنفوذ آيات القرآن العجيب إلى أعماق القلوب،إذ أنّه فى بدايه الأمر يبعث فى القلب شيئا من الخوف و الرهبه،الخوف الذى يكون أساسا للصحوه و لبدء الحركه، و الرهبه التى تجعل الإنسان يتحسس مسئولياته المختلفه.ثمّ تأتى مرحله الهدوء و قبول آيات اللّه و تتبعها السكنيه و الاستقرار.

هذه الحاله التدريجيه التى تبيّن مراحل(السلوك إلى اللّه)المختلفه،يمكن إدراكها بسهوله،فالقلوب تقشعر فور ما تسمع آيات التهديد و التحذير النازله على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،ثمّ تهدأ فور ما تسمع آيات الرحمه.

التفكير بذات اللّه و مسأله أبديته و أزليته و عدم محدوديته يوجد عند الإنسان حاله من الرهبه فى كيفيه معرفه اللّه،إلاّ أنّ دراسه آثار و دلائل ذاته المقدسه فى الآفاق و الأنفس تمنح الإنسان نوعا من الارتياح و الهدوء (۱) .

و التأريخ الإسلامى ملىء بالشواهد على التأثير العجيب للقرآن فى قلوب المؤمنين،و حتى غير المؤمنين من أصحاب القلوب المستعده لتقبل الإيمان، فالجاذبيه أو النفوذ الخارق للقرآن دليل واضح على أنّ القرآن كتاب نزل من السماء بواسطه الوحى.

و قد ورد حديث عن(أسماء)،جاء فيه(كان أصحاب النّبى حقا إذا قرئ عليهم القرآن-كما نعتهم اللّه-تدمع أعينهم و تقشعر جلودهم) (۲) .

أمير المؤمنين عليه السّلام وصف هذه الحقيقه بأفضل وجه فى الخطبه الخاصه بالمتقين،إذ قال: «أمّا الليل فصافون أقدامهم تالين لأجزاء القرآن يرتلونها ترتيلا،

۱- ۱) -(تقشعر)من ماده(قشعريره)و قد ذكر اللغويون و المفسّرون معانى مختلفه و متقاربه بعض الشيء،فالبعض قال:إنّها تعنى انكماش جلد البدن(حاله نصيب الإنسان أثناء خوفه)و البعض قال:إنّها الرجفه التى تصيب الإنسان فى حاله الخوف،و البعض الآخر قال:إنّها تعنى وقوف شعر البدن،و فى الحقيقه فإنّ كلّ حاله من هذه الحالات ملازمه للأخرى.

۲- ۲) -تفسير القرطبى،المجلد الثامن،الصفحه ۵۶۹۳،عن التأثير العميق و الخارق لآيات القرآن،أوردنا روايات عديده فى ذيل الآيه ۹۲ من سوره آل عمران.

يحزنون به أنفسهم،و يستثيرون به دواء دائهم،فإذا مروا بآيه فيها تشويق ركنوا إليها طمعا،و تطلعت نفوسهم إليها شوقا،و ظنوا أنّها نصب أعينهم،و إذا مروا بآيه فيها تخويف أصغوا إليها مسامع قلوبهم،و ظنوا أنّ زفير جهنم و شهيقها فى أصول آذانهم».

و فى نهايه الآيه يقول تعالى بعد أن بيّن تلك الخصائص: ذٰلِكَ هُدَى اللّٰهِ يَهْدِى بِهِ مَنْ يَشاءُ .

حقا إنّ القرآن نزل لهدايه الجميع،لكن المتقين و طلاب الحقّ و الحقيقه هم المستفيدون-فقط-من نوره،أمّا أولئك الذين تعمدوا إغلاق كافه نوافذ قلوبهم أمام نور القرآن الكريم،و الذين تتحكم بأرواحهم ظلمات التعصب و العناد فقط لا يستفيدون من نور القرآن،و إنّما يزدادون ضلاله من جراء عنادهم و عدائهم، لذلك فإن تتمه الآيه تقول: وَ مَنْ يُضْلِلِ اللّٰهُ فَما لَهُ مِنْ هٰادٍ .

فهذه الضلاله هى التى يضع الإنسان حجر أساسها بيده،و يحكم بناء أساسها بواسطه أعماله الخاطئه و السيئه،و لذلك لا تتنافى إطلاقا مع إراده الإنسان و حريته.

الآيه التاليه تقارن بين مجموعه من الظالمين و المجرمين،و مجموعه من المؤمنين الذين استعرضت أوضاعهم فيما قبل،و ذلك كى تجعل الحقيقه أكثر وضوحا فى هذه المقارنه،إذ تقول: أَ فَمَنْ يَتَّقِى بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذٰابِ يَوْمَ الْقِيٰامَهِ (۱) كمن هو آمن فى ذلك اليوم و لا تمسّه النّار أبدا؟!.

الملاحظه التى ينبغى الالتفات إليها،هى قوله تعالى: يَتَّقِى بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذٰابِ و كما هو معروف فإنّ الوجه أشرف أعضاء جسم الإنسان،لأنّ فيه (العينان و الفم و الأذنان)التى هى أهم حواسّ الإنسان،و أساسا فإنّ تشخيص الإنسان إنّما يتمّ عن طريق وجهه،و لهذه الخصائص الموجوده فى الوجه،فإنّ

۱- ۱) -هذه العباره فيها محذوف،التقدير(أ فمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامه كمن هو آمن لا تمسه النار).

الإنسان عند ما يحسّ أنّ هناك خطرا سيصيب وجهه،فإنّه يضع يديه و ما يمكن من أعضاء جسمه أمام وجهه كدرع لدرء ذلك الخطر.

إلاـ أن أوضاع الظالمين فى جهنم فى ذلك اليوم تجبرهم على استخدم وجوههم كوسيله دفاعيه،لأنّ أيديهم و أرجلهم مقيده بالسلاسل،كما ورد فى الآيه(٨)من سوره يس: إِنّا جَعَلْنا فِى أَعْناقِهِمْ أَغْلالاً فَهِىَ إِلَى الْأَذْقانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ .

قال البعض:بما أنّ أهل جهنم يرمون على وجوههم فى النّار، لذا فإنّ الوجه هو أوّل عضو من أعضاء الجسم يحترق فى نار جهنم،كما ورد فى الآيه(٩٠)من سوره النمل: مَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَهِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى النّارِ .

و البعض الآخر قال:إنّ هذه العباره كنايه عن عجز أهل جهنم من الدفاع عن أنفسهم مقابل نار جهنم.

التفاسير الثلاثه-هذه-لا تتعارض مع بعضها،و يمكن أن تعطى جميعها مفهوم الآيه.

ثم تضيف نهايه الآيه: وَ قِيلَ لِلظّالِمِينَ ذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ .

نعم،إنّ ملائكه العذاب هى التى توضح لهم هذه الحقيقه المرّه و المؤلمه،إذ يقولون لهم:إنّ أعمالكم ستبقى معكم و ستعذبكم،و هذا التوضيح هو تعذيب روحى آخر لهؤلاء.

و ممّا يلفت النظر أنّ هذه العباره لا تقول:ذوقوا عقاب ما كنتم تكسبون، و إنّما تقول لهم:ذوقوا ما كنتم تكسبون،و هذا شاهد آخر على مسأله تجسيد الأعمال يوم القيامه.

إنّ ما قيل لحدّ الآن هو إشاره بسيطه لعذابهم الأليم فى يوم القيامه،و الآيه التاليه تتحدّث عن العذاب الدنيوى لهؤلاء،كى لا يتصور أحد أنّه يعيش فى أمان بهذه الدنيا،قال تعالى: كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتاهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ

لاٰ یَشْعُرُونَ

.

فالإنسان لا یتألم کثیرا إن أصیب بضربه کان یتوقعها،إلاّ أنّه یتألم کثیرا إن وجهت إلیه ضربه من طرف لم یتوقع أن تصدر منه، کأن تصدر عن أقرب أصدقائه،أو یلحق به أذی من أمور حیویه جدا و محبوبه له کالماء الذی هو مصدر حیاه الإنسان،أو من نفحه النسیم التی هی مصدر نشاطه،أو من الأرض الهادئه التی هی مقر استراحته و أمنه.

نعم،إنّ نزول العذاب الإلهی بواسطه هذه الطرق یعدّ أمرا مؤلما جدّا،کالذی أصاب قوم نوح و عاد و ثمود و لوط و فرعون و قارون و أمثالهم،إذ لم یکن أی أحد منهم یتوقع أن یصیبه العذاب بواسطه إحدی الطرق المذکوره أعلاه.

الآیه الأخیره فی بحثنا هذا تبیّن أنّ عذاب هؤلاء الدنیوی لا یقتصر علی العذاب الجسدی،و إنّما یشتمل أیضا علی عقوبات نفسیه: فَأَذٰاقَهُمُ اللّٰهُ الْخِزْیَ فِی الْحَیٰاهِ الدُّنْیٰا (۱) .

نعم،فإن أصیب الإنسان بمصیبه فی هذه الدنیا،ثمّ خرج منها مرفوع الرأس حافظا لماء وجهه،فهذه الحاله لیست بعار و خزی علی الإنسان،إنّما العار و الخزی للإنسان الذی یخرج من هذه الدنیا رذیلا و ذلیلا،و مبتلی بعذاب فاضح یریق ماء وجهه، وَ لَعَذٰابُ الْآخِرَهِ أَکْبَرُ لَوْ کٰانُوا یَعْلَمُونَ .

کلمه(أکبر)کنایه عن شدّه العذاب و قسوته.

بحث

وردت عدّه روایات فی ذیل الآیات مورد البحث تجسّم أمامنا آفاقا أوسع مهما یفهم من الآیه.

۱- ۱) -کلمه(خزی)تعنی الذلّ و الهوان کما تعنی الفضیحه(یراجع لسان العرب).

إذ

نقل العباس عم النّبى،حديثا عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم جاء فى، «إذا اقشعر جلد العبد من خشيه اللّه تحاتت عنه ذنوبه كما يتحات عن الشجره اليابسه ورقها» (١) .

و من الواضح أن الشخص الذى يخشى اللّه و يتأثر من ذلك الى هذه الدرجه لا بدّ أن تتوفر فيه حاله التوبه و الانابه،و مثل هذا الشخص سيكون موردا لعفو اللّه و مغفرته حتما.

و روى عن(أسماء)إذ قالت عند ما سئلت عن أصحاب رسول اللّه فقالت:

(كان أصحاب النّبى حقا إذا قرئ عليهم القرآن-كما نعتهم اللّه-تدمع أعينهم و تقشعر جلودهم).و أضاف الراوى:سئلت أسماء:هل عندنا أحد يغمى عليه أو يفقد الوعى عند ما يسمع آيات القرآن المجيد،فأجابت أسماء:أعوذ باللّه تعالى من الشيطان،(أى إنّه من عمل الشيطان) (٢) .

هذا الحديث-فى الحقيقه-جواب لأولئك المتصوفه الذين يعقدون الاجتماعات و الحلقات،و يقرءون فيها بعض الآيات و الأذكار،ثمّ يقومون ببعض الحركات بعنوان حاله الوجد و السرور،ثمّ يشرعون بإطلاق بعض الصيحات و إظهار أنفسهم و كأنّهم قد أغشى عليهم،و يحتمل أن البعض يغشى عليه فعلا.مثل هذه الأمور لم ينقلها أحد أبدا بشأن أصحاب الرّسول،و ما هى إلاّ بدعه ابتدعها المتصوفه.

و بالطبع يمكن أن يندهش الإنسان أحيانا و قد يغشى عليه من شدّه خوفه من البارئ عزّ و جلّ،و هذا الأمر يختلف كثير عن ممارسه الصوفيين الذين يعقدون الحلقات للذكر التى ذكرناها آنفا.

١- ١) -(مجمع البيان)ذيل آيات البحث،كما نقل هذه الروايه أبو الفتوح الرازى و القراطبى مع شيء من الاختلاف.

٢- ٢) -أورد الآلوسى هذا الحديث فى روح المعانى،المجلد ٢٣،الصفحه ٢٣٥،كما أورده بعض المفسّرين فى ذيل الآيه.

الآیات [سوره الزمر (۳۹): الآیات ۲۷ الی ۳۱]

اشاره

وَ لَقَدْ ضَرَبْنٰا لِلنّٰاسِ فِی هٰذَا اَلْقُرْآنِ مِنْ کُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ یَتَذَکَّرُونَ (۲۷) قُرْآناً عَرَبِیًّا غَیْرَ ذِی عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ یَتَّقُونَ (۲۸) ضَرَبَ اَللّٰهُ مَثَلاً رَجُلاً فِیهِ شُرَکٰاءُ مُتَشٰاکِسُونَ وَ رَجُلاً سَلَماً لِرَجُلٍ هَلْ یَسْتَوِیٰانِ مَثَلاً اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ بَلْ أَکْثَرُهُمْ لاٰ یَعْلَمُونَ (۲۹) إِنَّکَ مَیِّتٌ وَ إِنَّهُمْ مَیِّتُونَ (۳۰) ثُمَّ إِنَّکُمْ یَوْمَ اَلْقِیٰامَهِ عِنْدَ رَبِّکُمْ تَخْتَصِمُونَ (۳۱)

التّفسیر

اشاره

قرآن لا عوج فیه:

الآیات-هنا-تبحث خصائص القرآن المجید أیضا،و تکمل البحوث السابقه فی هذا المجال.

ففی البدایه تتحدّث عن مسأله شمولیه القرآن،إذ تقول الآیه الکریمه: وَ لَقَدْ ضَرَبْنٰا لِلنّٰاسِ فِی هٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ کُلِّ مَثَلٍ .

حیث تمّ فیه شرح قصص الطغاه و المتمردین الرهیبه،و عواقب الذنوب الوخیمه،و نصائح و مواعظ،و أسرار الخلق و نظامه،و أحکام و قوانین متینه.

و بكلمه أنّه وضح فيه كلّ ما هو ضرورى لهدايه الإنسان على شكل أمثال،لعلهم يتذكرون و يعودون من طريق الضلال إلى الصراط المستقيم لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ .

و ممّا يذكر أنّ«المثل»فى اللغه العربيه هو الكلام الذى يجسّم الحقيقه،أو يصف الشىء،أو يشبه الشىء بشىء آخر،و هذه العباره شملت كلّ حقائق و مواضيع القرآن،و بيّنت شموليته.

ثم تتطرق الآيه إلى وصف آخر للقرآن،إذ تقول: قُرْآناً عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ (١) .

فى الحقيقه،تمّ هنا ذكر ثلاث صفات للقرآن:

الأولى كلمه(قرآنا)التى هى إشاره إلى حقيقه أنّ الآيات الكريمه ستبقى تتلى دائما،فى الصلاه و فى غير أوقات الصلاه،فى الخلوات و فى أوساط الناس، و على طول التاريخ الإسلامى حتى قيام الساعه،و بهذا الترتيب فإن آيات القرآن ستبقى نور الهدايه المضىء على الدوام.

الصفه الثّانيه هى فصاحه و حلاوه و جاذبيه هذا الكلام الإلهى،الذى عبّر عنه ب(عربيا)لأنّ إحدى معانى العربى هى الفصاحه،و المقصود منه هنا هذا المعنى.

الصفه الثّالثه،ليس فيه أى اعوجاج،فآياته منسجمه،و عباراته ظاهره و يفسّر بعضها البعض (٢) .

الكثير من اللغويين و أصحاب التّفسير قالوا:إنّ(عوج)(بكسر العين)تعنى الانحرافات المعنويه،فى حين أنّ(عوج)بفتح العين،تعنى الاعوجاج الظاهر.

و من النادر استعمال العباره الأولى فى الاعوجاج الظاهرى،ما فى الآيه(١٠٧) من سوره طه: لاٰ تَرىٰ فِيهٰا عِوَجاً وَ لاٰ أَمْتاً لهذا فإنّ بعض اللغويين يعتبرونها أكثر

١- ١) -الموقع الإعرابى لقوله تعالى: قُرْآناً عَرَبِيًّا حال ل(القرآن)التى ذكرت من قبل،و لكون كلمه(قرآنا)لا تحمل طابع الوصف فقد قال البعض:إنّها توطئه للحال الذى هو(عربيا)و ذهب البعض الى أنها بمعنى(مقروءا)و تعطى معنى الوصف، و البعض قال:إنّها منصوبه على المدح بتقدير فعل.

٢- ٢) -كلمه(عوج)جاءت بصوره نكره فى سياق النفى،و تعطى معنى النفى العام لعدم لوجود أى انحراف و انعطاف فى القرآن.

عموميه (۱) .

و على أيه حال،فإنّ الهدف من نزول القرآن الكريم-بكل هذه الصفات التى ذكرناها-هو لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ .

و ممّا يلفت النظر أنّ الآيه السابقه انتهت بعباره: لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ و هنا انتهت بعباره: لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ لأنّ التذكّر يكون دائما مقدّمه للتقوى و«التقوى»هى ثمره شجره«التذكر».

ثمّ يستعرض القرآن المجيد أحد الأمثال التى ضربت ليرسم من خلاله مصير الموحّد و المشرك،و ذلك ضمن إطار مثل ناطق و جميل،إذ يقول: ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكاءُ مُتَشاكِسُونَ (۲) .

أى إنّ هناك عبدا يمتلكه عدّه أشخاص،كلّ واحد منهم يأمره بتنفيذ أمر معين،فهذا يقول له:نفذ العمل الفلانى،و الآخره ينهاه عن تنفيذ ذلك العمل،و هو فى وسطهم كالتائه الحيران،لا يدرى أى أمر ينفّذ،فالأمران متناقضان و متضادان، و لا يدرى أيّا منهما يرضيه؟ و الأدهى من كلّ ذلك أنّه عند ما يطلب من أحدهم توفير مستلزمات حياته، يرميه على الآخر،و الآخر يرميه على الأوّل،و هكذا يبقى محروما محتاجا عاجزا تائها.و فى مقابله هناك رجل سلم لرجل واحد وَ رَجُلاً سَلَماً لِرَجُلٍ .

فهذا الشخص خطه و منهجه واضح،و ولى أمره معلوم فلا تردد و لا حيره و لا تضاد و لا تناقض،يعيش بروح هادئه و يخطو خطوات مطمئنه،و يعمل تحت رعايه فرد يدعمه فى كلّ شىء و فى كلّ أمر و فى كلّ مكان. فهل أنّ هذين الرجلين متساويان هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلاً .

ص:۷۳

۱- ۱) -يراجع(مفردات الراغب)و(لسان العرب)و غيرها من التفاسير.

۲- ۲) -«متشاكسون»:أصلها من(شكاسه)و تعنى سوء الخلق و التنازع و الاختصام،و لهذا يقال«متشاكس»لمن يتخاصم و يتنازع بعصبيه و سوء خلق.

هـذا المثـال ينطبق على(المشـرك)و(الموحـد)فالمشـرك يعيش فى وسط المتضادات و المتناقضات،و كل يوم يتعلق قلبه بمعبود جديـد،فلا اسـتقرار فى حياته و لا اطمئنان و لا مسـير واضـح يسـلكه.أما الموحّدون فإنّهم يعشـقون اللّه وحده،و فى كلّ الأحوال يلجؤون إلى ظلّ لطفه،و لا تنظر عيونهم إلى سواه، فطريقهم و نهجهم واضح،و مصيرهم و نهايتهم واضحه أيضا.

و

جاء فى حديث لأمير المؤمنين عليه السلام «أنا ذاك الرجل السلم لرسول اللّه» (۱) .

و

ورد فى حديث آخر عنه أيضا «الرجل السلم للرجل حقا علىّ و شيعته» (۲) .

و فى نهـايه الآـيه يقول تعـالى: اَلْحَمْـدُ لِلّهِ فـاللّه سـبحانه و تعالى بـذكره لتلك الأمثال يرشـدكم إلى أفضل السـبل،و يضع تحت تصـرفكم أوضـح الـدلائل لتشـخيص الحقّ عن الباطل،فالبارئ عزّ و جلّ يـدعو الجميع إلى الإخلاص و فى ظل الإخلاص تكون السـكينه و الراحه،فهل هناك نعمه أفضل من هـذه،و هل هناك أمر آخر يسـتحق الحمـد و الشـكر أكثر من هذه النعمه؟! و لكن أكـثرهم لاـ يعلمـون رغم وجود هـذه الـدلائل السـاطعه،إذ أنّ حبّ الـدنيا و الشـهوات الطـاغيه عليهم يجعلهم يضـلون عن طريق الحقيقه: بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ .

و تتمّه لبحث الآيات السابقه بشأن التوحيد و الشرك،تتحدث الآيه التاليه عن نتائج الشرك و التوحيد فى موقف القيامه.

إذ تبـدأ بمسأله الموت الذى هو بوابه القيامه،و تبيّن لكلّ البشـريه أنّ قانون الموت عامّ،و شامل للجميع: إِنَّکَ مَيِّتٌ وَ إِنَّهُمْ مَيِّتُونَ (۳) .

۱- ۱) -نقله(الحاكم أبو القاسم الحسكانى)فى شواهد التنزيل.

۲- ۲) -نقله العياشي فى تفسيره مجمع البيان،ذيل آيات البحث.

۳- ۳) -عبـاره إِنَّکَ مَيِّتٌ وَ إِنَّهُـمْ مَيِّتُونَ على الظـاهر تعطى معنى مـوت الجميـع فى الـوقت الحاضـر،و هى مـن قبيـل(المضـارع المتحقق الوقوع)الذى يأتى أحيانا بصوره حال و أحيانا اخرى بصوره الماضى.

نعم،فالموت من الأمور التى تشمل جميع الناس،و لا يستثنى منه أحد،فهو طريق يجب أن يمرّ به الجميع فى نهايه المطاف.

قال بعض المفسّرين:إنّ أعداء رسول اللّه كانوا ينتظرون وفاته،و كانوا فى نفس الوقت فرحين مسرورين لكون رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم يموت فى نهايه الأمر، فالقرآن-هنا-أجابهم بالقول:إن مات رسول اللّه فهل تبقون أنتم خالدين،هذا ما نصت عليه الآيه(۳۴)من سوره الأنبياء: أَ فَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخٰالِدُونَ .

ثم ينتقل البحث إلى محكمه يوم القيامه،ليجسم المجادله بين العباد فى ساحه المحشر، ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيٰامَهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ .

«تختصمون»:مشتقّه من(اختصام)و تعنى النزاع و الجدال بين شخصين أو مجموعتين تحاول كل،منهما تفنيد كلام الأخر،فأحيانا يكون أحدهم على حقّ و الآخر على باطل،و أحيانا يكون الاثنان على باطل،كما فى مجادله و مخاصمه أهل النّار فيما بينهم،و قد اختلف المفسّرون فى كون هذا الحكم عاما أم لا.

قال البعض:إنّ المخاصمه تقع بين المسلمين و الكفار.

و قال البعض الآخر:إنّها تقع بين المسلمين أنفسهم،و فى روايه عن أبى سعيد الخدرى قال:لم يكن أحد فينا يفكر فى أن يقع خصام فيما بين المسلمين،و كنّا نقول:كيف نختصم نحن و ربّنا واحد،و نبيّنا واحد و ديننا واحد؟فلما كان يوم صفين و شدّ الفريقان الذين كانا مسلمين(حيث كان أحدهما مسلما حقيقيا و الآخر يدعى الإسلام)بالسيوف على بعضهما البعض،قلنا:نعم،الآيه تشملنا نحن أيضا (۱) .

و لكن الآيات التاليه تبيّن أنّ المخاصمه تقع بين الأنبياء و المؤمنين من جهه، و المشركين المكذبين من جهه اخرى.

لمّا توفّى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم قام عمر بن الخطاب،فقال:إنّ رجالا من المنافقين

۱- ۱) -مجمع البيان،المجلد ۸،الصفحه ۴۹۷.

يزعمون أنّ رسول اللّه قد توفّى و اللّه رسول اللّه ما مات،و لكنّه ذهب الى ربّه كما ذهب موسى بن عمران،فقد غاب عن قومه أربعين ليله ثمّ رجع إليهم بعد أن قيل قد مات،و و اللّه ليرجعنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم كما رجع موسى،فليقطعن أيدى رجال و أرجلهم زعموا أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم مات؟.

و قال الرّاوى:و أقبل أبو بكر حتى نزل على باب المسجد حين بلغه الخبر، و عمر يكلّم الناس،فلم يلفت إلى شيء حتى دخل على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم فى بيت عائشه،و رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم مسجّى فى ناحيه البيت،عليه برد حبره؟،فأقبل حتى كشف عن وجه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم ثمّ قال الراوى:قال أبو بكر:على رسلك يا عمر أنصت فأبى إلاّ أن يتكلم ثمّ تلا أبو بكر هذه الآيه: وَ مٰا مُحَمَّدٌ إِلاّٰ رَسُولٌ .

قال الرّاوى:فو اللّه لكأنّ الناس يعلموا أنّ هذه الآيه ما نزلت حتى تلا أبو بكر ثمّ قال عمر:و اللّه ما هو إلاّ أن سمعت أبا بكر تلاها فعفرت (۱) حتى وقعت إلى الأرض ما تحملنى،رجلاى (۲) .

۱- ۱) -غفرت:وحشت

۲- ۲) -سيره ابن هشام،المجلد الرابع،الصفحات ۳۰۵ و ۳۰۶،نقلا عن الكامل لابن الأثير،المجلد الثّانى،الصفحه ۳۲۳ و ۳۲۴، مع شيء من التلخيص.

بدایه الجزء الرابع و العشرون من القران الکریم

ص :77

الآيات [سوره الزمر (٣٩): الآيات ٣٢ الى ٣٥]

اشاره

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اَللّٰهِ وَ كَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جٰاءَهُ أَ لَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكٰافِرِينَ (٣٢) وَ اَلَّذِي جٰاءَ بِالصِّدْقِ وَ صَدَّقَ بِهِ أُولٰئِكَ هُمُ اَلْمُتَّقُونَ (٣٣) لَهُمْ مٰا يَشٰاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذٰلِكَ جَزٰاءُ اَلْمُحْسِنِينَ (٣٤) لِيُكَفِّرَ اَللّٰهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ اَلَّذِي عَمِلُوا وَ يَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ اَلَّذِي كٰانُوا يَعْمَلُونَ (٣٥)

التّفسير

اشاره

أولئك الذين يصدقون كلام اللّه:

هـذه الآيـات تواصـل البحث الخـاصّ بموقف النـاس فى ساحه المحشـر، و تخاصـمهم فى تلك المحكمه الكبرى،و تقسم آيات بحثنا إلى مجموعتين هما (المكذبون)و(المصدقون).

و القرآن الكريم يعطى صـفتين لأصـحاب المجموعه الأولى،أى «المكـذبين»،قال تعالى: فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللّٰهِ وَ كَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جٰاءَهُ .

الكـافرون و المشـركون يكـذبون كثيرا على البـارئ عزّ و جـلّ،فأحيانا يعتبرون الملائكه بنات اللّه،و أحيانا يقولون:عيسـى هو ابن اللّه،و أحيانا اخرى

يعتبرون الأصنام شفعاء لهم عند اللّه،و أحيانا يبتدعون أحكاما كاذبه فى الحلال و الحرام و ينسبونها إلى اللّه،و ما شابه ذلك.

و أمّا الكلام الصادق الذى أنزل إليهم و كذّبوه فهو القرآن المجيد.

خاتمه الآيه تبيّن فى جمله قصيره جزاء أمثال هؤلاء الأفراد،قال تعالى:

أَ لَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكافِرِينَ

(۱)

.

أمّا المجموعه الثّانيه فقد وصفها القرآن الكريم بوصفين،إذ قال: وَ الَّذِى جٰاءَ بِالصِّدْقِ وَ صَدَّقَ بِهِ أُولٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ .

فبعض الرّوايات الوارده عن أئمّه الهدى عليهم السّلام فسّرت: وَ الَّذِى جٰاءَ بِالصِّدْقِ بأنّها تعود على النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم و صَدَّقَ بِهِ تعود على على عليه السّلام (۲) ،و بالطبع فإن المقصود من ذلك هو باين مصداقيه الآيه،لأنّ عباره: أُولٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ دليل على شموليه الآيه.

و من هنا يتّضح أنّ تفسير الآيه المذكوره أعلاه بأن المراد شخص رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم الذى هو مهبط الوحى و المصدق به فى نفس الوقت،فهو أيضا من قبيل بيان مصداق الآيه و ليس بيان المفهوم العام لها.

لذلك فإنّ مجموعه من المفسّرين فسّروا عباره قوله تعالى: وَ الَّذِى جٰاءَ بِالصِّدْقِ بأنّه يعنى كلّ الأنبياء و صَدَّقَ بِهِ يعنى أتباعهم الحقيقيين،و هم المتقون.

و هناك تفسير آخر للآيه،لكنّه أوسع و أكثر شموليه من التفاسير الأخرى، رغم أنّه لم يحظ كثيرا باهتمام المفسّرين،لكنّه أكثر انسجاما مع ظاهر الآيات، و التّفسير هو أن اَلَّذِى جٰاءَ بِالصِّدْقِ ليس منحصرا فى الرّسل فقط،و إنّما يشمل كلّ الذين يبلغون نهج الأنبياء و يروجون كلام اللّه،و فى هذه الحاله فلا يوجد أى

۱- ۱) -«مثوى»:من ماده(ثواء)و تعنى الإقامه المستمره فى مكان ما و لهذا فإنّ(مثوى)هنا تعنى المكان و المنزل الدائم.

۲- ۲) -مجمع البيان ذيل آيات البحث.

مانع من القول بأن العبارتين تنطبقان على مجموعه واحده(كما يوضح ذلك ظاهر الآيه،لأنّ ضمير(و الذى ذكر مرّه واحده فقط).

و بهذا الشكل فإنّ الآيه تتحدّث عن أناس هم من حمله الرساله و من العاملين به،و تتحدّث عن أولئك الذين ينشرون فى العالم ما ينزل به الوحى من كلام البارئ عزّ و جلّ و هم يؤمنون به و يعملون به،و هكذا فإنّ الآيه تضم الأنبياء و الأئمّه المعصومين و الدعاء لنهج الأنبياء.

و الملفت للنظر أنّ الايه عبّرت عن الوحى«بالصدق»و هو اشاره إلى أن .الكلام الوحيد الذى لا يحتمل وجود الكذب و الخطأ فيه هو كلام اللّه الذى نزل به الوحى،فإن سار الإنسان فى ظلّ تعليمات نهج الأنبياء و صدقها فإنّ التقوى سوف تتفتح فى داخل روحه.

الآيه التاليه تبيّن أنّ هناك ثلاث مثوبات بانتظار أفراد هذه المجموعه،أى المصدقين،إذ تقول فى البدايه: لَهُمْ مٰا يَشٰاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذٰلِكَ جَزٰاءُ الْمُحْسِنِينَ .

لهذه الآيه مفهوم واسع بحيث يشمل كلّ النعم الماديه و المعنويه التى يمكن تصورها و التى لا يمكن تصورها.

و على ضوء هذه الآيه يطرح البعض السؤال التالى:إذا طلب أحدهم أن يكون مقامه أرفع من مقام الأنبياء و الأولياء،فهل يعطى ذلك؟ علينا أن لا نغفل عن كون أهل الجنّه يدركون عين الحقيقه،و لهذا لا يفكر أحد منهم بأمر يخالف الحقّ و العداله،و لا يتناسب مع أساس توازن اللياقات و الكفاءات.

بعباره اخرى:لا يمكن أن يحصل أشخاص لهم درجات مختلفه فى الإيمان و العمل على نفس الجزاء،فكيف يأمل أصحاب الجنّه فى تحقيق أشياء مستحيله؟! و فى نفس الوقت فإنّهم يعيشون فى حاله روحيه خاليه من الحسد و الغيره،و هم راضون بما رزقوا به.

و كما هو معلوم فإنّ المكافاه الإلهيه فى الآخره و حتى التفضيل الإلهى للبعض دون البعض الآخر إنّما يتمّ على أساس اللياقه التى حصل عليها الإنسان فى هـذه الـدنيا،فالـذى يعرف أنّ إيمانه و عمله فى هـذه الدنيا لم يصل إلى درجه إيمان و عمل الآخرين لا يأمل يوما ما أن يكون بمرتبتهم، لإنّ ذلك أمل و رجاء غير منطقى.

و عباره: عِنْدَ رَبِّهِمْ تبيّن عدم انقطاع اللطف الإلهى عن أولئك و كأنّهم ضيوف اللّه على الدوام،و كلّ ما يطلبونه يوفر لهم.

و عبـاره: ذٰلِكَ جَزٰاءُ الْمُحْسِنِينَ أقيم فيهـا الظـاهر مقـام ضـمير الإشـاره،اشـاره الى أن إحسـانهم و عملهم الصالـح كانا سـببا فى حصولهم على الأجر المذكور.

أمّا المكافأتـان الثـانيه و الثّالثه اللتان يمنحهما البارئ عزّ و جلّ للمصـدقين، فيقول القرآن المجيـد بشأنهما: لِيُكَفِّرَ اللّٰهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِى عَمِلُوا وَ يَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِى كٰانُوا يَعْمَلُونَ (1) .

كم هى عبـاره جميله و لطيفه!فمن جـانب يـدعون اللّه سـبحانه و تعالى ليكفّر عنهم أسوأ ما عملوا بظلّ لطفه،و يطهرهم من تلك البقع السوداء بمـاء التوبه،و من جهه اخرى يـدعون اللّه ليجعـل أفضل و أحسن أعمالهم معيارا للمكافأه،و أن يجعل بقيه أعمالهم ضمن ذلك العمل.

إنّ ما يتّضـح من الآيات الكريمه هو أنّ اللّه اسـتجاب لـدعواهم،عنـد ما غفر لهم و عفا عن أسوأ أعمالهم،و جعل أفضل الأعمال معيارا للمكافأه.

من البـديهى،عنـد مـا يشـمل العفو الإلـهى الزلّات الكبيره،فإنّ الزلات الصـغيره أولى بالشـمول،لأنّ الزلات الكبيره هى التى تقلق الإنسان أكثر من أىّ شىء آخر،

ص :82

1- 1) -فى عوده قوله تعالى: لِيُكَفِّرَ اللّٰهُ عَنْهُمْ ذكر المفسّرون آراء شتى بهذا الشأن و لكن التّفسير الذى يبدو أنسب هو أنّها تعود على الفعل(أحسـنوا)و يفهم ذلك من كلمه المحسـنين،و التقدير(ذلك جزاء المحسنين أحسنوا ليكفر اللّه عنهم)نعم إنّهم عمدوا إلى عمل الإحسان كى يكفر اللّه عهم سيئاتهم و يغفر زلاتهم و يعطيهم أفضل الثواب.

و لهذا السبب فإنّ المؤمنين كثيرا ما يفكرون بها.

و ثمه سؤال يطرح نفسه هنا:إذا كانت الآيات السباقه تخص الأنبياء و المؤمنين من أتباعهم،فكيف اقترف هؤلاء تلك الزلات الكبيره؟ الجواب على هذا السؤال يتّضح من خلال الانتباه إلى أنّه عند ما ينسب عمل ما إلى مجموعه،فهذا لا يعنى أنّ الجميع قاموا بذلك العمل،و إنّما يكفى أن تقوم به مجموعه صغيره منهم،فمثلا عند ما نقول:إن بنى العباس خلفوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم من دون أىّ حق،فإنّ هذا لا يعنى أنّ الكل اعتلوا كرسى الخلافه،و إنّما مجموعه منهم.

الآيه المذكوره أعلاه تبيّن أنّ مجموعه من حمله الرساله و أتباع نهجهم كانوا قد ارتكبوا بعض الأخطاء و الزلاّت،و أنّ البارئ عزّ و جلّ صفح عنهم و غفر لهم بسبب أعمالهم الصالحه و الحسنه.على أيّه حال فإنّ ذكر الغفران و الصفح قبل ذكر الثواب،يعود إلى هذا السبب،و هو أنّ عليهم فى البدايه أن يغتسلوا و يتطهروا، و من ثمّ الورود الى مقام القرب الالهى.يجب عليهم فى البدايه أن يريحوا أنفسهم من العذاب الإلهى كى يتلذذوا بنعم الجنّه.

مسأله:

الكثير من المفسّرين المسلمين من الشيعه و السنه نقلوا الرّوايه التاليه بشأن تفسير هذه الآيه،و هى أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم هو المقصود فى وَ الَّذِى جٰاءَ بِالصِّدْقِ و أن الإمام على عليه السّلام هو المقصود فى صَدَّقَ بِهِ .

المفسّر الإسلامى الكبير العلاّمه«الطبرسى»نقل ذلك فى تفسيره(مجمع البيان)عن أهل البيت الأطهار،و نقلها كذلك أبو الفتوح الرازى فى تفسير(روح الجنان)عن نفس المصدر السابق. كما نقلت مجموعه من المفسّرين السنه ذلك عن أبى هريره نقلا عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم،و عن طرق اخرى،و من جمله من نقله

العلاّمه ابن المغازلی فی(المناقب)و(العلاّمه الگنجی)فی(کفایه الطالب) و القرطبی فی تفسیره و العلاّمه السیوطی فی(الدر المنثور)و کذلک(الآلوسی)فی (روح المعانی) (۱) .

و مثلما أشرنا من قبل فإنّ نقل مثل هذه التفاسیر هو بیان أوضح المصادیق، و من دون أیّ شکّ فإنّ الإمام علیّ علیه السّلام یقف فی مقدمه الصفّ الأوّل لأتباع النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم و المصدّقین به،و إنّه هو أول من صدّق برسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم،و لا یوجد أحد من العلماء من ینکر هذه الحقیقه.

و الاعتراض الوحید الذی صدر عن بعض المفسّرین هو أنّ الإمام علی علیه السّلام آمن بالرّسول و کان عمره ما بین(۱۰)إلی(۱۲)عاما،و أنّه لم یکن مکلّفا فی هذا السّن و لم یبلغ بعد سنّ الحلم.

هذا الکلام عجیب جدّا،فکیف یمکن أن یکون مثل هذا الاعتراض صحیحا، فی الوقت الذی قبل فیه رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم إسلام علی علیه السّلام،و قال له بأنّه(وزیره)و (وصیه)و أکّد مرارا و تکرارا فی کلماته علی أنّ علیا هو(أول المؤمنین)أو (أوّلکم إسلاما)و قد أوردنا فی نهایه الآیه(۱۰)من سوره التوبه أدله متعدده من کتب علماء أهل السنه و بصوره مفصله.

---

۱ – ۱) -لمن یرغب الاطلاع أکثر علیه مراجعه کتاب إحقاق الحق،المجلد الثّالث،الصفحه ۱۷۷ فما بعد،و کتاب المراجعات، الصفحه ۶۴(المراجعه ۱۲).

الآیتان [سوره الزمر (۳۹): الآیات ۳۶ الی ۳۷]

اشاره

أَ لَیْسَ اَللّٰهُ بِکٰافٍ عَبْدَهُ وَ یُخَوِّفُونَکَ بِالَّذِینَ مِنْ دُونِهِ وَ مَنْ یُضْلِلِ اَللّٰهُ فَمٰا لَهُ مِنْ هٰادٍ (۳۶) وَ مَنْ یَهْدِ اَللّٰهُ فَمٰا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَ لَیْسَ اَللّٰهُ بِعَزِیزٍ ذِی اِنْتِقٰامٍ (۳۷)

سبب النّزول

الکثیر من المفسّرین قالوا:إنّ مشرکی قریش کانوا یخوفون رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم من آلهتهم و یحذرونه من غضبها علی أثر وصفه تلک الأوثان بأوصاف مزریه، و یوعدونه بأنّه إن لم یسکت عنها فستصیبه بالأذی،و للرد علی کلامهم نزلت الآیه المذکوره أعلاه (۱) .

و البعض قال:عند ما عزم خالد علی کسر العزی بأمر من النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم قال المشرکون:إیاک یا خالد فبأسها شدید.فضرب خالد أنفها بالفأس و هشمها و قال:

کفرانک یا عزی لا سبحانک،سبحان من أهانک،إنّی رأیت اللّه قد أهانک (۲) .

و لکن قصه خالد هذه التی کانت بعد فتح مکّه کما یبدو،لا یمکن أن تکون سببا لنزول الآیه لأنّ کلّ سوره الزمر(مکیه)و لهذا لعلها من قبیل التطابق.

۱- ۱) -تفسیر الکشاف و مجمع البیان و أبو الفتوح الرازی و فی ظلال مع اختلافات جزئیه.

۲- ۲) -مجمع البیان ذیل آیات البحث(هذه الروایه وردت أیضا فی الکشاف و القرطبی و بصوره مختصره).

اشاره

إن اللّه كاف!

تتمه لتهديدات البارئ عزّ و جلّ التی وردت فی الآیات السابقه للمشرکین، و الوعد التی لأنبیائه،تتطرق الآیه الأولی فی بحثنا لتهدید الکفّار أَ لَیْسَ اللّهُ بِکافٍ عَبْدَهُ وَ یُخَوِّفُونَکَ بِالَّذِینَ مِنْ دُونِهِ .

إن قدره البارئ عزّ و جلّ أقوی و أعظم من کلّ القدرات الأخری،و هو الذی یعلم بکلّ احتیاجات و مشکلات عباده،و الذی هو رحیم بهم غایه الرحمه و اللطف،کیف یترک عباده المؤمنین لوحدهم أمام أعاصیر الحوادث و عدوان بعض الأعداء؟ و مع أن سبب نزول هذه الآیه-طبقا لما جاء فی الرّوایات التی ذکرناها-هو للرد علی التخویف و التهدید بغضب الأصنام،لکن معنی الآیه أوسع،و یتّسع لکلّ تهدید یهدد به الإنسان بما هو دون اللّه.

علی أیه حال،فإنّ فی هذه الآیه بشری لکلّ السائرین فی طریق الحقّ و المؤمنین الحقیقیین،خاصّه أولئک الذین یعیشون أقلیه فی بعض المجتمعات، و المحاطین بمختلف أشکال التهدید من کلّ جانب.

الآیه تعطیهم الأمل و الثبات،و تملأ أرواحهم بالنشاط و تجعل خطواتهم ثابته،و تمحو الآثار النفسیه لصدمات تهدیدات الأعداء،نعم فعند ما یکون اللّه معنا فلا نخاف غیره،و إن انفصلنا و ابتعدنا عنه فسیکون کلّ شیء بالنسبه لنا رهیبا و مخیفا.

و کتتمه للآیه السابقه و الآیه التالیه اشاره إلی مسأله(الهدایه)و(الضلاله) و تقسم الناس إلی قسمین:(ضالین)و(مهتدین)و کل هذا من اللّه سبحانه و تعالی، کی تبیّن أنّ جمیع العباد محتاجون لرحمته،و من دون إرادته لا یحدث شیء فی هذا العالم،قال تعالی: وَ مَنْ یُضْلِلِ اللّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ .

وَ مَنْ يَهْدِ اللّهُ فَمٰا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ

.

و من البـديهى أنّ الضـلاله لاـ تـأتى من دون سـبب،و كـذلك الهـدايه بـل إن كـلّ حـاله منهمـا هى اسـتمرار لإـراده الإنسـان و جهوده،فالـذى يضع قـدمه فى طريق الضـلال،و يبـذل أقصـى جهوده من أجـل إطفـاء نور الحقّ،و لاـ يترك أدنى فرصه تتـاح له لخـداع الآـخرين و إضـلالهم، فمن البـديهى أنّ اللّه سيضـله،و لاـ يكتفى بعـدم تـوفيقه و حسب،و إنّمـا يعطّـل قـوى الإـدراك و التشخيص التى لديه عن العمل،و يوصد قلبه الأقفال و يغطى عينيه بالحجب،و هذه هى نتيجه الأعمال التى ارتكبها.

أمّا الـذين يعزمون على السـير إلى اللّه سـبحانه و تعالى بنوايا خالصه،و يخطون الخطوات الأولى فى هـذا المسـير،فإنّ نور الهدايه الإـلهيه يشعّ لينير لهم الطريق، و تهبّ ملائكه الرحمن لمساعـدتهم و لتطهير قلوبهم من وساوس الشـياطين،فتكون إرادتهم قويه،و خطواتهم ثابته،و اللطف الإلهى ينقذهم من الزلّات.

و قـد وردت آيات كثيره فى القرآن المجيـد كشاهد على تلك القضايا،و ما أشدّ جهل الذين فصـلوا بين مثل هذه الآيات و بقيه آيات القرآن و اعتبروها شاهـدا على ما ورد فى المـذهب الجبرى،و كأنّهم لا يعلمون أن آيات القرآن تفسّـر إحداها الأخرى.بل إن القرآن الكريم بقول فى نهايه هذه الآيه: أَ لَيْسَ اللّهُ بِعَزِيزٍ ذِى انْتِقٰامٍ و هو خير شاهد على هذا المعنى.

و كمـا هو معروف فـإنّ الانتقـام الإـلهى هو بمعنى الجزاء على الأعمال المنكره التى اقترفها الإنسان،و هـذا يشـير إلى أن إضـلاله سبحـانه و تعالى للإنسان هو بحـدّ ذاته نوع من أنواع الجزاء وردّ فعل لأعمال الإنسان نفسه،و بالطبع فإن هـدايته سـبحانه و تعالى للإنسان هى بحد ذاتها نوع أنواع الثواب،و هى ردّ فعل للأعمال الصالحه و الخالصه التى يقوم بها الإنسان (۱) .

ص :۸۷

۱- ۱) -يقول الراغب فى مفرداته:كلمه(نقمه)تعنى العقوبه و الجزاء.

بحثان

اشاره

١-الهدايه و الإضلال من اللّه:

«الهدايه»:في اللغه تعنى التوجيه و الإرشاد بلطف و دقّه (١) ،و تنقسم إلى قسمين(بيان الطريق)،و(الإيصال إلى المطلوب)و بعباره اخرى(هدايه تشريعيه)و(هدايه تكوينيه) (٢) .

و لتوضيح ذلک نقول:إنّ الإنسان يصف أحيانا الطريق للسائل بدقّه و لطف و عنايه و يترک السائل معتمدا على الوصف فى قطع الطريق و الوصول إلى المقصد المطلوب.و أحيانا اخرى يصف الإنسان الطريق للسائل و من ثمّ يمسک بيده ليوصله إلى المكان المقصود.

و بعباره اخرى:الشخص المجيب فى الحاله الأولى يوضّح القانون و شرائط سلوک الطريق للشخص السائل كى يعتمد الأخير على نفسه فى الموصول إلى المقصد و الهدف،أمّا فى الحاله الثانيه،فإضافه إلى ما جاء فى الحاله الأولى،فإنّ الشخص المجيب يهىء مستلزمات السفر،و يزيل الموانع الموجود،و يحلّ المشكلات،إضافه إلى أنّه يرافق الشخص السائل فى سلوک الطريق حتّى الوصول إلى مقصده النهائى لحمايته و الحفاظ عليه.

و(الإضلال)هو النقطه المقابله ل(الهدايه).

فلو ألقينا نظره عامه على آيات القرآن لا تضح لنا-بصوره جيده-أنّ القرآن يعتبر أنّ الضلاله و الهدايه من اللّه،أى أن الاثنين ينسبان إلى اللّه،و لو أردنا أن نعدد كل الآيات التى تتحدث بهذا الخصوص،لطال الحديث كثيرا،و لكن نكتفى بذكر ما جاء فى الآيه(٢١٣)من سوره البقره: وَ اللّٰهُ يَهْدِي مَنْ يَشٰاءُ إِلىٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِيمٍ

١- ١) -«مفردات»ماده(هدى).

٢- ٢) -نلفت الانتباه إلى أن الهدآيه التكوينيه هنا قد استخدمت بمعناها الواسع،حيث تشمل كل أشكال الهدآيه عدا الهدآيه التى تأتى عن طريق بيان الشرائع و التوجيه إلى الطريق.

و فی الآیه(۹۳)من سوره النحل: وَ لٰكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشٰاءُ وَ يَهْدِي مَنْ يَشٰاءُ .و أمثال هـذه الآيات-الخاصه بالهـدايه أو الضـلال أو أحدهما-ورد فی آيات كثيره من القرآن المجيد (۱) .

و أكثر من هذا،فقد جاء فی بعض الآيات نفی قدره الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و اله و سلّم على الهدايه و تحديد القدره على الهدايه باللّه سبحانه و تعالى،كما ورد فی الآيه(۵۶) من سوره القصص: إِنَّكَ لاٰ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لٰكِنَّ اللّٰهَ يَهْدِي مَنْ يَشٰاءُ .و فی الآيه(۲۷۲)من سوره البقره: لَيْسَ عَلَيْكَ هُدٰاهُمْ وَ لٰكِنَّ اللّٰهَ يَهْدِي مَنْ يَشٰاءُ .

الـدراسه السـطحيه لهـذه الآيـات و عـدم إدراك معانيهـا العميقه أدى الى زيغ البعض خلال تفسـيرهم لها و انحرافهم عن طريق الهـدايه و وقوعهم فی فخـاخ المـذهب الجبرى،حتّى أنّ بعض المفسّرين المعروفين لم ينجوا من هـذا الخطأ الكبير،حيث اعتبروا الضـلاله و الهـدايه و فی كـلّ مراحلها أمرا جبريا،و الأدهى من ذلك أنّهم أنكروا أصل العـداله كی لا ينتقض رأيهم،لأنّ هناك تناقضـا واضـحا بين عقيـدتهم و بين مسـأله العـداله و الحكمه الإلـهيه،فإذا كنا أساسا نقول بالجبر،فلا يبقى هناك داع للتكليف و المسؤوليه و إرسال الرسل و إنزال الكتب السماويه.

أمّا المعتقدون بمذهب الإختيار و أن الإنسان مخير فی هذه الدنيا-و أن العقل السـليم لا يقبل مطلقا بأن اللّه سبحانه و تعالى يجبر مجموعه من الناس على سـلوك سبيل الضلال ثمّ يعاقبهم على عملهم ذلك،أو أنّه يهدى مجموعه اخرى إجباريا ثم يمنحها-من دون أى سـبب-المكافأه و الثواب،و يفضـلها على الآخرين لأدائها عملا كانت قد أجبرت على القيام به- فهؤلاء انتخبوا لأنفسـهم تفاسير اخرى لهذه الآيات،كان أهمها:

۱-إنّ المراد من الهدايه الإلهيه هی الهدايه التشريعيه التی تأتی عن طريق

---

۱ - ۱) -و منهـا مـا ورد فی السـور و الآيـات التـاليه(فـاطر-۸)و(الزمر-۲۳)و(المدثر-۳۱)و(البقره-۲۷۲)و(الأنعام-۸۸)و (يونس-۲۵)و(الرعد-۲۷)و(إبراهيم-۴).

الوحی و الکتب السماویه و إرسال الأنبیاء و الأوصیاء،إضافه إلی إدراک العقل و الشعور،أمّا انتهاج السبیل فهو فی عهده الإنسان فی کافه مراحل حیاته.و بالطبع فإنّ هذا التّفسیر یتطابق مع الکثیر من الآیات القرآنیه التی تتناول موضوع الهدایه،و لکن هناک آیات کثیره اخری لا یمکن تطابقها مع هذا التّفسیر،لأنّ فیها نوعا من الصراحه فیما یخص(الهدایه التکوینیه)و(الإیصال إلی الهدف)کما ورد فی الآیه(۵۶)من سوره القصص: إِنَّکَ لاٰ تَهْدِی مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لٰکِنَّ اللّٰهَ یَهْدِی مَنْ یَشٰاءُ .فی حین أنّنا نعرف أنّ الهدایه التشریعیه و التوجیه نحو الطریق الصحیح، هی الواجب الرئیسی للأنبیاء.

۲-مجموعه اخری من المفسّرین فسّروا الهدایه و الضلال اللذین لهما هنا طابع تکوینی علی أنّهما الثواب و العقاب،و الإرشاد إلی طریق الجنّه و النّار،و قالوا بأن الباریٔ عزّ و جلّ یهدی المؤمنین إلی طریق الجنّه،و یضل عنها الکافرین.

إن هذا المعنی صحیح بالنسبه لعدّه آیات فقط،و لکنّه لا یتطابق مع آیات اخری تتحدث عن الهدایه و الإضلال بصوره مطلقه.

۳-مجموعه ثالثه قالت:إنّ المراد من الهدایه هو تهیئه الأسباب و المقدمات التی توصل إلی الغرض المطلوب،و المراد من الضلاله هو عدم توفیر تلک الأسباب و المقدمات أو حجبها عنهم،و التی عبّر عنها البعض ب(التوفیق)و(سلب التوفیق)لأنّ التوفیق یعنی تهیئه المقدمات للوصول إلی الهدف،و سلب التوفیق یعنی عدم تهیئه تلک المقدمات.

و وفقا لهذا فإنّ الهدایه الإلهیه لا تعنی أنّ الباریٔ عزّ و جلّ یجبر الإنسان علی الوصول إلی الهدف،و إنّما یضع الوسائل المطلوبه للوصول تحت تصرفهم و اختیارهم،و علی سبیل المثال،وجود مربّ جید،بیئه سالمه للتربیه،أصدقاء و جلساء صالحین،و أمثالها،کلها من المقدمات،و رغم وجود هذه الأمور فإنّه لا یجبر الإنسان علی سلوک سبیل الهدایه.

و ثمّه سؤال یبقی مطروحا،و هو:لماذا یشمل التوفیق مجموعه دون اخری؟ المنحازون لهذا التّفسیر علیهم أن ینتبهوا إلی حکمه أفعال البارئ عزّ و جلّ و یعطوا دلائل لهذا الاختلاف،فمثلا یقولون:إنّ عمل الخیر هو سبب التوفیق الإلهی،و تنفیذ الأعمال الشریره تسلب التوفیق من الإنسان.

و علی أیّه حال فإنّ هذا التّفسیر جید و لکن الموضوع ما زال أعمق من هذا.

۴-إنّ أدق تفسیر یتناسب مع کلّ آیات الهدایه و الضلال،و یفسرها جمیعا بصوره جیده من دون أن یتعارض أدنی تعارض مع المعنی الظاهری،و هو أنّ الهدایه التشریعیه التی تعنی(إراءه الطریق)لها خاصیه عامّه و شامله،و لا توجد فیها أی قیود و شروط،کما ورد فی الآیه(۳)من سوره الدهر: إِنّٰا هَدَیْنٰاهُ السَّبِیلَ إِمّٰا شٰاکِراً وَ إِمّٰا کَفُوراً و فی الآیه(۵۱)من سوره آل عمران: وَ إِنَّکَ لَتَهْدِی إِلیٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِیمٍ و من البدیهی أن دعوه الأنبیاء هی مظهر دعوه اللّه تعالی.لأن کلّ ما عند النّبی هو من اللّه.

و بالنسبه إلی مجموعه من المنحرفین و المشرکین ورد فی الآیه(۲۳)من سوره النجم: وَ لَقَدْ جٰاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدیٰ .

أمّا الهدایه التکوینیه فتعنی الإیصال إلی الغرض المطلوب،و الأخذ بید الإنسان فی کلّ منعطفات الطریق،و حفظه و حمایته من کلّ الأخطار التی قد تواجهه فی تلک المنعطفات حتی إیصاله إلی ساحل النجاه،و هی أی الهدایه التکوینیه-موضع بحث الکثیر من آیات القرآن الأخری التی لا یمکن تقییدها بأیه شروط،فالهدایه،هذه تخصّ مجموعه ذکرت أوصافهم فی القرآن،أمّا الضلال الذی هو النقطه المقابله للهدایه فإنه یخص مجموعه اخری ذکرت أوصافهم أیضا فی القرآن الکریم.

و رغم وجود بعض الآیات التی تتحدث عن الهدایه و الإضلال بصوره مطلقه، إلا أن هناک الکثیر من الآیات الأخری التی تبیّن-بدقه-محدودیتهما،و عند ما

تضع الآيات(المطلقه)إلى جانب(المحدوده)يتّضح المعنى بصوره كامله، و لا يبقى أى غموض أو إبهام فى معين الآيات،كما أنّها-أى الآيات-تؤّكد بشده على مسأله الإختيار و حريه الإراده عند الإنسان و لا تتعارض معهما.

الآن يجب الانتباه إلى التوضيح التالى:

القرآن المجيد يقول فى إحدى آياته: يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَ يَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَ مَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ و فى مكان آخر يقول البارئ عزّ و جلّ: وَ اللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١) و هذا يبيّن أن الظلم مقدمه للظلال.و من هنا يتّضح أن الفسق، أى عدم إطاعه أوامر البارئ تعالى و هو مصدر الضلال.

و فى موضع آخر نقرأ: وَ اللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢) ،و هنا اعتبر الكفر هو الذى يهىء أرضيه الضلال.

و قد ورد فى آيه اخرى: إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ (٣) يعنى أنّ الكذب و الكفر هما مقدمه الضلال.

و الآيه التاليه تقول: إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (٤) أى أن الإسراف و الكذب يسببان الضلاله.

و بالطبع،فإنّ ما أوردناه كان جزاء يسيرا من آيات القرآن التى تتناول هذا الموضوع،فبعض الآيات وردت مرات عديده فى سوره القرآن المختلفه و هى تحمل المعانى و المفاهيم.

إن ما يمكن استنتاجه هو أنّ القرآن الكريم يؤكّد على أنّ الضلاله الإلهيه تشمل كلّ من توفرت فيه هذه الصفات(الكفر)و(الظلم)و(الفسق)و(الكذب).

(الإسراف)فهل أن الضلاله غير لائقه بمن تتوفر فيه مثل هذه الصفات!

١- ١) -البقره،٢٥٨.

٢- ٢) -البقره،٢٦٤.

٣- ٣) -الزمر،٣.

٤- ٤) -غافر،٢٨.

و بعباره اخری:هل ینجو قلب من یتصف بتلک الصفات القبیحه،من الغرق فی الظلمات و الحجب؟! و بعباره اخری أوضح:أنّ لهذه الأعمال و الصفات آثارا تلاحق الإنسان شاء أم أبی،إذ ترمی بستائرها علی عینیه و أذنیه و عقله،و تؤدی به إلی الضلال،و لکون خصوصیات کلّ الأشیاء و تأثیرات کلّ الأسباب إنّما هی بأمر من اللّه،و من الممکن أیضا أن ینسب الإضلال إلیه سبحانه و تعالی فی جمیع هذه الموارد،و هذه النسبه هی أساس اختیار الإنسان و حریه إرادته.

هذا فیما یتعلق بالضلاله،أمّا فیما یخص الهدایه،فقد وردت فی القرآن المجید شروط و أوصاف تبیّن أنّ الهدایه لا تقع من دون سبب و خلاف الحکمه الإلهیه.

و قد استعرضت الآیات التالیه بعض الصفات التی تجعل الإنسان مستحقا للهدایه و محاطا باللطف الإلهی،منها: یَهْدِی بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَ یُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَی النُّورِ بِإِذْنِهِ وَ یَهْدِیهِمْ إِلی صِراطٍ مُسْتَقِیمٍ (1) .

إذن فاتباع أمر اللّه،و کسب مرضاته یهیئان الأرضیه للهدایه الإلهیه.

و فی مکان آخر نقرأ: إِنَّ اللّهَ یُضِلُّ مَنْ یَشاءُ وَ یَهْدِی إِلَیْهِ مَنْ أَنابَ (2) إذن فالتوبه و الإنابه تجعلان الإنسان مستحقا للهدایه.

و فی آیه اخری ورد: وَ الَّذِینَ جاهَدُوا فِینا لَنَهْدِیَنَّهُمْ سُبُلَنا (3) فالجهاد، و خاصه(الجهاد الخالص فی سبیل اللّه)هو من الشروط الرئیسیه للهدایه.

و أخیرا نقرأ فی آیه اخری: وَ الَّذِینَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدیً (4) أی أن قطع مقدار من طریق الهدایه هو شرط للاستمرار فیه بلطف الباریء عزّ و جلّ.

۱- ۱) -المائده،الآیه ۱۶.

۲- ۲) -الرعد،الآیه ۲۷.

۳- ۳) -العنکبوت،الآیه ۶۹.

۴- ۴) -محمّد،الآیه ۱۷.

نستنتج من ذلک أنّه لو لم تکن هناک توبه و إنابه من العبد،و لا اتباع لأوامر اللّه،و لا جهاد فی سبیله و لا بذل الجهد و قطع مقدار من طریق الحق،فإن اللطف الإلهی لا یشمل ذلک العبد،و سوف لا یمسک الباریٔ بیده لإیصاله إلی الغرض المطلوب.

فهل أنّ شمول هؤلاء الذین یتحلون بهذه الصفات بالهدایه هو أمر عبث،أو أنّه دلیل علی هدایتهم بالإجبار؟ من الملاحظ أنّ آیات القرآن الکریم فی هذا المجال واضحه جدّا و معناها ظاهر،و لکن الذین عجزوا عن الخروج بنتیجه صحیحه من آیات الهدایه و الضلال ابتلوا بمثل هذا الابتلاء و(لأنّهم لم یشاهدوا الحقیقه فقد ساروا فی طیق الخیال).

إذن یجب القول بأنّهم هم الذین اختاروا لأنفسهم سبیل(الضلال).

علی أیه حال،فإنّ المشیئه الإلهیه فی آیات الهدایه و الضلال لم تأت عبثا و من دون أی حکمه،و إنّما تتمّ بشرائط خاصّه،بحیث تبیّن تطابق حکمه الباریٔ عزّ و جلّ مع ذلک الأمر.

٢-الاتکال علی لطف اللّه

یعتبر الإنسان کالقشه الضعیفه فی مهب الریاح العاتیه التی تهب هنا و هناک فی کلّ لحظه من الزمان،و یمکن أن تتعلق هذه القشه بورقه أو غصن مکسور تأخذه الریاح أیضا مع تلک القشه الضعیفه،و نرمیهما جانبا،و حتی إذا تمکنت ید الإنسان من الإمساک بشجره کبیره فإنّ الأعاصیر و الریاح العاتیه تقتلع أحیانا تلک الشجره من جذورها،أمّا إذا لجأ الإنسان إلی جبل عظیم فإن أعتی الأعاصیر لا تتمکن من أن تزحزح ذلک الجبل و لو بمقدار رأس إبره من مکانه.

الایمان باللّه بمثابه هذا الجبل و الاعتماد و الاتکال علی غیر اللّه بمثابه الاعتماد علی الأشیاء الواهیه،و لهذا السبب یقول الباریٔ عزّ و جلّ فی الآیات

المذکوره أعلاه: أَ لَیْسَ اللّٰهُ بِکٰافٍ عَبْدَهُ الإعتقاد و الإیمان بما جاء فی هذه الآیه یضیف للإنسان شجاعه و اعتمادا علی النفس،و تطمئن خواطره و تهدئها،کی یصمد و یثبت أمام الحوادث کالجبل،و لا یخاف حشود الأعداء،و لا یستوحش من قلّه عدد أتباعه أو أصحابه،و لا تعبث المشاکل الصعبه بروحه الهادئه المستقره،و قد ورد فی الحدیث«المؤمن کالجبل الراسخ لا تحرکه العواصف»

الآیات [سوره الزمر (٣٩): الآیات ٣٨ الی ۴٠]

اشاره

وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضَ لَیَقُولُنَّ اَللّٰهُ قُلْ أَ فَرَأَیْتُمْ مٰا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ إِنْ أَرٰادَنِیَ اَللّٰهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ کٰاشِفٰاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرٰادَنِی بِرَحْمَهٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِکٰاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِیَ اَللّٰهُ عَلَیْهِ یَتَوَکَّلُ اَلْمُتَوَکِّلُونَ (٣٨) قُلْ یٰا قَوْمِ اِعْمَلُوا عَلیٰ مَکٰانَتِکُمْ إِنِّی عٰامِلٌ فَسَوْفَ تَع(٣٩)Π…ṣ…ǫIř…) مَنْ یَأْتِیهِ عَذٰابٌ یُخْزِیهِ وَ یَحِلُّ عَلَیْهِ عَذٰابٌ مُقِیمٌ (۴٠)

التّفسیر

اشاره

هل إن آلهتکم قادره علی حل مشاکلکم؟

الآیات السابقه تحدثت عن العقائد المنحرفه للمشرکین و العواقب الوخیمه التی حلّت بهم،أمّا آیات بحثنا هذا فإنّها تستعرض دلائل التوحید کی تکمل البحث السابق بالأدله،کما تحدثت الآیات السابقه عن دعم الباریء عزّ و جلّ لعباده و کفایه هذا الدعم،و الآیات أعلاه تتابع هذه المسأله مع ذکر الدلیل.

فی البدایه تقول الآیه: وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ لَیَقُولُنَّ اللّٰهُ .

العقل و الوجدان لا يقبلان أن يكون هذا العالم الكبير الواسع بكل هذه العظمه مخلوق من قبل بعض الكائنات الأرضيه،فكيف يمكن للعقل أن يقبل أنّ الأصنام التى لا روح فيها و لا عقل و لا شعور هى التى خلقت هذا العالم،و بهذا الشكل فإنّ القران يحاكم أولئك إلى عقولهم و شعورهم و فطرتهم،كى يثبّت أول أسس التوحيد فى قلوبهم،و هى مسأله خلق السماوات و الأرض.

و فى المرحله التاليه تتحدث الآيات عن مسأله الربح و الخساره،و عن مدى تأثيرها على نفع أو ضرر الإنسان،كى تثبت لهم انّ الأصنام لا دور لها فى هذا المجال،و تضيف قُلْ أَ فَرَأَيْتُمْ مٰا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ إِنْ أَرٰادَنِيَ اللّٰهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كٰاشِفٰاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرٰادَنِي بِرَحْمَهٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكٰاتُ رَحْمَتِهِ (۱) .

و الآن بعد أن اتّضح أنّ الأصنام ليس بإمكانها أن تخلق شيئا و لا باستطاعتها أن تتدخل فى ربح الإنسان و خسارته،إذن فلم نعبدها و نترك الخالق الأصلى لهذا الكون،و الذى له اليد الطولى فى كلّ ربح و خساره،و نمد أيدينا إلى هذه الموجودات الجامده التى لا قيمه لها و لا شعور؟و حتى إذا كانت الآلهه ممن يمتلك الشعور كالجن أو الملائكه التى تعبد من قبل بعض المشركين،فإنّ مثل هذا الإله ليس بخالق و لا يمكنه أن يتدخل فى ربح الإنسان و خسارته،و كنتيجه نهائيه و شامله يقول البارئ عزّ و جلّ قُلْ حَسْبِيَ اللّٰهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ .

آيات القرآن المجيد أكّدت-و لعدّه مرات-على أنّ المشركين يعتقدون بأنّ اللّه سبحانه و تعالى هو خالق السموات و الأرض (۲) .و هذا الأمر يبيّن أن الموضوع كان بالنسبه للمشركين من المسلّمات،و هذا أفضل دليل على بطلان الشرك،لأن توحيد خالق الكون و الاعتراف بمالكيته و ربوبيته أفضل دليل على(توحيد

۱- ۱) -المفسّرون و اللغويون يفسّرون(أ فرأيتم)بأنّها تعطى معنى(أخبرونى)فى الوقت الذى لا يوجد فيه أى مانع من تفسيرها بمعناها الأصلى و هو رؤيه العين أو القلب.

۲- ۲) -العنكبوت(۶۱)و(۶۳)،لقمان(۳۱)،الزخرف(۹)و(۸۷).

المعبود)و من كلّ هذا نخلص إلى أن التوكل لا يكون إلّا على اللّه مع صرف النظر عن عباده غيره.

و إذا أمعنا النظر فى المواجهه التى حدثت بين إبراهيم محطم الأصنام و الطاغيه نمرود الذى ادعى الربوبيه و القدره على إحياء الناس و إماتتهم،و الذى أنبهت و تحير فى كيفيه تنفيذ طلب إبراهيم عليه السّلام عند ما طلب منه أن يجعل الشمس تشرق من المغرب إن كان صادقا فى ادعاءاته،مثل هذه الادعاءات التى يندر وجودها حتى فى أوساط عبده الأصنام،لا يمكن أن تصدر إلا من أفراد ذوى عقول ضعيفه و مغروره و بلهاء كعقل نمرود.

و الملفت للنظر أنّ الضمير العائد على تلك الآلهه الكاذبه فى هذه الآيات،إنّما جاء بصيغه جمع المؤنث(هن-كاشفات-ممسكات-)و ذلك يعود لأسباب:

أوّلا:إنّ الأصنام المعروفه عند العرب كانت تسمى بأسماء مؤنثه اللات و مناه و العزى).

ثانيا:يريد البارئ عزّ و جلّ بهذا الكلام تجسيد ضعيف هذه الآلهه أمامهم، و طبقا لمعتقداتهم،لأنّهم كانوا يعتقدون بضعف و عجز الإناث.

ثالثا:لأنّ هناك الكثير من الآلهه لا روح فيها،و صيغه جمع المؤنث تستخدم عاده بالنسبه إلى تلك الموجودات الجامده،لذا فقد استفيد منها فى آيات بحثنا هذا.

كما يجب الالتفات إلى أنّ عباره عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ تعطى معنى الحصر بسبب تقدم كلمه(عليه)و تعنى أن المتوكلين يتوكلون عليه فقط.

الآيه التاليه تخاطب أولئك الذين لم يستسلموا لمنطق العقل و الوجدان بتهديد إلهى مؤثر،إذ تقول: قُلْ يٰا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلىٰ مَكٰانَتِكُمْ إِنِّی عٰامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١) .

ص :٩٨

١- ١) -ما هو أصل كلمه(مكانه)؟و ماذا تعنى؟أغلب المفسّرين و اللغويين قالوا:إنّها تعنى المكان و المنزله،و هى من ماده

ستعلمون بمن سيحل عذاب الدنيا المخزى و العذاب الخالد فى الآخره مَنْ يَأْتِيهِ عَذٰابٌ يُخْزِيهِ وَ يَحِلُّ عَلَيْهِ عَذٰابٌ مُقِيمٌ .

و بهذا الشكل فإنّ آخر كلام يقال لأولئك هو:إمّا أن تستسلموا لمنطق العقل و الشعور و تستجيبوا لنداء الوجدان،أو أن تنتظروا عذابين سيحلان بكم، أحدهما فى الدنيا و هو الذى سيخزيكم و يفضحكم،و الثّانى فى الآخره و هو عذاب دائمى خالد،و هذا العذاب أنتم اعددتموه لأنفسكم،و أشعلتم النيران فى الحطب الذى جمعتموه بأيديكم.

(١)

(كون)و لأنّها تستخدم كثيرا بمعنى المكان لهذا يتصور أنّ الميم فيها أصليه،و لذا أصبح جمع تكسيرها(أمكنه)أما صاحب (لسان العرب)،فقد ذكر أنّ أصلها(مكنه)و(تمكن)و التى تعنى القدره و الاستطاعه،و على أيه حال فإنّ مفهوم الآيه يكون فى الحاله الأولى:ابقوا على مواقفكم،و فى الحاله الثانيه:ابذلوا كلّ ما لديكم من جهد و طاقه.

الآيات [سوره الزمر (٣٩): الآيات ۴۱ الی ۴۴]

اشاره

إِنّٰا أَنْزَلْنٰا عَلَيْكَ اَلْكِتٰابَ لِلنّٰاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اِهْتَدىٰ فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّمٰا يَضِلُّ عَلَيْهٰا وَ مٰا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (۴۱) اَللّٰهُ يَتَوَفَّى اَلْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهٰا وَ اَلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنٰامِهٰا فَيُمْسِكُ اَلَّتِي قَضىٰ عَلَيْهَا اَلْمَوْتَ وَ يُرْسِلُ اَلْأُخْرىٰ إِلىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيٰاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (۴۲) أَمِ اِتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اَللّٰهِ شُفَعٰاءَ قُلْ أَ وَ لَوْ كٰانُوا لاٰ يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَ لاٰ يَعْقِلُونَ (۴۳) قُلْ لِلّٰهِ اَلشَّفٰاعَةُ جَمِيعاً لَهُ مُلْكُ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (۴۴)

التّفسير

اشاره

اللّه سبحانه يتوفى الأنفس:

بعد ذكر دلائل التوحيد،و بيان مصير المشركين و الموحدين،تبيّن الآيه الأولى-فى هذا البحث-حقيقه مفادها أن قبول ما جاء فى كتاب اللّه أو عدم قبوله إنّما يعود بالفائده أو الضرر عليكم،و إن كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم يصرّ عليكم فى هذا

المجال،فإنّه لم يكن ينبغى جنى الأرباح من وراء ذلك،و إنّما كان يؤدى واجبا إلهيا، إِنّٰا أَنْزَلْنٰا عَلَيْكَ الْكِتٰابَ لِلنّٰاسِ بِالْحَقِّ (۱) .

و تضيف الآيه فَمَنِ اهْتَدىٰ فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّمٰا يَضِلُّ عَلَيْهٰا .

على أيه حال،فإنك لست مكلفا بإدخال الحق إلى قلوبهم بالإجبار، و إنّما عليك إبلاغهم و إنذارهم فقط وَ مٰا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ .

هذه القاعده بأنّ كلّ من اتبع طريق الحق عاد بالربح على نفسه،و من اتبع سبيل الضلال عاد بالخساره على نفسه،تكررت عدّه مرات فى آيات القرآن الكريم،كما أنّه تأكيد على حقيقه أنّ اللّه غير محتاج لإيمان عباده و لا يخاف من كفرهم،و كذلك رسوله،و إنّه لم يدفع عباده إلى عبادته كى يجنى من وراء ذلك الأرباح،و إنّما ليجود على عباده.

قوله تعالى: وَ مٰا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ -التى وردت فيها كلمه(وكيل)بمعنى الشخص المكلف بهدايه الضالين و جعلهم يؤمنون باللّه-وردت عدّه مرات فى آيات القرآن،و بنفس التعبير أو ما يشابهه،و الغرض من تكرارها هو بيان أنّ الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و اله و سلّم ليس مسئولا عن إيمان الناس،لأنّ أساس الإيمان لا يأتى عن طريق الإجبار،و إنّه مكلّف بإبلاغ الأمر الإلهى إلى الناس من دون أن يظهر أدنى تقصير أو عجز،فإمّا أن يستجيبوا لدعوته و إمّا أن يرفضوها.

ثمّ لتوضح أنّ الحياه و الموت و كلّ شؤون الإنسان هى بيد اللّه سبحانه و تعالى، قالت الآيه: اَللّٰهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهٰا وَ الَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنٰامِهٰا (۲) .

و بهذا الشكل فإن(النوم)يعد شقيق(الموت)لكن بأحد أشكاله الضعيفه،أى (أشكال الموت)، لأن العلاقه بين الروح و الجسد تصل إلى أدنى درجاتها أثناء

۱- ۱) -«بالحق»:من الممكن أن تكون حالا ل(كتاب)أو للفاعل فى أَنْزَلْنٰا ،مع أنّ المعنى الأوّل أنسب،و لذا فإنّ مفهوم الآيه يكون:(إنا أنزلنا عليك القرآن مترافقا بالحق).

۲- ۲) -كلمه(توفى)تعنى قبض الشيء بالتمام،كلمه(أنفس)تعنى الأرواح.و كلمه(منام)لها معنى مصدرى و تعنى النوم.

النوم،و تقطع الكثير من العلاقات و الوشائج بينهما.

و تضيف الآيه فَيُمْسِكُ الَّتِى قَضىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَ يُرْسِلُ الْأُخْرىٰ إِلىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى نعم إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ .

من هذه الآيه يمكن استنتاج عده أمور:

١-إنّ الإنسان عباره عن روح و جسد،و الروح هى جوهر غير مادى، يرتبط بالجسد فيبعث فيه النور و الحياه.

٢-عند الموت يقطع اللّه العلاقه بين الروح،و الجسد،و يذهب بالروح إلى عالم الأرواح،و عند النوم يخرج البارئ عزّ و جلّ الروح و الجسد،و لكن ليس بتلك الحاله التى تقطع فيها العلاقات بصوره كامله.و وفقا لهذا فإنّ الروح لها ثلاث حالات بالنسبه للجسد،و هى:ارتباط كامل(حاله الحياه و اليقظه)و ارتباط ناقص (حاله النوم)و قطع الارتباط بصوره كامله(حاله الموت).

٣-النوم هو أحد الصور الضعيفه(للموت)،و(الموت)هو نموذج كامل (للنوم).

۴-النوم هو أحد دلائل استقلال و أصاله الروح،خاصه عند ما يرافق بالرؤيا الصادقه التى توضح المعنى أكثر.

۵-إنّ العلاقه التى تربط بين الروح و الجسد تضعف أثناء النوم، و أحيانا تقطع تماما ممّا يؤدى إلى عدم يقظه النائم إلى الأبد،أى موته.

۶-إنّ الإنسان عند ما ينام فى كلّ ليله يشعر و كأنّه وصل إلى أعتاب الموت، و هذا الشعور بحد ذاته درسا يمكن الاعتبار منه،و هو كاف لإيقاظ الإنسان من غفلته.

٧-كلّ هذه الأمور تجرى بقدره البارئ عزّ و جلّ،و إن كان قد ورد فى بعض الآيات ما يشير إلى أنّ ملك الموت هو الذى يقبض الأرواح،فهذا لا يعنى سوى أنّه ينفّذ أوامر البارئ عزّ و جلّ.

ص :١٠٢

و علی أیه حال،فإنّ المراد من قوله تعالی: إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیٰاتٍ لِقَوْمٍ یَتَفَکَّرُونَ هو إثبات دلائل قدره الباری عزّ و جلّ،و مسأله الخلق،و المعاد، و ضعف و عجز الإنسان مقابل إراده اللّه عزّ و جلّ.

و بعد ما أصبحت-حاکمیه-(اللّه)علی وجود الإنسان و تدبیر أمره عن طریق نظام الحیاه و الموت و النوم و الیقظه،أمرا مسلما من خلال الآیات السابقه، تناولت الآیه اللاحقه خطأ اعتقاد المشرکین فیما یخص مسأله الشفاعه،کی تثبت لهم أنّ مالک الشفاعه هو مالک حیاه و موت الإنسان،و لیس الأصنام الجامده التی لا شعور لها أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللّٰهِ شُفَعٰاءَ (1) .

و کما هو معروف فإنّ إحدی الأعذار الواهیه لعبده الأوثان بشأن عبادتهم للأوثان، هی ما ورد فی مطلع هذه السوره مٰا نَعْبُدُهُمْ إِلاّٰ لِیُقَرِّبُونٰا إِلَی اللّٰهِ زُلْفیٰ (2) ، إذ أنّهم کانوا یعدونها تماثیل و هیاکل للملائکه للأرواح المقدسه،و یزعمون أنّ هذه الأحجار و الأخشاب المیته لها قدره هائله.

و لکون الشفاعه تحصل من الشفیع الذی هو،أوّلا:یشعر و یدرک و یفهم، و ثانیا:قدیر و مالک و حکیم،فإن تتمه الآیه تجیبهم قُلْ أَ وَ لَوْ کٰانُوا لاٰ یَمْلِکُونَ شَیْئاً وَ لاٰ یَعْقِلُونَ (3) .

إذا کنتم تتخذون من الملائکه و الأرواح المقدسه شفعاء لکم،فإنّهم لا یملکون لأنفسهم ضرا و لا نفعا،لأن کلّ ما عندهم هو من اللّه،و إذا کنتم تتخذون من الأصنام المصنوعه من الخشب و الحجاره شفعاء لکم،فإنّهم علاوه علی عدم امتلاکهم شیئا لأنفسهم،فهم لا یمتلکون أدنی عقل أو شعور،فاترکوا هذه الأعذار، و عودوا إلی الذی یملک و یحکم کلّ هذا العالم،و إلی من إلیه تنتهی کلّ الأمور.

۱- ۱) -«أم»:هنا منقطعه و تعنی(بل)و لو کانت متصله،لکان یجب تقدیر القسم الثّانی لها،و هذا خلاف الظاهر.

۲- ۲) -الزمر،۳.

۳- ۳) -عباره أَ وَ لَوْ کٰانُوا لاٰ یَمْلِکُونَ شَیْئاً فیها محذوف،و التقدیر:(أ یشفعون لکم و لو کانوا لا یملکون شیئا).

لذا فإنّ اللّه جلّ و علا يضيف فى الآيه التاليه قُلْ لِلّهِ الشَّفٰاعَهُ جَمِيعاً لأنه لَهُ مُلْكُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .

و بهـذا الشـكل لم يبق لديهم شـىء،لأنّ النظام المسيطر و الحاكم على كلّ العالم يقول:لا شـفاعه هناك ما لم يأذن البارئ عزّ و جلّ بذلك مَنْ ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاّ بِإِذْنِهِ (۱) .

أو كما يقول بعض المفسّرين:إنّ حقيقه الشـفاعه،هى التوسل بأسـماء اللّه الحسنى،التوسل برحمته و غفرانه و ستره،طبقا لهذا فإنّ كافه أشكال الشفاعه تعود فى النهايه إلى ذاته المقدسه،إذن كيف يمكن طلب الشفاعه من غيره و بدون إذنه (۲) .

و بشأن ارتباط عباره ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ بما قبلها،أظهر المفسّرون عدّه آراء مختلفه منها:

۱-هذه العباره إشاره إلى أنّ شـفاعه البارئ عزّ و جلّ لا تقتصر على هذه الدنيا،و إنّما تتعداها إلى الشفاعه فى الآخره،و لذا يجب عدم اللجوء إلى غير اللّه لحل المشاكل و رفع المصائب كما كان يفعل المشركون.

۲-هـذه العباره هى دليل ثان على اختصاص الشـفاعه باللّه،لأنّ الـدليل الأوّل اعتمد على(مالكيه)اللّه،و هنا تمّ الاعتماد على(عوده جميع الأشياء إليه).

۳-هذه الجمله هى بمثابه تهديد للمشركين،إذ تقول لهم:إنّكم سترجعون إلى اللّه،و ستشاهدون نتيجه أفكاركم و أعمالكم السيئه و القبيحه.

كلّ هذه التفاسير مناسبه إلاّ أنّ التّفسيرين الأوّل و الثّانى أنسب.

۱- ۱) -البقره،۵۷.

۲- ۲) -الميزان،المجلد ۱۷،الصفحه ۲۸۶.

ملاحظتان

اشاره

۱-عجائب عالم الرؤيا؟

ما هى حقيقه النوم؟و ما سبب ميل الإنسان إلى النوم؟ بهذا الشأن كتب العلماء أبحاثا كثيره:

فالبعض منهم قال:إنّه يأتى نتيجه انتقال جزء كبير من الدم الموجود فى المخ إلى بقيه أجزاء الجسم،و لذا فإنّ السبب هنا(فيزياوى).

و البعض الآخر يعتقد أنّ النشاط الإضافى للجسم يؤدى إلى تجمع مواد سامّه معينه فى الجسم،و هذه الحاله تؤثر على الأنظمه العصبيه و تدفع الإنسان إلى النوم، و تستمر هذه الحاله عند الإنسان حتى تتمّ تجزئه تلك السموم و امتصاصها من قبل الجسد،و بهذا يكون السبب هنا(كيمياويا).

مجموعه اخرى تقول:إن سبب النوم إنّما يعود لأسباب عصبيه لأنّ هناك جهازا عصبيا نشطا فى داخل مخ الإنسان،و هذا الجهاز هو مصدر الحركه المستمره لبقيه أعضاء الجسم،و هو يتوقف عن العمل إثر التعب الشديد الذى يصيبه فيحصل النوم.

النظريات المذكوره أعلاه عجزت عن إعطاء جواب مقنع فيما يخص مسأله النوم،رغم أنّنا لا يمكن أن ننكر تأثير هذه الأسباب و لو بمقدار ضئيل.نحن نعتقد أنّ التفكير المادى لعلماء اليوم هو السبب الرئيسى الذى يمكن وراء عجزهم عن إعطاء تفسير واضح لمسأله النوم،إذا أنّهم يريدون تفسير هذه المسأله من دون قبول أصاله و استقلاليه الروح،فالنوم قبل أن يكون ظاهره جسديه هو ظاهره روحيه،و من دون معرفه الروح بصوره صحيحه،فإنّ تفسير النوم حاله متعذره.

القرآن المجيد وضّح من خلال آياته المذكوره أعلاه أدقّ التفاسير لمسأله النوم،إذ يقول:إن النوم هو نوع من أنواع(قبض الروح)و انفصال الروح من الجسد،و لكن هذا الانفصال ليس انفصالا كاملا.

و بهذا الشكل فعند ما يخفت شعاع الروح فى الجسد بأمر من اللّه،و لا يبقى غير شعاع خافت اللون يشع فى ذلك الجسد،يتعطل جهاز الإدراك و الشعور عن العمل،و يتوقف الحسّ و الحركه عند الإنسان،عدا بعض الأجزاء التى تبقى تواصل نشاطها لحفظ و استمرار الحياه عند الإنسان،كضربات القلب و دوران الدم و نشاطات الجهاز التنفسى و الغذائى.

و

قد ورد فى حديث عن الإمام الباقر عليه السّلام: «ما من أحد ينام إلاّ عرجت نفسه إلى السماء،و بقيت روحه فى بدنه،و صار بينهما سبب كشعاع الشمس،فإن أذن اللّه فى قبض الأرواح أجابت الروح النفس،و إن أذن اللّه فى ردّ الروح أجابت النفس الروح،فهو قوله سبحانه: اَللّٰهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهٰا (1) .

و ثمّه مسأله مهمّه اخرى هى مسأله(الرؤيا)لأنّ الكثيرين يرون فى عالم الرؤيا أحلاما حدثت وقائعها أو ستحدث فيما بعد فى الواقع،مع اختلافات جزئيه أو بدون أىّ اختلاف.

التفاسير الماديه عاجزه عن توضيح مثل هذه الرؤيا و الأحلام،فى حين أن التفاسير الروحيه تستطيع بسهوله توضيح هذا الأمر،لأنّه عند ما تنفصل روح الإنسان عن جسده و ترتبط بعالم الأرواح،تدرك حقائق كثيره لها علاقه بالماضى و المستقبل،و هذه الحاله هى التى تشكل أساس الرؤيا الصادقه، و للتوضيح أكثر يراجع التفسير الأمثل)فى نهايه الآيه(۴)من سوره يوسف،إذ أنّ هناك شرحا مفصلا بهذا الخصوص.

۲-النوم كما ورد فى الروايات الإسلاميه:

يتضح جيدا من خلال روايات المفسّرين التى وردت فى نهايه الآيات

ص: ۱۰۶

۱- ۱) -مجمع البيان ذيل آيه البحث و تفسير الصافى.كلمه(روح)فى هذه الروايه تعنى(الروح الحيوانيه)و عمل أجهزه الجسم الرئيسيه،و كلمه(نفس)تعنى روح الإنسان.

المـذكوره أعلاـه،أنّ النوم يعنى فى الإسـلام حركه الروح نحو عالم الأرواح،فيما تعنى اليقظه عوده الروح إلى الجسـد لبـدء حياه جديده.

و نقرأ

فى حديث ورد عن أمير المؤمنين عليه السّلام ضمن وصاياه لأصحابه:

«لاـ ينـام المسـلم و هو جنب،لاـ ينـام إلاّـ على طهور،فـإن لم يجـد المـاء فليتيمم بالصـعيد،فـإنّ روح المؤمن ترفع إلى اللّه تعـالى فيقبلهـا،و يبـارك عليهـا،فـإن كـان أجلهـا قـد حضـر جعلها فى كنوز رحمته،و إن لم يكن أجله قـد حضـر بعث بها مع أمنائه من ملائكته،فيردونها فى جسده» (1) .

و

ورد حـديث آخر عن الإمام الباقر عليه السّـلام جاء فيه: «إذا قمت بالليل من منامك فقل:الحمد للّه الذى ردّ علىّ روحى لأحمده و أعبده» (2) .

و الأحاديث فى هذه الشأن كثيره.

1- 1) -خصال الصدوق،نقلا عن تفسير نور الثقلين،المجلد 4،الصفحه 488.

2- 2) -أصول الكافى،نقلا عن تفسير نور الثقلين،المجلد 4،الصفحه 488.

الآیات [سوره الزمر (۳۹): الآیات ۴۵ الی ۴۸]

اشاره

وَ إِذٰا ذُکِرَ اَللّٰهُ وَحْدَهُ اِشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ اَلَّذِینَ لاٰ یُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَهِ وَ إِذٰا ذُکِرَ اَلَّذِینَ مِنْ دُونِهِ إِذٰا هُمْ یَسْتَبْشِرُونَ (۴۵) قُلِ اَللّٰهُمَّ فٰاطِرَ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ عٰالِمَ اَلْغَیْبِ وَ اَلشَّهٰادَهِ أَنْتَ تَحْکُمُ بَیْنَ عِبٰادِکَ فِی مٰا کٰانُوا فِیهِ یَخْتَلِفُونَ (۴۶) وَ لَوْ أَنَّ لِلَّذِینَ ظَلَمُوا مٰا فِی اَلْأَرْضِ جَمِیعاً وَ مِثْلَهُ مَعَهُ لاَفْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ اَلْعَذٰابِ یَوْمَ اَلْقِیٰامَهِ وَ بَدٰا لَهُمْ مِنَ اَللّٰهِ مٰا لَمْ یَکُونُوا یَحْتَسِبُونَ (۴۷) وَ بَدٰا لَهُمْ سَیِّئٰاتُ مٰا کَسَبُوا وَ حٰاقَ بِهِمْ مٰا کٰانُوا بِهِ یَسْتَهْزِؤُنَ (۴۸)

التّفسیر

اشاره

الذین یخافون من اسم اللّه!

مرّه اخری یدور الحدیث عن التوحید و الشرک،إذ عکست الآیه الأولی إحدی الصور القبیحه و المشوهه للمشرکین و لمنکری المعاد من خلال تعاملهم مع التوحید،قال تعالی: وَ إِذٰا ذُکِرَ اللّٰهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِینَ لاٰ یُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَهِ

ص :۱۰۸

وَ إِذٰا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذٰا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ

(۱)

.

فأحيانا يستحسن الإنسان القبائح و يستقبح الحسنات بحيث ينزعج إذا سمع اسم الحق و يستبشر إذا سمع اسم الباطل لا يسجد و لا يركع أمام عظمه اللّه جلّ و علا خالق الكون،إلاّ أنّه يسجد و يركع تعظيما لأصنام صنعها من الحجاره و الخشب أو لإنسان أو كائنات مثله.

و نظير هذا المعنى ورد فى الآيه(۴۶)من سوره الإسراء،قال تعالى: وَ إِذٰا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلىٰ أَدْبٰارِهِمْ نُفُوراً .

و فى سوره نوح الآيه(۷)عند ما شكى نبىّ اللّه نوح عليه السّلام ممن يفكر بمثل هذا التفكير المنحرف إلى اللّه سبحانه و تعالى وَ إِنِّي كُلَّمٰا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصٰابِعَهُمْ فِي آذٰانِهِمْ وَ اسْتَغْشَوْا ثِيٰابَهُمْ وَ أَصَرُّوا وَ اسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبٰاراً .

نعم،هذا هو حال المتعصبين اللجوجين و الجهله المغرورين.

من هذه الآيه يتضح بصوره جيده أنّ مصدر شقاء هذه المجموعه أمران:

الأوّل:إنكارهم لأساس التوحيد،و الثّانى:عدم إيمانهم بالآخره.

و فى المقابل نرى المؤمنين لدى سماعهم اسم اللّه ينجذبون إليه بدرجه أنّهم على استعداد لبذل كلّ ما لديهم فى سبيله،فاسم حبيبهم يحلّى أفواههم و يعطّر أنفاسهم و يضىء قلوبهم،كما أن سماع أى شىء يرتبط و يتعلق باللّه يبعث السرور و البهجه فى قلوبهم.

نعود إلى المشركين مرّه اخرى لنقول:إن الصفه القبيحه التى ذكرناها فى بدايه البحث بشأن المشركين،لا تخصّ مشركى عصر الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و اله و سلّم و إنّما فى عصر و زمان هناك منحرفون ذوو قلوب مظلمه يفرحون و يستبشرون فور سماعهم أسماء أعداء اللّه و أصحاب المذاهب الإلحاديه،و سماعهم نبأ انتصار الظلم و الطغيان،أمّا سماع أسماء الطيبين و الطاهرين و مناهجهم و انتصاراتهم فإنّه

۱- ۱) -«اشمأزت»:من ماده(اشمئزاز)و تعنى الانقياض و النور عن الشىء،(وحده)منصوب حال أو مفعول مطلق.

يسبب لهم آلاما مبرحه،بعض الرّوايات فسّرت الآيه على أنّها تعنى أولئك الذين ينزعجون من سماع فضائل أهل بيت النبوّه الأطهار عليهم السّلام أو من يتبع نهجهم (۱) .

و عند ما يصل الأمر إلى درجه أنّ مجموعه من اللجوجين و الجهله المغرورين ينفرون و يشمئزون حتى من سماع اسم اللّه،يوحى البارئ عزّ و جلّ إلى نبيّه الكريم صلّى اللّه عليه و اله و سلّم أن يتركهم و يتوجه الى البارى عز و جل و يشتكى إليه من هؤلاء بلحن مليء بالعواطف الرفيعه و العشق الإلهى لكى يبعث على تسكين قلبه المليء بالغم من جهه،و على تحريك العواطف الهامده عند أولئك من جهه اخرى: قُلِ اللّٰهُمَّ فٰاطِرَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ عٰالِمَ الْغَيْبِ وَ الشَّهٰادَهِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبٰادِكَ فِي مٰا كٰانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (۲) .

نعم أنت الحاكم المطلق فى يوم القيامه الذى تنتهى فيه الاختلافات و تظهر فيه كلّ الحقائق المخفيه،لأنك خالق كلّ شيء فى الوجود و عالم بكل الأسرار فتنتهى الاختلافات بحكمك العادل،و هناك يدرك المعاندون مدى خطئهم، و يفكرون فى إصلاح ما مضى،و لكن ما الفائده؟ الآيه التاليه تقول: وَ لَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مٰا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَ مِثْلَهُ مَعَهُ لاَفْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذٰابِ يَوْمَ الْقِيٰامَهِ و لكن هذا الأمر غير ممكن.

«الظلم»:هنا له معان واسعه تشمل الشرك أيضا و بقيه المظالم.

ثم تضيف الآيه وَ بَدٰا لَهُمْ مِنَ اللّٰهِ مٰا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ .

و سيرون العذاب بأعينهم،العذاب الذى لم يكن يتوقعه أحد منهم،لأنّهم كانوا مغرورين بلطف اللّه،فى حين كانوا فى غفله عن غضبه و قهره.و أحيانا كانوا يقومون بأعمال يتصورونها حسنه،فى حين أنّها كانت من الذنوب الكبيره.

على أيّه حال،تظهر لهم فى ذلك اليوم أمور لم يكن يتصور أحد ظهورها.

ص: ۱۱۰

۱- ۱) -صول الكافى،و روضه الكافى،نقلا عن تفسير نور الثقلين،المجلد ۴،الصفحه ۴۹۰.

۲- ۲) -«فاطر السموات»منصوب بعنوان منادى مضاف.

ذلك الوعيد يأتى فى مقابل الوعود الطيبه التى قطعت للمؤمنين،قال تعالى:

فَلاٰ تَعْلَمُ نَفْسٌ مٰا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّهِ أَعْيُنٍ

(۱)

.

و قد نقل أنّ أحد المسلمين جزع عند الموت،فقيل له:أ تجزع،فقال:أخذتنى هذه الآيه وَ بَدٰا لَهُمْ مِنَ اللّٰهِ مٰا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (۲) .

الآيه التاليه توضيح أو تتمه لموضوع طرحته الآيه السابقه،إذ تقول: وَ بَدٰا لَهُمْ سَيِّئٰاتُ مٰا كَسَبُوا وَ حٰاقَ بِهِمْ مٰا كٰانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ .

فى الحقيقه هناك أربعه مواضيع تتعلق بالمشركين و الظالمين طرحت فى هذه الآيات:

أوّلا:إنّ هول و رهبه العذاب الإلهى فى ذلك اليوم ستكون من الشدّه بحيث تجعلهم يتمنون لو أنّ لديهم فى تلك الساعه ضعف الثروات و الأموال التى كانوا يمتلكونها فى عالم الدنيا ليفتدوا بها من سوء العذاب،و لكن من المستحيل أن يحدث مثل هذا الأمر فى يوم القيامه.

ثانيا:تظهر أمامهم أنواع من العذاب الإلهى الذى لم يكن أحد يتوقعه و لا يتصوره.

ثالثا:حضور أعمالهم السيئه أمامهم و تجسيدها لهم.

رابعا:مشاهدتهم حقيقه المعاد الذى لم يأخذوه مأخذ الجد،و من ثمّ انغلاق كلّ أبواب النجاه أمامهم.

الآيه التى تقول: بَدٰا لَهُمْ سَيِّئٰاتُ مٰا كَسَبُوا و التى وردت آنفا،هى دليل آخر على مسأله تجسيد الأعمال.

ص: ۱۱۱

۱- ۱) -الم سجده،۱۷.

۲- ۲) -تفسير مجمع البيان و تفسير القرطبى ذيل آيه البحث.

الآیات [سوره الزمر (۳۹): الآیات ۴۹ الی ۵۲]

اشاره

فَإِذا مَسَّ اَلْإِنْسانَ ضُرٌّ دَعانا ثُمَّ إِذا خَوَّلْناهُ نِعْمَهً مِنّا قالَ إِنَّما أُوتِیتُهُ عَلی عِلْمٍ بَلْ هِیَ فِتْنَهٌ وَ لکِنَّ أَکْثَرَهُمْ لا یَعْلَمُونَ (۴۹) قَدْ قالَهَا اَلَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَما أَغْنی عَنْهُمْ ما کانُوا یَکْسِبُونَ (۵۰) فَأَصابَهُمْ سَیِّئاتُ ما کَسَبُوا وَ اَلَّذِینَ ظَلَمُوا مِنْ هؤُلاءِ سَیُصِیبُهُمْ سَیِّئاتُ ما کَسَبُوا وَ ما هُمْ بِمُعْجِزِینَ (۵۱) أَ وَ لَمْ یَعْلَمُوا أَنَّ اَللّهَ یَبْسُطُ اَلرِّزْقَ لِمَنْ یَشاءُ وَ یَقْدِرُ إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیاتٍ لِقَوْمٍ یُؤْمِنُونَ (۵۲)

التّفسیر

اشاره

فی الشدائد یذکرون اللّه،و لکن...

الآیات هنا تتحدث مرّه اخری عن المشرکین و الظالمین،و تعکس صوره اخری من صورهم القبیحه.

فی البدایه یقول فَإِذا مَسَّ اَلْإِنْسانَ ضُرٌّ دَعانا فذلک الإنسان الذی کان- وفق ما جاء الآیات السابقه-یشمئز من ذکر اسم اللّه.نعم،هو نفسه یلجأ إلی ظلّ

ص:۱۱۲

اللّه عنـد ما يصـيبه الضـرّ و يتعرض للشدائد.لكن هذا اللجوء مؤقت،إذ ما إن يتفضّل عليه البارئ عزّ و جلّ و يكشف عنه الضـر و الشدائد،حتى يتبجح ناكرا لهذه النعم، و زاعما بأنّه هو الذى أنقذ نفسه من ذلك الضر ثُمَّ إِذا خَوَّلْناهُ نِعْمَةً مِنّا قالَ إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ (1) .

نظير هذا الكلام نقله القرآن فى الآيه(۷۸)من سوره القصص عن لسان «قارون» عند ما نصحه علماء بنى إسرائيل بأن ينفق ممّا منّ اللّه به عليه فى سبيل اللّه،إذ قال: إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ عِنْدِى .

إنّ أمثـال هؤلاـء الغافلين لا يتصورون أنّ العلوم و المعارفه التى يمتلكها الإنسان إنّما هى نعمه إلهيه،فهل أنّ هؤلاء اكتسـبوا العلم الـذى كـان يـدرّ عليهم الأموال الطائفه من ذاتهم؟أم أنّه كان فى ذاتهم منـذ الأزل؟ بعض المفسّـرين ذكروا احتمالا آخر لتفسـير هذه العباره،و قالوا:إنّ النعم التى منّ بها البارئ عزّ و جلّ علينا إنّما منّ بها علينا لعلمه بلياقتنا و استحقاقنا لها.

و مع أنّ هـذا الاحتمـال وارد بشـأن الآـيه مورد بحثنـا،لكنّه غير وارد بشـأن الآـيه الآنفه التى تحـدثت عن قارون،خاصه مع وجود كلمه(عندى)و هذه أحد القرائن لترجيح التّفسير الأوّل للآيه التى هى مورد البحث.

ثم يجيب القرآن الكريم على أمثال هؤلاء المغرورين،الذين ينسون أنفسهم و خالقهم بمجرّد زوال المحنه و توفّر النعمه،قائلا: بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ .

فالهدف من ابتلائهم بالحوادث الشديده و الصعبه،و من ثمّ إغداق النعم الكبيره عليهم هو اظهار خباياهم و الكشف عن بواطنهم.

ص: ۱۱۳

---

۱ – ۱) -«خول»:من مـاده(تخويـل)و تعنى الإعطـاء على نحو الهبه،و قـد شـرحت بالتفصـيل فى ذيـل الآيه الثامنه من هـذه السوره (الزمر)،ضمير(أوتيته)رغم أنّه يعود على(نعمه)فقد جاء بصيغه المذكر،لأنّ المقصود منه(شىء من النعمه)أو(قسم من النعمه).

هل ييأس الإنسان عند المصيبه و يغترّ و يطغى عند النعمه؟ هل أنّه يزداد تفكيرا باللّه عزّ و جلّ عند ما يحاط بهذه النعم،أم أنّه يغرق فى ملذات الدنيا؟ هل ينسى ذاته،أو أنّه يلتفت إلى نقاط ضعفه و يعود إلى ذكر اللّه أكثر؟ ممّا يؤسف له أنّ أكثر الناس مبتلون بالنسيان،و غير مطلعين على الحقائق التى تكررت مرات عديده فى آيات القرآن المجيد،و هى أنّ العزيز الحكيم يجعل الإنسان أحيانا محاطا بالمشاكل و الابتلاءات الشديده،و أحيانا يغدق عليه النعم، و ذلك ليمتحنه و يرفع من شأنه و ليعرفه بأن كلّ شىء فى هذه الحياه هو من اللّه سبحانه و تعالى.

و من الطبيعى أنّ الشدائد تهىء الأرضيه لتفتتح الفطره،كما أنّ النعم مقدمه للمعرفه(و فى هذا الخصوص أوردنا بحثا آخر فى تّفسيرنا الأمثل فى نهايه الآيه (۶۵)من سوره العنكبوت).

و ممّا يدعوا إلى الانتباه تأكيد الآيه على كلمه(إنسان)التى عرفته بأنّه كثير النسيان و الغرور،و هذه إشاره إلى الذين لم يتربوا وفق ما جاء فى الشرائع و السنن الإلهيه،و الذين لم يكن لهم أىّ مربّ و مرشد..الذين أطلقوا لشهواتهم العنان و استسلموا لأهوائهم،نعم فهؤلاء هم الذين يلجؤون إلى البارئ عزّ و جلّ كلّما مسّهم الضرّ و كلمّا ابتلوا بالشدائد و المحن،و لكن عند ما تهدأ أعاصير الحوادث و يشملهم لطف البارئ و عنايته،ينسونه و كأنّهم لم يدعوه إلى ضرّ مسّهم.و لمزيد من الاطلاع راجع موضوع:الإنسان فى القرآن الكريم.فى نهايه الآيه(۱۲)من سوره يونس.

و تضيف الآيه التاليه قَدْ قٰالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمٰا أَغْنىٰ عَنْهُمْ مٰا كٰانُوا يَكْسِبُونَ (۱) .

۱- ۱) -ضمير(قد قالها)راجع إلى القول السابق باعتبار أنّه مقاله أو كلمه،و المراد منها عباره إِنَّمٰا أُوتِيتُهُ عَلىٰ عِلْمٍ .

نعم،فقارون و أمثاله من المغرورين يتصورون أنّهم حصلوا على الأموال بسبب لياقتهم و غفلوا عن أنّ اللّه سبحانه و تعالى هو الـذى منّ بهذه النعم عليهم و أنّه المصدر الأصل للنعم و الواهب الحقيقى لها،و أنّهم كانوا ينظرون فقط للأسباب الظاهريه،لكن التاريخ بيّن أنّه عند ما خسف البارئ عزّ و جلّ الأرض بأولئك لم يسرع أحد إلى مساعدتهم،و لم تنفعهم أموالهم،كما ورد فى سوره القصص الآيه (٨١) فَخَسَفْنا بِهِ وَ بِدارِهِ الْأَرْضَ فَما كانَ لَهُ مِنْ فِئَهٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللّهِ .

و ليس قارون-وحده-ابتلى بهذا العذاب،و إنّما أقوام عاد و ثمود و سبأ و أمثالهم ابتلوا-أيضا-و كان لهم نفس المصير.

ثم يقول: فَأَصابَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا .

فكل واحد منهم ابتلى بنوع من العذاب الإلهى و هلك،كابتلائهم بالطوفان و السيل و الزلزال و الصيحه السماويه.

و يضيف:إنّ هذا المصير لا ينحصر بأولئك الأقوام و حسب بل إنّ مشركى مكّه سيبتلون فى القريب العاجل بعواقب أعمالهم السيئه،و لا يستطيع أحد منهم أن يفرّ من قبضه العذاب الإلهى الذى سينزل بهم جميعا وَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هؤُلاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا وَ ما هُمْ بِمُعْجِزِينَ .

و سينال هذا العذاب و الابتلاء كلّ الطغاه و المغرورين و المشركين،و فى كلّ العصور و القرون.

و من جهه اخرى ورد احتمالان فى هل أنّ المراد من عباره سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا هو العذاب الدنيوى أم العذاب الاخروى،و لكن بقرينه فَأَصابَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا فإنّ التّفسير الأوّل أنسب.

القرآن الكريم أجاب على ادعاءات الذين يزعمون أنّهم حصلوا على النعم الدنيويه بعلمهم و قدرتهم، عند ما دعاهم إلى مراجعه تأريخ الأولين للاطلاع على أنواع الابتلاءات و العذاب الذى ابتلوا به بسبب مزاعمهم الباطله،و هذا هو ردّ

تأريخى و واقعى.

ثمّ يرد القرآن الكريم عليهم بردّ عقلى،إذ يقول: أَ وَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللّٰهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشٰاءُ وَ يَقْدِرُ .

فالكثير من الأشخاص الكفوئين نراهم يعيشون حياه المستضعفين و البسطاء،فى حين نرى أنّ الكثير من الأشخاص غير الكفوئين يعيشون أثرياء و متنعمين من كلّ النواحى،فلو كان الظفر المادىّ كلّه يأتى عن طريق جهد و سعى الإنسان إضافه إلى كفاءته،لما كنّا نرى مثل هذه المشاهد.إذن فمن هنا يستدل على وجود يد قويه اخرى خلف عالم الأسباب تدير الشؤون وفق منهج محسوب.

صحيح أنّه يجب على الإنسان أن يبذل الجهد و السعى فى حياته،و صحيح أنّ الجهاد و السعى هما مفتاح حلّ الكثير من المشاكل،و لكن إغفال مسبب الأسباب و النظر إلى الأسباب فقط،و اعتبار الكفاءه هى المؤثر الوحيد يعد خطأ كبيرا.

فإحدى أسرار إحاطه الفقر و الحرمان بمجموعه من العلماء المقتدرين، و إحاطه الغنى بمجموعه من الجهله غير الأكفاء هو تنبيه لكلّ الناس التائهين فى عالم الأسباب بأن لا يعتمدوا فقط على قواهم الذاتيه.لذا تضيف الآيه إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَآيٰاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .

الآيات التى وضحها

أمير المؤمنين عليه السّلام عند ما قال: «عرفت اللّه بفسخ العزائم و حل العقود الهمم» (1) . و هى كلمه ساميه تدلّ على ضعف و عجز الإنسان كى لا يتيه و لا يبتلى بالغرور و التكبر.

۱- ۱) -نهج البلاغه،قصار الكلمات،الكلمه ۲۵۰.

الآيات [سوره الزمر (٣٩): الآيات ۵٣ الی ۵۵]

اشاره

قُلْ یا عِبادِیَ اَلَّذِینَ أَسْرَفُوا عَلی أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَهِ اَللّهِ إِنَّ اَللّهَ یَغْفِرُ اَلذُّنُوبَ جَمِیعاً إِنَّهُ هُوَ اَلْغَفُورُ اَلرَّحِیمُ (۵٣) وَ أَنِیبُوا إِلی رَبِّکُمْ وَ أَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ یَأْتِیَکُمُ اَلْعَذابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ (۵۴) وَ اِتَّبِعُوا أَحْسَنَ ما أُنْزِلَ إِلَیْکُمْ مِنْ رَبِّکُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ یَأْتِیَکُمُ اَلْعَذابُ بَغْتَهً وَ أَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ (۵۵)

التّفسیر

اشاره

إنّ اللّه یغفر الذنوب جمیعا علیهم السّلام

بعد التهدیدات المتکرره التی وردت فی الآیات السابقه بشأن المشرکین و الظالمین،فإنّ آیات بحثنا فتحت الأبواب أمام المذنبین و أعطتهم الأمل، لأنّ الهدف الرئیسی من کلّ هذه الأمور هو التربیه و الهدایه و لیس الانتقام و العنف، فبلهجه مملوءه باللطف و المحبه یفتح الباریء أبواب رحمته أمام الجمیع و یصدر أوامر العفو عنهم،عند ما یقول: قُلْ یا عِبادِیَ الَّذِینَ أَسْرَفُوا عَلی أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَهِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ یَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِیعاً .

التدقیق فی عبارات هذه الآیه یبیّن أنّها من أکثر آیات القرآن الکریم التی

تعطی الأمل للمذنبین،فشمولیتها وسعتها وصلت إلی درجه

قال بشأنها أمیر المؤمنین علی بن أبی طالب علیه السّلام: «ما فی القرآن آیه أوسع من یا عبادی الذین أسرفوا...» (۱) .

و الدلیل علی ذلک واضح من وجوه:

۱-التعبیر ب یٰا عِبٰادِیَ هی بدایه لطف الباریٔ عزّ و جلّ.

۲-التعبیر ب(إسراف)بدلا من(الظلم و الذنب و الجریمه)هو لطف آخر.

۳-التعبیر ب عَلیٰ أَنْفُسِهِمْ یبیّن أنّ ذنوب الإنسان تعود کلّها علیه،و هذا التعبیر هو علامه اخری من علامات محبّه اللّه لعباده،و هو یشبه خطاب الأب الحریص لولده،عند ما یقول:لا تظلم نفسک أکثر من هذا! ۴-التعبیر ب لاٰ تَقْنَطُوا مع الأخذ بنظر الاعتبار أن«القنوط»یعنی-فی الأصل-الیأس من الخیر،فإنّها لوحدها دلیل علی أن المذنبین یجب أن لا یقنطوا من اللطف الإلهی.

۵-عباره مِنْ رَحْمَهِ اللّٰهِ التی وردت بعد عباره لاٰ تَقْنَطُوا تأکید آخر علی هذا الخیر و المحبّه.

۶-عند ما نصل إلی عباره إِنَّ اللّٰهَ یَغْفِرُ الذُّنُوبَ التی بدأت بتأکید،و کلمه «الذنوب»التی جمعت بالألف و اللام تشمل کلّ الذنوب من دون أیّ استثناء،فإنّ الکلام یصل إلی أوجه،و عندها تتلاطم أمواج بحر الرحمه الالهیه.

۷-إنّ ورود کلمه(جمیعا)کتأکید آخر للتأکید السابق یوصل الإنسان إلی أقصی درجات الأمل.

۸ و ۹-وصف الباریٔ عزّ و جلّ بالغفور و الرحیم فی آخر الآیه،و هما وصفان من أوصاف اللّه الباعثه علی الأمل،فلا یبقی عند الإنسان أدنی شعور بالیأس أو فقدان الأمل.

۱- ۱) -مجمع البیان و تفسیر القرطبی و تفسیر الصافی ذیل الآیه مورد البحث.

نعم،لهذا السبب فإنّ الآيه المذكوره أعلاه من أوسع و أشمل آيات القرآن المجيد،حيث تعطى الأمل بغفران كلّ أنواع الذنوب،و لهذا السبب فإنّها تبعث الأمل فى النفوس أكثر من بقيه الآيات القرآنيه.و حقّا،فإنّ الذى لا نهايه لبحر لطفه،و شعاع فيضه غير محدود،لا يتوقع منه أقل من ذلك.

و قد شغلت أذهان المفسّرين مسألتان،رغم أن حلهما كامنه فى هذه الآيه و الآيه التى تليها:

الأولى:هل أنّ عموميه الآيه تشمل كلّ الذنوب حتّى الشرك و الذنوب الكبيره الأخرى،فإذا كان كذلك فلم تقول الآيه(۴۸)من سوره النساء:إنّ الشرك من الذنوب التى لا تغتفر إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ مٰا دُونَ ذٰلِكَ لِمَنْ يَشٰاءُ .

و الثّانيه:هل أنّ الوعد الذى أعطاه اللّه بغفران الذنوب مطلق أم مشروط بالتوبه و نظير ذلك؟ و بالطبع فإنّ السؤال الأوّل مرتبط بالسؤال الثّانى،و الجواب عليهما سيتّضح خلال الآيات التاليه بصوره جيده،لأنّ هناك ثلاثه أوامر وردت فى الآيات التاليه وضحت كلّ شىء أَنِيبُوا إِلىٰ رَبِّكُمْ و الثّانيه وَ أَسْلِمُوا لَهُ و الثّالثه وَ اتَّبِعُوا أَحْسَنَ مٰا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ .

هذه الأوامر الثّلاثه تقول:إنّ أبواب المغفره و الرحمه مفتوحه للجميع من دون أى استثناء،و لكن شريطه أن يعودوا إلى أنفسهم بعد ارتكاب الذنب، و يتوجهوا فى مسيرهم نحو البارئ عزّ و جلّ،و يستسلموا لأوامره،و يظهروا صدق توبتهم و إنابتهم بالعمل،و بهذا الشكل فلا الشرك مستثنى من المغفره و لا غيره،و كما قلنا فإنّ هذا العفو العام و الرحمه الواسعه مشروطان بشروط لا يمكن تجاهلها.

و إذا كانت الآيه(۴۸)من سوره النساء تستثنى المشركين من هذا العفو

و الرحمه،فإنّها تقصد المشركين الذين ماتوا على شركهم،و ليس أولئك الذين صحوا من غفلتهم و اتبعوا سبيل اللّه،لأنّ أكثر مسلمى صدر الإسلام كانوا كذلك، أى أنّهم تركوا عباده الأصنام و الشرك باللّه،و آمنوا باللّه الواحد القهار بعد دخولهم الدين الإسلامى.

إذا طالعنا الحاله النفسيه عند الكثير من المجرمين بعد ارتكابهم للذنب الكبير، نرى أن حاله من الألم و الندم تصيبهم بحيث لا يتصورون بقاء طريق العوده مفتوحا أمامهم،و يعتبرون أنفسهم ملوثين بشكل لا يمكن تطهيره،و يتساءلون:هل من الممكن أن تغفر ذنوبنا؟ و هل أن الطريق إلى اللّه مفتوح أمامنا؟و هل بقى خلفنا جسر غير مدمّر؟ إنّهم يدركون معنى الآيه جيدا،و مستعدون للتوبه،و لكنّهم يتصورون استحاله غفران ذنوبهم،خاصّه إذا كانوا قد تابوا مرات عديده من قبل ثمّ عادوا إلى ارتكاب الذنب مرّه اخرى.

هذه الآيه تعطى الأمل للجميع فى أنّ طريق العوده و التوبه مفتوح أمامهم.لذا فإنّ(وحشى)المجرم المعروف فى التأريخ الإسلامى و الذى قتل حمزه سيد الشهداء عليه السّلام،كان خائفا من عدم قبول توبته،لأنّ ذنبه كان عظيما،مجموعه من المفسّرين قالوا:إن هذه الآيه عند ما نزلت على الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و اله و سلّم فتحت أبواب الرحمه الإلهيه أمام وحشى التائب و أمثاله! و لكن لا يمكن أن تكون هذه الحادثه سبب نزول هذه الآيه،و لأن هذه السوره من السور المكّيه،و لم تكن معركه أحد قد وقعت يوم نزول هذه الآيات،و لم تكن أيضا قصه شهاده حمزه و لا- توبه وحشى،و إنّما هى من قبيل تطبيق قانون عام على أحد المصاديق،و على أيه حال فإنّ شمول معنى الآيه يمكن أن يشخص هذا المعنى.

يتضح ممّا تقدم أنّ إصرار بعض المفسّرين كالآلوسى فى تفسيره(روح

المعانی)علی أنّ الوعد بالمغفره الذی ورد فی الآیه المذکوره أعلاه لیس مشروطا بشیء غیر صحیح،حتّی أنّ الأدلّه السبعه عشر التی ذکرها بشأن هذا الموضوع غیر مقبوله،لأنّ فیها تعارضا واضحا مع الآیات التالیه،و الکثیر من هذه الأدله السبعه عشر یمکن ادغامها فی بعضها البعض،و لا یفهم منها سوی أنّ رحمه اللّه واسعه تشمل حتّی المذنبین،و هذا لا یتعارض مع کون الوعد الإلهی مشروطا، بقرائن الآیات التالیه،و سیأتی مزید بحث فی نهایه هذا البحث. ترشد المجرمین و المذنبین علی أبواب الدخول إلی بحر الرحمه الإلهیه الواسع إذ تقول: وَ أَنِیبُوا إِلیٰ رَبِّکُمْ و أصلحوا أمورکم و مسیر حیاتکم وَ أَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ یَأْتِیَکُمُ الْعَذٰابُ ثُمَّ لاٰ تُنْصَرُونَ .

بعد طی هاتین المرحلتین«الإنابه»و«التسلیم»،تتحدث الآیه عن المرحله الثّالثه و هی مرحله(العمل)،إذ تقول: وَ اتَّبِعُوا أَحْسَنَ مٰا أُنْزِلَ إِلَیْکُمْ مِنْ رَبِّکُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ یَأْتِیَکُمُ الْعَذٰابُ بَغْتَهً وَ أَنْتُمْ لاٰ تَشْعُرُونَ .

و بهذا الشکل فإنّ مسیره الوصول إلی الرحمه الإلهیه لا تتعدی هذه الخطوات الثلاث:

الخطوه الأولی:التوبه و الندم علی الذنب و التوجه إلی اللّه تعالی.

الخطوه الثّانیه:الإیمان باللّه و الاستسلام له.

الخطوه الثّالثه:العمل الصالح.

فبعد طی هذه المراحل الثلاث یکون الإنسان قد دخل إلی بحر الرحمه الإلهیه الواسع طبقا لوعد اللّه المؤکد مهما کان ذلک الإنسان مثقلا بالذنوب.

أمّا بشأن المراد من اِتَّبِعُوا أَحْسَنَ مٰا أُنْزِلَ إِلَیْکُمْ مِنْ رَبِّکُمْ فقد ذکر المفسّرون تفسیرات متعدده.و التّفسیر الذی هو أفضل من البقیه هو أنّ أوامر متعدده و مختلفه نزلت من عند الباریء عزّ و جلّ،البعض منها واجب و الآخر مستحبّ،و البعض الآخر مباح،و المراد من(أحسن)هو انتخاب الواجبات

و المستحبات،مع الانتباه إلى تدرّجها.

و قال البعض:إنّه إشاره إلى كون القرآن هو أحسن الكتب السماويه النازله، بدليل ما ورد فى الآيه(۲۳)من هذه السوره الزمر اَللّٰهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتٰاباً مُتَشٰابِهاً مَثٰانِيَ .و بالطبع فإنّه لا يوجد هناك أى تعارض بين التّفسيرين.

بحثان

اشاره

۱-باب التوبه مفتوح للجميع

من المشاكل التى تقف عائقا فى طريق بعض المسائل التربويه،هو إحساس الإنسان بعقده الذنب من جزاء الأعمال القبيحه السابقه التى ارتكبها،خاصه إذا كانت هذه الذنوب كبيره،إذ أنّ الذى يستحوذ على ذهن الإنسان إن أراد التوجّه نحو الطهاره و التقوى و العوده إلى اللّه،فكيف يتخلص من أعباء الذنوب الكبيره السابقه.

هذا التفكير يبقى كابوسا مخفيا يرافقه كالظل،فكلّما خطا خطوه نحو تغيير منهاج حياته و سعى نحو الطهاره و التقوى،و تحدثه نفسه:ما الفائده من التوبه؟ فسلاسل أعمالك السابقه تطوق يديك و رجليك،لقد اصطبغت ذاتك بلون الذنب، و هو لون ثابت و لا يمكن إزالته و المطلعون على مسائل التربيه و توبه المذنبين يدركون جيدا ما ذكرناه، يعلمون حجم هذه المشكله الكبيره.

التعاليم الإسلاميه فى القرآن المجيد حلت هذه المشكله عند ما أفصحت عن أنّ التوبه و الإنابه يمكن أن تكون أداه قاطعه و حازمه للانفصال عن الماضى و بدء حياه جديده،أو حتى يمكن أن تكون بمثابه(ولاده جديده)للتائب إذا تحققت بشرطها و شروطها،إذ تكرر الحديث فى الروايات الإسلاميه بشأن بعض المذنبين

ص:۱۲۲

التائبین،حیث ورد(کمن ولدته أمه).

و بهذا الشکل فإنّ القرآن الکریم یبقی أبواب اللطف الإلهی مفتّحه أمام کلّ الناس مهما کانت ظروفهم،و المثال علی ذلک الآیات المذکوره آنفا التی تدعو المجرمین و المذنبین بلطف للعوده إلی اللّه،و تعدهم بإمکانیه محو الماضی.

و نقرا

فی روایه وردت عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم: «التائب من الذنب کمن لا ذنب له» (۱) .

کما

ورد حدیث آخر عن الإمام الباقر علیه السّلام جاء فیه: «التائب من الذنب کمن لا ذنب له،و المقیم علی الذنب و هو مستغفر منه کالمستهزئ» (۲) .

و من البدیهی أن هذه العوده لا یمکن أن تتمّ بدون قید أو شرط،لأنّ الباریء عزّ و جلّ حکیم و لا یفعل شیئا عبثا،فإذا کانت أبواب رحمته مفتحه أما عباده، و دعوته إیّاهم للتوبه مستمره،فإنّ وجود الاستعداد عند العباد أمر لا بدّ منه.

و من جهه اخری یجب أن تکون عوده الإنسان صادقه،و أن تحدث انقلابا و تغیرا فی داخله و ذاته.

و من ناحیه ثانیه یجب أن یبدأ الإنسان بعد توبته باعمار و بناء أسس الإیمان و العقیده التی کانت قد دمّرت بعواصف الذنوب.

و من ناحیه ثالثه یجب أن یصلح الإنسان بالأعمال الصالحه عجزه الروحی و سوء خلقه،فکلّما کانت الذنوب السابقه کبیره،علیه أن یقوم بأعمال صالحه أکثر و أکبر،و هذا بالتحدید ما بیّنه القرآن المجید فی الآیات الثلاث المذکوره أعلاه تحت عنوان(الإنابه)و(التسلیم)و(اتباع الأحسن).

۱- ۱) -سفینه البحار،المجلد الاول،الصّفحه ۱۲۷،ماده التوبه.

۲- ۲) -أصول الکافی،المجلد ۲،الصفحه ۲۱۶،باب التوبه،الحدیث ۱۰.

۲-اصحاب الأحمال الثقيله

بعض المفسّرين أوردوا أسبابا متعدده لنزول الآيات آنفه الذكر،و يحتمل أن تكون جميعها من قبيل التطبيق و ليس من قبيل أسباب النّزول.

و منها قصه(وحشى)الذى ارتكب أفظع جريمه فى ساحه معركه أحد،عند ما قتل حمزه عمّ النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم غدرا،و قد كان حمزه قائدا شجاعا كرّس كلّ حياته فى سبيل الدفاع عن النّبى الكريم.و بعباره اخرى:إنّه كان درعا للرسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم.فبعد أن بلغ الإسلام أوج عظمته و انتصر المسلمون على أعدائهم،أراد وحشى أن يدخل الدين الإسلامى،و لكنّه كان خائفا من عدم قبول إسلامه،و لما أسلم

قال له النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم: «أ وحشى؟»قال:نعم،قال:«أخبرنى كيف قتلت عمىّ»فأخبره، فبكى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم،و قال:«غيب وجهك عنّى فإنّى لا أستطيع النظر إليك» فلحق بالشام فمات فى الخمر (۱) .و هنا تساءل أحدهم:هل أن هذه الآيه تخص وحشيا فقط أم تشمل كلّ المسلمين،

فأجاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم:إنّها تشمل الجميع.

و منها قصه النباش-

قال: دخل معاذ بن جبل على رسول اللّه باكيا فسلّم فردّ عليه السّلام ثمّ قال:«ما يبكيك،يا معاذ؟»فقال:يا رسول اللّه،إنّ بالباب شابا طرىّ الجسد نقى اللون حسن الصوره يبكى على شبابه بكاء الثكلى على ولدها يريد الدخول عليك.

فقال النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم:«ادخل علىّ الشاب يا معاذ»فأدخله عليه فسلم فردّ عليه السّلام قال:«ما يبكيك يا شاب؟» قال:كيف لا أبكى و قد ركبت ذنوبا،إن أخذنى اللّه عزّ و جلّ ببعضها أدخلنى نار جهنم؟و لا أرانى إلّا سيأخذنى بها و لا يغفر لى أبدا.

فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم:«هل أشركت باللّه شيئا؟».

---

۱ - ۱) -سفينه البحار،المجلد ۲، الصفحه ۶۳۷،ماده(وحش)و تفسير الفخر الرازى،المجلد ۲۷، الصفحه ۴،و تفسير نور الثقلين، المجلد ۴،الصفحه ۴۹۳.

قال:أعوذ باللّه أن أشرک بربّی شیئا.

قال:«أ قتلت النفس التی حرّم اللّه؟».

قال:لا.

فقال النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم:«یغفر اللّه لک ذنوبک،و إن کانت مثل الجبال الرواسی».

فقال الشاب:فإنّها أعظم من الجبال الرواسیّ.

فقال النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم:«یغفر اللّه لک ذنوبک،و إن کانت مثل الأرضین السبع و بحارها و رمالها و أشجارها و ما فیها من الخلق».

قال:فإنها أعظم من الأرضین السبع و بحارها و رمالها،و أشجارها و ما فیه من الخلق.

فقال النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم:«یغفر اللّه ذنوبک و إن کانت مثل السماوات و نجومها و مثل العرش و الکرسی».

قال:فإنّها أعظم من ذلک.

قال:فنظر النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم إلیه کهیئه الغضبان ثمّ قال:«و یحک یا شاب ذنوبک أعظم أم ربّک؟».

فخّر الشاب لوجهه و هو یقول:سبحان ربّی ما شیء أعظم من ربّی،ربّی أعظم یا نبیّ اللّه من کلّ عظیم.

فقال النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم:«فهل یغفر الذنب العظیم إلاّ الربّ العظیم».

قال الشاب:لا و اللّه یا رسول اللّه،ثمّ سکت الشاب فقال له النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم:

«و یحک یا شاب ألا تخبرنی بذنب واحد من ذنوبک؟».

قال:بلی،أخبرک:إنّی کنت أنبش القبور سبع سنین،أخرج الأموات و أنزع الأکفان،فماتت جاریه من بعض بنات الأنصار فلمّا حملت إلی قبرها و دفنت و انصرف عنها أهلها و جنّ علیهم اللیل،أتیت قبرها فنبشتها ثمّ استخرجتها و نزعت ما کان علیها من أکفانها و ترکتها متجرّده علی شفیر قبرها و مضیت

منصرفا،فأتانی الشیطان فأقبل یزیّنها لی...و لم أملک نفسی حتی جامعتها و ترکتها مکانها.فإذا أنا بصوت من ورائی یقول:یا شاب ویل لک من دیّان یوم الدین،...فما أظن أنّی أشم رائحه الجنّه أبدا فما تری یا رسول اللّه.

فقال النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم:تنحی عنّی یا فاسق،إنّی أخاف أن أحترق بنارک،فما أقربک من النّار!...

فذهب فأتی المدینه فتزوّد منها ثمّ أتی بعض جبالها متعبّدا فیها،و لبس مسحا و غل یدیه جمیعا إلی عنقه،و نادی:یا ربّ هذا عبدک(بهلول)بین یدیک مغلول...

ثمّ قال:اللّهم ما فعلت فی حاجتی إن کنت استجبت دعائی و غفرت خطیئتی فأوح إلی نبیّک،و إن لم تستجب لی دعائی...فأنزل اللّه تبارک و تعالی علی نبیّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم وَ الَّذِینَ إِذٰا فَعَلُوا فٰاحِشَةً... (۱) .

الظاهر أنّ تلاوه جبرائیل لهذه الآیه هنا لم تکن لأوّل مرّه کی تعدّ من أسباب النّزول،و إنّما هی آیه مکرره و نزلت من قبل،و تکرارها إنّما هو للتأکید و جلب الانتباه أکثر،و إعلان عن قبول توبه ذلک الرجل المذنب.و نکرر مرّه اخری:إن مثل أولئک الأشخاص الذین یحملون علی أکتافهم ذنوبا ثقیله علیهم أداء واجبات کثیره لمحو آثار الماضی.

و قد ذکر«الفخر الرازی»أسبابا أخری لنزول هذه الآیات إذ قال:إنّها نزلت فی أهل مکّه حیث قالوا:یزعم محمّد أنّ من عبد الأوثان و قتل النفس لم یغفر له، و قد عبدنا و قتلنا،فکیف نسلم؟! (۲) .

۱- ۱) -بحار الأنوار،المجلد ۶،الصفحه ۲۴(طبع بیروت).

۲- ۲) -التّفسیر الکبیر لفخر الرازی،المجلد ۲۷،الصفحه ۴ ذیل آیات البحث.

الآیات [سوره الزمر (٣٩): الآيات ۵۶ الى ۵۹]

اشاره

أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يٰا حَسْرَتیٰ عَلیٰ مٰا فَرَّطْتُ فِی جَنْبِ اَللّٰهِ وَ إِنْ کُنْتُ لَمِنَ اَلسّٰاخِرِینَ (۵۶) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اَللّٰهَ هَدٰانِی لَکُنْتُ مِنَ اَلْمُتَّقِینَ (۵۷) أَوْ تَقُولَ حِینَ تَرَی اَلْعَذٰابَ لَوْ أَنَّ لِی کَرَّةً فَأَکُونَ مِنَ اَلْمُحْسِنِینَ (۵۸) بَلیٰ قَدْ جٰاءَتْکَ آیٰاتِی فَکَذَّبْتَ بِهٰا وَ اِسْتَکْبَرْتَ وَ کُنْتَ مِنَ اَلْکٰافِرِینَ (۵۹)

التّفسیر

اشاره

الندم لا ينفع فى ذلك اليوم:

الآیات السابقه أکّدت علی التوبه و إصلاح الذات و إصلاح الأعمال السابقه، و آیات بحثنا الحالی تواصل التطرق لذلک الموضوع،ففی البدایه تقول: أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ یٰا حَسْرَتیٰ عَلیٰ مٰا فَرَّطْتُ فِی جَنْبِ اللّٰهِ وَ إِنْ کُنْتُ لَمِنَ السّٰاخِرِینَ (۱) .

«یا حسرتا»:هی فی الأصل(یا حسرتی)،(حسره أضیفت إلیها یاء

ص: ۱۲۷

---

۱ – ۱) -فی بدایه الآیه عباره تتعلق بالآیات السابقه،و یکون التقدیر(لئلا تقول نفس)أو(حذرا أن تقول نفس)و فی الحاله الثانیه تکون مفعولاـ له لعباره(أنیبوا و اسلموا و اتبعوا).(إن)فی عباره(و إن کنت لمن الساخرین)مخففه من الثقیله إذ أنّها کانت فی الأصل،(إنّی کنت من الساخرین).

المتكلم)،و التحسر معناه الحزن ممّا فات وقته لانحساره ممّا لا يمكن استدراكه.

و يرى الراغب فى مفرداته(يا حسرتا)من ماده(حسر)على وزن(حبس) و تعنى التعرى و التجرد من الملابس،و بما أن الندم و الحزن على ما مضى بمنزله زوال حجب الجهل،فلا اطلاق على هذه الموارد.

نعم،فعند ما يرد الإنسان إلى ساحه المحشر،و يرى بأمّ عينيه نتائج إفراطه و إسرافه و مخالفته و اتخاذه الأمور الجديه هزوا و لعبا،يصرخ فجأه(وا حسرتاه)إذ يمتلئ قلبه فى تلك اللحظات بغمّ كبير مصحوب بندم عميق،و هذه الحاله النفسيه التى وردت فى الآيات المذكوره.

أما فيما يخصّ معنى جَنْبِ اللّهِ هنا؟فإنّ المفسّرين ذكروا تفاسير و معانى كثيره لها.و كلمه(جنب)تعنى فى اللغه«الخاصره»،كما تطلق على كلّ شىء يستقر إلى جانب شىء آخر،مثلما أن اليمين و اليسار يعنيان الطرف الأيمن و الأيسر للجسم،ثمّ يقال لكل شىء فى يسار أو يمين الجسم،و هنا جَنْبِ اللّهِ تعنى أن الأمور ترجع إلى جانب اللّه،فأوامره و إطاعته و التقرب إليه،و الكتب السماويه كلها نزلت من جانبه،و كلها مجموعه فى هذا المعنى.

و بهذا الترتيب فإنّ المذنبين يكشفون فى ذلك اليوم عن ندامتهم و حسرتهم و أسفهم على تقصيرهم و تفريطهم تجاه اللّه سبحانه و تعالى،خاصه فيما يتعلق بسخريتهم و استهزائهم بآيات اللّه و رسله،لأنّ السبب الرئيسى لتفريطهم هو العبث و السخريه من هذه الحقائق الكبيره بدافع الجهل و الغرور و التعصب.

ثمّ تضيف الآيه أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللّهَ هَدانِى لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ .

يبدو أنّ هذا الكلام يقوله الكافر عند ما يوقف أمام ميزان الحساب،حيث يرى البعض يقادون إلى الجنّه و هم محملون بأعمالهم الحسنه،و هنا يتمنى الكافر لو أنّه كان أحد هؤلاء المتوجهين إلى جنّه الخلد.

و تضيف الآيه مرّه اخرى أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ

الْمُحْسِنِينَ

.

و هـذا ما يقوله الكافر-أيضا-حينما تقوده الملائكه الموكله بالنّار نحو جهنم، و ترى عيناه نار جهنم و منظر العـذاب الأليم فيها،و هنـا يتـأوه من أعمـاق قلبه و يتوسـل لكى يسـمح له بالعوده مرّه اخرى إلى الحياه الـدنيا ليطهر نفسه من الأعمال السـيئه و القبيحه بأعمال صالحه تهيئه و تعده للوقوف فى صفوف المحسنين و الصالحين.

و الملاحظ أنّ كلّ عباره من هذه العبارات الثلاث يقولها المجرمون عند مشاهده مشهد معين من عذاب يوم القيامه الرهيب.

حيث أنّهم يتحسرون على ما فرطوا فى جنب اللّه فور دخولهم ساحه المحشر.

و يتمنون لو أنّهم فازوا بما فاز به المتقين،عند ما يرون الثواب الجزيل الذى أغدقه البارئ عزّ و جلّ على عباده المتقين.

و يتوسلون إلى البارئ عزّ و جلّ ليعيدهم إلى الحياه الدنيا ليصلحوا ماضيهم الفاسد،عند ما يرون العذاب الإلهى الأليم.

القرآن المجيـد يردّ على القول الثّانى من بين الأقوال الثلاثه إذ يقول: بَلىٰ قَدْ جٰاءَتْکَ آيٰاتِی فَكَذَّبْتَ بِهٰا وَ اسْتَكْبَرْتَ وَ كُنْتَ مِنَ الْكافِرِينَ (١) .

إنّ قولک:لو کانت الهدايه قد شـملتنى لأصـبحت من المتقين،فما هى الهدايه الإلهيه؟هل هى غير الكتب السـماويه و رسل اللّه،و آيـاته و علامـاته الصـادقه فى الآفـاق و الأـنفس؟!إنّک سـمعت بأذنيک و شاهـدت بعينيک کلّ هـذه الآيات،فما کان ردّ فعلک إزاءها غير التكذيب و التكبير و الكفر!

١- ١) -رغم أنّ المتحدّث هى النفس و هى مؤنث،و أنّ القرآن أورد أوصافها و أفعالها بصـيغه المؤنث فى آياته،و لكن فى هذه الآيه ورد ضـمير(كـذبت)و ما بعـدها بصـيغه المذكر،و ذلک لأنّ المقصود هنا هو الإنسان،و قد قال البعض:إنّ(النفس)يمكن أن تأتى بصيغتى المذكر و المؤنث.

فهل يمكن أن يعاقب البارئ عزّ و جلّ أحدا من دون أن يتمّ حجّته عليه؟ و هل كان هناك فرق بينك و بين الذين اهتدوا إلى طريق الحق من حيث المناهج التربويه الإلهيه التى أعدّت لكم و لهم؟لهذا فأنت المقصر الرئيسى،و أنت بنفسك جلبت اللعنه إليك! فمن بين تلك الأعمال الثلاثه يعد(الاستكبار)الجذر الرئيسى،و من بعد يأتى التكذيب بآيات اللّه،و حصيله الاثنين هو الكفر و عدم الإيمان.

و لكن لماذا لم يجيب القرآن على القول الأول؟ الجواب:لأنّ هناك حقيقه لا مناص منها،و هى أنّهم يجب أن يتحسروا و يغرقوا فى الغم و الهم.

و أما بشأن قولهم الثّالث الذى يتوسلون فيه إلى البارئ عزّ و جلّ كى يسمح لهم بالعوده إلى الحياه الدنيا،فإنّ القرآن الكريم يجيبهم فى عدّه آيات منها الآيه (٢٨)من سوره الأنعام: وَ لَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ وَ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ و الآيه (١٠٠)من سوره المؤمنون،و لا حاجه لتكرار تلك الأجوبه.

و الملاحظ هنا أنّ الرد على قولهم الثّانى،يمكن أن يكون فى الوقت نفسه إجابه على السؤال الثّالث أيضا،لأنّهم ماذا يهدفون من عودتهم إلى الحياه الدنيا؟ هل أنّه أمر آخر غير إتمام الحجه،فى حين أنّ البارئ عزّ و جلّ أتمّ الحجه عليهم بصوره كامله لا نقص فيها،فانتباه المجرمين من غفلتهم فور مشاهدتهم للعذاب، إنّما هو نوع من اليقظه الاضطراريه التى لا يبقى لها أى أثر عند ما يعودون إلى حالتهم الطبيعيه.حقا إنّه نفس الموضوع الذى يشير إليه القرآن الكريم بشأن الكافرين و المشركين الذين يدعون اللّه مخلصين له الدين عند ما يبتلون بخطر ما فى وسط البحر المتلاطم الأمواج،ثمّ ينسون اللّه بمجرّد أن ينجيهم و يوصلهم بسلام إلى ساحل النجاه فَإِذا رَكِبُوا فِى الْفُلْكِ دَعَوُا اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمّا نَجّاهُمْ

إِلَى الْبَرِّ إِذٰا هُمْ يُشْرِكُونَ

(١)

.

ملاحظتان

اشاره

١-التفريط فی جنب اللّه

قلنا:إنّ جَنْبِ اللّٰهِ التی وردت فی آیات بحثنا لها معان واسعه،تشمل کلّ ما یرتبط باللّه سبحانه و تعالی،و بهذا الشکل فإنّ التفریط فی جنب اللّه یشمل کلّ أنواع التفریط فی طاعه أوامر اللّه،و اتباع ما جاء فی الکتب السماویه،و التأسی بالأنبیاء و الأولیاء.

و لهذا السبب ورد فی العدید من روایات أئمّه أهل البیت علیهم السّلام أنّ الأئمّه الأطهار هم المقصودون ب جَنْبِ اللّٰهِ ،و من تلک الروایات ما

ورد فی أصول الکافی نقلا عن الإمام موسی الکاظم علیه السّلام إذ قال فی تفسیر: یٰا حَسْرَتیٰ عَلیٰ مٰا فَرَّطْتُ فِی جَنْبِ اللّٰهِ :«جنب اللّه أمیر المؤمنین و کذلک من کان بعده من الأوصیاء بالمکان الرفیع إلی أن ینتهی الأمر إلی آخرهم» (٢) .

کما نقرأ

فی تفسیر علیّ بن إبراهیم نقلا عن الإمام الصادق علیه السّلام: «نحن جنب اللّه» (٣) .

و المعنی ذاته ورد فی روایات اخری لأئمّه أهل البیت الأطهار علیهم السّلام.

و کما قلنا مرارا فإنّ هذه التفاسیر إنّما هی من قبیل بیان المصادیق الواضحه، لأنّ من المسلّم أنّ اتباع نهج الأئمّه إنّما هو اتباع للرسول و طاعه للّه،إذ أنّ الأئمه علیهم السلام لا ینطقون بشیء من عندهم.

١- ١) -سوره العنکبوت،الآیه ۶۵.

٢- ٢) -تفسیر نور الثقلین،المجلد الرابع،الصفحه ۴۹۵.

٣- ٣) -تفسیر نور الثقلین المجلد الرابع الصفحه ۴۹۵.

و فی حدیث آخر تمّ تعریف العلماء غیر العالمین بأنّهم مصداق واضح للمتحسرین،و حیث

ورد فی کتاب(المحاسن)حدیث للإمام الباقر علیه السّلام،جاء فیه:

«إن أشد الناس حسره یوم القیامه الذین وصفوا بالعدل ثمّ خالفوه،و هو قول اللّه عزّ و جلّ أن تقول نفس یا حسرتا علی ما فرطت فی جنب اللّه» (۱) .

۲-علی أعتاب الموت أو القیامه؟

هل أنّ تلک الأقوال الثلاثه قالها المجرمون عند ما شاهدوا العذاب الإلهی فی الدنیا و هو عذاب الاستئصال و الهلاک فی نهایه أعمارهم؟أم عن زمان دخولهم ساحه القیامه؟ المعنی الثّانی أنسب،لأنّ الآیات السابقه تتحدث عن عذاب الاستئصال و الآیه التالیه تتحدث عن یوم القیامه،و الشاهد علی هذا القول هو الآیه(۳۱)من سوره الأنعام التی تقول: قَدْ خَسِرَ الَّذِینَ کَذَّبُوا بِلِقٰاءِ اللّٰهِ حَتّٰی إِذٰا جٰاءَتْهُمُ السّٰاعَهُ بَغْتَهً قٰالُوا یٰا حَسْرَتَنٰا عَلیٰ مٰا فَرَّطْنٰا فِیهٰا .

و الروایات المذکوره أعلاه خیر شاهد علی هذا المعنی.

۱- ۱) -المصدر السابق،ص ۴۹۶.

الآیات [سوره الزمر (۳۹): الآیات ۶۰ الی ۶۴]

اشاره

وَ یَوْمَ اَلْقِیامَهِ تَرَی اَلَّذِینَ کَذَبُوا عَلَی اَللّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّهٌ أَ لَیْسَ فِی جَهَنَّمَ مَثْویً لِلْمُتَکَبِّرِینَ (۶۰) وَ یُنَجِّی اَللّهُ اَلَّذِینَ اِتَّقَوْا بِمَفازَتِهِمْ لا یَمَسُّهُمُ اَلسُّوءُ وَ لا هُمْ یَحْزَنُونَ (۶۱) اَللّهُ خالِقُ کُلِّ شَیْءٍ وَ هُوَ عَلی کُلِّ شَیْءٍ وَکِیلٌ (۶۲) لَهُ مَقالِیدُ اَلسَّماواتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ اَلَّذِینَ کَفَرُوا بِآیاتِ اَللّهِ أُولئِکَ هُمُ اَلْخاسِرُونَ (۶۳) قُلْ أَ فَغَیْرَ اَللّهِ تَأْمُرُونِّی أَعْبُدُ أَیُّهَا اَلْجاهِلُونَ (۶۴)

التّفسیر

اشاره

اللّه خالق کلّ شیء و حافظه:

الآیات السابقه تتحدث عن المشرکین الکذابین و المستکبرین الذین یندمون یوم القیامه علی ما قدمت أیدیهم و یتوسلون لإعادتهم إلی الدنیا،و لکن هیهات أن یستجاب لهم طلبهم،و آیات بحثنا هذه تواصل الحدیث عن هذا الأمر،إذ تقول:

وَ یَوْمَ الْقِیامَهِ تَرَی الَّذِینَ کَذَبُوا عَلَی اللّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّهٌ

.

ثم تضیف أَ لَیْسَ فِی جَهَنَّمَ مَثْویً لِلْمُتَکَبِّرِینَ .

لا شکّ أن عباره کَذَبُوا عَلَی اللّهِ لها مفاهیم و معان واسعه و عمیقه،لکن

الآيه-هنا-تستهدف أولئك الـذين قالوا بوجود شـريک للّه،أو باتخاذ اللّه ولـدا من الملائکه أو الـذين يزعمون أنّ المسـيح عليه السّلام هو ابن اللّه،و أمثال هذه المزاعم و الادعاءات.

و کلمه«مسـتکبر»تطلق دائمـا على أولئـک الـذين يرون أنفسـهم ذات شـأن و قـدر کبير،و لکن المراد منهـا-هنـا-أولئـک الـذين يستکبرون على الأنبياء،و الذين يترکون اتباع الشريعه الحقه،و يرفضون قبولها و اتباعها.

اسوداد وجوه الکـاذبين يوم القيـامه دليل على ذلتهم و هوانهم و افتضاحهم، و کما هو معروف فإن ساحه القيامه هى ساحه ظهور الأسرار و الخفايا و تجسيد أعمال و أفکار الإنسان،فالذين کانت قلوبهم سوداء و مظلمه فى الدنيا،و أعمالهم و أفکارهم سوداء و مظلمه أيضـا،يخرج هـذا السواد و الظلاـم من أعمـاقهم إلى خـارجهم فى يوم القيامه ليطفـح على وجوههم التى تکون فى ذلک اليوم مسودّه و مظلمه.

و بعبـاره اخرى فـإنّ ظـاهر الإنسان يطابق باطنه يوم القيامه،و لون الوجه يکون بلون القلب،فالـذى قلبه أسود و مظلم،يکون وجهه مظلما و أسود،و الذى قلبه ساطع بالنور يکون وجهه کذلک ساطعا بالنور.

و هو ما ورد فى الآيتين(۱۰۶)و(۱۰۷)من سوره آل عمران يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَ تَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَ کَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِکُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا کُنْتُمْ تَکْفُرُونَ وَ أَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَتِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ .

و الملفت للنظر أنّه قد ورد فى بعض الروايات أهل البيت عليهم السـلام،أن الکذب على اللّه،الذى هو أحد أسـباب اسوداد الوجه يوم القيامه،له معان واسعه تشمل حتى الادعاء بالإمامه و القياده کذبا،کما ذکر ذلک الشيخ الصدوق فى کتاب(الاعتقادات)نقلا

عن الإمام الصادق عليه السّلام عند ما أجاب الإمام على سؤال

يتعلق بتفسير هذه الآيه،و قال: «من زعم أنّه إمام و ليس بإمام،قيل:و إن كان علويا فاطميا؟قال:و إن كان علويا فاطميا» (۱) .

و هذا في الحقيقه بيان لمصداق بارز،لأنّ الادعاء المزيف بالإمامه و القياده الإلهيه هو أوضح مصاديق الكذب على اللّه.

و كذلك فإنّ من نسب إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم أو إلى الإمام المعصوم حديثا مختلقا،اعتبر كاذبا على اللّه،لأنّهم لا ينطقون عن الهوى.

لهذا

فقد ورد في حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام: «من تحدث عنّا بحديث فنحن سائلوه عنه يوما فإن صدق علينا فإنّما يصدق على اللّه و على رسوله، و إن كذب علينا فإنّه يكذب على اللّه و رسوله،لأنّا إذا حدثنا لا نقول قال فلان و قال فلان،إنّما نقول قال اللّه و قال رسوله ثمّ تلا هذه الآيه وَ يَوْمَ الْقِيامَهِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّهٌ... (۲) .

الحديث المذكور يبيّن بصوره واضحه أنّ أئمه أهل البيت الأطهار،لم يقولوا شيئا من عندهم،و إن كلّ الأحاديث التي وردت عنهم صحيحه و موثوقه،لأنّها تعود إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم،و هذه الحقيقه مهمّه جدا،و على علماء الإسلام أن يلتفتوا إليها،فالذين لا يقبلون بإمامه أهل البيت عليهم السلام،عليهم أن يقبلوا بأن الأحاديث التي يرويها أئمّه أهل البيت عليهم السّلام،إنّما هي منقوله عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم.

و بهذا الشأن

ورد في كتاب الكافي حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السّلام:

«حديثي حديث أبي،و حديث أبي حديث جدي،و حديث جدي حديث الحسين،و حديث الحسين حديث الحسن،و حديث الحسن حديث أمير المؤمنين، و حديث أمير المؤمنين حديث رسول اللّه،و حديث رسول اللّه قول اللّه عزّ و جلّ» (۳) .

۱- ۱) -الإعتقادات الإماميه،نقلا عن تفسير نور الثقلين،المجلد ۴،الصفحه ۴۹۶،و نفس المعنى نقل عن تفسير علي بن إبراهيم و كتاب الكافي(يراجع المجلد الأوّل من كتاب الكافي(باب من ادعى الإمامه و ليس لها بأهل)الحديث الأوّل و الثّالث).

۲- ۲) -مجمع البيان ذيل آيه البحث.

۳- ۳) -أصول الكافي،المجلد ۱،صفحه ۵۱(باب روايه الكتب و الأحاديث)الحديث ۱۴.

هذا الكلام يدعو إلى الإمعان و التأمل أكثر فى آيات القرآن المجيد،لأن التكبر هو المصدر الرئيسى للكفر،كما نقرأ ذلك بشأن الشيطان أَبىٰ وَ اسْتَكْبَرَ وَ كٰانَ مِنَ الْكٰافِرِينَ (١) .و لهذا السبب فلا يمكن أن يكون للمستكبرين مكان آخر غير جهنم ليحترقوا بنارها، و

قد ورد فى حديث لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم.

«إنّ فى جهنم لواد للمتكبرين يقال له سقر،شكى إلى اللّه عزّ و جلّ شده حرّه، و سأله أن يتنفس فأذن له فتنفس فأحرق جهنم» (٢) .

الآيه التاليه تتحدث عن طائفه تقابل الطائفه السابقه،حيث تتحدث عن المتقين و ابتهاجهم فى يوم القيامه،إذ تقول: وَ يُنَجِّى اللّٰهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفٰازَتِهِمْ (٣) .

ثم توضح فوزهم و انتصارهم من خلال جملتين قصيرتين مفعمتين بالمعانى، لاٰ يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَ لاٰ هُمْ يَحْزَنُونَ .

نعم،إنّهم يعيشون فى عالم لا يوجد فيه سوى الخير و الطهاره و السرور،و هذه العباره القصيره جمعت-حقّا-كلّ الهبات الإلهيه فيها.

الآيه التاليه تتطرق من جديد إلى مسأله التوحيد و الجهاد ضدّ الشرك، و تواصل مجادله المشركين، حيث تقول: اَللّٰهُ خٰالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَ هُوَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ .

العباره الأولى فى هذه الآيه تشير إلى(توحد اللّه فى الخلق)و الثانيه تشير إلى(توحده فى الربوبيه).

فمسأله(توحده فى الخلق)هى حقيقه اعترف بها حتى المشركون،كما ورد

١- ١) -البقره،٣۴.

٢- ٢) -تفسير على بن إبراهيم،نقلا عن تفسير نور الثقلين،المجلد ۴،الصفحه ۴٩۶،كما ورد نفس المعنى فى تفسير الصافى فى ذيل آيات البحث.

٣- ٣) -«مفازه»:مصدر ميمى بمعنى الفوز و الظفر،و(الباء)فى(بمفازتهم)للملابسه أو السببيه،و بالنسبه إلى الحاله الأولى يكون المعنى إن اللّه يعطيهم النجاه المقترنه بالخلاص و الفلاح،أمّا بالنسبه إلى الحاله الثانيه فالمعنى يكون(إن اللّه أنقذهم و نجاهم بسبب إخلاصهم)كنايه عن الأعمال الصالحه و الإيمان-.

فى الآيه(٣٨)من السوره هذه وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللّهُ .

و لكنّهم ابتلوا بالانحراف فيما يتعلق بمسأله(توحده فى الربوبيه)،فى بعض الأحيان اعتبروا الأصنام هى التى تحفظهم و تحميهم و تدبر أمرهم،و كانوا يلجؤون إليها عند ما يواجهون أى مشكله.و القرآن المجيد-من خلال الآيه المذكوره أعلاه-يشير إلى حقيقه أنّ تدبير أمور الكون و حفظه هى بيد خالقه، و ليس بيد أحد آخر،و لهذا يجب اللجوء إليه دائما.

و قد ذكر«ابن منظور»فى كتاب(لسان العرب)معانى متعدده لكلمه(وكيل) منها:الكفيل،و الحافظ،و المدبر للأمر.

و من هنا يتضح أنّ الأصنام ليست مصدر خير أو شر،و أنّها عاجزه عن حل أبسط عقده،حيث أنّها موجودات ضعيفه و عاجزه،و لا يمكن أن تقدم أدنى فائده للإنسان.

و قد عمد بعض المؤيدين للمذهب الجبرى إلى الاستدلال على بعض الأمور من عباره اَللّٰهُ خٰالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لتأكيد ما جاء فى معتقداتهم المنحرفه،إذ قالوا:إنّ هذه الآيه تشمل الأعمال أيضا،و لهذا فإنّ أعمالنا تعد من خلق اللّه،رغم أنّ أعضاءنا هى التى تقوم بها.

إنّ خطأ أولئك هو أنّهم لم يدركوا هذه الحقيقه جيدا،و هى أنّ خالقيه اللّه سبحانه و تعالى لا يوجد فيها أى تعارض مع حريه الإراده و الإختيار لدينا،لأنّ التناسب فيما بينهما طولى و ليس عرضى.

فأعمالنا تتعلق باللّه،و تتعلق بنا أيضا،لأنّه لا يوجد هناك شيء فى هذا الكون يمكن أن يكون خارج إطار سلطه البارئ عزّ و جلّ،و على هذا الأساس فإن أعمالنا هى من خلقه،و إنه أعطانا القدره و العقل و الإختيار و الإراده و حريه العمل،و من هذه الناحيه يمكن أن ننسب أعمالنا إليه،حيث إنّه أراد أن نكون

أحرارا و ننفذ الأعمال بأختيارنا،كما أنّه وضع كلّ ما نحتاجه تحت تصرفنا.

لكننا فى الحال ذاته أحرار مخيرون فى تنفيذ الأعمال،و على ذلك فإنّ أفعالنا منسوبه إلينا و نحن المسؤولون عنها.

فإذا قال أحد:إنّ الإنسان يخلق أعماله،و لا دخل للّه عزّ و جلّ فيها،فإنّه قد أشرك لأنّه فى هذه الحاله يعتقد بوجود خالقين،خالق كبير و خالق صغير،و إذا قال آخر:إنّ أعمالنا هى من خلق اللّه و لا دخل لنا فيها،فقد انحرف،لأنّه أنكر بقوله هذا حكمه و عداله اللّه،إذ لا يصح أن يجبرنا فى الأعمال،ثمّ يحمّلنا مسئوليتها! لأنّ فى هذه الحاله،يصبح الجزاء و الثواب و الحساب و المعاد و التكليف و المسؤوليه كلّها عبثا.

لذا فإن الاعتقاد الإسلامى الصحيح و الذى يمكن أن يستشف من مجموع آيات القرآن المجيد،هو أن كلّ أعمالنا منسوبه للّه و إلينا،و هذه النسبه لا يوجد فيها أى تعارض،لأنّها طوليه و ليست عرضيه.

أمّا الآيه التاليه فقد تطرقت(توحيد اللّه فى المالكيه)لتكمل بحث التوحيد الذى ورد فى الآيات السابقه،إذ تقول: لَهُ مَقٰالِيدُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ .

«مقاليد»:كما يقول أغلب اللغويين،جمع(مقليد)(مع أن الزمخشرى يقول فى الكشاف:إن هذه الكلمه ليس لها مفرد من لفظها)و(مقليد)و(إقليد) كلاهما تعنى المفتاح،و على حدّ قول صاحب كتاب(لسان العرب)و آخرين غيره فإن كلمه (مقليد)مأخوذه من(كليد)الفارسيه الأصل،و من العربيه تستعمل بنفس المعنى، و لذا فإن مَقٰالِيدُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ تعنى مفاتيح السماوات و الأرض.

هذه العباره تستخدم ككنايه عن امتلاك شىء ما أو التسلط عليه كأنّ يقول أحد:مفتاح هذا العمل بيد فلان.لذا فإنّ الآيه المذكوره أعلاه يمكن أن تشير إلى (وحدانيه اللّه فى الملك)و فى نفس الوقت تشير إلى وحدانيته فى التدبير و الربوبيه و الحاكميه على هذا العالم الكونى.

و لهذا السبب أوردت الآيه المذكوره بمثابه استنتاج وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللّهِ أُولٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ .

لأنّهم تركوا المصدر الرئيسى و المنبع الحقيقى لكل الخيرات و البركات و تاهوا فى صحارى الضلال عند ما أعرضوا بوجوههم عن مالك مفاتيح السماوات و الأرض،و توجهوا نحو موجودات عاجزه تماما عن تقديم أدنى عمل لهم.

و

قد ورد فى حديث عن أمير المؤمنين عليه السّلام أنّه طلب من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم توضيح معنى كلمه(مقاليد)فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم:«يا على،لقد سئلت عن عظيم المقاليد،هو أن تقول عشرا إذا أصبحت،و عشرا إذا أمسيت،لا إله الاّ اللّه و اللّه أكبر و سبحان اللّه و الحمد للّه و استغفر اللّه و لا قوه إلا باللّه(هو)الأوّل و الآخر و الظاهر و الباطن له الملك و له الحمد(يحيى و يميت)بيده الخير و هو على كلّ شىء قدير» (۱) .

ثم أضاف:«من قالها عشرا إذا أصبح،و عشرا إذا أمسى،أعطاه اللّه خصالا ستا...أوّلها يحرسه من الشيطان و جنوده فلا يكون لهم عليه سلطان».

أمّا من ردد هذه الكلمات بصوره سطحيه فإنّه-حتما-لا يستحق كل،هذه المكافآت،فيجب الإيمان بمحتواها و التخلق بها.

هذا الحديث يمكن أن يشير إلى أسماء اللّه الحسنى التى هى أصل الحاكميه و المالكيه لهذا العالم الكونى.

من مجموع كلّ الأمور التى ذكرناها فى الآيات السابقه بشأن فروع التوحيد، يمكن الحصول على نتيجه جيده،و هى أنّ التوحيد فى العباده هو حقيقه لا يمكن نكرانها و على كلّ إنسان عاقل أن لا يسمح لنفسه بالسجود للأصنام،و لهذا فإن

۱- ۱) -تفسير القرطبى،المجلد الثامن،الصفحه ۵۷۱۹،و تفسير أبو الفتوح الرازى،المجلد ۹،الصفحه ۴۱۷ ذيل آيات البحث(مع اختصار ذيل الحديث).

البحث ينتهى بآيه تتحدث بلهجه حازمه و متشدده قُلْ أَ فَغَيْرَ اللّٰهِ تَأْمُرُونِّى أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجٰاهِلُونَ .

هـذه الآيه-و بالنظر الى أنّ المشـركين و الكفره كانوا أحيانا يـدعون رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و اله و سـلّم إلى احترام آلهتهم و عبادتها،أو على الأقل عدم الانتقاص منها أو الهى عن عبادتها،-أعلنت و بمنتهى الصـراحه أنّ مسأله توحيد اللّه و عدم الإشـراك به هى مسأله لا تقبل المساومه و الاستسلام أبدا،إذ يجب أن تزال كافه أشكال الشرك و تمحى من على وجه الأرض.

فالآيه تعنى أنّ عبـده الأصـنام على العموم هم أناس جهله،لأنّهم لا يجهلون فقط البارئ عزّ و جلّ،بل يجهلون حتى مرتبه الإنسان الرفيعه.

إنّ التعبير ب«تـأمرونى»،الـذى ورد-فى الآيه الآنفه-يشـير إلى أنّ الجهله كانوا يأمرون رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و اله و سـلّم بأن يعبد أصنامهم بدون أىّ دليل منطقى،و هذا الموقف ليس بعجيب من أفراد جهله.

أليس من الجهل و الغباء أن يترك الإنسان عباره البارى عزّ و جلّ رغم مشاهدته للكثير من الأدلّه فى هذا العالم و التى تدلّ على علمه و قـدرته و تـدبيره و حكمته،ثمّ يتمسّـك بعبـاده موجـودات تـافهه لا ـ قيمه لهـا و عـاجزه عن تقـديم أدنى مساعـده و عون لعبدتها.

الآيات [سوره الزمر (۳۹): الآيات ۶۵ الی ۶۷]

اشاره

وَ لَقَدْ أُوحِیَ إِلَیْکَ وَ إِلَی اَلَّذِینَ مِنْ قَبْلِکَ لَئِنْ أَشْرَکْتَ لَیَحْبَطَنَّ عَمَلُکَ وَ لَتَکُونَنَّ مِنَ اَلْخٰاسِرِینَ (۶۵) بَلِ اَللّٰهَ فَاعْبُدْ وَ کُنْ مِنَ اَلشّٰاکِرِینَ (۶۶) وَ مٰا قَدَرُوا اَللّٰهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَ اَلْأَرْضُ جَمِیعاً قَبْضَتُهُ یَوْمَ اَلْقِیٰامَهِ وَ اَلسَّمٰاوٰاتُ مَطْوِیّٰاتٌ بِیَمِینِهِ سُبْحٰانَهُ وَ تَعٰالیٰ عَمّٰا یُشْرِکُونَ (۶۷)

التّفسیر

اشاره

الشرک محبط للأعمال:

آیات بحثنا تواصل التطرق للمسائل المتعلقه بالشرک و التوحید و التی کانت قد استعرضت فی الآیات السابقه أیضا.

الآیه الأولی تتحدث بلهجه قاطعه و شدیده حول أخطار الشرک،و تقول:

وَ لَقَدْ أُوحِیَ إِلَیْکَ وَ إِلَی الَّذِینَ مِنْ قَبْلِکَ لَئِنْ أَشْرَکْتَ لَیَحْبَطَنَّ عَمَلُکَ وَ لَتَکُونَنَّ مِنَ الْخٰاسِرِینَ

.

و بهذا الترتیب،فإنّ للشرک نتیجتین خطیرتین،تشملان حتی أنبیاء اللّه فی مالو أصبحوا مشرکین-علی فرض المحال-

ص:۱۴۱

النتیجه الأولی:إحباط الأعمال،و الثانیه:الخسران و الضیاع.

و إحباط الأعمال یعنی محو آثار ثواب الأعمال السابقه،و ذلک بعد کفره و شرکه باللّه،لأنّ شرط قبول الأعمال هو الاعتقاد بأصل التوحید،و لا یقبل أی عمل بدون هذا الاعتقاد.

فالشرک هو النّار التی تحرق شجره أعمال الإنسان.

و الشرک هو الصاعقه التی تهلک کلّ ما جمعه الإنسان خلال فتره حیاته.

و الشرک هو عاصفه هو جاء تدمر کلّ أعمال الإنسان و تأخذها معها،کما ورد فی الآیه(۱۸)من سوره إبراهیم مَثَلُ الَّذِینَ کَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمٰالُهُمْ کَرَمٰادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّیحُ فِی یَوْمٍ عٰاصِفٍ لاٰ یَقْدِرُونَ مِمّٰا کَسَبُوا عَلیٰ شَیْءٍ ذٰلِکَ هُوَ الضَّلاٰلُ الْبَعِیدُ .

لذا

ورد فی حدیث عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم: «إنّ اللّه تعالی یحاسب کلّ خلق إلاّ من أشرک باللّه فإنّه لا یحاسب و یؤمر به إلی النّار» (۱) .

و أمّا خسارتهم فإنّها بسبب بیعهم أکبر ثروه یمتلکونها،ألا و هی العقل و الإدراک و العمر فی سوق التجاره الدنیویه،و شراؤهم الحسره و الألم بثمنها.

و هنا یطرح هذا السؤال:هل من الممکن أن یسیر الأنبیاء العظام فی طریق الشرک حتی تخاطبهم الآیه الآنفه بهذه اللهجه؟ الجواب علی هذا السؤال واضح،و هو أنّ الأنبیاء لم یشرکوا قطّ،مع أنّهم یمتلکون القدره و الإختیار الکاملین فی هذا الأمر،و معصومیتهم لا تعنی سلب القدره و الإختیار منهم،إلاّ أنّ علمهم الغزیر و ارتباطهم المباشر و المستمر مع الباریٔ عزّ و جلّ یمنعهم حتی من التفکیر و لو للحظه واحده بالشرک،فهل یمکن أن یتناول السمّ طبیب عالم و حاذق و مطلع بصوره جیده علی تأثیر تلک الماده السامه و الخطره،و هو فی حاله طبیعیه؟! الهدف هو اطلاع الجمیع علی خطر الشرک،فعند ما یخاطب الباریٔ عزّ و جلّ

۱- ۱) -نور الثقلین،المجلد ۴۹،الصفحه ۴۹۷.

أنبياء العظام بهذه اللهجه الشديده،فعلى الأمه أن تحسب حسابها،هذا الأسلوب من قبيل ما نصّ عليه المثل المعروف(إيّاک أعنى و اسمعى يا جاره).

و نفس المعنى

ورد فى حديث عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السّلام أثناء إجابته على سؤال وجهه إليه المأمون،إذ قال:يا بن رسول اللّه أليس من قولک أن الأنبياء معصومون؟قال عليه السّلام:«بلى»قال:فما معنى قول اللّه إلى أن قال:فأخبرنى عن قول اللّه: عَفَا اللّهُ عَنْکَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ .

قال الرضا عليه السّلام:«هذا ممّا نزل بإيّاک أعنى و اسمعى يا جاره،خاطب اللّه بذلک نبيّه و أراد به أمته»و كذلک قوله: لَئِنْ أَشْرَکْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُکَ... و قوله تعالى:

وَ لَوْ لاَ أَنْ ثَبَّتْنَاکَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً قال:صدقت يا ابن رسول اللّه (١) .

الآيه التاليه تضيف للتأكيد أكثر بَلِ اللّهَ فَاعْبُدْ وَ كُنْ مِنَ الشّاكِرِينَ (٢) .

تقديم اسم الجلاله للدلاله على الحصر،و ذلک يعنى أن ذات اللّه المنزهه يجب أن تكون معبودک الوحيد،ثمّ تأمر الآيه بالشكر،لأن الشكر على النعم التى أغدقت على الإنسان هى سلم يؤدى إلى معرفه اللّه،و نفى كلّ أشكال الشرک، فالشكر على النعم من الأمور الفطريه عند الإنسان،و قبل الشكر يجب معرفه المنعم،و هنا فإن خط الشكر يؤدى إلى خط التوحيد،و ينكشف بطلان عباده الأصنام التى لا تهب للإنسان آيه نعمه.

الآيه الأخيره فى بحثنا هذا تكشف عن الجذر الرئيسى لانحرافهم،و تقول:

وَ مّا قَدَرُوا اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ

.و لهذا تنزلوا باسمه المقدس حتى جعلوه رديفا للأوثان!! نعم،فمصدر الشرک هو عدم معرفه البارئ عزّ و جلّ بصوره صحيحه،فالذى

١- ١) -المصدر السابق.

٢- ٢) -(الفاء)فى(فاعبد)زائده للتأكيد على ما قيل،و قال البعض:إنّها(فاء)الجزاء و قد حذف شرطه و التقدير(إن كنت عابدا فاعبد اللّه)،ثمّ حذف الشرط،و قدم المفعول مكانه.

یعلم:

أوّلا:أنّ اللّه مطلق و غیر محدود من جمیع النواحی.

و ثانیا:أنّه خالق کلّ الموجودات التی تحتاج إلیه فی کلّ لحظه من لحظات وجودها.

و ثالثا:أنّه یدیر الکون و یحل کلّ عقد المشاکل،و أنّ الأرزاق بیده،و حتی الشفاعه إنّما یتمّ بإذنه و أمره،فما معنی توجه من یعلم بکلّ هذه الحقائق إلی غیر اللّه.

و أساسا فإنّ وجود مثل هذه الصفات فی موجودین اثنین أمر محال،لأنّه من غیر الممکن عقلا وجود موجودین مطلقین من جمیع الجهات.

ثمّ یأتی القرآن بعبارتین کنائیتین بعد العباره السابقه،و ذلک لبیان عظمه و قدره الباریٔ عزّ و جلّ،إذ یقول کلام اللّه المجید: وَ الْأَرْضُ جَمِیعاً قَبْضَتُهُ یَوْمَ الْقِیٰامَهِ وَ السَّمٰاوٰاتُ مَطْوِیّٰاتٌ بِیَمِینِهِ .

«القبضه»:الشیء الذی یقبض علیه بجمیع الکف،تستخدم-عاده-للتعبیر عن القدره المطلقه و التسلط التام،مثلما نقول فی الاصطلاحات الیومیه الدارجه:

إن المدینه الفلانیه هی بیدی،أو الملک الفلانی هو بیدی و فی قبضتی.

«مطویات»:من ماده(طی)و تعنی الثنی،و التی تستعمل أحیانا کنایه عن الوفاه و انقضاء العمر،أو عن عبور شیء ما.

و العباره المذکوره أعلاه استخدمت بصوره واضحه بشأن السماوات فی الآیه(۱۰۴)من سوره الأنبیاء یَوْمَ نَطْوِی السَّمٰاءَ کَطَیِّ السِّجِلِّ لِلْکُتُبِ .

فالذی یثنی طومارا و یحمله بیده الیمنی یسیطر بصوره کامله علی الطومار الذی یحمله بتلک الید،و انتخبت الید الیمنی هنا لأن أکثر الأشخاص یؤدون أعمالهم المهمّه بالید الیمنی و یحسون بأنّها ذات قوه و قدره أکثر.

خلاصه الکلام،أنّ کلّ هذه التشبیهات و التعابیر هی کنایه عن سلطه اللّه

المطلقه على عـالم الوجـود فى العـالم الآ ـخر،حـتى يعلم الجميـع أن مفتـاح النجـاه و حـل المشاكـل يـوم القيـامه هو بيـد القـدره الإلهيه،كى لا يعمدوا إلى عباده الأصنام و غيرها من الآلهه بذريعه أنّها ستشفع لهم فى ذلك اليوم.

و لكن هـل أنّ السـماء و الأرض ليسـتا فى قبضـته فى الحياه الـدنيا؟فلم الحـديث عن الآخره؟ الجواب:إنّ قـدره البارئ عزّ و جلّ تظهر و تتجلّى فى ذلـك اليوم أكثر من أىّ وقت مضـى،و تصـل إلى مرحله التجلّى النهائى،و كل إنسان يـدرك و يشـعر أنّ كلّ شىء هو من عنـد اللّه و تحت تصـرفه.إضافه إلى أنّ البعض اتجه إلى غير اللّه بـذريعه أنّ أولئك سـينقذونه يوم القيامه،كما فعل المسـيحيون،إذ أنّهم يعبدون عيسـى عليه السّـلام متصورين أنّه سينقذهم يوم القيامه،و طبقا لهذا فمن المناسب التحدث عن قدره البارئ عزّ و جلّ فى يوم القيامه.

و يتّضـح بصوره جيـده ممّا تقـدم أنّ طابع الكنايه يطغى على هـذه العبارات، و بسـبب قصور الألفاظ المتـداوله فإنّنا نجد أنفسـنا مضطرين إلى صبّ تلك المعانى العميقه فى قو هذه الألفاظ البسيطه،و لا يرد إمكانيه تجسيم البارئ عزّ و جلّ من خلالها،إلاّ إذا كان الشـخص الذى يتصور ذلك ذا تفكير ساذج و عقل بسـيط جدّا،حيث نفتقد ألفاظا تبيّن مقام عظمه البارئ عزّ و جلّ بصوره واضحه،إذن فيجب الاستفاده بأقصى ما يمكن من الكنايات التى لها مفاهيم كثيره و متعدده.

على أيه حال،فبعد التوضـيحات التى ذكرت آنفا،يعطى البارئ عزّ و جلّ فى آخر الآيه نتيجه مركزه و ظاهريه،إذ يقول: سُبْحانَهُ وَ تَعالى عَمّا يُشْرِكُونَ .

فلو لم يكن بنو آدم قـد أصـدروا أحكامهم على ذات اللّه المقدسه المنزهه وفق مقاييس تفكيرهم الصـغيره و المحدوده،لما انجر أحد منهم إلى حبائل الشرك و عباده الأصنام.

ص :١۴۵

ملاحظتان

اشاره

۱-مسأله إحباط الأعمال

هل يمكن حقّا أن تحبط الأعمال الصالحه للإنسان بسبب أعمال سيئه يرتكبها؟و هل أنّ هذه المسأله لا تتعارض مع عداله البارئ عزّ و جلّ من جهه، و مع ظواهر الآيات التى تقول: فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّهٍ خَيْراً يَرَهُ وَ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّهٍ شَرًّا يَرَهُ ؟.

البحث فى هذه المسأله طويل و عريض سواء من حيث الأدله العقليه أو النقليه،و قد أوردنا جزاء منه فى ذيل الآيه(۲۱۷)من سوره البقره،و سنذكره فى نهايه بعض الآيات التى تتناسب مع الموضوع فى المجلدات القادمه إن شاء اللّه.

و ممّا تجب الإشاره إليه هنا هو:إذا كان هناك شك فى مسأله(إحباط الأعمال)بسبب المعاصى،فإنّه لا ينبغى أن يشكّ أبدا فى تأثير الشرك على إحباط الأعمال،لأن آيات كثيره فى القرآن المجيد أشير إلى بعضها آنفا-تقول و بصراحه(إنّ الوفاه على الإيمان)هى شرط قبول الأعمال،و بدونها لا يقبل من الإنسان أى عمل.

فقلب المشرك كالأرض السبخه التى مهما بذرت فيها أنواع بذور الورد، و مهما هطل عليها المطر الذى هو مصدر الحياه،فإنّ تلك البذور سوف لن تنبت أبدا.

۲-هل عرف المؤمنون اللّه؟

قرأنا فى الآيات الآنفه أنّ المشركين لم يعرفوا اللّه حق معرفته،إذ أنّهم لو عرفوه لما ساروا فى طريق الشرك و معنى هذا الكلام أن المؤمنين الموحدين هم وحدهم الذين عرفوا اللّه حق معرفته.

و هنا يطرح هذا السؤال و هو:كيف يتلاءم هذا الكلام مع الحديث المشهور

لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم و الذى يقول فيه: «ما عرفناك حق معرفتك،و ما عبدناك حق عبادتك».

و للجواب على هـذا السؤال يجب القول:إنّ للمعرفه مراحـل،أعلاهـا هى تلـك المعرفه الـتى تخص ذات اللّه المقـدسه،و الـتى لا يمكن لأى أحد أن يعرفها أو يطلع عليها غير ذاته المقدسه التى تعرف كنه ذاته المقدسه،و الحديث الشـريف المذكور يشير إلى هذا المعنى.

أمّا بقيه المراحل التى تأتى بعـد هـذه المرحله و التى يمكن للعقل البشـرى أن يتعرف عليها،هى مرحله معرفه صـفات اللّه بصوره عـامه و معرفه أفعـاله بصوره مفصـله،و هـذه المرحله كما ذكرنا ممكنه بالنسـبه للإنسان،و المراد من معرفه اللّه الوصول إلى هـذه المرحله،و الآيه مورد بحثنا تحدثت عن هذه المرحله،حيث أن المشركين يجهلون هذا المقدار من المعرفه أيضا.

ص: ۱۴۷

الآيه [سوره الزمر (۳۹): آیه ۶۸]

اشاره

وَ نُفِخَ فِی اَلصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِی اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ مَنْ فِی اَلْأَرْضِ إِلاّٰ مَنْ شٰاءَ اَللّٰهُ ثُمَّ نُفِخَ فِیهِ أُخْرىٰ فَإِذٰا هُمْ قِیٰامٌ یَنْظُرُونَ (۶۸)

التّفسیر

اشاره

(النفخ فی الصور)و موت و إحیاء جمیع العباد:

الآیات الأخیره فی البحث السابق تحدثت عن یوم القیامه،و آیه بحثنا الحالی تواصل الحدیث عن ذلک الیوم مع ذکر إحدی المیزات المهمه له،إذ تبدأ الحدیث بنهایه الحیاه فی الدنیا،و تقول: وَ نُفِخَ فِی الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ مَنْ فِی الْأَرْضِ إِلاّٰ مَنْ شٰاءَ اللّٰهُ .

یتّضح بصوره جیده من هذه الآیه أنّ حادثتین تقعان مع نهایه العالم و عند البعث،فی الحادثه الأولی یموت الأحیاء فورا،و فی الحادثه الثانیه-التی تقع بعد فتره من وقوع الحادثه الأولی-یعود کلّ الناس إلی الحیاه مرّه اخری،و یقفون بانتظار الحساب.

القرآن المجید عبّر عن هاتین الحادثتین ب«النفخ فی الصور»،و هذا التعبیر کنایه عن الحوادث المفاجئه و المتزامنه التی ستقع و«الصور»بمعنی البوق الذی یتخذ من قرن الثور و یکون مجوفا عاده حیث یستخدم مثل هذا البوق فی حرکه

القوافل أو الجیش و توقفها،و طبعا هناک تفاوت بین النفخه للحرکه و النفخه للتوقف.

کما یبیّن هذا التعبیر سهوله الأمر و یوضح کیف أن البارئ عزّ و جلّ-من خلال أمر بسیط و هو النفخ فی الصور-یمیت کلّ من فی السماء و الأرض،و کیف أنّه یبعثهم من جدید بنفخه صور اخری.

و قلنا سابقا إنّ الألفاظ التی نستخدمها فی حیاتنا الیومیه عاجزه عن توضیح الحقائق المتعلقه بعالم ما وراء الطبیعه أو نهایه العالم و بدء عالم آخر بدقّه،و لهذا السبب یجب الاستفاده من أوسع معانی الألفاظ الدارجه و المتداوله مع الالتفات إلی القرائن الموجوده.

توضیح:لقد وردت تعبیرات مختلفه فی القرآن المجید عن نهایه الحیاه فی هذا العالم و بدء حیاه اخری فی عالم آخر،حیث ورد الحدیث عن(النفخ فی الصور)فی أکثر من عشر آیات (۱) .

فی إحداها استخدمت عباره النفر فی الناقور فَإِذٰا نُقِرَ فِی النّٰاقُورِ فَذٰلِکَ یَوْمَئِذٍ یَوْمٌ عَسِیرٌ (۲) .

و فی بعضها استخدمت عباره(القارعه)کما فی الآیات(۱ و ۲ و ۳ من سوره القارعه) اَلْقٰارِعَهُ، مَا الْقٰارِعَهُ، وَ مٰا أَدْرٰاکَ مَا الْقٰارِعَهُ .

و أخیرا استخدمت فی بعضها عباره«صحیحه»و التی تعنی الصوت العظیم، کما ورد ذلک فی الآیه(۴۹)من سوره یس مٰا یَنْظُرُونَ إِلاّٰ صَیْحَهً وٰاحِدَهً تَأْخُذُهُمْ وَ هُمْ یَخِصِّمُونَ التی تتحدث عن الصیحه التی تقع فی نهایه العالم و تفاجئ کل بنی آدم.

۱- ۱) -الآیات التی ورد فیها ما یشیر إلی النفخ فی الصور هی:(الکهف-۹۹)و(المؤمنون-(۱۰۱)،(یس-۵۱)،(الزمر-۶۸)،(ق - ۲۰)،(الحاقه-۱۳)،(الأنعام-۷۳)،(طه-۱۰۲)،(النمل-۸۷)،(النبأ-۱۸).

۲- ۲) -المدثر،الآیه ۸.

أمّا الآيه(۵۳)من سوره يس إِنْ كٰانَتْ إِلاّٰ صَيْحَةً وٰاحِدَةً فَإِذٰا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنٰا مُحْضَرُونَ فإنّها تتحدث عن صيحه(الإحياء)التى تبعث الناس من جديد و تحضرهم إلى محكمه العدل الإلهيه.

من مجموع هذه الآيات يمكن أن يستشف بأن نهايه أهل السموات و الأرض تتمّ بعد صيحه عظيمه و هى(صيحه الموت)و أنّهم يبعثون من جديد و هم قيام بصيحه عظيمه أيضا،و هذه هى(صيحه بعث الحياه).

و أمّا كيف تكون هاتان الصيحتان؟ و ما هى آثار الصيحه الأولى و تأثير الصيحه الثانيه؟فلا علم لأحد بهما إلاّ اللّه سبحانه و تعالى،و لذا ورد فى بعض الرّوايات التى تصف(الصور)الذى ينفخ فيه «إسرافيل»فى نهايه العالم،عن على بن الحسين عليه السّلام:-«و للصور رأس واحد و طرفان،و بين طرف رأس كلّ منهما إلى الآخر مثل ما بين السماء إلى الأرض» قال:فينفخ فيه نفخه فيخرج الصوت من الطرف الذى يلى الأرض فلا يبقى فى الأرض ذو روح إلاّ صعق و مات،و يخرج الصوت من الطرف الذى يلى السماوات فلا يبقى فى السماوات ذو روح إلاّ صعق و مات إلاّ إسرافيل،قال:فيقول اللّه لإسرافيل:يا إسرافيل،مت،فيموت إسرافيل...» (۱) .

على أيه حال،فإنّ أكثر المفسّرين اعتبروا(النفخ فى الصور)كنايه لطيفه عن كيفيه نهايه العالم و بدء البعث،و لكن مجموعه قليله من المفسّرين قالوا:إن(صور) هى جمع(صوره)و طبقا لهذا القول،فقد اعتبروا النفخ فى الصور يعنى النفخ فى الوجه،مثل نفخ الروح فى بدون الإنسان،و وفق هذا التّفسير ينفخ مرّه واحده فى وجوه بنى آدم فيموتون جميعا،و ينفخ مره اخرى فيبعثون جميعا (۲) .

هذا التّفسير إضافه إلى كونه لا يتطابق مع ما جاء فى الروايات،فإنّه

۱- ۱) -تفسير نور الثقلين،المجلد ۴،الصفحه ۵۰۲.

۲- ۲) -يرجى الانتباه إلى أنّ(صور)هى على وزن(نور)،و(صور)هى على وزن(زحل)هما جمع(الصوره).

لا- يتطابق أيضا مع الآيه مورد بحثنا،لأنّ الضـمير فی عباره ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرىٰ مفرد مـذكر يعود على الصور،فی حين لو كان يراد منه المعنى الثّانى لكان يجب استعمال ضمير المفرد المؤنث فی العباره لتصبح(نفخ فيها).

إنّ النفـخ فی الوجه فی مجـال إحياء الأموات يعـد أمرا مناسـبا(كما فی معجزات عيسـى عليه السّلام)إلاّ أنّ هـذا التعبير لا يمكن استخدامه فی مجال قبض الأرواح.

بحوث

اشاره

١-هل أنّ النفخ فی الصور يتمّ مرتين،أو أكثر؟

المشـهور بين علمـاء المسـلمين أنّه يتمّ مرّتين فقط،و ظاهر الآيه يوضّـح هـذا أيضا،كما أنّ مراجعه آيات القرآن الأخرى تبيّن أنّ هناك نفختين فقط،لكن البعض قال:إنّها ثلاث نفخات،و البعض الآخره قال:إنّه أربع.

و بهـذا الشـكل فالنفخه الأولى يقال لها نفخه(الفزع)، و هـذه العباره وردت فی الآيه(٨٧)من سوره النمل وَ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ .

و النفختـان الثـانيه و الثّالثه يعتبرونها للإماته و الإحياء،و التی أشـير إليها فی آيات بحثنا و فی آيات قرآنيه اخرى،أولاهما يطلقون عليهـا نفخـه(الصـعق) (الصـعق تعنى فقـدان الإنسـان حـاله الشـعور،أی يغشـی عليـه،و تعنى أيضـا المـوت) و الثـانيه يطلـق عليها نفخه(القيام).

أمّا الـذين احتملوا أن النفخات أربع،فيبـدو أنّهم استشـفوا ذلک من الآيه(٥٣) من سوره يس و الـتی تقول بعـد نفخه الإحيـاء إِنْ كٰانَتْ إِلاّٰ صَيْحَةً وٰاحِدَةً فَإِذٰا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنٰا مُحْضَرُونَ و هذه النفخه هی(لجمعهم و إحضارهم).

و الحقيقه أنّه ليس هناك أكثر من نفختين،و مسأله الفزع و الرعب العام فى الواقع هى مقدمه لموت جميع البشر و الذى يتم بعد النفخه الأولى أو الصيحه الأولى،كما أن نفخه الجميع هى تتمه لنفخه الإحياء و البعث،و بهذا الشكل فلا يوجد أكثر من نفختين(نفخه الموت)و(نفخه الإحياء)،و هناك شاهد آخر على هذا القول و هو الآيتان(۶ و ۷)من سوره النازعات،اللتان تقولان: يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَهُ، تَتْبَعُهَا الرَّادِفَهُ .

۲-ما هو صور إسرافيل:

هناك سؤال يتبادر إلى الذهن،و هو:كيف تملأه أمواج الصور الصوتيه كلّ العالم فى نفس اللحظه؟رغم أنّنا نعلم أنّ سرعه الأمواج الصوتيه بطيئه و لا تتجاوز ال(۲۴۰)مترا فى الثانيه، فى حين أنّ سرعه الضوء هى أكثر بمليون مره من هذه السرعه إذ تبلغ(۳۰۰)ألف كيلومتر فى الثانيه.

يجب الاعتراف فى البدايه بأنّ معلوماتنا بشأن هذا الموضوع هى كمعلوماتنا بشأن الكثير من المسائل المتعلقه بيوم القيامه،فهى معلومات عامه لا أكثر،إذ نجهل الكثير من تفاصيل ذلك اليوم كما قلنا.

و التدقيق فى الروايات الوارده فى المصادر الإسلاميه بشأن تفسير كلمه (الصور)تبيّن عكس ما يتصور البعض من أنّ(الصور)هو(زماره)أو(مزمار)أو (بوق)اعتيادى.

و

قد جاء فى روايه عن الإمام زين العابدين عليه السّلام أنّه قال: «إنّ الصور قرن عظيم له رأس واحد و طرفان،و بين الطرف الأسفل الذى يلى الأرض إلى الطرف الأعلى الذى يلى السماء مثل تخوم الأرضين إلى فوق السماء السابعه،فيه أثقاب بعدد أرواح الخلائق» (۱) .

ص :۱۵۲

۱- ۱) -لئالى الأخبار،الصفحه ۴۵۳.

و

فی حدیث ورد عن رسول اللّه،جاء فیه: «الصور قرن من نور فیه أثقاب علی عدد أرواح العباد» (۱) .

طرح مسأله النور هنا بمثابه جواب علی السؤال الثّانی المذکور أعلاه، و یوضح أن الصیحه العظیمه لیست من قبیل الأمواج الصوتیه الاعتیادیه،و إنّما هی صیحه أعظم و أعظم،و تکون أمواجها ذات سرعه فائقه و غیر طبیعیه حتی أنّها أسرع من الضوء الذی یجتاز السماء و الأرض بفتره زمنیه قصیره جدّا،ففی المرّه الأولی تکون ممیته،فی المره الثانیه تکون باعثه للأموات.

أمّا کیف یتسبب مثل هذا الصوت فی إماته العالمین،فإنّ کان هذا الأمر عجیبا فی السابق،فإنه غیر عجیب الیوم،لأننا سمعنا کثیرا بأن الأمواج الانفجاریه تسببت فی تمزق أجساد البعض و إصابه آخرین بالصمیم،و رمی آخرین إلی مسافه بعیده عن مکانهم،و تسببت فی تدمیر البیوت أیضا،کما شاهد الکثیر منّا کیف أنّ زیاده سرعه الطائره و بعباره اخری(اختراق حاجز الصوت)یولّد صوتا مرعبا و أمواجا مدمّره،قد تحطم زجاج نوافذ الکثیر من العمارات و البیوت.

فإذا کانت الأمواج الصوتیه الصغیره التی هی من صنع الإنسان تحدث مثل هذا التأثیر،فما هی الآثار التی تترکها الصیحه الإلهیه العظیمه،هی بلا شکّ انفجار عالمی کبیر.

و لهذا السبب لا عجب أیضا إن قلنا بوجود أمواج تقابل تلک الأمواج،و أنّها تهز الإنسان و توقظه و تحییه،رغم أنّه من العسیر علینا تصور هذا المعنی،و لکننا نری دائما کیف یوقظ النائم من نومه بواسطه الصوت،و کیف یعود الإنسان المغمی علیه إلی حالته الطبیعیه بواسطه عدّه صعقات شدیده،و نکرر القول مرّه اخری، و نقول:إنّ علمنا المحدود لا یمکنه إدراک سوی ظلّ هذه الأمور و من بعید.

۱- ۱) -علم الیقین،الصفحه ۸۹۲.

۳-من هم المستثنون؟

کما مرّ علینا فی الآیه المبحوثه عنها فإنّ کلّ أهل السموات و الأرض یموتون سوی مجموعه واحده إِلاّ مَنْ شاءَ اللّهُ فمن هی هذه المجموعه؟هناک اختلاف بین المفسّرین بشأن هذا الأمر:

فمجموعه من المفسّرین قالوا:إنّهم ملائکه اللّه الکبار،کجبرائیل و میکائیل و إسرافیل و عزرائیل،و قد أشارت روایه إلی هذا المعنی (۱) .

البعض أضاف إلی أولئک الملائکه الکبار حمله عرش اللّه(کما وردت فی روایه اخری) (۲) .

و مجموعه اخری قالت:إنّ أرواح الشهداء مستثناه من الموت،وفقا لما جاء فی آیات القرآن المجید أَحْیاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ یُرْزَقُونَ کما ورد فی روایه تشیر إلی هذا المعنی (۳) .

و بالطبع فإنّ هذه الروایات لا تتعارض مع بعضها البعض،و لکن فی کلّ الصور فإنّ هذه المجموعه المتبقیه تموت فی نهایه الأمر،کما أوضحته تلک الرّوایات،و لا یبقی أحد حیا فی هذا العالم سوی الباریٔ عزّ و جلّ إذ هو اَلْحَیِّ الَّذِی لا یَمُوتُ .

و عن کیفیه موت الملائکه و أرواح الشهداء و الأنبیاء و الأولیاء،فیحتمل أنّ المراد من موت أولئک هو قطع ارتباط الروح عن قالبها المثالی،أو تعطیل نشاط الروح المستمر.

۱- ۱) -مجمع البیان ذیل آیات البحث.

۲- ۲) -بحار الأنوار،المجلد ۶،الصفحه ۳۲۹.

۳- ۳) -نور الثقلین،المجلد ۴،الصفحه ۵۰۳،الحدیث ۱۱۹.

۴-فجائیه النفختین:

آیات القرآن الکریم توضح بصوره جیده أنّ النفختین تقعان بصوره مفاجئه، و النفخه الأولی تکون فجائیه بحیث أنّ مجموعه کبیره من الناس تکون منشغله بالتجاره و الجدال و النقاش فی أموالهم و بیعهم و شرائهم،و فجأه یسمعون الصیحه، فیسقطون فی أماکنهم میتین،کما صرحت بذلک الآیه(۲۹)فی سوره یس إِنْ کانَتْ إِلاّ صَیْحَهً واحِدَهً فَإِذا هُمْ خامِدُونَ .

و أمّا(الصیحه الثانیه)فإنّ آیات القرآن الکریم-و منها الآیه التی هی مورد بحثنا-تبیّن بأنّها تقع فجأه أیضا.

۵-ما هی الفاصله الزمنیه بین النفختین؟

الآیات القرآنیه لم تذکر توضیحا حول هذا الأمر،سوی کلمه(ثم)التی وردت ضمن آیه بحثنا و التی تدل علی وجود فاصل زمنی بین النفختین،إلاّ أنّ بعض الرّوایات ذکرت بأن هذه الفاصله مقدارها(۴۰) عاما (۱) .و المجهول بالنسبه لنا هو معیار هذه السنین،فهل هی سنوات اعتیادیه کالتی نعیشها نحن،أم أنّها سنوات و أیّام کسنوات و أیّام القیامه.

علی أیه حال فالتفکر فی نفخه الصور و نهایه العالم،و کذلک بالنفخه الثانیه و بدء عالم جدید،و مع ملاحظه الإشارات التی وردت فی القرآن المجید، و التفاصیل الأخری فی الرّوایات الإسلامیه بهذا الشأن،یعطی دروسا تربوبه عمیقه للإنسان،و خاصه أنّها توضح هذه الحقیقه،و هی البقاء علی استعداد دائم لاستقبال مثل هذا الحادث العظیم و الرهیب فی کلّ لحظه،لأنّه لم یحدد لوقوعها تاریخ معین،إذ یحتمل وقوعها فی أیه لحظه،إضافه إلی أنّها تقع من دون مقدمات،لذا ورد فی ذیل إحدی الرّوایات الخاصه بنفخ الصور و المذکوره آنفا أنّ

۱- ۱) -نور الثقلین،المجلد ۴،الصفحه ۵۰۳،الحدیث ۱۱۹.

الراوی قال،عنـد ما وصل الکلام إلی هذا الأمر«رأیت علی بن الحسـین یبکی عند ذلک«بکاء شدیدا»،إذ کان قلقا جدّا من مسأله نهایه العالم و یوم القیامه،و إحضار الناس للحساب فی محکمه العدل الإلهیه» (۱) .

ص :۱۵۶

۱- ۱) -تفسیر الصافی ذیل آیه البحث.

الآیتان [سوره الزمر (٣٩): الآیات ۶٩ الی ٧٠]

اشاره

وَ أَشْرَقَتِ اَلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهٰا وَ وُضِعَ اَلْكِتٰابُ وَ جِیءَ بِالنَّبِیِّینَ وَ اَلشُّهَدٰاءِ وَ قُضِیَ بَیْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَ هُمْ لاٰ یُظْلَمُونَ (۶٩) وَ وُفِّیَتْ كُلُّ نَفْسٍ مٰا عَمِلَتْ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِمٰا یَفْعَلُونَ (٧٠)

التّفسیر

اشاره

ذلک الیوم الذی تشرق الأرض بنور ربّها:

آیتا بحثنا تواصلان استعراض الحدیث عن القیامه و الذی بدأ قبل عدّه آیات،و هاتان الآیتان تضمان سبع عبارات منسجمه،كلّ واحده تتناول أمرا من أمور المعاد،لتكمل بعضها البعض،أو أنّها تقیم دلیلا علی ذلك.

فی البدایه تقول: وَ أَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهٰا .

و قد اختلف المفسّرون فی معنی إشراق الأرض بنور ربها،إذ ذكروا تفسیرات عدیده،اخترنا ثلاثا منها،و هی:

١-قالت مجموعه:إنّ المراد من نور الرب هما الحق و العداله،الذی ینیر بهما ربّ العالمین الأرض فی ذلك الیوم،حیث قال العلامه المجلسی فی بحار الأنوار:«أی أضاءت الأرض بعدل ربها یوم القیامه،لأن نور الأرض

بالعدل» (۱) .

و البعض الآخر اعتبر الحديث النبوی(الظلم ظلمات یوم القیامه)شاهدا علی هذا المعنی (۲) .

فیما قال«الزمخشری»فی تفسیر الکشاف:(و أشرقت الأرض بما یقیمه فیها من الحق و العدل و یبسطه من القسط فی الحساب و وزن الحسنات و السیئات).

۲-البعض الآخر یعتقد أنّه إشاره إلی نور غیر نور الشمس و القمر،یخلقه اللّه فی ذلک الیوم خاصه.

۳-أمّا المفسّر الکبیر العلاّمه الطباطبائی أعلی اللّه مقامه الشریف صاحب تفسیر المیزان فقد قال:إنّ المراد من إشراق الأرض بنور ربّها هو ما یخصّ یوم القیامه من انکشاف الغطاء و ظهور الأشیاء بحقائقها و بدو الأعمال من خیر أو طاعه أو معصیه أو حق أو باطل للناظرین.و قد استدل العلاّمه الطباطبائی علی هذا الرأی بالآیه(۲۲)من سوره(ق) لَقَدْ کُنْتَ فِی غَفْلَهٍ مِنْ هٰذٰا فَکَشَفْنٰا عَنْکَ غِطٰاءَکَ فَبَصَرُکَ الْیَوْمَ حَدِیدٌ .و هذا الإشراق-و إن کان عاما لکل شیء یسعه النور-لکن لما کان الغرض بیان ما للأرض و أهلها یومئذ من الشأن خصها بالبیان.

و بالطبع فإن هذه التفاسیر لا تتعارض فیما بینها،و یمکن القول بصحتها جمیعا،مع أن التّفسیرین الأوّل و الثّالث أنسب من غیرهما.

و من دون شک فإنّ هذه الآیه تتعلق بیوم القیامه،و إن وجدنا بعض روایات أهل البیت الأطهار(علیهم السلام)تفسّرها علی أنّها تعود إلی ظهور القائم المهدی المنتظر عجل اللّه تعالی فرجه الشریف،فهی فی الواقع نوع من التطبیق و التشبیه،

۱- ۱) -بحار الأنوار،المجلد ۶،الصفحه ۳۲۱.

۲- ۲) -روح المعانی و روح البیان ذیل آیه البحث.

و تأكيد لهذا المعنى،و هو عند ظهور المهدى(عج)تصبح الدنيا نموذجا حيا من مشاهد القيامه،إذ يملأ هذا الإمام بالحق و نائب الرّسول الأكرم و خليفه اللّه الأرض بالعدل إلى الحد الذى ترتضيه الحياه الدنيا.

و

نقل(المفضل بن عمر)عن الإمام الصادق عليه السّلام «إذا قام قائمنا أشرقت الأرض بنور ربّها و استغنى العباد عن ضوء الشمس و ذهبت الظلمه» (۱) .

العباره الثّانيه فى هذه الآيه تتحدث عن صحائف الأعمال،إذ تقول: وَ وُضِعَ الْكِتٰابُ .

الصحائف التى تتضمن جميع صغائر و كبائر أعمال الإنسان،و كما يقول القرآن المجيد فى الآيه(۴۹)من سوره الكهف لاٰ يُغٰادِرُ صَغِيرَةً وَ لاٰ كَبِيرَةً إِلاّٰ أَحْصٰاهٰا .

و تضيف العبارات التى تتحدث عن الشهود وَ جِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَ الشُّهَدٰاءِ .

فالأنبياء يحضرون ليسألوا عن أدائهم لمهام الرساله،كما ورد فى الآيه(۶) من سوره الأعراف وَ لَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ .

كما يحضر شهداء الأعمال فى محكمه العدل الإلهيه ليدلوا بشهاداتهم،صحيح أن البارئ عزّ و جلّ مطلع على كلّ الأمور،و لكن للتأكيد على مقام العداله يدعو شهداء الأعمال للحضور فى تلك المحكمه.

ذكر المفسّرون آراء عديده بشأن أولئك الشهداء على الأعمال،حيث قال البعض:إنّهم الصالحون و الطاهرون و العادلون فى الأمّه،الذين يشهدون على أداء الأنبياء لرسالتهم،و على أعمال الناس الذين كانوا يعاصرونهم،و(الأئمه المعصومون)هم فى طليعه شهداء الأعمال.

ص: ۱۵۹

۱- ۱) -إرشاد المفيد و الخبر ذاته فى تفسير الصافي و نور الثقلين فى ذيل آيات البحث،و نفس المعنى،ورد فى المجلد الثّانى و الخمسين الصفحه ۳۳۰ من بحار الأنوار للمرحوم العلاّمه المجلسى،مع شيء من الاختصار.

فی حین یعتقد البعض الآخر بأنّ الملائکه هم الشهداء علی أعمال الإنسان، و الآیه(۲۱)فی سوره(ق)تعطی الدلیل علی هذا المعنی وَ جٰاءَتْ کُلُّ نَفْسٍ مَعَهٰا سٰائِقٌ وَ شَهِیدٌ .

و قال البعض:إن أعضاء بدن الإنسان و مکان و زمان الطاعه و المعصیه هم الذین یشهدون علی الإنسان یوم القیامه.

و یبدو أن کلمه(شهداء)لها معان واسعه،أشار کلّ مفسر إلی جانب منها فی تفسیره.

و احتمل البعض أنّها تخص«الشهداء»الذین قتلوا فی سبیل اللّه،و لکن هذا الاحتمال غیر وارد و بعید،لأن الحدیث هو عن شهداء محکمه العدل الإلهی، و لیس عن شهداء طریق الحق،مع إمکانیه انضمامهم إلی صفوف الشهود.

العباره الرّابعه تقول: وَ قُضِیَ بَیْنَهُمْ بِالْحَقِّ .

و الخامسه تضیف: وَ هُمْ لاٰ یُظْلَمُونَ .

فمن البدیهیات،عند ما یکون الحاکم هو الباریٔ عزّ و جلّ،و تشرق الأرض بنور عدالته،و تعرض صحائف أعمال الإنسان التی تبیّن کلّ صغیره و کبیره بدقّه، و یحضر الأنبیاء و الشهود و العدول،فلا یحکم الباریٔ عزّ و جلّ إلا بالحق،و فی مثل هذا المحاکم لا وجود للظالم و الاستبداد مطلقا.

العباره السادسه فی الآیه التالیه أکملت الحدیث بالقول: وَ وُفِّیَتْ کُلُّ نَفْسٍ مٰا عَمِلَتْ .

إنّ جزاء الأعمال و عواقبها سترد إلیهم،و هل هناک مکافأه و مجازاه أعلی من أن یرید عمل الإنسان بصوره کامله إلی الإنسان نفسه(نلفت الانتباه إلی أن کلمه (وفیت)تعنی الأداء بصوره کامله)و یبقی مرافقا له إلی الأبد.

فالذی یتمکن من تنفیذ مثل هذه المناهج العادله بدقّه،هو الذی أحاط علمه

بكل شیء،لهذا فإن العباره السابعه و الأخیره فی هذا البحث تقول: وَ هُوَ أَعْلَمُ بِمٰا یَفْعَلُونَ .

إذن فلا حاجه حتی للشـهود،لأنّ اللّه هو أعلم من کلّ أولئک الشـهود،و لکن لطفه و عدله یقتضیان إحضار الشهود،نعم فهذا هو مشهد یوم القیامه،فلیستعد الجمیع لذلک الیوم.

ص :١۶١

الآيتان [سوره الزمر (۳۹): الآيات ۷۱ الی ۷۲]

اشاره

وَ سِيقَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا إِلىٰ جَهَنَّمَ زُمَراً حَتّٰى إِذٰا جٰاؤُهٰا فُتِحَتْ أَبْوٰابُهٰا وَ قٰالَ لَهُمْ خَزَنَتُهٰا أَ لَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيٰاتِ رَبِّكُمْ وَ يُنْذِرُونَكُمْ لِقٰاءَ يَوْمِكُمْ هٰذٰا قٰالُوا بَلىٰ وَ لٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ اَلْعَذٰابِ عَلَى اَلْكٰافِرِينَ (۷۱) قِيلَ اُدْخُلُوا أَبْوٰابَ جَهَنَّمَ خٰالِدِينَ فِيهٰا فَبِئْسَ مَثْوَى اَلْمُتَكَبِّرِينَ (۷۲)

التّفسير

اشاره

الذين يدخلون جهنم زمرا:

تواصل الآيات هنا بحث المعاد، و تستعرض بالتفصيل ثواب و جزاء المؤمنين و الكافرين الذی استعرض بصوره مختصره فی الآيات السابقه.و تبدأ بأهل جهنم،إذ تقول: وَ سِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلىٰ جَهَنَّمَ زُمَراً .

فمن الذی يسوقهم إلی جهنم؟ كما هو معروف فإن ملائكه العذاب هی التی تسوقهم حتی أبواب جهنم، و نظير هذه العباره ورد فی الآيه(۲۱)من سوره(ق)،إذ تقول: وَ جٰاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهٰا سٰائِقٌ وَ شَهِيدٌ .

ص :۱۶۲

عباره«زمر»تعنی الجماعه الصغیره من الناس،و توضح أن الکافرین یساقون إلی جهنم علی شکل مجموعات مجموعات صغیره و متفرقه.

و«سیق»من ماده(سوق)و تعنی(الحث علی أسیر).

ثم تضیف حَتّی إِذا جاؤُها فُتِحَتْ أَبْوابُها وَ قالَ لَهُمْ خَزَنَتُها أَ لَمْ یَأْتِکُمْ رُسُلٌ مِنْکُمْ یَتْلُونَ عَلَیْکُمْ آیاتِ رَبِّکُمْ وَ یُنْذِرُونَکُمْ لِقاءَ یَوْمِکُمْ هذا (1) .

یتّضح بصوره جیده من خلال هذه العباره،أن أبواب جهنم کانت مغلقه قبل سوق أولئک الکفره،و هی کأبواب السجون المغلقه التی تفتح أمام المتهمین الذین یراد سجنهم،و هذا الحدث المفاجئ یوجد رعبا و وحشه کبیره فی قلوب الکافرین،و قبل دخولهم یتلقاهم خزنه جهنم باللوم و التوبیخ،الذین یقولون استهجانا و توبیخا لهم: لم کفرتم و قد هیئت لکم کافه أسباب الهدایه،ألم یرسل إلیکم أنبیاء منکم یتلون آیات اللّه علیکم باستمرار،و معهم معجزات من خالقکم، و إنذار و إعلام بالأخطار التی ستصیبکم إن کفرتم باللّه (2) ؟فکیف وصل بکم الحال إلی هذه الدرجه رغم إرسال الأنبیاء إلیکم؟ حقّا إنّ کلام خزنه جهنم یعد من أشد أنواع العذاب علی الکافرین الذین یواجهون بمثل هذا اللوم فور دخولهم جهنم.

علی أیه حال،فإنّ الکافرین یجیبون خزنه جهنم بعباره قصیره ملؤها الحسرات،قائلین: قالُوا بَلی وَ لکِنْ حَقَّتْ کَلِمَهُ الْعَذابِ عَلَی الْکافِرِینَ .

مجموعه من المفسّرین الکبار اعتبروا کَلِمَهُ الْعَذابِ إشاره إلی قوله تعالی حین هبط آدم علی الأرض،أو حینما قرر الشیطان إغواء بنی آدم،کما ورد فی الآیه(39)من سوره البقره وَ الَّذِینَ کَفَرُوا وَ کَذَّبُوا بِآیاتِنا أُولئِکَ أَصْحابُ النّارِ هُمْ فِیها خالِدُونَ .

1- 1) -«خزنه»جمع(خازن)من ماده(خزن)علی وزن(جزم)و تعنی حافظ الشیء،و(خازن)تطلق علی المحافظ و الحارس.

2- 2) -«یتلون»و«ینذرون»:کلیهما فعل مضارع و دلیل علی الاستمراریه.

و حینما قال الشیطان:لأغوینهم جمیع إلاّ عبادک المخلصین،فأجابه الباریء عزّ و جلّ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّهِ وَ النّٰاسِ أَجْمَعِینَ (۱) .

و بهذا الشکل اعترفوا بأنّهم کذبوا الأنبیاء و أنکروا آیات اللّه،و بالطبع فإن مصیرهم لن یکون أفضل من هذا.

کما یوجد احتمال فی أنّ المراد من حَقَّتْ کَلِمَهُ الْعَذٰابِ هو ما تعنیه الآیه السابعه فی سوره(یس) لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلیٰ أَکْثَرِهِمْ فَهُمْ لاٰ یُؤْمِنُونَ .

و هو إشاره إلی أن الإنسان یصل أحیانا-بسبب کثره ذنوبه و عدائه و لجاجته و تعصبه أمام الحق-إلی درجه یختم معها علی قلبه و لا یبقی أمامه أیّ طریق للعوده،و فی هذه الحاله یصبح مستحقا تماما للعذاب.

و علی أیّه حال،فإن مصدر کلّ هذه الأمور هو عمل الإنسان ذاته،و لیس من الصحیح الاستدلال علی معنی الجبر و فقدان حریه الإراده.

هذا النقاش القصیر ینتهی مع اقترابهم من عتبه جهنم قِیلَ ادْخُلُوا أَبْوٰابَ جَهَنَّمَ خٰالِدِینَ فِیهٰا فَبِئْسَ مَثْوَی الْمُتَکَبِّرِینَ .

فأبواب جهنم-کما أشرنا إلیها من قبل-یمکن أن تکون قد نظمت حسب أعمال الإنسان،و إن کلّ مجموعه کافره تدخل جهنم من الباب الذی یتناسب مع أعمالها،و ذلک مثل أبواب الجنّه التی یطلق علی أحد أبوابها اسم«باب المجاهدین»و

قد جاء فی کلام لأمیر المؤمنین «إنّ الجهاد باب من أبواب الجنّه» (۲) .

و الذی یلفت النظر هو أن ملائکه العذاب تؤّکد علی مسأله التکبر من بین بقیه الصفات الرذیله التی تؤدی بالإنسان إلی السقوط فی نار جهنم،و ذلک إشاره إلی أن التکبر و الغرور و عدم الانصیاع و الاستسلام أمام الحق هو المصدر الرئیسی

۱- ۱) -الم السجده،۱۳.

۲- ۲) -نهج البلاغه،الخطبه(۲۷).

للكفر و الانحراف و ارتكاب الذنب.

نعم،فالتكبر ستار سميك يغطى عينى الإنسان و يحول دون رؤيته للحقائق الساطعه المضيئه،و لهذا نقرأ

فى روايه عن الإمامين المعصومين الباقر و الصادق عليهما السلام «لا يدخل الجنّه من فى قلبه مثقال ذره من كبر» (۱) .

۱- ۱) -الكافى،المجلد الثّانى،باب الكبر الحديث.۶.

الآیات [سوره الزمر (٣٩): الآیات ٧٣ الی ٧۵]

اشاره

وَ سِيقَ اَلَّذِينَ اِتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى اَلْجَنَّهِ زُمَراً حَتّٰى إِذٰا جٰاؤُهٰا وَ فُتِحَتْ أَبْوٰابُهٰا وَ قٰالَ لَهُمْ خَزَنَتُهٰا سَلاٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهٰا خٰالِدِينَ (٧٣) وَ قٰالُوا اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ اَلَّذِي صَدَقَنٰا وَعْدَهُ وَ أَوْرَثَنَا اَلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ اَلْجَنَّهِ حَيْثُ نَشٰاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ اَلْعٰامِلِينَ (٧۴) وَ تَرَى اَلْمَلاٰئِكَهَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ اَلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَ قِيلَ اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ اَلْعٰالَمِينَ (٧۵)

التّفسير

اشاره

المتقون يدخلون الجنّه أفواجا!!

هذه الآيات-التى هى آخر آيات سوره(الزمر)-تواصل بحثها حول موضوع المعاد،حيث تتحدث عن كيفيه دخول المؤمنين المتقين الجنّه،بعد أن كانت الآيات السابقه قد استعرضت كيفيه دخول الكافرين جهنم،لتتوضح الأمور أكثر من خلال هذه المقارنه.

فى البدايه تقول: وَ سِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّهِ زُمَراً .

استعمال عباره(سيق)(و التى هى من ماده(سوق)على وزن(شوق)و تعنى الحث على السير).أثار التساؤل،كما لفت أنظار الكثير من المفسّرين،لأنّ هذا

التعبير يستخدم فی موارد یکون تنفیذ العمل فیها من دون أی اشتیاق و رغبه فی تنفیذه،و لذلک فإنّ هذه العباره صحیحه بالنسبه لأهل جهنم،و لکن لم استعملت بشأن أهل الجنّه الذین یتوجهون إلی الجنّه بتلهف و اشتیاق؟ قال البعض:إنّ هذه العباره استعملت هنا لأنّ الکثیر من أهل الجنّه ینتظرون أصدقاءهم.

و البعض الآخر قال:إنّ تلهف و شوق المتقین للقاء الباریء عزّ و جلّ یجعلهم یتحینون الفرصه لذلک اللقاء بحیث لا یقبلون حتّی بالجنّه.

فیما قال البعض:إنّ هناک وسیله تنقلهم بسرعه إلی الجنّه.

مع أنّ هذه التّفسیرات جیده و لا یوجد أی تعارض فیما بینهما،إلاّ أنّ هناک نقطه اخری یمکن أن تکون هی التّفسیر الأصح لهذه العباره،و هی مهما کان حجم عشق المتقین للجنّه،فإن الجنّه و ملائکه الرحمه مشتاقه أکثر لوفود أولئک علیهم، کما هو الحال بالنسبه إلی المستضیف المشتاق لضیف و المتلهف لوفوده علیه إذ أنّه لا یجلس لانتظاره و إنّما یذهب لجلبه بسرعه قبل أن یأتی هو بنفسه إلی بیت المستضیف،فملائکه الرحمه هی کذلک مشتاقه لوفود أهل الجنّه.

و الملاحظه أن(زمر)تعنی هنا المجموعات الصغیره،و تبیّن أن أهل الجنّه یساقون إلی الجنّه علی شکل مجموعات مجموعات کلّ حسب مقامه.

ثم تضیف الآیه حَتّی إِذا جاؤُها وَ فُتِحَتْ أَبْوابُها وَ قالَ لَهُمْ خَزَنَتُها سَلامٌ عَلَیْکُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوها خالِدِینَ (۱) .

الملفت للنظر أن القرآن الکریم یقول بشأن أهل جهنم:إنّهم حینما یصلون إلی قرب جهنم تفتح لهم الأبواب،و یقول بشأن أهل الجنّه،إن أبواب الجنّه مفتحه لهم

۱ – ۱) –ما هو جواب الجمله الشرطیه(إذا جاؤها)؟ذکر المفسّرون آراء متعدده،أنسبها الذی یقول:إن عباره(قال لهم خزنتها) جوابها و الواو زائده.کما احتملوا أن جواب الجمله محذوف،و التقدیر(سلام من اللّه علیکم)،أو أن حذف الجواب إشاره إلی أن سعه الموضوع و علوه لا یمکن وصفها،و البعض قال:(فتمت)هی الجواب و(الواو)زائده.

من قبل،و هـذه إشاره إلى الاحترام و التبجيل الذى يستقبلون به من قبل ملائكه الرحمه،كالمستضيف المحب الذى يفتح أبواب بيته للضيوف قبل وصولهم،و يقف عند الباب بانتظارهم.

و قـد قرأنا فى الآيات السابقه أن ملائكه العـذاب يستقبلون أهل جهنم باللوم و التوبيخ الشديـدين،عنـد ما يقولون لهم:قد هيئت لكم أسباب الهدايه،فلم تركتموها و انتهيتم إلى هذا المصير المشؤوم؟ أمّا ملائكه الرحمه فإنّها تبادر أهل الجنّه بالسلام المرافق للاحترام و التبجيل، و من ثمّ تدعوهم إلى دخول الجنّه.

عباره«طبتم»من ماده(طيب)على وزن(صيد)و تعنى الطهاره،و لأنّها جاءت بعد السلام و التحيه،فمن الأرجح القول بأن لها مفهوما إنشائيا،و تعنى:

لتكونوا طاهرين مطهرين و نتمنى لكم السعاده و السرور.

و بعباره اخرى:طابت لكم هذه النعم الطاهره،يا أصحاب القلوب الطاهره.

و لكن الكثير من المفسّرين ذكروا لهـذه الجمله معنى خبريا عنـد تفسيرها، و قالوا:إنّ الملائكه تخاطبهم بأنّكم تطهرتم من كلّ لـوث و خبث،و قـد طهرتم بإيمـانكم و بعملكم الصالـح قلـوبكم و أرواحكم،و تطهرتم من الـذنوب و المعاصى، و نقـل البعض روايه تقول:إنّ هنـاك شـجره عنـد باب الجنّه،تفيض من تحتها عينا ماء صافيتان،يشرب المؤمنون من إحـداهما فيتطهر باطنهم،و يغتسلون بماء العين الأخرى فيتطهر ظاهرهم،و،هنا يقول خزنه الجنّه لهم: سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (1) .

الملاحظ أن«الخلود»استخدم بشأن كـلّ من أهـل الجنّه و أهل النّار،و ذلك لكى لا يخشـى أهل الجنّه من زوال النعم الإلهيه،و لكى يعلم أهل النّار بأنّه لا سبيل لهم للنجاه من النّار.

۱- ۱) -تفسير القرطبى المجلد(۸)الصفحه.۵۷۳.

الآيه التّاليه تتكون من أربع عبارات قصار غزيره المعانی تنقل عن لسان أهل الجنّه السعاده و الفرح اللذين غمراهم،حيث تقول: وَ قالُوا الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِی صَدَقَنا وَعْدَهُ .

و تضيف فی العباره التاليه وَ أَوْرَثَنَا الْأَرْضَ .

المراد من الأرض هنا أرض الجنّه.و استخدام عباره(الإرث)هنا،إنّما جاء لكونهم حصلوا على كلّ هذه النعم فی مقابل جهد قليل بذلوه،إذ-كما هو معروف -فإنّ الميراث هو الشیء الذی يحصل عليه الإنسان من دون أی عناء مبذول.

أو أنّها تعنی أن لكل إنسان مكان فی الجنّه و آخر فی جهنم،فإن ارتكب عملا استحق به جهنم فإن مكانه فی الجنّه سوف يمنح لغيره،و إن عمل عملا صالحا استحق به الجنّه،فيمنح مكانا فی الجنّه و يترک مكانه فی جهنم لغيره.

أو تعنی أنّهم يتمتعون بكامل الحريه فی الاستفاده من ذلک الإرث،كالميراث الذی يحصل عليه الإنسان إذ يكون حرا فی استخدامه.

هذه العباره-فی الواقع-تحقق عينی للوعد الإلهی الذی ورد فی الآيه(۶۳) من سوره مريم تِلْکَ الْجَنَّهُ الَّتِی نُورِثُ مِنْ عِبادِنا مَنْ كانَ تَقِيًّا .

العباره الثّالثه تكشف عن الحريه الكامله التی تمنح لأهل الجنّه فی الاستفاده من كافه ما هو موجود فی الجنّه الواسعه،إذ تقول: نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّهِ حَيْثُ نَشاءُ .

يستشف من الآيات القرآنيه أن فی الجنّه الكثير من البساتين و الحدائق و قد أطلقت عليها فی الآيه(۷۲)من سوره التوبه عباره جَنّاتِ عَدْنٍ و أهل الجنّه وفقا لدرجاتهم المعنويه يسكنون فيها،و أن لهم كامل الحريه فی التحرک فی تلک الحدائق و البساتين فی الجنّه.

أمّا العباره الأخيره فتقول: فَنِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ .

و هذه إشاره إلى أن هذه النعم الواسعه إنّما تعطى فی مقابل العمل الصالح (المتولد من الايمان طبعا)ليكون صاحبه لائقا و مستحقا لنيل مثل هذه النعم.

و هنـا يطرح هـذه السؤال و هو:هـل أنّ هـذا القول صـادر عن أهـل الجنّه،أم أنّه كلام اللّه جاء بعـد كلام أهل الجنّه؟ المفسّـرون وافقوا الرأيين،و لكنّهم رجحوا المعنى الأوّل الذى يقول:إنّه كلام أهل الجنّه و يرتبط بالعبارات الأخرى فى الآيه.

و في النهـايه تخـاطب الآـيه-مورد بحثنا و هى آخر آيه من سوره الزمر- الرّسول الأكرم صـلّى اللّه عليه و اله و سـلّم قائله: وَ تَرَى الْمَلاٰئِكَهَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يسبحون اللّه و يقدّسونه و يحمدونه.

إذ تشـير إلى وضع الملائكه الحافين حول عرش اللّه،أو أنّها تعبر عن استعداد أولئك الملائكه لتنفيذ الأوامر الإلهيه،أو أنّها إشاره إلى خفايـا قيمه تمنـح فى ذلـك اليوم للخواص و المقرّبين من العرش الإلهى،مع أنّه لا يوجـد أى تعارض بين المعانى الثلاثه،إلا أن المعنى الأوّل أنسب.

و لهذا تقول العباره التاليه وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ .

و باعتبار هذه الأمور هى دلائل على ربوبيه البارئ عزّ و جلّ و اسـتحقاق ذاته المقدسه و المنزّهه لكل أشـكال الحمد و الثناء،فإنّ الجمله الأخيره تقول:

وَ قِيلَ الْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعٰالَمِينَ

.

و هنـا يطرح هـذا السؤال:هـل أن هـذا الخطـاب صـادر عن الملائكه،أم عن أهل الجنّه المتقين،أم أنّه صادر عن الاثنين؟ المعنى الأـخير أنسب من غيره،لأـنّ الحمـد و الثنـاء على اللّه هو منهـاج كـلّ أولى الألبـاب،و منهاج كلّ الخواص و المقربين،و اسـتعمال كلمه(قيل)و هى فعل مبنى للمجهول يؤيد ذلك.

نهايه سوره الزّمر

ص :۱۷۰

سوره المؤمن

اشاره

مکیّه و عدد آیاتها خمس و ثمانون آیه

ص :۱۷۱

نظره مختصره فی محتوی السوره:

سوره المؤمن هی طلیعه الحوامیم،و الحوامیم فی القرآن الکریم سبع سور متتالیه یلی بعضها بعضا،نزلت جمیعا فی مکّه،و هی تبدأ ب«حم».

هذه السوره کسائر السور المکّیه،تثیر فی محتواها قضایا العقیده و،تتحدث عن أصول الدین الإسلامی و مبانیه و فی ذلک تلبی حاجه المسلمین فی تلک المرحله إلی تشیید و إقامه قواعد الدین الجدید.

و محتوی هذه السوره یضم بین دفتیه الشده و اللطف،و یجمع فی نسیجه بین الإنذار و البشاره...السوره-إذا-مواجهه منطقیه حادّه مع الطواغیت و المستکبرین،کما هی نداء لطف و رحمه و محبه بالمؤمنین و أهل الحق.

و تمتاز هذه السوره أیضا بخصوصیه تنفرد بها دون سور القرآن الأخری،إذ تتحدّث عن«مؤمن آل فرعون»و هو مقطع من قصه موسی علیه السّلام،و قصد مؤمن آل فرعون لم ترد فی کتاب اللّه سوی فی سوره«المؤمن».

إنّ قصه«مؤمن آل فرعون»هی قصه ذلک الرجل المؤمن المخلص الذی کان یتحلی بالذکاء و المعرفه فی الوقت الذی هو من بطانه فرعون، و محسوب-ظاهرا-من حاشیته-لقد کان هذا الرجل مؤمنا بما جاء به موسی علیه السّلام، و قد احتل و هو یعمل فی حاشیه فرعون-موقعا حساسا ممیزا فی الدفاع عن موسی علیه السّلام و عن دینه،حتی أنّه-فی الوقت الذی تعرضت فیه حیاه موسی علیه السّلام

للخطر-تحرّك من موقعه بسلوك فطن و ذكى و حكيم لكى يخلّص موسى من الموت المحقق الذى كان قد أحاط به.

إنّ اختصاص السوره باسم«المؤمن»يعود إلى قصه هذا الرجل الذى تحدّثت عشرون آيه منها عن جهاده،أى ما يقارب ربع السوره.

يكشف الأفق العام أنّ حديث السوره عن«مؤمن آل فرعون»ينطوى على أبعاد تربويه لمجتمع المسلمين فى مكّه،فقد كان بعض المسلمين ممّن آمن بالإسلام يحافظ على علاقات طيبه مع بعض المشركين و المعاندين،و فى نفس الوقت فإن إسلامه و انقياده لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم ليس عليهما غبار.

لقد كان الهدف من هذه العلاقه مع المشركين هو توظيفها فى أيّام الخطر لحمايه الرساله الجديده و دفع الضر عن أتباعها،و فى هذا الإطار يذكر التاريخ أنّ أبا طالب عليه السّلام عمّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم كان من جمله هؤلاء،كما يستفاد ذلك من بعض الرّوايات الإسلاميه المرويه عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السّلام (۱) .

و بشكل عام يمكن النظر إلى محتوى السوره فى إطار ما تثيره النقاط و الأقسام الآتيه:

القسم الأوّل:و هو يضم طليعه آيات السوره التى تتحدث عن بعض من أسماء اللّه الحسنى،خصوصا تلك التى ترتبط ببعث معانى الخوف و الرجاء فى القلوب،مثل قوله تعالى: غٰافِرِ الذَّنْبِ و شَدِيدِ الْعِقٰابِ .

القسم الثّانى:تهديد الكفّار و الطواغيت بعذاب هذه الدنيا الذى سبق و أن نال أقواما اخرى فى ماضى التأريخ،بالإضافه إلى التعرّض لعذاب الآخره،و تتناول بعض الصور و المشاهد التفصيليه فيه.

القسم الثّالث:بعد أن وقفت السوره على قصه موسى و فرعون،بدأت بالحديث-بشكل واسع-عن قصه ذلك الرجل المؤمن الواعى الشجاع الذى

۱- ۱) -الغدير،المجلد الثامن،ص ۳۸۸.

اصطلح علیه ب«مؤمن آل فرعون»و کیف واجه البطانه الفرعونیه و خلّص موسی علیه السّلام من کیدها.

القسم الرّابع:تعود السوره مرّه اخری للحدیث عن مشاهد القیامه،لتبعث فی القلوب الغافله الروح و الیقظه.

القسم الخامس:تتعرض السوره المبارکه فیه إلی قضیتی التوحید و الشرک،بوصفهما دعامتین لوجود الإنسان و حیاته،و فی ذلک تتناول جانبا من دلائل التوحید،بالإضافه إلی ما تقف علیه من مناقشه لبعض شبهات المشرکین.

القسم السّادس:تنتهی السوره-فی محتویات القسم الأخیر هذا-بدعوه رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم للتحمل و الصبر،ثمّ تختم بالتعرض إلی خلاصات سریعه ممّا تناولته مفصلا من قضایا ترتبط بالمبدأ و المعاد،و کسب العبره من هلاک الأقوام الماضیه،و ما تعرضت له من أنواع العذاب الإلهی فی هذه الدنیا،لیکون ذلک تهدیدا للمشرکین.ثمّ تخلص السوره فی خاتمتها إلی ذکر بعض النعم الإلهیه.

لقد أشرنا فیما مضی إلی أنّ تسمیه السوره ب«المؤمن»یعود إلی اختصاص قسم منها بالحدیث عن«مؤمن آل فرعون».أما تسمیتها ب«غافر»فیعود إلی کون هذه الکلمه هی بدایه الآیه الثّالثه من آیات السوره المبارکه.

فضیله تلاوه السوره:

فی سلسله الرّوایات الإسلامیه المرویه عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم و عن أئمّه أهل البیت علیهم السّلام،نری کلاما واسعا من فضل تلاوه سور«الحوامیم»و بالأخص سوره «غافر»منها.

ففی بعض هذه الأحادیث نقرأ

عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم قوله: «الحوامیم تاج

القرآن» (۱) .

و عن ابن عباس ممّا يحتمل نقله

عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم أو عن أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب عليه السّلام قال: «لكل شىء لباب و لباب القرآن الحواميم» (۲) .

و

فى حديث عن الإمام الصادق نقرأ قوله عليه السّلام: «الحواميم ريحان القرآن، فحمدوا اللّه و اشكروه بحفظها و تلاوتها،و إنّ العبد ليقوم يقرأ الحواميم فيخرج من فيه أطيب من المسک الأذفر و العنبر،و إنّ اللّه ليرحم تاليها و قارئها،و يرحم جيرانه و أصدقاءه و معارفه و كلّ حميم أو قريب له،و إنّه فى القيامه يستغفر له العرش و الكرسى و ملائكه اللّه المقربون» (۳) .

و

فى حديث آخر عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم: «الحواميم سبع،و أبواب جهنّم سبع، تجىء كلّ«حاميم»منها فتقف على باب من هذه الأبواب تقول:اللّهم لا تدخل من هذا الباب من كان يؤمن بى و يقرأنى» (۴) .

و فى قسم من

حديث مروى عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم: «من قرأ«حاميم المؤمن» لم يبق روح نبىّ و لا صديق و لا مؤمن إلاّ صلّوا عليه و استغفروا له» (۵) .

و من الواضح أنّ هذه الفضائل الجزيله ترتبط بالمحتوى الثمين للحواميم، هذا المحتوى الذى إذا واظب الإنسان على تطبيقه فى حياته و العمل به،و الالتزام بما يستلزمه من مواقف و سلوك، فإنّه سيكون مستحقا للثواب العظيم و الفضائل الكريمه التى قرأناها.

و إذا كانت الرّوايات تتحدث عن فضل التلاوه،فإنّ التلاوه المعنيه هى التى

۱- ۱) -هذه الأحاديث فى مجمع البيان فى بدايه تفسير سوره المؤمن.

۲- ۲) -المصدر السابق

۳- ۳) -مجمع البيان أثناء تفسير السوره

۴- ۴) -البيهقى طبقا لما نقله عنه الآلوسى فى روح المعانى،المجلد ۲۴،صفحه ۳۶.

۵- ۵) -مجمع البيان فى مقدمه تفسير السوره.

تکون مقدمه للاعتقاد الصحیح،فیما یکون الإعتقاد الصحیح مقدمه للعمل الصحیح.إذا التلاوه المعنیه هی تلاوه الإیمان و العمل،و قد رأینا فی واحد من الأحادیث-الآنفه الذکر-المنقوله

عن النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم تعبیر «من کان یؤمن بی و یقرأنی».

الآيات [سوره غافر (۴۰): الآیات ۱ الی ۳]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِ حم (۱) تَنْزِيلُ اَلْكِتٰابِ مِنَ اَللّٰهِ اَلْعَزِيزِ اَلْعَلِيمِ (۲) غٰافِرِ اَلذَّنْبِ وَ قٰابِلِ اَلتَّوْبِ شَدِيدِ اَلْعِقٰابِ ذِي اَلطَّوْلِ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ إِلَيْهِ اَلْمَصِيرُ (۳)

التّفسير

اشاره

صفات تبعث الأمل فی النفوس:

تواجهنا فی مطلع السوره الحروف المقطعه و هی هنا من نوع جدید لم نعهده فی السور السابقه،حیث افتتحت السوره ب«حاء»و«میم».

و بالنسبه للحروف المقطعه فی مطلع السور کانت لنا بحوث کثیره فی معانیها و دلالاتها،تعرضنا إلیها أثناء الحدیث عن بدایه سوره«البقره»،و سوره«آل عمران»و«الأعراف»و سور اخری.

الشیء الذی تضیفه هنا،هو أنّ الحروف التی تبدأ به سوره المؤمن التی نحن الآن بصددها،تشیر-کما یستفاد ذلک من بعض الرّوایات و من آراء المفسّرین- إلی أسماء اللّه التی تبدأ بحروف هذه السوره،أی«حمید»و«مجید»کما ورد ذلک

عن الامام الصادق عليه السّلام

عن الامام الصادق عليه السّلام (۱) .

البعض الآخر ذهب إلى أنّ«ح»إشاره إلى أسمائه تعالى مثل«حميد»و «حليم»و«حنان»،بينما«م»إشاره إلى«ملك»و«مالك»و«مجيد».

و هناك احتمال فى أن حرف«الحاء»يشير إلى الحاكميه،فيما يشير حرف «الميم»إلى المالكيه الإلهيه.

عن ابن عباس،نقل القرطبى«فى تفسيره»أن«حم»من أسماء اللّه العظمى (۲) .

و يتّضح فى نهايه الفقره أنّ ليس ثمّه من تناقض بين الآراء و التفاسير الآنفه الذكر،بل هى تعمد جميعا إلى تفسير الحروف المقطعه بمعنى واحد.

فى الآيه الثّانيه-كما جرى على ذلك الأسلوب القرآنى-حديث عن عظمه القرآن،و إشاره إلى أنّ هذا القرآن بكل ما ينطوى عليه من عظمه و إعجاز و تحدّ، إنّما يتشكّل فى مادته الخام من حروف الألف باء...و هنا يمكن معنى الإعجاز.

يقول تعالى: تَنْزِيلُ الْكِتٰابِ مِنَ اللّٰهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ .

إنّ قدرته تعالى تعجز الأشياء الأخرى عن الوقوف إزاءه،فقدرته ماضيه فى كل شىء،و عزته مبسوطه،أمّا علمه تعالى فهو فى أعلى درجات الكمال،بحيث يستوعب كلّ احتياجات الإنسان و يدفعه نحو التكامل.

و الآيه التى بعدها تعدّد خمسا من صفاته تعالى،يبعث بعضها الأمل و الرجاء، بينما يبعث البعض الآخر منها على الخوف و الحذر.

و يقول تعالى: غٰافِرِ الذَّنْبِ .

قٰابِلِ التَّوْبِ

(۳)

.

۱- ۱) -يلاحظ«معانى الأخبار»للشيخ الصدوق،صفحه ۲۲،باب معنى الحروف المقطعه فى أوائل السور.

۲- ۲) -تفسير القرطبى أثناء تفسير الآيه.

۳- ۳) -«توب»يمكن أن تكون جمع«توبه»و أن تكون مصدرا(يلاحظ مجمع البيان).

شَدِيدِ الْعِقٰابِ

.

ذِی الطَّوْلِ

(۱)

.

لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ

.

أجل إنّ من له هذه الصفات هو المستحق للعباده و هو الذی يملك الجزاء فی العقاب و الثواب.

ملاحظات

تنطوی الآيات الثلاث الآنفه الذكر على مجموعه من الملاحظات،نقف عليها من خلال النقاط الآتيه:

أولا-فی الآيات أعلاه(آيه ۲ و ۳)بعد ذكر اللّه و قبل ذكر المعاد إِلَيْهِ الْمَصِيرُ اشتملت الآيتان على ذكر سبع صفات للذات الإلهيه،بعضها من«صفات الذات» و البعض الآخر منها من«صفات الفعل»التی انطوت على إشارات للتوحيد و القدره و الرحمه و الغضب،ثمّ ذكرت«عزيز»و«عليم»و جعلتهما بمثابه القاعده التی نزل الكتاب الإلهی(القرآن)على أساسهما.

أمّا صفات«غافر الذنب»و«قابل التوب»و«شديد العقاب»و«ذی الطول» فهی بمثابه المقدمات اللازمه لتربيه النفوس و تطويعها لعباده الواحده الأحد.

ثانيا:ابتدأت الصفات الآنفه الذكر بصفه«غافر الذنب»أوّلا و«ذی الطول» أخيرا،أی صاحب النعمه و الفضل كصفه أخيره.و فی موقع وسط جاءت صفه «شديد العقاب»و هكذا ذكرت الآيه الغضب الإلهی بين رحمتين.ثمّ إنّنا نلاحظ أنّ

۱- ۱) -«طول»على وزن«قول»بمعنى النعمه و الفضل،و بمعنى القدره و القوه و المكنه و ما يشبه ذلك.بعض المفسّرين يقول:إنّ «ذی الطول»هو الذی يبذل النعم الطويله و الجزيله للآخرين،و لذلك فإن معناها أخص من معنى«المنعم»كما يقول صاحب مجمع البيان.

الغضب الإلهی جاء وسط حدیث الآیه عن ثلاث صفات من صفات الرحمه الإلهیه،و فی کلّ ذلک دلیل علی المعنی المکنون فی

«یا من سبقت رحمته غضبه».

ثالثا:لا یقتصر المعنی فی جمله إِلَیْهِ الْمَصِیرُ علی عوده الجمیع و رجوعهم کافه إلیه تعالی فی یوم القیامه،و إنّما تشیر أیضا إلی الانتهاء المطلق لکل الأمور فی هذا العالم و العالم الآخر إلیه تعالی،و انتهاء سلسله الوجود إلی قدرته و إرادته.

رابعا:جاء تعبیر لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ فی ختام الصفات،و هو حکایه عن مقام التوحید و العبودیه الذی لا یلیق بغیر اللّه تعالی،حیث تنتهی أمام عبودیته کل العبودیات الأخری.و هکذا یکون تعبیر«لا إله إلاّ هو»بمثابه النتیجه النهائیه الأخیره للبیان القرآنی فی هذا المورد.

و لذلک نقرأ فی حدیث عن ابن عباس أنّه تعالی: غٰافِرِ الذَّنْبِ للشخص الذی یقول:لا إله إلاّ اللّه و هو تعالی: قٰابِلِ التَّوْبِ للذی یقرّ بالعبودیه و یقول:لا إله إلاّ اللّه.و هو شَدِیدِ الْعِقٰابِ للذی لا یقرّ و لا یقول:لا إله إلا اللّه.و هو ذِی الطَّوْلِ و غنی عن الشخص الذی لا یقول:لا إله إلا اللّه.

من کلّ ذلک یتّضح أن محور الصفات المذکوره هو التوحید،الذی یدور مدار الإعتقاد الصحیح و العمل الصالح.

خامسا:من وسائل الغفران فی القرآن:

ثمّه فی کتاب اللّه أمور کثیره تکون أسبابا و عناوین للمغفره و محو الذنوب و السیئات،و فیما یلی تشیر إلی بعض هذه العناوین:

۱-التوبه:إذ فی آیه(۸)من سوره التحریم قوله تعالی: یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَی اللّٰهِ تَوْبَهً نَصُوحاً عَسیٰ رَبُّکُمْ أَنْ یُکَفِّرَ عَنْکُمْ سَیِّئٰاتِکُمْ .

۲-الإیمان و العمل الصالح:حیث نقرأ فی سوره(محمّد-آیه ۲)قوله تعالی:

وَ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ وَ آمَنُوا بِمٰا نُزِّلَ عَلیٰ مُحَمَّدٍ وَ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ کَفَّرَ عَنْهُمْ سَیِّئٰاتِهِمْ .

ص :۱۸۱

۳-التقوی:و نری مصداقها فی قوله تعالی: إِنْ تَتَّقُوا اللّهَ يَجْعَلْ لَكَمْ فُرْقاناً وَ يُكَفِّرْ عَنْكَمْ سَيِّئاتِكَمْ (۱) .

۴-الهجره و الجهاد و الشهاده:و مصداقها قوله تعالی فی الآیه(۱۹۵)من سوره«آل عمران»: فَالَّذِينَ هاجَرُوا وَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَ أُوذُوا فِی سَبِيلِی وَ قاتَلُوا وَ قُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ .

۵-صدقه السر:و ذلک قوله تعالی: إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقاتِ فَنِعِمّا هِیَ وَ إِنْ تُخْفُوها وَ تُؤْتُوهَا الْفُقَراءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ يُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئاتِكُمْ (۲) .

۶-الإقراض:کما فی قوله تعالی: إِنْ تُقْرِضُوا اللّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضاعِفْهُ لَكُمْ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ (۳) .

۷-اجتناب کبائر الذنوب:حیث یقول تعالی فی (۴) : إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ .

و هکذا یتبیّن لنا أن أبواب المغفره الإلهیه مفتوحه من کلّ مکان،و أنّ عباد اللّه بوسعهم طرق هذه الأبواب و الولوج إلی المغفره الإلهیه.و قد رأینا فی الآیات الآنفه الذکر سبعه من هذه الأبواب التی تضمن الخلاص لمن یلج أی واحد منها،أو کلّها جمیعا.

۱- ۱) -الأنفال،آیه ۲۹.

۲- ۲) -البقره،آیه ۲۷۱.

۳- ۳) -التغابن،الآیه ۱۷.

۴- ۴) -النساء،آیه ۳۱.

الآيات [سوره غافر (۴۰): الآيات ۴ الی ۶]

اشاره

مَا يُجَادِلُ فِی آيَاتِ اَللّٰهِ إِلاَّ اَلَّذِينَ كَفَرُوا فَلاٰ يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِی اَلْبِلاٰدِ (۴) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ اَلْأَحْزٰابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَ هَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَ جٰادَلُوا بِالْبٰاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ اَلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كٰانَ عِقٰابِ (۵) وَ كَذٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَهُ رَبِّكَ عَلَی اَلَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحٰابُ اَلنّٰارِ (۶)

التّفسير

اشاره

الأمر الإلهی الحاسم:

بعد أن تعرضت الآيات السابقه إلی نزول القرآن،و إلی بعض الصفات الإلهيه التی تستهدف بعث الخوف و الرجاء،ورد كلام فی الآيات التی بين أيـدينا عن قوم امتازوا بالمجادله و المنازعه حيال آيات اللّه...الآيه الكريمه توضـح مصـير هذه المجموعه ضـمن تعبير قصير و قاطع،فتقول: مٰا يُجٰادِلُ فِی آيٰاتِ اللّٰهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا .

صحيـح أنّ هـذه المجموعه قـد تملك العـده و العدد،إلاّ أنّ ذلك لن يدوم إلاّ لفتره،فلا تغتر و تنخدع إذا لتحركهم فی البلاد و تنقلهم فی المدن المختلفه،

ص :۱۸۳

و استعراضهم لقوّتهم: فَلاٰ يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلاٰدِ .

إنّها أيّام تنقضـى بين الكرّ و الفرّ،ثمّ تنتهى هـذه الضـجه لتزول معها هـذه المجموعه و تمحى تماما،كما تزول الفقاعات من على سطح المـاء،أو كمـا يتلاشــى الرمـاد عنـد هبـوب العواصـف! «يجـادل»مشـتقّه مـن«جـدل»و هى فى الأصـل تعنى لـف الحبـل و إحكامه،ثمّ عمّ اسـتخدامها فى الأبنيه و الحديـد و ما شابه،و لهذا فإنّ كلمه(مجادله)تطلق على عمل الأشـخاص المتقابلين و يريد كلّ شخص أن يلقى حجته و يثبت كلامه و يغلب خصمه.

و لكن ينبغى الانتبـاه إلى أنّ كلمه(المجادله)لا تعتبر مـذمومه دائما فى اللغه العربيه،بل تعتبر إيجابيه و مطلوبه إذا كانت المجادله فى طريق الحق و تسـتند على المنطق،و تهدف إلى تبيين الحقائق و إرشاد الأشخاص الجهله... أمّا إذا كانت على أسس واهيه من التعصب و الجهل و الغرور،و تستهدف خداع هذا و ذاك،فتكون عند ذلك مذمومه.

القرآن الكريم اسـتخدم كلمه(المجادله)فى كلا مورديها،إذ نقرأ فى الآيه (۱۲۵)من سوره النحل قوله تعالى: وَ جٰادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .

إلّا أنّه فى موارد اخرى-كما فى الآيه أعلاه و فيما بعـدها-وردت(المجادله) لغرض الذم،و هناك بحث حول الجدال و المجادله سنتعرض له فيما بعد إن شاء اللّه.

«تقلب»مشـتقّه من«قلب»و تعنى التغيير،و«تقلّب»هنا بمعنى التصـرّف فى المناطق و البلاد،المختلفه للسـيطره و التسـلّط عليها،و تعنى الذهاب و الإياب فيها أيضا.

إنّ هـدف الآيه تحذير للرسول صـلّى اللّه عليه و اله و سـلّم و المؤمنين به-فى بدايه البعثه-من الذين كانوا من الطبقه المستضـعفه المحرومه،بأن لا يركنوا إلى الإمكانات الماليه

أو القوّه السياسيه و الاجتماعيه للكفار،و يعتبرونها دليلا على حقانيتهم أو سببا لقوّتهم الحقيقيه،إذ هناک الكثير منهم فى تأريخ هذه الدنيا،و قد انكشف ضعفهم و سقطت عنهم سرابيل القوّه المزعومه ليبيّن عجزهم حيال العقاب الإلهى،ليسقطوا كما تسقط الأوراق الخريفيه الذابله فى العواصف الهوجاء.

إنّنا فى عالم اليوم نشاهد الكفار و المستكبرين و الظالمين و هم يقومون بشتى المحاولات،من زيارات و مؤتمرات و أحلاف و تكتّلات و مناورات عسكريه، و توقيع لاتفاقات سياسيه و عسكريه،و اعتماد لوسائل القمع و الإرهاب إزاء المستضعفين و المحرومين فى العالم،و لكى يسلكوا من خلال ذلک طريقا إلى تحقيق أهدافهم المشؤومه.لذلک ينبغى للمؤمنين أن يكونوا يقظين و حذرين حتى لا يروحوا ضحيه هذه الأساليب القديمه و حتى لا يسكتهم الرعب و الخوف فيفتنون بهذا الوضع.

لذلک توضح الآيه التى بعدها عاقبه بعض الأمم السابقه التى ضلّت الطريق و انكفأت عن جاده الحق و الصواب،فتقول فى عبارات قاطعه واضحه تحكى عاقبه قوم نوح و حالهم و من تلاهم من أقوام و جماعات: كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ الْأَحْزٰابُ مِنْ بَعْدِهِمْ .

المقصود من«الأحزاب»هم قوم عاد و ثمود و حزب الفراعنه و قوم لوط، و أمثال هؤلاء ممّن أشارات إليهم الآيتان(١٢-١٣)من سوره«ص»فى قوله تعالى: كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ عٰادٌ وَ فِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتٰادِ وَ ثَمُودُ وَ قَوْمُ لُوطٍ وَ أَصْحٰابُ الْأَيْكَهِ أُولٰئِکَ الْأَحْزٰابُ .

هؤلاء هم«الأحزاب»الذين تآزروا و وقفوا ضدّ دعوات الأنبياء الإلهيين، لتعارض مصالحهم مع روح هذه الدعوات و مضامينها الربانيه.

إنّهم لم يقتنعوا بمجرّد الوقوف ضدّ الدعوات النبويه الكريمه،بل خططت كلّ أمّه منهم لأن تمسک بنبيّها فتسجنه و تؤذيه،بل و حتى تقتله: وَ هَمَّتْ كُلُّ أُمَّهٍ

بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ

.

ثم لم يكتفوا بهذا القدر أيضا،بل لجأوا إلى الكلام الباطل لأجل القضاء على الحق و محوه،و أصروا على إضلال الناس و صدّهم عن شريعه اللّه: وَ جٰادَلُوا بِالْبٰاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ (۱) .

إلّا أنّ هذا الوضع لم يستمر طويلا،و لم يبق لهم الخيرا دوما،إذ حينما حان الوقت المناسب جاء الوعد الإلهى: فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كٰانَ عِقٰابِ .

لكم-أيّها الناس-أن تشاهدوا خرائب مدنهم حين سفركم و أثناء تجوالكم...انظروا عاقبتهم المشؤومه المظلمه مدونه على صفحات التأريخ و فى صدور أهل العلم،فانظروا و اعتبروا! ليس هناك أفضل من هذا المصير الذى ينتظر أشقياء مكّه من الكفار و المشركين الظالمين،إلّا أن يثوبوا إلى أنفسهم و يعيدوا تقييم أعمالهم.

إذا،الآيه أعلاه تلخص برنامج«الأحزاب»الطاغيه و مخططهم فى ثلاثه أقسام هى:(التكذيب و الإنكار)ثمّ(التآمر للقضاء على رجال الحق)و أخيرا (الدعايه المستمره لإضلال عامّه الناس).

أمّا مشركو العرب على عهد البعثه النّبويه فقد قاموا بتكرار هذه الأقسام الثلاثه حيال رسول الإسلام صلّى اللّه عليه و اله و سلّم و حيال رسالته،لذلك فليس ثمّه من عجب أن يهددهم القرآن الكريم بما حلّ بأسلافهم و بمن سبقهم من الأحزاب...نفس العاقبه و نفس الجزاء! الآيه الأخيره-فى المقطع الذى بين أيدينا-تشير إلى الجزاء الأخروى الذى ينتظر هؤلاء،بالإضافه إلى قسطهم من العقاب الدنيوى كَذٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَهُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحٰابُ النّٰارِ .

إنّ المعنى الظاهرى للآيه واسع،يشمل جميع الكفار و المعاندين من جميع

۱- ۱) -«ليدحضوا»مصدرها ثلاثى(إدحاض)و تعنى الإزاله و الإبطال.

الأقوام،و الآيه بهذا المعنى لا تختص بكفار مكّه،كما يتصور بعض المفسّرين.

إنّ حتميه العقاب الإلهى لهؤلاء القوم يعود إلى ذنوبهم المستمره،و الأعمال التى يقومون بها بملء إرادتهم خلافا لرساله اللّه...و لكن العجيب أنّ بعض المفسّرين-كالفخر الرازى-يتصور أنّ هذه الآيه هى من أدله عقيده الجبر و المصير الجبرى الإلزامى للأقوام المختلفه،و دليل سلب الإراده عنهم،فى حين أنّنا لو دققنا فى نفس الآيه مع ترك التعصّب المذهبى جانبا،فسيتوضح لنا أنّ هذا المصير الإلهى الذى ينتظرهم هو بسبب سلوكهم لطريق الانحراف المظلم،و بسبب إصرارهم على السير،بهذا الطريق بأرجلهم و بكامل حريتهم و ملء إرادتهم.

بحثان

اشاره

أوّلا:استعراض الكفار لقواهم الظاهريه

يواجهنا فى الآيات القرآنيه و فى أماكن متعدّده مؤدّى يفيد أنّ المؤمنين المحرومين ينبغى لهم أن لا يتصوروا أنّ الإمكانات الكبيره و القوى الظاهره الواقعه فى حوزه الظالمين و الكفار،هى دليل على سعادتهم،أو شرط لانتصارهم فى نهايه المطاف.

-و من أجل القضاء على هذا التصور المنحرف الخاطئ الذى يلازم فى العاده الضعفاء ذوى الأفكار المحدوده و الأفق الإيمانى الضيق،و من الذين يرون فى إمكانات الخصم دليلا معنويا على حقانيته،فالقرآن يعالج هذه الظاهره من خلال تفحص و استعراض تأريخ الأقوام السابقه،و يشير فى استعراضه لهم إلى نماذج واضحه و معروفه منهم كالفراعنه فى مصر،و النمارده فى بابل،و أقوام نوح و عاد و ثمود فى العراق و الحجاز و الشام،حتى لا يشعر المؤمنون المستضعفون بالضعف و الهوان،و لكى ييأسوا من جدوى المواجهه فى حرب هى سجال بين

الطرفين،لكنّها بالوعد الإلهى الحتمى لا بدّ أن تنتهى لصالح أهل الحق.

إنّ القانون الإلهى لا يقضى دائما بتعجيل العقوبه الآنيه لكل من يرتكب عملا منافيا،أو لمن يخرج عن جاده الصواب و يحيد عن سبيل الرشد،و إنّما الأمر كما تقول الآيه(۵۹)من سوره الكهف، وَ جَعَلْنا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِداً .

و فى مكان آخر من الكتاب الإلهى العظيم نقرأ قوله تعالى: فَمَهِّلِ الْكافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً (۱) .

و فى الآيه(۱۷۸)من«آل عمران»نلتقى فى هذا المورد مع قوله تعالى: إِنَّما نُمْلِی لَهُمْ لِیَزْدادُوا إِثْماً .

نستطيع أن ننهى القول فى أنّ الهدف من هذا«الإمهال»هو إما لإتمام الحجه على الكافرين،أو لاختبار المؤمنين،أو قد يكون زياده فى ذنوب الذين قطعوا جميع طرق العوده على أنفسهم.

و فى عالمنا اليوم تشبه هذه الحاله الشعور بالدونيه و الحقاره الذى تعيشه بعض الشعوب المسلمه المختلفه ماديا إزاء الدول الكبرى و المتقدمه،و لكن ينبغى مكافحه هذا الشعور بشده بأسلوب المنطق القرآنى أعلاه.

علاوه على هذا يجب على هؤلاء أن يدركوا أنّ أشكال التخلف و الحرمان المادى إنّما تعود بدرجه كبيره إلى ظلم الظالمين،فإذا ما تحطّمت سلاسل الظلم و العبوديه أمكن تجاوز التخلف بالمثابره و الكدح.

ثانيا:المجادله فى القرآن الكريم

لقد وردت كلمه«المجادله»خمس مرات فى هذه السوره المباركه،و هى جميعا تختص بالمجادله السلبيه الباطله،و الآيات التى اشتملت على ذكر المجادله هى(۶۹،۵۶،۳۵،۵،۴)و بهذه المناسبه لا بأس بالتعرّض إلى بحث عن

۱- ۱) -الطارق،الآيه ۱۷.

الجدال من وجهه النظر القرآنيه.

«الجدال»و«المراء»موضوعان وردا كثيرا فى الآيات القرآنيه،و فى الأحاديث و الرّوايات الإسلاميه أيضا.و كتوطئه للبحث ينبغى أولا أن نميّز أقسام الجدال(الجدال الإيجابى و الجدال السلبى)و ما هو المقصود من كلّ واحد منها، و علائم كلّ واحد منها،و أخيرا أضرار«الجدال السلبى»و كذلك عوامل الغلبه فى «الجدال الإيجابى».

و فى هذا الصدد أمامنا النقاط و العناوين الآتيه:

أ-مفهوم«جدال»و«مراء»

«الجدال»و«المراء»و«الخصام»ثلاث مفردات متقاربه من حيث المعنى، و فى نفس الوقت يوجد ثمّه اختلاف بينها (۱) .

«الجدال»يعنى فى الأصل اللغوى لف الحبل،ثمّ أخذ يطلق بعد ذلك على لفّ الطرف المقابل و النقاش الذى يتضمّن الغلبه.

«مراء»على وزن«حجاب»و تعنى الكلام فى شىء ما فيه مريه أو شک.

أمّا«الخصومه»و المخاصمه فتعنى فى الأصل إمساک شخصين كلّ منهما للآخر من جانبه،ثمّ أطلقت بعد ذلک على التشاجر اللفظى و الأخذ و الرد فى الكلام.

و كما يقول العلامه المجلسى فى(بحار الأنوار)فإنّ الجدال و المراء أكثر ما يستخدمان فى القضايا العلميه،فى حين تستخدم المخاصمه فى الأمور و المعاملات الدنيويه.

و يحدّد بعضهم الاختلاف بنى الجدال و المراء فى أنّ هدف المراء هو إظهار الفضل و الكمال،فى حين أنّ الجدال يستهدف تعجيز و تحقير الطرف المقابل.

۱- ۱) -الألفاظ الثلاثه مصدرها فى باب المفاعله.

و قالوا أيضا فى الفرق بينهما:إن الجدال فى القضايا العلميه،و المراء أعم من ذلك.

و قالوا أخيرا:إنّ المراء ذو طابع دفاعى فى قبال هجوم الخصم،بينما الجدال أعم من الدفاع و الهجوم.

ب:الجدال السلبى و الإيجابى

يظهر من الآيات القرآنيه أنّ للفظ الجدال معانى واسعه،و يشمل كلّ أنواع الحديث و الكلام الحاصل بين الطرفين،سواء كان إيجابيا أم سلبيا،ففى الآيه (١٢٥)من سوره«النحل»نقرأ أمر الخالق تبارك و تعالى لرسوله الكريم صلّى اللّه عليه و اله و سلّم فى قوله تعالى: وَ جٰادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .

و فى الآيه(٧۴)من سوره«هود»نقرأ عن إبراهيم عليه السّلام: فَلَمّٰا ذَهَبَ عَنْ إِبْرٰاهِيمَ الرَّوْعُ وَ جٰاءَتْهُ الْبُشْرىٰ يُجٰادِلُنٰا فِي قَوْمِ لُوطٍ و الآيه تشير إلى النوع الإيجابى من المجادله.

و لكن أغلب الإشارات القرآنيه حول المجادله تشير إلى النوع السلبى منها، كما نرى ذلك واضحا فى سوره«المؤمن»التى نحن بصددها،حيث أشارت إلى «المجادله»بمعناها السلبى خمس مرّات.

و فى كلّ الأحوال يتبيّن أنّ البحث و الكلام و الاستدلال و المناقشه لأقوال الآخرين،إذا كان لإحقاق الحقّ و إبانه الطريق و إرشاد لجاهل،فهو عمل مطلوب يستحق التقدير،و قد يندرج أحيانا فى الواجبات.

فالقرآن لم يعارض أبدا البحث و النقاش الاستدلالى و الموضوعى الذى يستهدف إظهار الحق،بل حث ذلك فى العديد من الآيات القرآنيه.

و فى مواقف معينه طالب القرآن المعارضين بالإتيان بالدليل و البرهان فقال:

هٰاتُوا بُرْهٰانَكُمْ

(۱)

.

و فی المواقف التی کـانت تتطلب إظهار البرهان و الـدلیل،ذکر القرآن أدله مختلفه،کما نقرأ ذلک فی آخر سوره«یس»حین جاء ذلک الرجل إلی رسول اللّه صـلّی اللّه علیه و اله و سـلّم و هو یمسک بیـده عظما فقال له سائلا: مَنْ یُحْیِ الْعِظٰامَ وَ هِیَ رَمِیمٌ (۲) فذکر القرآن عددا من الأدله علی لسان الرّسول الأکرم فی المعاد و قدره الخالق علی إحیاء الموتی.

و فی القرآن نمـاذج اخری واضـحه علی الجـدال الإیجـابی،کما فی الآیه (۲۵۸)من سوره البقره،الـتی تعکس کلاـم إبراهیم علیه السّلام و أدلته القاطعه أمام نمرود.

و الآیات(۴۷-۵۴)من سوره«طه»تعکس تحاجج موسی و فرعون.

و کذلک نجد القرآن ملیء بالأدله المختلفه التی أقامها رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم مقابل عبده الأصنام و المشرکین و أصحاب الذرائع.

و من جهه اخری یـذکر القرآن الکریم نمـاذج اخری من مجادلاـت أهـل الباطـل لإثبـات دعـاواهم البـاطله من خلاـل اسـتخدام السفسطات الکلامیه و الحجج الواهیه لابطال الحق و غوایه عوام الناس.

إنّ السخریه و الاستهزاء و التهدید و الافتراء و الإنکار الذی لا یقوم علی دلیل، هی مجموعه من الأسالیب التی یعتمدها الظالمون الضـالّون إزاء الأنبیـاء و دعواتهم الکریمه،أمّـا الاسـتدلال الممزوج بالعـاطفه و الحبّ و الرأفه بالنـاس فهو أسـلوب الأنبیـاء،رسـل السماء إلی الأرض.

فی الرّوایات الإسـلامیه و التأریخ الإسلامی آثار کثیره و غنیه عن مناظرات الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و اله و سلّم و أئمّه أهل البیت علیهم السّلام مع المعارضین،و إذا ما توفر جهد معین

۱- ۱) -البقره،الآیه ۱۱۱.

۲- ۲) -سوره یس،الآیه ۷۸.

على جمعها و تصنيفها فإنّها ستشكّل كتابا كبيرا و ضخما للغايه.(و قد قام العلاّمه الشيخ الطبرسى بجمع بعضها فى كتابه«الإحتجاج»).

و بالطبع لم ينحصر مقام المجادله بالتى هى أحسن و مناظره الخصوم على المعصومين،بل إن الأئمّه عليهم السّلام كانوا يحثون من يجدون فيه القدره الكافيه و المنطق القوى المتين للقيام بهذه الوظيفه،و الاّ فقد تضعف جبهه الحق و يقوى عود خصومها،و يجدون فى أنفسهم الجرأه فى مواجهه الحق و التمادى فى عنادهم.

و فى هذا الاتجاه نقرأ فى حديث،أنّ أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السّلام يلقّب ب«الطيار»و يدعى(حمزه بن محمّد)جاء إلى الإمام الصادق عليه السّلام و قال له:«بلغنى أنك كرهت مناظره الناس»فأجابه الإمام عليه السّلام

بقوله: «أما مثلك فلا يكره،من إذا طار يحسن أن يقع،و إن وقع يحسن أن يطير،فمن كان هذا لا نكرهه» (۱) .

كلام جميع يشير بوضوح كاف إلى القوه و المتانه فى قدره الاستدلال و المناظره و خصم الطرف المقابل لمن يريد خوض المناظره مع الخصوم،كى يكون بمقدوره استخلاص النتائج و إنهاء البحث،فلا بدّ من حضور اشخاص مستعدين و لهم تسلط كاف على البحوث الاستدلاليه،حتى لا يحسب ضعف منطقهم بأنّه من ضعف دينهم و مذهبهم.

ج:الآثار السيئه للجدال السلبى

صحيح أنّ البحث و النقاش هو مفتاح لحل المشاكل،إلاّ أنّ هذا الأمر يصح فى حال رغبه الطرفين فى نشدان الحق و البحث عن الطريق الصحيح،أو على الأقل يكون أحد الطرفين متمسكا بالحق و مستهدفا السبيل إليه فيما يخوض من

۱- ۱) -رجال«الكشى،صفحه ۲۹۸.

نقاش و مناظره.

أمّا أن يكون النقاش و الجدل بين الطرفين بهدف التفاخر و استعراض القوه، و فرض الرأى على الطرف الثّانى عن طريق إثاره الضجه،فإنّ عاقبه هذا الأمر لا تكون سوى الابتعاد عن الحق و عشعشه الظلمه فى القلوب و تجذّر العداء و الحقد لا غير.

و لهذا السبب نهت الروايات و الأحاديث الإسلاميه عن المراء و الجدال الباطل،و فى هذه المرويات إشارات كبيره المعنى إلى الآثار السيئه لهذا النوع من الجدال.

ففى حديث عن أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب نقرأ قوله عليه السّلام: «من ضنّ بعرضه فليدع المراء» (1) . لأنّ فى هذا النوع من النقاش سوف ينحدر بالكلام تدريجيا ليصل إلى مناحى الاستهانه و عدم الاحترام و تبادل الكلام المبتذل القبيح،و ترامى الاتهامات الباطله.

و

فى حديث آخر عن أمير المؤمنين أيضا نقرأ وصيته عليه السّلام إذ يقول:

«إيّاكم و المراء و الخصومه فإنّهما يمرضان القلوب على الإخوان،و ينبت عليهما النفاق» (2) .

إنّ مثل هذا النوع من الجدال و الذى يكون عاده فاقدا للالتزام بالأصول الصحيحه للبحث و الاستدلال،سيقوى روح اللجاجه و التعصّب و العناد لدى الأشخاص،بحيث يستخدم كلّ طرف-بهدف التغلب على خصمه و الإنتصار لنفسه-كلّ الأساليب حتى تلك التى تنطوى على الكذب و التهمه،و مثل هذا العمل لا يمكن أن تكون عاقبته إلّا السوء و الحقد و تنميه جذور النفاق فى الصدور.

١- ١) -نهج البلاغه،الكلمات القصار،رقم ٣٦٢.

٢- ٢) -أصول الكافى،المجلد الثّانى،باب المراء و الخصومه،الحديث الأول.

إنّ واحده من المفاسد الكبيره الأخرى للجدال السلبى المنهىّ عنه،هو تمسک الطرفين بانحرافاتهم و أخطائهم و إصرارهم على اشتباهاتهم،فى موقف عنيد بعيد عن الحق و الصواب،ذلک لأنّ کلّ طرف يحاول ما استطاع التمسّک بأى دليل و التشبّث بالباطل لفرض رأيه و إثبات کلامه،و هو فى ذلک مستعد لإنّ يتجاهل الکلام الحق الذى يصدر من خصمه،أو أنّه ينظر إليه بعدم الرضا و القبول.

و هذا بحدّ ذاته يزيد من الانحراف و الاشتباه و الخطأ.

د:أسلوب المجادله بالتى هى أحسن:

لا يستهدف«الجدال الإيجابى»تحقير الطرف الآخر أو الإنتصار عليه،بل يهدف النفوذ إلى عمق أفکاره و روحه،لهذا فإنّ أسلوب المجادله بالتى هى أحسن يختلف کليا عن الجدال السلبى أو الباطل.

و لکى يؤثر الطرف المجادل معنويان على الطرف الآخر،عليه الاستفاده من الأساليب الآتيه التى أشار إليها القرآن الکريم بشکل جميل:

۱-ينبغى عدم الإصرار على الطرف المقابل بقبول الکلام على أنّه هو الحق، بل على المجادل إذا استطاع أن يجعل الطرف المقابل يعتقد بأنّه هو الذى توصّل إلى هذه النتيجه،و هذا الأسلوب سيکون أکثر تأثيرا.بعباره اخرى:من المفيد للطرف المقابل أن يعتقد بأنّ النتيجه أو الفکره نابعه من أعماقه و هى جزاء من روحه،کى يتمسک بها أکثر و يذعن لها بشکل کامل.

و قد يکون هذا الأمر هو سر ذکر القرآن للحقائق المهمّه کالتوحيد و نفى الشرک و غير ذلک على شکل استفهام،أو أنّه بعد أن ينتهى من استعراض و ذکر

أدله التوحید یقول: أَ إِلٰهٌ مَعَ اللّهِ (۱) .

۲-یجب الإمتناع عن کلّ من ما یثیر صفه العناد و اللجاجه لدی الطرف الآخر،إذ یقول القرآن الکریم: وَ لاٰ تَسُبُّوا الَّذِینَ یَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ (۲) .کی لا یصر هؤلاء علی عنادهم و یهینوا الخالق جلّ و علا بتافه کلامهم.

۳-یجب مراعاه منتهی الإیضاح فی النقاش مع أی شخص أو أی مجموعه، کی یشعر الطرف المقابل بأنّ المتحدّث إلیه یبغی حقّا توضیح الحقائق لا غیر، فعند ما یتحدث القرآن عن مساوئ الخمر و القمار،فهو لا یتجاهل المنافع الثانویه المادیه و الاقتصادیه التی یمکن أن یحصل علیها البعض منهما،فیقول:

قُلْ فِیهِمٰا إِثْمٌ کَبِیرٌ وَ مَنٰافِعُ لِلنّٰاسِ وَ إِثْمُهُمٰا أَکْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمٰا .

إنّ هذا الطراز من الحدیث یحمل آثارا إیجابیه کبیره علی المستمع.

۴-یجب عدم الرّد بالمثل حیال المساوئ و الأحقاد التی قد تطفح من الخصم،بل یجب سلوک طریق الرأفه و الحبّ و العفو ما استطاع الإنسان إلی ذلک سبیلا،إذ أنّ الرّد بهذا الأسلوب الودود یؤثر کثیرا فی تلیین قلوب الأعداء المعاندین،کما یقول القرآن الکریم و یحث علی ذلک: اِدْفَعْ بِالَّتِی هِیَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِی بَیْنَکَ وَ بَیْنَهُ عَدٰاوَهٌ کَأَنَّهُ وَلِیٌّ حَمِیمٌ (۳) .

و الخلاصه،إنّنا عند ما ندقق فی أسلوب نقاشات الأنبیاء علیهم السلام مع الأعداء و الظالمین و الجبارین،کما یعکسها القرآن الکریم،أو کما تعکسها تلک المناظرات العقائدیه بین رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم أو أئمّه أهل البیت المعصومین علیهم السّلام و بین أعدائهم و خصومهم،ننتهی إلی دروس تربویه فی هذا المجال تطوی فی تضاعیفها

۱- ۱) -النمل،لآیه ۶۰.

۲- ۲) -الأنعام-۱۰۸.

۳- ۳) -فصلت،الآیه ۳۴.

أدق الأساليب و الوسائل النفسيه التی تسهّل لنا النفوذ إلی أعماق الآخرین.

و بهذا الخصوص ینقل العلاّمه المجلسی فی(بحار الأنوار)روایه مفصّله عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم یضمنها مناظره طویله بین الرّسول الأکرم و بین خمسه مجامیع مخاصمه هی:الیهود و النصاری و الدهریین و الثنویین(أتباع عقدیه التثنیه فی التألیه)و مشرکی العرب،تنتهی بسبب الأسلوب الحکیم الجمیل و المؤثر الذی استخدمه رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم إلی قبول هؤلاء بالحق و إذعانهم و تسلیمهم له.

إنّ هذه المناظره المربیه بإمکانها أن تکون لنا درسا بناء فی مناظراتنا و أسالیب جدلنا و مناقشاتنا مع الآخرین (۱) .

۱- ۱) -یمکن ملاحظه نصّها الکامل فی بحار الأنوار،المجلد التاسع،صفحه ۲۵۷ فما بعد.

الآيات [سوره غافر (۴۰): الآيات ۷ الی ۹]

اشاره

اَلَّذِينَ يَحْمِلُونَ اَلْعَرْشَ وَ مَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَ عِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تابُوا وَ اِتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَ قِهِمْ عَذابَ اَلْجَحِيمِ (۷) رَبَّنا وَ أَدْخِلْهُمْ جَنّاتِ عَدْنٍ اَلَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَ مَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وَ أَزْواجِهِمْ وَ ذُرِّيّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ اَلْعَزِيزُ اَلْحَكِيمُ (۸) وَ قِهِمُ اَلسَّيِّئاتِ وَ مَنْ تَقِ اَلسَّيِّئاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَ ذلِكَ هُوَ اَلْفَوْزُ اَلْعَظِيمُ (۹)

التّفسير

اشاره

دعاء حمله المستمر للمؤمنين:

يتضح من أسلوب الآيات السابقه أنّها نزلت فی فتره كان فيها المسلمون قلّه محرومه،بينما كان الأعداء فی أوج قوتهم،يتمتعون بالإمكانات الكبيره و يسيطرون على السلطه.

بعد ذلك نزلت الآيات التی نحن بصددها لتكون بشری للمؤمنين الحقيقيين

ص:۱۹۷

و الصابرين،بأنّكم لستم وحدكم،فلا تشعروا بالغربه أبدا،فحمله العرش الإلهى و المقربون منه،و كبار الملائكه معكم يؤيدونكم،إنّهم فى دعاء دائم لكم،و يطلبون لكم من اللّه النصر فى الدنيا و حسن الثواب فى الآخره...و هذا هو أفضل أسلوب للتعاطف مع المؤمنين فى ذلك اليوم،و هذا اليوم،و غدا.

فالقرآن يقول: اَلَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَ مَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا .

أمّا قولهم و دعاؤهم فهو: رَبَّنا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَهً وَ عِلْماً فأنت عالم بذنوب عبادك المؤمنين و رحيم بهم فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تابُوا وَ اتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَ قِهِمْ عَذابَ الْجَحِيمِ .

يوضح هذا الكلام للمؤمنين بأنّكم لستم وحدكم الذين تعبدون اللّه و تسبحونه و تحمدونه،فقبلكم الملائكه المقرّبون و حمله العرش و من يطوف حوله،يسبحون الخالق جلّ و علا و يحمدونه.

و هى من جانب آخر تحذر الكفّار و تقول لهم:إنّ إيمانكم أو عدمه ليس مهمّا،فاللّه غنى عن العباد لا يحتاج إلى إيمان أحد،و هناك الملائكه يسبحون بحمده و يحمدونه و هم من الكثره بحيث لا يمكن تصوّرهم بالرغم من أنّه غير محتاج إلى حمد هؤلاء و تسبيحهم.

و من جانب ثالث،فى الآيه إخبار للمؤمنين بأنّكم لستم وحدكم فى هذا العالم-بالرغم من أنّكم أقليه فى محيطكم-فأعظم قوّه غيبيه فى العالم و حمله العرش هم معكم و يساندونكم و يدعون لكم،و هم فى نفس الوقت يسألون اللّه أن يشملكم بعفوه و رحمته الواسعه،و أن يتجاوز عن ذنوبكم و ينجيكم من عذاب الجحيم.

و فى هذه الآيه تواجهنا مره اخرى كلمه(العرش)حيث ورد كلام عن حملته و الملائكه الذين يحيطون به،و بالرغم من أنّنا تحدثنا عن هذا الموضوع فى تفسير

بعض السور،فإنّنا سنقف عليه مرّه اخرى فى باب البحوث إن شاء اللّه (۱) .

فى الآيه التى تليها استمرار دعاء حمله العرش للمؤمنين،يقول تعالى:

رَبَّنا وَ أَدْخِلْهُمْ جَنّاتِ عَدْنٍ الَّتِی وَعَدْتَهُمْ

.

و أيضا: وَ مَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وَ أَزْواجِهِمْ وَ ذُرِّيّاتِهِمْ (۲) .

لماذا؟ل إِنَّکَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَکِيمُ .

هـذه الآيه التى تبـدأ بكلمـه(ربّنـا)الـتى يطلب حمله العرش و الملائكه المقرّبـون بهـا من خـالقهم-بإصـرار-أن يتلطف بعبـاده المؤمنين،و يركّزون فى هـذا الطلب على مقـام ربوبيته تعـالى،و هؤلاء لا يريـدون من خالقهم انقاذ المؤمنين من عـذاب القيامه و حسب،بـل إدخالهم فى جنات خالـده،ليس وحـدهم و إنّما مع آبائهم و أزواجهم و أبنائهم السائرين على خطّهم فى الاسـتقامه و الإيمان...إنّهم يطلبون الـدعم من عزّته و قـدرته،أمّا الوعـد الإلهى الـذى أشارت إليه الآيه فهو نفس الوعـد الـذى ورد مرارا على لسان الأنبياء لعامه الناس.

أمّا تقسيم المؤمنين إلى مجموعتين،فهو فى الواقع يكشف عن حقيقه أنّ هناك مجموعه تأتى بالـدرجه الأولى،و هى تحاول أن تتبع الأوامر الإلهيه بشكل كامل.

أمّا المجمـوعه الأخرى فهى ليست بـدرجه المجموعه الأولى و لا ـ فى مقامهـا، و إنّمـا بسـبب انتسابهـا إلى المجموعه الأولى و محاولتها النسبيه فى اتباعها سيشملها دعاء الملائكه.

بعد ذلك تذكر الآيه الفقره الرّابعه من دعاء الملائكه للمؤمنين: وَ قِهِمُ السَّيِّئاتِ وَ مَنْ تَقِ السَّيِّئاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ .

ثم ينتهى الدعاء بهذه الجمله ذات المعنى الكبير: وَ ذٰلِکَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ .

۱- ۱) -كما فى نهايه الآيه(۵۴)من الأعراف،نهايه الآيه(۷)من هود،و نهايه الآيه(۲۵۵)من البقره.

۲- ۲) -جمله(من صلح)معطوفه على الضمير فى جمله«و أدخلهم».

هل هناک فوز أعظم من أن تغفر ذنوب الإنسان،و يبتعد عنه العذاب لتشـمله الرحمه الإلهیه و یدخل الجنّه الخالده،و ثم یلتحق به أقرباؤه الذین یودّهم؟

بحوث

اشاره

أوّلا:الأدعیه الأربعه لحمله العرش

قـد یطرح هنا هـذا السؤال:ما هو التفاوت الموجود بین الأدعیه الأربعه؟ ألیس بعضـها مکررا؟ عنـد التأمل و التـدقیق یتبیّن أنّ کلّ واحـد منها یشـیر إلی موضوع مختلف.ففی البدایه یطلب الملائکه غسل المؤمنین و تطهیرهم من آثار الذنوب،و هذا الأمر إضافه لکونه مطلوبا بـذاته،فهو یعتبر مقـدمه للوصول إلی أی نعمه کبیره.و إلاّ فهل هناک موهبه أعلی من أن یشـعر الإنسان بأنّه أصـبح طاهرا مطهرا،و أنّ خالقه جلّ و علا راض عنه،و هو أیضا راض عن خالقه الکریم؟ إنّ هذا الإحساس-بغض النظر عن قضیه الجنّه و النّار یعتبر أمرا عظیما و فخرا کبیرا بالنسبه للعباد.

فی مرحله ثـانیه یطلب حمله العرش و الملاـئکه إبعـاد المؤمنین و إنقاذهم من عـذاب جهنّم.و هـذا الأمر بحـد ذاته یعتبر من أهم وسائل تحقیق الراحه و الرضا النفسیّین.

المرحله الثّالثه تنطوی علی دعاء الملائکه و حمله العرش للمؤمنین فی طلب الجنّه لهم و لأقربائهم أیضا،حیث یعتبر هؤلاء الأقرباء الصالحون عاملا من عوامل الراحه و الاستقرار النفسی.

و بسـبب وجود(مؤذیـات)اخری مهمّه فی یوم القیـامه غیر نـار جهنّم،کهول المطّلع و المحشـر،و الفضـیحه أمـام الخلاـئق،و طول الوقفه للحساب و أمثال ذلک،لذا

طلبت الملائكه و حمله العرش فی أدعیتهم الأخری أن یحفظ اللّه المؤمنین و یقیهم من أی سوء أو مکروه فی ذلک الیوم،کی یدخلوا جنّه الخلد براحه بال و اطمئنان و احترام کامل.

ثانیا:آداب الدعاء

فی هذه الآیات یعلّم حمله العرش و الملائکه المؤمنین أسلوب الدعاء.

ففی البدایه ینبغی بالتمسک بکلمه«ربّنا».

ثمّ مناداته تعالی بصفات الجلال و الجمال،و طلب العون من مقام رحمته المطلقه و علمه غیر المتناهی: وَسِعْتَ کُلَّ شَیْءٍ رَحْمَهً وَ عِلْماً .

و أخیرا الدعاء و طلب الحاجه بحسب أهمیتها و بشروط توفّر الأرضیه للاستجابه: فَاغْفِرْ لِلَّذِینَ تابُوا وَ اتَّبَعُوا سَبِیلَکَ .

ثم ینتهی الدعاء بذکر صفاته تعالی الجمالیه و الجلالیه،و التوسّل برحمته تعالی مرّه اخری.

و الطّریف فی الأمر أنّ حمله العرش الإلهی یعتمدون علی خمسه أوصاف إلهیه مهمّه فی دعائهم و هی:الربوبیه،و الرحمه،و القدره،و العلم،و الحکمه.

ثالثا:لماذا تبدأ الأدعیه بکلمه«ربّنا»؟

عند قراءه آیات القرآن الکریم نری أنّ أولیاء اللّه-سواء منهم الأنبیاء أو الملائکه أو الصالحون-کانوا یبدأون کلامهم ب«ربّنا»أو«ربّی»عند الدعاء...

فآدم علیه السّلام یقول: رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا .

و نوح علیه السّلام یقول: رَبِّ اغْفِرْ لِی وَ لِوالِدَیَّ و إبراهیم علیه السّلام یقول: رَبَّنَا اغْفِرْ لِی وَ لِوالِدَیَّ وَ لِلْمُؤْمِنِینَ یَوْمَ یَقُومُ الْحِسابُ .

أما یوسف علیه السّلام فیقول: رَبِّ قَدْ آتَیْتَنِی مِنَ الْمُلْکِ .

و موسی الکلیم علیه السّلام یقول: رَبِّ بِمٰا أَنْعَمْتَ عَلَیَّ فَلَنْ أَکُونَ ظَهِیراً لِلْمُجْرِمِینَ .

أما سلیمان علیه السّلام فیقول:رب هب لِی مُلْکاً لاٰ یَنْبَغِی لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِی .

أما عیسی المسیح علیه السّلام فیقول: رَبَّنٰا أَنْزِلْ عَلَیْنٰا مٰائِدَهً مِنَ السَّمٰاءِ (۱) .

و الرّسول الأعظم صلّی اللّه علیه و اله و سلّم یقول: رَبِّ أَعُوذُ بِکَ مِنْ هَمَزٰاتِ الشَّیٰاطِینِ (۲) .

و علی لسان المؤمنین نقرأ فی أماکن متعـدّده کلمه«ربّنا»فی فاتحه الدعاء، ففی آخر سوره«آل عمران»نری دعائهم: رَبَّنٰا مٰا خَلَقْتَ هٰذٰا بٰاطِلاً .

من خلال هذه النماذج و المواقف نستنتج أنّ أفضل الدعاء هو ما یبدأ بالربوبیه صحیح أنّ الاسم المبارک«اللّه»هو أکثر شمولیه لأسماء الخالق،و لکن لارتباط الحاجات بمقام الرّبوبیه،هذا المقام الذی یرتبط به الإنسان منذ اللحظه الأولی من وجوده و حتی آخر عمره،و تستمر بعد ذلک صفه الارتباط ب«الربوبیه»التی تغرق الإنسان بالألطاف الإلهیه،لذا فإنّ ذکر هذه الکلمه فی بدایه الأدعیه یعتبر أکثر تناسبا من باقی الأسماء الأخری (۳) .

رابعا:ما هو العرش الإلهی؟

لقد أشرنا مرارا إلی أن ألفاظنا-الموضوعه أصلا لتوضیح مشخصات الحیاه المحدوده-لا تستطیع أن توضّح عظمه الخالق،أو حتی أن تحیط بعظمه مخلوقاته جلّ و علا،لهذا السبب فلیس أمامنا سوی استخدام ألفاظ و معانی للکنایه عن تلک العظمه.

و فی طلیعه الألفاظ التی یشملها هذا الوضع کلمه(العرش)التی تعنی لغویا (السقف)أو(السریر ذا المسند المرتفع)فی قبال(الکرسی)الذی هو(سریر ذو

۱- ۱) -المائده،الآیه ۱۱۴.

۲- ۲) -المؤمنین،الآیه ۹۷.

۳- ۳) -التّفسیر الکبیر،الفخر الرازی فی نهایه الآیه مورد البحث.

مسند منخفض).ثمّ استخدمت هذه الكلمه لتشمل(عرش)القدره الإلهيه.

و للمفسّرين و الفلاسفه و المناطقه كلام كثير حول المقصود بالعرش،و ما ينطوى عليه من معنى كنائى.

فأحيانا فسّروا العرش بمعنى(العلم اللامتناهى للّه تبارک و تعالى).

و اخرى قالوا بأن المعنى هو(المالكيه و الحاكميه الإلهيه).

و فسّروا العرش أيضا بأنّه إشاره إلى أى واحده من الصفات الكماليه و الجلاليه للّه تبارک و تعالى،لأنّ كلّ واحده من هذه الصفات توضح عظمه منزلته جلّ و علا،كما أنّ عرش السلطان(و الأمثال تضرب و لا تقاس)يوضح عظمته.

فالخالق جلّ و علا يملک عرش العلم،و عرش القدره،و عرش الرحمانيه، و عرش الرحيميه.

و طبقا للتفاسير و الآراء الثلاثه هذه،فإنّ مفهوم(العرش)يعود إلى صفات الخالق جل و علا،و لا يعنى وجود خارجى آخر له.

و فى بعض الرّوايات الوارده عن أهل البيت عليه السّلام،ما يشير إلى هذا المعنى،ففى روايه عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه أجاب عند ما سئل عن معنى قوله تعالى: وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ أنّ المقصود بذلک علمه تعالى شأنه (١) .

و فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السّلام أيضا أنّه فسّر(العرش)بأنّه«العلم» الذى كشفه و علّمه اللّه للأنبياء عليهم السلام،بينما(الكرسى)هو«العلم»الذى لم يعلمه لأحد و لم يطلع عليه أحد (٢) .

و بين أيدينا تفاسير اخرى استندت إلى روايات إسلاميه،ففسّرت العرش و الكرسى بأنّهما موجودات عظيمه من مخلوقات اللّه تبارک و تعالى.

قالوا-مثلا-إنّ المقصود بالعرش هو مجموع عالم الوجود.

١- ١) -بحار الأنوار،المجلد ٥٨،صفحه ٢٨،الحديث رقم ۴۶،۴٧.

٢- ٢) -المصدر السابق.

و قالوا أيضا:هو مجموع الأرض و السماء المتجسده ضمن هذا الكرسی،بل إنّ السماء و الأرض كالخاتم فی الصحراء الواسعه مقايسه بينهما و بين(الكرسی) ثم قالوا:إنّ«الكرسی»فی مقابل العرش كالخاتم فی الصحراء الواسعه.

و فی تفاسير اخری تستند بدورها إلی روايات إسلاميه،أطلقوا كلمه (العرش)للكنايه عن قلوب الأنبياء و الأوصياء و المؤمنين التامين الكاملين،كما جاء ذلك

فی الحديث: «إنّ قلب المؤمن عرش الرحمن» (۱) .

و

فی حديث قدسی نقرأ قوله تعالی: «لم يسعنی سمائی و لا أرضی،و وسعنی قلب عبدی المؤمن» (۲) .

أما أفضل الطرق لإدراك معنی العرش-بمقدار ما تسمح به قابليه الإنسان و استيعابه-فهو أن نبحث موارد استعمال هذه الكلمه فی القرآن الكريم،و نتفحص مدلولاتها بشكل متأن.

فی آيات كثيره من كتاب اللّه نلتقی مع هذا التعبير،كما فی قوله تعالی: ثُمَّ اسْتَویٰ عَلَی الْعَرْشِ (۳) .ثمّ يرد تعبر يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فی بعض الآيات التی تأتی بعد مفاد الآيه أعلاه(آيه العرش)أو ترد جمل اخری تعبّر عن علم اللّه و درايه الخالق جلّ و علا.

فی آيه اخری من القرآن الكريم يوصف العرش بالعظمه: وَ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (۴) .

و أحيانا تتحدث الآيه عن حمله العرش،كما فی الآيه التی نحن بصددها.

و من الآيات ما تتحدث عن الملائكه المحيطه بالعرش،كما فی قوله تعالی:

۱- ۱) -بحار الأنوار،المجلد ۵۸،صفحه ۳۹.

۲- ۲) -بحار الأنوار،المجلد ۵۸،صفحه ۳۹.

۳- ۳) -الأعراف،الآيه ۵۴.

۴- ۴) -التوبه،الآيه ۱۲۹.

وَ تَرَى الْمَلاٰئِكَهَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ

(۱)

و فی آیه اخری نقرأ قوله تعالی: وَ كٰانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمٰاءِ .

من خلال مجموع هذه الموارد،و التعابیر الأخری الوارده فی الأحادیث و الروایات الإسلامیه،نستنتج بشکل واضح أنّ کلمه(العرش)تطلق علی معانی مختلفه بالرغم من أنّها تشترک فی أساس واحد.

فأحد معانی العرش هو مقام(الحکومه و المالکیه و خلق عالم الوجود)إذ تلاحظ أنّ الاستخدام الشائع للعرش یدلل-من خلال الکنایه-علی سیطره الحاکم علی أمور دولته،فنقول مثلا:«فلان شلّ عرشه»و التعبیر کنایه عن انهیار قدرته و حکومته.

و المعنی الآخر من معانی العرش هو،«مجموع عالم الوجود»لأنّ کلّ الوجود هو دلیل علی العظمه.

و أحیانا یستخدم العرش بمعنی«العالم الأعلی»و الکرسی بمعنی«العالم الأدنی».

و یستخدم العرش أحیانا بمعنی(عالم ما وراء الطبیعه)و الکرسی بمعنی (مجموع عالم الماده)بما فی ذلک الأرش و السماء،کما جاء فی آیه الکرسی:

وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ .

و لأنّ علم الخالق لا ینفصل عن ذاته المنزهه،لذا فانّ کلمه(عرش)تطلق أحیانا علی«علم اللّه».

و إذا أطلق وصف(عرش الرحمن)علی القلوب الطاهره لعباد اللّه المؤمنین، فذلک یعود إلی أنّ هذا المکان هو محل معرفه الذات الإلهیه المنزهه،و هو بحدّ ذاته أحد أدله عظمته و قدرته جلّ و علا.

من کلّ ذلک یتضح أنّ کافه معانی العرش-التی وردت آنفا-توضح عظمه

ص :۲۰۵

۱- ۱) -الزمر،الآیه ۷۵.

الخالق جلّ و علا.

و فی الآـیه الـتی نحن بصـدد بحثهـا یمکن أن یکون المقصود من العرش هو نفس حکومه اللّه تعـالی و تـدبیره لعـالم الوجود،و حمله العرش یقومون بتنفیذ إراده اللّه الحاکمه فی الخلق.

و یمکن أن یکـون المعنی هو مجموع عـالم الوجود أو عـالم مـا وراء الطبیعه.أمّـا حمله العرش الإـلهی فهم الملاـئکه الـذین تقع علیهم مسئولیه تدبیر أمر هذا العالم بأمر اللّه تعالی.

ص :٢٠۶

الآيات [سوره غافر (۴۰): الآيات ۱۰ الى ۱۲]

اشاره

إِنَّ اَلَّذِينَ كَفَرُوا يُنٰادَوْنَ لَمَقْتُ اَللّٰهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى اَلْإِيمٰانِ فَتَكْفُرُونَ (۱۰) قٰالُوا رَبَّنٰا أَمَتَّنَا اِثْنَتَيْنِ وَ أَحْيَيْتَنَا اِثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنٰا بِذُنُوبِنٰا فَهَلْ إِلىٰ خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ (۱۱) ذٰلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذٰا دُعِيَ اَللّٰهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَ إِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلّٰهِ اَلْعَلِيِّ اَلْكَبِيرِ (۱۲)

التّفسير

اشاره

اعترفنا بذنوبنا فهل من خلاص؟

تحدثت الآيات السابقه عن شمول الرحمه الإلهيه للمؤمنين، أمّا مجموعه الآيات التى بين أيدينا فهى تتحدث عن«غضب»اللّه تعالى على الكافرين،كى يكون بالمستطاع المقارنه بين صورتين و مشهدين متقابلين.

فى البدايه تقول الآيه: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنٰادَوْنَ لَمَقْتُ اللّٰهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمٰانِ فَتَكْفُرُونَ .

من الذى ينادى هؤلاء بهذا النداء؟ يبدو أن ملائكه العذاب ينادونهم بهذا النداء لتوبيخهم و فضحهم،فى مقابل ما

تفعله ملائكه الرحمه من إكرام المؤمنين و الصالحين.

و يحتمل أن يكون هذا النداء من نوع التخاطب و التخاصم الذى يقوم بين الكفار فى القيامه،لكن المعنى الأوّل أرجح كما يبدو،و على كلّ حال سينطلق هذا النداء يوم القيامه،كما أنّ الآيات اللاحقه شاهد على هذا المعنى.

«المقت»تعنى فى اللغه البغض و العداوه الشديده.و هذه الآيه تبيّن أن غضب اللّه تعالى على الكافرين هو أشد من عداوتهم لأنفسهم أمّا فيم يتعلق بمقت الكفار لأنفسهم،فهناك تفسيران:

الأوّل:يتمثل فى ارتكاب هؤلاء فى الحياه الدنيا لأكبر عداوه إزاء أنفسهم برفضهم لنداء التوحيد،فهم لم يهملوا مصابيح الهدايه و حسب،بل عمدوا إلى تحطيمها.فهل ثمّه عداء للنفس أكثر من أن يغلق الإنسان أمامه أبواب السعاده الأبديه،و يفتح على نفسه أبواب العذاب.

و طبقا لهذا التّفسير يكون قوله تعالى: إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمٰانِ فَتَكْفُرُونَ بيانا لكيفيه مقت و عداوه الكافرون أنفسهم.

الثّانى:أن يكون المقصود بغضبهم و عدائهم لأنفسهم هو أن تصيبهم حاله من الألم و الندم الشديد عند ما يشاهدون يوم القيامه نتيجه أعمالهم و ما اقترفت أيديهم فى هذه الدنيا،حيث ترتفع آهاتهم و صرخاتهم،و يعضون على أناملهم من الندم،و لات ساعه مندم يقول تعالى: وَ يَوْمَ يَعَضُّ الظّٰالِمُ عَلىٰ يَدَيْهِ (1) .و يتمنون أن يكونوا ترابا: وَ يَقُولُ الْكٰافِرُ يٰا لَيْتَنِى كُنْتُ تُرٰاباً (2) .

و فى ذلك اليوم تنفتح آفاق البصر: فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (3) و تنكشف الأسرار و الحقائق الخفيه: يَوْمَ تُبْلَى السَّرٰائِرُ (4) .و فى ذلك اليوم تنشر الصحف و تكشف

۱- ۱) -فرقان،الآيه ۲۷.

۲- ۲) -نبأ،الآيه ۴۰.

۳- ۳) -سوره ق،الآيه ۲۲.

۴- ۴) -الطارق،الآيه ۹.

الأعمال: وَ إِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ (۱) .و عندها تکون النتیجه: کَفیٰ بِنَفْسِکَ الْیَوْمَ عَلَیْکَ حَسِیباً (۲) .لذلک سیلوم هؤلاء أنفسهم بشده و یتنفرون منها و یبکون علی مصیرهم.

و هنا یأتی النداء: إِنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا یُنٰادَوْنَ لَمَقْتُ اللّٰهِ أَکْبَرُ مِنْ مَقْتِکُمْ أَنْفُسَکُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَی الْإِیمٰانِ فَتَکْفُرُونَ .

و طبقا لهذا التّفسیر تکون جمله: إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَی الْإِیمٰانِ فَتَکْفُرُونَ بیانا لدلیل شده الغضب الإلهی علیهم (۳) .

بالطبع فإن کلا التّفسیرین مناسب،إلاّ أنّ التّفسیر الأوّل بلحاظ بعض الأمور -أرجح.

عند ما یشاهد المجرمون أوضاع یوم القیامه و أهوالها،و یرون مشاهد الغضب الإلهی حیالهم،سینتبهون من غفلتهم الطویله و یفکرون بطریق للخلاص، فیعترفون بذنوبهم و یقولون: قٰالُوا رَبَّنٰا أَمَتَّنَا اثْنَتَیْنِ وَ أَحْیَیْتَنَا اثْنَتَیْنِ فَاعْتَرَفْنٰا بِذُنُوبِنٰا فَهَلْ إِلیٰ خُرُوجٍ مِنْ سَبِیلٍ .

عند ما تزول حجب الغرور و الغفله،و ینظر الإنسان بالعین الحقیقیه،فلا سبیل عندها سوی الاعتراف بالذنوب! إنّ هؤلاء کانوا یصرون علی إنکار المعاد،و یستهزئون بوعید الأنبیاء لهم،

ص: ۲۰۹

۱- ۱) -التکویر،آیه ۱۰.

۲- ۲) -الإسراء،الآیه ۱۴

۳- ۳) -طبقا للتفسیر الأوّل تکون(إذ)ظرفیه و متعلقه ب«مقتکم أنفسکم»أمّا طبق التّفسیر الثّانی فتعتبر(إذ)تعلیلیه و متعلقه ب «مقت اللّه»و الجدیر بالملاحظه أنّ المقتین الواردین فی الآیه أعلاه یرتبطان بأربعه احتمالات هی: الأوّل:أن یکون مکان الإثنین فی یوم القیامه. الثّانی:أن یکون مکانهما فی هذه الدنیا. الثّالث:أن یکون المقت الأوّل فی الدنیا و الثّانی فی الآخره. أما الرابع:فهو عکس الثّالث. و لکن الأفضل وفقا للتفسیر أعلاه أن یختص الأوّل بالآخره.و الثّانی بالدنیا،أو أن یختص الاثنان بالآخره.

و لکن بعد توالی الموت و الحیاه لا یبقی مجال للإنکار،و قد یکون سبب تکرارهم للموت و الحیاه،أنّهم یریدون القول:یا خالقنا الذی تملک الموت و الحیاه،أنت قادر علی أن تعیدنا إلی الدنیا مره اخری کی نعوّض ما مضی.

ذکر المفسرون عدّه تفاسیر حول المقصود من قوله تعالی: أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ و أَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ و من بین هذه التفاسیر هناک ثلاثه آراء نقف علیها فیما یلی:

أوّلا-أن یکون المقصود من أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ هو الموت فی نهایه العمر، و الموت فی نهایه البرزخ.أمّا المقصود من أَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فهی الإحیاء فی نهایه البرزخ و الإحیاء فی القیامه.

و لتوضیح لذلک،نری أنّ للإنسان حیاه اخری بعد الموت تسمی الحیاه البرزخیه،و هذه الحیاه هی نفس حیاه الشهداء التی یحکی عنها قوله تعالی: بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (1) ،و هی نفس حیاه النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم و الأئمّه من أهل البیت علیهم السّلام،حیث یسمعون سلامنا و یردون علیه.

و هی أیضا نفس حیاه الطغاه و الأشقیاء کالفراعنه الذین یعاقبون صباحا و مساء بمقتضی قوله تعالی: اَلنّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها غُدُوًّا وَ عَشِيًّا (2) .

و من جانب آخر نعرف أنّ الجمیع،من الملائکه و البشر و الأرواح،ستموت فی نهایه هذا العالم مع أوّل نفخه من الصور: فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ (3) .و لا یبقی أحد سوی الذات الإلهیه(بالطبع علی خلاف ما أوضحناه فی نهایه الآیه(86)من سوره الزمر بین موت و حیاه الملائکه و الأرواح،و بین موت و حیاه الإنسان).

1- 1) -آل عمران،الآیه 169.

2- 2) -غافر،الآیه 46.

3- 3) -الزمر،الآیه 68.

و على هذا الأساس فإنّ هناک حیاه جسمانیه و حیاه برزخیه،ففی نهایه العمر یحل الموت بحیاتنا الجسمانیه،لکن فی نهایه العالم یحل بحیاتنا البرزخیه.

یترتب علی ذلک أن تکون هناک حیاتان بعد هذین الموتتین:حیاه برزخیه، و حیاه فی یوم القیامه.

و هنا قد یطرح البعض هذا السؤال:إنّنا فی الواقع نملک حیاه ثالثه هی حیاتنا فی هذه الدنیا،و هی غیر هاتین الحیاتین،و قبلها أیضا کنّا فی موت قبل أن نأتی إلی هذه الدنیا،و بهذا سیکون لدینا ثلاث موتات و ثلاثه إحیاءات.

و لکن الجواب یتوضح عند التدقیق فی نفس الآیه،فالموت قبل الحیاه الدنیا(أی فی الحاله التی کنّا فیها ترابا)یعتبر«موتا»لا«إماته»و أمّا الحیاه فی هذه الدنیا فالبرغم من أنّها مصداق للإحیاء،إلا أنّ القرآن لم یشر إلی هذا الجانب فی الآیه أعلاه،لإنّ هذا الإحیاء لا یشکّل عبره کافیه بالنسبه للکافرین،إذ الشیء الذی جعلهم یعون و یعترفون بذنوبهم هو الحیاه البرزخیه أوّلا،و الحیاه عند البعث ثانیا.

ثانیا:إنّ المقصود بالحیاتین،هو الإحیاء فی القبر لأجل بعض الأسئله، و الإحیاء فی یوم القیامه،و إنّ المقصود بالموتتین،هما الموته فی نهایه العمر، و الموته فی القبر.

لذلک اعتبر بعض المفسّرین هذه الآیه دلیلا علی الحیاه المؤقته فی القبر.

أمّا عن کیفیه حیاه القبر،و فیما إذا کانت جسمانیه أو برزخیه.أو نصف جسمانیه،فهذه کلّها بحوث لیس هنا مجال الخوض فیها.

ثالثا:إنّ المقصود بالموته الأولی،هو الموت قبل وجود الإنسان فی هذه الدنیا،إذ أنّه کان ترابا فی السابق،لذا فإنّ الحیاه الأولی هی الحیاه فی هذه الدنیا، و الموت الثّانی هو الموت فی نهایه هذا العالم،فیما الحیاه الثانیه هی الحیاه عند

البعث.

و الذين يعتقدون بهذا التّفسير يستدلون بالآيه(٢٨)من سوره«البقره»حيث قوله تعالى: كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللّٰهِ وَ كُنْتُمْ أَمْوٰاتاً فَأَحْيٰاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .

إلاّ أنّ الآيه التى نبحثها تتحدث عن إماتتين،فى حين أنّ آيه سوره البقره تتحدّث عن حياه واحده و إماته واحده (١) .

يتّضح من مجموع التفاسير الثّلاثه هذه أنّ التّفسير الأوّل هو الأرجح.

و لا بأس أن نشير إلى أنّ بعض مؤيدى«التناسخ»أرادوا الاستدلال بهذه الآيه على الحياه و الموت المكرّر للإنسان،و عوده الروح إلى الأجساد الجديده فى هذه الدنيا،فى حين أنّ الآيه أعلاه تعتبر إحدى الأدله الحيه على نفى التناسخ، لأنّها تتحدّد الموت و الحياه فى مرّتين،إلاّ أنّ أنصار عقيده«التناسخ»يقولون بالموت و الحياه المتعدّده و المتوالى،و يعتقدون بأنّ روح الإنسان الواحد يمكن أن تتجسّد و تحل مرأت اخرى فى أجساد جديده،و نطف جديده و ترجع إلى هذه الدنيا.

من الطبيعى أن يكون الجواب على طلب الكافرين بالعوده إلى هذه الدنيا للتكفير عمّا فاتهم هو الرفض.و هذا الرفض من الوضوح بحيث لم تشر إليه الآيات التى نبحثها.

لكن نستطيع أن نعتبر الآيه التى بعدها دليلا على ما نقول،إذ تقول: ذٰلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذٰا دُعِيَ اللّٰهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَ إِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا .

فعند ما يدور الكلام عن التوحيد و التقوى و الأوامر الحقه تشمئزون و تحزنون،أما إذا دار الحديث عن الكفر و النفاق و الشرك فستفرحون و تنبسط

١- ١) -احتمل بعض المفسّرين أنّ الآيه أعلاه تشير إلى«الرجعه»إلاّ أنّ مراعاه عموميه الآيه و شمولها جميع الكافرين،و عدم ثبوت عموميه الرجعه لهم جميعا،يجعل هذا التّفسير قابلا للنقاش.

أساريركم،لذلك ستكون عاقبتكم ما رأيتم.

و هنا نطرح هـذا السؤال:كيف نربط هـذا الجواب مع طلبهم العوده إلى هذه الدنيا؟ إنّ الآيه تفيد أنّ حقيقه أعمال هؤلاء لم تكن محـدوده بزمـن معيـن،و لم تكن مـؤقته،بـل كـانت دائميه،لـذلك فلـو عـادوا إلى الحيـاه مرّه اخرى فـإنهم سيسـتمرون على هـذا الوضع،أمّا هذا الإيمان و التسليم و الإذعان الذى رأيناه منهم يوم القيامه،فهو اضطرارى و ليس عن قناعه حقيقيه.

ثمّ إنّ اعتقـادات هؤلاء و أعمالهم و نياتهم السابقه تسـتوجب خلودهم فى الجحيم،لـذا فلا يمكن عوده هؤلاء إلى الـدنيا مع هـذا الوضع.

و هـذا الوضع يختص بالأفراد الـذين تجـذّر الكفر و الشـر و الذنب فى أعماقهم، و هؤلاء هم الذين يصـفهم القرآن بأنّ نفوسـهم تشـمئز عند ذكر اللّه تعالى وحده، و يفرحون عند ذكر الأصـنام: وَ إِذا ذُكِرَ اللّهُ وَحْدَهُ اشْـمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَهِ وَ إِذا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (1) .

إنّ هذا الوصف لا يختص بالمشـركين فى زمن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم فحسب،إذ يشهد زماننا مثل هؤلاء من ذوى القلوب الميته،الذين يفرون من الإيمان و التوحيد و التقوى،و يقبلون على الكفر و النفاق و الفساد.

لذلك نقرأ فى بعض الروايات عن أهل البيت عليهم السّـلام،فى تفسير هذه الآيه،أنّها تختص بقضيه(الولايه)إذ يتأذى البعض عند سماعها(أى الولايه)و يفرحون عنـد سـماع أسـماء أعداء أهل البيت عليهم السّـلام هذا التّفسـير هو من باب انطباق المفهوم، العام على المصداق،و ليس من باب تقييد كلّ المفهوم الذى تطويه الآيه بهذا المصداق).

و فى نهايه الآيه،و من أجل أن لا ييأس هؤلاء المشركون ذوو القلوب

۱- ۱) -الزمر،الآيه ۴۵.

المظلمه،تقول الآيه إنّ الحاكميه تختص بذات اللّه سبحانه و تعالى: فَالْحُكْمُ لِلّٰهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ إذ لا يوجد غيره قاض و حاكم فى محكمه الآخره،و لا يوجد غيره على و كبير،فلا يستطيع أحد أن يغلبه أو أن يؤثّر عليه أو على حكمه بفديه أو غرامه أو وساطه،فالحاكم المطلق هو،و الجميع يطيعونه،و لا يوجد طريق للهرب من حكمه.

ملاحظه

اشاره

الدعاء البعيد عن الإجابه!

ليست هذه المرّه الأولى التى تواجهنا فيها طلبات أهل النّار أو الكفار الذين يريدون العوده إلى هذه الدنيا،فيكون الجواب بالنفى.

لقد طرحت الآيات بالقرآنيه هذا الموضوع عدّه مرّات.

ففى سوره الشورى الآيه(۴۴)نقرأ أن الظالمين بعد أن يروا العذاب يقولون:

هَلْ إِلىٰ مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ .

و فى الآيه(۵۸)من سوره الزمر،ورد على لسان المذنبين و غير المؤمنين عند رؤيتهم العذاب: أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذٰابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ .

و فى الآيه(۱۰۷)من سوره«المؤمنون»نقرأ قوله تعالى حكايه على لسان أمثال هؤلاء القوم: رَبَّنٰا أَخْرِجْنٰا مِنْهٰا فَإِنْ عُدْنٰا فَإِنّٰا ظٰالِمُونَ .

مجموعه أخير عند ما يحل بها الموت و ترى ملائكه الموت تطلب من اللّه تعالى العوده فتقول: رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صٰالِحاً فِيمٰا تَرَكْتُ (۱) .

إلّا أنّ هذه الطلبات تردع دوما بكلمه«كلّا»أو ما شابه ذلك.

۱- ۱) -المؤمنون،الآيتان ۹۹-۱۰۰.

و بذلک یتضح أنّ المفهوم القرآنی یؤکّد علی أنّ الحیاه فی هذه الدنیا هی تجربه لا یمکن تکرارها بالنسبه للشخص،لذا یجب إبعاد هذا الوهم من العقول بأنّنا إذا متنا و واجهنا العذاب فسوف نعود الی هذه الدنیا و نجبر ما فات حیث لا إمکان للعوده إلی هذه الحیاه بعد الموت.

و ملاک هذا الأمر واضح،ففی قانون التکامل لا یمکن الرجوع و العوده،کما لا یمکن عوده الطفل إلی بطن أمّه وفقا لهذا القانون،سواء کان هذا الطفل قد اکتمل نموه فی بطن أمه أو لم یکتمل و ولد ناقصا،إذ العوده غیر ممکنه أصلا.

کذلک الموت الذی هو فی الواقع ولاده ثانویه،و انتقال من عالم الدنیا هذه إلی عالم آخر،و هناک تعتبر العوده ضربا من المحال.

إضافه إلی ذلک لا یمکن اعتبار الیقظه الاضطراریه التی تنتاب الناس-الذین تتحدث عنهم الآیه-دلیلا علی الاقتناع أو الیقظه الحقیقیه،إذ عند ما تخف أسبابها سیعود النسیان و الغفله مره اخری،و سیتم تکرار نفس الأعمال،کما نری ذلک واضحا فی هذه الدنیا لدی الکثیر من الناس الذین یتوجهون إلی خالقهم عند ما تضیق علیهم الحیاه،و یلجون أبواب التوبه،إلاّ أنّهم بمجرّد هدوء العواصف ینسون کل شیء و کأنّهم لم یدعوا اللّه إلی ضر مسّهم!!

ص:۲۱۵

الآیات [سوره غافر (۴۰): الآیات ۱۳ الی ۱۵]

اشاره

هُوَ اَلَّذِی یُرِیکُمْ آیٰاتِهِ وَ یُنَزِّلُ لَکُمْ مِنَ اَلسَّمٰاءِ رِزْقاً وَ مٰا یَتَذَکَّرُ إِلاّٰ مَنْ یُنِیبُ (۱۳) فَادْعُوا اَللّٰهَ مُخْلِصِینَ لَهُ اَلدِّینَ وَ لَوْ کَرِهَ اَلْکٰافِرُونَ (۱۴) رَفِیعُ اَلدَّرَجٰاتِ ذُو اَلْعَرْشِ یُلْقِی اَلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلیٰ مَنْ یَشٰاءُ مِنْ عِبٰادِهِ لِیُنْذِرَ یَوْمَ اَلتَّلاٰقِ (۱۵)

التّفسیر

اشاره

ادع اللّه وحده رغما علی الکافرین:

هـذه الآیـات المتضـمنه للنصـیحه و التهدیـد و الإنـذار اسـتدلال علی المسائـل المطروحه فی الآیـات السابقه،فهی اسـتدلال علی التوحید و الرّبوبیه و نفی الشرک و عباده الأصنام.

تقول الآیه أوّلا: هُوَ الَّذِی یُرِیکُمْ آیٰاتِهِ .

فهی نفس الآیـات و العلائـم الآفـاقیه و الأنفسـیه التی تملأ عالم الوجود، و تسـتوعب بإشـراقتها أرکانه،و تضع بصـماتها و آثارها العجیبه علی جدران الوجود و جمیع أرجاءه.

ثم توضح واحده من هذه الآیات: وَ یُنَزِّلُ لَکُمْ مِنَ السَّمٰاءِ رِزْقاً .

قطرات المطر تعطى الحياه،و نور الشمس يحيى الكائنات،و الهواء سرّ الوجود و الحياه،حياه جميع الكائنات،حيوانات نباتات،أناس...كلّها تنزل من السماء.و تشكّل هذه الأثافى الثلاث فيما بينها قوام الحياه،حيث تتفرع الأشياء الأخرى من أصولها.

بعض المفسّرين أطلق على السماء اسم«عالم الغيب»و على الأرض اسم «عالم الشهود»و نزول الرزق من السماء إلى الأرض هو بمعنى الظهور من عالم الغيب إلى عالم الشهود.

و لكن هذا التّفسير فضلا عن منافاته لظاهر الآيه،لم نعثر له على دليل و شاهد، صحيح أنّ الوحى و الآيات،هما غذاء الروح،ينزلان من سماء الغيب،و أنّ المطر و الشمس و النور التى تعتبر غذاء الجسد تنزل من السماء الظاهريه،و هما متناسقان مع بعضهما.و لكن ينبغى أن لا نتصوّر أن عباره(آياته)التى نحن بصددها تشير إلى مفهوم أوسع،أو تشير بالخصوص إلى الآيات التشريعيه،لأنّ عباره يُرِيكُمْ آيٰاتِهِ وردت مرارا فى القرآن الكريم،و هى عاده ما تطلق على الآيات الداله على التوحيد فى عالم الوجود.

مثلا،فى أواخر هذه السوره(المؤمن)و بعد ذكر النعم الإلهيه،من قبيل الزواحف و الفلك تقول: وَ يُرِيكُمْ آيٰاتِهِ فَأَيَّ آيٰاتِ اللّٰهِ تُنْكِرُونَ (١) .

إنّ تعبير«يريكم»ينسجم فى العاده مع الآيات التكوينيه،بينما جرت العاده فى الآيات التشريعيه على استخدام تعابير مثل(أوحى)و(يأتيكم).

من هنا يتبيّن أنّ اعتبار هذه الآيات بمعنى الآيات التشريعيه،و أنّها أعم من التشريعيه و التكوينيه،كما يذهب بعض كبار المفسّرين القدماء و المحدثين إلى ذلك،لا يستند إلى دليل،و لا تقوم عليه حجّه.

و لكن من الضرورى أن نلتفت إلى أنّ القرآن يختار الإشاره إلى آيه الرزق

۱- ۱) -المؤمن،الآيه ۸۱.

من بین آیات اللّه المبثوثه فی السماء و الأرض و فی وجود الإنسان،ذلک لأنّ الرزق هو أکثر ما یشغل البال و الفکر،و أحیانا نری الإنسان یستنجد بالأصنام من أجل زیاده الرزق،و إنقاذه من وضعه المتردی،لذا یأتی القرآن لیؤّکد أن جمیع الأرزاق هی بید اللّه و لا تستطیع الأصنام أو غیرها أن تفعل أی شیء.

و أخیرا تضیف الآیه الکریمه:برغم جمیع هذه الآیات البینات التی تسود هذا العالم الواسع،و تغمد الوجود بضیائها،إلاّ أنّ العیون العمیاء و القلوب المحجوبه لا تکاد تری شیئا،و إنّما یتذکر-فقط-من ینیب إلی خالقه و یغسل قلبه و روحه من الذنوب: وَ مٰا یَتَذَکَّرُ إِلاّٰ مَنْ یُنِیبُ .

الآیه التی بعدها ترتب نتیجه علی ما سبق فتقول: فَادْعُوا اللّٰهَ مُخْلِصِینَ لَهُ الدِّینَ انهضوا و اضربوا الأصنام و حطموها بفؤوس الإیمان،و امحوا آثارها من ذاکره الفکر و الثقافه و المجتمع.

و من الطبیعی أنّ وقفتکم الرّبانیه هذه ستؤذی الکافرین و المعاندین،لکن علیکم أن لا تسمحوا للخوف أن یسترّب الی قلوبکم،أخلصوا نیّاتکم: وَ لَوْ کَرِهَ الْکٰافِرُونَ .

ففی المجتمع الذی یشکل فیه عبده الأصنام الغالبیه،یکون طریق أهل التوحید موحشا فی بادئ الأمر،مثل شروق الشمس فی بدایات الصباح الأولی وسط عالم الظلام و الخفافیش،لکن علیکم أن لا ترکنوا إلی ردود الأفعال غیر المدروسه،تقدموا بحزم و إصرار،و ارفعوا رایه التوحید و الإخلاص،و انشروها فی کلّ مکان.

تصف الآیه التی تلیها خالق الکون و مالک الحیاه و الموت،بعض الصفات المهمّه،فتقول: رَفِیعُ الدَّرَجٰاتِ فهو تعالی یرفع درجات العباد الصالحین کما فی قوله تعالی: یَرْفَعِ اللّٰهُ الَّذِینَ آمَنُوا مِنْکُمْ وَ الَّذِینَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجٰاتٍ (۱) .

۱- ۱) -المجادله،الآیه ۱۱.

و حتی بین النّبیین فقد فضّل اللّه بعضهم علی بعض بسبب اجتیازهم للامتحان و الاختبار أکثر من غیرهم،فأخلصوا للّه تعالی بمراتب أعلی و أفضل: تِلْکَ الرُّسُلُ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلی بَعْضٍ (1) .

لقد استخلف اللّه الإنسان فی هذه الأرض،و جعل منه خلیفته،و فضّل البعض علی البعض الآخر وفقا لاختلاف الخصائص و القابلیات لدی الإنسان: وَ هُوَ الَّذِی جَعَلَکُمْ خَلائِفَ الْأَرْضِ وَ رَفَعَ بَعْضَکُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ (2) .

فإذا کانت الآیه السابقه قد دعت إلی الإخلاص فی الدین،فإنّ الآیه التی بین أیدینا تقول:إنّ اللّه تبارک و تعالی سوف یرفع درجاتکم بمقدار إخلاصکم،فهو رفیع الدرجات.

إنّ صحه کلّ هذه المعانی منطوه بتفسیر(رفیع)بالرافع،إلاّ أنّ البعض ذهب إلی أنّ(رفیع)فی الآیه بمعنی(المرتفع)و بناء علی هذا المعنی فإنّ رَفِیعُ الدَّرَجاتِ تشیر إلی الصفات العالیه الرفیعه للّه تعالی،فهو رفیع فی علمه ،و فی قدرته،و فی جمیع أوصافه الکمالیه و الجمالیه،هو تعالی رفیع فی أوصافه بحیث أنّ عقل الإنسان برغم قابلیته و استعداده لا یستطیع أن یدرکها.

و بحکم أنّ اللغه تعطی صلاحیه متساویه للمعنیین الآنفین لکلمه(رفیع)فإنّ التّفسیرین واردان،و لکن لأنّ الآیه تتحدث عن إعطاء الأجر لعباد اللّه الصالحین، و الذی هو الدرجات الرفیعه،لذا فإنّ المعنی الأوّل أظهر.

لکن لا مانع من الجمع بین التّفسیرین،لأننا نعتقد جواز استخدام اللفظ لأکثر من معنی،خصوصا فی إطار الآیات التی تشتمل ألفاظها علی معانی کبیره و واسعه.

تضیف الآیه بعد ذلک قوله تعالی: ذُو الْعَرْشِ .

1- 1) -البقره،الآیه 253.

2- 2) -الأنعام،الآیه 165.

فکل عالم الوجود تحت حکومته و فی قبضته،و لا منازع له فی حکومته، و هذا بحد ذاته ذلیل علی أنّ تحدید درجات العباد حسب أفضلیتهم إنّما یتمّ بقدرته تعالی.

و بما إنّنا تحدثنا بالتفصیل عن«العرش»فلا حاجه هنا للتکرار.

و فی وصف ثالث تضیف الآیه أنّه هو تعالی الذی: یُلْقِی الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلیٰ مَنْ یَشاءُ مِنْ عِبادِهِ و هذه الروح هی نفس القرآن و مقام النبوّه و الوحی،حیث تحیی هذه الأمور القلوب،و تکون فی الإنسان کالروح بالنسبه لجسد الإنسان.

إنّ قدرته من جانب،و درجاته الرفیعه من جانب آخر،تقتضی أن یعلن عزّ و جلّ عن برنامجه و تکالیفه عن طریق الوحی،و هل ثمّه تعبیر أجمل من الروح،هذه الروح التی هی سرّ الحیاه و الحرکه و النشاط و التقدم.

لقد ذکر المفسّرون احتمالات متعدّده لمعنی الروح، لکن من خلال القرائن الموجوده فی الآیه،و ممّا تفیده الآیه(۲)من سوره«النحل»التی تقول: یُنَزِّلُ الْمَلاٰئِکَهَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلیٰ مَنْ یَشاءُ مِنْ عِبادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ أَنَا فَاتَّقُونِ و کذلک ممّا تفیده آیه(۵۲)من سوره«الشوری»التی تخاطب الرّسول صلّی اللّه علیه و اله و سلّم و توضح له نزول القرآن و الإیمان و الروح بقوله تعالی: وَ کَذٰلِکَ أَوْحَیْنٰا إِلَیْکَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنٰا مٰا کُنْتَ تَدْرِی مَا الْکِتٰابُ وَ لاَ الْإِیمٰانُ من کلّ ذلک یتبیّن أنّ المقصود بالروح فی الآیه التی نحن بصددها،هو الوحی و القرآن و التکلیف الإلهی.

تفید عباره(من أمره)أنّ ملک الوحی المکلّف بإبلاغ هذه الروح،إنّما یتحدث و یتکلّم بأمر اللّه لا من عند نفسه.

أمّا قوله تعالی: عَلیٰ مَنْ یَشٰاءُ مِنْ عِبٰادِهِ فلا تعنی أنّ هبه الوحی تعطی لأی کان،لأن مشیئته تعالی هی عین حکمته،و کل من یجده مؤهلا لهذا المنصب یخصه بهذا الأمر،کما نقرأ فی الآیه(۱۲۴)من سوره الأنعام حیث قوله تعالی: اَللّٰهُ أَعْلَمُ

حَيْثُ يَجْعَلُ رِسٰالَتَهُ .

و عند ما نجد بعض الرّوايات المرويه عن أهل البيت عليهم السّلام تفسّر الروح فى الآيه أعلاه ب«روح القدس»و تخصّها بالنبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم و الأئمّه المعصومين من أهل البيت عليهم السّلام،فإنّ ذلك لا يتعارض مع ما قلناه،لأنّ«روح القدس»هى نفس الروح العلويه المقدسه و المنصب المعنوى العظيم الذى يتجسّد كاملا فى الأنبياء و الأئمّه المعصومين عليهم السّلام،و كثيرا ما يتجلّى جزء منها فى الأشخاص الآخرين الذى متى ما ساعدتهم فيوضات روح القدس فإنّه سيقومون بأعمال مهمّه،و تنطق لسانهم بالحكمه.(لمزيد من التوضيح يمكن مراجعه تفسير الآيه ٨٧ من سوره البقره).

و الملفت للنظر هنا أنّ الآيات السابقه كانت تتحدث عن رزق الأجساد من مطر و نور و هواء، فيما تتحدث هذه الآيات عن الرزق«الروحى»و المعنوى المتمثل فى نزول الوحى.

و الآن لنرى ما هو الهدف من إنزال روح القدس على الأنبياء عليهم السّلام،و لماذا يسلك الأنبياء هذه الطرق الطويله المليئه بالعقبات و الصعاب.

الإجابه يقدمها القرآن فى نهايه الآيه بقوله: لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاٰقِ .

أنّه اليوم الذى يلتقى فيه العباد بخالقهم...

إنّه اليوم الذى يلتقى فيه السابقون باللاحقين...

إنّه اليوم الذى يجمع على ساحه القيامه بين رموز الحق و قادته،و رموز الباطل و زعامته و أنصاره...

إنّه يوم لقاء المستضعفين بالمستكبرين...

إنّه يوم التقاء الظالم و المظلوم...

هو يوم التقاء الإنسان و الملائكه...

و أخيرا،يوم التلاق،هو يوم التقاء الإنسان مع أعماله و أقواله فى محكمه

العدل الإلهى.

إذا،هـدف بعثه الأنبيـاء و نزول الكتب السـماويه هو تحـذير الإنسـان من يوم التلاقـى الكبير...إنّه لاـسم عجيب(يوم التلاق)الـذى انتخبته الآيه اسما ليوم القيامه!

ص :٢٢٢

الآيتان [سوره غافر (۴۰): الآيات ۱۶ الى ۱۷]

اشاره

يَوْمَ هُمْ بٰارِزُونَ لاٰ يَخْفىٰ عَلَى اَللّٰهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ اَلْمُلْكُ اَلْيَوْمَ لِلّٰهِ اَلْوٰاحِدِ اَلْقَهّٰارِ (۱۶) اَلْيَوْمَ تُجْزىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمٰا كَسَبَتْ لاٰ ظُلْمَ اَلْيَوْمَ إِنَّ اَللّٰهَ سَرِيعُ اَلْحِسٰابِ (۱۷)

التّفسير

اشاره

يوم التلاقى!

هذه الآيات و التى تليها،هى توضيح و تفسير(ليوم التلاق)و هو اسم ليوم القيامه.

فى هاتين الآيتين تمّ ذكر بعض خصوصيات القيامه و كلّ واحده أكثر إثاره من الأخرى.

يبيّن تعالى أن يوم التلاقى،هو: يَوْمَ هُمْ بٰارِزُونَ ...إنّه اليوم الذى تزول فيه جميع الحجب و الأستار، و كتوطئه له ستزول الموانع الماديه كالجبال الراسيات مثلا،و تصبح الأرض قٰاعاً صَفْصَفاً كما يصفها القرآن فى الآيه(۱۰۶)من سوره طه».

و من جانب آخر سيخرج الناس من قبورهم،ثمّ تنكشف الأسرا الباطنيه

و المخفيه: يَوْمَ تُبْلَى السَّرٰائِرُ (١) .

و يوم تخرج الأرض ما تطويه فى بطونها: وَ أَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقٰالَهٰا (٢) .

و يوم تنشر صحف الأعمال و ينكشف محتواها: وَ إِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ (٣) .

فى يوم التلاق تتجسّد الأعمال التى اقترفها الإنسان و تبدو حاضره أمامه:

يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مٰا قَدَّمَتْ يَدٰاهُ

(۴)

.

و فى ذلك اليوم تنكشف الأسرار التى كان يطويها الإنسان بداخله و يتكتم عليها: بَلْ بَدٰا لَهُمْ مٰا كٰانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ (۵) .

و فى ذلك اليوم المهول ستشهد الأعضاء على أعمال الإنسان،و ستشهد- أيضا-الأرض و تكشف ما ارتكب عليها: يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبٰارَهٰا (۶) .

فى ذلك اليوم سيطوى الكون،و سيظهر الإنسان بكل وجوده،و يبرز الكون و ما عليه،و لا تبقى من خافيه: وَ بَرَزُوا لِلّٰهِ جَمِيعاً (٧) .

إنّه منظر مهول و مشهد موحش!! و يكفينا لتصور هول ذلك اليوم نتخيّل...و لو للحظه واحده...منظر هذه الدنيا و قد حلّت بها شرائط القيامه؟لنرى أىّ فزع سينتاب البشريه و تحل بها!و كيف تتقطع العلائق و الروابط فى ذلك اليوم لذلك على الإنسان أن يستعد، و أن يعيش بشكل لا يخشى فيه انكشاف المستور من أوضاعه،و أن تكون أعماله و أفعاله بحيث لا يقلق منها لو ظهرت و انكشفت أمام الملأ.

الوصف الثّانى لذلك اليوم المهول،هو انكشاف أمر الناس بحيث لا يخفى

١- ١) -الطارق،الآيه ٩.

٢- ٢) -الزلزال،الآيه ٢.

٣- ٣) -التكوير،الآيه ١٠.

۴- ۴) -النبأ،الآيه ۴٠.

۵- ۵) -الأنعام،الآيه ٢٨.

۶- ۶) -الزلزال،الآيه ۴.

٧- ٧) -إبراهيم،الآيه ٢١.

شیء منها علی اللّه تعالی: لاٰ یَخْفیٰ عَلَی اللّٰهِ مِنْهُمْ شَیْءٌ .

بالطبع...فی هـذه الحیاه لا یخفی من أمر الإنسان شـیء علی اللّه العالم المطلق،إذ یتساوی لذی ذاته المطلقه غیر المتناهیه المخفی و الظاهر،و الشاهد و الغائب.فلما ذا-إذا-ذکر القرآن الجمله أعلاه علی أنّها تفسـیر لجمله یَوْمَ هُمْ بٰارِزُونَ ؟ إن سـبب ذلک یعود إلی أنّ«البروز»فی ذلک الیوم یکون مؤکّدا أکثر،بحیث أنّ الآخرین سـیطّلعون علی أسـرار بعضهم البعض.أمّا بالنسبه للّه فالمسأله لا تحتاج إلی بحث أو کلام.

الخصوصیه الثّالثه لیوم التلاقی هو انبساط الحاکمیه المطلقه للّه تعالی،و یظهر ذلک من خلال نفس الآیه التی تسأل عن الحکم و الملک فی ذلک الیوم: لِمَنِ الْمُلْکُ الْیَوْمَ ؟ یأتی الجواب: لِلّٰهِ الْوٰاحِدِ الْقَهّٰارِ .

من الذی یطرح السؤال،و من الذی یجیب علیه؟ الآیه لا تتحدّث عن ذلک،و التفاسیر مختلفه فی هذا الصدد.

ذهب البعض الی أنّ السؤال یطرح من قبل اللّه جلّ و علا،أمّا الجواب فیأتی من الجمیع،مؤمنین و کافرین (1) .

و ذهب آخرون الی أن السؤال و الجواب کلاهما من قبل الخالق عزّ و جلّ (2) .

قسم ثالث یعتقد أنّ«المنادی الإلهی»هو الذی یطرح السؤال،و هو الذی یجیب علیه.

و لکن یبـدو من الظاهر أنّ هـذا السؤال و جوابه لا یطرحان من قبل فرد معین، بل هو سؤاله یطرحه الخالق و المخلوق،الملائکه و الإنسان،المؤمن و الکافر،

1- 1) -مجمع البیان،أثناء تفسیر الآیه.

2- 2) -المیزان:ذیل الآیه مورد البحث.

تطرحه جميع ذرات الوجود،و كلّهم يجيبون عليه بلسان حالهم،بمعنى أنّك أينما تنظر تشاهد آثار حاكميته،و أينما تدقق ترى علائم قاهريته واضحه.

فلو أصحت السمع إلى أى ذره من ذرات الوجود،لسمعتها تقول: لِمَنِ الْمُلْكُ و فى الجواب تسمعها نفسها تقول: لِلّهِ الْواحِدِ الْقَهّارِ .

و قد نرى فى هذه الدنيا نموذجا مصغرا لذلك،فعند ما ندخل إلى بيت أو مدينه أو بلد معين،فإنّنا نحسن بقدره شخص معين،و بانبساط حاكميته،و كأنّ الجميع يقولون-كلّ بلسان حاله-إنّ المالك أو الحاكم هو فلان،و تشهد على ذلك حتى الجدران!! و بالطبع،فى هذا اليوم أيضا تطغى الحاكميه الإلهيه على كلّ شىء،و تبسط قدرتها فى كلّ الأرجاء،لكن فى يوم القيامه سيكون لها ظهور و بروز من نوع جديد،فهناك لا يوجد كلام عن حكومه الجبارين،و لا نسمع ضجيج الطواغيت السكارى،و لا نرى أثرا لإبليس و جنوده و جيوشه من الإنس و الجن.

الخصوصيه الرابعه لذلك اليوم،هو كونه يوم جزاء: اَلْيَوْمَ تُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ .أجل،إن ظهور و بروز الاحاطه العلميه للّه تعالى و حاكميته و مالكيته و قهاريته كلها أدله واضحه على هذه الحقيقه العظيمه المخيفه من جهه،و المفرحه من جهه اخرى.

أمّا الخصوصيه الخامسه لذلك اليوم،فهى ما يختصره قوله تعالى: لا ظُلْمَ الْيَوْمَ .

و كيف يمكن أن يحصل الظلم،فى حين أن الظلم إمّا أن يكون عن جهل،و اللّه عز و جل قد أحاط بكل شىء علما.

و إمّا أن يكون عن عجز،و اللّه عز و جل هو القاهر و المالك و الحاكم على شىء،لذا لا مجال لظلم أحد فى محضر القدس الإلهى و فى ساحه القضاء الإلهى العادل.

الصفه السادسه و الأخیره لیوم التلاقی،هی سرعه الحساب لأعمال العباد، کما نقرأ ذلک فی قوله تعالی: إِنَّ اللّهَ سَرِیعُ الْحِسٰابِ .

و سرعه الحساب بالنسبه للّه تعالی تجری کلمح البصر،و هی بدرجه بحیث نقرأ عنها

فی حدیث: «إنّ اللّه تعالی یحاسب الخلائق کلّهم فی مقدار لمح البصر» (۱) .

و أساسا فإنّه مع القبول بمسأله تجسّم الأعمال و بقاء آثار الخیر و الشر فإن مسأله الحساب مسأله محلوله؟فهل أنّ الأجهزه المتطوره فی هذه الدنیا التی تحسب مقدار العمل فی أثناء العمل بحاجه الی زمان؟! و قد یکون الغرض من تکرار سَرِیعُ الْحِسٰابِ فی مواضع مختلفه من القرآن الکریم هو عدم انخداع الناس العادیین بوساوس الشیطان و إغواءاته،و من یتبعه من الذین یثیرون الشکوک بإمکانیه محاسبه الخلائق علی أعمالهم التی قاموا بها خلال آلاف سحیقه من السنین و عصور التأریخ.

إضافه إلی أنّ هذا التعبیر یستبطن معنی التحذیر لجمیع الناس بأنّ ذلک الیوم لا مجال فیه للمجرمین و الظالمین و القتله،و لا تعطی لهم الفرصه کما یحصل فی هذه الدنیا،حیث یترک ملف الظلمه و القتله لشهور و سنین.

۱- ۱) -فی مجمع البیان،نهایه الحدیث عن الآیه(۲۰۲)من سوره البقره.

الآيات [سوره غافر (۴۰): الآيات ۱۸ الى ۲۰]

اشاره

وَ أَنْذِرْهُمْ يَوْمَ اَلْآزِفَهِ إِذِ اَلْقُلُوبُ لَدَى اَلْحَنٰاجِرِ كٰاظِمِينَ مٰا لِلظّٰالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَ لاٰ شَفِيعٍ يُطٰاعُ (۱۸) يَعْلَمُ خٰائِنَهَ اَلْأَعْيُنِ وَ مٰا تُخْفِي اَلصُّدُورُ (۱۹) وَ اَللّٰهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَ اَلَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لاٰ يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اَللّٰهَ هُوَ اَلسَّمِيعُ اَلْبَصِيرُ (۲۰)

التّفسير

اشاره

يوم تبلغ القلوب الحناجر:

هذه الآيات تستمر-كالآيات السابقه-فى وصف القيامه-يوم التلاقى- و تحدّد سبع خصائص للقيامه و الحوادث المهوله و المدهشه التى تدفع بكل انسان مؤمن نحو التفكير و التأمل بالحياه و المصير.

يقول تعالى: وَ أَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَهِ .

«الآزفه»باللغه بمعنى(القريب)و يا لها من كنايه عجيبه،حيث أطلق سبحانه على يوم القيامه يوم الآزفه كى لا يظن الجهله أن هناك فتره طويله تفصلهم عن ذلك اليوم،فلا ينبغى-و الحال هذه-أن ينشغل المرء بالتفكير به! و إذا نظرنا بتأمّل فسنجد أنّ عمر الدنيا بأجمعه لا يعادل سوى لحظه زائله

حيال يوم القيامه،و لأنّ اللّه تبارك و تعالى لم يذكر أىّ تأريخ لهذا اليوم المهول، حتى للأنبياء عليهم السّلام،لذا يجب الاستعداد دائما لاستقبال ذلك اليوم.

الوصف الثّانى ليوم الأزفه هو: إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ من شده الخوف.

فعند ما تواجه الإنسان الصعويات يشعر و كأنّ قلبه يفر من مكانه،و كأنّه يريد أن يخرج من حنجرته،و العرب فى ثقافتها اللغويه التى نزل بها القرآن تطلق على هذه الحاله وصف«بلغت القلوب الحناجر».

و يمكن أن يكون(القلب)كنايه عن(الروح)بمعنى أنّ روحه بلغت حنجرته هلعا و خوفا،كأنما تريد أن تفارق بدنه تدريجيا و لم يبق منها سوى القليل.

إنّ هول الخوف من الحساب الإلهى الربانى الدقيق،و الخشيه من الافتضاح و انكشاف الستر و الحجب أمام جميع الخلائق،و تحمّل العذاب الأليم الذى لا يمكن الخلاص منه،كلّ هذه أمور سيواجهها الإنسان و لا يمكن وصفها و شرحها بأى بيان.

الصفه الثّالثه لذلك اليوم تعبر عنها الآيه ب كاظِمِينَ أى إنّ الهم و الغم سيشمل كل وجودهم،إلاّ أنّهم لا يستطيعون إظهار ذلك أو إبداءه.

«كاظم»مشتقّه من«كظم»و هى فى الأصل تعنى غلتى فوهه القربه المملوءه بالماء،ثمّ أطلقت بعد ذلك على الأشخاص المملوئين غضبا إلاّ أنّهم لا يظهرونه لسبب من الأسباب.

قد يستطيع الإنسان المغموم المحزون أن يهدأ او يستريح بالصراخ،لكن المصيبه حينما لا يستطيع هذا الإنسان حتى عن الصراخ...فما ذا ينفع الصراخ فى محضر الخالق جلّ و علا و فى ساحه عدله و عند ما تنكشف جميع الأسرار امام جميع الخلائق.

الصفه الرّابعه ليوم التلاقى هو يوم: مٰا لِلظّٰالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ .أى صديق نعم،أنّ تلك المجموعه من الأصدقاء الكاذبين التى تحيط بالشخص كذبا و تملقا-كما

يحيط بالـذباب بالحلويات-طمعا فى مقامه و قدرته و جاهه و ماله.إنّ هؤلاء فى هذا اليوم مشـغولون بأنفسـهم لا ينفعون أحدا...و هو يوم لا تنفع فيه لا صداقه و لا خلّه.

الصفه الخامسه تقول عنها الآيه: وَ لاٰ شَفِيعٍ يُطٰاعُ .

ذلك أنّ شـفاعه الشـفعاء الحقيقيين كالأنبياء و الأولياء إنّما تكون بإذن اللّه تعالى،و على هـذا الأساس لا مجال لتلك التصورات السقيمه لعبده الأصنام،الذين كانوا يعتقدون فى الحياه الدنيا أنّ أصنامهم ستشفع لهم فى حضره اللّه جلّ و علا.

و فى المرحله السادسه تـذكر الآيه أحد صـفات الخالق جلّ و علا،و التى تعتبر فى نفس الوقت وصـفا لكيفيه القيامه،حيث تقول: يَعْلَمُ خٰائِنَهَ الْأَعْيُنِ وَ مٰا تُخْفِي الصُّدُورُ (١) .

إنّ اللّه تبـارك و تعـالى يعلم الحركـات السـريه للعيون و مـا تخفيه الصـدور من أسـرار،و سـيقوم تعالى بالحكم و القضاء العادل عليها،و هو بعلمه سيجعل صباح الظالمين المذنبين مظلما.

و عند ما سئل الإمام الصادق عليه السّلام عن معنى الآيه فأجاب:

«ألم تر إلى الرجل ينظر إلى الشيء و كأنّه لا ينظر إليه،فذلك خائنه الأعين» (٢) . أي يوهم أنّه لا ينظر إليه.

قـد يتأول البعض بنظره إلى أعراض الناس و إلى ما يحرم النظر إليه،و قد يسـتطيع الفاعل أن يخفى فعلته عن الآخرين،لكن ذلك لا يخفى عن علم اللّه المحيط بكل ذرات الوجود إذ: لاٰ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقٰالُ ذَرَّهٍ فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ لاٰ فِي الْأَرْضِ

---

١ - ١) -هنـاك احتمالاـن مـن حيث الـتركيب النحوى لجمله«يعلم خـائنه الأـعين»:الأـول:أن(خـائنه)لهـا معنى مصـدرى و تعنى الخيـانه(مثـل كاذبه و لاغيه بمعنى كـذب و لغو).و يحتمل أن تكون(اسم فاعل)من باب تقـديم الصـفه،أى أنها تعنى فى الأصـل (الأعين الخائنه).

٢- ٢) -تفسير الصافى أثناء الحديث عن الآيه.

(۱)

.

و قد روى أنّه(لما جىء بعبد اللّه بن أبى سرح إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم بعد ما اطمأن أهل مكّه و طلب له الأمان عثمان صمت رسول اللّه طويلا ثمّ قال(نعم)فلما انصرف

قال رسول اللّه لمن حوله: «ما صمّت طويلا- إلاّ ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه»فقال رجل من الأنصار:فهلا أو أومأت إلىّ يا رسول اللّه،فقال:«إن النّبى لا تكون له خائنه الأعين» (۲) .

و بالطبع فإنّ لخيانه العين أشكال مختلفه،إذ تتمثل فى بعض الأحيان باستراق النظر إلى ما يحرم كالنساء و غيرهن،و أحيانا تتمثل بإشارات معينه للعين تهدف تحقير الآخرين و الاستهزاء بكلامهم.و قد تكون حركات العين مقدمه المخططات شيطانيه ضدّ الآخرين.

إنّ من يؤمن بالحساب الدقيق فى الآخره،عليه أن يراعى حدود التقوى فى خائنه الأعين و خطرات الفكر،و واضح أنّ استحضار عناصر الرقابه هذه لها مؤدّاها التربوى الكبير فى سلوك الإنسان و حياته.

و فى قصص الوعظ المتداوله فى مجالس العلماء،يقال أن أحد كبار العلماء عند ما أنهى دراسته الدينيه فى النجف الأشرف،طلب من أستاذه عند ما أراد الرجوع إلى بلده أن يعظه و ينصحه،فقال له الأستاذ:بعد كلّ هذا التعب و تحمّل مضايق الدراسه و التحصيل فإنّ آخر نصيحتى لك هى أن لا تنسى أبدا قوله تعالى أَ لَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللّٰهَ يَرىٰ (۳) .

المؤمن الحقيقى يعتبر العالم كلّه حاضرا عند اللّه تعالى،و إنّ كلّ الأعمال تتمّ فى حضوره،و ينبغى لهذا الحضور الإلهى أن يكون رادعا كافيا للخجل و الكف

۱- ۱) -سبأ،الآيه ۳.

۲- ۲) -تفسير القرطبى ذيل الآيه.

۳- ۳) -العلق،الآيه ۱۴.

عن المعاصی و الذنوب.

الآیه التی تلیها تتحدث عن صفه سابعه للقیامه تتمثل فی قوله تعالی: وَ اللّٰهُ یَقْضِی بِالْحَقِّ .

أمّا غیره: وَ الَّذِینَ یَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لاٰ یَقْضُونَ بِشَیْءٍ .

فی ذلک الیوم یختص اللّه وحده بالقضاء،و هو جلّ جلاله لا یقضی إلاّ بالحق، لأنّ القضاء بغیر الحق-بالظلم مثلا و الانحیاز-إمّا أن یعود إلی الجهل و عدم المعرفه،و اللّه محیط بکل شیء،حتی بما یموج فی الضمائر و ما تکنّه السرائر.أو أنّه یکون نتیجه للعجز و الاحتیاج،و هذه صفات هی أبعد ما تکون عن ذات اللّه جلّ جلاله.

إنّ هذا التعبیر یحمل فی مؤدّاه دلیلا کبیرا علی توحید المعبود و العباده،لأنّ من یکون له حق القضاء فی النهایه یستحق العباده حتما أمّا الأصنام التی لا تنفع شیئا فی هذا العالم،و لا تکون فی القیامه مرجعا للحکم و القضاء،فکیف تستحق العباده.

و من الضروری أن نشیر أیضا إلی أنّ للحکم و القضاء بالحقّ معانی واسعه،إذ هی تشمل عالم التکوین و عالم التشریع،حیث،وردت کلمه«قضی»فی الآیات القرآنیه لتشمل المعنیین،ففی مکان نقرأ قوله تعالی: وَ قَضیٰ رَبُّکَ أَلاّٰ تَعْبُدُوا إِلاّٰ إِیّٰاهُ (1) حیث تنطوی الآیه علی القضاء التشریعی.و فی آیه اخری نقرأ قوله تعالی: إِذٰا قَضیٰ أَمْراً فَإِنَّمٰا یَقُولُ لَهُ کُنْ فَیَکُونُ (2) .

و فی الختام و للتأکید علی المطالب المذکوره فی الآیات السابقه تضیف الآیه (إن اللّه هو السمیع البصیر).

١- ١) -الإسراء،الآیه ٢٣.

٢- ٢) -آل عمران،الآیه ۴٧.

فهو تعالى سـميع و بصير بمعنى الكلمه،أى إنّ كلّ المسموعات و المبصرات حاضره عنده،و هذا تأكيد على إحاطته و علمه بكل شىء،و قضاوته بالحق،إذ ما لم يكن الشخص سميعا و بصيرا مطلقا فلا يستطيع أن يقضى بالحق،

الآيتان [سوره غافر (۴۰): الآيات ۲۱ الى ۲۲]

اشاره

أَ وَ لَمْ يَسِيرُوا فِي اَلْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كٰانَ عٰاقِبَةُ اَلَّذِينَ كٰانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كٰانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ آثٰاراً فِي اَلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اَللّٰهُ بِذُنُوبِهِمْ وَ مٰا كٰانَ لَهُمْ مِنَ اَللّٰهِ مِنْ وٰاقٍ (۲۱) ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كٰانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنٰاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اَللّٰهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ اَلْعِقٰابِ (۲۲)

التّفسير

اشاره

اعتبروا بعاقبه أسلافكم الظالمين:

إنّ أسلوب القرآن الكريم فی كثير من الآيات أنّه بعد أن يتعرض لكليات القضايا الحساسه و المهمّه يمزجها ببعض المسائل الجزئيه و المحسوسه و يأخذ بيد الإنسان ليريه الحوادث الماضيه و الحاليه.لذلك فإنّ الآيات التی بين أيدينا تتحدث عن أحوال الأمم الظالمه السابقه و منهم فرعون و الفراعنه و ما حلّ بهم من جزاء أليم،و تدعوا الناس للاعتبار بمصير أولئك،بعد ما كانت الآيات السابقه قد حدّثتنا عن يوم القيامه و صفاته و طبيعه الحساب الدقيق الذی ينطوی عليه.

يقول تعالى: أَ وَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كٰانَ عٰاقِبَةُ الَّذِينَ كٰانُوا

مِنْ قَبْلِهِمْ

.

إنّ الـذی تحکیه الآیات و تـدعونا للاعتبار به لیس تأریخا مـدونا نسـتطیع أن نشـکّک فی طبیعه الوثائق و النصوص المکوّنه له،و إنّمـا هو تأریـخ حی ینطق عنه نفسه،و ینبض بالعبره و العظمه،فهـذه قصور الظالمین الخربه،و ما ترکوه،من جنات و عیون،و هـذه مـدن الأشـقیاء التی نزل بساحتها العـذاب و الانتقام الإلهی،و ها هی عظامهم النخره التی یطویها التراب،و القصور المدفونه تحت الأرض...ها هی کلّها تحکی عظمه الدرس،و عظیم العبره،خصوصا و أنّ القرآن یزیدنا معرفه بهؤلاء فیقول عنهم: کٰانُوا هُمْ أَشَـدَّ مِنْهُمْ قُوَّهً وَ آثٰاراً فِی الْأَرْضِ .

کانوا یملکون السلطات القویه،و الجیوش العظیمه،و المدنیه الباهره التی لا یمکن مقایستها بحیاه مشرکی مکّه.

إنّ تعبیر أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّهً یکشف عن قوتهم السیاسیه و العسکریه،و عن قوته الاقتصادیه و العلمیه أیضا.

أمّا التعبیر فی قوله تعالی: آثٰاراً فِی الْأَرْضِ فلعله إشاره إلی تقـدمهم الزراعی العظیم،کما ورد فی الآیه(۹)من سوره«الروم»فی قوله تعالی: أَ وَ لَمْ یَسِیرُوا فِی الْأَرْضِ فَیَنْظُرُوا کَیْفَ کٰانَ عٰاقِبَهُ الَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ کٰانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّهً وَ أَثٰارُوا الْأَرْضَ وَ عَمَرُوهٰا أَکْثَرَ مِمّٰا عَمَرُوهٰا .

و قـد یکون التعبیر القرآنی إشـاره إلی البنـاء المحکم العظیم للأـمم السـابقه،ممّـا قـاموا به فی أعمـاق الجبال و بین السـهول،کما یصف القرآن ذلک فی حال قوم «عاد»: أَ تَبْنُونَ بِکُلِّ رِیعٍ آیَهً تَعْبَثُونَ وَ تَتَّخِذُونَ مَصٰانِعَ لَعَلَّکُمْ تَخْلُدُونَ (۱) .

و لکن عاقبه هؤلاء القوم،بکل ما انطوت علیه حیاتهم من مظاهر قوّه و حیاه و نماء،هی کما یقول تعالی: فَأَخَذَهُمُ اللّٰهُ بِذُنُوبِهِمْ وَ مٰا کٰانَ لَهُمْ مِنَ اللّٰهِ مِنْ وٰاقٍ .

فلم تنفعهم کثرتهم و لم تمنعهم أموالهم و قدرتهم و شوکتهم من العذاب الإلهی

۱- ۱) -الشعراء،الآیه ۱۲۸-۱۲۹.

عند ما نزل بساحتهم.

لقـد وردت كلمـه«أخـذ»مرارا فى القرآن الكريـم بمعنى العقـاب،و هى إشـاره إلى«أخـذ»القـوم أو الجمـاعه قبـل أن ينزل بها العقاب،تماما كما يقبض أوّلا على الشخص المجرم،ثمّ يتمّ عقابه.

الآيه التى بعدها فيها تفصيل لما قيل سابقا بإيجاز،بقوله تعالى: ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كٰانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنٰاتِ فَكَفَرُوا . فلم يكن الأمر أنّهم كـانوا غـافلين و لم يعرفوا الأمر،و لم يكن كفرهم و ارتكابهم الـذنوب بسبب عـدم إتمام الحجّه عليهم، فلقـد كانت تأتيهم رسـلهم تترا،كمـا يسـتفاد من قوله تعـالى: كٰانَتْ تَأْتِيهِمْ إلاّ أنّهم لم يخضـعوا للأوامر الإلهيه،كانوا يحطمون مصابيـح الهـدايه،و يـديرون ظهورهم للرسل،و كانوا-أحيانا-يقتلونهم! و حينئـذ: فَأَخَذَهُمُ اللّٰهُ و عاقبتهم أشدّ العقاب- إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقٰابِ .إذ هو فى مواطن الرأفه أرحم الراحمين و فى مواضع الغضب أشد المعاقبين.

ص: ۲۳۶

الآيات [سوره غافر (۴۰): الآيات ۲۳ الی ۲۷]

اشاره

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسی بِآیاتِنا وَ سُلْطانٍ مُبِینٍ (۲۳) إِلی فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ قارُونَ فَقالُوا ساحِرٌ کَذّابٌ (۲۴) فَلَمّا جاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا اُقْتُلُوا أَبْناءَ اَلَّذِینَ آمَنُوا مَعَهُ وَ اِسْتَحْیُوا نِساءَهُمْ وَ ما کَیْدُ اَلْکافِرِینَ إِلاّ فِی ضَلالٍ (۲۵) وَ قالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِی أَقْتُلْ مُوسی وَ لْیَدْعُ رَبَّهُ إِنِّی أَخافُ أَنْ یُبَدِّلَ دِینَکُمْ أَوْ أَنْ یُظْهِرَ فِی اَلْأَرْضِ اَلْفَسادَ (۲۶) وَ قالَ مُوسی إِنِّی عُذْتُ بِرَبِّی وَ رَبِّکُمْ مِنْ کُلِّ مُتَکَبِّرٍ لا یُؤْمِنُ بِیَوْمِ اَلْحِسابِ (۲۷)

التّفسیر

اشاره

ذرونی أقتل موسی!!

بعد أن أشارت الآیات السابقه إلی العاقبه الألیمه للأقوام السابقه،فقد شرعت الآیات التی بین أیدینا بشرح واحده من هذه الحوادث،من خلال قصه موسی و فرعون،و هامان و قارون.

قد یبدو للوهله الأولی أنّ قصه موسی علیه السّلام مکرره فی أکثر من سوره من سور

القرآن الكريم،و لكن التأمّل فى هـذه الموارد يظهر خطأ هـذا التصوّر،إذ يتبيّن أن القرآن يتطرف الى ذكر القصه فى كلّ مرّه من زاويه معينه،و فى هـذه السـوره يتعرض القرآن للقصه من زاويه دور«مـؤمن آل فرعـون»فيهـا.و البـاقى هـو بمثـابه أرضـيه ممهّـده لحكايه هذا الدور.

يقول تعالى وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا وَ سُلْطانٍ مُبِينٍ .

أرسله تعالى: إِلى فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ قارُونَ فَقالُوا ساحِرٌ كَذّابٌ .

لقـد ذكر المفسـرون عـدّه تفاسـير فى الفرق بين«الآيـات»و«السـلطان المبين» فالبعض اعتبر«الآيات»الأدله الواضـحه،بينما«السـلطان المبين»هى المعجزات.

و البعض الآخر اعتبر«الآيات»آيات التوراه،بينما«السلطان المبين» المعجزات.

و احتمل البعض الثّالث أنّ«الآيات»تشـمل كلّ معاجز موسـى عليه السّـلام،أمّا «السلطان المبين»فهو المعاجز الكبيره كالعصا و اليد البيضاء،التى تسببت فى غلبته الواضحه على فرعون.

و منهم من اعتبر«الآيات»المعجزات،بينما فسّـر«السـلطان المبين»بالسـلطه القاهره و النفوذ الإلهى لموسـى عليه السّـلام و الذى كان سببا فى عدم قتله و عدم فشل دعوته.

لكن الملاحظ أنّ هـذه الآراء بمجموعها لا تقوم على أدله قويه واضـحه،و لكن نسـتفيد من الآيات القرآنيه الأخرى أنّ«السـلطان المـبين»يعنى-فى العـاده- الـدليل الواضـح القـوى الـذى يؤدى إلى السـلطه الواضـحه،كمـا نرى ذلـك واضـحا فى الآ ـيه(٢١)من سوره«النمل»أثناء الحديث عن قصه سـليمان عليه السّـلام و الهدهد حيث يقول تعالى على لسان سليمان: وَ تَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقالَ ما لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كانَ مِنَ الْغائِبِينَ، لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطانٍ مُبِينٍ فالسـلطان المبين هنا هو الـدليل الواضح للغيبه.

و فی الآیه(۱۵)من سوره الکهف قوله تعالی: لَوْ لاٰ یَأْتُونَ عَلَیْهِمْ بِسُلْطٰانٍ بَیِّنٍ .

أمّا«الآیات»فقد وردت فی القرآن مرارا بمعنی المعاجز.

و بناء علی هذا فإنّ«آیات»فی الآیه التی نحن بصددها تشیر إلی«معجزات موسی»بینما یشیر«سلطان مبین»إلی منطق موسی علیه السّلام القوی و أدلته القاطعه فی مقابل الفراعنه.

إنّ موسی علیه السّلام کان یزاوج بین منطق العقل،و بین الأعمال الإعجازیه التی تعتبر علامه کافیه علی ارتباطه بعالم الغیب و باللّه تعالی،و لکن فی المقابل لم یکن للفراعنه من منطق سوی اتهامه بالسحر أو الکذب.لقد اتهموه بالسحر فی مقابل الآیات و المعجزات التی أظهرها،و کذّبوه مقابل منطقه و استدلاله العقلانی علی الأمور.و هذا ما یؤید الرأی الذی اخترناه فی تفسیر«آیات»و«سلطان مبین».

و بالنسبه للطواغیت و الفراعنه لا یملکون أصلا سوی منطق الاتهام،و أسلوب إطلاق الشبهات علی رجال الحق و دعاته.

و الذی یلفت النظر فی الآیه الکریمه إشارتها إلی ثلاثه أسماء،کلّ واحد منها یرمز لشیء معین فی سیاق الحاله السائده آنذاک،و التی یمکن أن تجد مماثلاتها فی أی عصر.

«فرعون»نموذج للطغاه و العصاه و حکّام الظلم و الجور.

«هامان»رمز للشیطنه و الخطط الشیطانیه.

«قارون»نموذج للأثریاء البغاه،و المستغلین الذین لا یهمهم أی شیء فی سبیل الحفاظ علی ثرواتهم و زیادتها.

و بذلک کانت دعوه موسی علیه السّلام تستهدف القضاء علی الحاکم الظالم، و المخططات الشیطانیه لرموز السیاسه فی حاشیه السلطان الظالم،و بتر تجاوزات الأثریاء المستکبرین،و بناء مجتمع جدید یقوم علی قواعد العداله الکامله فی

المجالات السياسيه و الثقافيه و الاقتصاديه.و لكن من وقعت مصالحه اللامشروعه فى خطر!قصدوا لمقاومه هذه الدعوه الإلهيه.

الآيه التى بعدها تتعرض إلى بعض مخططات هؤلاء الظلمه فى مقابل دعوه النّبى موسى عليه السّلام: فَلَمّا جاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا اقْتُلُوا أَبْناءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَ اسْتَحْيُوا نِساءَهُمْ .

و ما نستفيده من الآيه هو أنّ قضيه قتل الأبناء و الإبقاء على النساء فقط لم يقتصر-كأسلوب طاغوتى-على الفتره التى سبقت ولاده موسى عليه السّلام فحسب، و إنّما تمّ تكرار هذه الممارسه أثناء نبوه موسى عليه السّلام، فالآيه(١٢٩)من سوره الأعراف تؤيد هذا الرأى،حيث تحكى على لسان بنى إسرائيل قولهم لموسى عليه السّلام:

أُوذِينا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنا وَ مِنْ بَعْدِ ما جِئْتَنا .

لقد صدر هذا القول عن بنى إسرائيل بعد أن قام فرعون بقتل أبناء المؤمنين منهم بدعوه موسى عليه السّلام.

و فى كلّ الأحوال،يعبّر هذا الأسلوب عن واحده من الممارسات و الخطط المشؤومه الدائمه للقدرات الشيطانيه الظالمه التى تستهدف إباده و تعطيل الطاقات الفعّاله،و ترك غير الفاعلين للإفاده منهم فى خدمه النظام.

لقد كان«بنور إسرائيل»قبل موسى عليه السّلام عبيدا للفراعنه،لذلك لم يكن من العجيب أن تبادر سلطات فرعون بعد بعثه موسى عليه السّلام و شيوع دعوته إلى اعتماد الخطه المعاديه فى قتل الأبناء و استحياء النساء،بهدف الانتقام و الإباده الشديده لبنى إسرائيل كى تتعطل فيهم عوامل الصمود و المقاومه.

و لكن ما هى نتيجه كلّ هذا الكيد؟ القرآن يجيب: وَ ما كَيْدُ الْكافِرِينَ إِلاّ فِى ضَلالٍ .

أعمالهم سهام تطلق فى ظلام الجهل و الضلال فلا تصيب سوى الحجاره!لقد قضى اللّه تعالى بمشيئته أن ينتصر الحق و أهله،و أن يزهق الباطل و أنصاره.

لقد اشتد الصراع بين موسى علیه السّلام و أصحابه من جانب،و بین فرعون و أنصاره من جانب آخر.و وقعت حوادث کثیره،لا یذکر القرآن عنها کثیرا فی هذه الفقره، و لتحقیق هدف خاص یذکر القرآن أنّ فرعون قرّر قتل موسی علیه السّلام لمنع انتشار دعوته و للحیلوله دون ذیوعها،لکنّ المستشارین من«الملأ»من القوم عارضوا الفکره.

یقول تعالی: وَ قٰالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِی أَقْتُلْ مُوسیٰ وَ لْیَدْعُ رَبَّهُ .

نستفید من الآیه أنّ أکثریه مستشاریه أو بعضهم علی الأقل کانوا یعارضون قتل موسی،لخوفهم أن یطلب علیه السّلام من ربّه نزول العذاب بساحتهم،لما کانوا یرون من معجزاته و أعماله غیر العادیه،إلاّ أنّ فرعون-بدافع من غروره-یصیر علی قتله مهما تکن النتائج.

و بالطبع،فإنّ سبب امتناع«الملأ»عن تأیید فکره فرعون فی قتل موسی غیر معلوم،فهناک احتمالات کثیره قد یکون بعضها أو کلّها صحیحه....

فقد یکون الخوف من العذاب الإلهی-کما احتملنا-هو السبب.

و قد یکون السبب خشیه القوم من تحوّل موسی علیه السّلام بعد استشهاده إلی هاله مقدّسه،و هو ممّا یؤدی إلی زیاده عدد الأتباع و المؤمنین بدعوته،خاصه إذا ما وقعت حادثه قتله بعد قضیه لقاء موسی مع السحره و انتصاره الإعجازی علیهم.

و ما یؤکّد هذا المعنی هو أنّ موسی جاء فی بدایه دعوته بمعجزتین کبیرتین (العصا و الید البیضاء)و قد دعا هذا الأمر فرعون إلی أن یصف موسی علیه السّلام بالساحر، و أن یدعوه للمنازله مع السحره فی میقات یوم معلوم(یوم الزینه)و کان یأمل الإنتصار علی موسی علیه السّلام عن هذا الطریق،لذا بقی فی انتظار هذا الیوم.

و بمشاهده هذا الوضع ینتفی احتمال أن یکون فرعون قد صمّم علی قتل

موسی قبل حادث یوم الزینه خشیه من تبدّل دین أهل مصر (۱) .

خلاصه القول:إنّ هؤلاء یعتقدون أنّ موسی علیه السّلام مجرّد حادث صغیر و محدود،بینما یؤدی قتله فی مثل تلک الظروف إلی أن یتحول إلی تیار...تیار کبیر یصعب السیطره علیه.

البعض الآخر من المقربین لفرعون ممّن لا یمیل إلیه،کان یرغب ببقاء موسی علیه السّلام حیا حتی یشغل فکر فرعون دائما،کی یتمکن هؤلاء من العیش بارتیاح بعیدا عن عیون فرعون،و یفعلون ما شاؤوا من دون رقابته.

و هذا الأمر یعبّر عن«سلیقه»فی بلاط السلاطین،إذ یقوم رجال الحاشیه- من هذا النوع -بتحریک بعض أعداء السلطه حتی ینشغل الملک أو السلطان بهم، و لیأمنوا هم من رقابته علیهم،کی یفعلوا ما یریدون! و قد استدل فرعون علی تصمیمه فی قتل موسی علیه السّلام بدلیلین،الأوّل ذو طابع دینی و معنوی،و الآخر ذو طابع دنیوی و مادی،فقال الأول،کما یحکی القرآن ذلک: إِنِّی أَخٰافُ أَنْ یُبَدِّلَ دِینَکُمْ .

و فی الثّانی: أَوْ أَنْ یُظْهِرَ فِی الْأَرْضِ الْفَسٰادَ .

فإذا سکتّ أنا و کففت عن قتله،فسیظهر دین موسی و ینفذ فی أعماق قلوب أهل مصر،و ستتبدل عباده الأصنام التی تحفظ منافعکم و وحدتکم،و إذا سکتّ الیوم فإنّ الزمن کفیل بزیاده أنصار موسی علیه السّلام و أتباعه،و هو أمر تصعب معه مجاهدته فی المستقبل، إذ ستجر الخصومه و الصراع معه إلی إراقه الدماء و الفساد و شیوع القلق فی البلاد،لذا فالمصلحه تقتضی أن أقتله أسرع ما یمکن.

بالطبع،لم یکن فرعون یقصد من الدین شیئا سوی عبادته أو عباده الأصنام،

۱- ۱) -ورد فی تفسیر المیزان عند الحدیث عن الآیه(۳۶)من سوره الشعراء: قٰالُوا أَرْجِهْ وَ أَخٰاهُ إنّ الآیه دلیل علی أنّ هناک مجموعه منعت فرعون من قتل«موسی»علیه السّلام إلاّ أنّ التدقیق فی الآیات الخاصه بقصه موسی تظهر أنّه لم تکن هناک نیه لقتله فی ذلک الوقت،و إنّما کان الهدف اختبار النوایا لمعرفه الصادق من الکاذب،أما التصمیم علی القتل فقد کان بعد حادثه السحره و انتصار موسی علیه السّلام علیهم و نفوذ تأثیره فی أعماق قلوب أهل مصر،حیث خشی فرعون العواقب.

و هـذا الأسـلوب فى اسـتخدام لباس الـدين و اسـمه و تبنّى شـعاراته،يسـتهدف منه السـلطان(فرعون)تحذير الناس و تجهيلهم من خلال إعطاء طابع الدين على مواقفه و كيانه و سلطته.

أمّـا الفسـاد فهو من وجهه نظر فرعون يعنى الثوره ضـدّ اسـتكبار فرعون من أجـل تحرير عامّه العباد،و محو آثار عباده الأصـنام،و إحياء معالم التوحيد، و تشييد الحياه على أساسها.

إنّ اسـتخدام لباس الدين و رفع شـعاراته،و كذلك«التدليس»على المصلحين بالاتهامات،هما من الأساليب التى يعتمد هما الظلمه و الطغاه فى كلّ عصر و مصر، و عالمنا اليوم يموج بالأمثله على ما نقول! و الآن لنر كيف كان رد فعل موسى عليه السّلام و الذى يبـدو أنّه كـان حاضـر المجلس؟ يقـول القرآن فى ذلـك: وَ قٰالَ مُوسىٰ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَ رَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاٰ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسٰابِ .

قال موسـى عليه السّـلام هـذا الكلام بقاطعيه و اطمئنان يسـتمدان جـذورهما من إيمانه القوى و اعتماده المطلق على اللّه تعالى،و أثبت بذلك بأنّه لا يهتز أو يخاف أمام التهديدات.

و يسـتفاد من قول موسـى عليه السّـلام أيضا أنّ من تحل فيه صـفتا«التكبر»و«عـدم الإيمان بيوم الحساب»فهو إنسان خطر،علينا أن نستعيذ باللّه من شرّه و كيده.

فـالتكبر يصـبح سـببا لأـن لاـ يرى الإنسـان سوى نفسه و سوى أفكاره،فهو يعتبر كما فى حال فرعون-الآيات و المعجزات الإلهيه سحرا،و يعتبر المصلحين مفسدين،و نصيحه الأصدقاء و المقربين ضعفا فى النفس.

أمّـا عـدم الإيمـان بيوم الحسـاب فيجعـل الإنسـان حرا طليقـا فى أعماله و برامجه،لا يفكر بالعواقب،و لا يرى لنفسه حـدودا يقف عندها،و سيقوم بسبب

انعدام الضوابط و فقدان الرقابه بمواجهه كلّ دعوه صالحه و يحارب الأنبياء.

و لكن ماذا كان عاقبه تهديد فرعون؟ الآيات القادمه تنبئنا بذلك،و تكشف كيف استطاع موسى عليه السّلام أن يفلت من مخالب هذا الرجل المتكبر المغرور.

الآیتان [سوره غافر (۴۰): الآیات ۲۸ الی ۲۹]

اشاره

وَ قٰالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمٰانَهُ أَ تَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اَللّٰهُ وَ قَدْ جٰاءَكُمْ بِالْبَيِّنٰاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَ إِنْ يَكُ كٰاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَ إِنْ يَكُ صٰادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ اَلَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اَللّٰهَ لاٰ يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذّٰابٌ (۲۸) يٰا قَوْمِ لَكُمُ اَلْمُلْكُ اَلْيَوْمَ ظٰاهِرِينَ فِي اَلْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنٰا مِنْ بَأْسِ اَللّٰهِ إِنْ جٰاءَنٰا قٰالَ فِرْعَوْنُ مٰا أُرِيكُمْ إِلاّٰ مٰا أَرىٰ وَ مٰا أَهْدِيكُمْ إِلاّٰ سَبِيلَ اَلرَّشٰادِ (۲۹)

التّفسیر

اشاره

أ تقتلون رجلا أن يقول ربّي اللّه!

مع هذه الآیات تبدأ مرحله جدیده من تأریخ موسی علیه السّلام و فرعون،لم تطرح فی أی مکان آخر من القرآن الکریم.المرحله التی نقصدها هنا تتمثل بقصه «مؤمن آل فرعون»الذی کان من المقربین إلی فرعون،و لکنّه اعتنق دعوه موسی التوحیدیه من دون أن یفصح عن إیمانه الجدید هذا،و إنّما تکتم علیه و اعتبر نفسه.

ص: ۲۴۵

من موقعه فی بلاط فرعون-مكلفا بحمایه موسی علیه السّلام من أی خطر یمكن أن یتهدد من فرعون أو من جلاوزته.

فعند ما شاهد أنّ حیاه موسی فی خطر بسبب غضب فرعون،بادر بأسلوبه المؤثر للقضاء علی هذا المخطط.

یقول تعالی: وَ قٰالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ یَكْتُمُ إِیمٰانَهُ أَ تَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ یَقُولَ رَبِّیَ اللّٰهُ .

أ تقتلوه فی حین أنّه: وَ قَدْ جٰاءَكُمْ بِالْبَیِّنٰاتِ مِنْ رَبِّكُمْ .

هل فیكم من یستطیع أن ینكر معاجزه،مثل معجزه العصا و الید البیضاء؟أ لم تشاهدوا بأعینكم انتصاره علی السحره،بحیث أن جمیعهم استسلموا له و أذعنوا لعقیدته عن قناعه تامه،و لم یرضحوا لا-لتهدیدات فرعون و وعیده،و لا لإغراءاته و أمنیاته،بل استرخصوا الأرواح فی سبیل الحق،فی سبیل دعوه موسی،و إله موسی...هل یمكن أن نسمّی مثل هذا الشخص بالساحر؟ فكروا جیدا،لا تقوموا بعمل عجول، تحسّبوا لعواقب الأمور و إلاّ فالندم حلیفكم.

ثم إنّ للقضیه بعد ذلك جانبین: وَ إِنْ یَكُ كٰاذِباً فَعَلَیْهِ كَذِبُهُ وَ إِنْ یَكُ صٰادِقاً یُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِی یَعِدُكُمْ .

إنّ حبل الكذب قصیر-كما یقولون-و سینفضح أمره فی النهایه إذا كان كاذبا، و ینال جزاء الكاذبین،و إذا كان صادقا و مأمورا من قبل السماء فإنّ توعده لكم بالعذاب حاصل شئتم أم أبیتم،لذا فإنّ قتله فی كلا الحالین أمر بعید عن المنطق و الصواب.

ثم تضیف الآیات: إِنَّ اللّٰهَ لاٰ یَهْدِی مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذّٰابٌ .

فإذا كان موسی سائرا فی طریق الكذب و التجاوز فسوف لن تشمله الهدایه الإلهیه،و إذا كنتم أنتم كذلك فستحرمون من هدایته.

و لنا أن نلاحظ أنّ العباره الأخيره برغم أنّها تحمل معنيين إلاّ أن«مؤمن آل فرعون»يهدف من خلالها إلى توضيح حال الفراعنه.

و التعبير الـذى يليه يفيـد أنّ فرعون،أو بعض الفراعنه-على الأقـل-كانوا يؤمنون باللّه،و إلاّ فإن تعبير«مؤمن آل فرعون»فى خلاف هذا التأويل سيكون دليلا على إيمانه بإله موسى عليه السّلام و تعاونه مع بنى إسرائيل،و هذا ما لا يتطابق مع دوره فى تكتمه على إيمانه،و لا يناسب أيضا مع أسلوب«التقيه»التى كان يعمل بها.

و بالنسبه للتعبير الآنف الذكر وَ إِنْ يَكُ كٰاذِباً... فقد طرح المفسّرون سؤالين:

الأوّل:إذا كان موسى عليه السّلام كاذبا،فإنّ عاقبه كذبه سوف لن تقتصر عليه و حسب، و إنّما سوف تنعكس العواقب السيئه على المجتمع برمته.

الثّانى:أما لو كان صادقا،فستتحقق كلّ تهديداته و وعيده لا بعض منها،كما فى تعبير«مؤمن آل فرعون»؟ بالنسبه للسؤال الأول،نقول:إنّ المراد هو معاقبه جريمه الكذب التى تشمل شخص الكذّاب فقط و يكفينا العذاب الالهى لدفع شرّه.و إلاّ فكيف يمكن لشخص أن يكذب على اللّه،و يتركه سبحانه لشأنه كى يكون سببا لإضلال الناس و إغوائهم؟ و بالنسبه للسؤال الثّانى،من الطبيعى أن يكون قصد موسى عليه السّلام من التهديد بالعذاب،هو العذاب الدنيوى و الأخروى،و التعبير ب«بعض»إنّما يشير إلى العذاب الدنيوى،و هو الحد الأدنى المتيقّن حصوله فى حاله تكذيبكم إيّاه.

و فى كلّ الأحوال تبدو جهود«مؤمن آل فرعون»واضحه فى النفود بشتى الوسائل و الطرق إلى أعماق فرعون و جماعته لتثنيهم عن قتل موسى عليه السّلام.

و نستطيع هنا أن نلخص الوسائل التى اتبعها بما يلى:

أوضح لهم أولا أنّ عمل موسى عليه السّلام لا يحتاج إلى ردّه فعل شديده كهذه.

ثم عليكم أن لا تنسوا أنّ الرجل يملك«بعض»الأدله،و يظهر أنّها أدله معتبره،لذا فإنّ محاربه مثل هذا الرجل تعتبر خطرا واضحا.

و الموضوع برمته لا-يحتاج إلى موقف منكم،فإذا كان كاذبا فسينال جزاءه من قبل اللّه،و لكن يحتمل أن يكون صادقا،و عندها لن يتركنا اللّه لحالنا.

و لم يكتف«مؤمن آل فرعون»بهذا القدر،و إنّما استمرّ يحاول معهم بلين و حكمه،حيث قال لهم كما يحكى ذلك القرآن من أنّه قال لهم أن بيدكم حكومه مصر الواسعه مع خيراتها و نعيمها فلا تكفروا بهذه النعم فيصيبكم العذاب الالهى.

يٰا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظٰاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنٰا مِنْ بَأْسِ اللّٰهِ إِنْ جٰاءَنٰا

.

و يحتمل أن يكون غرضه:إنكم اليوم تملكون كلّ أنواع القوّه،و تستطيعون اتخاذ أى تصميم تريدونه اتجاه موسى عليه السّلام،و لكن لا تغرنكم هذه القوّه،و لا تنسوا النتائج المحتمله و عواقب الأمور.

و يظهر أنّ هذا الكلام أثر فى حاشيه فرعون و بطانته،فقلّل من غضبهم و غيظهم،لكن فرعون لم يسكت و لم يقتنع،فقطع الكلام بالقول: قٰالَ فِرْعَوْنُ مٰا أُرِيكُمْ إِلاّٰ مٰا أَرىٰ و هو إنّى ارى من المصلحه قتل موسى و لا حلّ لهذه المشكله سوى هذا الحل.

ثمّ إننى: وَ مٰا أَهْدِيكُمْ إِلاّٰ سَبِيلَ الرَّشٰادِ .

و هذه هو حال كافه الطواغيت و الجبّارين على طول التأريخ،فهم يعتبرون كلامهم الحق دون غيره،و لا يسمحون لأحد فى إبداء وجهه نظر مخالفه لما يقولون،فهم يظنون أن عقلهم كامل،و أن الآخرين لا يملكون علما و لا عقلا...

و هذا هو منتهى الجهل و الحماقه.

بحوث

اشاره

أوّلا:من هو مؤمن آل فرعون؟

نستفيد من الآيات القرآنيه أنّ«مؤمن آل فرعون»هو رجل من قوم فرعون آمن بموسى عليه السّلام،و يظلّ يتكتم على إيمانه،و يعتبر نفسه مكلفا بالدفاع عنه عليه السّلام.

لقد كان الرجل-كما يدل عليه السياق-ذكيا و لبقا،يقدّر قيمه الوقت،ذا منطق قوى،حيث قام فى اللحظات الحسّاسه بالدّفاع عن موسى عليه السّلام و إنقاذه من مؤامره كانت تستهدف حياته.

تتضمن الرّوايات الإسلاميه و تفاسير المفسّرين أوصافا أخرى لهذا الرجل سنتعرض لها بالتدريج.

البعض مثلا يعتقد أنّه كان ابن عم-أو ابن خاله-فرعون،و يستدل هذا الفريق على رأيه بعباره(آل فرعون)إذ يرى أنّها تطلق على الأقرباء،بالرغم من أنّها تستخدم أيضا للأصدقاء و المقربين.

و البعض قال:إنّه أحد أنبياء بنى إسرائيل كان يعرف اسم«حزبيل»أو «حزقيل» (۱) .

فيما قال البعض الآخر:إنّه خازن خزائن فرعون،و المسؤول عن الشؤون الماليه (۲) .

و ينقل عن ابن عباس أنّه قال:إنّ هناك ثلاثه رجال من بين الفراعنه آمنوا بموسى عليه السّلام، و هم آل فرعون،و زوجه فرعون،و الرجل الذى أخبر موسى قبل نبوته بتصميم الفراعنه على قتله،حينما أقدم موسى على قتل القبطى،و نصحه بالخروج من مصر بأسرع وقت:

---

۱ - ۱) -يستفاد هذا المعنى من روآيه عن رسول الله صلى الله عليه و اله و سلم(تلاحظ فى أمالى الصدوق طبقا لنقل نور الثقلين،المجلد الرابع،ص ۵۱۹)و لكن بما أن الشائع أن«حزقيل»هو أحد أنبياء بنى إسرائيل،فعندها سيضعف هذا الاحتمال،إلا إذا كان«حزقيل»هذا غير النبى المعروف فى بنى إسرائيل.ثم إن الروآيه ضعيفه السند.

۲ - ۲) -ورد هذا المعنى فى تفسير على بن إبراهيم،كما نقل صاحب نور الثقلين فى المجلد الرابع،صفحه ۵۱۸.

وَ جٰاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَهِ يَسْعىٰ قٰالَ يٰا مُوسىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِکَ لِيَقْتُلُوکَ فَاخْرُجْ إِنِّی لَکَ مِنَ النّٰاصِحِينَ

(۱)

.

لكن القرائن تفيد أن ثمّه مجموعه قد آمنت بموسى عليه السّلام بعد مواجهه موسى مع السحره،و يظهر من السياق أنّ قصه مؤمن آل فرعون كانت بعد حادثه السحره.

و البعض يحتمل أنّ الرجل كان من بنى إسرائيل،لكنّه كان يعيش بين الفراعنه و يعتمدون عليه،إلاّ أنّ هذا الاحتمال ضعيف جدا،و لا يتلاءم مع عباره«آل فرعون»و أيضا نداء«يا قوم».

و لكن يبقى دوره مؤثرا فى تأريخ موسى عليه السّلام و بنى إسرائيل حتى مع عدم وضوح كلّ خصوصيات حياته بالنسبه لنا.

ثانيا:التقيه أداه مؤثّره فى الصراع

(التقيه)أو(كتمان الإعتقاد)ليست من الضعيف أو الخوف كما يظن البعض، بل غالبا ما توظّف كأسلوب مؤثّر فى إداره مع الظالمين و الجبارين و الطغاه،إذ أن كشف أسرار العدو لا يمكن أن يتمّ إلاّ عن طريق الأشخاص الذين يعملون بأسلوب التقيه.

و كذلك الضربات الموجعه و المباغته للعدو،لا تتمّ إلاّ عن طريق التقيه و كتمان الخطط و أساليب الصراع.

لقد كانت«تقيه»مؤمن آل فرعون من أجل خدمه دين موسى عليه السّلام،و الدفاع عنه فى اللحظات الصعبه.ثمّ هل هناك أفضل من أن يحظى الإنسان بشخص مؤمن بقضيته و دعوته يزرعه فى جهاز عدوه بحيث يستطيع من موقعه أن ينفذ إلى أعماق تنظيمات العدو،و يحصل على المعلومات و الأسرار ليفيد بها قضيته و دعوته،و يخبر بها أصحابه و قد تقضى الضروره النفوذ فى ذهنيه العدو أيضا و تغييرها لمصالح قضيته و دعوته ما استطاع إلى ذلك سبيلا.

۱- ۱) -القصص،الآيه ۲۰.

الآن نسأل:هل كان بوسع مؤمن آل فرعون إسـداء كلّ هـذه الخدمات لدعوه موسـى عليه السّـلام لو لم يسـتخدم أسـلوب التقيه؟ لذلک کلّه

ورد فى حـديث عـن الإمـام الصـادق قـوله عليه السّـلام: التقيه دينى و دين آبـائى،و لاـ دين لمن لاـ تقيه له،و التقيه ترس اللّه فى الأرض،لأنّ مؤمن آل فرعون لو أظهر الإسلام لقتل» (۱) .

إنّ فاعليه هـذا المبدأ تكتسب أهميه اسـتثنائيه فى الوقت الذى يكون فيه المؤمنون قلّه خاضـعه للأكثريه التى لا ترحم و لا تتعامل وفق المنطق،فالعقل لا يسـمح بإظهار الإيمان(باستثناء الضرورات)و التفريط بالطاقات الفعّاله،بل الواجب يقضى بكتمان العقيده و التخفى على المعتقد فى مثل هذا الوضع لكى يصار إلى تجميع الطاقات و القوى و الإفاده منها لتسديد الضربه النهائيه و القاصمه فى الوقت و الظرف المناسبين.

إنّ الرّسول الأعظم صلّى اللّه عليه و اله و سلّم التزم بنفسه هذا المبدأ،حينما أبقى دعوته سريّه لبضع سنوات،و حينما ازداد أتباعه و تشكّلت النواه الإيمانيه القادره للحفاظ على الدعوه الجديده صدع صلّى اللّه عليه و اله و سلّم بأمره تعالى أمام القوم.

و من بين الأنبياء الآخرين نرى إبراهيم عليه السّلام الذى استخدم أسلوب التقيه، و وظّف هذا المبدأ فى عمله الشجاع الذى حطّم فيه الأصنام،و إلّا فلولا التقيه لم يكن بوسعه أن ينجح فى عمله أبدا.

كذلك استفاد أبو طالب عم الرسول من أسلوب التقيه فى حمايه رسول اللّه و دعوته الناشئه،إذ لم يعلن عن صريح إيمانه برسول اللّه و بالإسـلام إلّا فى فترات و مواقف خاصّه،كى يسـتطيع من خلال ذلک لنهوض بأعباء دوره المؤثر فى حفظ حياه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم حيال مكائد و طغيان الشرک القرشى.

من هنا يتبيّن خطأ رأى من يعتقد بأنّ«التقيه»كمبدأ و كأسلوب،تختص

ص :۲۵۱

۱- ۱) -مجمع البيان،المجلد الثامن،صفحه ۵۲۱.

بالشيعه دون غيرهم،أو أنّها كدليل على الضعف و الجبن،فيما هي موجوده في جميع المذاهب دون استثناء.

و لمزيد من التوضيح،باستطاعه القارئ الكريم أن يرجع إلى بحثنا في تفسير الآيه ۲۸ من آل عمران و الآيه ۱۰۶ من النحل.

ثالثا:من هم الصدّيقون؟

في الحديث عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم أنّه قال: «الصديقون ثلاثه:(حبيب النجار) مؤمن آل يس الذي يقول: اِتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ اتَّبِعُوا مَنْ لاٰ يَسْئَلُكُمْ أَجْراً و(حزقيل) مؤمن آل فرعون و(علي بن أبي طالب و هو أفضلهم)».

و الملاحظ في هذا الحديث أنّه يروى في مصادر الفريقين (۱) .

إنّ تأريخ النبوات يظهر مكانه هؤلاء في دعوات الرسل،إذ صدّقوهم في أحرج اللحظات،و كانوا في المقدمه،فاستحقوا لقب«الصدّيق»خاصه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السّلام،الذي وقف منذ مطلع عمره الشريف و حتى نهايته مناصرا لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم في حياته و بعد رحلته و ذابا عن الدعوه الجديده، و استمرّ في كلّ المراحل و الأشواط في تقديم التضحيات بمنتهى الإخلاص.

۱- ۱) -يلاحظ الصدوق في«الأمالي»و ابن حجر في الفصل الثّاني الباب التاسع من«الصواعق».

الآیات [سوره غافر (۴۰): الآیات ۳۰ الی ۳۳]

اشاره

وَ قٰالَ اَلَّذِی آمَنَ یٰا قَوْمِ إِنِّی أَخٰافُ عَلَیْکُمْ مِثْلَ یَوْمِ اَلْأَحْزٰابِ (۳۰) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَ عٰادٍ وَ ثَمُودَ وَ اَلَّذِینَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَ مَا اَللّٰهُ یُرِیدُ ظُلْماً لِلْعِبٰادِ (۳۱) وَ یٰا قَوْمِ إِنِّی أَخٰافُ عَلَیْکُمْ یَوْمَ اَلتَّنٰادِ (۳۲) یَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِینَ مٰا لَکُمْ مِنَ اَللّٰهِ مِنْ عٰاصِمٍ وَ مَنْ یُضْلِلِ اَللّٰهُ فَمٰا لَهُ مِنْ هٰادٍ (۳۳)

التّفسیر

اشاره

التحذیر من العاقبه!

کان الشعب المصری آنذاک یمتاز نسبیا بمواصفات التمدّن و الثقافه،و قد اطّلع علی أقوال المؤرخین بشأن الأقوام السابقه،أمثال قوم نوح و عاد و ثمود الذین لم تکن أرضهم تبعد عنهم کثیرا،و کانوا علی علم بما آل إلیه مصیرهم.

لذلک کلّه فکّر مؤمن آل فرعون بتوجیه أنظار هؤلاء إلی أحداث التأریخ و أخذ یحذرهم من تکرار العواقب الألیمه التی نزلت بغیرهم،عساهم أن یتیقظوا و یتجنّبوا قتل موسی علیه السّلام یقول القرآن الکریم حکایه علی لسانه: وَ قٰالَ الَّذِی آمَنَ یٰا قَوْمِ إِنِّی أَخٰافُ عَلَیْکُمْ مِثْلَ یَوْمِ الْأَحْزٰابِ .

ثم أوضح مراده من هذا الكلام بأننى خائف عليكم عن العادات و التقاليد السيئه التى كانت متفشّيه فى الأقوام السالفه. مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَ عٰادٍ وَ ثَمُودَ وَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ (۱) .

لقد نالت هذه الأقوام جزاء ما كانت عليه من الكفر و الطغيان،إذ قتل من قتل منهم بالطوفان العظيم،و أصيب آخرون منهم بالريح الشديده،و بعضهم بالصواعق المحرقه،و مجموعه بالزلازل المخرّبه.

و اليوم يخاطبهم مؤمن آل فرعون:ألا تخشون أن تصيبكم إحدى هذه البلايا العظيمه بسبب إصراركم على الكفر و الطغيان؟هل عندكم ضمان بأنّكم لستم مثل أولئك،أو أن العقوبات الإلهيه لا تشملكم،ترى ماذا عمل أولئك حتى أصابهم ما أصابهم،لقد اعترضوا على دعوه الأنبياء الإلهيين،و فى بعض الأحيان عمدوا إلى قتلهم...لذلك كلّه فإنى أخاف عليكم مثل هٰذا المصير المؤلم!؟ و لكن ينبغى أن تعلموا أنّ ما سيصيبكم و يقع بساحتكم هو من عند أنفسكم و بما جنت أيديكم: وَ مَا اللّٰهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبٰادِ .

لقد خلق اللّه الناس بفضله و كرمه،و وهبهم من نعمه ظاهره و باطنه،و أرسل أنبياءه لهدايتهم،و لصدّ طغيان العتاه عنهم،لذلك فإنّ طغيان العباد و صدّهم عن السبيل هو السبب فيما ينزل بهم من العذاب الأليم.

ثم تضيف الآيه على لسانه: وَ يٰا قَوْمِ إِنِّى أَخٰافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنٰادِ أى يوم تطلبون العون من بعضكم البعض،إلاّ أصواتكم لا تصل إلى أى مكان.

«التناد»مأخوذه أصلا من كلمه«ندا»و تعنى«المناداه»(و هى فى الأصل (التنادى)و حذفت الياء و وضعت الكسره فى محلّها)و المشهور بين المفسّرين أنّ

۱- ۱) -«داب»على وزن(ضرب)تعنى فى الأصل الاستمرار فى السير،و(دائب)تطلق على الكائن الذى يستمر فى سيره ثمّ أصبحت بعد ذلك تستعمل لأى عاده مستمره...و المقصود هنا من(دأب قوم نوح)هو قيامهم و استمرارهم و اعتيادهم على الشرك و الطغيان و الظلم و الكفر.

(یوم التناد)هو من أسماء یوم القیامه،و قد ذكروا أسبابا لهذه التسمیه متشابهه تقریبا،فمنهم من یقول:إن ذلک یعود إلی مناداه أهل النّار لأهل الجنّه،كما یقول القرآن: وَ نَادیٰ أَصْحَابُ النّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّهِ أَنْ أَفِیضُوا عَلَیْنٰا مِنَ الْمٰاءِ أَوْ مِمّٰا رَزَقَكُمُ اللّهُ فجاءهم الجواب: إِنَّ اللّهَ حَرَّمَهُمٰا عَلَی الْكٰافِرِینَ (١) (٢) .أو أنّ التسمیه تعود إلی مناداه الناس بعضهم لبعض طلبا للعون و المساعده.

و هناک من قال:إن سبب التسمیه یعود إلی أنّ الملائكه تنادیهم للحساب، و هم یطلبون العون من الملائكه.

أو لأنّ منادی المحشر ینادی: أَلاٰ لَعْنَهُ اللّهِ عَلَی الظّالِمِینَ (٣) .

و قال بعضهم:إنّ السبب یعود إلی أنّ المؤمن عند ما یشاهد صحیفه أعماله ینادی برضی و شوق: هٰاؤُمُ اقْرَؤُا كِتٰابِیَهْ (۴) بینما الكافر من شده خوفه و هول ما یحلّ به یصرخ و ینادی: یٰا لَیْتَنِی لَمْ أُوتَ كِتٰابِیَهْ (۵) .

و لكن یمكن تصور معنی أوسع للآیه،بحیث یشمل«یوم التناد فی هذه الدنیا أیضا،لأنّ المعنی-كما رأینا-یعنی(یوم مناداه البعض بعض الآخر)و هذا المعنی یعبّر عن ضعف الإنسان و عجزه عند ما تنزل به المحن و تحیطه المصاعب و الملمّات، و ینقطع عنه العون و أسباب المساعده،فیبدأ بالصراخ و لكن بغیر نتیجه.

و فی عالمنا هذا ثمّه أمثله عدیده علی«یوم التناد»مثل الأیّام التی ینزل فیها العذاب الإلهی،أو الأیّام التی یصل فیها المجتمع إلی طریق مسدوده لكثره ما ارتكب من ذنوب و خطایا،و قد نستطیع أن نتصور صورا أخری عن یوم التناد فی حیاتنا من خلال الحالات التی یمرّ بها الناس بالمشاكل و الصعاب المختلفه حیث

١- ١) -الأعراف،الآیه ۵٠.

٢- ٢) -ورد هذا المعنی أیضا فی حدیث للإمام الصادق علیه السّلام فی كتاب«معانی الأخبار»للصدوق.

٣- ٣) -هود،الآیه ١٨.

۴- ۴) -الحاقه،الآیه ١٩.

۵- ۵) -الحاقه،الآیه ٢۵.

يصرخ الجميع عندها طالبين للحل و النجاه! الآيه التاليه تفسّر يوم التناد بقولها: يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مٰا لَكُمْ مِنَ اللّهِ مِنْ عٰاصِمٍ .

و مثل هؤلاء حق عليهم القول: وَ مَنْ يُضْلِلِ اللّهُ فَمٰا لَهُ مِنْ هٰادٍ إنّ هؤلاء الذين ضلّوا فى الحياه الدنيا بابتعادهم عن سبل الرشاد و الهدايه و تنكبهم عن الطريق المستقيم،سيضلّون فى الآخره عن الجنّه و الرضوان و النعم الإلهيه الكبرى.

و قد يكون فى التعبير القرآنى إيماءه خفيفه إلى قول فرعون: مٰا أَهْدِيكُمْ إِلاّ سَبِيلَ الرَّشٰادِ .

ص :٢٥۶

الآیتان [سوره غافر (۴۰): الآیات ۳۴ الی ۳۵]

اشاره

وَ لَقَدْ جٰاءَکُمْ یُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَیِّنٰاتِ فَمٰا زِلْتُمْ فِی شَکٍّ مِمّٰا جٰاءَکُمْ بِهِ حَتّٰی إِذٰا هَلَکَ قُلْتُمْ لَنْ یَبْعَثَ اَللّٰهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً کَذٰلِکَ یُضِلُّ اَللّٰهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتٰابٌ (۳۴) اَلَّذِینَ یُجٰادِلُونَ فِی آیٰاتِ اَللّٰهِ بِغَیْرِ سُلْطٰانٍ أَتٰاهُمْ کَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اَللّٰهِ وَ عِنْدَ اَلَّذِینَ آمَنُوا کَذٰلِکَ یَطْبَعُ اَللّٰهُ عَلیٰ کُلِّ قَلْبِ مُتَکَبِّرٍ جَبّٰارٍ (۳۵)

التّفسیر

اشاره

عجز المتکبرین عن الإدراک الصحیح!

هذا المقطع من الآیات الکریمه یستمر فی عرض کلام مؤمن آل فرعون، و من خلال نظره فاحصه فی سیاق الآیات،یظهر أنّ مؤمن آل فرعون طرح کلامه فی خمسه مقاطع،کلّ منها اکتسی بلون من المخاطبه،و شکل من الدلیل،الذی یستهدف النفوذ إلی قلب فرعون و المحیطین به،بغیه محو الصدأ و آثار الکفر السوداء منهاکی تذعن للّه و رسالاته و أنبیائه،و تترک التکبر و الطغیان:

المقطع الأوّل:راعی فیه مؤمن آل فرعون الاحتیاط،و دعا القوم إلی الحذر من الأضرار المحتمله من جهتین:(قال لهم:لو کان موسی کاذبا فسینال جزاء

كذبه،أمّا لو كان صادقا فيشملنا العذاب،إذا عليكم أن لا تتركوا العمل بالاحتياط).

المقطع الثّاني:و فيه وجّه مؤمن آل فرعون الدعوه إلى التأمّل بما حلّ بالأقوام السابقه و ما نال الأمم الداثره من المصير و الجزاء،كي يأخذوا العبره من ذلك المصير! المقطع الثّالث:كأمن فى الآيات القرآنيه التى بين أيدينا،إذ تذكر هم الآيات -من خلال خطاب مؤمن آل فرعون-بجزء من تأريخهم،هذا التأريخ الذى لا يبعد كثيرا عنهم،و لم تمحى بعد أواصر الارتباط الذهنى و التأريخى فيما بينهم و بينه،و هذا الجزء يتمثل فى نبوه يوسف عليه السّلام،الذى يعتبر أحد أجداد موسى، حيث يبدأ قصه التذكير معهم بقوله تعالى: وَ لَقَدْ جٰاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنٰاتِ (١) و بالدلائل الواضحه لهدايتكم و لكنكم: فَمٰا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمّٰا جٰاءَكُمْ بِهِ .

و شككم هنا ليس بسبب صعوبه دعوته أو عدم اشتمالها على الأدله و العلائم الكافيه،بل بسبب غروركم حيث أظهرتم الشك و التردد فيها.

و لأجل أن تتنصلوا من المسؤوليه،و تعطوا لأنفسكم الذرائع و المبررات، قلتم: حَتّٰى إِذٰا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللّٰهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً .

بناء على ذلك كلّه لم تشملكم الهدايه الإلهيه بسبب أعمالكم و مواقفكم:

كَذٰلِكَ يُضِلُّ اللّٰهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتٰابٌ

.

لقد سلكتم سبيل الإسراف و التعدى على حدود اللّه تعالى كما قمتم بالتشكيك فى كلّ شيء،حتى غدا ذلك كلّه سببا لحرمانكم من اللطف الإلهى فى الهدايه،فسدرتم فى وادى الضلال و الغى،كى تنتظركم عاقبه هذا الطريق الغاوى.

و اليوم-و السياق ما زال يحكى خطاب مؤمن آل فرعون لهم-اتبعتم نفس

١- ١) -تعتبر هذه الآيه هى الوحيده فى القرآن الكريم التى تشير صراحه إلى نبوه يوسف عليه السّلام،و إن كنّا لا نعدم إشارات متفرقه لهذه النبوّه فى سياق آيات قرآنيه اخرى.

الأسلوب حيال دعوه موسی علیه السّلام،إذ ترکتم البحث فی أدله نبوته و علائم بعثته و رسالته،فابتعدت عنکم أنوار الهدایه،و ظلت قلوبکم سوداء محجوبه عن إشعاعاتها الهادیه الوضّاءه.

الآیه الکریمه التی تلیها تعرّف«المسرف المرتاب»بقول اللّه تبارک و تعالی:

اَلَّذِینَ یُجٰادِلُونَ فِی آیٰاتِ اللّٰهِ بِغَیْرِ سُلْطٰانٍ أَتٰاهُمْ

(۱)

.

هؤلاء یرفضون آیات اللّه البینات من دون أی دلیل واضح من عقل أو نقل، بل یستجیبون فی ذلک إلی أهوائهم المغرضه و وساوسهم المضلّه الواهیه،کی یستمروا فی رفع رایه الجدل و المعارضه.

و للکشف عن قبح هذه المواقف عند اللّه و عند الذین آمنوا،تقول الآیه: کَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللّٰهِ وَ عِنْدَ الَّذِینَ آمَنُوا (۲) .

ذلک لأنّ الجدال بالباطل(الجدال السلبی)و اتخاذ المواقف ضدّ الوقائع و الآیات القائمه علی أساس الدلیل المنطقی،یعتبر أساسا لضلال المجادلین و تنکبهم عن جاده الهدایه و الصواب،و کذلک فی إغواء للآخرین،حیث تنطفئ أنوار الهدایه فی تلک الأوساط،و تتقوی أسس و دعائم حاکمیه الباطل.

فی النهایه،و بسبب عدم تسلیم هؤلاء أمام الحق،تقرّر الآیه قوله تعالی: کَذٰلِکَ یَطْبَعُ اللّٰهُ عَلیٰ کُلِّ قَلْبِ مُتَکَبِّرٍ جَبّٰارٍ (۳) .

أجل،إنّ العناد فی مقابل الحق یشکّل ستارا مظلما حول فکر الإنسان، و یسلب منه قابلیته علی التشخیص الهادی الصحیح،بحیث ینتهی الأمر إلی أن

۱- ۱) -(الذین)هنا بدل عن«مسرف مرتاب»إلاّ أنّ المبدل عنه مفرد،فی حین أنّ البدل جاء علی صیغه الجمع!السبب فی ذلک أنّ الخطاب لا یستهدف شخصا معینا و إنّما یشتمل علی النوع.

۲- ۲) -فاعل«کبر»هو(الجدال)حیث نستفید ذلک من الجمله السابقه،أمّا«مقتا»فهی تمییز،فیما یری بعض المفسّرین أنّ الفاعل هو«مسرف مرتاب»إلاّ أنّ الرأی الأوّل أفضل.

۳- ۳) -«متکبر جبار»وصف للقلب،و لیست وصفا لشخص،بالرغم من أنّها مضافه.اشاره الی أنّ أساس التکبر و التجبر إنما ینبع من القلب،و لأنّ القلب یسیطر علی کلّ أعضاء و وجود الإنسان،فإنّ کلّ الوجود الإنسانی سیکتسی هذا الطابع الفاسد البذیء.

يتحول القلب إلى مثل الإناء المغلق،الذى لا يمكن افراغه من محتواه الفاسد،و لا إدخال المحتوى الهادى الصحيح.

إنّ الأشخاص الذين يقفون فى وجه الحق و أهله بسبب اتصاف بصفتى التكبر و التجبر،فإنّ اللّه تعالى سوف يسلب منهم روح طلب الحقيقه الى درجه أن الحق سيكون مرا فى مذاقهم،و الباطل حلوا.

و فى كلّ الأحوال،لقد قام مؤمن آل فرعون بعمله من خلال الوسائل التى وقفنا عليها آنفا،فانتهى-كما سيظهر فى الآيه اللاحقه- إلى أجهاض مخطط فرعون فى قتل موسى عليه السّلام،أو على الأقل وفّر الوقت الكافى فى تأخير تنفيذ هذا لمخطط إلى أن استطاع موسى عليه السّلام أن يفلت من الخطر.

لقد كانت هذه مهمّه عظيمه أنجزها هذا الرجل المؤمن الشجاع،الذى انصب جهده فى هذه المرحله الخطيره من الدعوه الموسويه على إنقاذ حياه كليم اللّه عليه السّلام:

و كما سيتضح لا حقا من احتمال أن هذا الرجل ضحى بحياته أيضا فى هذا السبيل.

الآیتان [سوره غافر (۴۰): الآیات ۳۶ الی ۳۷]

اشاره

وَ قٰالَ فِرْعَوْنُ یٰا هٰامٰانُ اِبْنِ لِی صَرْحاً لَعَلِّی أَبْلُغُ اَلْأَسْبٰابَ (۳۶) أَسْبٰابَ اَلسَّمٰاوٰاتِ فَأَطَّلِعَ إِلیٰ إِلٰهِ مُوسیٰ وَ إِنِّی لَأَظُنُّهُ کٰاذِباً وَ کَذٰلِکَ زُیِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَ صُدَّ عَنِ اَلسَّبِیلِ وَ مٰا کَیْدُ فِرْعَوْنَ إِلاّٰ فِی تَبٰابٍ (۳۷)

التّفسیر

اشاره

أرید أن أطلع إلی إلیه موسی!!

بالرغم من النجاح الـذی أحرزه مؤمن آل فرعون فی أثناء عزم فرعون عن قتل الکلیم،علیه السّـلام،إلاّ أنّه لم یسـتطع أن یثنیه عن غروره و تکبره و تعالیه إزاء الحق، لأنّ فرعون لم یکن لیملک مثل هـذا الاسـتعداد أو اللیاقه الکافیه للهـدایه،لذلک نراه یواصـل السـیر فی نهجه الشـریر،إذ یأمر وزیره هامان ببناء برج للصعود إلی السماء(!!)کی یجمع المعلومات عن إله موسی،یقول تعالی فی وصف هذا الموقف: وَ قٰالَ فِرْعَوْنُ یٰا هٰامٰانُ ابْنِ لِی صَـرْحاً لَعَلِّی أَبْلُغُ الْأَسْـبٰابَ .أی لعلی أحصل علی وسائل و تجهیزات توصـلنی الی السماوات.

أَسْبٰابَ السَّمٰاوٰاتِ فَأَطَّلِعَ إِلیٰ إِلٰهِ مُوسیٰ وَ إِنِّی لَأَظُنُّهُ کٰاذِباً

.

و لكن ماذا كانت النتيجه؟! كَذٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَ صُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَ مٰا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاّ فِي تَبٰابٍ .

«الصرح»فى الأصل تعنى الوضوح،و«التصريح»بمعنى التوضيح،ثمّ عمّم معنى الكلمه على الأبنيه المرتفعه و القصور الجميله العاليه،و ذلك لأنّها واضحه و مميّزه بشكل كامل،و قد ذكر هذا المعنى العديد من المفسّرين و اللغويين.

«تباب»تعنى الخساره و الهلاك.

إنّ أول ما يطالعنا هنا هو السؤال عن الهدف الذى كان فرعون يرغب بتحقيقه من خلال عمله هذا.

هل كان فرعون بهذا المقدار من الغباء و الحماقه و السذاجه بحيث يعتقد أن إله موسى موجود فعلا فى مكان ما من السماء؟و إذا كان موجودا فى السماء،فهل يستطيع الوصول إليه بواسطه إقامه بناء مرتفع يعتبر ارتفاعه تافها إزاء جبال الكره الأرضيه؟ إنّ هذا الاحتمال ضعيف للغايه،ذلك لأنّ فرعون بالرغم من غروره و تكبره، فقد كان يمتاز بالذكاء و القدره السياسيه التى أهّلته للسيطره على شعب كبير لسنين مديده من خلال أساليب القهر و القوه و الخداع.

لذلك كلّه نرى الموقف يدعونا إلى تحليل هذا التصرف الفرعونى لمعرفه دواعيه و أهدافه الشيطانيه.

فمن خلال عمليه التأمّل و التمحيص،يمكن أن تنتهى إلى ثلاثه أهداف كانت تكمن وراء هذا التصرّف و الأهداف هذه هى:

أولا:أراد فرعون أن يختلق وضعا يعمد من خلاله إلى إلهاء الناس و صرف أذهانهم عن قضيه نبوه موسى عليه السّلام و ثوره بنى إسرائيل.و قضيه بناء مثل هذا الصرح المرتفع يمكن أن تحوز على اهتمام الناس،و تهيمن على اهتماماتهم الفكريه، و بالتالى إلى صرفهم عن القضيه الأساسيه.

و فی هذا الإطار یلاحظ بعض المفسّرین أن فرعون خصص لبناء صرحه مساحه واسعه من الأراضی،و وظّف فی إقامته خمسین ألفا من العمال و البنائین المهره،بالإضافه إلی من انشغل بتهیئه وسائل العمل و التمهید لتنفیذ المشروع، و کلما کان البناء یرتفع أکثر کلّما ازداد تأثیره فی الناس،و أخذ یجلب إلیه الاهتمام و الأنظار أکثر،إذ أصبح الصرح حدیث المجالس،و الخبر الأوّل الذی یتناقله الناس،و فی مقابل ذلک یتناسون قضیه انتصار موسی علیه السّلام علی السحره- و لو مؤقتا-خصوصا مع الأخذ بنظر الإعتبار ذلک الاهتزاز العنیف الذی ألحق بجهاز فرعون و أساط الناس.

ثانیا:استهدف فرعون من خلال تنفیذ مشروع الصرح اشتغال أکبر قطّاع من الناس،و علی الأخص العاطلین منهم،لکی یجد هؤلاء فی هذا الشغل عزاء-و لو مؤقتا-عن مظالم فرعون و ینسون جرائمه و ظلمه.و من ناحیه ثانیه فإنّ اشتغال مثل هذا العدد الکثیر یؤدی إلی ارتباطهم بخزانه فرعون و أمواله،و بالتالی ارتباطهم بنظامه و سیاساته! ثالثا:لقد کان من خطه فرعون بعد انتهاء بناء الصرح،أن یصعد إلی أعلی نقطه فیه،و یرمق السماء ببصره،أو یرمی سهما نحو السماء،و یرجع الی الناس فیقول لهم:لقد انتهی کلّ شیء بالنسبه لإله موسی.و الآن انصرفوا إلی أعمالکم براحه بال!! أما بالنسبه إلی فرعون نفسه،فقد کان یعلم أنّه حتی لو ارتقی الجبال الشامخات التی تتطاول فی علوها علی صرحه،فإنّه سوف لن یشاهد أی شیء آخر یفترق عمّا یشاهده و هو یقف علی الأرض المستویه یتطلع نحو السماء! و الطریف فی الأمر هنا أنّ فرعون بعد قوله: فَأَطَّلِعَ إِلیٰ إِلٰهِ مُوسیٰ رجع خطوه إلی الوراء فنزل عن یقینه إلی الشک،حیث قال بعد ذلک: وَ إِنِّی لَأَظُنُّهُ کٰاذِباً إذ استخدم تعبیر«أظن»!

و الجدير بالإشاره هنا أنّ القرآن الكريم من خلال قوله تعالى: كَذٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَ صُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَ مٰا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاّ فِي تَبٰابٍ ذكر ثلاث قضايا ذات محتوى كبير بجمل قصيره،حيث قال أولا:إن السبب الرئيسى فى انحراف فرعون عن جاده الصواب يعود إلى تزيين عمله القبيح فى نظره بسبب غروره و تكبره.

ثم تناول بعد ذلك نتيجه ذلك متمثله بالضلال عن طريق الحق و الهدى و النور.

و فى الجمله الثّالثه لخصت الآيه مال مخططات فرعون،هذا المآل الذى تمثل بالفشل الذريع و التباب و الخسران.

طبعا،يمكن للخطط السياسه و المواقف المضلّله أن تخدع الناس شطرا من الزمان،و تؤثر فيهم لفتره من الوقت،إلاّ أنّها تنتهى بالفشل على المدى البعيد.

فقد ورد فى بعض الرّوايات أنّ«هامان»قد زاد فى ارتفاع الصرح الفرعونى إلى الدرجه التى باتت الرياح الشديده مانعا عن الاستمرار بالعمل و عندها اعتذر هامان لفرعون عن الاستمرار بالبناء.

و لكن لم تمض فتره وجيزه من الزمن حتى حطمت الرياح الشديده ذلك البناء (۱) .

و اتضح أن قوه فرعون متعلقه فى ثباتها بالرياح.

ص :۲۶۴

۱- ۱) -يمكن ملاحظه ذلك فى بحار الأنوار،المجلد ۱۳،صفحه ۱۲۵،نقلا عن تفسير على بن إبراهيم.

الآيات [سوره غافر (۴۰): الآيات ۳۸ الى ۴۰]

اشاره

وَ قالَ اَلَّذِی آمَنَ یا قَوْمِ اِتَّبِعُونِ أَهْدِکُمْ سَبِیلَ اَلرَّشادِ (۳۸) یا قَوْمِ إِنَّما هٰذِهِ اَلْحَیاهُ اَلدُّنْیا مَتاعٌ وَ إِنَّ اَلْآخِرَهَ هِیَ دارُ اَلْقَرارِ (۳۹) مَنْ عَمِلَ سَیِّئَهً فَلاٰ یُجْزیٰ إِلاّٰ مِثْلَها وَ مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَکَرٍ أَوْ أُنْثیٰ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولٰئِکَ یَدْخُلُونَ اَلْجَنَّهَ یُرْزَقُونَ فِیها بِغَیْرِ حِسابٍ (۴۰)

التّفسیر

اشاره

اتبعون أهدکم سبیل الرشاد:

أشرنا آنفا إلی أنّ مؤمن آل فرعون أوضح کلامه فی مجموعه من المقاطع، و فی هذه المجموعه من الآیات الکریمه نقف أولا علی المقطع الرابع،بعد أن أشرنا فی الآیات السابقه إلی ثلاثه منها.

إنّ هذا المقطع من کلام مؤمن آل فرعون ینصب فی مضمونه علی إلفات نظر القوم إلی الحیاه الدنیویه الزائله،و قضیه المعاد و الحشر و النشر،إذ أنّ ترکیز هذه القضایا فی حیاه الناس له تأثیر جذری فی تربیتهم.

یقول تعالی: وَ قالَ الَّذِی آمَنَ یا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِکُمْ سَبِیلَ الرَّشادِ .

ص: ۲۶۵

لقد قرأنا سابقا أنّ فرعون كان يقول:إنّ ما أقوله هو طريق الرشد و الصلاح، إلاّ أنّ مؤمن آل فرعون أبطل هذا الادّعاء الفارغ،و أفهم الناس زوره،و حذرّهم أن يقعوا فريسه هذا الادّعاء،إذ أنّ خططه ستفشل و سيصاب بسوء العاقبه، فالطريق هو ما أقوله،إنّه طريق التقوى و عباده اللّه.

ثم تضيف الآيه: يٰا قَوْمِ إِنَّمٰا هٰذِهِ الْحَيٰاهُ الدُّنْيٰا مَتٰاعٌ وَ إِنَّ الْآخِرَهَ هِيَ دٰارُ الْقَرٰارِ .

يريد أن يقول لهم:لنفرض أنّنا انتصرنا ببذل الحيل و التوسّل بوسائل الخداع و المكر،و تركنا الحق وراء ظهورنا،و ارتكبنا الظلم و تورطنا بدماء الأبرياء،ترى ما مقدار عمرنا فى هذا العالم؟إنّ هذه الأيّام المعدوده ستنتهى و سنقع فى قبضه الموت الذى يجرنا من القصور الفخمه إلى تحت التراب و تكون حياتنا فى مكان آخر.

إنّ القضيه ليست فناء هذه الدنيا و بقاء الآخره و حسب،بل الأهم من ذلك هي قضيه الحساب و الجزاء،حيث يقول تعالى: مَنْ عَمِلَ سَيِّئَهً فَلاٰ يُجْزىٰ إِلاّٰ مِثْلَهٰا وَ مَنْ عَمِلَ صٰالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثىٰ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّهَ يُرْزَقُونَ فِيهٰا بِغَيْرِ حِسٰابٍ .

إنّ مؤمن آل فرعون-بكلامه هذا-آثار أولا قضيه عداله اللّه تبارك و تعالى، حيث يقاضى الإنسان بما اكتسبت يداه خيرا أو شرّا.

و من جهه ثانيه أشار فى كلامه إلى الثواب و الفضل الالهى لذوى العمل الصالح،إنّه الجزاء الذى لا يخضع لموازين الحساب الكميه،إذ يهب اللّه تبارك و تعالى للمؤمنين بغير حساب،ممّا لم تره عين أو تسمعه أذن و لا يخطر على فكر إنسان.

و من جهه ثالثه أشار للتلازم القائم بين الإيمان و العمل الصالح.

و رابعه يشير أيضا إلى مساواه الرجل و المرأه فى محضر اللّه تبارك و تعالى،

و فی القیم الإنسانیه.

لقد استخلص مؤمن آل فرعون من خلال طرحه الآنف الذکر فی أنّ الحیاه الدنیا و إن کانت متاعا لا یغنی شیئا عن الحیاه الأخری،إلاّ أنّه یمکن أن یکون وسیله للجزاء اللامتناهی هی و العطایا التی تصدر عن المطلق جلّ و علا.إذن هل هناک تجاره أربح من هذا؟ کما ینبغی أن نقول:إنّ عباره«مثلها»تشیر إلی أنّ العقاب فی العالم الآخر یشبه نفس العمل الذی قام به الإنسان فی هذه الدنیا،متشابهه کامله بکل ما للکلمه من دلاله و معنی.

أمّا تعبیر«غیر حساب»فیمکن أن یکون إشاره إلی حساب العطایا یختص بالاشخاص من ذوی المواهب المحدوده،أمّا المطلق(جلّ و علا)الذی لا تنقص خزائنه مهما بذل للآخرین(لأن کلّ ما یؤخذ من اللانهایه یبقی بلا نهایه)لذلک فهو عطاء لا یحتاج إلی حساب.

و بقیت مسأله بحاجه إلی جواب،و هی:هل ثمّه تعارض بین هذه الآیه و ما جاء فی الآیه(۱۶۰)من سوره الأنعام،حیث قوله تعالی: مَنْ جٰاءَ بِالْحَسَنَهِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثٰالِهٰا وَ مَنْ جٰاءَ بِالسَّیِّئَهِ فَلاٰ یُجْزیٰ إِلاّٰ مِثْلَهٰا وَ هُمْ لاٰ یُظْلَمُونَ .

فی الجواب علی هذا التساؤل نقول:إنّ«عشر أمثالها»إشاره للحد الأدنی من العطاء الإلهی،إذ هناک الجزاء الذی یصل إلی(۷۰۰)مرّه و أکثر،ثمّ قد یصل العطاء الإلهی إلی مستوی الجزاء ب«غیر حساب»و هو ممّا لا یعلم حدّه و لا یمکن تصوره.

الآيات [سوره غافر (۴۰): الآيات ۴۱ الی ۴۶]

اشاره

وَ يا قَوْمِ ما لِی أَدْعُوكُمْ إِلَی اَلنَّجاهِ وَ تَدْعُونَنِی إِلَی اَلنّارِ (۴۱) تَدْعُونَنِی لِأَكْفُرَ بِاللّهِ وَ أُشْرِكَ بِهِ ما لَيْسَ لِی بِهِ عِلْمٌ وَ أَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَی اَلْعَزِيزِ اَلْغَفّارِ (۴۲) لا جَرَمَ أَنَّما تَدْعُونَنِی إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَهٌ فِی اَلدُّنْيا وَ لا فِی اَلْآخِرَهِ وَ أَنَّ مَرَدَّنا إِلَی اَللّهِ وَ أَنَّ اَلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحابُ اَلنّارِ (۴۳) فَسَتَذْكُرُونَ ما أَقُولُ لَكُمْ وَ أُفَوِّضُ أَمْرِی إِلَی اَللّهِ إِنَّ اَللّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ (۴۴) فَوَقاهُ اَللّهُ سَيِّئاتِ ما مَكَرُوا وَ حاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ اَلْعَذابِ (۴۵) اَلنّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها غُدُوًّا وَ عَشِيًّا وَ يَوْمَ تَقُومُ اَلسّاعَهُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ اَلْعَذابِ (۴۶)

التّفسير

اشاره

الكلام الأخير:

فی خامس-و آخر-مرحله يزيل مؤمن آل فرعون الحجب و الأستار عن هويته،إذ لم يستطع التكتم ممّا فعل،فقد قال كلّ ما هو ضروری،أمّا القوم من ملأ

ص: ۲۶۸

فرعون،فكان لهم-كما سنرى ذلك-قرارهم الخطير بشأنه! يفهم من خلال القرائن أنّ أولئك المعاندين و المغرورين لم يسكتوا حيال كلام هذا الرجل الشجاع المؤمن،و إنّما قاموا بطرح«مزايا»الشرك فى مقابل كلامه،و دعوه كذلك إلى عباده الأصنام.

لذا فقد صرخ قائلا: وَ يٰا قَوْمِ مٰا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجٰاهِ وَ تَدْعُونَنِي إِلَى النّٰارِ .

إننى أطلب سعادتكم و أنتم تطلبون شقائى،إننى أهديكم إلى الطريق الواضح الهادى و أنتم تدعوننى إلى الانحراف و الضلال! نعم،إنّكم: تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللّٰهِ وَ أُشْرِكَ بِهِ مٰا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَ أَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفّٰارِ .

نستفيد من الآيات القرآنيه المختلفه،و من تأريخ مصر،أنّ هؤلاء القوم لم يقتصروا فى عبادتهم و شركهم و ضلالهم على الفراعنه و حسب،و إنّما كانت لهم أصنام يعبدونها من دون الواحد القهار،كما نستفيد ذلك بشكل مباشر من قوله تعالى فى الآيه(١٢٧)من سوره«الأعراف»حيث قوله تعالى: أَ تَذَرُ مُوسىٰ وَ قَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَ يَذَرَكَ وَ،آلِهَتَكَ و الآيه تحكى خطاب أصحاب فرعون و الملأ من قومه لفرعون.

و قد تكرّر نفس المضمون على لسان يوسف عليه السّلام،إذ قال لرفاقه فى سجن الفراعنه: أَ أَرْبٰابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللّٰهُ الْوٰاحِدُ الْقَهّٰارُ (١) .

لقد ذكّرهم مؤمن آل فرعون من خلال مقارنه واضحه أنّ دعوتهم إلى الشرك لا تستند على دليل صحيح،و الشرك طريق و عر مظلم محفوف بالمخاطر و سوء العاقبه و المصير،بينما دعوته(مؤمن آل فرعون)دعوه للهدى و الرشاد و سلوك طريق اللّه العزيز الغفّار.

إنّ عباره(العزيز)و(الغفار)تشير من جانب إلى مبدأ(الخوف و الرجاء) و من

١- ١) -يوسف،الآيه ٣٩.

جانب ثان تشير إلى إلغاء ألوهيه الأصنام و الفراعنه،حيث لا يملكون العزه و لا العفو.

ينتقل الخطاب القرآنی-علی لسان مؤمن آل فرعون-إلی قوله تعالی: لاٰ جَرَمَ أَنَّمٰا تَدْعُونَنِی إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِی الدُّنْيٰا وَ لاٰ فِی الْآخِرَةِ (۱) فهذه الأصنام لم ترسل الرسل إلی الناس لیدعوهم إلیهم،و هی لا تملک فی الآخره الحاکمیه علی أی شیء.

إنّ هذه الموجودات لا تملک الحس و الشعور،إنّها أصنام لا تتکلم و لا تضر و لا تنفع،و إنّ علیکم أن تعلموا: وَ أَنَّ مَرَدَّنٰا إِلَى اللّٰهِ .

فهو سبحانه و تعالی الذی أرسل رسله إلی النسا لأجل هدایتهم،و هو الذی یثیبهم و یعاقبهم علی أعمالهم.

و یجب أن تعلموا أیضا: وَ أَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحٰابُ النّٰارِ .

و هکذا کشف مؤمن آل فرعون ما کان یخفی من إیمانه،و بذلک فقد انکشف هنا خطّه الإیمانی التوحیدی،و انفصل علینا عن خط الشرک الملوث الذی یصبغ بآثامه و أوحاله الحکّام الفراعنه و من یلف حولهم،لقد رفض الرجل دعوتهم و وقف لوحده إزاء باطلهم و انحرافهم.

فی آخر کلامه-و بتهدید ذی مغزی-یقوله لهم: فَسَتَذْكُرُونَ مٰا أَقُولُ لَكُمْ .

إنّ ما قلته لکم ستذکرونه فی الدنیا و الآخره،و ستعلمون صدقی عند ما تصیبکم المصائب،و ینزل بساحتکم الغضب الإلهی،لکن سیکون ذلک کلّه بعد فوات الأوان،فإن کان فی الآخره فلا طریق الرجوع،و إن کان فی الدنیا فهو لا یتم إلاّ حین یحل بکم العذاب الإلهی،و عندها ستغلق جمیع أبواب التوبه.

---

۱ – ۱) -قلنا سابقا:إنّ«لا جرم»مرکبه من(لا)و(جرم)علی وزن(حرم)و هی فی الأصل تعنی القطع و اقتطاف الثمر،و هی ککلمه مرکبه تعنی:لا یستطیع أی شیء أن یقطع هذا العمل أو یمنعه.لذلک تستخدم بشکل عام بمعنی(حتما)و تأتی أحیانا بمعنی القسم.

ثم تضيف الآيه على لسان الرجل المؤمن: وَ أُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبٰادِ .

لهـذا كلّه لا أخشـى تهديـداتكم،و لا أرهب كثرتكم و قوتكم،و لا تخيفنى وحـدتى بيّن أيديكم،لأنى وضـعت نفسـى بين يدى المطلق ذى القدره اللامتناهيه، و المحيط علمه بكل شيء،و بأحوال عباده أينما كانوا و حلّوا.

إنّ هـذا التعبير يسـتبطن فى طياته دعاء مهذبا انطلق من الرجل المؤمن الذى وقع أسـيرا فى قبضه هؤلاء الأشـقياء الظالمين.لذلك طلب بشكل مؤدب من خالقه (جلّ و علا)أن يحميه بحمايته و ينقذه ممّا هو فيه.

اللّه تبارك و تعالى لم يترك عبده المؤمن المجاهد وحيدا و إنّما: فَوَقٰاهُ اللّهُ سَيِّئٰاتِ مٰا مَكَرُوا .

إنّ التعبير ب سَـيِّئٰاتِ مٰا مَكَرُوا يفيد أنّهم وضـعوا خططا مختلفه ضدّه...ترى ما هى هذه الخطط؟ فى الواقع،إنّ القرآن لم يذكرها بـل تركهـا مجهوله،لكنّهـا-حتمـا-لاـ تخرج عن ألوان العقـاب و التعـذيب ينزلونه بالرجل قبل أن يحل به القتل و الإعـدام،إلاّ أنّ اللطف الإلهى أبطل مفعولها جميعا و أنجاه منهم.

تفيـد بعض التفاسـير أنّ مـؤمن آل فرعـون انتهز فرصه مناسـبه فـالتحق بموسـى عليه السّـلام،و عبّر البحر مع بنى إسـرائيل.و قيل أيضا:أنّه هرب إلى الجبل عند ما صدر عليه قرار الموت،و بقى هناك مختفيا عن الأنظار (۱) .

و من الطبيعى أن لا يكون هناك تعارض بين الرأيين،إذ يمكن أن يكون قد هرب إلى الجبل أولا،ثمّ التحق ببنى إسرائيل.

و قـد يكون من مؤامراتهم عليه،محاولتهم فرض عباده الأصـنام عليه و إخراجه من خط التوحيـد،إلاّ أن اللّه تبارك و تعالى أنجاه من مكرهم و رسخ قدمه

۱- ۱) -يراجع تفسير مجمع البيان فى نهايه الحديث عن الآيه مورد البحث.

فی طریق الإیمان و الهدی.

أمّا القوم الظالمون فقد کان مصیرهم ما یرسمه لنا القرآن الکریم: وَ حٰاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذٰابِ (۱) .

إنّ العـذاب و العقاب الإلهی ألیم بمجمله،إلّا أنّ تعبیر«سوء العذاب»یظهر أنّ اللّه تبارک و تعالی انتخب لهم عذابا أشد إیلاما من غیره، و هو ما تشیر إلیه الآیه التی بعدها،حیث قوله تعالی: اَلنّٰارُ یُعْرَضُونَ عَلَیْهٰا غُدُوًّا وَ عَشِیًّا (۲) ثم: وَ یَوْمَ تَقُومُ السّٰاعَهُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذٰابِ .

و هنا نلفت النظر إلی الملاحظات الثلاث الآتیه:

أولا:استخدام تعبیر(آل فرعون)إشاره إلی العائله و الأنصار و الأصحاب الضالین،و عند ما یکون هـذا هو مصیر الآل،تری ماذا یکون مصیر نفس فرعون؟ ثانیا:تقول الآیه:إنهم یعرضون علی النّار صباحا و مساء،ثمّ تقول:فی یوم القیامه یکون العذاب أشد ما یمکن.و هـذا دلیل علی أنّ العـذاب الأوّل یختص بعالم البرزخ،و هو ممّا یلی موت الإنسان و مغادره روحه جسده،و یقع قبل یوم القیامه ...إنّ العرض علی نار جهنّم یهز الإنسان و یجعله یرتعد خوفا و هلعا.

ثالثا:إن تعبیر ب(الغدو)و(العشی)قد تکون فیه إشاره إلی استمرار العذاب.

أو قد یفید انقطاع العذاب البرزخی لیقتصر علی(الغدو)و(العشی)أی الصبح و المساء،و هو الوقت الذی یقترن فی حیاه الفراعنه و أصحابهم و مع أوقات لهوهم و استعراضهم لقوتهم و جبروتهم فی حیاتهم الدنیا.

و ینبغی أن لا نتعجب هنا من کلمتی(الغدو)و(العشی)فنسأل:و هل فی البرزخ ثمّه صباح و مساء؟لأنّ الصبح و اللیل موجودان حتی فی یوم القیامه،کما

---

۱ – ۱) -(حاق)بمعنی أصاب و نزل،و لکن احتملوا أیضا أن یکون أصلها(حق)فتغیرت إحدی القافین فیها إلی ألف فأصبحت (حاق)[یلاحظ ذلک فی مفردات الراغب کلمه حاق] .ضمنا فإنّ(سوء العذاب)من قبیل إضافه الصفه إلی الموصوف،إذ کانت فی الأصل(العذاب السوء).

۲– ۲) -«النّار»بدل عن(سوء العذاب).

نقرأ فی قوله تعالی: وَ لَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهٰا بُكْرَةً وَ عَشِيًّا (۱) .

و هـذا الأـمر لا یتعارض مع دوام نعم الجنّه و اسـتمرارها،کما جاء فی الآیه (۳۵)من سوره(الرعـد)حیث قوله تعالی: أُكُلُهٰا دٰائِمٌ وَ ظِلُّهٰا حیث یمکن أن تشمل الألطاف الإلهیه أهل الجنّه فی خصوص هذین الوقتین،بینما تکون نعم الجنّه دائمه باقیه.

بحوث

اشاره

أوّلا:مؤمن آل فرعون و الدرس العظیم فی مواجهه الطواغیت

إنّ القلیـل من النـاس یؤمنون بالأدیان الإلهیه و المـذاهب السـماویه فی بـدایه الأمر و یقومون بتحـدی الجبابره و الطواغیت،و إذا توجست هـذا القلّه المخلصه خوفا من أعـدائها،أو أنّها شـکت بأنّ کثره دلیل علی حقانیتهم،فلن یکون بمقدور الأدیان الإلهیه أن تمتد و تنتشر فی الدنیا.

إنّ الأساس الذی یتحکم فی منطلق هذه البرامج الهادیه و الأطروحات الوضّاءه،هو

قول أمیر المؤمنین علی علیه السّلام: «أیّها الناس،لا تستوحشوا فی طریق الهدی لقلّه أهله» (۲) .

لقـد کان مؤمن آل فرعون نموذجا لهـذه المدرسه،و کان من الأوائل فی هذا الطریق،و أثبت أنّ الإنسان المؤمن یسـتطیع بعزمه و إرادته القویه-النـابعه من إیمـانه بـاللّه تعالی-التأثیر حتی فی إراده الفراعنه الجبابره؛بل و أن یوفّر سـبل النجاه لنبی کبیر من أنبیاء أولی العزم.

إنّ تأریخ حیاه هذا الرجل الشجاع الذکی،یثبت ضروره أن تکون خطوات

۱- ۱) -مریم-۶۲.

۲- ۲) -نهج البلاغه،الخطبه رقم ۲۰۱.

أهل الـدعوه و الحق على غايه قصوى من الـدقه و الحـذر،إذ يجب أحيانا التكتم على الإيمان و إخفاء القناعات الحقه،كما يجب فى أحيان اخرى الجهر بدعوه الحق و إظهار الإيمان.

إنّ التقيه ليست سوى إخفاء اعتقاد الإنسان و التكتم عليه فى فتره معينه فى سبيل الأهداف المقدّسه.

و كما يعتبر التسلّح بالسلاح المادى الظاهرى من ضرورات المنعه و أسباب دحر العدو،كذلك فإنّ المنطق القوى و الحجّه البالغه هى سـلاح ضـرورى قد يعادل فى تأثيره السلاح المادى عده مرّات.لذا فإنّ العمل الذى قام به(مؤمن آل فرعون)بواسطه منطقه و قوه حجته و حكمه تصرفه لم يكن ليعادله أى سلاح آخر.

ثم إنّ قصه هذا الرجل المؤمن تظهر أنّ اللّه جلّ و علا لا يترك عباده المؤمنين وحيدين،بل يحميهم بلطفه عن الأخطار.

و أخيرا فإن من الضرورى أن نشير إلى حياه مؤمن آل فرعون انتهت كما فى بعض الروايات إلى الاستشهاد،و أنّ ما يقوله القرآن من حفظ اللّه له و وقايته له يمكن تأويله بإنقاذه من براثن خططهم الشـيطانيه فى إغوائه و جرّه إلى ساحه الضلال و الشرك،و أنّ اللّه أنجاه من سوء المنقلب و انحراف العقيده (۱) .

ثانيا:تفويض الأمور إلى اللّه

فيما يخص التفويض إلى اللّه تبارك و تعالى يكفى أن نفتتح الحديث

بقول لأـمير المؤمنين على بن أبى طـالب عليه السّـلام،جـاء فيه: «الإيمان له أربعه أركان:التوكل على اللّه،و تفويض الأمر إلى اللّه عزّ و جلّ و الرضى بقضاء اللّه،و التسليم لأمر

۱- ۱) - جاء فى كتاب(محاسن البرقى):عن الإمام الصادق عليه السّلام فى تفسير قوله تعالى: فَوَقٰاهُ اللّٰهُ سَيِّئٰاتِ مٰا مَكَرُوا قوله عليه السّلام:«أما لقد سطوا عليه و قتلوه و لكن أ تدرون ما وقاه؟وقاه أن يفتنوه فى دينه» نور الثقلين،المجلد الرابع،ص ۵۲۱.

اللّه» (۱) .

و فی حدیث آخر

عن الإمام الإمام الصادق أنّه علیه السّلام قال: «المفوض أمره إلی اللّه فی راحه الأبد،و العیش الدائم الرغد،و المفوض حقّا هو العالی عن کلّ همه دون اللّه» (۲) .

«التفویض»کما یقول الراغب فی مفرداته،یعنی«التوکل، لذا فإنّ تفویض الأمر إلی اللّه یأتی بمعنی توکیل الأعمال إلیه،و هذا لا یعنی أن یترک الإنسان الجد و الجهد،إذ أنّ هذا السلوک ینطوی علی فهم محرّف لمعنی التفویض،بل علیه أن یبذل کلّ جهده و لا یتخوّف الصعاب التی تواجهه،أو یترک العمل إذعانا لها،بل علیه أن یسلّم أمره و عمله إلی اللّه،و یستمر فی بذل الجهد بعزم راسخ و همه عالیه.

و بالرغم من أنّ«التفویض»یشبه«التوکل»إلی حد کبیر،إلاّ أنّه یعتبر مرحله أفضل منه.لأنّ حقیقه(التوکل)هی أن یعتبر الإنسان اللّه تبارک و تعالی وکیلا عنه، لکن التفویض یعنی التسلیم المطلق للّه تعالی.و فی حیاتنا العملیه نری أنّ الإنسان الذی یتخذ لنفسه وکیلا یواصل إشرافه علی عمله.إلاّ أنّه فی حاله التفویض لا یبقی أی مجال لإشراف من أی نوع،بل تترک الأمور إلی من فوّضت إلیه.

ثالثا:عالم البرزخ

«البرزخ»-کما یدل علیه اسمه-هو عالم یتوسط بین عالمنا هذا و العالم الآخر.و فی القرآن الکریم یکثر الحدیث عن العالم الآخر،و لکنّه قلیل عن عالم البرزخ.و لهذا السبب هناک هاله من الغموض و الإبهام تحیط بالبرزخ،و بالتالی لا نعرف الکثیر من خصائصه و جزئیاته،و لکن عدم معرفه التفاصیل الجزئیه لا تؤثر علی أصل الاعتقاد بالبرزخ الذی صرّح القرآن بأصل وجوده.

۱- ۱) -بحار الأنوار،المجلد ۶۸،صفحه ۳۴۱.

۲- ۲) -سفینه البحار،المجلد الثّانی،صفحه ۳۸۴،ماده«فوض».

إنّ الآیات أعلاه تعتبر من الآیات التی عبّرت بصراحه عن وجود هذا العالم، حینما قالت:إنّ آل فرعون یعرضون صباحا و مساء علی النّار قبل القیامه،و ذلک کنوع من العقاب البرزخی لهم.

من جانب آخر،فإنّ الآیات التی تتحدث عن حیاه الشهداء الخالده بعد الموت،و الثواب العظیم الذی ینالهم،تدل هی الأخری علی وجود(البرزخ).

و

فی حدیث عن رسول صلّی اللّه علیه و اله و سلّم قال: «إنّ أحدکم إذا مات عرض علیه مقعده بالغداه و العشی،إن کان من أهل الجنّه فمن الجنّه،و إن کان من أهل النّار فمن النّار،یقال:هذا مقعدک حیث یبعثک اللّه یوم القیامه» (۱) .

أما

الإمام جعفر بن محمّد الصادق علیه السّلام فیقول عن البرزخ: «ذلک فی الدنیا قبل یوم القیامه لأنّ فی نار القیامه لا یکون غدو و عشی»ثمّ قال:«إن کانوا یعذبون فی النّار غدوا و عشیا ففیما بین ذلک هم من السعداء،لا-و لکن هذا فی البرزخ قبل یوم القیامه،ألم تسمع قوله عزّ و جلّ:و یوم تقوم الساعه ادخلوا آل فرعون أشد العذاب» (۲) .

الإمام علیه السّلام لم یقل بعدم وجود الصباح و السماء فی القیامه،بل یقول:إنّ نار جهنّم أبدیه خالده لا تعرف الصباح و المساء.أمّا العقاب الذی له مواقیت فی الصباح و السماء فهو عالم البرزخ،ثمّ یدلل علیه السّلام علی الجمله التی بعدها و التی تتحدث عن القیامه،علی أنّها قرینه باختصاص الجمله السابقه بالبرزخ.

لقد تعرضنا إلی عالم البرزخ مفصلا أثناء الحدیث عن الآیه(۱۰۰)من سوره «المؤمنون».

---

۱ - ۱) -ینقل هذه الروایه کلّ من البخاری و مسلم فی صحیحیهما(طبقا کما یذکره الطبرسی و صاحب الدر المنثور و القرطبی،أثناء حدیثهم عن الآیه المذکوره أعلاه)أما صحیح مسلم فیعقد بابا حول الروایات المتعلقه بالبرزخ،إذ یمکن مراجعته فی المجلد الرابع،صفحه ۲۱۹۹.

۲- ۲) -مجمع البیان،المجلد الثامن،صفحه ۵۲۶.

الآیات [سوره غافر (۴۰): الآیات ۴۷ الی ۵۰]

اشاره

وَ إِذْ یَتَحَاجُّونَ فِی اَلنّٰارِ فَیَقُولُ اَلضُّعَفٰاءُ لِلَّذِینَ اِسْتَکْبَرُوا إِنّٰا کُنّٰا لَکُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنّٰا نَصِیباً مِنَ اَلنّٰارِ (۴۷) قٰالَ اَلَّذِینَ اِسْتَکْبَرُوا إِنّٰا کُلٌّ فِیهٰا إِنَّ اَللّٰهَ قَدْ حَکَمَ بَیْنَ اَلْعِبٰادِ (۴۸) وَ قٰالَ اَلَّذِینَ فِی اَلنّٰارِ لِخَزَنَهِ جَهَنَّمَ اُدْعُوا رَبَّکُمْ یُخَفِّفْ عَنّٰا یَوْماً مِنَ اَلْعَذٰابِ (۴۹) قٰالُوا أَ وَ لَمْ تَکُ تَأْتِیکُمْ رُسُلُکُمْ بِالْبَیِّنٰاتِ قٰالُوا بَلیٰ قٰالُوا فَادْعُوا وَ مٰا دُعٰاءُ اَلْکٰافِرِینَ إِلاّٰ فِی ضَلاٰلٍ (۵۰)

التّفسیر

اشاره

نقاش الضعفاء و المستکبرین فی جهنّم:

لقد لفت مؤمن آل فرعون فی نهایه کلامه نظر القوم إلی القیامه و العذاب و جهنم،لذلک جاءت هذه المجموعه من الآیات الکریمه و هی تقف بشکل رائع دقیق علی تحاجج و تخاصم أهل النّار فیما بینهم،و بالذات تحاجج المستضعفین مع المستکبرین.

یقول تعالی: وَ إِذْ یَتَحٰاجُّونَ فِی النّٰارِ فَیَقُولُ الضُّعَفٰاءُ لِلَّذِینَ اسْتَکْبَرُوا إِنّٰا کُنّٰا

ص: ۲۷۷

لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنّٰا نَصِيباً مِنَ النّٰارِ

(۱)

.

المراد من«الضـعفاء»هنا هم أولئك الـذين يفتقـدون العلم الكافی و الاسـتقلال الفكری،إذ كان هؤلاء يتبعون زعماء الكفر الـذی يطلق عليهم القرآن اسم المستكبرين،و كانت التبعيه مجرّد انقياد أعمی بلا تفكير أو وعی.

و لكن هؤلاء الأتباع يعلمون أنّ العذاب سيشمل زعماءهم و لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم،فلما ذا إذن يستغيثون بهم و يلجأون إليهم كی يتحملوا عنهم قسطا من العذاب.

ذهب البعض إلی أنّ ذلك يحصل تبعا لعادتهم فی الانقياد إلی زعمائهم فی هـذه الـدنيا،لذلك تكون اسـتغاثتهم بهم فی الآخره كنوع من الانقياد اللاّإرادی وراء قادتهم.

و لكن الأفضـل أن نقول:إن الإسـتغاثه هنـاك هی نوع من السـخريه و الاسـتهزاء و اللوم،يوم يثبت أنّ كلّ ادعاءات المسـتكبرين مجرّد تقولات زائفه عاريه عن المضمون و الحقيقه (۲) .

(و فی الحقيقه فان الإمام أمير المؤمنين-يحذر بهذا الكلام أولئك الذين سـمعوا وصايا رسول اللّه صلّی اللّه عليه و اله و سلّم فی يوم الغدير-أو أنّها وصلتهم بطريق صحيح-ثمّ اعتذروا بأنّهم نسوها ليتبعوا أناسا آخرين).

إنّ المسـتكبرين لم يسـكتوا علی هـذا الكلاـم و ذكورا جوابـا يـدل علی ضـعفهم الكامـل و ذلتهم فی ذلـك الموقف المهول،إذ يحكی القرآن علی لسان قولهم: قٰالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنّٰا كُلٌّ فِيهٰا إِنَّ اللّٰهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبٰادِ .

يريدون أن يقولوا:لو كان بمستطاعنا حل مشاكلكم فالأحری بنا و الأجدر

۱- ۱) -يتصور البعض أنّ الضـمير فی«يتحاجون»يعود إلی آل فرعون،إلاّ أنّ القرائن تفيد أنّ الآيه تنطوی علی مفهوم عام يشـمل جميع الكفّار.

۲- ۲) -«تبعا»جمع تابع،و البعض يحتمل أن تكون مصدرا،خصوصا و أنّ إطلاق المصدر علی الأشخاص الموصوفين بصفه معينه أمر متعارف.و المعنی فی هذه الحال هو:إنّنا كنا لكم عين التبعيه.

أن نحل مشاكلنا و ما حلّ بنا،و لكنا لا نستطيع أن نمنع العذاب عن أنفسنا و لا عنكم،و لا أن نحتمل عنكم جزاء من العقاب! و الملاحظ هنا أنّ الآيه(٢١)من سوره«إبراهيم»تتضمن نفس هذا الاقتراح من قبل الضعفاء إزاء المستكبرين،الذين قالوا جوابا على هذا: لَوْ هَدانَا اللّهُ لَهَدَيْناكُمْ سَواءٌ عَلَيْنا أَ جَزِعْنا أَمْ صَبَرْنا ما لَنا مِنْ مَحِيصٍ .

و المقصود بالهدايه هنا هى الهدايه الى طريق الخلاص من العذاب.

و هكذا يظهر أنّ هذين الجوابين لا يتعارضان فيما بينهما،بل يكمل أحدهما الآخر.

و عند ما تغلق فى وجههم السبل،سبل النجاه و الخلاص،يتوجه الجميع إلى خزنه النّار: وَ قالَ الَّذِينَ فِي النّارِ لِخَزَنَهِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنّا يَوْماً مِنَ الْعَذابِ (١) .

إنهم يعلمون أنّ العذاب الإلهى لا يرتفع،لذلك يطلبون أن يتوقف عنهم و لو ليوم واحد كى يرتاحوا قليلا...إنّهم قانعون بهذا المقدار! لكن إجابه الخزنه تأتى منطقيه واضحه: قالُوا أَ وَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّناتِ ؟ و فى الجواب قالوا: قالُوا بَلى .

فيستطرد الخزنه: قالُوا فَادْعُوا وَ ما دُعاءُ الْكافِرِينَ إِلاّ فِي ضَلالٍ .

إنّكم بأنفسكم اعترفتم بأنّ الأنبياء و الرسل جاءوا بالدلائل الواضحه، و لكنّكم كفرتم بما جاءكم و كذبتم الأنبياء.لذلك لا ينفعكم الدعاء،لأنّ اللّه لا يستجيب لدعاء الكافرين.

بعض المفسّرين يرى فى تفسير الجمله الاخيره أنّ المراد هو أنّنا لا نستطيع الدعاء لكم بدون اذن من اللّه تعالى،فادعوا أنتم بذلك،و ذلك اشاره الى انغلاق

١- ١) -«خزنه»جمع خازن،و تعنى الحارس.

سبل النجاه أمامكم.

صحيح أنّ الكافر يصبح مؤمنا فی یوم القيامه،إلّا أنّ هذا الإيمان لا يقلل من آثار كفره،لذلك يلازمه لقب الكافر.

لكن يبدو أنّ التّفسير الأوّل أفضل و أكثر قبولا.

ص :٢٨٠

الآیات [سوره غافر (۴۰): الآیات ۵۱ الی ۵۵]

اشاره

إِنّٰا لَنَنْصُرُ رُسُلَنٰا وَ اَلَّذِینَ آمَنُوا فِی اَلْحَیٰاهِ اَلدُّنْیٰا وَ یَوْمَ یَقُومُ اَلْأَشْهٰادُ (۵۱) یَوْمَ لاٰ یَنْفَعُ اَلظّٰالِمِینَ مَعْذِرَتُهُمْ وَ لَهُمُ اَللَّعْنَهُ وَ لَهُمْ سُوءُ اَلدّٰارِ (۵۲) وَ لَقَدْ آتَیْنٰا مُوسَی اَلْهُدیٰ وَ أَوْرَثْنٰا بَنِی إِسْرٰائِیلَ اَلْکِتٰابَ (۵۳) هُدیً وَ ذِکْریٰ لِأُولِی اَلْأَلْبٰابِ (۵۴) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اَللّٰهِ حَقٌّ وَ اِسْتَغْفِرْ لِذَنْبِکَ وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّکَ بِالْعَشِیِّ وَ اَلْإِبْکٰارِ (۵۵)

التّفسیر

اشاره

الوعد بنصر المؤمنین:

بعد أن تحدثت الآیات السابقه عن تحاجج أهل النّار و عجزهم عن أن ینصر أحدهم الآخر،و بعد أن تحدثت الآیات التی سبقتها عن مؤمن آل فرعون و حمایه اللّه له من کید فرعون و آل فرعون،عادت هذه المجموعه من الآیات البینات تتحدث عن شمول الحمایه و النصر الإلهی لأنبیاء اللّه و رسله و للذین آمنوا،فی هذه الدنیا و فی الآخره.

إنّها تتحدث عن قانون عام تنطق بمضمونه الآیه الکریمه: إِنّٰا لَنَنْصُرُ رُسُلَنٰا

وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِی الْحَیاهِ الدُّنْیا وَ یَوْمَ یَقُومُ الْأَشْهادُ

.

إنّها الحمایه المؤکّده بأنواع التأکید،و التی لا ترتبط بقید أو شرط،و التی یستتبعها الفوز و النصر،النصر فی المنطق و البیان،و فی الحرب و المیدان،و فی إرسال العذاب الإلهی علی القوم الظالمین،و فی الإمداد الغیبی الذی یقوی القلوب و یشد الأرواح و یجذبها إلی بارئها جلّ و علا.

إنّ الآیه تواجهنا باسم جدید لیوم القیامه هو: یَوْمَ یَقُومُ الْأَشْهادُ .

«أشهاد»جمع«شاهد»أو«شهید»(مثل ما أنّ أصحاب جمع صاحب، و أشراف جمع شریف)و هی تعنی الذی یشهد علی شیء ما.

لقد ذکرت مجموعه من الآراء حول المقصود بالأشهاد،نستطیع اجمالها بما یلی:

۱-الأشهاد هم الملائکه الذین یراقبون أعمال الإنسان.

۲-هم الأنبیاء الذین یشهدون علی الأمم.

۳-هم الملائکه و الأنبیاء و المؤمنون الذین یشهدون علی أعمال الناس.

أمّا احتمال أن تدخل أعضاء الإنسان ضمن هذا المعنی،فهو أمر غیر وارد، بالرغم من شمولیه مصطلح«الأشهاد»لأنّ تعبیر یَوْمَ یَقُومُ الْأَشْهادُ لا یتناسب و هذا الاحتمال.

إنّ التعبیر یشیر إلی معنی لطیف،حیث یرید أن یقول أنّ: یَوْمَ یَقُومُ الْأَشْهادُ الذی تنبسط فیه الأمور فی محضر اللّه تبارک و تعالی،و تنکشف السرائر و الأسرار لکافه الخلائق،هو یوم تکون الفضیحه فیه أفظع ما تکون،و یکون الإنتصار فیه أروع ما یکون...إنّه الیوم الذی ینصر اللّه فیه الأنبیاء و المؤمنین و یزید فی کرامتهم.

إنّ یوم الأشهاد یوم افتضاح الکافرین و سوء عاقبه الظالمین،هو: یَوْمَ لا یَنْفَعُ الظّالِمِینَ مَعْذِرَتُهُمْ وَ لَهُمُ اللَّعْنَهُ وَ لَهُمْ سُوءُ الدّارِ .

فمن جهه هو یوم لا تنفع المعذره فیه،و لا یحول شیء دون افتضاح الظالمین أمام الأشهاد.

و من جهه اخری هو یوم تشمل اللعنه الإلهیه فیه الظالمین،و اللعنه هنا البعد عن الرحمه.

و من جهه ثالثه هو یوم ینزل فیه العذاب الجسمانی علی الظالمین،و یوضعون فی أسوأ مکان من نار جهنم.

سؤال:

إنّ الآیه تفتح المجال واسعا للسؤال التالی،:إذا کان اللّه(تبارک و تعالی)قد وعد حتما بانتصار الأنبیاء و المؤمنین،فلما ذا نشاهد،-علی طول التأریخ-مقتل مجموعه من الأنبیاء و المؤمنین علی أیدی الکفار؟و لماذا ینزل بهم الضیق و الشده من قبل أعداء اللّه،ثمّ لماذا تلحق بهم الهزیمه العسکریه؟و هل یکون ذلک نقضا للوعد الإلهی الذی تتحدث عنه الآیه الکریمه؟ الجواب علی کلّ هذه الأسئله المتشعبه یتضح من خلال ملاحظه واحده هی:

إن أکثر الناس ضحیه المقاییس المحدوده فی تقییم مفهوم النصر،إذ یعتبرون الإنتصار یتمثل فقط فی قدره الإنسان علی دحر عدوه،أو السیطره علی الحکم لفتره وجیزه! إنّ مثل هؤلاء لا یرون أی اعتبار لانتصار الهدف و تقدم الغایه،أو تفوق و انتشار المذهب و الفکره،هؤلاء لا ینظرون إلی قیمه المجاهد الشهید الذی یتحول إلی نموذج و قدوه فی حیاه الناس و علی مدی الأجیال.و لا ینظرون إلی القیمه الکبری التی یستبطنها مفهوم العزه و الکرامه و الرفعه التی ینادی بها أحرار البشر و القرب من اللّه تعالی و نیل رضاه.

و بدیهی إنّ الانحباس فی إطار هذا التقییم المحدود یجعل من العسیر الجواب

على ذلک الاشکال،أما الانطلاق إلى أفق المعانی الواسعه الوضّاءه لمفهوم النصر الإلهی و الأخذ بنظر الاعتبار القیم الواقعیه للنصر سیؤدی بنا الی معرفه المعنی العمیق للآیه.

ثمّه کلام لطیف لسیّد قطب فی تفسیره«فی ظلال القرآن»یناسب هذا المقام، إذ یورد فیه ذکری بطل کربلاء الإمام الحسین علیه السّلام کمثال على المعنی الواسع لمفهوم النصر فیقول: «...و الحسین-رضوان اللّه علیه و هو یستشهد فی تلک الصوره العظیمه من جانب،المفجعه من جانب،أ کانت هذه نصرا أم هزیمه؟فی الصوره الظاهره و بالمقیاس الصغیر کانت هزیمه.فأمّا فی الحقیقه الخالصه و بالمقیاس الکبیر فقد کانت نصرا.فما من شهید فی الأرض تهتز له الجوانح بالحب و العطف و تهفوا له القلوب و تجیش بالغیر و الفداء کالحسین رضوان اللّه علیه،یستوی فی هذا المتشیعون و غیر المتشیعین من المسلمین و کثیر من غیر المسلمین» (۱) .

و ینبغی أن نضیف إلى هذا الکلام أن شیعه أهل البیت علیهم السلام یشاهدون کل یوم بأعینهم آثار الخیر من حیاه سیّد الشهداء الإمام أبی عبد اللّه الحسین علیه السّلام و یلمسون آثار استشهاده و استشهاد صحبه البرره من أهل بیته و أصحابه؛إن مجالس العزاء التی تقام للحدیث عن مناقب الحسین و صحبه الکرام هی ینبوع الخیر لحرکه عظیمه ثرّه ما زال عطاؤها لم و لن ینضب! لقد شاهدنا بأعیننا و من خلال النموذج الثوری الذی شهدته أرض إیران المسلمه،کیف استطاع الملایین من أبناء الإسلام أن یتحرکوا فی أیّام عاشوراء للقضاء على الظلم و الطغیان و الاستکبار.

لقد شاهدنا بأعیننا کیف استطاع هذا الجیل المضحی الذی تربی فی مدرسه أبی الشهداء الحسین علیه السّلام و تغذی ممّا تدره مجالس عزائه،أن یحطّم بأید خالیه عرش أقوی السلاطین الجبّارین.

۱- ۱) -فی ظلال القرآن،ج ۷،ص ۱۸۹-۱۹۰.

نعم،لقد شاهدنا دم الحسين الشهيد و قد سرى فى العروق عزه و حركه و انتفاضه،و غيرت الحسابات السياسيه و العسكريه للدول الكبرى.

بعد كلّ ذلك،و مع كلّ العطاء الثر الهادى الذى استمدته كلّ الأجيال-خلال التأريخ-من ذكرى الطف و سيّد الشهداء،ألا يعتبر الحسين عليه السّلام منتصرا حتى باتت آثار نصره الظافر حاضره فينا بالرغم من مرور أكثر من ثلاثه عشر قرنا على استشهاده!؟

سؤال آخر

ثمه سؤال آخر يتبلور من المقابله بين الآيه التى بين أيدينا و الآيه(۳۶)من سوره«المرسلات»إذ نقرأ الآيه التى نحن بصددها أنّ اعتذار الظالمين لا يؤثر و لا ينفعهم يوم القيامه،فيما تنص الآيه من سوره المرسلات على أنّه لا يسمح لهم بالاعتذار أصلا،حيث قوله تعالى: وَ لاٰ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ فكيف يا ترى نوفّق بين الإثنين؟ قبل الإجابه ينبغى الانتباه إلى ملاحظتين:

الأولى:أنّ ليوم القيامه مواقف معينه تختلف شرائطها،ففى بعضها يتوقف اللسان عن العمل و تنطق الأرجل و الأيدى و الجوارح،و تقوم بالشهاده على عمل الإنسان.و فى مواقف اخرى ينطلق اللسان بالنطق و الكلام(كما تحكى ذلك الآيه ۶۵ من سوره«يس»و الآيات السابقه فى هذه السوره التى تحدث عن تحاجج أهل النّار).

بناء على هذا،فلا مانع من عدم السماح لهم بالاعتذار فى بعض المواقف،فى حين يسمح لهم فى مواقف اخرى،و إن كان الاعتذار لا يجدى شيئا و لا يغير من المصير.

الملاحظه الثانيه:إنّ الإنسان يتحدث فى بعض الأحيان بكلام لا فائده منه،

ففی مثل هذه الموارد یکون الشخص کمن لم یتکلّم أصلا.بناء علی هذا یمکن أن تکون الآیه الداله علی عدم السماح لهم بالاعتذار تقع وفق هذا المعنی، أی أنّ اعتذارهم برغم خروجه من أفواههم،إلاّ أنّه لا فائده ترجی منه.

تنتقل الآیات الکریمه بعد ذلک للحدیث عن أحد الموارد التی انتصر فیها الرسل نتیجه الحمایه الإلهیه و الدعم الربّانی لهم،فتتحدث عن النّبی الکلیم علیه السّلام:

وَ لَقَدْ آتَیْنا مُوسَی الْهُدیٰ وَ أَوْرَثْنا بَنِی إِسْرائِیلَ الْکِتابَ

.

إنّ هدایه اللّه لموسی تنطوی علی معانی واسعه إذ تشمل مقام النبوه و الوحی،و الکتاب السماوی(التوراه)و المعاجز التی وقعت علی یدیه علیه السّلام أثناء تنفیذه لرسالات ربّه و تبلیغه إیّاها.

إن استخدام کلمه«میراث»بالنسبه إلی التوراه یعود إلی أنّ بنی إسرائیل توارثوه جیلا بعد جیل،و کان بإمکانهم الاستفاده منه بدون مشقه،تماما مثل المیراث الذی یصل إلی الإنسان بدون عناء و تعب،و لکنّهم فرّطوا بهذا المیراث الإلهی الکبیر.

الآیه التی بعدها تضیف: هُدیً وَ ذِکْریٰ لِأُولِی الْأَلْبابِ (1) .

الفرق بین«الهدایه»و«الذکری»أنّ الهدایه تکون فی مطلع العمل و بدایته، أما التذکیر فهو یشمل تنبیه الإنسان بأمور سمعها مسبقا و آمن بها لکنّه نسیها.

و بعباره اخری:إنّ الکتب السماویه تعتبر مشاعل هدایه و نور فی بدایه انطلاقه الإنسان،و ترافقه فی أشواط حیاته تبث من نورها و هداها علیه.

و لکن الذی یستفید من مشاعل الهدی هذه هم«أولو الألباب»و أصحاب العقل،و لیس الجهله و المعاندون المتعصبون.

الآیه الاخیره-من المقطع الذی بین أیدینا-تنطوی علی وصایا و تعلیمات

۱- ۱) -یمکن أن تکون«هدی و ذکری»مفعولا لأجله أو مصدرا بمعنی الحال،أی(هادیا و مذکرا لأولی الألباب)لکن البعض احتمل أن تکون بدلا أو خبرا لمبتدأ محذوف،إلاّ أن ذلک غیر مناسب کما یبدو.

مهمّه للرسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم و هى فى واقعها تعليمات عامه للجميع،بالرغم من أنّ المخاطب بها هو شخص الرّسول الكريم صلّى اللّه عليه و اله و سلّم.

يقول تعالى: فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللّٰهِ حَقٌّ .

عليك أن تصبر على عناد القوم و لجاجه الأعداء.

عليك أن تصبر حيال جهل بعض الأصدقاء و المعارف،و تتحمل أحيانا أذاهم و تخاذلهم.

و عليك أيضا أن تصبر إزاء العواطف النفسيه.

إنّ سر انتصارك فى جميع الأمور يقوم على أساس الصبر و الاستقامه.

ثم اعلم أنّ وعد اللّه بنصرك و أمتك لا يمكن التخلف عنه،و إيمانك-و إيمانهم -بحقانيه الوعد الإلهى يجعلك مطمئنا و مستقيما فى عملك،فتهون الصعاب عليك و على المؤمنين.

لقد أمر اللّه تعالى رسوله مرّات عديده بالصبر،و الأمر بالصبر جاء مطلقا فى بعض الموارد،كما فى الآيه التى بصددها،و جاء مقيدا فى موارد اخرى و يختص بأمر معين،كما فى الآيتين(۳۹-۴۰)من سوره«ق»: فَاصْبِرْ عَلىٰ مٰا يَقُولُونَ .

و كذلك يخاطبه تعالى فى الآيه(۲۸)من سوره الكهف بقوله تعالى: وَ اصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدٰاةِ وَ الْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَ لاٰ تَعْدُ عَيْنٰاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيٰاةِ الدُّنْيٰا وَ لاٰ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنٰا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنٰا وَ اتَّبَعَ هَوٰاهُ وَ كٰانَ أَمْرُهُ فُرُطاً .

إنّ جميع انتصارات الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم و المسلمين الأوائل إنّما تمّت بفضل الصبر و الاستقامه و اليوم لا بدّ أن نسير على خطى رسول اللّه،و نصبر كما صبر الرّسول و أصحابه إذ لولاه لما حالفنا النصر مقابل أعدائنا الألداء.

الفقره الأخرى من التعليمات الربانيه تقول: وَ اسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ .

واضح أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم معصوم لم يرتكب ذنبا و لا معصيه،لكنّا قد أشرنا

فی غیر هذا المکان إلی أنّ أمثال هذه التعابیر فی القرآن الکریم،و التی تشمل فی خطابها الرّسول الأکرم و سائر الأنبیاء،إنّما تشمل ما نستطیع تسمیته ب«الذنوب النسبیه»لأنّ من الأعمال ما هو عباده و حسنه بالنسبه للناس العادیین،بینما هی ذنب للرسل و الأنبیاء لأنّ:(حسنات الأبرار سیئات المقربین).

فالغفله-مثلا-لا تلیق بمقامهم،و لو لحظه واحده.و کذلک الحال بالنسبه لترک الأولی،إذ أن منزلتهم الرفیعه و معرفتهم العالیه تتوجب أن یحذروا هذه الأمور و یستغفروا منها متی ما صدرت عنهم.

و ما ذهب إلیه البعض من أنّ المقصود بالذنوب هی ذنوب المجتمع،أو ذنوب الآخرین التی ارتکبوها بشأن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم أو أنّ الاستغفار تعبدی فهو بعید.

الفقره الأخیره فی الآیه الکریمه تقول: وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّکَ بِالْعَشِیِّ وَ الْإِبْکارِ .

«العشی»فتره ما بعد الظهر إلی قبل غروب الشمس،أما«الإبکار»فهو ما بین الطلوعین.

و یمکن أن تطلق لفظتا(العشی و الإبکار)علی الوقت المعیّن بالعصر و الصباح،حیث یکون الإنسان مهیأ للحمد و تسبیح خالقه تبارک و تعالی بسبب عدم شروعه بعد بعمله الیومی،أو أنّه قد انتهی منه.

و قد اعتبر البعض أنّ هذا الحمد و التسبیح إشاره إلی صلاه الصبح و العصر،أو الصلوات الیومیه الخمس،فی حین أنّ ظاهر الآیه ینطوی علی مفهوم أوسع من ذلک الصلوات هی إحدی مصادیقها.

فی کلّ الأحوال تعتبر التعلیمات الثلاث الآنفه الذکر شامله بناء الإنسان و إعداده للرقی فی ظل اللطف و الرعایه الإلهیه،و هی إلی ذلک زاده فی سیره للوصول نحو الأهداف الکبیره.

فهناک أولا-و قبل کلّ شیء-التحمّل و الصبر علی الشدائد

و الصعوبات،ثمّ تطهير النفس من آثار الذنوب.و أخيرا تكليل كلّ ذلك بذكر اللّه، حيث تسبيحه و حمده يعنى تنزيهه من كلّ عيب و نقص،و حمده فوق كلّ حسن و كمال.

إنّ الحمد و التسبيح الذى يكون للّه تعالى يؤثر فى قلب الإنسان و يطهره من جميع العيوب،و من سيئات الغفله و اللهو،و يجعله يتصف باليقظه و الكمال.

الآیات [سوره غافر (۴۰): الآیات ۵۶ الی ۵۹]

اشاره

إِنَّ اَلَّذِینَ یُجٰادِلُونَ فِی آیٰاتِ اَللّٰهِ بِغَیْرِ سُلْطٰانٍ أَتٰاهُمْ إِنْ فِی صُدُورِهِمْ إِلاّٰ کِبْرٌ مٰا هُمْ بِبٰالِغِیهِ فَاسْتَعِذْ بِاللّٰهِ إِنَّهُ هُوَ اَلسَّمِیعُ اَلْبَصِیرُ (۵۶) لَخَلْقُ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ أَکْبَرُ مِنْ خَلْقِ اَلنّٰاسِ وَ لٰکِنَّ أَکْثَرَ اَلنّٰاسِ لاٰ یَعْلَمُونَ (۵۷) وَ مٰا یَسْتَوِی اَلْأَعْمیٰ وَ اَلْبَصِیرُ وَ اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ وَ لاَ اَلْمُسِیءُ قَلِیلاً مٰا تَتَذَکَّرُونَ (۵۸) إِنَّ اَلسّٰاعَةَ لَآتِیَةٌ لاٰ رَیْبَ فِیهٰا وَ لٰکِنَّ أَکْثَرَ اَلنّٰاسِ لاٰ یُؤْمِنُونَ (۵۹)

التّفسیر

اشاره

ما یستوی الأعمی و البصیر!

دعت الآیات السابقه رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم إلی الصبر و الاستقامه أمام المعارضین و أکاذیبهم و مخططاتهم الشیطانیه،و الآیات التی نحن بصددها تذکر سبب مجادلتهم للحق.

یقول تعالی: إِنَّ الَّذِینَ یُجٰادِلُونَ فِی آیٰاتِ اللّٰهِ بِغَیْرِ سُلْطٰانٍ أَتٰاهُمْ إِنْ فِی

صُدُورِهِمْ إِلاّ كِبْرٌ

.

«المجادله»-كما أشرنا سابقا-تعنى العناد فى الكلام و إطالته بأحاديث غير منطقيه،و إن كانت تشمل أحيانا فى معناها الواسع الحق و الباطل.

أما قوله تعالى: بِغَيْرِ سُلْطانٍ أَتاهُمْ فهى للتأكيد على ما يستفاد من معنى المجادله حيث تعنى«سلطان»الدليل و البرهان الذى يكون سببا لهيمنه الإنسان على خصمه.

أما«آتاهم»فهى إشاره إلى الأدله و البراهين التى أوحى اللّه بها إلى أنبيائه عليهم السلام،و لا ريب أنّ الوحى هو أفضل الطرق و أكثرها اطمئنانا لإثبات الحقائق.

أما المقصود ب«آيات اللّه»التى كانوا يجادلون فيها،فهى معجزات و آيات القرآن و الأحاديث المختصه بالمبدأ و المعاد،حيث كانوا يعتبرونها سحرا،أو أنّها علامات الجنون،أو أساطير الأولين! من ذلك يتبيّن أن ليس لهؤلاء من دليل حى و منطقى فى المجادله سوى التعالى و الغرور و التكبر عن الانصياع إلى الحق،لذلك كانوا يرون أنّ أفكار الآخرين و عقائدهم باطله و أن عقائدهم و أفكارهم حقّه! تشير كلمه(إن)إلى أنّ السبب الوحيد لعنادهم فى هذه الموارد هو الغرور و التكبر،و إلاّ كيف يصرّ الإنسان على كلامه و موقفه دون دليل أو برهان.

«الصدور»تشير هنا إلى القلوب،و المقصود بالقلب هو الفكر و الروح،حيث ورد هذا المعنى مرّات عدّه فى آيات الكتاب المبين.

أمّا كلمه(كبر)فى الآيه فقد فسّرها بعض المفسّرين بالحسد.

و بذلك اعتبر هؤلاء أن سبب مجادلتهم لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم هو حسدهم له و لمنزلته و مقامه المعنوى الظاهرى.

لكن«كبر»لا تعنى فى اللغه المعنى الآنف الذكر،لكنّه يمكن أن يلازمها،لأنّ

من يتكبر يحسد،إذ لا يرى المتكبر المواهب إلّا لنفسه،و يتألم إذا انصرفت لغيره حسدا منه و جهلا.

ثم تضيف الآيه: مٰا هُمْ بِبٰالِغِيهِ .

إنّ هدفهم أن يروا أنفسهم كبارا،يفاخرون بذلك و يفتخرون على غيرهم، لكنّهم لن يحصدوا سوى الذله و الخسران،و لن يصلوا بطريق التكبر و الغرور و العلو و المجادله بالباطل إلى ما يبتغونه (1) .

فى نهايه الآيه تعليمات قيمه لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم بأن يستعيذ باللّه من شر هؤلاء المتكبرين المغرورين الذين لا منطق لهم،حيث يقول تعالى: فَاسْتَعِذْ بِاللّٰهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ .

فهو-تعالى-يسمع أحاديثهم الباطله الواهيه،و ينظر إلى مؤامراتهم و أعمالهم القبيحه و خططهم الشريره.

و الاستعاذه باللّه لا تنبغى لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم وحده و حسب،و إنّما تجب على كل السائرين فى طريق الحق عند ما تتعاظم الحوادث و يستعر الصدام مع المتكبرين عدمى المنطق! لذلك نرى استعاذه يوسف عليه السّلام عند ما تواجهه العاصفه الشديده المتمثله بشهوه«زليخا»يقول: مَعٰاذَ اللّٰهِ إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوٰایَ فكيف أخون عزيز مصر الذى أكرمنى و أحسن وفادتى.

و فى آيات سابقه من نفس هذه السوره نقرأ أنّ كليم اللّه موسى عليه السّلام قال:

1- 1) -ثمه بين المفسرين كلام حول مرجع الضمير فى قوله:«بالغيه»أشهره قولان. الأول:أن يعود الضمير إلى«كبر»و تكون«ما هم ببالغيه»جمله وصفيه ل(كبر)و يكون المعنى هكذا:إنهم لا يصلون إلى مقتضى و هدف تكبرهم(فى الواقع حذف هنا المضاف و التقدير«ما هم ببالغى مقتضى كبرهم»). الثانى:أن يعود الضمير إلى«جدال»الذى يستفاد من جمله«يجادلون»و المعنى أنهم لن يصلوا إلى هدف جدالهم المتمثل بإبطال الحق.و لكن فى هذه الحاله لا تستطيع أن نقول:إن الجمله صفه(كبر)بل ينبغى أن نعطفها على ما سبقها مع حذف العاطف.

إِنِّی عُذْتُ بِرَبِّی وَ رَبِّکُمْ مِنْ کُلِّ مُتَکَبِّرٍ لاٰ یُؤْمِنُ بِیَوْمِ الْحِسٰابِ

(۱)

.

إنّ قضیه المعاد و عوده الروح للإنسان بعـد موته،تعتبر من أکثر القضایا التی یجادل فیها الکفار،و یعانـدون بها رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم لـذلک تنتقل الآیه التالیه إلی التـذکیر بهـذه القضـیه،و إعاده طرحها وفق منطق قرآنی آخر،إذ یقول تعالی: لَخَلْقُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ أَکْبَرُ مِنْ خَلْقِ النّٰاسِ وَ لٰکِنَّ أَکْثَرَ النّٰاسِ لاٰ یَعْلَمُونَ .

إنّ خـالق هـذه المجرّات العظیمه و مـدبّرها یسـتطیع-بصوره أولی-أن یحیی الموتی،و إلاّـ کیف یتسق القول بخلقه السـماوات و الأرض و عجزه من إعاده الإنسان إلی الحیاه بعـد الموت؟ إنّ هـذا المنطق یعبّر عن جهل هؤلاء الذین لا یسـتطیعون إدراک هذه الحقائق الکبری! أغلب المفسّـرین اعتبر هذه الآیه ردّا علی مجادله المشـرکین بشأن قضیه المعاد،بینما احتمل البعض أنّها رد علی کبر المتکبرین و المغرورین الـذین کـانوا یتصورون أن ذواتهم و أفکـارهم عظیمه غیر قـابله للردّ أو النقض،فی حین آنهـا تـافهه بالقیاس إلی عظمه عالم الوجود (۲) .

هذا المعنی غیر مستبعد،و لکن إذا أخذنا بنظر الإعتبار الآیات التی بعدها یکون المعنی الأوّل أفضل.

لقـد تضـمنت الآـیه الکریمه سـببا آخر من أسـباب المجـادله متمثلاـ ب«الجهـل» فی حین طرحت الآیـات السابقه عامل«الکبر».و العاملان یرتبطان مع بعضـهما، لأن أصل و أساس«الکبر»هو«الجهل»و عـدم معرفه الإنسان لحـدوده و قدره، و لعدم تقدیره لحجم علمه و معرفته.

الآیه التی بعدها،و فی إطار مقارنه واضحه تکشف عن الفرق بین حال

۱- ۱) -المؤمن-۲۷.

۲- ۲) -یلاحظ الرأی الأوّل فی مجمع البیان،تفسیر الفخر الرازی،الکشاف،روح المعانی،الصافی و روح البیان.

المتكبرين الجهله إزاء المؤمنين الواعين،حيث يقول: وَ مٰا يَسْتَوِي الْأَعْمىٰ وَ الْبَصِيرُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ وَ لاَ الْمُسِيءُ . (۱)

إلّا أنكم بسبب جهلكم و تكبركم: قَلِيلاً مٰا تَتَذَكَّرُونَ (۲) .

إنّ المبصرين يرون صغر أنفسهم إزاء عظمه العالم المحيط بهم،و بذلك فهم يعرفون قدر أنفسهم و معرفتهم و موقعهم،إلّا أنّ الأعمى لا يدرك موقعه أو حجمه فى الزمان و المكان و فى عموم الوجود المحيط به.لذلك فهو يخطئ دائما فى تقييم أبعاد وجوده،و يصاب بالكبر و الغرور و الوهم الذى يدفعه إلى ما هو قبيح و سيّء.

و نستفيد أيضا من خلال ارتباط الجملتين ببعضهما البعض أنّ الإيمان و العمل الصالح ينوّر بصائر القلب و الفكر بنور المعرفه و التواضع و الاستقرار،بعكس الكفر و العمل الطالح الذى يجعل الإنسان أعمى فاقدا لبصيرته،مشوّها فى رؤيته للأشياء و المقاييس.

الآيه الأخيره فى المجموعه القرآنيه التى بين أيدينا تتعرض إلى وقوع القيامه و قيام الساعه حيث يقول تعالى: إِنَّ السّٰاعَةَ لَآتِيَةٌ لاٰ رَيْبَ فِيهٰا وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَ النّٰاسِ لاٰ يُؤْمِنُونَ .

«إن»و«اللام»فى(لا تيه)و جمله(لا ريب فيها)كلها للتأكيد المكرّر الذى يستهدف تأكيد المضمون و المعنى المراد،و هو قيام القيامه.

لقد عالجت الرؤيه القرآنيه قضيه القيامه فى أكثر من مكان و مورد،بمختلف الأدله و وسائل الإقناع،ذلك نرى بعض الآيات تذكر قيام الساعه و القيامه بدون مقدمات أو دليل،مكتفيه بما ورد من أدله و مقدمات فى أماكن اخرى من الكتاب

۱- ۱) -النظره الأوليه فى الآيه قد لا توجب معنى ل«لا النافيه»فى قوله تعالى: وَ لاَ الْمُسِيءُ و لكن تأكيد النفى من ناحيه، و تجليه المقصود من الجمله من ناحيه ثانيه،أوجب تكرار النفى،مضافا إلى أن طول الجمله قد يؤدى إلى نسيان الإنسان للنفى الأول،الأمر الذى يوجب التكرار.

۲- ۲) -«ما»فى قوله تعالى: قَلِيلاً مٰا تَتَذَكَّرُونَ زائده،و هى للتأكيد.

المبین.

«الساعه»کما یقول«الراغب»فی«المفردات»هی بمعنی:أجزاء من أجزاء الزمان.

إنّ الإشاره التی یطویها هذا الاستخدام لکلمه(الساعه)یشیر إلی السرعه الّتی یتم فیها محاسبه الناس هناک.

لقد استخدمت الکلمه عشرات المرّات فی القرآن الکریم،لتدل بشکل عام علی المعنی الآنف الذکر،لکنّها نعنی فی بعض الأحیان نفس القیامه،فیما تعنی فی أحیان اخری الإشاره إلی انتهاء العالم و مقدمات البعث و النشور.و بسبب من الارتباط القائم بین الحدثین و القضیتین،و أنّ کلاهما یحدث بشکل مفاجئ،لذا تمّ استخدام کلمه«الساعه».(یمکن للقارئ الکریم أن یعود إلی بحث مفصل حول«الساعه»فی تفسیر سوره الروم).

أما سبب القول:ب وَ لٰکِنَّ أَکْثَرَ النّٰاسِ لاٰ یُؤْمِنُونَ فلا یعود إلی أن قیام القیامه من القضایا المجهوله و المبهمه،بل ثمّه میل فی الإنسان نحو«الحریه»فی الاستفاده غیر المشروطه أو المقیده من ملذات الدنیا و شهواتها،بالإضافه إلی الأمل الطویل العریض الذی یلازم الإنسان فینساق مع الحیاه،و یغفل عن التفکیر بالقیامه،أو الاستعداد لها.

ملاحظه

اشاره

الیهود المغرورون:

لقد ذکر بعض المفسّرین فی سبب نزول الآیه الأولی-من مجموعه الآیات التی بین أیدینا-بحثا مفاده أن الیهود کانوا یقولون:سیخرج المسیح الدجال فنعینه علی محمّد و أصحابه و نستریح منهم،و نعید الملک إلینا(مجمع البیان-الجزء

الثامن-صفحه(۸۲۲)طبعه دار المعرفه).

يمكن أن يشمل هذا السبب فيما يتضمّن من ادعاءات اليهود معنيين:الأول:

أنّهم أرادوا أن ينتصر المسيح على الدّجال،من خلال ادعائهم أنّ«المسيح المنتظر»هو منهم و تطبيق الدجّال،و العياذ باللّه،على النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و اله و سلّم.

أو أنّهم كانوا حقا فى انتظار الدجّال الذى كانوا يعتبرونه من أنفسهم.

ذلك أنّ المسيح و كما ذكر«الراغب»فى«المفردات»و ابن منظور فى«لسان العرب»تطلق على«عيسى»عليه السّلام بسبب سيره و سياحته فى الأرض،أو بسبب شفائه للمرضى بأمر اللّه عند ما كان يمسح بيده عليهم.و كانت تطلق أيضا على «الدجال»لأنّ الدجال له عين واحده،بينما كان مكان العين الأخرى ممسوحا.

و يحتمل أن يكون اليهود ينتظرون خروج الدجال ليتعاونوا معه فى دحر المسلمين الذين هزموهم مرات عديده ممّا أثار غضبهم على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم.

و قد يكونوا فى انتظار المسيح،كما يستفاد من قاموس الكتاب المقدس حيث يظهر أنّ المسيحيين و اليهود ينتظرون خروج المسيح،لأنّهم يعتقدون بأنّ المسيح سيحارب الدجال و يقضى عليه. لذلك أرادوا تطبيق هذا المعنى على ظهور الإسلام.

و قد استنتج بعض المفسّرين من سبب نزول هذه الآيه على أنّها مدنيه دون غيرها من آيات السوره المكيه.و لكن عدم ثبوت سبب النّزول،كما أن عدم وضوح مفاد الآيه و إبهامها تستوجب ضعف هذا الاستنتاج.

الآيات [سوره غافر (۴۰): الآيات ۶۰ الى ۶۳]

اشاره

وَ قٰالَ رَبُّكُمُ اُدْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ اَلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبٰادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دٰاخِرِينَ (۶۰) اَللّٰهُ اَلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اَللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ اَلنَّهٰارَ مُبْصِراً إِنَّ اَللّٰهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى اَلنّٰاسِ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَ اَلنّٰاسِ لاٰ يَشْكُرُونَ (۶۱) ذٰلِكُمُ اَللّٰهُ رَبُّكُمْ خٰالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ فَأَنّٰى تُؤْفَكُونَ (۶۲) كَذٰلِكَ يُؤْفَكُ اَلَّذِينَ كٰانُوا بِآيٰاتِ اَللّٰهِ يَجْحَدُونَ (۶۳)

التّفسير

اشاره

ادعونى أستجب لكم:

لقد تضمنت الآيات السابقه ألوان الوعيد و التهديد لغير المؤمنين من المتكبرين و المغرورين،المجموعه التى بين أيدينا من الآيات الكريمه تفيض حبّا إليها و لطفا،و تنتجس بالرحمه الشامله للتائبين.

يقول تعالى أولا: وَ قٰالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ .

لقد فسّر الكثير من المفسّرين«الدعاء»بمعناه المعروف،و ما يؤكّد ذلك هو جمله«استجب لكم»بالإضافه إلى ما تفيده الروايات العديده الوارده بخصوص

هذه الآيه و ثواب الدعاء،و التی سنشیر إلی بعض منها فیما بعد.

و لکن بعض المفسّرین تبع(ابن عباس)فی رأیه بأن الـدعاء هنا بمعنی التوحیـد و عباده الخالق جلّ و علا،أی«اعبـدونی و اعترفوا بوحدانیتی»إلاّ أنّ التّفسیر الأوّل هو الأظهر.

و نستفید من الآیه أعلاه مجموعه ملاحظات هی:

۱-أنّ اللّه یحب الدعاء و یریده و یأمر به.

۲-لقـد وعـد اللّه بإجابه الدعاء،لکن هذا الوعد مشروط و لیس مطلقا.فالدعاء واجب الإجابه هو ما اجتمعت فیه الشروط اللازمه للدعاء و الداعی و موضوع الدعاء.

و فی هذا الإطار شرحنا ما یتعلق بهذا الموضوع فی تفسیر الآیه(۱۸۶)من سوره البقره.

۳-الدعاء فی نفسه نوع من العباده،لأنّ الآیه أطلقت فی نهایتها صفه العباده علی الدعاء.

تتضمّن الآیه فی نهایتها تهدیدا قویا للذین یستنکفون عن الدعاء،حث یقول تعالی: إِنَّ الَّذِینَ یَسْتَکْبِرُونَ عَنْ عِبٰادَتِی سَیَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دٰاخِرِینَ (۱) .

أهمیه الدعاء و شروط الاستجابه

ثمّه تأکید کبیر علی أهمیه الدعاء فی الروایات المنقوله عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم و الأئمّه المعصومین علیهم السّلام:

-۱

فی حدیث عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم أنّه قال: «الدعاء هو العباده» (۲) .

۱- ۱) -داخر من«دخور»و تعنی الذله،و هذه الذله هی عقوبه ذلک التکبر و الاستعلاء.

۲- ۲) -مجمع البیان،المجلد الثامن،صفحه ۵۲۸.

-۲

فی حدیث عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّه سئل:ما تقول فی رجلین دخلا المسجد جمیعا،کان أحدهما أکثر صلاه،و الآخر دعاء فأیهما أفضل؟قال«کلّ حسن».

لکن السائل عاد و سأل الإمام علیه السّلام:قد علمت،و لکن أیهما أفضل؟أجاب الإمام علیه السّلام:

«أکثرهما دعاء،أما تسمع قول اللّه تعالی: اُدْعُونِی أَسْتَجِبْ لَکُمْ إِنَّ الَّذِینَ یَسْتَکْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِی سَیَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِینَ .ثمّ أضاف بعد ذلک:«هی العباده الکبری» (۱) .

-۳

فی حدیث عن الإمام الباقر علیه السّلام أنّه أجاب عن أفضل العبادات بقوله:«ما من شیء أفضل عند اللّه من أن یسأل و یطلب ممّا عنده،و ما أحد أبغض إلی اللّه عزّ و جلّ ممن یستکبر عن عبادته،و لا یسأل ما عنده» (۲) .

-۴

فی حدیث آخر عن الإمام جعفر الصادق أنّه علیه السّلام قال: «إنّ عند اللّه عزّ و جلّ منزله لا تنال إلاّ بمسأله،و لو أنّ عبدا سدّ فاه و لم یسأل لم یعط شیئاه فاسأل تعط،إنّه لیس من باب یقرع إلا یوشک أن یفتح لصاحبه» (۳) .

۵-لقد ورد فی بعض الرّوایات أنّ الدعاء أفضل حتی من تلاوه القرآن،کما أشار إلی ذلک الرّسول الأعظم صلّی اللّه علیه و اله و سلّم و حفیداه من أئمه المسلمین الإمام الباقر و الصادق علیهما السّلام،حیث قالوا:

«الدعاء أفضل من قراءه القرآن» (۴) . و فی نطاق تحلیل قصیر نستطیع أن ندرک عمق مفاد هذه الأحادیث،فالدعاء یقول الإنسان من جانب إلی معرفه اللّه تبارک و تعالی،و هذه المعرفه هی أفضل رصید للإنسان فی وجوده.

و من جانب آخر یدفع الدعاء الإنسان إلی الإحساس العمیق بالفقر و الخضوع

۱- ۱) -مجمع البیان،المجلد الثامن،صفحه ۵۲۹.

۲- ۲) -الکافی،مجلد ۲،باب:فضل الدعاء و الحث علیه.صفحه ۳۳۸.

۳- ۳) -الکافی،المجلد الثّانی،(باب فضل الدعاء و الحث علیه)ص:۳۳۸.

۴- ۴) -مکارم الأخلاق،طبقا للمیزان،المجلد ۲،ص ۳۴.

تجاه خالقه جلّ و علا و يبعده عن التعالى و الغرور اللذين يعدّان الأرضيه المناسبه للمجادله فى آيات اللّه و الانحراف عن جاده الصواب و الوقوع فى المهالك.

من جانب ثالث يعمق الدعاء لدى الإنسان الشعور بأنّه جلّ و علا منبع النعم و مصدره و يدفعه إلى العشق و الارتباط العاطفى مع اللّه جلّ جلاله.

و من جانب رابع يشعر الإنسان بالحاجه الى اللّه تعالى و انه رهين نعمته، و لذلك فهو موظف بطاعته و تنفيذ أوامره،و يرهف إحساسه بالعبوديه للّه تعالى.

و خامس بما أنّه يعلم أنّه للإجابه شروطها،و من شروطها خلوص النيه، و صفاء القلب،و التوبه من الذنوب،و قضاء حوائج المحتاجين،و السعى فى مسائل الناس من الأقرباء و الأصدقاء و غيرهم،فلذلك يهتم ببناء الذات و إصلاح النفس و تربيتها.

و سادس يركّز الدعاء فى نفس الإنسان الداعى عوامل المنعه و الإراده و الثقه،و يجعله أبعد الناس عن اليأس و القنوط أو التسليم للعجز(و قد تحدثنا عن الدعاء و فلسفته و شرائطه ذيل الآيات ۷۷ من سوره الفرقان).

ثمّه ملاحظه مهمّه هنا،هى أن الدعاء لا يلغى بذل الوسع و الجهد من قبل الإنسان،و إنّما حسبما تفيد الروايات و الأحاديث فى هذا الشأن-على الإنسان أن يسعى و يبذل و يجهد،و يترك الباقى على اللّه تعالى.لذا لو جعل الإنسان الدعاء بديلا عن العمل و الجهد فسوف لا يجاب إلى مطلبه حتما.

لذلك نقرأ

فى حديث عن الإمام جعفر الصادق عليه السّلام أنّه قال: «أربعه لا تستجاب لهم دعوه:رجل جالس فى بيته يقول:اللّهم ارزقنى،فيقال له:ألم آمرك بالطلب؟.و رجل كانت له امرأه فدعا عليها،فيقال له:ألم أجعل أمرها إليك؟ و رجل كان له مال فأفسده،فيقول:اللهم ارزقنى،فيقال له:ألم آمرك بالاقتصاد؟ ألم آمرك بالإصلاح؟و رجل كان له مال فأدانه بغير بيّنه،فيقال له:ألم آمرك

بالشهاده؟! (۱) .

و من الواضح أنّ الموارد التی یتحدّث عنها الحدیث الشریف،إنّما منع فیها الإنسان عن إجابه دعوته لعدم بذله قصاری جهده و سعیه،فعلیه أن یتحمّل تبعه تقصیره و تفریطه.

من هنا یتضح أنّ أحد عوامل عدم استجابه الدعاء یتمثل فی التباطؤ و ترک الجهد المناسب للعمل و اللجوء إلی الدعاء و قد جرت سنه اللّه تعالی علی عدم إجابه مثل هذه الدعوات.

طبعا،هنا عوامل و أسباب اخری لعدم استجابه بعض الأدعیه.فمثلا عاده ما یحدث أن یخطئ الإنسان فی تشخیص مصالحه و مفاسده،إذ یصر أحیانا علی موضوع معین و یطلبه من الخالق جلّ و علا فی حین لیس من مصلحته ذلک.و لکنّه یفهم ذلک فیما بعد.

و هذا الأمر یشبه إلی حد کبیر الطفل أو المریض الذی یطلب بعض الأطعمه و الأشربه و یشتهیها،فلا یجاب لطلبه و لا تلبّی رغباته،لأنّها قد تؤدی إلی مضاعفه الخطر علی صحته أو حتی المجازفه بحیاته.ففی مثل هذه الموارد لا یستجیب اللّه تعالی لدعاء العبد،بل یدخر له الثواب یوم القیامه،مضافا إلی أن لاجابه الدعاء شروطا مذکوره فی الآیات و الرّوایات الشریفه و قد بحثنا هذا الموضوع مفصلا فی المجلد الأوّل من هذا التّفسیر (۲) .

موانع استجابه الدعاء

لقد ذکرت بعض الروایات ذنوبا متعدّده إذا ارتکبها الإنسان تحول بینه و بین إجابه دعائه،مثل سوء النیه،النفاق،تأخیر الصلاه عن وقتها،اللسان البذیء الذی

۱- ۱) -أصول الکافی،المجلد الثّانی،باب من لا یستجاب له دعوه الحدیث رقم(۲).

۲- ۲) -البقره،الآیه ۱۸۶.

يخشاه الناس،الطعام الحرام،و ترك الصدقه و الإنفاق فی سبیل اللّه تعالی (۱) .

و فی إطار هذه النقطه بالذات ثمّه حدیث جامع عن الإمام الصادق علیه السّلام ینقله «الشیخ الطبرسی»فی«الإحتجاج»أنّه سئل:أ لیس یقول اللّه: اُدْعُونِی أَسْتَجِبْ لَکُمْ و قد نری المضطر یدعوه و لا یجاب له،و المظلوم یستنصره علی عدوه فلا ینصره؟

قال: «و یحک!ما یدعوه أحد إلاّ استجاب له،أما الظالم فدعاؤه مردود إلی أن یتوب،و أمّا المحقق فإذا دعا استجاب له و صرف عنه«البلایا من حیث لا یعلمه،أو ادخر له ثوابا جزیلا لیوم حاجته إلیه،و إن لم یکن الأمر الذی سأل العبد خیر له إن أعطاه،أمسک عنه» (۲) .

نعود الآن إلی الآیه الکریمه...فبما أن الدعاء و طلب الحوائج من اللّه تعالی یعتبر فرعا لمعرفته،لذا تتحدث الآیه التی تلیها عن حقائق تؤدی إلی ارتقاء مستوی المعرفه لدی الإنسان،و تزید شروطا جدیدا لإجابه الدعاء،متمثلا بالأمل فی الإجابه،بل و انتظار تنجز الحاجه و تمامها.

یقول تعالی: اَللّٰهُ الَّذِی جَعَلَ لَکُمُ اللَّیْلَ لِتَسْکُنُوا فِیهِ .

إنّ ظلمه اللیل و هدوءه و سکونه یعتبر-من جانب-سببا قهریا لتعطیل الحرکه الیومیه لعمل الإنسان السوی و نشاطه.و الظلمه-من ناحیه اخری-تمحو عن الإنسان تعب النهار،و تدفعه إلی الاستقرار و الرأفه لجسده و أعصابه،فی حین یعتبر النور و النهار أساس الحیاه و الحرکه.

لذلک یضیف تعالی قوله تعالی: وَ النَّهٰارَ مُبْصِراً .

فی النهار المبصر یضاء محیط الحیاه و تدب الحرکه و النشاط فی روح الإنسان و کیانه.

و الطریف أنّ«مبصرا»تعنی الذی یبصر.و عند ما یوصف النهار بهذا الوصف،

۱- ۱) -معانی الأخبار.طبقا لما أورده نور الثقلین فی المجلد الرابع.صفحه(۵۳۴)و أصول الکافی.

۲- ۲) -تفسیر الصافی أثناء تفسیر الآیه الکریمه.

فانه فی الحقیقه نوع من التأکید فی جعل الناس مبصرین.(ثمه بحث عن فلسفه النور و الظلام و اللیل و النهار،ورد أثناء الحدیث عن الآیات (۱) .

ثم تضیف الآیه: إِنَّ اللّٰهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَی النّٰاسِ وَ لٰکِنَّ أَکْثَرَ النّٰاسِ لاٰ یَشْکُرُونَ .

إنّ النظام الدقیق کتناوب اللیل و النهار و الظلمه و النور،یعتبر واحدا من مواهب اللّه تبارک و تعالی و عطایاه لعباده،و سر من أسرار الحرکه فی الحیاه و فی منظومه الوجود الکونی.

فبدون النور لیس ثمّه حیاه أو حرکه،و من دون أن یتناوب اللیل و النهار-أو الظلام و النور-سیؤدی إلی تعطیل حرکه الحیاه،بل و جعلها مستحیله.فشدّه النور -مثلا-ستشل الموجودات و تعطّل نمو النبات،و کذلک الظلمه الدائمیه لها أضرارها.و لکن الناس- و بدواعی العاده و الألفه-لم یلتفتوا إلی هذه المواهب الإلهیه و ما تستبطنه من منافع لهم.

و الملفت للنظر أن القاعده تقتضی أن یکون هناک«ضمیر»بدل«الناس» الثانیه،فیکون القول:لکن أکثرهم لا یشکرون،إلاّ أنّ ذکر«الناس»بدلا عن الضمیر کأنّه یشیر إلی أن طبع الإنسان الجاهل هو کفران النعم و ترک الشکر،کما نقرأ ذلک واضحا فی الآیه(۳۴)من سوره إبراهیم،فی قوله تعالی: إِنَّ الْإِنْسٰانَ لَظَلُومٌ کَفّٰارٌ .(یلاحظ هذا المعنی فی تفسیر المیزان و روح المعانی).

أمّا إذا ملک الإنسان عینا بصیره و قلبا عارفا بحیث یری النعم الإلهیه اللامتناهیه فی کلّ مکان یحل به،و ینظر إلی فیض النعم و العطایا و المواهب الربانیه،فسیضطر طبیعیا إلی الخضوع و العبودیه و الشکر،و یری نفسه صغیرا مدینا إلی خالق هذه العظمه و واهب هذه العطایا.(عن معنی الشکر و أقسامه یمکن مراجعه البحث الخامس فی تفسیر الآیه«۷»من سوره إبراهیم).

۱- ۱) -یونس-۸۷ و النمل-۸۶ و القصص-۷۱.

الآیه التی تلیها تبدأ من توحید الرّبوبیه و تنتهی بتوحید الخالقیه و الرّبوبیه.

فتقول أوّلا: ذٰلِکُمُ اللّٰهُ رَبُّکُمْ و مربیکم الذی من صفاته أنّه: خٰالِقُ کُلِّ شَیْءٍ .

و لا معبود إلاّ اللّه: لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ .

فی الواقع إنّ وجود کلّ هذه النعم دلیل علی الربوبیه و التدبیر،و خالق کلّ شیء عنوان لصفه التوحید فی الربوبیه،لأنّ الخالق هو المالک و المربی.و من المعلوم أنّ الخلق یستدعی الرعایه الدائمه لأن الخالقیه لا تعنی أنّ اللّه یخلق الخلق و یترکها و شأنها،بل لا بدّ و أن یکون الفیض الالهی مستمرا فی کلّ لحظه علی جمیع الموجودات.و لذلک فهذه الخالقیه لا تنفصل عن الرّبوبیه.

و من الطبیعی أن هذا الإله هو الوحید الذی یستحق العباده،و أن ترجع إلیه الأشیاء.

لذا فإنّ جمله خٰالِقُ کُلِّ شَیْءٍ تعتبر الدلیل ل ذٰلِکُمُ اللّٰهُ رَبُّکُمْ و إنّ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ هی النتیجه لذلک.

و تتساءل الآیه فی نهایتها:کیف یسوّغ الإنسان لنفسه الانحراف و التنکّب عن الجاده المستقیمه؟فیقول تعالی: فَأَنّٰی تُؤْفَکُونَ (1) .

و لماذا تترکون عباده اللّه الواحد الأحد إلی عباده الأصنام؟ و الملاحظ أن«تؤفکون»صیغه مجهول،بمعنی أنّها تحرفکم عن طریق الحق، و کأنّ المراد هو أنّ المشرکین فاقدون للاراده الی درجه أنّهم یساقون فی هذا المسیر دون اختیار أیّ نسبه من الحریه و الإراده و الإختیار فی هذا المجال! الآیه الأخیره-من مجموعه الآیات التی نبحثها-تأتی و کأنّها تأکید لمواضیع الآیات السابقه،فیقول تعالی: کَذٰلِکَ یُؤْفَکُ الَّذِینَ کٰانُوا بِآیٰاتِ اللّٰهِ یَجْحَدُونَ .

«یجحدون»مشتقّه من ماده«جحد»و هی فی الأصل تعنی إنکار الشیء

1- 1) -«تؤفکون»من«إفک»و تعنی الانحراف و الرجوع عن طریق الحق و جاده الصواب.و لهذا السبب یقال للریاح المضاده«المؤتفکات».و یعبّر عن«الکذب»ب«الإفک»بسبب ما فیه من انحراف عن بیان الحق.

الموجود فی القلب و النفس.بمعنی أنّ الإنسان یقر فی نفسه و قلبه بعقیده أو نشیء ما،و فی نفس الوقت ینفیه و یتظاهر بعکسه أو یعتقد بعدمه فی نفسه و یثبته فی لسانه.

و یطلق وصف الجحود علی البخلاء و الـذین لا یؤمّل منهم الخیر و یتظاهرون بالفقر دائما.أما«الأرض الجحـده»فهی التی لا ینبت فیها النبات إلاّ قلیلا (1) .

بعض علماء اللغه أوجز فی تفسیر«جحد»و«جحود»بقولهم:الجحود الإنکار مع العلم (2) .

و بناء علی ما تقـدم فإن الجحود یتضـمّن فی داخله نوعا من معانی العناد فی مقابل الحق،و من الطبیعی أن من یتعامل مع الحقائق بهذا المنظور لا یمکن أن یستمر فی طریق الحق،فما لم یکن الإنسان باحثا عن الحقیقه و طالبا لها و مذعنا أمام منطقها فسوف لن یصل إلیها مطلقا.

لـذا فـإنّ الوصول إلی الحق یحتـاج مسـبقا إلی الاسـتعداد و البناء الـذاتی،أیّ التقوی قبل الإیمان،و هو الـذی أشار إلیه تعالی فی مطلع سوره البقره: ذٰلِکَ الْکِتٰابُ لاٰ رَیْبَ فِیهِ هُدیً لِلْمُتَّقِینَ .

1- 1) -الراغب فی المفردات ماده«جحد».

2- 2) -لسان العرب نقلا عن«الجوهری»

الآیات [سوره غافر (۴۰): الآیات ۶۴ الی ۶۶]

اشاره

اَللّٰهُ اَلَّذِی جَعَلَ لَکُمُ اَلْأَرْضَ قَراراً وَ اَلسَّمٰاءَ بِنٰاءً وَ صَوَّرَکُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَکُمْ وَ رَزَقَکُمْ مِنَ اَلطَّیِّبٰاتِ ذٰلِکُمُ اَللّٰهُ رَبُّکُمْ فَتَبٰارَکَ اَللّٰهُ رَبُّ اَلْعٰالَمِینَ (۶۴) هُوَ اَلْحَیُّ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِینَ لَهُ اَلدِّینَ اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ اَلْعٰالَمِینَ (۶۵) قُلْ إِنِّی نُهِیتُ أَنْ أَعْبُدَ اَلَّذِینَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ لَمّٰا جٰاءَنِی اَلْبَیِّنٰاتُ مِنْ رَبِّی وَ أُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ اَلْعٰالَمِینَ (۶۶)

التّفسیر

اشاره

ذلکم اللّه ربّکم:

تستمر هذه المجموعه من الآیات الکریمه بذکر المواهب الإلهیه العظیمه و شمولها للعباد،کی تهب لهم المعرفه،و تربی فی نفوسهم الأمل بالدعاء و التسلیم و طلب الحوائج من اللّه تعالی.

و الطریف فی الأمر هنا أنّ الآیات السابقه کانت تتحدث عن«النعم الزمانیه» من لیل و نهار،بینما تتحدث هذه المجموعه عن«النعم المکانیه»أی الأرض القرار،و السقف المرفوع(السماء)حیث تقول: اَللّٰهُ الَّذِی جَعَلَ لَکُمُ الْأَرْضَ

قَراراً

.

لقد خلق اللّه للإنسان الأرض كى تكون مقرّا هادئا و مستقرا آمنا له إنّه المكان الخالى من المعوقات الصعبه،متناسق فى تشكيلته مع تكوين الإنسان الروحى و الجسدى،حيث تتوفر فى الأرض المصادر المختلفه للحياه و الوسائل المتنوعه و المجانيه التى يحتاجها لمعيشته.

ثم تضيف الآيه: وَ السَّمٰاءَ بِنٰاءً أى كالسقف و القبه فوقكم.

و«بناء»كما يقول«ابن منظور»فى لسان العرب،تعنى البيوت التى كان عرب الباديه يستفيدون منها و يستظلون تحتها كالخيم و ما يستظل الإنسان تحته.

إنّه تعبير جميل و دال حيث يصوّر السماء كالخيمه التى تغطى أطراف الأرض و لا تنقص منها شيئا.و المقصود السماء هنا الغلاف الجوى الذى يحيط بالأرض.

إنّ الخيمه الإلهيه الكبيره هذه تقلل من شدّه أشعه الشمس،و عدمها يعرض الأرض إلى الأشعه الكونيه الحارقه القاتله لجميع الكائنات الحيه الموجوده على الأرض،لذلك نرى أنّ رواد الفضاء مضطرين لارتداء ملابس خاصه تحميهم من هذه الإشاعات.

إضافه إلى ما تقدم،تمنع الخيمه السماويه سقوط الأحجار التى تنجذب من السماء نحو الأرض،حيث تقوم بإحراقها بمجرّد وصولها إلى غلاف الأرض ليصل رمادها بهدوء الى الأرض.

و إلى هذا المعنى تشير الآيه(٣٢)من سوره الأنبياء،حيث يقول تعالى:

وَ جَعَلْنَا السَّمٰاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً .

ثمّ ينتقل الحديث من آيات الآفاق إلى آيات الأنفس،فيقول تعالى:

وَ صَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ

.القامه متوازنه خاليه من الانحراف،وجه فى تقاطيع جميله لطيفه و فى منتهى النظم و الاستحكام،إذ يمكن بلمحه واحده التمييز بين الكائن البشرى و بين الموجودات و الكائنات الأخرى.

إنّ الهيكل الإنسانی الخاص يؤهل الإنسان لإنجاز مختلف الأعمال من الصناعه و الزراعه و التجاره و الإراده،و هو بامتلاكه للأعضاء المختلفه يعيش مرتاحا مستفيدا من مواهب الحياه و عطايا الخالق.

الإنسان علی خلاف أغلب الحيوانات التی تشرب الماء بفمها،فإنّه يحمل المشروبات و المأكولات بيديه،و يقوم بشرب الماء فی منتهی الدّقه و اللطافه، و هذا الأمر يجعل الإنسان أقدر علی انتخاب ما يشاء من الأشربه و الأطعمه.

و يجعل ما يتناوله نظيفا غير مخلوط مع غيره.فهو مثلا يقشّر الفاكهه و يهذبها قبل تناولها،و يرمی الأجزاء الزائده.

لقد ذهب بعض المفسّرين فی تفسير: وَ صَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ إلی معنی أوسع من الصوره و الشكل الظاهری و التكوين الداخلی،فقال:إن المعنی يتضمن كل الاستعدادات و الأذواق التی خلقها اللّه فی الإنسان و أودعها فيه،ففضله بها علی كثير ممن خلق.

و فی آخر الحديث عن سلسله هذه العطايا و المواهب الإلهيه،تتحدث الآيه عن النعمه الرّابعه،و هی الرزق الطيب بقوله تعالی: وَ رَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ .

«الطيبات»تشتمل علی معنی وسيع جدّا،و هی تشمل الجيد من الطعام و اللباس و الزوجه و المسكن و الدواب،و هی أيضا تشمل الكلام و الحديث الطيب الزكی النافع.

الإنسان يقوم بسبب جهله و غفلته بتلويث هذه المواهب الطاهره و الطيبات اللذيذه،إلّا أنّ اللّه أبقی علی نقائها و طهرها فی عالم الوجود.

بعد بيان هذه المجموعه الرباعيه من النعم الإلهيه التی تتوزع بين الأرض و السماء و بين خلق الإنسان،تعود الآيه للقول: ذٰلِكُمُ اللّٰهُ رَبُّكُمْ فَتَبٰارَكَ اللّٰهُ رَبُّ

الْعالَمِينَ

(۱)

.

إنّ هذه المواهب تعود للّه مدبر الكون خالق السماوات و الأرض،لذلك فهو الذى يليق بمقام الرّبوبيه لا غير.

الآيه التى بعدها تستمر فى إثاره قضيه توحيد العبوديه من طريق آخر.

فتؤّكد انحصار الحياه الواقعيه باللّه تعالى و تقول: هُوَ الْحَيُّ .

إنّ حياته عين ذاته،و لا تحتاج إلى الغير.حياته(جلّ و تعالى)أبـديه لا يطالها الموت،بينما جميع الكائنات الحيه تتمتع بحياه مقرونه بالموت و حياتها محدوده و موقته تسترفد هذه الحياه من الذات المقدسه.

لـذلك ينبغى للإنسـان الفـانى المحـدود المحتـاج أن يرتبط فى عبادته بالحى المطلق،من هنا تنتقل الآيه مباشـره إلى تقرير معنى الوحدانيه فى العبوديه من خلال قوله تعالى: لا إِلهَ إِلاّ هُوَ .

و على أساس هذه الوحدانيه تتقرّر قضيه اخرى يتضمنها قوله تعالى:

فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ

و اتركوا جانبا كلّ شيء غيره.لأنّها جميعا فانيه، و حتى فى حال حياتها فهى فى تغيّر دائم«فالذى لا يتغيّر هو اللّه تعالى فقط.

و الذى لم يمت و لن يموت هو سبحانه فحسب».

ثم تنتهى الآيه بقوله تعالى: اَلْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ .

و التعبير القرآنى درس للعباد بـأن يتوجهوا الشـكر و الحمـد إلى الخـالق جـلّ و علاـ دون غيره،فهو جزيـل العطايا كثير المواهب مطلق النعم على عباده، خاصّه نعمه الحياه و الوجود بعد العدم.

الآيه الأخيره من المجموعه القرآنيه،هى فى الواقع خلاصه لكل البحوث

۱- ۱) -«ذلكم»اسم إشاره للبعيد،و استخدامها فى مثل هذه الموارد كنايه على العظمه و علو المقام.

التوحيديه الآنفه،و جاءت لكى تقضى على أدنى بارقه أمل قد يحتمل وجودها فى نفوس المشركين،إذ يقول تعالى موجها كلامه إلى النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و اله و سلّم: قُلْ إِنِّی نُهِیتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِینَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ لَمّا جاءَنِی الْبَیِّناتُ مِنْ رَبِّی
.

و لم ينهانى ربّى عن عباده غيره فحسب،بل: وَ أُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعالَمِینَ .نهى عن عباده الأصنام يتبعه-مباشره-بدليل منطقى من البراهين و البينات و من العقل و النقل،فى أن يسلم ل:«ربّ العالمين»و فى هذه العباره أيضا دليل آخر على المقصود لأن كونه ربّ العالمين دليل كاف على ضروره التسليم فى مقابله.

و من الضرورى أن نشير إلى افتراق الأمر و النهى فى هذه الآيه،فهناك أمر بالتسليم للّه جلّ و علا،و نهى عن عباده الأصنام،و قد يعود السبب فى التفاوت بين النهى و الأمر إلى أنّ الأصنام قد تختص بصفه«العباده»و حسب،لذلك جاء النهى عن عبادتها.أما بالنسبه للّه تعالى فبالإضافه إلى عبادته يجب التسليم له و الانصياع و الانقياد إلى أوامره و تعليماته.

لذلك نقرأ فى الآيتين(١١-١٢)من سوره«الزمر»قوله تعالى: قُلْ إِنِّی أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّینَ وَ أُمِرْتُ لِأَنْ أَکُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِینَ .

إنّ أمثال هذه الصيغ و الأساليب المؤثره يمكن أن نلمسها فى كلّ مكان من كتاب اللّه العزيز،فهى تجمع الليونه و الأدب حتى إزاء الأعداء و الخصوم، بحيث لو كانوا يملكون أدنى قابليه لقبول الحق فسيتأثرون بالأسلوب المذكور.

ينبغى أن نلاحظ أيضا التعبير فى قوله تعالى: أُمِرْتُ ... إِنِّی نُهِیتُ أىّ عليكم أنتم أن تحاسبوا أنفسكم من دون أن يثير فيهم حسّ اللجاجه و العناد.

الكلام الأخير فى هذه المجموعه من الآيات هو أنّها أعادت وصف الخالق ب«ربّ العالمين»فى ثلاث آيات متتاليه:

تقول أولا: فَتَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ .

ثم: اَلْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

و أخيرا: أُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ .

إنّه نوع من أنواع الترتيب المنطقى الذى يصل بين أجزائها و جوانبها فالآيه الأولى تشير إلى البركه و ديموميتها،و الثانيه إلى اختصاص الحمد و الثناء بذاته المقدسه دون غيره،و أخيرا تخصيص العبوديه و حصرها به دون غيره عزّ اسمه.

الآيتان [سوره غافر (۴۰): الآيات ۶۷ الى ۶۸]

اشاره

هُوَ اَلَّذِی خَلَقَکُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَهٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَهٍ ثُمَّ یُخْرِجُکُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّکُمْ ثُمَّ لِتَکُونُوا شُیُوخاً وَ مِنْکُمْ مَنْ یُتَوَفّی مِنْ قَبْلُ وَ لِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُسَمًّی وَ لَعَلَّکُمْ تَعْقِلُونَ (۶۷) هُوَ اَلَّذِی یُحْیِی وَ یُمِیتُ فَإِذا قَضی أَمْراً فَإِنَّما یَقُولُ لَهُ کُنْ فَیَکُونُ (۶۸)

التّفسیر

اشاره

المراحل السبع لخلق الإنسان:

تتمیما لما تحدثت به الآیات السابقه عن قضیه التوحید،تستمر الآیات التی بین أیدینا فی إثاره نفس الموضوع من خلال الحدیث عن«الآیات الأنفسیه» و المراحل التی تطوی خلق الإنسان و تطوره،من البدء إلی النهایه.

الآیه الکریمه تتحدث عن سبع مراحل تکشف عن عظمه الخالق جلّ و علا و جزیل مواهبه و نعمه علی العباد.

یقول تعالی: هُوَ الَّذِی خَلَقَکُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَهٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَهٍ ثُمَّ یُخْرِجُکُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّکُمْ ثُمَّ لِتَکُونُوا شُیُوخاً وَ مِنْکُمْ مَنْ یُتَوَفّی مِنْ قَبْلُ وَ لِتَبْلُغُوا أَجَلاً

مُسَمًّى وَ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ

.

يتضح من سياق الآيه الكريمه أنّ المرحله الأولى أو بدايه الإنسان فى مسيره الخلق و الوجود تكون من التراب،حيث خلق اللّه أبانا الأوّل آدم عليه السّلام من تراب،أو أنّ جميع البشر خلقوا من التراب،ذلك أنّ المواد الغذائيه التى تشكل قوام الإنسان و وجوده،بما فى ذلك النطفه،سواء كانت حيوانيه أم نباتيه كلّها تستمد أساسها و أصولها من التراب.

المرحله الثانيه،هى مرحله النطفه التى تشمل جميع البشر كأصل ثان فى وجودهم عدا آدم و زوجته حوّاء.

المرحله الثّالثه التى تتكامل فيها النطفه و تنمو بشكل مستمر و تتحول إلى قطعه دم و المسمى بمرحله«العلقه».

بعد ذلك تتحول«العلقه»إلى«مضغه»أشبه ما تكون باللحم«الممضوغ» مرحله ظهور الأعضاء،ثمّ مرحله الحس و الحركه،و الآيه لا تشير هنا إلى هذه المراحل الثلاث،لكن الآيات الأخرى أشارت إلى ذلك بشكل واضح.

المرحله الرّابعه تتمثل فى ولاده الجنين.بينما تتمثل المرحله الخامسه فى تكامل القوّه الجسميه التى قيل إنها تتم فى سن الثلاثين، حيث سيحرز الجسم الإنسانى أكبر قدر ممكن من نموه و تكامل قواه.

و قال البعض:إنّ الإنسان يصل هذه المرحله قبل هذا السن،و من الممكن أن تختلف هذه المرحله عند الأشخاص إلى أن يحرز الإنسان فيها مرحله«بلوغ الأشد»حسب التعبير القرآنى.

بعد ذلك تبدأ مرحله الرجوع القهقرى إلى الوراء،فيفقد الإنسان قواه تدريجيا،فيصل إلى الشيب الذى يعتبر المحطه السادسه من محطات الإنسان.

أخيرا،تنتهى حياه كلّ إنسان فى الأرض بالموت و الانتقال إلى العالم الآخر.

بعد كلّ هذه التغيرات و التطورات،هل ثمّه من شك فى قدره و عظمه مبدئ

عـالم الوجـود،و ألطـاف اللّه و مـواهبه على الخلـق؟! الطريـف أنّ الآـيه تسـتخدم فى الإشـاره إلى المراحـل الأـربع الأـولى تعـبير «خلقكم»لأـنّ ليس للإنسـان أى دور فيها،حيث يتطور من التراب إلى النطفه ثمّ إلى العلقه فطفلا صـغيرا من دون أن يكون له أى دور فى هذه التحولات.لكن فى المراحل الثلاث التى تلى الولاده،أى مرحله الوصول إلى أقصـى القوه الجسميه ثمّ مرحله الشيب و انتهـاء العمر،اسـتخدمت الآيه تعبير«لتبلغوا»و«لتكونوا» و فيها إشاره إلى كيان الإنسان الحرّ و فيها أيضا ما يشـير إلى الحقيقه التى تقول:إنّ نمو الإنسان و وجوده عبر هـذه المراحل الثلاث،و تقـدمه باطّراد أو تأخره،و يرتبط بشـكل أو بآخر بحسن تدبير الإنسان أو سوء تدبير،حيث يبلغ من الشيخوخه أو يموت مبكرا،و هذا يدل على مدى الدقّه فى استخدام التعابير القرآنيه الآنفه الذكر.

و سـبق أن أشرنا إلى أنّ التعبير ب«يتوفى»الذى يتضمن معنى الموت،لا يعنى الفناء التام وفق المنطق القرآنى،بل إنّ ملك الموت يمسك الروح و يقبضها بإذنه تعالى و بحسب الأجل الإلهى المحتوم،فتنقل الأرواح إلى عالم آخر ألا و هو عالم «البرزخ».

إن تكرار مفاد هـذا التعبير فى القرآن الكريم،يبيّن بوضوح نظره الإسـلام تجاه الموت،هـذا المفهوم الـذى يخرج عن نطاق الفهم المادى الضـيق الـذى يقرن الموت بالفناء و العـدم،بينما الموت لا يعبّر إلاّ عن انتقال الروح من هـذا العالم إلى عال آخر هو عالم البقاء.

و قـوله تعـالى: وَ مِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفّى مِنْ قَبْلُ قـد يكون إشـاره إلى حصول الموت قبـل مرحله الشـيخوخه،أو قـد يعنى الإشـاره إلى المراحل السابقه بأجمعها،بمعنى أنّ الموت قد يصيب الإنسان قبل أن يبلغ إلى مرحله من المراحل السابقه.

و من الضـرورى أن نشير هنا إلى أنّ جميع المراحل،عدا المرحله الأخيره (أى بلوغ نهايه العمر و حلول الوفاه)قد عطفت ب«ثم»و هى إشاره إلى السياق

التسلسلی الترتیبی فی سیاق وجودها فی حیاه الإنسان،فمرحله«المضغه»لا تسبق-مثلا-مرحله«النطفه»و هکذا.و فی هذا النوع من العطف إشاره أیضا إلی وجود الفاصله بین مرحله و اخری.

أما عطف المرحله الأخیره ب(الواو)فقد یکون السبب فیه أنّ نهایه العمر لا تکون بالضروره بعد انتهاء مرحله الشیخوخه،إذ کثیرا ما یموت الإنسان قبل بلوغه إلی مرحله الشیوخه(هناک بحث عن«الأجل المسمی»ذیل الآیه ۲ سوره الأنعام و الآیه ۳۴ من سوره الأعراف و الآیه ۶۱ من سوره النحل).

الآیه الأخیره فی هذا البحث تتحدث عن أهم مظهر من مظاهر قدره اللّه تبارک و تعالی متمثله بقضیه الحیاه و الموت،هاتان الظاهرتان اللتان لا تزالان بالرغم من تقدم العلم و تطوره فی نطاق الأمور الغامضه و المجهوله فی معرفه الإنسان و علمه.

قول تعالی: هُوَ الَّذِی یُحْیِی وَ یُمِیتُ .

إنّ الحیاه و الموت-بالمعنی الواسع للکلمه-بید اللّه،سواء تعلق ذلک بالإنسان أو النبات أو أنواع الحیوان و الموجودات الأخری التی تتجلی فیها الحیاه بأشکال متنوعه.

إنّ نماذج الحیاه تعتبر أکثر النماذج تنوعا فی عالم الوجود و کل الکائنات تنتهی بأجل معین إلی الموت،سواء فی ذلک الکائن ذو الخلیه الواحده أو الحیوانات الکبیره،أو التی تعیش فی الأعماق المظلمه للمحیطات و البحار،أو الطیور التی تعانق السماء،و من الاحیاء احادیه الخلیه السابحه فی أمواج المحیطات إلی الأشجار التی یبلغ طولها عشرات الأمتار،فإنّ لکل واحد منها حیاه خاصّه و شرائط معینه،و بهذه النسبه تتفاوت عملیه موتها،و بدون شک فإن اشکال الحیاه هی أکثر اشکال الخلقه تنوعا و أعجبها.

إنّ الانتقال من عالم إلی آخر،من الوجود المادی الی الحیاه،و من الحیاه فی

هذه الدّنيا الى ما بعد الموت يستبطن أسرارا و عجائب بليغه تحكى عظمه الخالق و مدى قدرته فى هذه الخليقه العجيبه المتنوعه و كل واحده من هذه القضايا المعقده و المتنوعه لا- تعتبر مشكله و عسيره فى متناول قدره الخالق جلّ و علا، حيث تتحقق بمجرّد إرادته.

لذلك تقول الآيه فى نهايتها بيانا لهذه الحقيقه: فَإِذٰا قَضىٰ أَمْراً فَإِنَّمٰا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ .

إنّ كلمه«كن»و بعدها«فيكون»هى من باب عدم قدره الألفاظ على استيعاب حقيقه الإراده و القدره الإلهيه،و إلّا فليس ثمّه من حاجه إلى هذه الجمله،لأنّ إراده اللّه هى نفسها حدوث الكائنات و وجودها (۱) بدون فصل

۱- ۱) -راجع تفسير قوله تعالى: كُنْ فَيَكُونُ فى أثناء الحديث عن الآيه(۱۱۷)من سوره البقره.

الآیات [سوره غافر (۴۰): الآیات ۶۹ الی ۷۶]

اشاره

أَ لَمْ تَرَ إِلَى اَلَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اَللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ (۶۹) اَلَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَ بِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (۷۰) إِذِ اَلْأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَ اَلسَّلاَسِلُ يُسْحَبُونَ (۷۱) فِي اَلْحَمِيمِ ثُمَّ فِي اَلنَّارِ يُسْجَرُونَ (۷۲) ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ (۷۳) مِنْ دُونِ اَللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اَللَّهُ اَلْكَافِرِينَ (۷۴) ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي اَلْأَرْضِ بِغَيْرِ اَلْحَقِّ وَ بِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ (۷۵) اُدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى اَلْمُتَكَبِّرِينَ (۷۶)

التّفسیر

اشاره

عاقبه المعاندین المغرورین:

مره اخری تعود آیات اللّه البینات للحدیث عن الذین یجادلون فی آیات اللّه و لا یخضعون إلی منطق الحق و دلائل النبوّه و مضامین دعوات الأنبیاء و الرسل.

هذه الآیات تتحدث عن مصیر هؤلاء،فتقول: أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ

اللّهِ أَنّى يُصْرَفُونَ

.

إنّ هذه المجادله بالباطل المقترنه مع التعصب الأعمى جعلتهم يحيدون عن الصراط المستقيم،لأنّ الحقائق لا تظهر أو تبيّن إلاّ فى الروح الباحثه عن الحقيقه و من ثمّ الإذعان لمنطقها.

إنّ طرح هذه القضيه من قبل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم بصيغه الاستفهام يؤكّد أنّ من يتمتع بذوق سليم و منطق قويم يثيره العجب من إنكار هذه الفئه لكل هذه الآيات البينات و الدلائل و المعجزات.

ثم تنتقل الآيات إلى بيان أمرهم عند ما تقول: اَلَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتابِ وَ بِما أَرْسَلْنا بِهِ رُسُلَنا .

من الضرورى أن نشير أولا إلى أنّ السوره التى بين أيدينا تحدّثت أكثر من مرّه عن اَلَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللّهِ جاء ذلك فى الآيتين(٣٥)و(٥٦)و هذه الآيه.و نستفيد من القرائن أنّ المقصود ب«آيات اللّه»هى دلائل النبوّه و علائمها على الأكثر،بالإضافه إلى ما تحويه الكتب السماويه.و طالما تتضمّن الكتب السماويه آيات التوحيد،و المسائل الخاصه بالمبدأ و المعاد،لذا فإنّ هذه القضايا مشموله بجدال القوم و خصومتهم للحق.

و هل يستهدف التكرار تأكيد قضيه هذا الموضوع،أم أنّ كلّ آيه تختص بطرح و موضوع يختلف عن أختها؟ الاحتمال الثّانى أقرب الى المراد.إذ يلاحظ أنّ لكل آيه موضوع خاص.

فالآيه(٥٦)تتحدث عن دواعى المجادله و أهدافها أى الكبر و الغرور فى حين تتحدث الآيه(٣٥)عن عقابهم الدنيوى متمثلا بأن ختم اللّه على قلوبهم.

أمّا الآيه التى نتحدث عنها الآن فهى تتحدث عن العقاب الأخروى، و أوصافهم فى النّار ذات السعير.

من الضرورى أن نشير أيضا إلى أنّ«يجادلون»فعل مضارع يدل على

الاستمرار.و هذه إشاره إلى أنّ مثل هؤلاء الأفراد الذين يكذبون بآيات اللّه لتبرير عقائدهم و أعمالهم السيئه المشينه،إنّما يقومون بالمجادله بشكل مستمر من خلال الأقوال و الذرائع الواهيه.

و تنتهى الآيه بتهديد من خلال قوله تعالى: فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ أى سوف يعلمون نتيجه أعمالهم و عاقبه أعمالهم السيئه و ذلك فى وقت إِذِ الْأَغْلاٰلُ فِي أَعْنٰاقِهِمْ وَ السَّلاٰسِلُ يُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ أىّ يلقى بهم فى الماء المغلى ثمّ فِي النّٰارِ يُسْجَرُونَ (١) .

«يسجرون»من كلمه«سجر»على وزن«فجر»و تعنى إشعال النّار و زياده لهيبها-كما ذهب إليه الراغب فى مفرداته- أمّا الآخرون من أرباب اللغه و التّفسير فيقولون:إنها تعنى ملء التنور بالنار (٢) .

لذلك يذهب بعض المفسّرين إلى أنّ هذه المجموعه من الكفّار تصبح وقودا للنار،كما نقرأ ذلك فى الآيه(٢۴)من سوره البقره: فَاتَّقُوا النّٰارَ الَّتِي وَقُودُهَا النّٰاسُ وَ الْحِجٰارَهُ .

البعض الآخر يقول:إنّ معنى الآيه هو أنّ هؤلاء ستملأ النّار كلّ وجودهم و تستوعب كامل كيانهم.(طبعا ليس ثمّه تعارض بين المعنيين).

هذا النوع من العقاب للمعاندين و المتكبرين و المجادلين يعتبر فى الواقع انعكاس لأعمالهم فى هذه الدنيا،حيث كذّبوا بآيات اللّه بسبب كبريائهم

١- ١) -«الأغلال»جمع«غل»و تعنى الطوق حول العنق أو الرجل.و هى فى الأصل مأخوذه من كلمه«غلل»على وزن«أجل» بمعنى الماء الذى يجرى بين الأشجار.و يطلق على«الخيانه»(غلول)و على الحراره الناشئه من العطش«غليل»و ذلك بسبب نفوذها تدريجا إلى داخل أعماق الإنسان. «السلاسل»فهى جمع«سلسله،و«يسحبون»من كلمه«سحب»على وزن(سهو).

٢- ٢) -يلاحظ ذلك فى«تفسير الصافى»و«روح المعانى»و«الكشاف»فى نهايه الآيات التى نبحثها.و فى لسان العرب:المعنى الأصلى ل«سجر»هو الملء.فيقال«سجرت النهر»أى ملأته ماء.

و غرورهم،و قيدوا أنفسهم بسلاسل التقليد الأعمى،و في يوم الجزاء و القيامه ستطوقهم السلاسل من الأعناق بمنتهى الذلّه،و سيسحبون أذلاء إلى نار جهنم و بئس المصير.

إضافه إلى هذا العذاب الجسماني سيعاقبون بمجموعه من أنواع العذاب الروحي و النفسي كما تشير إليه الآيه التاليه،حيث يقول تعالى: ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مٰا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ ؟! أي أين شركاؤكم من دون اللّه كي ينقذوكم من هذا العذاب الأليم و أمواج النّار المتلاطمه؟ ألم تقولوا:إنّكم تعبدونهم و تطيعونهم و تتخذونهم أربابا ليشفعوا لكم،إذا أين شفاعتهم الآن؟! فيجيبون بخضوع يغشاهم و ذلك يعلوهم: قٰالُوا ضَلُّوا عَنّٰا (١) أيّ اختفوا و هلكوا و أبيدوا بحيث لم يبق منهم أثر.

و لا ريب،فإنّ من كانوا يدعونه من دون اللّه هم في نار جهنم،و قد يكونون بجانبهم،إلاّ أنّهم لا ينفعون و لا يؤثرون و كأنّهم قد اختلفوا! و عند ما يرى هؤلاء أنّ اعترافهم بعباده الأصنام أصبح عارا عليهم و علامه تميزهم،فإنّهم يبدأون بالإنكار فيقولون: بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئاً .

لقد كانت الأصنام مجرّد أوهام،لكنّا كنّا نظن أنّها تمثل حقائق ثابته،لكنّها أصبحت كالسراب الذي يتصوره العطشان ماء.أمّا اليوم فقد ثبت لنا أنّها لم تكن سوى أسماء من غير مسمى و ألفاظ ليس لها معنى،و أنّ عبادتها لم تنفعنا بشيء سوى الضلال.لذلك فهؤلاء اليوم بمواجهه الواقع الذي لا سبيل إلى إنكاره.

هناك احتمال آخر في تفسير الآيه،هو أنّهم سيكذبون لينقذوا أنفسهم من الفضيحه،كما نقرأ ذلك في الآيتين(٢٣)و(٢۴)من سوره الأنعام:

---

١ - ١) -لقد ذكر المفسرون معنيين لكلمه«ضلوا»فالبعض اعتبرها بمعنى ضاعوا و هلكوا،بينما قال البعض الآخر:إنها بمعنى «غابوا»كقولنا«ضلت الدابه»أي غابت فلم يعرف مكانها.

ثُمَّ لَمْ تَكَنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاّ أَنْ قٰالُوا وَ اللّٰهِ رَبِّنٰا مٰا كُنّٰا مُشْرِكِينَ انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلىٰ أَنْفُسِهِمْ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مٰا كٰانُوا يَفْتَرُونَ .

و أخيرا يقول تعالى: كَذٰلِكَ يُضِلُّ اللّٰهُ الْكٰافِرِينَ .

إنّ كفرهم و عنادهم سيكون حجابا على قلوبهم و عقولهم،و لذلك سيتركون طريق الحق و يسلكون سبيل الباطل،فيحرمون يوم القيامه من الجنّه و ينتهى مصيرهم إلى النّار.و هكذا يضل اللّه الكافرين.

الآيه التى بعدها تشير إلى عله مصائب هذه المجموعه،حيث يقول تعالى:

ذٰلِكُمْ بِمٰا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ بِمٰا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ

.

كانوا يفرحون بمعارضه الأنبياء و قتل المؤمنين و التضييق على المحرومين، و كانوا يشعرون بالعظمه عند ارتكاب الذنوب و ركوب المعاصى.و اليوم عليهم أن يتحملوا ضريبه كلّ ذلك الفرح و الغفله و الغرور من خلال هذه النيران و السلاسل و السعير.

«تفرحون»من«فرح»و تعنى السرور و الابتهاج.و قد يكون الفرح ممدوحا و مطلوبا فى بعض الأحيان،كما تفيد الآيتان(۴)و(۵)من سوره«الروم»فى قوله تعالى: وَ يَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللّٰهِ .

و فى بعض الأحيان يكون الفرح مذموما و باطلا،كما ورد فى قصه قارون، الآيه(۷۶)من سوره«القصص»حيث نقرأ قوله تعالى: إِذْ قٰالَ لَهُ قَوْمُهُ لاٰ تَفْرَحْ إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ .

طبعا ينبغى التفريق بين الموردين من خلال القرائن،و لا ريب من أن «الفرح»فى الآيه التى نبحثها من النوع الثّانى.

«تمرحون»مشتقّه من«مرح»على وزن«فرح»و هى كما يقول اللغويون و المفسرون،تأتى بمعنى شده الفرح،و قال آخرون:إنّها تعنى الفرح بسبب بعض القضايا الباطله.

فی حین ذهبت جماعه ثالثه إلی اعتبارها حاله من الفرح المتزامن مع نوع من الطرب و الاستفاده من النعم الإلهیه فی طریق الباطل.

و الظاهر أنّ هذه المعانی جمیعا تعود إلی موضوع واحد،ذلک أنّ شدّه الفرح و الإفراط فیه یشمل جمیع المواضیع و الحالات السابقه.و فی نفس الوقت فهو یتزامن مع أنواع الذنوب و الآثام و الفساد و الشهوه (۱) .

إنّ هذه الأفراح المتزامنه مع الغرور و الغفله و الشهوه،تبعد الإنسان بسرعه عن اللّه تبارک و تعالی و تمنعه من إدراک الحقیقه،فتکون الحقائق لدیه غامضه و المقاییس معکوسه.

و لمثل هؤلاء یصدر الخطاب الإلهی: اُدْخُلُوا أَبْوٰابَ جَهَنَّمَ خٰالِدِینَ فِیهٰا فَبِئْسَ مَثْوَی الْمُتَکَبِّرِینَ .

هذه الآیه تؤّکد مرّه اخری علی أنّ التکبر هو أساس المصائب،ذلک أنّ التکبر هو قاعده الفساد،و یحجب البصائر عن رؤیه الحق و یجعل الإنسان یخالف دعوه الأنبیاء علیهم السّلام.

ثم تشیر الآیه إلی أبواب جهنّم بقوله تعالی: أَبْوٰابَ جَهَنَّمَ .

و لکن هل الدخول من أبواب جهنّم یعنی أن لکل مجموعه باب معین تدخل منه،أو أنّ کلّ مجموعه منهم تدخل من أبواب متعدّده؟ أی أنّ جهنّم تشبه السجون المخیفه التی تتداخل فیها الأبواب و الدهالیز و الممرات و الطبقات،فبعض الضالین المعاندین یجب أن یسلکوا کلّ هذه الأبواب و الممرات و الطبقات قبل أن یستقروا فی قعر جهنّم.

و ممّا یؤید هذا التّفسیر ما

یروی عن الإمام أمیر المؤمنین علی بن أبی طالب علیه السّلام أنّه أجاب عن سؤال فی تفسیر قوله تعالی:

۱- ۱) -یقول الراغب فی المفردات:«الفرح:انشراح الصدر بلذه عاجله،و أکثر ما یکون ذلک فی اللذات البدنیه.و المرح شده الفرح و التوسع فیه».

لَهٰا سَبْعَةُ أَبْوٰابٍ لِكُلِّ بٰابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ : (۱) أنّه قال:إنّ جهنّم لها سبعه أبواب،أطباق بعضها فوق بعض، و وضع إحدى يديه على الأخرى،فقال هكذا» (۲) .

و ثمه تفسير آخر نستطيع أن نقف على خلاصته بالشكل الآتى:إنّ أبواب جهنم-كأبواب الجنّه-إشاره إلى العوامل المختلفه التى تؤدى بالإنسان إلى دخولها،فكل نوع من الذنوب أو نوع من أعمال الخير يعتبر بابا.

و ثمّه ما يشير الى ذلك فى الروايات الإسلاميه،و وفق هذا المعنى فإنّ العدد(۷)هو كنايه عن الكثره،و ما ورد فى القرآن الكريم من أنّ للجنّه ثمانيه أبواب هو إشاره إلى ازدياد عوامل الرحمه على عوامل العذاب(راجع ذيل الآيه ۴۴ سوره الحجر).

و هذان التّفسيران لا يتعارضان فيما بينهما.

۱- ۱) -الحجر،الآيه ۴۴.

۲- ۲) -مجمع البيان،المجلد ۵-۶،صفحه ۳۳۸،نهايه الآيه ۴۴ من سوره الحجر.هناك روايات اخرى ذكرها العلاّمه المجلسى فى المجلد ۸،من بحار الأنوار،صفحه ۲۸۹،و ۳۰۱ و ۲۸۵.

الآیتان [سوره غافر (۴۰): الآیات ۷۷ الی ۷۸]

اشاره

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اَللّٰهِ حَقٌّ فَإِمّٰا نُرِیَنَّکَ بَعْضَ اَلَّذِی نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّیَنَّکَ فَإِلَیْنٰا یُرْجَعُونَ (۷۷) وَ لَقَدْ أَرْسَلْنٰا رُسُلاً مِنْ قَبْلِکَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنٰا عَلَیْکَ وَ مِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَیْکَ وَ مٰا کٰانَ لِرَسُولٍ أَنْ یَأْتِیَ بِآیَهٍ إِلاّٰ بِإِذْنِ اَللّٰهِ فَإِذٰا جٰاءَ أَمْرُ اَللّٰهِ قُضِیَ بِالْحَقِّ وَ خَسِرَ هُنٰالِکَ اَلْمُبْطِلُونَ (۷۸)

التّفسیر

اشاره

فاصبر...حتی یأتیک وعد اللّه:

بعد سلسله البحوث السابقه عن جدال الکافرین و غرورهم و تکذیبهم الآیات الإلهیه و الدلائل النبویه،تأتی هاتان الآیتان لمواساه النّبی الأکرم صلّی اللّه علیه و اله و سلّم و تأمرانه بالصبر و الاستقامه فی مواجهه المشاکل و الصعاب.

یأتی الأمر أوّلا فی قوله تعالی: فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللّٰهِ حَقٌّ .

إنّ وعده بالنصر حق،و وعده بمعاقبه المستکبرین المغرورین حق،و کلاهما سیتحققان،علی أعداء الحق أن لا یظنّوا بأنّهم یستطیعون الهروب من العذاب الإلهی بسبب تأخر عقابهم،لذلک تضیف الآیه: فَإِمّٰا نُرِیَنَّکَ بَعْضَ الَّذِی نَعِدُهُمْ أَوْ

نَتَوَفَّيَنَّکَ فَإِلَيْنا يُرْجَعُونَ

(۱)

.

إنّ مسئوليتك هی التبليغ البليغ و إتمام الحجه على الجميع،حتى تتنور القلوب اليقظه ببلاغك،و لا يبقى للمعاندين عذر! عليك أن تهتم بإنجاز مهمتك و لا تنتظر أن تحقق الوعيد عاجلا بإنزال العقاب على هذه الفئه الضاله.

و الكلام يتضمّن تهديدا إلى تلك الفئه لكی يعلموا أنّ العذاب لا بدّ مصيبهم، و نازل بساحتهم،فكما نال بعضهم العقاب الذی يستحقونه فی هذه الدنيا فی«بدر» و غيرها،فهناك أيضا يوم القيامه و العذاب المنتظر.

ثم تشير الآيه الكريمه إلى الوضع المشابه الذی واجهه الرسل و الأنبياء قبل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم كی تكون فی هذه الذكرى مواساه أكثر للرسول الكريم،حيث واجه الأنبياء السابقين مثل هذه المشاكل،إلاّ أنّهم استمروا فی طريقهم و احتفظوا بمسارهم المستقيم.

يقول تعالى: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلاً مِنْ قَبْلِکَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنا عَلَيْکَ وَ مِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْکَ .

لقد واجه كلّ منهم ما تواجهه أنت اليوم،فصبروا و كان حليفهم النصر و الغلبه على الظالمين.

و من جهه ثانيه كان الجميع يطلبون من الرسل الإتيان بالمعجزه،و مشركو مكّه لم يشذوا على غيرهم فی طلب المعاجز من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم لـذلك يخاطب اللّه تعالى رسوله الكريم صلّى اللّه عليه و اله و سلّم بقوله: وَ ما كانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَهٍ إِلاّ بِإِذْنِ اللّهِ .

إنّ جميع المعاجز هی من عند اللّه و بيده،و بذلك فهی لا تخضع إلى أمزجه الكفّار و المشركين،بل إنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم لا ينبغی له الاستسلام أمام«معجزاتهم المقترحه»بل ما يكون من المعجزه ضروريا لهدايه الناس و إحقاق الحق يظهره

۱- ۱) -يلاحظ مثلها فی الآيه(۴۶)من سوره يونس.

اللّه علی أيدی الأنبياء.

ثم تهدّد الآيه من كان يقول: لماذا لا يشملنا العذاب الإلهی إذا كان هذا الرّسول صادقا؟فتقول الآيه: فَإِذٰا جٰاءَ أَمْرُ اللّٰهِ قُضِیَ بِالْحَقِّ وَ خَسِرَ هُنٰالِكَ الْمُبْطِلُونَ .

فی ذلك اليوم المهول تغلق أبواب التوبه،و لا تنفع الآهات و الصرخات، و يخسر أهل الباطل صفقتهم،و يشملهم العذاب الإلهی الأليم،إذا فلما ذا كلّ هذا الإصرار علی مجیء ذلك اليوم؟! وفقا لهذا التّفسير ينصرف معنی الآيه و المقصود بالعذاب فيها إلی«عذاب الاستئصال».

و لكن بعض المفسّرين اعتبر هذه الآيه بمثابه بيان للعذاب فی يوم القيامه.

فهناك يكون القضاء الحق بين الجميع،و يشاهد أنصار الباطل خسرانهم المريع.

إنّ فيما تضمّنته الآيه(٢٧)من سوره«الجاثيه»يؤكّد هذا التّفسير،إذ يقول تعالی: وَ يَوْمَ تَقُومُ السّٰاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ .

و لكن تمّ استخدام«أمر اللّه»و ما شابهها فی الآيات المتعدّده التی تختص بعذاب الدنيا (١) .

و يحتمل أن يكون للآيه معنی أوسع يشمل عذاب الدنيا و الآخره،و فی المشهدين يتوضح خسران المبطلين.

و من الضروری هنا الإشاره إلی الحديث الذی

رواه الشيخ الصدوق رحمه اللّه فی أماليه بإسناده إلی أبی عبد اللّه عليه السّلام«قال: كان فی المدينه رجل يضحك الناس، فقال:قد أعيانی هذا الرجل أن أضحكه-يعنی علی بن الحسين عليه السّلام-قال:فمرّ عليه السّلام و خلفه موليان له،فجاء الرجل حتی انتزع رداءه من رقبته،ثمّ مضی فلم يلتفت إليه الإمام عليه السّلام فاتبعوه و أخذوا الرداء منه،فجاءوا به فطرحوه عليه فقال لهم:من

١- ١) -كما فی«هود»الآيات:(٤٣)،(٧۶)،(١٠١).

هذا؟فقالوا:هذا رجل بطال يضحكك أهل المدينه،فقال:قولوا له إن للّه يوما يخسر فيه المبطلون» (۱) .

ملاحظه فی عدد الأنبیاء؟!

للمفسّرین کلام کثیر حول عدد أنبیاء اللّه و رسله.

و الروایه المشهوره فی هذا المجال تذکر أنّ عددهم مائه و عشرون ألف نبی، فی حین تقتصر روایات اخری علی ثمانیه آلاف،أربعه آلاف منهم هم أنبیاء بنی إسرائیل،و الباقون من غیرهم (۲) .

و

قد جاء فی حدیث عن الإمام علی بن موسی الرضا علیه السّلام أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم قال:

«خلق اللّه عزّ و جلّ مائه ألف نبی و أربعه و عشرین ألف نبیّ،أنا أکرمهم علی اللّه و لا فخر،و خلق اللّه عزّ و جلّ مائه ألف وصی و أربعه و عشرین ألف وصی،و علی أکرمهم علی اللّه و أفضلهم» (۳) .

و

فی روایه اخری عن أنس بن مالک أنّ رسول اللّه قال: «بعثت علی أثر ثمانیه آلاف نبیّ،منهم أربعه آلاف من بنی إسرائیل» (۴)
.

هذان الحدیثان لا یتناقضان فیما بینهما،إذ یمکن أن یکون الحدیث الثّانی قد أشار إلی الأنبیاء العظام،کما یذکر ذلک العلاّمه المجلسی فی توضیح هذا الکلام.

و فی حدیث آخر أنّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم أجاب علی سؤال لأبی ذر رضی اللّه عنه عن عدد الأنبیاء قائلا بأنّهم(۱۲۴)ألف نبی،و عن سؤال حول عدد الرسل منهم،أنّهم

۱- ۱) -نور الثقلین،ج ۴،ص ۵۲۷،حدیث ۱۱۸.

۲- ۲) -مجمع البیان:أثناء الحدیث عن هذه الآیه.

۳- ۳) -بحار الأنوار،مجلد ۱۱،صفحه ۳۰،حدیث رقم ۲۱.

۴- ۴) -بحار الأنوار،مجلد ۱۱،صفحه ۳۱،حدیث رقم ۲۲.

(۳۱۳)رسول فقط (۱) .

و

فی حدیث آخر أنّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بعد أن ذکر العدد(۱۲۴)ألف قال:

خمسه منهم أولو العزم:نوح و إبراهیم و موسی و عیسی و محمّد صلّی اللّه علیه و اله و سلّم (۲) .

و هناک روایات اخری فی هذا المجال تؤید العدد المذکور أعلاه.

من هنا یتضح أنّ هذه الروایه(حول عدد الأنبیاء)لیست خبرا واحدا کما یقول«برسوئی»نقلا عن بعض العلماء فی تفسیر«روح البیان»،بل هناک روایات متعدّده و مستفیضه تؤکد أنّ عدد الأنبیاء الإلهیین کان(۱۲۴)ألف نبی.و أنّ مثل هذه الروایات موجوده فی المصادر الإسلامیه المختلفه.

و الطریق فی الأمر أن عدد الأنبیاء الذین صرح القرآن بأسمائهم هو (۲۶) نبی فقط هم:آدم-نوح-إدریس-صالح-هود-إبراهیم-إسماعیل-إسحاق- یوسف-لوط-یعقوب-موسی-هارون-زکریا-شعیب-یحیی-عیسی-داود- سلیمان-إلیاس-الیسع-ذو الکفل-أیوب-یونس-عزیر-و محمّد(علیهم الصّلاه و السلام).

و لکن هناک أنبیاء آخرون أشار إلیهم القرآن و إن لم یذکر أسماءهم صراحه مثل«أشموئیل»الذی ورد ذکره فی الآیه(۲۴۸)من سوره«البقره»فی قوله تعالی: وَ قٰالَ لَهُمْ نَبِیُّهُمْ .

و النّبی«أرمیا»الوارد فی الآیه(۲۵۹)من سوره البقره فی قوله تعالی: أَوْ کَالَّذِی مَرَّ عَلیٰ قَرْیَهٍ... (۳) .

و«یوشع»المذکور فی الآیه(۶۰)من سوره«الکهف»فی قوله تعالی: وَ إِذْ قٰالَ مُوسیٰ لِفَتٰاهُ .

ص:۳۲۸

۱- ۱) -بحار الأنوار،مجلد ۱۱،صفحه ۳۲،حدیث رقم ۲۴.

۲- ۲) -بحار الأنوار،مجلد ۱۱،صفحه ۴۱،حدیث رقم ۲۴.

۳- ۳) -ثمّه بحث بین المفسّرین عن اسم هذا النّبی،إذ فیهم من قال:إنّه«أرمیا»و البعض قال:إنّه«الخضر»و قال جمع:إنّه«عزیر».

و«الخضر»الوارد ذكره إشاره فى الآيه(۶۵)من سوره الكهف فى قوله تعالى: فَوَجَدٰا عَبْداً مِنْ عِبٰادِنٰا .

و ورد ذكر لأسباط بنى إسرائيل،و هم زعماء قبائل بنى إسرائيل كما فى قوله تعالى: وَ أَوْحَيْنٰا إِلىٰ إِبْرٰاهِيمَ وَ إِسْمٰاعِيلَ وَ إِسْحٰاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْبٰاطِ (۱) .

و إذا كان هناك أنبياء من بين إخوه يوسف عليه السّلام فقد أشير إليهم مرات عديده فى سوره يوسف.

و خلاصه القول هنا أنّ القرآن أشار إلى قصص و حوادث ترتبط بأكثر من (۲۶)نبيا و هم المصرّح بأسمائهم مباشره فى القرآن الكريم.

و يستفاد من بعض الروايات الوارده فى مصادر السنه و الشيعه أنّ اللّه بعث بعض الأنبياء من ذوى البشره السوداء،كما يقول العلامه الطبرسى مثلا فى«مجمع البيان»

روى عن على أنّه قال: «بعث اللّه نبيّا أسود لم يقص قصته» (۲) .

۱- ۱) -النساء-۱۶۳.

۲- ۲) -مجمع البيان نهايه الآيه التى تبحثها.و فى هوامش تفسير الكشّاف هناك روايات عديده فى هذا المجال.يلاحظ المجلد الرابع،صفحه ۱۸۰،طبعه دار الكتاب العربى.

الآیات [سوره غافر (۴۰): الآیات ۷۹ الی ۸۱]

اشاره

اَللّٰهُ اَلَّذِی جَعَلَ لَکُمُ اَلْأَنْعٰامَ لِتَرْکَبُوا مِنْهٰا وَ مِنْهٰا تَأْکُلُونَ (۷۹) وَ لَکُمْ فِیهٰا مَنٰافِعُ وَ لِتَبْلُغُوا عَلَیْهٰا حٰاجَةً فِی صُدُورِکُمْ وَ عَلَیْهٰا وَ عَلَی اَلْفُلْکِ تُحْمَلُونَ (۸۰) وَ یُرِیکُمْ آیٰاتِهِ فَأَیَّ آیٰاتِ اَللّٰهِ تُنْکِرُونَ (۸۱)

التّفسیر

اشاره

منافع الأنعام المختلفه:

تعود الآیات التی بین أیدینا للحدیث مرّه اخری عن علائم قدره الخالق (جلّ و علا)و مواهبه العظیمه لبنی البشر،و تشرح جانبا منها کی تزید من وعی الإنسان و معرفته باللّه تعالی،و لیندفع نحو الثناء و الشکر فیزداد معرفه بخالقه.

یقول تعالی: اَللّٰهُ الَّذِی جَعَلَ لَکُمُ الْأَنْعٰامَ لِتَرْکَبُوا مِنْهٰا وَ مِنْهٰا تَأْکُلُونَ .

فبعضها یختص بالغذاء کالأغنام،و بعضها للرکوب و الغذاء کالجمال التی تعتبر بحق سفن الصحاری.

«أنعام»جمع«نعم»علی وزن«قلم»و تطلق فی الأصل علی الجمال،لکنّها توسعت فیما بعد لتشمل الجمال و البقره و الأغنام،و المصطلح مشتق من«النعمه»

بسبب أنّ أحد أكبر النعم على الإنسان هى هذه الأنعام.و فى يومنا هذا-بالرغم من تقدم التكنولوجيا فى مجال النقل البرى و الجوى-إلاّ أنّ الإنسان ما زال يستفيد من الأنعام،خصوصا فى الأماكن الصحراويه الرمليه،التى يصعب فيها استخدام وسائل النقل الأخرى.و يتمّ استخدام الأنعام و الحيوانات فى بعض المضايق و المناطق الجبليه،حيث يتعذر استخدام غيرها من وسائل النقل الحديث.

لقد خلق اللّه الأنعام بأشكال مختلفه،و بروح تستسلم للإنسان و تنصاع إليه و تخضع لأوامره و تلبى له احتياجاته،فى حين أنّ بعضها أقوى من أقوى الناس، و هذا الانصياع فى حدّ ذاته دليل من أدله الخالق العظيم الذى سخّر لعباده هذه الأنعام.

إنّ من الحيوانات الصغيره ما يكون خطره مميتا للإنسان،فى حين أن قافله من الجمال يكفى صبى واحد لقيادها! إضافه لما سبق تقول الآيه التى بعدها:إنّ هناك منافع اخرى: وَ لَكُمْ فِيهٰا مَنٰافِعُ .

الإنسان يستفيد من لبنها و صوفها و جلدها و سائر أجزائها الأخرى،بل يستفيد حتى من فضلاتها فى تسميد الأرض و إخصاب الزرع.و خلاصه القول:إنّه لا يوجد شىء غير نافع فى وجود هذه الأنعام،فكل جزء منها مفيد و نافع،حتى أنّ الإنسان بدأ يستخلص بعض الأدويه من امصال هذه الحيوانات،و الملفت أن «منافع»جاءت نكره فى الآيه لتبيّن أهميه ذلك).

ثم تضيف الآيه: وَ لِتَبْلُغُوا عَلَيْهٰا حٰاجَةً فِي صُدُورِكُمْ .

احتمل بعض المفسّرين أن معنى الآيه ينصرف إلى حمل الأثقال الذى يتمّ بواسطه الأنعام،لكن يحتمل أن يكون المقصود بقوله تعالى: حٰاجَةً فِي صُدُورِكُمْ الإشاره إلى بعض المقاصد و الأهداف و الرغبات الشخصيه،إذ يستفاد من الإنعام

فی الترفیه و الهجره و السیاحه و التسابق و التفاخر،و ما إلی ذلک من رغبات تنطوی علیها نفس الإنسان.

و لأنّ الأنعام تعتبر وسیله سفر علی الیابسه،لذلک تقول الآیه فی نهایتها:

وَ عَلَیْها وَ عَلَی الْفُلْکِ تُحْمَلُونَ

هناک بحث عن منافع الحیوانات یمکن مراجعته أثناء الحدیث عن الآیه الخامسه من سوره النحل).

لقد جاء التعبیر القرآنی«علیها»(أی الأنعام)بالرغم من الإشاره المباشره إلیها سابقا،لیکون مقدمه لذکر(الفلک).و المعنی أنّ اللّه جلّ و علا سخّر لکم الوسائل فی البر و البحر للانتقال و لحمل الأثقال کی تستطیعوا أن تبلغوا مقاصدکم بسهوله.

لقد جعلت للسفینه صفه خاصه بحیث تستطیع أن تبقی علی سطح الماء بالرغم من الأثقال و الأوزان الکبیره التی علیها، و جعل اللّه تعالی الحرکه فی الریح بحیث تستطیع الفلک الاستفاده منها لتحدید وجهه سفر الإنسان و مقصده.

الآیه الأخیره هی قوله تعالی: وَ یُرِیکُمْ آیاتِهِ فَأَیَّ آیاتِ اللّهِ تُنْکِرُونَ هل تستطیعون إنکار آیاته فی الآفاق و فی أنفسکم؟أم هل تنکرون آیاته فی خلقکم من تراب و تحویلکم عبر مراحل الخلق إلی ما أنتم علیه،أم أنّکم تنکرون آیاته فی الحیاه و الموت و المبدأ و المعاد؟و هل یمکنکم إنکار آیاته فی خلق السماء و الأرض أو اللیل و النهار،أو خلقه لأمور تساعد فی استمرار حیاتکم کالأنعام و غیرها؟ أینما تنظر و تمد البصر فثمه آیات اللّه و آثار العظمه فی خلقه سبحانه و تعالی:

«عمیت عین لا تراک».

یقول المفسّر الکبیر العلاّمه«الطبرسی»فی تفسیره«مجمع البیان»فی جوابه علی هذا السؤال:ما هو سبب مثل هذا الإنکار مع وضوح الدلائل و العلامات؟ یقول:إنّ ذلک یمکن أن یعود إلی ثلاثه أسباب هی:

۱-عباده الأهواء و الانقیاد إلیها،لأنّ ذلک یؤدی إلی حجب الإنسان عن رؤیه الحق،(و ینساق وراء غرائزه،لأنّ الحق یحدّد هذه الغرائز من خلال فرض التکالیف و الوظائف الربانیه.لذلک یعمد هؤلاء إلی إنکار الحق برغم دلائله الواضحه).

۲-التقلید الأعمی للآخرین-خصوصا السابقین-و هذا أمر یحجب الإنسان عن الحق.

۳-الأحکام و الإعتقادات الباطله المترسخه فی وعی الإنسان،فیذعن لها و تحجبه عن دراسه الحق و الانفتاح علی آیات اللّه تبارک و تعالی.

الآيات [سوره غافر (۴۰): الآیات ۸۲ الی ۸۵]

اشاره

أَ فَلَمْ یَسِیرُوا فِی اَلْأَرْضِ فَیَنْظُرُوا کَیْفَ کٰانَ عٰاقِبَهُ اَلَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ کٰانُوا أَکْثَرَ مِنْهُمْ وَ أَشَدَّ قُوَّهً وَ آثٰاراً فِی اَلْأَرْضِ فَمٰا أَغْنیٰ عَنْهُمْ مٰا کٰانُوا یَکْسِبُونَ (۸۲) فَلَمّٰا جٰاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَیِّنٰاتِ فَرِحُوا بِمٰا عِنْدَهُمْ مِنَ اَلْعِلْمِ وَ حٰاقَ بِهِمْ مٰا کٰانُوا بِهِ یَسْتَهْزِؤُنَ (۸۳) فَلَمّٰا رَأَوْا بَأْسَنٰا قٰالُوا آمَنّٰا بِاللّٰهِ وَحْدَهُ وَ کَفَرْنٰا بِمٰا کُنّٰا بِهِ مُشْرِکِینَ (۸۴) فَلَمْ یَکُ یَنْفَعُهُمْ إِیمٰانُهُمْ لَمّٰا رَأَوْا بَأْسَنٰا سُنَّتَ اَللّٰهِ اَلَّتِی قَدْ خَلَتْ فِی عِبٰادِهِ وَ خَسِرَ هُنٰالِکَ اَلْکٰافِرُونَ (۸۵)

التّفسیر

اشاره

لا ینفع الإیمان عند نزول العذاب:

هـذه الآیات هی آخر مجموعه من سوره المؤمن،و نسـتطیع أن نعتبرها نوعا من الاسـتنتاج للبحوث السابقه،فبعـد بیان کلّ الآیات الإلهیه فی الآفاق و الأنفس، و کل تلک المواعظ اللطیفه التی تحـدثت عن المعاد،و محکمه البعث الکبیره، هـددت هـذه الآیات الکافرین المستکبرین و المنکرین المعاندین تهدیدا شدیدا،

ص: ۳۳۴

و واجهتهم بالمنطق و الاستدلال،و أوضحت لهم عاقبه أعمالهم.

فأوّلا تقول: أَ فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كٰانَ عٰاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ .

فإذا كان عنـدهم شك فى صـحه التأريـخ المـدون على الأوراق،فهل عندهم شك فيما يلمسونه من الآثار الموجوده على سـطح الأرض،من القصور الخربه للملوك،و العظام النخره تحت التراب،أو المـدن التى أصابها البلاء و العـذاب و بقيت آثارها شاهـده على مـا جرى عليهـا؟! فأولئـك: كٰانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَ أَشَدَّ قُوَّةً وَ آثٰاراً فِي الْأَرْضِ .حيث يمكن معرفه عـددهم و قوّتهم من آثارهم المتمثله فى قبورهم و قصورهم و مدنهم.

عباره: آثٰاراً فِي الْأَرْضِ -سبق تفسيرها فى الآيه(٢١)من نفس السوره- فلعلها إشاره إلى تقدمهم الزراعى،كما جاء فى الآيه(٩)من سوره الروم،أو إشاره إلى النباء العظيم للأقوام السابقين فى قلب الجبال و السهول (١) .

و مع هذه القوّه و العظمه التى كانوا يتمتعون بها،فإنّهم لم يسـتطيعوا مواجهه العذاب الإلهى: فَمٰا أَغْنىٰ عَنْهُمْ مٰا كٰانُوا يَكْسِبُونَ (٢) .

بل إنّ كلّ قواهم و قدراتهم أبيدت خلال لحظات قصيره،حيث خربت القصور و هلكت الجيوش التى كان يلوذ بها الظالمون...و سقطوا كما تسقط أوراق الخريف،أو أغرقوا فى خضم الأمواج العاتيه.

فإذا كان هـذا هو مصـير أولئك السابقين مع كلّ ما لديهم،فبأى مصـير-يا ترى- يفكّر مشـركو مكّه و هم أقل من أولئك؟! الآيه التى بعدها تنتقل للحديث عن تعاملهم مع الأنبياء و معاجز الرسل البينه،

١- ١) -كما تذكره الآيات(١٢٨)و(١٢٩)من سوره الشعراء.

٢- ٢) -هنـاك احتمالان فى(مـا)فى جمله«مـا أغنى»فإمّـا نـافيه أو اسـتفهاميه،لكن يظهر أنّ الأوّل هو الصـحيح،و هنـاك أيضـا احتمالان فى«ما»فى جمله(ما كانوا يكسبون)فإما موصوله أو مصدريه و لكن الأوّل هو المرجح

حيث يقول تعالى: فَلَمّا جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَرِحُوا بِما عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ (١) أىّ إنّهم فرحوا بما عندهم من المعلومات و الأخبار،و صرفوا وجوههم عن الأنبياء و أدلتهم.و كان هذا الأمر سببا لأن ينزل بهم العذاب الالهى: وَ حاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ .

و ذكر المفسّرون احتمالات عديده عن حقيقه العلم الذى كان عندهم،و الذى اغتروا به و شعروا معه بعدم الحاجه إلى تعليمات الأنبياء،و الاحتمالات هذه هى:

أوّلا:لقد كانوا يظنون أنّ الشبهات الواهيه و السفسطه الفارغه هى العلم، و يعتمدون عليها.لقد ذكر القرآن الكريم أمثله متعدّده لهذا الاحتمال،كما فى قوله تعالى: مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ (٢) و الآيه حكايه على لسانهم.

و ممّا حكاه القرآن عنهم أيضا،قوله تعالى: أَ إِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ أَ إِنّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (٣) .

و قولهم فى الآيه(٢۴)من سوره الجاثيه: ما هِيَ إِلاّ حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَ نَحْيا وَ ما يُهْلِكُنا إِلاَّ الدَّهْرُ .

و هناك أمثله اخرى لإعاءاتهم.

ثانيا:المقصود بها العلوم المرتبطه بالدنيا و تدبير أمور الحياه،كما كان يدّعى «قارون»مثلا،كما يحكى عنه القرآن الكريم فى قوله تعالى: إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ عِنْدِي (۴) .

ثالثا:المقصود بها العلوم ذات الأدله العقليه و الفلسفيه،حث كان يعتقد البعض ممن يمتلك هذه العلوم أنّ لا حاجه له للأنبياء،و بالتالى فهو لا ينصاع لنبواتهم

---

١ - ١) -احتمل البعض أن يعود الضمير فى(جاءتهم)إلى الأنبياء،لذا يكون المقصود بالعلوم علوم الأنبياء،بينما المقصود من (فرحوا)هو ضحكك و استهزاء الكفّار بعلوم الأنبياء،لكن هذا التّفسير احتماله بعيد.

٢- ٢) -سوره يس،الآيه ٧٨.

٣- ٣) -السجده،الآيه ١٠.

۴- ۴) -القصص،الآيه ٧٨.

و دلائل إعجازهم.

التفاسير الآنفه الذكر لا تتعارض فيما بينها،لأنّها جميعا تقصد اعتماد البشر على ما لديهم،و استعلاءهم بهذه«المعرفه»على دعوات الرسل و معاجز الأنبياء.

بل و اندفع هؤلاء حتى إلى السخريه بالوحى و المعارف السماويه.

لكن القرآن الكريم يذكر مآل غرور هؤلاء و علوّهم و تكبرهم إزاء آيات اللّه، حينما يقول: فَلَمّا رَأَوْا بَأْسَنا قالُوا آمَنّا بِاللّهِ وَحْدَهُ وَ كَفَرْنا بِما كُنّا بِهِ مُشْرِكِينَ .

ثم تأتى النتيجه سريعا فى قوله تعالى: فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ لَمّا رَأَوْا بَأْسَنا .

لماذا؟لأنّه عند نزول«الاستئصال»تغلق أبواب التوبه،و عاده ما يكون مثل هذا الإيمان إيمانا اضطراريا ليس له ثمره الإيمان الاختيارى،إذ أنّه تحقق فى ظل شروط غير عاديه،لذا من المحتمل جدّا أن يعود هؤلاء إلى سابق وضعهم عند ما ترتفع الشروط الاستثنائيه التى حلّت بهم.

لذلك لم يقبل من«فرعون»إيمانه و هو فى الأنفاس الأخيره من حياته و عند غرقه فى النيل.

و هذا الحكم لا يختص بقوم دون غيرهم،بل هو: سُنَّتَ اللّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبادِهِ .

ثم تنتهى الآيه بقوله تعالى: وَ خَسِرَ هُنالِكَ الْكافِرُونَ .

ففى ذلك اليوم عند ما ينزل العذاب بساحتهم سيفهم هؤلاء بأنّ رصيدهم فى الحياه الدنيا لم يكن سوى الغرور و الظنون و الأوهام،فلم يبق لهم من دنياهم سوى التبعات و العذاب الإلهى الأليم،و هل ثمّه خسران أكبر من هذا؟! و هكذا تنتهى السوره المباركه(المؤمن)التى بدأت بوصف حال الكافرين المغرورين،ببيان نهايه هؤلاء و ما آل إليه مصيرهم من العذاب و الخسران.

المغرورون بالعلم!

فى الآيات المختلفه لهذه السوره المباركه-كما أوضحنا ذلك-يتبيّن أنّ أساس انحراف قسم كبير من الناس هو التكبر و الغرور.

قد يكون امتلاک المال من أسباب العلو و التكبر،أو كثره الأفراد و امتلاک القدرات العسكريه.أو كميه محدوده من المعلومات فى فرع من فروع المعرفه، يظن الإنسان أنّها كبيره و كثيره،فتدفعه إلى العلو و الاستغناء السخريه.

إنّ حاله عصرنا الراهن تعكس نموذج«الغرور العلمى»بشكل جلّى واضح، ففى ظل التقدم السريع الذى أحرزته المجتمعات الماديه فى المجالات العلميه و التقنيه، نراها عمدت إلى إلغاء دور الدين من الحياه،و قد سيطر الغرور العلمى على بعض علماء الطبيعه الى درجه أنّهم تصوروا أن لا يوجد فى هذا العالم شىء خارج اطار علومهم و معارفهم،و بما أنّهم لم يروا اللّه فى مختبراتهم أنكروا وجوده و جحدوا نعمته.

لقد ذهب بهم الغرور إلى أكثر من ذلک عند ما أصبحوا يجهرون أن الدين و وحى الأنبياء إنّما كانا بسبب الجهل أو الخوف،أما و قد حلّ عصر التقدم العلمى فإنّ الحاجه إلى مثل هذه المسائل انعدمت تماما،بل و عمدوا إلى فرض تفسير معين لتطوّر الحياه يماشى ادعاءهم هذا،فقالوا:إنّ الحياه الفكريه للبشر مرّت عبر المراحل الآتيه:

۱-مرحله الأساطير.

۲-مرحله الدين.

۳-مرحله الفلسفه.

۴-مرحله العلم،و المقصود بها العلوم الطبيعيه.

بالطبع،نحن لا ننكر أنّ السلطه الديكتاتوريه للكنيسه على عقول الناس فى أوروبا،و شيوع الخرافات و أنواع التفكير الأسطورى لقرون مديده فى تأريخ تلك

القـاره،بالإضـافه إلی القمع الـذی کانت تمارسه طبقه رجال الـدین الکنسـی (الإکلیروس)هناک؛کلّ هـذه العوامل ساهمت-إلی درجه کبیره-فی نمو المـذاهب التی تقوم علی أسـاس رفض الـدین و الإیمان و الغیب،و الاعتماد بـدلا عنها علی أسـس الماده و التجربه و الإلحاد.

و لحسـن الحظ لـم تسـتمر هـذه المرحلـه طویلا،إذا اجتمعـت مجمـوعه عوامـل و ساعـدت للقضـاء علی مثـل هـذه التصـورات المنحرفه،و کأنّ العذاب قد مسّهم عند ما رکبهم الغرور و العلو.

فمن ناحیه أظهرت الحرب العالمیه الأولی و الثانیه أنّ التقدم العلمی و الصناعی قد جعل البشریه علی حافه السقوط و الدمار.

و من ناحیه ثانیه،فإنّ ظهور المفاسد الأخلاقیه و الاجتماعیه و القتل و الإباده و أنواع الأمراض النفسیه،و سلسله الاعتداءات المالیه و الجنسیه،کلّ ذلک کشف عن عجز العلوم و قصورها لوحدها عن بناء الحیاه الإنسانیه بشکل سلیم صحیح.

من جـانب ثـالث،عملت المساحـات المجهوله فی وعی الإنسـان العلمی و قصوره عن الإحـاطه بکـافه أسـباب الظواهر الطـبیعیه و الحیـاتیه إلی اعترافه بالعجز عن إدراک مطلق لأسـباب المعرفه من خلال العلم وحـده،فعاد الکثیر من العلماء إلی ساحه الإیمان و جادّه الدین،و ضعفت نوازع الدعاوی الإلحادیه.

و فی المعترک الصعب هذا تألق الإسلام بتعلیماته الشامله و الجامعه،و بدأت موجات العوده نحو الإسلام الأصیل.

و نأمل أن تکون هذه الیقظه عمیقه شامله قبل أن یشمل البأس الإلهی مرّه اخری أجزاء من هذا العالم،و نأمل أن تزول آثار ذلک الغرور باسم العلم حتی لا یکون مدعاه للخسران الکبیر.

اللّهم احفظنا من الغرور و من التکبر و العناد و حبّ الذات الذی یقودنا إلی الهلاک و سوء العاقبه و الافتضاح.

إلهی،اهد المجتمعات البشریه فی عصرنا الحاضر إلی ظل تعلیمات أنبیائک، قبل أن یشملهم بأسک الشدید أناس هذا العصر.

اللّهم،اجعلنا ممن یأخذ العبره من مصیر الأقوام السالفه لکی لا نمسی عبره للآخرین...

أمین رب العالمین نهایه سوره المؤمن

ص :۳۴۰

سوره فصّلت

اشاره

مکیّه و عدد آیاتها أربع و خمسون آیه

ص :۳۴۱

نظره فی المحتوی العام للسوره:

سوره«فصلت»من السور المکیه،و هی بذلک لا تخرج فی مضامینها الأساسیه عن مثیلاتها،بل تعکس فی محتواها کامل خصائص السور المکّیه،من التأکید علی المعارف الإسلامیه التی تتصل بالعقیده و بالحساب و الجزاء،و الوعید و الإنذار،و بالبشری للذین آمنوا.

لکن کون السوره مکّیه لا یعنی عدم اختصاصها بمواضیع معینه قد لا نجدها فیما سواها من السور القرآنیه الأخری.

بشکل عام یمکن الحدیث عن محتویات السوره من خلال الخطوط العریضه الآتیه:

أوّلا:الترکیز علی موضوع القرآن و ما یتصل به من بحوث،کالإشاره الصریحه إلی حاکمیه القرآن فی جمیع الأدوار و العصور،و صیانته من أیّ تحریف،و قوّه منطقه و تماسکه بحیث رأینا أعداء اللّه یخشون حتی من الاستماع إلی آیاته،بل و یمنعون الناس من مجرّد الإنصات إلیه.

الآیتان(۴۱)و(۴۲)من السوره تتحدثان عن هذه النقطه بوضوح کامل،إذ یقول تعالی: وَ إِنَّهُ لَکِتَابٌ عَزِیزٌ لاٰ یَأْتِیهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَیْنِ یَدَیْهِ وَ لاٰ مِنْ خَلْفِهِ .

ثانیا:إثاره قضیه خلق السماء و الأرض،خاصه ما یتعلق ببدایه العالم الذی

خلق من مادّه(الدخان)ثمّ مراحل نشوء الكره الأرضيه و الجبال و النباتات الحيوانات.

ثالثا:ثمّه فى السوره إشارات إلى عاقبه الأقوام المغرورين الأشقياء من الأمم السابقه،مثل قوم عاد و ثمود،و هناك إشاره قصيره إلى قصه موسى عليه السّلام.

رابعا:تتضمّن السوره تهديد المشركين و إنذار الكافرين،مع ذكر آيات القيامه و ما يتعلق بشهاده أعضاء جسم الإنسان عليه،و توبيخ اللّه تبارك و تعالى لأمثال هؤلاء.

خامسا:تتناول السوره قسما من أدله البعث و القيامه و خصوصياتهما.

سادسا:المواعظ و النصائح المختلفه التى تبعث فى الروح الحياه من خلال الدعوه إلى الاستقامه فى طريق الحق،و توجيه المؤمن نحو أسلوب التعامل المنطقى مع الأعداء و كيفيه هدايتهم نحو اللّه.

سابعا:تنتهى السوره ببحث لطيف قصير عن آيات الآفاق و الأنفس،و تعود كره اخرى إلى قضيه المعاد.

فضيله تلاوه السوره:

ورد فى الحديث الشريف عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم قوله: «من قرأ«حم السجده» أعطى بكل حرف منها عشر حسنات» (۱) .

و

فى حديث آخر حول فضيله قراءه هذه السوره،قال الإمام الصادق عليه السّلام:

«من قرأ«حم السجده»كانت له نورا يوم القيامه مد بصره و سرورا،و عاش فى هذه الدنيا مغبوطا محمودا» (۲) .

و

فى حدث عن«سنن البيهقى»أنّ«خليل بن مرّه»كان يقول: إنّ النّبى لم ينم

۱- ۱) -مجمع البيان مطلع الحديث عن السوره،المجلد ۹،صفحه ۲.

۲- ۲) -مجمع البيان مطلع الحديث عن السوره،المجلد ۹،صفحه ۲.

ليله من الليالى قبل أن يقرأ سورتى«تبارك»و«حم السجده». (۱)

و طبيعى أنّ هـذه السوره المبـاركه بكـل مـا تتضـمّن فى مضامينهـا العـاليه من أنوار و معـارف و مواعظ إنّما تكون مؤثره فيما لو تحولت تلاوتهـا إلى نور ينفـذ إلى أعمـاق النفس، فتتحول فى حيـاه الإنسان المسـلم إلى دليل من نور يقوده فى يوم القيامه نحو الصـراط و الخلاص،لأنّ التلاوه مقدمه للتفكير،و التفكير مقدمه للعمل.إنّ تسـميه السوره ب«فصـلت»مشـتق من الآيه الثّالثه فيها.و إطلاق«حم السجده»عليها لأنّها تبدأ ب«حم»و الآيه(۳۷)فيها هى آيه السجده.

۱- ۱) -روح المعانى،المجلد ۲۴،ص صفحه ۸۴.

الآیات [سوره فصلت (۴۱): الآیات ۱ الی ۵]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِ حم (۱) تَنْزِیلٌ مِنَ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِ (۲) کِتٰابٌ فُصِّلَتْ آیٰاتُهُ قُرْآناً عَرَبِیًّا لِقَوْمٍ یَعْلَمُونَ (۳) بَشِیراً وَ نَذِیراً فَأَعْرَضَ أَکْثَرُهُمْ فَهُمْ لاٰ یَسْمَعُونَ (۴) وَ قٰالُوا قُلُوبُنٰا فِی أَکِنَّهٍ مِمّٰا تَدْعُونٰا إِلَیْهِ وَ فِی آذٰانِنٰا وَقْرٌ وَ مِنْ بَیْنِنٰا وَ بَیْنِکَ حِجٰابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنٰا عٰامِلُونَ (۵)

التّفسیر

اشاره

عظمه القرآن:

تذکر الرّوایات أنّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم کان لا یکف عن عیب آلهه المشرکین، و یقرأ علیهم القرآن فیقولون:هذا شعر محمّد.و یقول بعضهم:بل هو کهانه.و یقول بعضهم:بل هو خطب.

و کان الولید بن المغیره شیخا کبیرا،و کان من حکّام،العرب یتحاکمون إلیه فی الأمور،و ینشدونه لأشعاره فما اختاره من الشعر کان مختارا،و کان له بنون لا یبرحون من مکّه،و کان له عبید عشره عند کلّ عبد ألف دینار یتجر بها،و ملک القنطار فی ذلک الزمان(القنطار:جلد ثور مملوء ذهبا)و کان من المستهزئین برسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم.

و فی یوم سأل أبو جهل الولید بن المغیره قائلا له:

یا أبا عبد شمس،ما هذا الذی یقول محمّد؟أسحر أم کهان أم خطب؟ فقال:دعونی أسمع کلامه،فدنا من رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم و هو جالس فی الحجر، فقال:یا محمّد أنشدنی من شعرک.

قال صلّی اللّه علیه و اله و سلّم: ما هو بشعر،و لکنّه کلام اللّه الذی به بعث أنبیاءه و رسله.

فقال:اتل علیّ منه.

فقرأ علیه رسول اللّه بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیمِ فلمّا سمع(الولید)الرحمن استهزأ فقال:تدعو إلی رجل بالیمامه یسمّی الرحمن، قال:لا،و لکنی أدعو إلی اللّه و هو الرحمن الرحیم.

ثم افتتح سوره«حم السجده»،فلمّا بلغ إلی قوله تعالی: فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُکُمْ صٰاعِقَةً مِثْلَ صٰاعِقَةِ عٰادٍ وَ ثَمُودَ فلمّا سمعه اقشعر جلده،و قامت کلّ شعره فی رأسه و لحیته،ثمّ قام و مضی إلی بیته و لم یرجع إلی قریش.

فقالت قریش:یا أبا الحکم،صبأ أبو عبد شمس إلی دین محمّد،أما تراه لم یرجع إلینا؟و قد قبل قوله و مضی إلی منزله،فاغتمت قریش من ذلک غما شدیدا.

و غدا علیه أبو جهل فقال:یا عم،نکست برؤوسنا و فضحتنا.

قال:و ما ذلک یا ابن أخ؟ قال:صبوت إلی دین محمّد.

قال:ما صبوت،و إنی علی دین قومی و آبائی،و لکنی سمعت کلاما صعبا تقشعر منه الجلود.

قال أبو جهل:أشعر هو؟ قال:ما هو بشعر.

قال:فخطب هی؟ قال:إن الخطب کلام متصل،و هذا کلام منثور،و لا یشبه بعضه بعضا،له

طلاوه.

قال:فكهانه هى؟ قال:لا.

قال:فما هو؟ قال:دعنى أفكّر فيه.

فلمّا كان من الغدو قالوا:يا أبا عبد شمس ما تقول؟ قال:قولوا هو سحر،فإنّه آخذ بقلوب الناس،فأنزل اللّه تعالى فيه: ذَرْنِی وَ مَنْ خَلَقْتُ وَحِیداً وَ جَعَلْتُ لَهُ مٰالاً مَمْدُوداً وَ بَنِینَ شُهُوداً إلى قوله: عَلَیْهٰا تِسْعَهَ عَشَرَ (۱) (۲) .

إنّ هذه الرّوايه الطويله تكشف بوضوح مدى تأثير آيات هذه السوره، بحيث أنّ أكثر المتعصبين من مشركى مكّه أبدى تأثره بآياتها،و ذلك يظهر جانبا من جوانب العظمه فى القرآن الكريم.

نعود الآن إلى المجموعه الأولى من آيات هذه السوره المباركه،التى تطالعنا بالحروف المقطعه فى أوّلها حم .

لقد تحدثنا كثيرا عن تفسير هذه الحروف،و لا نرى حاجه للإعاده سوى أنّ البعض اعتبر حم اسما للسوره.أو أنّ(ح)إشاره إلى«حميد»و(م)إشاره إلى «مجيد»و حميد و مجيد هما من أسماء اللّه العظمى.

ثم تتحدث عن عظمه القرآن فتقول: تَنْزِیلٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیمِ .

إنّ«الرحمه العامه»و«الرحمه الخاصه»للّه تعالى هما باعث نزول هذه الآيات الكريمه التى هى رحمه للعدو و الصديق.و لها بركات خاصه للأولياء.

۱- ۱) -المدثر،الآيه ۱۱-۳۰.

۲- ۲) -بحار الأنوار،المجلد ۱۷،صفحه ۲۱۱ فما فوق،و يمكن ملاحظه القصه فى كتب اخرى منها:تفسير القرطبى فى مطلع حديثه عن السوره.المجلد الثامن،صفحه ۵۷۸۲.

فى الواقع إنّ الرحمه هى الصفه البارزه لهذا الكتاب السماوى العظيم،التى تتجسّد من خلال آياته العطره التى تفوح بشذاها و نورها فتضىء جوانب الحياه، و تسلك بالإنسان مسالك النجاه و الرضوان.

بعد التوضيح الاجمالى الذى أبدته الآيه الكريمه حول القرآن،تعود الآيات التاليه إلى بيان تفصيلى حول أوصاف هذا الكتاب السماوى العظيم،و ذكرت له خمسه صفات ترسيم الوجه الأصلى للقرآن:

فتقول أوّلا:إنّه كتاب ذكرت مطالبه و مواضيعه بالتفصيل كلّ آيه فى مكانها الخاص،بحيث يلبّى احتياجات الإنسان فى كلّ المجالات و الأدوار و العصور، فهو: كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ (١) .

و هو كتاب فصيح و ناطق قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ .

و هذا الكتاب بشير للصالحين نذير للمجرمين: بَشِيراً وَ نَذِيراً إلاّ أنّ أكثرهم: فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ (٢) .

بناء على ذلك فإنّ أول خصائص هذا الكتاب هو أنّه يتضمّن فى تشريعاته و تعاليمه كلّ ما يحتاجه الإنسان و فى جميع المستويات،و يلبى ميوله و رغباته الروحيه.

الصفه الثانيه أنّه متكامل،لأنّ«قرآن»مشتق من القراءه،و هى فى الأصل بمعنى جمع أطراف و أجزاء الكلام.

الصفه الثّالثه تتمثل بفصاحه القرآن و بلاغته،حيث يذكر الحقائق بدقّه بليغه دون أى نواقص.و فى نفس الوقت يعكسها بشكل جميل و جذّاب.

الصفتان الرابعه و الخامسه تكشفان عن عمق التأثير التربوى للقرآن الكريم، عن طريق أسلوب الإنذار و الوعيد و التهديد و الترغيب،فآيه تقوم بتشويق

١- ١) -«كتاب»خبر بعد الخبر،و بهذا الترتيب فإنّ«تنزيل»خبر لمبتدأ محذوف و«كتاب»خبر بعد الخبر.

٢- ٢) -«لقوم يعلمون»يمكن أن تكون متعلقه ب«فصلت»أو ب«تنزيل».

الصالحين و المحسنين بحيث أنّ النفس الإنسانيه تكاد تطير و تتماوج فى أشواق الملكوت و الرحمه.و أحيانا تقوم آيه بالتهديد و الإنذار بشكل تقشعر منه الأبدان لهول الصوره و عنف المشهد.

إنّ هذين الأصلين التربويين(الترغيب و التهديد)متلازمان فى الآيات القرآنيه و مترابطان فى أسلوبه.

و مع ذلك فإنّ المتعصبين المعاندين لا يتفاعلون مع حقائق الكتاب المنزل، و كأنّهم لا يسمعونها أبدا بالرغم من السلامه الظاهريه لأجهزتهم السمعيه،إنّهم فى الواقع يفتقدون لروح السماع و إدراك الحقائق،و وعى محتويات النذير و الوعيد القرآنى.

و هؤلاء-كمحاوله منهم لثنى الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم عن دعوته،و ايغالا منهم فى الغى و فى زرع العقبات-يتحدثون عند رسول اللّه بعناد و علو و غرور حيث يحكى القرآن عنهم: وَ قٰالُوا قُلُوبُنٰا فِي أَكِنَّةٍ مِمّٰا تَدْعُونٰا إِلَيْهِ وَ فِي آذٰانِنٰا وَقْرٌ وَ مِنْ بَيْنِنٰا وَ بَيْنِكَ حِجٰابٌ .

ما دام الأمر كذلك فاتركنا و شأننا، فاعمل ما شئت فإننا عاكفون على عملنا:

فَاعْمَلْ إِنَّنٰا عٰامِلُونَ

.

حال هؤلاء كحال المريض الأبله الذى يهرب من الطبيب الحاذق،و يحاول أن يبعد نفسه عنه بشتى الوسائل و الأساليب.

إنّهم يقولون:إنّ عقولنا و أفكارنا موضوعه فى علب مغلقه بحيث لا يصلها شىء.

«أكنّه»جمع«كنان»و تعنى الستار.أى أن الأمر لا يقتصر هنا على ستار واحد،بل هى ستائر من العناد و التقليد الأعمى،و أمثال ذلك ممّا يحجب القلوب و يطبع عليها.

و قالوا أيضا:مضافا إلى أنّ عقولنا لا تدرك ما تقول،فإنّ آذاننا لا تسمع لما

تقول أيضا،و هى منهم إشاره إلى عطل المركز الأصلى للعمل و الوسائل المساعده الأخرى.

و بعد ذلك،فإن بيننا و بينك حجاب سميك،بحيث حتى لو كانت آذاننا سالمه فإننا لا نسمع كلامك،فلما ذا-إذا-تتعب نفسك،لماذا تصرخ،تحزن،تقوم بالدعوه ليلا و نهارا؟اتركنا و شأننا فأنت على دينك و نحن على ديننا.

هكذا...بمنتهى الوقاحه و الجهل،يهرب الإنسان بهذا الشكل الهازل عن جاده الحق.

و الطريف أنّهم لم يقولوا:«و بيننا و بينك حجاب»بل أضافوا للجمله كلمه «من»فقالوا: وَ مِنْ بَيْنِنٰا وَ بَيْنِكَ حِجٰابٌ و ذلك لبيان زياده التأكيد،لأنّ بزياده هذه الكلمه يصبح مفهوم الجمله هكذا:إنّ جميع الفواصل بيننا و بينك مملوءه بالحجب،و طبيعى أن يكون حجاب مثل هذا سميكا عازلا للغايه ليستوعب كلّ الفواصل بين الطرفين،و بذلك سوف لا ينفع الكلام مع وجود هذا الحجاب.

و قد يكون الهدف من قول المشركين: فَاعْمَلْ إِنَّنٰا عٰامِلُونَ محاولتهم زرع اليأس عند النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم.أو قد يكون المراد نوعا من التهديد له،أى اعمل ما تستطيعه و نحن سوف نبذل ما نستطيع ضدّك و ضدّ دينك،و التعبير يمثل منتهى العناد و التحدى الأحمق للحق و لرسالاته.

ص :۳۵۱

الآيات [سوره فصلت (۴۱): الآيات ۶ الی ۸]

اشاره

قُلْ إِنَّمٰا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحىٰ إِلَيَّ أَنَّمٰا إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وٰاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَ اسْتَغْفِرُوهُ وَ وَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (۶) اَلَّذِينَ لاٰ يُؤْتُونَ اَلزَّكٰاهَ وَ هُمْ بِالْآخِرَهِ هُمْ كٰافِرُونَ (۷) إِنَّ اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (۸)

التّفسير

اشاره

من هم المشركون؟

الآيات التی بین أیدینا تستمر فی الحدیث عن المشرکین و الکافرین،و هی فی الواقع إجابه لما صدر عنهم فی الآیات السابقه،و إزاله لأی و همّ قد یلصق بدعوه النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم.

یقول تعالی لرسوله الکریم: قُلْ إِنَّمٰا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحىٰ إِلَيَّ أَنَّمٰا إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وٰاحِدٌ .

فلا-أدّعی أنّی ملک،و لست إنسانا أفضل منکم،و لست بربّکم،و لا-ابن اللّه بل أنا إنسان مثلکم،و أختلف عنکم بتعلیمات التوحید و النبوّه و الوحی،لا أرید أن

أفرض عليكم دينى حتى تقفوا أمامى و تقاومونى أو تهددوننى،لقد أوضحت لكم الطريق،و إليكم يعود التصميم و القرار النهائى.

ثمّ تستمر الآيه: فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَ اسْتَغْفِرُوهُ (۱) .

ثمّ تضيف الآيه محذّره: وَ وَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ .

الآيه التي تليها تقوم بتعريف المشركين،و تسلّط الضوء على جمله من صفاتهم و تختص هذه الآيه بذكرها،حيث يقول تعالى: اَلَّذِينَ لاٰ يُؤْتُونَ الزَّكاٰهَ وَ هُمْ بِالْآخِرَهِ هُمْ كاٰفِرُونَ .

إنّ هؤلاء يعرفون بأمرين:ترك الزكاه،و إنكار المعاد.

لقد أثارت هذه الآيه كلاما واسعا فى أوساط المفسّرين،و ذكروا مجموعه احتمالات تفى تفسيرها،و السبب فى كلّ ذلك هو أنّ الزكاه من فروع الدين، فكيف يكون تركها دليلا على الكفر و الشرك؟ البعض أخذ بظاهر الآيه و قال:إنّ ترك الزكاه يعتبر من علائم الكفر،بالرغم من عدم تلازمه مع إنكار وجوبه.

البعض الآخر اعتبر الترك مع تلازم الإنكار دليلا على الكفر،لأنّ الزكاه من ضروريات الإسلام و منكرها يعتبر كافرا.

و قال آخرون:الزكاه هنا بمعنى التطهير و النظافه،و بذلك يكون المقصود بترك الزكاه،ترك تطهير القلب من لوث الشرك،كما جاء فى الآيه(۸۱)من سوره الكهف فى قوله تعالى: خَيْراً مِنْهُ زَكاٰهً .

إلاّ أنّ كلمه(لا يؤتون)لا تناسب المعنى أعلاه،لذلك يبقى الإشكال على حاله.

ص :۳۵۳

---

۱ – ۱) -«فاستقيموا»مأخوذه من«الاستقامه»و هى هنا بمعنى التوجه بشكل مستقيم نحو شىء معين،لذا فإنها تعدت بواسطه الحرف(إلى)لأنّها تعطى مفهوم(استواء).

لذلك لا يبقى من مجال سوى أن يكون المقصود منها هو أداء الزكاه.

المشكله الأخرى التى تواجهنا هنا،هى أن الزكاه شرّعت فى العام الثّانى من الهجره المباركه،و الآيات التى بين أيدينا مكيه،بل يذهب بعض كبار المفسّرين إلى أنّ سوره«فصلت»هى من أوائل السور النازله فى مكّه،لذلك كلّه-و بغيه تلافى هذه المشكله-فسّر المفسّرون الزكاه هنا بأنها نوع من الإنفاق فى سبيل اللّه، أو أنّهم تأولوا المعنى بقولهم:إنّ أصل وجوب الزكاه نزل فى مكّه،إلاّ أنّ حدودها و مقدارها و النصاب الشرعى لها نزل تحديده فى العام الثّانى من الهجره المباركه.

يتبيّن من كلّ ما سلف أنّ أقرب مفهوم لمقصود الزكاه فى الآيه هو المعنى العام للإنفاق،أما كون ذلك من علائم الشرك،فيكون بسبب أنّ الإنفاق المالى فى سبيل اللّه يعتبر من أوضح علامات الإيثار و الحب للّه،لأنّ المال يعتبر من أحبّ الأشياء إلى قلب الإنسان و نفسه،و بذلك فإنّ الإنفاق-و عدمه-يمكن أن يكون من الشواخص الفارقه بين الإيمان و الشرك،خصوصا فى تلك المواقف التى يكون فيها المال بالنسبه للإنسان أقرب إليه من روحه و نفسه،كما نرى ذلك واضحا فى بعض الأمثله المنتشره فى حياتنا.

بعباره اخرى:إنّ المقصود هنا هو ترك الإنفاق الذى يعتبر أحد علامات عدم إيمانهم بالخالق جلّ و علا،و الأمر من هذه الزاويه بالذات يقترن بشكل متساوى مع عدم الإيمان بالمعاد،أو يكون ترك الزكاه ملازما لإنكار وجوبه.

و ثمّه ملاحظه اخرى تساعد فى فهم التّفسير،و هى أنّ الزكاه لها وضع خاص فى الأحكام و التعاليم الإسلاميه،و إعطاء الزكاه يعتبر علامه لقبول الحكومه الإسلاميه و الخضوع لها،و تركها يعتبر نوعا من الطغيان و لمقاومه فى وجه الحكومه الإسلاميه،و نعرف أنّ الطغيان ضدّ الحكومه الإسلاميه يوجب الكفر.

و الشاهد على هذا المطلب ما ذكره المؤرخون من«اصحاب الرّده»و أنّهم من

«بنی طی»و«غطفان»و«بنی اسد»الذین امتنعوا عن دفع الزکاه لعمال الحکومه الإسلامیه فی ذلک الوقت،و بهذا رفعوا لواء المعارضه فقاتلهم المسلمون و قضوا علیهم.

صحیح أنّ الحکومه الإسلامیه لم یکن لها وجود حین نزول هذه الآیه و لکن هذه الآیه یمکنها أن تکون إشاره مجمله الی هذه القضیه.

و قد ذکر فی التواریخ أن أهل الردّه قالوا بعد وفاه النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم:«أمّا الصلاه فنصلی،و أمّا الزکاه فلا یغصب أموالنا»و هکذا رأی المسلمون ضروره قتالهم و قمع الفتنه.

الآیه الأخیره تقوم بتعریف مجموعه تقف فی الجانب المقابل لهؤلاء المشرکین البخلاء،و تتعرض إلی جزائهم حیث یقول تعالی: إِنَّ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَیْرُ مَمْنُونٍ .

«ممنون»مشتق من«منّ»و تعنی هنا القطع أو النقص،لذا فإنّ غیر ممنون تعنی هنا غیر مقطوع أو منقوص.

و قیل إنّ مصطلح«منون»-علی وزن«زبون»-و یعنی الموت مشتق من هذه المفرده،و کذلک المنّه باللسان،لأنّ الأوّل یعنی القطع و نهایه العمر،بینما الثانی یعنی قطع النعمه و الشکر (۱) .

و ذهب بعض المفسّرین إلی القول بأنّ المقصود ب غَیْرُ مَمْنُونٍ أنّه لا توجد أیّ منّه علی المؤمنین فیما یصلهم من أجر و جزاء و عطاء.لکن المعنی الأوّل أنسب.

۱- ۱) -یلاحظ ماده«من»فی مفردات الراغب.

ملاحظه

اشاره

الأهميه الاستثنائيه للزكاه فی الإسلام:

الآیه أعلاه تعتبر تأکیدا مجدّدا و شدیدا حول أهمیه الزکاه کفریضه إسلامیه، سواء کانت بمعنی الزکاه الواجبه أو بمفهومها الواسع،و ینبغی أن یکون ذلک،لأنّ الزکاه تعتبر أحد الأسباب الرئیسیه لتحقیق العداله الاجتماعیه،و محاربه الفقر و المحرومیه،و ملء الفواصل الطبقیه،بالإضافه إلی تقویه البنیه المالیه للحکومه الإسلامیه،و تطهیر النفس من حبّ الدنیا و حبّ المال،و الخلاصه:إنّ الزکاه وسیله مثلی للتقرب إلی اللّه تبارک و تعالی:

و قد ورد فی الروایات الإسلامیه أن ترک الزکاه یعتبر بمنزله الکفر،و هو تعبیر یشبه ما ورد فی الآیه التی نحن بصددها.

و فی هذا المجال نستطیع أن نقف مع الأحادیث الآتیه:

أوّلا:

فی حدیث عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّ من وصایا رسول اللّه لأمیر المؤمنین علی بن أبی طالب قوله له:«یا علی کفر باللّه العظیم من هذه الأئمّه عشره، و عدّ منهم مانع الزکاه...ثمّ قال:یا علی من منع قیراطا من زکاه ماله فلیس بمؤمن و لا مسلم و لا کرامه،یا علی:تارک الزکاه یسأل اللّه الرجعه إلی الدنیا،و ذلک قوله عزّ و جلّ: حَتّٰی إِذٰا جٰاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قٰالَ رَبِّ ارْجِعُونِ... (۱) .

ثانیا:

فی حدیث آخر عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّه قال: «إنّ اللّه عزّ و جلّ فرض للفقراء فی أموال الأغنیاء فریضه لا یحمدون إلا بأدائها،و هی الزکاه،بها حقنوا دماءهم و بها سموا مسلمین» (۲) .

۱- ۱) -وسائل الشیعه،المجلد السادس،الصفحات ۱۸ و ۱۹«باب ثبوت الکفر و الارتداد و القتل بمنع الزکاه استحلالا و جحودا» و قد اعتبر بعض الفقهاء کصاحب الوسائل مثلا،أنّ الروایات أعلاه تختص بإنکار الزکاه.

۲- ۲) -المصدر السابق.

ثالثا:أخيرا نقرأ

فی حدیث عن الإمام الصادق علیه السّلام قوله: «من منع قیراطا من الزکاه فلیمت إن شاء یهودیا أو نصرانیا» (۱) .

و تقدم بحث مفصل عن أهمیه الزکاه فی الإسـلام و فلسـفتها و تأریخ وجوب الزکاه فی الإسـلام،و کل ما یتعلق بها من أمور،فی تفسیر الآیه(۶۰)من سوره التوبه.

۱- ۱) -المصدر السابق.

الآیات [سوره فصلت (۴۱): الآیات ۹ الی ۱۲]

اشاره

قُلْ أَ إِنَّکُمْ لَتَکْفُرُونَ بِالَّذِی خَلَقَ اَلْأَرْضَ فِی یَوْمَیْنِ وَ تَجْعَلُونَ لَهُ أَنْداداً ذٰلِکَ رَبُّ اَلْعٰالَمِینَ (۹) وَ جَعَلَ فِیهٰا رَوٰاسِیَ مِنْ فَوْقِهٰا وَ بٰارَکَ فِیهٰا وَ قَدَّرَ فِیهٰا أَقْوٰاتَهٰا فِی أَرْبَعَهِ أَیّٰامٍ سَوٰاءً لِلسّٰائِلِینَ (۱۰) ثُمَّ اِسْتَویٰ إِلَی اَلسَّمٰاءِ وَ هِیَ دُخٰانٌ فَقٰالَ لَهٰا وَ لِلْأَرْضِ اِئْتِیٰا طَوْعاً أَوْ کَرْهاً قٰالَتٰا أَتَیْنٰا طٰائِعِینَ (۱۱) فَقَضٰاهُنَّ سَبْعَ سَمٰاوٰاتٍ فِی یَوْمَیْنِ وَ أَوْحیٰ فِی کُلِّ سَمٰاءٍ أَمْرَهٰا وَ زَیَّنَّا اَلسَّمٰاءَ اَلدُّنْیٰا بِمَصٰابِیحَ وَ حِفْظاً ذٰلِکَ تَقْدِیرُ اَلْعَزِیزِ اَلْعَلِیمِ (۱۲)

التّفسیر

اشاره

مراحل خلق السماوات و الأرض:

الآیات أعلاه نماذج للآیات الآفاقیه،و علائم العظمه،و قدره الخلق جلّ و علا فی خلق الأرض و السماء،و بدایه خلق الکائنات،حیث یأمر تعالی النّبی الأکرم صلّی اللّه علیه و اله و سلّم بمخاطبه الکافرین و المشرکین و سؤالهم:هل یمکن إنکار خالق هذه

العوالم الواسعه العظيمه؟ لعلّ هذا الأسلوب يوقظ فيهم إحساسهم و وجدانهم فيحتكمون للحق.

يقول تعالى: قُلْ أَ إِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ و تجعلون للّه تعالى شركاء و نظائر: وَ تَجْعَلُونَ لَهُ أَنْداداً .

إنّه لخطأ كبير،و كلام يفتقد إلى الدليل. ذٰلِكَ رَبُّ الْعالَمِينَ .

إنّ الذى يدبّر أمور هذا العالم،أ ليس هو خالق السماء و الأرض؟فإذا كان سبحانه و تعالى هو الخالق،فلما ذا تعبدون هذه الأصنام و تجعلونها بمنزلته؟! إنّ الذى يستحق العباده هو الذى يقوم بالخلق و التدبير،و يملك هذا العالم و يحكمه.

الآيه التى تليها تشير إلى خلق الجبال و المعادن و بركات الأرض و المواد الغذائيه،حيث تقول: وَ جَعَلَ فِيها رَواسِيَ مِنْ فَوْقِها وَ بارَكَ فِيها وَ قَدَّرَ فِيها أَقْواتَها فِى أَرْبَعَهِ أَيّامٍ و هذه المواد الغذائيه هى بمقدار حاجه المحتاجين: سَواءً لِلسّائِلِينَ (1) .

و بهذا الترتيب فإنّ تبارك و تعالى قد دبّر لكلّ شيء قدره و حاجته،و ليس ثمّه فى الوجود من نقص أو عوز،كما فى الآيه(۵۰)من سوره«طه»حيث قوله تعالى: رَبُّنَا الَّذِى أَعْطىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدىٰ .

المقصود من«السائلين»هنا هم الناس،أو أنّها تشمل بشكل عام الإنسان و الحيوان و النبات[و إذا ذكرت بصيغه الجمع للعاقب فهى من باب التغليب]

.

و وفق هذا التّفسير فإنّ اللّه تعالى لم يحدّد احتياجات الإنسان لوحده منذ البدايه و حسب،و إنّما فعل ذلك للحيوانات و النباتات أيضا.

---

۱ - ۱) -هناك احتمالات متعدّده حول محل(سواء)و(للسائلين)من الأعراب و بما تختص. الأوّل:أنّ(سواء)حال ب(أقوات)و(للسائلين)متعلق ب(سواء)و تكون النتيجه هى التّفسير الذى أوردناه أعلاه. الثّانى:أنّ(سواء)صفه للأيام،يعنى أنّ هذه المراحل الأربع تتساوى فيما بينها.و أما(للسائلين)فإما أن تتعلق ب(قدر)أو بمحذوف و يكون التقدير(كائنه للسائلين)يعنى أنّ الأيّام الأربع هذه تعتبر جوابا للسائلين.لكن التّفسير الأوّل أوضح.

و هنا يثار هذا السؤال:تذكر الآيات القرآنيه-أعلاه-أنّ خلق الأرض تمّ فى يومين،و خلق الجبال و البركات و الطعام فى أربعه أيّام.و بعد ذلك خلق السماوات فى يومين،و بذا يكون المجموع ثمانيه أيّام،فى حين أن أكثر من آيه فى كتاب اللّه تذكر أنّ خلق السماوات و الأرض تمّ فى سته أيّام،أو بعباره اخرى:فى سته مراحل (1) ؟ سلك المفسّرون طريقان فى الإجابه على هذا السؤال:

الطريق الأوّل:و هو المشهور المعروف،و مفاده أنّ المقصود بأربعه أيّام هو تتمه الأربعه أيّام،بأن يتم فى اليومين الأولين من الأربعه خلق الأرض،و فى اليومين الآخرين خلق باقى خصوصيات الأرض.مضافا إلى ذلك اليومين لخلق السماوات،فيكون المجموع سته أيّام أو ست مراحل.

و شبيه ذلك ما يرد فى اللغه العربيه من القول مثلا-بأنّ المسافه من هنا إلى مكّه يستغرق قطعها عشره أيّام،و إلى المدينه المنوره(15)يوما،أى إنّ المسافه بن مكّه و المدينه تكون خمسه أيام و من هنا إلى مكّه عشره أيّام (2) .

و هذا التّفسير صحيح لوجود مجموعه الآيات التى تتحدث عن الخلق فى سته أيّام،و إلاّ ففى غير هذه الحاله لا يمكن الركون له،من هنا تتبين أهميه ما يقال من أنّ القرآن يفسّر بعضه بعضا.

الطريق الآخر الذى اعتمده المفسّرون للإجابه على الإشكال أعلاه هو قولهم:

إنّ أربعه أيّام لا-تختص ببدايه الخلق،بل هى إشاره إلى الفصول الأربعه للسنه، و التى هى بدايه ظهور الأرزاق و نمو المواد الغذائيه التى تنفع الإنسان

---

1 - 1) -يمكن مراجعه الآيات(54)من سوره الأعراف و(3)من سوره هود و(59)من سوره الفرقان و(4)من سوره السجده و(38)سوره ق و(4)من سوره الحديد.

2 - 2) -فى ضوء هذا التفسير يكون للآيه تقديرها بالصيغه الآتيه...و قدّر فيها أقواتها فى تتمه أربعه أيّام أو يكون التقدير كما جاء فى تفسير«الكشاف»:«كل ذلك فى أربعه أيّام».

و الحيوان (۱) .

لكن هـذا التّفسـير فضـلا عن أنّه لاـ يلائم الآيات أعلاه،فإنّه أيضا يقصـر «اليوم»فيما يتعلق بالأرض و لمواد الغـذائيه و حسب،لأنّ معناه يتعلق بالفصول الأربعه فقط،بينما لا حظنا أن«يوم»فى معنى خلق السماوات و الأرض يعنى بدايه مرحله! مضافا لذلك تكون النتيجه اختصاص يومين من الأيّام السته لخلق الأرض، و يومين آخرين لخلق السماوات،أمّا اليومان الباقيان اللذيان يتعلقان بخلق الكائنات بين السماء و الأرض«ما بينهما»فليس هناك إشاره إليهما! من كلّ ذلك يتبيّن أنّ التّفسير الأوّل أجود.

و قـد لاـ تكون هنـاك حـاجه للقول بـأنّ«اليوم»فى الآيـات أعلاـه هو حتما غير اليوم العادى،لأنّ اليوم بالمعنى العادى لم يكن قد وجـد قبـل خلق السـماوات و الأـرض،بل المقصود بـذلك هو مراحل الخلق التى اسـتنفذت من الزمن أحيانا ملايين بل و بلايين السنين. (۲)

ملاحظتات

تبقى أمامنا ملاحظتان ينبغى أن نشير إليهما:

أوّلاـ:ما هو المقصود من قوله تعالى: بٰارَكَ فِيهٰا ؟ الظاهر أنّها إشاره إلى المعادن و الكنوز المستودعه فى باطن الأرض،و ما على الأرض من أشجار و أنهار و نباتات و مصادر للماء الذى هو أساس الحياه و البركه،حيث تستفيد منها جميع الاحياء الأرضيه.

۱- ۱) -ثمّه حديث بهذا المضمون فى تفسير على بن إبراهيم.

۲- ۲) -راجع الآيه(۵۴)من سوره الأعراف.

ثانيا:بما تتعلق الأيام الاربعه فى عباره: فِى أَرْبَعَهِ أَيّامٍ ؟ بعض المفسّرين يعتقد أنّها تخص«الأقوات»فقط.لكنّها ليست كذلك،بل تشمل الأقسام الثلاثه المذكوره فى الآيه(أى خلق الجبال،خلق المصادر و بركات الأرض،خلق الموارد الغذائيه)لأنّه-خلافا لذلك-فإنّ بعض هذه الأمور سوف لا تدخل فى الأيام الوارده فى الآيات أعلاه،و هذا أمر لا يتناسب مع نظم الآيات و نظامها.

بعد الانتهاء من الكلام عن خلق الأرض و مراحلها التكامليه،بدأ الحديث عن خلق السماوات حيث تقول الآيه: ثُمَّ اسْتَوىٰ إِلَى السَّمٰاءِ وَ هِيَ دُخٰانٌ فَقٰالَ لَهٰا وَ لِلْأَرْضِ ائْتِيٰا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً .

فكانت الإجابه: قٰالَتٰا أَتَيْنٰا طٰائِعِينَ .

و فى هذه الأثناء: فَقَضٰاهُنَّ سَبْعَ سَمٰاوٰاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ثم: وَ أَوْحىٰ فِي كُلِّ سَمٰاءٍ أَمْرَهٰا و أخيرا: وَ زَيَّنَّا السَّمٰاءَ الدُّنْيٰا بِمَصٰابِيحَ وَ حِفْظاً نعم: ذٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ .

فى الآيتين المتقدمتين تستلفت النظر عشر ملاحظات سنقف عليها خلال النقاط الآتيه،التى ننهى من خلالها البحث فى هذه المجموعه من الآيات،و هى:

أولا:كلمه«ثم»تأتى عاده للإشاره إلى التأخير فى الزمان،و تأتى أحيانا للدلاله على التأخير فى البيان.فإذا كان المعنى الأوّل هو المقصود فسيكون المفهوم هو أنّ خلق السماوات تمّ بعد خلق الأرض و خلق الجبال و المعادن و المواد الغذائيه.أما إذا كان المعنى الثّانى هو المقصود،فليس هناك مانع من أن تكون السماوات قد خلقت و بعدها تمّ خلق الأرض،و لكن عند البيان ذكرت الآيه أوّلا خلق الأرض و الأرزاق و مصادرها التى يحتاجها البشر،ثمّ عرجت إلى ذكر قضيه خلق السماء.

المعنى الثّانى بالإضافه إلى أنّه أكثر تناسقا و انسجاما مع الاكتشافات العلميه،

فهو أيضا يتفق مع الآيات القرآنيه الأخرى،كقوله تعالى فى الآيات(۲۷-۳۳)من سوره«النازعات»: أَ أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَم السَّمٰاءُ بَنٰاهٰا رَفَعَ سَمْكَهٰا فَسَوّٰاهٰا وَ أَغْطَشَ لَيْلَهٰا وَ أَخْرَجَ ضُحٰاهٰا وَ الْأَرْضَ بَعْدَ ذٰلِكَ دَحٰاهٰا أَخْرَجَ مِنْهٰا مٰاءَهٰا وَ مَرْعٰاهٰا وَ الْجِبٰالَ أَرْسٰاهٰا مَتٰاعاً لَكُمْ وَ لِأَنْعٰامِكُمْ .

إنّ هذه المجموعه من الآيات الكريمه تكشف بوضوح أنّ دحو و توسيع الأرض و تفجر العيون و نبات الأشجار و الموارد الغذائيه،قد تمّ جميعا بعد خلق السماوات.أما لو فسّرنا معنى«ثم»بالتأخير فى الزمان،فعلينا أن نقول:إنّ كلّ تلك قد تكونت قبل خلق السماء،و هذا يتنافى مع المعنى الواضح للمراد من قوله تعالى: بَعْدَ ذٰلِكَ أى أن كلّ ما ذكر قد تم خلقه بعد ذلك(أى بعد السماوات).

و بذلك نفهم أن(ثم)هنا قد استخدمت للتدليل على التأخير البيانى (۱) .

ثانيا:«استوى»من«استواء»و تعنى الاعتدال أو مساواه شيئين ببعضهما، و لكن ذهب علماء اللغه و التّفسير إلى أنّ هذه الكلمه عند ما تتعدّى ب«على»يصبح معناها الاستيلاء و التسلّط على شيء ما مثل اَلرَّحْمٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوىٰ (۲) .

و عند ما تتعدى ب«إلى»فهى تعنى القصد،كما فى الآيه التى نبحثها ثُمَّ اسْتَوىٰ إِلَى السَّمٰاءِ اى قصد الى السماء.

ثالثا:جمله«هى دخان»تبيّن أن بدايه خلق السماوات كان من سحب الغازات الكثيفه الكثيره،و هذا الأمر يتناسب مع آخر ما توصلت إليه البحوث العلميه بشأن بدايه الخلق و العالم.

و الآن فإنّ الكثير من النجوم السماويه هى على شكل سحب مضغوطه من الغازات و الدخان.

۱- ۱) -أما ما نقل عن ابن عباس من قوله:إنّ خلق الأرض كان قبلا،و أما«دحو الأرض»فجاء بعد ذلك،فهو لا يحل المشكله، و كأن ابن عبّاس لم يهتم عما بعد الآيه من حديث عن خلق الجبال و المواد الغذائيه!

۲- ۲) -طه،الآيه ۵.

رابعا:قوله تعالى: فَقٰالَ لَهٰا وَ لِلْأَرْضِ ائْتِيٰا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لا تعنى أن كلاما قد جرى باللفظ،و إنّما قول الخالق و أمره هو نفسه الأمر التكوينى،و هو عين إرادته فى الخلق.أما التعبير ب«طوعا أو كرها»فهو إشاره إلى أنّ الإراده الإلهيه الحتميه قد ارتبطت يتكوّن السماوات و الأرض.و المعنى أنّه يجب أن يحدث هذا الأمر شاءت أم أبت.

خامسا:الجمله فى قوله تعالى: أَتَيْنٰا طٰائِعِينَ تشير إلى أنّ المواد التى تتشكل منها السماء و الأرض من ناحيه التكوين و الخلقه، كانت مستسلمه تماما لإراده اللّه و أمره،فتقبلت شكلها المطلوب و لم تعترض أمام هذا الأمر الإلهى مطلقا.

و من الواضح أنّ هذا الأمر و هذا الامتثال ليس لهما طبيعه تكليفيه و تشريعيه، بل حدثت بمحض التكوين فقط.

سادسا:قوله تعالى: فَقَضٰاهُنَّ سَبْعَ سَمٰاوٰاتٍ فِي يَوْمَيْنِ يشير إلى وجود مرحلتين فى خلق السماوات،كلّ مرحله استمرت لملايين أو مليارات السنين، و كل مرحله تتضمن مراحل اخرى،و من المحتمل أن تكون هاتان المرحلتان هما مرحله تبديل الغازات المضغوطه إلى سوائل و مواد مذابه،ثمّ مرحله تبديل المواد المذابه إلى مواد جامده.

كلمه«يوم»استخدمت هنا-كما أشرنا سابقا-بمعنى مرحله،و هو ممّا يشبع استخدامه فى عدّه لغات،و يشبع استخدامه أيضا فى كلامنا اليومى،فعند ما تقول مثلا:يوم لك و يوم عليك،إنّما تشير إلى مراحل الحياه المختلفه.(هناك بحث مفصل حول هذا الموضوع فى نهايه تفسير الآيه(۵۴)من سوره الأعراف).

سابعا:إنّ العدد«سبع»ربّما جاء هنا للكثره،بمعنى أنّ هناك سماوات كثيره و أجرام كثيره.و من المحتمل أن يكون الرقم للعدد،أى إن عدد السماوات هى سبع بالتحديد.و مع هذا التقييد فإنّ جميع ما نرى من كواكب و نجوم ثابته و سيّاره هى

من السماء الأولى،و بذلك يكون عالم الخلقه متشكلا من سبع مجموعات كبرى، واحده منها فقط أمام أنظار البشريه،و إنّ الأجهزه العلميه الفلكيه الدقيقه و بحوث الإنسان،لم تتوصل إلى ما هو أبعد من السماء الأولى.

و لكن كيف تكون العوالم السته لأخرى؟و ممّ تتشكّل؟فهو أمر لا يعلمه إلاّ اللّه تعالى.

و المعتقد هنا أنّ هذا التّفسير هو الأصح.(فى هذا الموضوع يمكن مراجعه نهايه تفسير الآيه(۲۹)من سوره البقره).

ثامنا:قوله تعالى: وَ أَوْحىٰ فِي كُلِّ سَمٰاءٍ أَمْرَهٰا تشير إلى أنّ المسأله لم تنته بخلق السماوات و حسب،بل إنّ فى كل منها مخلوقات و كائنات و نظام خاص و تدبير معين،بحيث أن كلّ واحده تعتبر بحد ذاتها دليلا على العظمه و القدره و العلم.

تاسعا:قوله تعالى: وَ زَيَّنَّا السَّمٰاءَ الدُّنْيٰا بِمَصٰابِيحَ تدل على أنّ جميع النجوم زينه للسماء الأولى،و تبدو فى نظر الإنسان كالمصابيح المعلقه فى سقف هذه السماء الزرقاء،و هى ليست للزينه و حسب،حيث تجذب بتلألؤها الخاص المتعاقب قلوب عشاق أسرار الخلقه،بل فى الليالى المعتمه تكون مصابيح للتائهين و أدله لمن يسير فى الطريق،تعينهم على تعيين اتجاه الحركه.

أمّا«الشهب»التى تظهر كنجوم سريعه تظهر فى السماء بوميض سريع قبل أن تنطفئ،فهى فى الواقع سهام تستقر فى قلوب الشياطين و تحفظ السماء من نفوذهم.(راجع تفسير الآيه ۱۷ من سوره الحجر و نهايه الآيه السابعه من سوره الصافات).

عاشرا:قوله تعالى: ذٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ تكمله للجمل التسع السابقه، و تشكل بمجموعها عشره كامله،تقول:إنّ ما حدث فى السماء و الأرض منذ بدايه الخلق إلى مرحله التشكّل و النظام الدقيق،كان وفق برنامج محسوب و مقدّر،تمّ

تنظیمه من قبل المبـدأ الأزلی ذی العلم و القـدره المطلقتین،و إن أی تفکیر فی أی بحر من هذه البحور یقودنا نحو المبدأ العظیم جلّت قدرته.

الآيات [سوره فصلت (۴۱): الآيات ۱۳ الی ۱۶]

اشاره

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَ ثَمُودَ (۱۳) إِذْ جاءَتْهُمُ اَلرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلاّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اَللّهَ قالُوا لَوْ شاءَ رَبُّنا لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً فَإِنّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ (۱۴) فَأَمّا عادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي اَلْأَرْضِ بِغَيْرِ اَلْحَقِّ وَ قالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنّا قُوَّةً أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اَللّهَ اَلَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ (۱۵) فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيّامٍ نَحِساتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذابَ اَلْخِزْيِ فِي اَلْحَياةِ اَلدُّنْيا وَ لَعَذابُ اَلْآخِرَةِ أَخْزى وَ هُمْ لا يُنْصَرُونَ (۱۶)

التّفسير

اشاره

أحذركم صاعقه مثل صاعقه عاد و ثمود!

بعد البحث المهم الذی تضمّنته الآيات السابقه حول التوحيد و معرفه الخالق جلّ و علاه تنذر الآيات-التی بين أيدينا-المعارضين و المعاندين الذين تجاهلوا كلّ هذه الدلائل الواضحه و الآيات البينات،و تحذرهم أن نتيجه الإعراض نزول

العذاب بهم،يقول تعالى: فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكَمْ صٰاعِقَةً مِثْلَ صٰاعِقَهِ عٰادٍ وَ ثَمُودَ (١) .

عليكم أن تخافوا هذه الصاعقه المميته المحرقه التى إذا نزلت بساحتكم تنفيكم و تحل بداركم الدمار.

لاحظنا فى بدايه هذه السوره المباركه أنّ بعض زعماء الشرك فى مكّه مثل «الوليد بن المغيره»و بروايه اخرى«عتبه بن ربيعه»جاءوا إلى النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم للتحقيق حول القرآن و دعوه الرّسول و طرحوا عليه بعض الأسئله و فى سياق إجابه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم لهم تلا عليهم الآيات الاولى من هذه السوره،و عند ما وصل النّبى فى تلاوته إلى الآيات أعلاه و هدّدهم بصاعقه مثل صاعقه عاد و ثمود،ارتعشت أجسادهم و أصيبوا بالخوف بحيث أنّهم لم يكونوا قادرين على الاستمرار فى الكلام،لذلك عادوا إلى قومهم و ذكروا لهم تأثرهم العميق و اضطرابهم و وجلهم من هذه الكلمات.

«الصاعقه»كما يقول الراغب فى المفردات،تعنى الصوت المهيب فى السماء، و يشتمل على النّار أو الموت أو العذاب.(و لهذا السبب تطلق الصاعقه على الموت أحيانا،و على النّار و فى أحيان اخرى).

و الصاعقه-وفقا للتحقيقات العلميه الراهنه-هى شراره كهربائيه عظيمه تحدث بين مجموعه من الغيوم التى تحمل الشحنات الكهربائيه الموجبه،و بين الأرض التى تكون شحنتها«سالبه»و تصيب عاده قمم الجبال و الأشجار و أى شىء مرتفع،و فى الصحارى المسطحه تصيب الإنسان و الأنعام،كما أن حرارتها شديده للغايه بحيث أنّها تحيل أى شىء تصيبه إلى رماد،و تحدث صوتا مهيبا و هزّه أرضيه قويه فى المكان الذى تضربه.

١- ١) -«الفاء»فى«فإن اعرضوا»هى«فاء التفريع»كما قيل،بناء على ذلك فإنّ هذا الإنذار الحاسم يعتبر فرعا و نتيجه للإعراض عن الآيات التوحيديه السابقه.

اللّه تبارك و تعالى-كما تنص على ذلك آيات القرآن-عاقب بعض الأقوام الأشقياء من الأمم السابقه بالصاعقه.

و الطريف هنا أنّ عالم اليوم برغم التقدم الهائل فى العلوم،بقى عاجزا عن اكتشاف وسيله لمنع الصاعقه.

و سيبقى هذا السؤال:لماذا ذكر هنا قوم عاد و ثمود من بين جميع الأقوام السابقه؟ السبب يعود إلى أنّ العرب كانوا على اطّلاع بخبر أولئك الأقوام،و كانوا قد شاهدوا بأعينهم آثار مدنهم المدمّره،إضافه إلى أنّهم كانوا يعرفون أخطار الصواعق،لأنّهم يعيشون فى الصحراء و الباديه.

يواصل الحديث القرآنى سياقه بالقول: إِذْ جٰاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلاّٰ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللّٰهَ .

إنّ استخدام تعبير مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ هو إشاره إلى ما ذكرناه أعلاه من أنّ الأنبياء قد استخدموا جميع الوسائل و الأساليب لهدايتهم،و حاولوا طرق كلّ الأبواب حتى ينفذوا إلى قلوبهم المظلمه.

و قد يكون التعبير إشاره إلى الأنبياء الذين بعثوا خلال أزمنه مختلفه إلى هؤلاء الأقوام،و طرحوا عليهم نداء التوحيد.

لكن لنرى ماذا كان جوابهم حيال هذه الجهود العظيمه الواسعه لرسل اللّه تعالى؟ يقول تعالى: قٰالُوا لَوْ شٰاءَ رَبُّنٰا لَأَنْزَلَ مَلاٰئِكَةً لإبلاغ رسالته بدلا من إرسال الناس.

و الآن و ما دام الأمر كذلك: فَإِنّٰا بِمٰا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كٰافِرُونَ .و ما جئتم به لا نعتبره من اللّه.

إنّ مفهوم هذا الكلام لا يعنى إيمان هؤلاء بأنّ هؤلاء رسل اللّه حقّا،و.أنّهم

لاـ يؤمنـون بهم،و إنّمـا مفهـوم الكلامـ رفض هؤلاـء دعوه الرسـل فى أنّهم مبلغوا رسالاـت اللّه من الأسـاس،حيث حملوهم على الكذب و الادّعاء.(ذلك فإنّ جمله بِمٰا أُرْسِلْتُمْ بِهِ هى للاسـتهزاء أو السـخريه،أو أن يكون المقصود بها هو:طبقا لادعائكم بأنّكم رسل اللّه تبلغون عنه).

إنّهـا نفس الـذريعه التى ينقلها القرآن مرارا على لسان منكرى النبوات و رسالات اللّه و مكـذبى الرسل،من الـذين كانوا يتوقعون أن يكون الأنبياء دائما ملائكه،و كأنما البشر لا يستحقون مثل هذا المقام.

مثـال ذلك قولهم فى الآيه(٧)من سوره الفرقـان: وَ قٰالُوا مٰا لِهٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعٰامَ وَ يَمْشِي فِي الْأَسْوٰاقِ لَوْ لاٰ أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً .

إنّ قائد البشـر يجب أن يكون من صـنف البشـر،كى يعرف مشاكل الإنسان و احتياجاته و يحس آلامهم و يتفاعل مع قضاياهم،و كى يسـتطع أن يكون القدوه و الأسوه،لذلك يصـرح القرآن فى الآيه(٩)من سوره«الأنعـام»بقوله تعالى: وَ لَوْ جَعَلْنٰاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنٰاهُ رَجُلاً .

بعـد المجمل الذى بينته الآيات أعلاه،تعود الآيات الآن-كما هو أسـلوب القرآن الكريم-إلى تفصـيل ما أوجز من خبر قوم عاد و ثمود،فتقول: فَأَمّٰا عٰادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ قٰالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنّٰا قُوَّةً .

إنّ هؤلاـء القوم كـانوا يعيشون فى أرض«الأحقاف»من(حضـرموت)جنوب الجزيره العربيه،و كانوا يتصـفون بوضع اسـتثنائى فريد مـن حيـث القـوّه الجسـمانيه و المـاليه و التمـدّن المـادى،فكـانوا يبنـون القصـور الجميله و القلاـع المحكمه،خـاصه فى الأمـاكن المرتفعه،حيث يرمز ذلك إلى قدرتهم و يكون وسيله لاستعلائهم.

لقـد كانوا رجالا مقاتلين أشـدّاء،فأصـيبوا بالغرور بسـبب قدراتهم الظاهريه و مجدهم المادى،حتى ظنّوا أنّهم أفضل من الجميع،و أنّ قوّتهم لا تقهر، و لذلك قاموا بتكذيب الرسل و الإنكار عليهم،و تكالبوا على نبيّهم«هود».

لکن القرآن یرد علی هؤلاء و دعواهم بالقول: أَ وَ لَمْ یَرَوْا أَنَّ اللّهَ الَّذِی خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّهً .

ألیس الـذی خلقهم خلق السـماوات و الأـرض؟ بـل هل یمکن المقایسه بین هاتین القـدرتین،فأین القـدره المحـدوده الفانیه من القدره المطلقه اللامتناهیه الأزلیه؟! ما للتراب و ربی الأرباب (۱) ؟! تضیف الآیه فی النهایه قوله تعالی: وَ کانُوا بِآیاتِنا یَجْحَدُونَ .

نعم،إنّ الإنسـان الضـعیف المحـدود سوف یطغی بمجرّد أن یشـعر بقلیـل من القـدره و القوه،و أحیانا بـدافع من جهله،فیتوهم أنّه یصـارع اللّه جـلّ و علاـ! لکن ما أسـهل أن یبـدل اللّه عوامل حیاته إلی موت و دمار،کما تخبرنا الآیه عن مآل قوم عاد: فَأَرْسَلْنا عَلَیْهِمْ رِیحاً صَرْصَراً فِی أَیّامٍ نَحِساتٍ لِنُذِیقَهُمْ عَذابَ الْخِزْیِ فِی الْحَیاهِ الدُّنْیا .

إنّ هذه الریح الصرصر،و کما تصرح بذلک آیات اخری،کانت تقتلعهم من الأرض بقوّه ثمّ ترطمهم بها،بحیث أصبحوا کأعجاز النخل الخاویه.(یلاحظ الوصف فی سوره«القمر»الآیه ۱۹-۲۰ و سوره الحاقه الآیه ۶ فما بعد).

لقـد استمرت هـذه الریـح سبع لیـال و ثمـانیه أیّـام،و حطّمت کیـانهم و کل وسائل عیشـهم،نکالا بما رکبوا من حماقه و علوا و غرور،و لم یبق منهم سوی أطلال تلک القصور العظیمه،و آثار تلک الحیاه المرفهه.

هذا فی الدنیا،و هناک فی الآخره: وَ لَعَذابُ الْآخِرَهِ أَخْزی .

إنّ العذاب الأخروی هو فی الواقع کالشراره فی مقابل بحر لجی من النّار.

---

۱ – ۱) -إنّ هـذا التعبیر یشبه فی الواقع جملـه:«اللّـه أکـبر»حیـث تقـوم بتعریـف اللّـه(جـلّ و علاـ)بـأنّه أعظم و أکـبر من جمیع الموجودات، ذلـک أنّنـا نعلم أن لاـ قیـاس بین الإثنین(التراب و رب الأرباب)و لکن اللّه یتحـدّث إلیها بلساننا،لـذلک نری أمثال هذه الألفاظ و التعابیر فی کلامه تعالی

و الأنكی من ذلک أن لیس هناک من ینصرهم: وَ هُمْ لاٰ یُنْصَرُونَ .

فبعد عمر من الجد و العمل فی سبیل التظاهر بالعظمه و العلو،یصیبهم اللّه تعالی بعذاب أذلهم فی هذه الدنیا،و فی العالم الآخر ینتظرهم ما هم أشد و أصعب! «صرصر»:علی وزن(دفتر)مشتقّه فی الأصل من کلمه«صرّ»علی وزن «شرّ»و تعنی الغلق بإحکام،لذا تستعمل کلمه«صرّه»للکیس الذی یحتوی علی المال و هو مغلق بشکل جیّد.ثمّ أطلقت علی الریاح البارده جدا،أو التی فیها صوت عال،أو الریاح المسمومه القاتله.و قد تکون الریاح العجیبه التی شملت قوم«عاد»تحمل کلّ هذه الصفات جمیعا.

أَیّامٍ نَحِسٰاتٍ

تعنی الأیام المشؤومه التی اعتبرها البعض بأنّها الأیّام الملیئه بالتراب و الغبار،أو الأیّام البارده جدا،و هذه المعانی یمکن أن تکون مراده من الآیات التی نحن بصددها.

لقد أشار أمیر المؤمنین علی بن أبی طالب علیه السّلام فی خطب نهج البلاغه إلی قصه عاد،کی تکون درسا أخلاقیا تربویا یتعظ منه الآخرون.

یقول علیه السّلام: «و اتعظوا فیها بالذین قالوا:من أشدّ منّا قوّه؟حملوا إلی قبورهم،فلا یدعون رکبانا،و أنزلوا الأجداث فلا یدعون ضیفانا،و جعل لهم من الصفیح أجنان،و من التراب أکفان، و من الرفات جیران» (1) .

ملاحظتان

اشاره

أوّلا:ما هی وسیله فناء قوم عاد؟

وفقا للآیه(13)من هذه السوره،فإنّ قوم عاد و ثمود أهلکوا بالصاعقه.فی حین أنّ الآیات التی نبحثها تقول:إنّهم أبیدوا بالریح الصرصر العاتیه،فهل هناک

1- 1) -نهج البلاغه:الخطبه رقم(111).

تعارض بين الاثنين؟ فى الجواب ذكر المفسّرون و علماء اللغه معنيين للصاعقه،أحدهما عام، و الآخر خاص.

فالصاعقه بمعناها العام تعنى أى شيء يهلك الإنسان،و هى كما يقول العلاّمه الطبرسى فى مجمع البيان:«المهلكه من كلّ شيء».

أمّا المعنى الخاص،فالصاعقه شراره عظيمه من النّار تنزل من السماء، و تحرق كلّ ما يوجد فى طريقها،كما وضحنا ذلك آنفا.

بناء على هذا،لو كانت الصاعقه بالمعنى الأوّل فلا تعارض بينها و بين الرياح القويه.

يقول الراغب فى المفردات:«قال بعض أهل اللغه:الصاعقه على ثلاثه أوجه:

الموت كقوله: فَصَعِقَ مَنْ فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ مَنْ فِی الْأَرْضِ و قوله: فَأَخَذَتْهُمُ الصّٰاعِقَهُ و العذاب كقوله: أَنْذَرْتُكُمْ صٰاعِقَهً مِثْلَ صٰاعِقَهِ عٰادٍ وَ ثَمُودَ و النّار كقوله: وَ یُرْسِلُ الصَّوٰاعِقَ فَیُصِیبُ بِهٰا مَنْ یَشٰاءُ و ما ذكره فهو أشياء حاصله من الصاعقه فإن الصاعقه هى الصوت الشديد من الجوّ،ثمّ يكون منه نار فقط أو عذاب أو موت و هى فى ذاتها شيء واحد و هذه الأشياء تأثيرات منها».

و ثمه احتمال آخر،هو أن قوم عاد قد شملهم نوعان من العذاب:الأوّل الرياح الشديده التى دمّرت كلّ شيء و التى سلطها اللّه عليهم أيّاما عديده،ثم جاء بعد ذلك دور الصاعقه النّاريه المميته التى شملتهم بأمر اللّه.

لكن المعنى الأوّل يبدو أكثر تناسبا مع الموضوع،خصوصا إذا لاحظنا الآيات الأخرى التى تتحدث عن عقاب قوم عاد و هلاكهم.(راجع الآيات فى سوره الذاريات-آيه ۴۱،و سوره الحاقه-آيه ۶،و القمر الآيتان«۱۸»و«۱۹»).

ثانيا:أيام قوم عاد النحسه

البعض يعتقد أنّ أيّام السنه نوعان:أيّام نحسه مشؤومه،و أيام سعيده مباركه.

و يستدلون على ذلك بالآيات أعلاه،فيقولون:هناك تأثيرات مجهوله تؤثر في الليالي و الأيّام،و نشعر نحن بآثار ذلك،بينما أسبابها ما تزال مبهمه بالنسبه لنا.

و قال البعض:إنّ الأيام النحسه في الآيه التي نبحثها هي الأيّام المملوءه بالتراب و الغبار.

و قوم عاد قد أصيبوا بمثل هذه الرياح الشديده بحيث باتوا لا يرى أحدهم الآخر،كما تفيد ذلك الآيتان(۲۴-۲۵)من سوره«الأحقاف»في قوله تعالى:

فَلَمّا رَأَوْهُ عارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قالُوا هذا عارِضٌ مُمْطِرُنا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيها عَذابٌ أَلِيمٌ، تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّها فَأَصْبَحُوا لا يُرى إِلاّ مَساكِنُهُمْ كَذلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ .

و سوف نقوم ببحث مفصل حول مفهوم الأيّام النحسه و الأيّام السعيده،في نهايه حديثنا عن الآيه(۱۹)من سوره القمر،إن شاء اللّه تعالى.

الآیتان [سوره فصلت (۴۱): الآیات ۱۷ الی ۱۸]

اشاره

وَ أَمّٰا ثَمُودُ فَهَدَیْنٰاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا اَلْعَمیٰ عَلَی اَلْهُدیٰ فَأَخَذَتْهُمْ صٰاعِقَهُ اَلْعَذٰابِ اَلْهُونِ بِمٰا کٰانُوا یَکْسِبُونَ (۱۷) وَ نَجَّیْنَا اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ کٰانُوا یَتَّقُونَ (۱۸)

التّفسیر

اشاره

عاقبه قوم ثمود:

بعد أن تحدثت الآیات السابقه عن قوم عاد،تبحث هاتان الآیتان فی قضیه قوم ثمود و مصیرهم،حیث تقول:إنّ اللّه قد بعث الرسل و الأنبیاء لهم مع الدلائل البینه،إلاّ أنّهم: وَ أَمّٰا ثَمُودُ فَهَدَیْنٰاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمیٰ عَلَی الْهُدیٰ .

لذلک: فَأَخَذَتْهُمْ صٰاعِقَهُ الْعَذٰابِ الْهُونِ بِمٰا کٰانُوا یَکْسِبُونَ .

و هؤلاء مجموعه تسکن«وادی القری»(منطقه بین الحجاز و الشام)و قد وهبهم اللّه أراضی خصبه خضراء مغموره،و بساتین ذات نعم کثیره و کانوا یبذلون الکثیر من جهدهم فی الزراعه.و لقد وهبهم اللّه العمر الطویل و الأجسام القویه، و کانوا مهره فی البناء القوی المتماسک،حیث یقول القرآن عنهم فی ذلک: وَ کٰانُوا

يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبٰالِ بُيُوتاً آمِنِينَ

(۱)

.

لقد جاءهم نبيّهم بمنطق قوى و قلب ملؤه الحبّ،و معه المعاجز الإلهيه،إلاّ أنّ هؤلاء القوم المغرورين المستعلين لم يرفضوا دعوته-و حسب-بل آذوه و أتباعه القليلين،لذلك شملهم اللّه بعقابه فى الدنيا،و لن يغنى ذلك عن عذاب الآخره شيئا.

نقرأ فى الآيه(۷۸)من سوره الأعراف أنّهم أصيبوا بزلزله عظيمه،فبقيت أجسادهم فى المنازل بدون حراك: فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَهُ فَأَصْبَحُوا فِى دٰارِهِمْ جٰاثِمِينَ .

و فى الآيه(۵)من سوره الحاقه قوله تعالى بشأنهم: فَأَمّٰا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطّٰاغِيَهِ .

أمّا الآيه(۶۷)من سوره هود فتقول عنهم: وَ أَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَهُ فَأَصْبَحُوا فِى دِيٰارِهِمْ جٰاثِمِينَ .

أمّا الآيه التى نحن بصددها فقد استخدمت تعبير«صاعقه».

قد يتصور البعض أن هناك تعارضا بين هذه التعابير،و لكن عند التدقيق يظهر أنّ الكلمات الأربع أعلاه(رجفه،طاغيه،صيحه،صاعقه)ترجع جميعا إلى حقيقه واحده،لأنّ الصاعقه،-كم قلنا سابقا-لها صوت مخيف، بحيث يمكن أن نسميها بالصيحه السماويه،و لها أيضا نارا محرقه،و هى عند ما تسقط على منطقه معينه تحدث هزّه شديده،و كذلك هى وسيله للتخريب.

فى الواقع إنّ البلاغه القرآنيه تستوجب أن تبيّن الأبعاد المختلفه للعذاب الإلهى بتعابير مختلفه و فى سياق آيات عديده كيما تخلّف أثرا عميقا فى نفس الإنسان.

و هؤلاء القوم قد واجهتهم عوامل مختلفه للموت فى إطار حادثه واحده، بحيث أن كلّ عامل لوحده يكفى لإبادتهم كالصيحه المميته مثلا،أو الهزه الأرضيه

۱- ۱) -الحجر،الآيه ۸۲.

القاتله،أو النّار المحرقه،و أخيرا الصاعقه المخفيه.

و لكن قد يتساءل عن مصير الأشخاص الذين آمنوا بصالح عليه السّلام بين هذه الأمواج القاتله من الصواعق،فهل احترقوا بنيران غيرهم؟ القرآن يجيبنا على ذلك بقول اللّه عزّ و جلّ: وَ نَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَ كانُوا يَتَّقُونَ .

لقد أنجى هذه المجموعه إيمانها و تقواها،بينما شمل العذاب تلك الكثره الطاغيه بسبب كفرها و عنادها،و المجموعتان يمكن أن تكونا نموذجا لفئات من هذه الأمه.

قال بعض المفسّرين:لقد آمن بنبيّ اللّه صالح(١١٠)أشخاص من بين مجموع القوم،و لقد أنقذ اللّه هؤلاء و أنجاهم فى الوقت المناسب.

ملاحظه

اشاره

أنواع الهدايه الإلهيه:

الهدايه على نوعين:أوّلا«الهدايه التشريعه»و هى تشمل إبانه الطريق و الكشف عنه بجميع العلائم.ثمّ هناك«الهدايه التكوينيه»التى هى فى واقعها إيصال إلى المطلوب أو الوصول إلى الهدف.

لقد تجمعت الهدايتان معا فى الآيات التى نبحثها،فالآيات تتحدث أولا عن هدايه ثمود و هذه هى الهدايه التشريعيه التى استبانوا من خلالها الطريق.

ثم أضافت الآيه عن وصف حالهم بأنّهم استحبوا العمى على الهدى،و هذه هى عين الهدايه التكوينيه و التوصّل نحو الهدف.

و هكذا فإنّ الهدايه بمعناه الأوّل قد تمّت من خلال بعثه الرسل و الأنبياء،أمّا الهدايه بمعناها الثّانى و التى ترتبط بإراده و اختيار أى إنسان،فلم تتمّ بسبب غرور

القوم و تکبرهم و علوهم،لأنّهم: فَاسْتَحَبُّوا الْعَمیٰ عَلَی الْهُدیٰ .

إنّ هذا-بحدّ ذاته-دلیل علی مبدأ«حریه الإراده الإنسانیه»و عدم الجبر.

و لکن-برغم صراحه و وضوح الآیات-نری أنّ بعض المفسّرین کالفخر الرازی یصرون علی إنکار دلاله الآیه،و ذکروا کلاما لا یلیق بمنزله الباحث المحقق،و ذلک بسبب میولهم نحو عقیده الجبر (۱) !!

۱- ۱) -یلاحظ الفخر الرازی فی التّفسیر الکبیر فی نهایه حدیثه عن هذه الآیه.

الآيات [سوره فصلت (۴۱): الآيات ۱۹ الی ۲۳]

اشاره

وَ يَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدٰاءُ اَللّٰهِ إِلَى اَلنّٰارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (۱۹) حَتّٰى إِذٰا مٰا جٰاؤُهٰا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَ أَبْصٰارُهُمْ وَ جُلُودُهُمْ بِمٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ (۲۰) وَ قٰالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنٰا قٰالُوا أَنْطَقَنَا اَللّٰهُ اَلَّذِى أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَ هُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (۲۱) وَ مٰا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَ لاٰ أَبْصٰارُكُمْ وَ لاٰ جُلُودُكُمْ وَ لٰكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اَللّٰهَ لاٰ يَعْلَمُ كَثِيراً مِمّٰا تَعْمَلُونَ (۲۲) وَ ذٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ اَلَّذِى ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدٰاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ اَلْخٰاسِرِينَ (۲۳)

التّفسير

كانت الآيات السابقه تتحدث عن الجزاء الدنيوى للكفار المغرورين و الظالمين و المجرمين.أمّا الآيات التى نبحثها الآن فتتحدث عن العذاب الأخروى،و عن مراحل مختلفه من عقاب أعداء اللّه.

يقول تعالى: وَ يَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدٰاءُ اللّٰهِ إِلَى النّٰارِ .

ص: ۳۷۹

و کی تتصل الصفوف ببعضها یتمّ تأخیر الصفوف (۱) حتی تلتحق بها الصفوف الأخری: فَهُمْ یُوزَعُونَ .

و حینذاک: حَتّی إِذا ما جاؤُها شَهِدَ عَلَیْهِمْ سَمْعُهُمْ وَ أَبْصارُهُمْ وَ جُلُودُهُمْ بِما کانُوا یَعْمَلُونَ (۲) .

یا لهم من شهود؟فأعضاء الإنسان تشهد بنفسها علیه و لا یمکن إنکار شهادتها،لأنّها کانت حاضره فی جمیع المشاهد و المواقف و ناظره لکل الأعمال، و هی إذ تتحدث فبأمر اللّه تعالی.

و هنا یثار سؤال:هل تعنی شهاده هذه الأعضاء من جسم الإنسان أنّ اللّه تبارک و تعالی یخلق فیها قدره الإحساس و الإدراک و الشعور،و بالتالی القدره علی الکلام؟ أم أنّ آثار الذنوب سوف تظهر فی ذلک الیوم(یوم البروز)لأنّها مطبوعه علیها طوال عمر الإنسان،کما نقول فی تعبیراتنا الشائعه:إن صفحه وجهه تحکی و تخبر ما یخفیه فلان فی سرّه؟ أو أنّ الأمر یکون کما فی حال الشجره التی أوجد اللّه تعالی فیها الصوت و أسمعه موسی علیه السّلام؟ فی الواقع یمکن قبول کلّ هذه التفاسیر،و قد جاءت مبثوثه فی تفاسیر المفسّرین.

طبعا لا یوجد مانع من أن یقوم تعالی بخلق الإدراک و الشعور فی الأعضاء، فتشهد فی محضر اللّه تعالی عن علم و معرفه،خصوصا و أن ظاهر الآیات یشیر للوهله الأولی إلی هذا المعنی.و هو ما یعتقده البعض فیما یخص تسبیح و حمد

---

۱ - ۱) -«یوزعون»من«وزع»و هی بمعنی المنع،و عند ما تستخدم للجنود أو الصفوف الأخری،فإن مفهومها یعنی أن یبقی المجموع إلی أن یلتحق بهم آخر نفر.

۲- ۲) -«ما»فی قوله تعالی: إِذا ما جاؤُها زائده،و هی هنا للتأکید.

و سجود ذرات العالم و كائنات الوجود بين يدى اللّه تبارك و تعالى.

و المعنى الثّانى محتمل أيضا لأننا نعلم أنّ أى كائن فى هـذا العالم لا يفنى من الوجود،و أنّ آثار أقوالنا و أفعالنا سوف تبقى فى أعضائنا و جوارحنا،و من الطبيعى أن تعتبر«الشـهاده التكوينيه»هـذه من أوضـح الشـهادات و أجلاها،إذ لا مجال لإنكارها،كما فى اصفرار الوجه-الذى يعتبر عاده دليلا-على الخوف لا يمكن إنكاره،و احمراره دليل على الغضب أو الخجل.

و إطلاق النطق على هذا المعنى يكون مقبولا أيضا.

أمّا الاحتمـال الأـخير فى أن تنطق الأعضاء بإذن اللّه تعالى دون أن يكون لها شـعور بـذلك أو يظهر منها اثر تكوينى،فإنّ ذلك بعيد ظاهرا،لأنّه فى مثل هذه الحاله لا تعتبر الحاله مصداقا للشـهاده التشـريعيه و لا مصداقا للشهاده التكوينيه، فلا عقل هناك و لا شعور،و لا الأثر الطبيعى للعمل،و سوف تفقد قيمه الشهاده فى المحكمه الإلهيه الكبرى.

و من الضـرورى الانتبـاه إلى أنّ قوله تعـالى: حَتّٰى إِذٰا مٰا جٰاؤُهٰا يبيّن أنّ شـهاده أعضاء الإنسان تتمّ فى محكمه النّار،فهل مفهوم ذلـك أنّ الشـهاده تتمّ فى النّـار،فى حين أنّ النّار هى نهايه المطاف،أم أنّ المحكمه تنعقـد بالقرب من النّار؟ الاحتمال الثّانى هو الأقرب كما يظهر.

ثمّ ما هو المقصود من(جلود)بصـيغه الجمع؟ الظاهر أنّ المقصود بـذلك هو جلود الأعضاء المختلفه للجسم،جلد اليد و الرجل و الوجه و غير ذلك.

أمّا الروايات التى تفسّر ذلك ب«الفروج»فهى فى الحقيقه من باب بيان المصداق،و ليس حصر مفهوم الجلود فى ذلك.

و من جـانب آخر ربّ سائل يسأل:لماذا تشـهد العين و الأذن و الجلود فقط، دون أعضاء الجسم الأخرى؟و هل الشـهاده مقتصـره على هذه الأعضاء،أو أنّ

هناک أعضاء اخری تشـهد؟ ما نستفیده من الآیات القرآنیه الأخری أنّ هناک أعضاء اخری فی جسم الإنسان تشهد علیه،إذ نقرأ فی الآیه(۶۵)من سوره«یس»قوله تعالی: وَ تُکَلِّمُنٰا أَیْدِیهِمْ وَ تَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمٰا کٰانُوا یَکْسِبُونَ .

و فی الآیه(۲۴)من سوره«النور»قوله تعالی: یَوْمَ تَشْهَدُ عَلَیْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَ أَیْدِیهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ .

و هکـذا یتضح أنّ هناک أعضاء اخری تقوم بالإدلاء بالشـهاده،إلاّ أنّ ما تذکره الآیه التی بین أیدینا من أعضاء تعتبر فی الدرجه الأولی،لأنّ معظم أعمال الإنسان تتم بمساعده العین و الأذن،و إنّ الجلود هی أول من یقوم بملامسه الأعمال.

المجرمون یستغربون هذه الظاهره،و آیه استغرابهم قوله تعالی: وَ قٰالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَیْنٰا .

لسـان حـالهم یقول:لقـد کنّـا لسـنین مدیـده نحافـظ علیکم من الحر و البرد و نعتنی بنظـافتکم،فلما ذا أنتم هکـذا؟ و فی الجواب یقولون: قٰالُوا أَنْطَقَنَا اللّٰهُ الَّذِی أَنْطَقَ کُلَّ شَیْءٍ .

لقـد أعطانا اللّه مهمّه القیام بالشـهاده علی أعمالکم فی هـذه المحکمه العظیمه، و لا نملک نحن سوی الطاعه،فالذی أعطی غیرنا من الکائنات قابلیه النطق أعطانا -أیضا-هذه القابلیه (۱) .

و الطریف هنا أن أولئک یسألون جلودهم دون باقی الأعضاء من الشهود کالعین و الأذن.

۱- ۱) -هـذا التّفسـیر وارد عنـد مـا یکون معنی الآیه: أَنْطَقَنَا اللّٰهُ الَّذِی أَنْطَقَ کُلَّ شَیْءٍ ناطق و لکن یحتمل أن یکون معنی أنطق کل شـیء بالمعنی المطلق،بمعنی أنّ اللّه الذی أنطق جمیع الموجودات،و هو یکشف عن جمیع الأسرار الیوم،هو الذی أنطقنا،فلا تتعجبوا من کلامنا فجمیع کائنات العالم ستنطق فی هذا الیوم.

قد يكون السبب فى ذلك أنّ شهاده الجلود هى أغرب و أعجب من جميع الأعضاء الأخرى،و أوسع منها جميعا،فتلك الجلود التى يجب عليها أن تذوق طعم العذاب الإلهى-قبل غيرها من الأعضاء-تقوم بمثل هذه الشهاده،و هذا الأمر محيّر حقّا! ثم تستمر الآيه بقوله تعالى: وَ هُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّهٍ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .

و مره اخرى تضيف: وَ مٰا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَ لاٰ أَبْصٰارُكُمْ وَ لاٰ جُلُودُكُمْ .

و إنّ سبب إخفائكم لأعمالكم هو: وَ لٰكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللّٰهَ لاٰ يَعْلَمُ كَثِيراً مِمّٰا تَعْمَلُونَ .

كنتم غافلين عن أنّ اللّه يسمع و يرى،يشهد أعمالكم فى كلّ حال و مكان، و يعلم أسراركم ما بطن منها و ما ظهر،ثمّ هناك عناصر الرقابه التى ترافقكم و هى معكم فى كلّ مكان،فهل تستطيعون إنجاز عمل مخفى عن أعينكم و آذانكم و جلودكم؟ إنّكم فى قبضه القدره الإلهيه و تحت نظر الشهود المستترين و الظاهرين حتى أدوات ذنبكم تشهد ضدكم؟! يروى المفسّرين أنّ الآيه أعلاه نزلت فى ثلاثه نفر من كفار قريش و طائفه من بنى ثقيف ذوى بطون كبيره و رؤوس صغيره اجتمعوا بجوار الكعبه و هم يتسارّون،فقال أحدهم:أ تظنون أن اللّه يسمع كلامنا و حديثنا هذا؟ فأجاب آخر:تكلّم بهدوء و اخفض صوتك،فإذا تحدثنا بصوت عال فهو (أى اللّه جلّ جلاله)يسمعه،و إذا خفضنا أصواتنا فلا يسمعنا.

فقال الثّالث:إذا كان اللّه يسمع الكلام العالى فهو حتما يسمع الصوت الضعيف أيضا.

ص :٣٨٣

و هنا نزلت الآيه الكريمه: وَ مٰا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ... (۱) .

ثم يقول تعالى: وَ ذٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِی ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدٰاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخٰاسِرِينَ (۲) (۳) .

هل أن هذا الحديث هو من قبل اللّه تعالى،و أن كلام الأعضاء و الجوارح ينتهی إلى قوله تعالى: أَنْطَقَنَا اللّٰهُ الَّذِی أَنْطَقَ كُلَّ شَیْءٍ ، أم أنّ ما يليه استمرار له؟ المعنى الثّانی يبدو أكثر توافقا،و عبارات الآيه تتلاءم معه أكثر،بالرغم من أن أعضاء الجسم و جوارحه إنّما تتحدث هنا بأمر اللّه تعالى و بإرادته،و المعنى فی الحالتين واحد تقريبا.

بحثان

اشاره

الأوّل:حسن الظن و سوء الظن باللّه تعالى

توضح الآيات بشكل قاطع خطوره سوء الظن باللّه تعالى،و مآل ذلك إلى الهلاك و الخسران.

و بعكس ذلك فإنّ حسن الظن باللّه تعالى سبب للنجاه فی الدنيا و الآخره.

و

فی حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام يقول: «ينبغی للمؤمن أن يخاف اللّه خوفا كأنّه يشرف على النّار،و يرجوه رجاء كأنّه من أهل الجنّه،إنّ اللّه تعالى يقول:

وَ ذٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِی ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ

...ثم قال:إنّ اللّه عند ظن عبده،إن خيرا فخير، و إن شرا فشر» (۴) .

۱- ۱) -نقل هذه الحادثه(باختلاف)الكثير من المفسّرين،منهم:القرطبی،الطبرسی،الفخر الرازی،الألوسی،المراغی،و كذلك نقل الحادثه كلّ من البخاری و مسلم و الترمذی،و ما أوردناه أعلاه مأخوذ عن القرطبی مع التصرّف.المجلد الثامن،صفحه ۵۷۹۵.

۲- ۲) -«ذلكم»مبتدأ و(ظنكم)خبر له.لكن البعض احتمل أنّ(ظنكم)بدل و(أرداكم)خبر(ذلكم).

۳- ۳) -«أرداكم»من«ردی»على وزن«رأی»و تعنی الهلاك.

۴- ۴) -عن مجمع البيان نهايه تفسير الآيه مورد البحث.

و

روی عن الصادق علیه السّلام عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم: أنّ اللّه إذا حاسب الخلق یبقی رجل قد فضلت سیئاته علی حسناته،فتأخذه الملائکه إلی النّار و هو یلتفت، فیأمر اللّه بردّه،فیقول له:لم التفت؟-و هو تعالی أعلم به-فیقول:یا ربّ ما کان هذا ظنّی بک،فیقول اللّه تعالی:یا ملائکتی!و عزّتی و جلالی و الائی و علوی و ارتفاع مکانی،ما ظن بی عبدی هذا ساعه من خیر قط،و لو ظنّ بی ساعه من خیر ما ودعته بالنّار،أجیزوا له کذبه و أدخلوه الجنّه».ثمّ أضاف رسول اللّه:لیس من عبد یظن باللّه عزّ و جلّ خیرا إلاّ کان عند ظنّه به و ذلک قوله عزّ و جلّ: وَ ذٰلِکُمْ ظَنُّکُمُ الَّذِی ظَنَنْتُمْ بِرَبِّکُمْ أَرْدٰاکُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخٰاسِرِینَ (1).

الثّانی:الشهود فی محکمه القیامه

عند ما تقول:إنّ جمیع الناس سیحاکمون فی العالم الآخر،فقد یتبادر إلی الذهن أنّ المحکمه هناک تشبه محاکم هذه الدنیا،إذ سیحضر کلّ فرد أمام القاضی و بیده ملفه،و ثمّه شهود فی القضیه،ثمّ یبدأ السؤال و الجواب قبل أن یصدر الحکم النهائی.

و قد أشرنا مرارا إلی أنّ الألفاظ سیکون لها مفهوم أعمق فی ذلک العالم بحیث یصعب أو یستحیل علینا تصوّر مدالیلها،لأننا سجناء هذه الدنیا و مقاییسها.

و لکن نستطیع-مع ذلک-أن نقترب من بعض حقائق العالم الآخر من خلال ما نستفیده من الآیات القرآنیه و الأحادیث المرویه عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم و أئمّه المسلمین من أهل بیته علیهم السّلام،و تبیّن لنا آثار عن عظمه و عمق الحیاه فی ذلک العالم و محکمه یوم البعث،و لو بشکل إجمالی.

فمثلا عند ما یقال:«میزان الأعمال»قد ینصرف الذهن إلی المعنی الذی نتصوّر فیه أعمالنا فی ذلک الیوم خفیفه أو ثقیله،حیث توزن فی میزان ذی کفتین.

۱- ۱) -عن تفسیر علی بن إبراهیم کما نقل عنه تفسیر نور الثقلین،المجلد الرابع،صفحه ۵۴۴.

و لكن عند ما نقرأ فى روايات المعصومين عليهم السّلام أنّ أمير المؤمنين على عليه السّلام هو ميزان الأعمال،بمعنى أنّ قيمه الأعمال و شخصيه الأفراد ستقاس بمقياس يكون مركزه شخصيا الإمام العظيم و بمقدار مشابهه الإنسان لسلوك هذا الإمام العظيم و اقترابه منه سيكون له وزن أكثر،و بمقدار بعده عنه سيكون خفيفا فى ميزان أعماله و حسابه.

و من خلال هذا المعنى نفهم ماذا يعنى ميزان الأعمال هناك.

و فى مسأله«الشهود»فإنّ الآيات القرآنيه تكشف لنا الستار-كذلك-عن حقائق اخرى،إذ يتبيّن أنّ مفهوم الشهود هناك يختلف عن شهود محاكم هذه الدنيا.

و فى قضيه الشهود-بالذات-نستفيد من آيات القرآن الكريم أنّ هناك سته أنواع من الشهود فى تلك المحكمه:

۱-أنّ أول الشهود و أعلاهم شأنا هو الذات الإلهيه الطاهره: وَ مٰا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَ مٰا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَ لاٰ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاّٰ كُنّٰا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ (۱) .

إنّ شهاده اللّه تكفى لكل شيء،إلاّ أنّ مقتضى اللطف الإلهى و العداله الربوبيه تستوجب أن يضع تعالى شهودا آخرين.

۲-الأنبياء و الأوصياء:يقول القرآن الكريم: فَكَيْفَ إِذٰا جِئْنٰا مِنْ كُلِّ أُمَّهٍ بِشَهِيدٍ وَ جِئْنٰا بِكَ عَلىٰ هٰؤُلاٰءِ شَهِيداً (۲) .

و نقرأ

فى حديث ورد فى(الكافى)عن الإمام الصادق عليه السّلام حول نزول هذه الآيه و هو قوله عليه السّلام: «نزلت فى أمّه محمّد خاصه،فى كلّ قرن منهم إمام منّا،شاهد

۱- ۱) -يونس،الآيه ۶۱.

۲- ۲) -النساء،الآيه ۴۱.

علیهم و محمّد شاهد علینا» (۱) .

۳-شهاده اللسان و الید و الرجل و العین و الاذن:کما فی قوله تعالی: یَوْمَ تَشْهَدُ عَلَیْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَ أَیْدِیهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ بِمٰا کٰانُوا یَعْمَلُونَ (۲) .

و من الآیه التی نحن بصددها نستفید أنّ العین و الأذن هما من قائمه الشهود أیضا،و نستفید کذلک من بعض الرّوایات أنّ کلّ أعضاء الجسم ستقوم بدورها بالشهاده علی الأعمال التی قامت بها (۳) .

۴-شهاده الجلود:لقد تحدثت الآیات التی نحن بصددها عن هذا الموضوع بصراحه،بل و أضافت أنّ المذنبین لم یکونوا یتوقعون أن تشهد علیهم جلودهم، فخاطبوها بالقول: لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَیْنٰا ؟ فیأتی الجواب من جلودهم: أَنْطَقَنَا اللّٰهُ الَّذِی أَنْطَقَ کُلَّ شَیْءٍ وَ هُوَ خَلَقَکُمْ أَوَّلَ مَرَّهٍ وَ إِلَیْهِ تُرْجَعُونَ (۴) .

۵-الملائکه:یقول تعالی: وَ جٰاءَتْ کُلُّ نَفْسٍ مَعَهٰا سٰائِقٌ وَ شَهِیدٌ (۵) .و مفهوم الآیه الکریمه أنّ کلّ إنسان یحشر إلی القیامه،یکون معه ملک یسوقه نحو الحساب و تشهد الملائکه علیه.

۶-الأرض:إنّ الأرض التی تحت أقدامنا،و تؤمن لنا مختلف البرکات و النعم،تقوم أیضا بمراقبتنا بدقّه،و تحدّث فی ذلک الیوم ما کان منّا علیها،یقول تعالی: یَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبٰارَهٰا (۶) .

۷-شهاده الزمان:بالرغم من عدم إشاره نصوص الآیات القرآنیه إلی هذه الشهاده،و لکن نستفید هذه الشهاده من أحادیث الأئمه المعصومین علیهم السّلام،

فعن أمیر

ص :۳۸۷

۱- ۱) -أصول الکافی،المجلد الأول،صفحه ۱۹۰

۲- ۲) -النور،الآیه ۲۴.

۳- ۳) -لئالی الأخبار،صفحه ۴۶۲.

۴- ۴) -فصلت،الآیه ۲۱.

۵- ۵) -سوره ق،الآیه ۲۱.

۶- ۶) -الزلزال،الآیه ۴.

المؤمنين علی بن أبی طالب قوله علیه السّلام: «ما من یوم یمرّ علی ابن آدم إلاّ قال له ذلک الیوم:یا ابن آدم!أنا یوم جدید،و أنا علیک شهید،فقل فیّ خیرا و اعمل فیّ خیرا،أشهد لک یوم القیامه» (۱) .

ما أعجب هذه الشهود التی تشهد علینا فی تلک المحکمه! إنّه خلیط عجیب من الملائکه و أعضاء الجسم و الأنبیاء و الأوصیاء،و الأعظم من ذلک هی شهاده اللّه تبارک و تعالی علینا الذی یسمع و یری و یحیط علمه بکل شیء،فیراقب أعمالنا و یشهد علینا...لکنّا لا نبالی!!؟ ألا یکفی الإیمان بوجود مثل هؤلاء الشهود أن یسیر الإنسان فی طریق الحق و العداله و التقوی و النزاهه!؟

۱- ۱) -سفینه البحار،المجلد الثّانی،ماده یوم.

الآيتان [سوره فصلت (۴۱): الآيات ۲۴ الی ۲۵]

اشاره

فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنّٰارُ مَثْوىً لَهُمْ وَ إِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمٰا هُمْ مِنَ اَلْمُعْتَبِينَ (۲۴) وَ قَيَّضْنٰا لَهُمْ قُرَنٰاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مٰا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مٰا خَلْفَهُمْ وَ حَقَّ عَلَيْهِمُ اَلْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ اَلْجِنِّ وَ اَلْإِنْسِ إِنَّهُمْ كٰانُوا خٰاسِرِينَ (۲۵)

التّفسیر

اشاره

قرناء السوء:

فی أعقاب البحث السابق الذی تحدثت فی الآیات الکریمه عن مصیر «أعداء اللّه»جاءت الآیتان أعلاه لتشیران إلی نوعین من العقاب الألیم الذی ینتظر هؤلاء فی الدنیا و الآخره.

یقول تعالی: فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنّٰارُ مَثْوىً لَهُمْ (۱) و لا یمکنهم الخلاص منها لأنّها مصیرهم سواء صبروا أو لم یصبروا.

«مثوی»من«ثوی»علی وزن«هوی»و تعنی المقر و محل الاستقرار.

و الآیه الکریمه هذه تشبه الآیه(۱۶)من سوره«الطور»حیث قوله تعالی:

۱- ۱) -یکون التقدیر هکذا:«فإن یصبروا أو لا یصبروا فالنار مثوی لهم».

اِصْلَوْهٰا فَاصْبِرُوا أَوْ لاٰ تَصْبِرُوا سَوٰاءٌ عَلَيْكُمْ .

و كذلك تشبه الآيه(۲۱)من سوره«إبراهيم»حيث قوله تعالى: سَوٰاءٌ عَلَيْنٰا أَ جَزِعْنٰا أَمْ صَبَرْنٰا مٰا لَنٰا مِنْ مَحِيصٍ .

و للتأكيد على هذا الأمر تضيف الآيه: وَ إِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمٰا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ .

«يستعتبون»مأخوذه فى الأصل من(العتاب)و تعنى إظهار الخشونه،و مفهوم ذلك أنّ الشخص المذنب سيستسلم للوم صاحب الحق كى يعفو عنه و يرضى عنه، لذلك فإنّ كلمه(استعتاب)تعنى الاسترضاء و طلب العفو (۱) .

ثم تشير الآيه الثانيه إلى العذاب الدنيوى لهؤلاء فتقول: وَ قَيَّضْنٰا لَهُمْ قُرَنٰاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مٰا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مٰا خَلْفَهُمْ حيث قام هؤلاء الجلساء بتصوير المساوئ لهم حسنات.

«قيضنا»من(قيض)على وزن(فيض)و تعنى فى الأصل قشره البيضه الخارجيه،ثمّ قيلت لوصف الأشخاص الذين يسيطرون على الإنسان بشكل كامل،كسيطره القشره على البيضه.

و هذه إشاره إلى أنّ أصدقاء السوء و الرفاق الفاسدين يحيطون بهم من كل مكان،حيث يصادرون أفكارهم،و يهيمنون عليهم بحيث يفقدون معه قابليه الإدراك و الإحساس المستقل،و عندها ستكون الأمور القبيحه السيئه جميله حسنه فى نظرهم،و بذلك ينتهى الإنسان إلى الوقوع فى مستنقع الفساد و تغلق بوجهه أبواب النجاه.

فى بعض الأحيان تستخدم كلمه«قيضنا»لتبديل شىء مكان شىء آخر، و وفقا لهذا المعنى سيكون مقصود الآيه،هو أنّنا سنأخذ منهم الأصدقاء الصالحين و نسلب منهم رفاق الخير،لنبدلهم بأصدقاء السوء و القرناء الفاسدين.

لقد ورد فهذا المعنى بشكل أوضح فى الآيتين(۳۶-۳۷)من سوره«الزخرف»

۱- ۱) -يلاحظ«مفردات الراغب»و«لسان العرب»فى ماده«عتب».

فی قوله تعالی: وَ مَنْ یَعْشُ عَنْ ذِکْرِ الرَّحْمٰنِ نُقَیِّضْ لَهُ شَیْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِینٌ وَ إِنَّهُمْ لَیَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِیلِ وَ یَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ .

إنّ التمعّن بالمجتمعات الفاسده و الفئات المنحرفه الضاله ینتهی بنا-بسهوله- إلی اکتشاف آثار أقدام الشیاطین فی حیاتهم،إذ یحاصرهم رفاق السوء و قرناء الشر من کلّ جانب و صوب،و یسیطرون علی أفکارهم و یقلبون لهم الحقائق.

قوله تعالی: مٰا بَیْنَ أَیْدِیهِمْ وَ مٰا خَلْفَهُمْ لعله إشاره لإحاطه الشیاطین من کل جانب و تزیین الأمور لهم.

و قیل أیضا فی تفسیرها أنّ مٰا بَیْنَ أَیْدِیهِمْ إشاره إلی لذات الدنیا و زخارفها، وَ مٰا خَلْفَهُمْ هو إنکار القیامه و البعث.

و قد یکون مٰا بَیْنَ أَیْدِیهِمْ إشاره إلی وضعهم الدنیوی وَ مٰا خَلْفَهُمْ إلی المستقبل الذی سینتظرهم و أبناءهم،إذ عاده ما یرتکب هذه الجرائم تحت شعار تأمین المستقبل.

و بسبب هذا الوضع تضیف الآیه بأن الأمر الالهی صدر بعذابهم و ان مصیرهم هو مصیر الأمم السالفه: وَ حَقَّ عَلَیْهِمُ الْقَوْلُ فِی أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ (۱) .

ثم تنتهی الآیه بقوله تعالی: إِنَّهُمْ کٰانُوا خٰاسِرِینَ .

إنّ هذه الآیات تعتبر-فی الواقع-الصوره المقابله و الوجه الآخر،و سوف تتحدث الآیات القادمه عن المؤمنین الصالحین المنصورین فی الدنیا و الآخره بالملائکه التی تبشرهم بکل خیر،و تکشف عنهم الغم و الحزن.

۱- ۱) -«فی أمم»متعلقه بفعل محذوف،و فی التقدیر تکون الجمله:«کائنین فی أمم قد خلت».و من المحتمل أن تکون«فی» هنا بمعنی«مع».

الآيات [سوره فصلت (۴۱): الآيات ۲۶ الی ۲۹]

اشاره

وَ قٰالَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا لاٰ تَسْمَعُوا لِهٰذَا اَلْقُرْآنِ وَ اِلْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (۲۶) فَلَنُذِيقَنَّ اَلَّذِينَ كَفَرُوا عَذٰاباً شَدِيداً وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ اَلَّذِي كٰانُوا يَعْمَلُونَ (۲۷) ذٰلِكَ جَزٰاءُ أَعْدٰاءِ اَللّٰهِ اَلنّٰارُ لَهُمْ فِيهٰا دٰارُ اَلْخُلْدِ جَزٰاءً بِمٰا كٰانُوا بِآيٰاتِنٰا يَجْحَدُونَ (۲۸) وَ قٰالَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنٰا أَرِنَا اَلَّذَيْنِ أَضَلاّٰنٰا مِنَ اَلْجِنِّ وَ اَلْإِنْسِ نَجْعَلْهُمٰا تَحْتَ أَقْدٰامِنٰا لِيَكُونٰا مِنَ اَلْأَسْفَلِينَ (۲۹)

التّفسير

اشاره

الضجيج فی مقابل صوت القرآن!!

بعد أن تحدثت الآيات السابقه عن الأقوام الماضين كقوم عاد و ثمود، و تحدثت عن جلساء السوء و قرناء الشر،تتحدث المجموعه التی بین أیدینا من الآیات البینات عن جانب من جوانب الانحراف لمشرکی عصر رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم لقد ورد فی بعض الرّوایات أنّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم ما أن یرفع صوته فی مکّه لیتلو القرآن بصوته الجمیل و أسلوبه الخاشع،حتی کان المشرکون یقومون بإبعاد الناس

عنه و يقولون:أطلقوا الصـفير و ارفعوا أصواتكم بالشعر حتى لا تسمعوا كلامه (۱) ! القرآن الكريم يشير إلى هذا المعنى فى هذه الآيات،حيث يقول: وَ قٰالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاٰ تَسْمَعُوا لِهٰذَا الْقُرْآنِ وَ الْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ .

هذا الأسـلوب فى مواجهه تأثير الحق و نفوذه بالرغم من كونه أسـلوبا قديما، إلاّ أنّه يسـتخدم اليوم بشـكل أوسع و أخطر لصرف أفكار الناس و خنق أصوات المنادين بالحق و العـداله،فهؤلاء يقومون بملء المجتمع بالضوضاء حتى لا يسـمع صوت الحق.و مع الالتفات الى أن معنى كلمه«و الغوا»المشتقه من«لغو»لها معنى واسع يشمل أى كلام فارغ،ندرك جيدا سعه هذا المنهج المتبع.

فتاره يتمّ اللغو بواسطه الضجه و الضوضاء و الصفير.

و اخرى بواسطه القصص الكاذبه و الخرافيه.

و ثالثه بواسـطه قصص الحب و العشق المثيره للشهوات! و قد يتجاوز مكرهم مرحله القول فيقومون بتأسيس مراكز خاصه بالفساد و أنواع الأفلام المبتذله و المطبوعات المنحرفه الرخيصه،،و الألاعيب السياسـيه الكاذبه و المثيره،إنّهم يعمدون إلى الاسـتعانه بأى أسلوب يؤدى إلى حرف أفكار الناس و اهتماماتهم عن الحق.

و الانـكى من ذلـك طرح بعض البحوث و القضايـا الفـارغه التافهه فى الاوساط العلميه لتثار حولها ضـجه تهيمن على اهتمامات الناس و وعيهم،و تصدّهم عن التفكير بالقضايا الأساسيه و الأمور المهمّه.

لكن..هـل اسـتطاع المشـركون التغلّب على القرآن الكريم بأعمـالهم هـذه؟!لقـد عمّهم الفنـاء و ذهبت أسـاليبهم الشـريره ادراج الرياح،و امتد القرآن و اتسع فى تأثيره حتى استوعب أرجاء الدنيا.

الآيه الأخرى تشير إلى عذاب هؤلاء فتقول: فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذٰاباً شَدِيداً

۱- ۱) -تفسير المراغى،المجلد ۲۴،صفحه ۱۲۵،و تفسير روح المعانى،المجلد ۲۴،أيضا،صفحه ۱۰۶.

خاصه أولئک الذین یمنعون الناس من سماع آیات اللّه.

و هـذا العـذاب یمکن أن یشـملهم فی الـدنیا بأن یقتلوا علی أیـدی أصـحاب رسول اللّه صـلّی اللّه علیه و اله و سـلّم أو یقعوا فی أسرهم،و قد یکون فی الآخره،أو یکون العذاب فی الدنیا و الآخره معا.

قوله تعالی: وَ لَنَجْزِیَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِی کٰانُوا یَعْمَلُونَ .

فهـل لهؤلاء عمل أسوأ من الکفر و الشـرک و إنکار آیات اللّه و منع الناس و صـدّهم عن سـماع کلام الحق؟ لکن لماذا أشارت الآـیه إلی«أسوأ»بـالرغم من أنّهم یرون جزاء کـلّ أعمالهم؟ قـد یکون هـذا التعبیر للتأکیـد علی موضوع الجزاء و التهدیـد به بیان حدیثه، و فیه إشاره لمنعهم الناس عن سماع کلام النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم.

کمـا أنّ قوله تعـالی: کٰانُوا یَعْمَلُونَ دلیـل علی أنّه سـیتمّ التأکیـد علی الأعمـال التی کـانوا یقومون بها دائما،و بعباره اخری:إنّ ما یعملونه لم یکن أمرا مؤقتا بل کانت سنتهم و سیرتهم الدائمه.

و للتأکید علی قضیه العذاب،یأتی قوله تعالی: ذٰلِکَ جَزٰاءُ أَعْدٰاءِ اللّٰهِ النّٰارُ (۱) .

و هذه النّار لیست مؤقته زائله بل: لَهُمْ فِیهٰا دٰارُ الْخُلْدِ نعم،فذلک: جَزٰاءً بِمٰا کٰانُوا بِآیٰاتِنٰا یَجْحَدُونَ (۲) .

إنهم لم ینکروا الآیات الإلهیه و حسب،بل منعوا الآخرین من سماعها.

«یجحـدون»من«جحـد»علی وزن«عهـد»و تعنی فی الأصل کما یری «الراغب»فی«المفردات»:إلغاء و نفی شـیء ثابت فی القلب،أو إثبات شیء منفی فی القلب.أو هو بعباره اخری:إنکار الحقائق مع العلم بها،و هذا من أسوأ أنواع

۱- ۱) -«النّار»یمکن أن تکون«عطف بیان»أو«بدل»ل«جزاء»أو أن تکون(خیرا لمبتدأ محذوف)و التقدیر هو النّار».

۲- ۲) -«جزاء»یمکن أن تکون مفعولا لفعل محذوف تقدیره«یجزون جزاء»أو أن تکون مفعولا لأجله.

الکفر(راجع نهایه الآیه(۱۴)من سوره النمل).

إنّ الإنسان عند ما یصاب ببلاء معین،خاصه إذا کان بلاء شدیدا،فإنّه یفکر بمسببه الأصلی کی یعثر علیه و ینتقم منه،و أحیانا یود تقطیعه قطعه قطعه إذا استطاع ذلک.

لذلک تشیر الآیه التالیه إلی هذا المعنی الذی سیشمل الکفار و هم فی الجحیم فیقول: وَ قٰالَ الَّذِینَ کَفَرُوا رَبَّنٰا أَرِنَا الَّذَیْنِ أَضَلاّٰنٰا مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ نَجْعَلْهُمٰا تَحْتَ أَقْدٰامِنٰا لِیَکُونٰا مِنَ الْأَسْفَلِینَ .

إنّ أولئک کانوا ینهونا عن سماع قول النّبی و کانوا یقولون:إنّه ساحر مجنون، ثم کانوا یکثرون من اللغو حتی لا نسمع صوته و کلامه،و بدلا عن ذلک کانوا یشغلوننا بأساطیرهم و أکاذیبهم.

أمّا الآن و قد فهمنا أن کلامه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم هو روح الحیاه الخالده،و أنّ نغمات صوته حیاه النفوس المیته، و لکن«و لات ساعه ندم».

لا ریب أنّ المقصود من الجن و الإنس-فی الآیه هم الشیاطین،و الناس الذین یقومون بالغوایه مثل الشیاطین،و لیس هما شخصان معینان.

و لا مانع من تثنیه الفعل عند ما یکون الفاعل مجموعتان،کما فی قوله تعالی:

فَبِأَیِّ آلاٰءِ رَبِّکُمٰا تُکَذِّبٰانِ .

قال بعض المفسّرین فی تفسیر قوله تعالی: لِیَکُونٰا مِنَ الْأَسْفَلِینَ :المقصود أنّ المضلین من الجن و الإنس سیکونون فی أسفل درک من الجحیم،و لکن الأظهر منه أنّ شده غضبهم یدفعهم إلی وضع من أغواهم تحت أقدامهم لیرکلونهم و یکونوا فی أدنی مقام فی مقابل ما کان لهم من مقام و مکانه علیا فی الحیاه الدنیا.

الآیات [سوره فصلت (۴۱): الآیات ۳۰ الی ۳۲]

اشاره

إِنَّ اَلَّذِینَ قٰالُوا رَبُّنَا اَللّٰهُ ثُمَّ اِسْتَقٰامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَیْهِمُ اَلْمَلاٰئِکَهُ أَلاّٰ تَخٰافُوا وَ لاٰ تَحْزَنُوا وَ أَبْشِرُوا بِالْجَنَّهِ اَلَّتِی کُنْتُمْ تُوعَدُونَ (۳۰) نَحْنُ أَوْلِیٰاؤُکُمْ فِی اَلْحَیٰاهِ اَلدُّنْیٰا وَ فِی اَلْآخِرَهِ وَ لَکُمْ فِیهٰا مٰا تَشْتَهِی أَنْفُسُکُمْ وَ لَکُمْ فِیهٰا مٰا تَدَّعُونَ (۳۱) نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِیمٍ (۳۲)

التّفسیر

اشاره

نزول الملائکه علی المؤمنین الصامدین:

یعتمد القرآن الکریم فی أسلوبه وضع صور متقابله و متعارضه للحالات التی یتناولها کی یوضحها بشکل جید من خلال المقایسه و المقارنه فبعد أن تحدث عن المنکرین المعاندین الذین یصدون عن آیات اللّه،و أبان جزاءهم و عقوبتهم،بدأ الآن(فی الصوره المقابله)فی الحدیث عن المؤمنین الراسخین فی إیمانهم،و أشار إلی سبعه أنواع من الثواب الذی یشملهم جزاء و مثوبه لهم.

یقول تعالی: إِنَّ الَّذِینَ قٰالُوا رَبُّنَا اللّٰهُ ثُمَّ اسْتَقٰامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَیْهِمُ الْمَلاٰئِکَهُ أَلاّٰ تَخٰافُوا وَ لاٰ تَحْزَنُوا .

إنّه تعبير جميل و شامل يتضمّن كلّ الخير و الصفات الحميده،فأولا يوجّه القلب إلى اللّه و يوثق الإيمان به تعالى و يقويه،ثمّ سيطره هذا الإيمان و هيمنته على كلّ مرافق الحياه،و ثبات السير فى هذا الطريق،طريق الاستقامه (1) .

هناك الكثير من الذين يدّعون محبه اللّه،إلاّ أنّنا لا نرى الاستقامه واضحه فى عملهم و سلوكهم،فهم ضعفاء و عاجزون بحيث عند ما يشملهم طوفان الشهوه يودّعون الإيمان و يشركون فى عملهم،و عند ما تكون منافعهم فى خطر يتنازلون عن إيمانهم الضعيف ذلك.

ففى حديث عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم أنّه بعد أن تلا الآيه قال:«قد قالها الناس ثمّ كفر أكثرهم فمن قالها حتى يموت فهو ممن استقام عليها» (2) .

و

فى نهج البلاغه يفسّر الإمام على عليه السّلام هذه الآيه بعبارات حيّه و ناطقه عميقه المعنى يقول عليه السّلام: «و قد قلتم«ربنا اللّه»فاستقيموا على كتابه،و على منهاج أمره، و على الطريقه الصالحه من عبادته،ثمّ لا تمرقوا منها،و لا تبتدعوا فيها،و لا تخالفوا عنها» (3) .

و فى مكان آخر نرى أنّ الإمام على بن موسى الرضا عليه السّلام أجاب فى تفسير معنى الاستقامه

بقوله: «هى و اللّه ما أنتم عليه» (4) .

و هذا لا يعنى أنّ الاستقامه تختص بالولايه فقط،بل إنّ قبول قياده أئمّه أهل البيت عليهم السّلام سيضمّن بقاء خط التوحيد،و الطريق الإسلامى الأصيل،و استمرار العمل الصالح،و هذا هو تفسيره عليه السّلام لمعنى الاستقامه.

و خلاصه القول أن قيمه الإنسان هى بالإيمان و العمل الصالح،و هذه القيمه

1- 1) -«استقاموا»من«الاستقامه»و تعنى الثبات على الطريق المستقيم الخط الصحيح.و فسرها بعض علماء اللغه بمعنى «الاعتدال»و لا يستبعد الجمع بين المعنيين.

2- 2) -مجمع البيان فى نهايه الحديث عن الآيه.

3- 3) -نهج البلاغه،الخطبه رقم 176.

4- 4) -مجمع البيان فى نهايه الحديث عن الآيه.

يتحدث عنها اللّه تبارك و تعالى بقوله: قَالُوا رَبُّنَا اللّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا .

لذلك

فقد روى أنّ رجلا جاء إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم فقال له:أخبرنى بأمر أعتصم به؟فقال رسول اللّه:«قل ربّى اللّه ثمّ استقم».

ثم سأل الرجل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم عن أخطر شىء ينبغى عليه أن يخشاه.فمسك رسول اللّه لسانه و قال:هذا .(۱)

و الآن لنر ما هى المواهب الإلهيه التى سيشمل من يتمسك بهذين الأصلين؟ القرآن الكريم يشير إلى سبع مواهب عظيمه تبشرهم ملائكه اللّه بها عند ما تهبط عليهم.ففى ظل الإيمان و الاستقامه يصل الإنسان إلى مرحله بحيث تنزل عليه الملائكه و تعلمه.

فبعد البشارتين الأولى و الثانيه و المتمثلتين بعدم(الخوف)و(الحزن)تصف الآيه المرحله الثّالثه بقوله تعالى: وَ أَبْشِرُوا بِالْجَنَّهِ الَّتِى كُنْتُمْ تُوعَدُونَ .

و البشاره الرّابعه يتضمّنها قوله تعالى: نَحْنُ أَوْلِيٰاؤُكُمْ فِى الْحَيٰاهِ الدُّنْيٰا وَ فِى الْآخِرَهِ فلن نترككم وحيدين،بل نعينكم فى الخير و تعصمكم عن الانحراف حتى تدخلوا الجنّه.

و البشاره الخامسه قوله تعالى: وَ لَكُمْ فِيهٰا مٰا تَشْتَهِى أَنْفُسُكُمْ أى فى الجنّه.

أمّا البشاره السادسه فلا تختص بالنعم الماديه و ما تريدونه.بل الاستجابه إلى العطايا و المواهب المعنويه: وَ لَكُمْ فِيهٰا مٰا تَدَّعُونَ .

أمّا البشاره السابعه و الأخيره فهى أنّكم ستحلون ضيوفا لدى البارئ عزّ و جلّ و فى جنته الخالده،و ستقدم لكم كلّ النعم تماما مثلما يتمّ الترحيب بالضيف العزيز من قبل المضيف: نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ .

۱- ۱) -روح البيان،المجلد الثامن،صفحه ۲۵۴.

ملاحظات

فی طیات هـذه الآیات المبینه،و التعابیر القرآنیه القصـیره البلیغه ذات المعانی الکبیره،ثمّه ملاحظات دقیقه و لطیفه نقف علیها من خلال النقاط الآتیه:

۱-هـل نزول الملاـئکه علی المؤمنین المسـتقیمین یتمّ أثنـاء الموت و الانتقال من هـذا العالم إلی العالم الآخر،کما یحتمل ذلک بعض المفسّـرین،أم أن نزولهم یکون فی ثلاـثه مواطن،عنـد(الموت)و عنـد(دخول القبر)و عنـد(الإحیاء و البعث و النشور)،أو إنّ هـذه البشـائر تکون دائمه و مسـتمره،و تتمّ بواسـطه الإلهام المعنوی، حیث تسـتقر الحقائق فی أعماق المؤمنین بالرغم من أنّها فی لحظه الموت و لحظه الحشـر تکون بشـائر الملائکه أجلی و أوضـح؟ یبـدو أن المعنی الأخیر أنسب،و ذلک لعـدم وجود قیـد أو شرط فی الآیه.

و یؤیـد ذلک أنّ الملائکه تقول فی البشاره الرّابعه: نَحْنُ أَوْلِیاؤُکُمْ فِی الْحَیاهِ الدُّنْیا وَ فِی الْآخِرَهِ و هذا دلیل علی أنّ المؤمنین من ذوی الاسـتقامه یسـمعون هـذا الکلاـم من الملاـئکه فی الـدنیا عنـد مـا یکونون أحیـاء،إلّا أنّ ذلک لا یکون باللسان و اللفظ،بل یسمعون ذلک بأذان قلوبهم بما یشعرون به من هدوء و استقرار و سکینه و إحساس کبیر بالراحه عند المشاکل و الصعاب.

صحیـح أنّ بعض الروایـات قیـدت نزول الملاـئکه و حضورهم عنـد الموت،إلاّـ أن ثمّه روایات اخری إشارات إلی معنی أوسع یشمل الحیاه أیضا (۱) .

و یمکن أن نسـتنتج من مجمـوع الروایـات أنّ ذکر خصـوص الموت هو بعنوان المصـداق لهـذا المفهوم الواسع،و نعرف هنـا أنّ التفاسیر الوارده فی الروایات غالبا ما توضح المصادیق.

إنّ بشائر الملائکه سـتشع فی أرواح المؤمنین و أعماق ذوی الاسـتقامه حتی تهبهم القوّه و القـدره علی مواجهه أعاصـیر الحیاه و مشقاتها،و تثبّت أقدامهم من

۱- ۱) -یمکن ملاحظه ذلک فی نور الثقلین،المجلد الرابع،الصفحات ۵۴۶ و ۵۴۷ الروایات رقم:۳۸-۴۰-۴۵-۴۶.

السقوط و الانحراف.

۲-قال بعض المفسّرين فی التفریق بین الخوف و الحزن،أنّ(الخوف) یختص بالحوادث التی تثیر القلق لدی الإنسان لکنّها تقع فی المستقبل،فیبقی الإنسان قلقا حذرا إزاءها و منتظر وقوعها.أمّا(الحزن)فهو ممّا یختص بالحوادث المؤسفه التی وقعت فی الماضی.

و علی أساس هذا المعنی یأتی خطاب الملائکه:أن لا تقلقوا من الصعوبات التی تنتظرکم،سواء فی هذه الدنیا أو عند الموت أو فی مراحل البعث،و لا تحزنوا علی ذنوبکم الماضیه أو الأبناء الذین سیبقون بعدکم.

و تقدیم(الخوف)علی(الحزن)قد یکون بسبب أنّ المؤمن أکثر ما یکون قلقا إزاء حوادث المستقبل،خاصه ما یتعلق منها بالحشر و الجزاء و الیوم الآخر.

و قال البعض أیضا:إنّ(الخوف)من العذاب،بینما(الحزن)علی ما فات من الثواب،و الملائکه تقوم بزرع الأمل عندهم فی الحالتین بواسطه الألطاف الإلهیه و المواهب و العطایا الربانیه.

۳-قوله تعالی: کُنْتُمْ تُوعَدُونَ هو تعبیر جامع تتداعی فیه کلّ صفات الجنّه فی ذهن المؤمنین ذوی الاستقامه،بمعنی أنّ الجنّه کلّها و بکل ما سمعتم عنها و عن نعیمها مسخّره لکم،و من حورها و قصورها إلی مواهبها الکثیره و عطایاها المعنویه التی لا یدرکها الإنسان،و لم تخطر ببال أحد: فَلاٰ تَعْلَمُ نَفْسٌ مٰا أُخْفِیَ لَهُمْ مِنْ قُرَّهِ أَعْیُنٍ (۱) .

۴-فی البشاره الرّابعه تعرّف الملائکه نفسها بأنّها تلتزم جانب المؤمنین فی الدنیا و الآخره،تقوم بنصرهم و إنزال السکینه علیهم،و هی صوره تقابل الآیات السابقه من هذه السوره المبارکه عند ما وصفت أعداء اللّه من الکفار من المعاندین و المکذبین،و کیف أنّهم یتأوهون من عذاب النّار و یمتلئون غیظا و غضبا علی من

۱- ۱) -الم سجده،الآیه ۱۷.

أضلّهم فی الحیاه الدنیا،و یریدون الانتقام منهم.

۵-الفرق بین البشاره الخامسه و السادسه،أنّ فی الخامسه یقال لهم:إنّ ما ترغبونه و تریدونه موجود هناک،فإنّ مجرّد رغبتکم فی شیء ما یتزامن مع مثوله أمامکم.

و لکن قوله تعالی فی تَشْتَهِی أَنْفُسُکُمْ :یستخدم للإشاره إلی الرغبات و اللذات المادیه،و إنّ قوله تعالی فی مٰا تَدَّعُونَ :یشیر إلی ما تریدونه من المواهب المعنویه و العطایا و الملذات الروحانیه.

و خلاصه الکلام:أنّ کلّ شیء موجود هناک،سواء کان مادیا أم معنویا.

۶-«نزل»تعنی کما أشرنا سابقا،ما یقدمه المضیف إلی ضیفه،بینما فسّرها البعض بأوّل ما یقدّم إلی الضیف.و التعبیر فی کلّ الأحوال یکشف عن أن جمیع المؤمنین ذوی الاستقامه هم ضیوف اللّه و نزل رحمته و جنته و مائدته.

۷-إنّ التدقیق فی هذا البشائر و وعود الحق من قبل البارئ جلّ و علا، و التی تعطی للمؤمنین بواسطه ملائکه اللّه الکرام،سوف تحرک فی وجود الإنسان الدوافع نحو الإیمان و الاستقامه،تجعل الروح البشریه تتعشق السیر فی هذا الطریق.

و فی ظل هذه الأجواء المضیئه بالطاعه و البشری،استطاع الإسلام العزیز أن یصنع من عرب الجاهلیه مجموعه نموذجیه لا تتوانی عن الإیثار و التضحیه بالغالی و العزیز فی سبیل منعه الإسلام و المسلمین و انتصارهم علی کلّ المشاکل و العقبات.

و ینبغی أن ننتبه هنا إلی أنّ«الاستقامه»مثلها مثل«العمل الصالح»هی ثمره لشجره الإیمان،إذ الإیمان یدعو الإنسان إلی الاستقامه متی ما نفذ إلی عمق الإنسان،و تأسست قواعد وجوده النفسی علی التقوی،مثلما تعمق الاستقامه فی طریق الحق و الإیمان.

و هكذا يكون لهذين العاملين أثران متبادلان متقابلان.

و الـذى نسـتفيده،من الآيات القرآنيه الأخرى،أنّ الإيمان و الاسـتقامه لا يجلبان البركات المعنويه و الروحيه و حسب،و إنّما يرفل الإنسان من خلالهما بالبركات الماديه التى تسود عالمنا هذا،إذ نقرأ فى الآيه(۱۶)من سوره الجن قول الله تعالى: وَ أَنْ لَوِ اسْتَقامُوا عَلَى الطَّرِيقَهِ لَأَسْقَيْناهُمْ ماءً غَدَقاً و ستشملهم فيما يشملهم سنوات ملأى بالخير و العطاء و البركه.

الآيات [سوره فصلت (۴۱): الآيات ۳۳ الی ۳۶]

اشاره

وَ مَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعٰا إِلَى اَللّٰهِ وَ عَمِلَ صٰالِحاً وَ قٰالَ إِنَّنِي مِنَ اَلْمُسْلِمِينَ (۳۳) وَ لاٰ تَسْتَوِي اَلْحَسَنَةُ وَ لاَ اَلسَّيِّئَةُ اِدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا اَلَّذِي بَيْنَكَ وَ بَيْنَهُ عَدٰاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (۳۴) وَ مٰا يُلَقّٰاهٰا إِلاَّ اَلَّذِينَ صَبَرُوا وَ مٰا يُلَقّٰاهٰا إِلاّٰ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (۳۵) وَ إِمّٰا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ اَلشَّيْطٰانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللّٰهِ إِنَّهُ هُوَ اَلسَّمِيعُ اَلْعَلِيمُ (۳۶)

التّفسير

اشاره

ادفع السيئه بالحسنه:

ما زالت هذه المجموعه من الآيات الكريمه تتحدث عن الصوره الأخرى، عن المؤمنين الذين يتبعون أحسن القول.

يقول تعالى: وَ مَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعٰا إِلَى اللّٰهِ وَ عَمِلَ صٰالِحاً وَ قٰالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ .

و بالرغم من أنّ الآيه استفهاميه،إلّا أنّ الاستفهام هنا إنكاری،بمعنى أنّه ليس هناك أفضل من كلام الشخص الذی يدعو إلى اللّه و ينادی بالتوحيد،ثمّ يؤكّد

ص :۴۰۳

دعوته اللفظيه هذه و يقرنها بالفعل و العمل الصالح.

إنّ اعتقاد هؤلاء بالإسلام و تسليمهم للبارى جلّ و علا،يدعم عملهم الصالح.

إنّ الآيه الكريمه هذه ترسم ثلاث صفات لذى القول الحسن هى:الدعوه إلى اللّه،و العمل الصالح،و التسليم،حيال الحق.

إنّ أمثال هؤلاء فضلا عن تمسكهم بالأركان الإيمانيه الثلاثه(الإقرار باللسان،و العمل بالأركان،و الإيمان بالقلب)فإنّهم تمسكوا بركن رابع هو التبليغ و الدعوه و نشر دين الحق،و إقامه الدليل على أصول الدين،و دفع آثار الشرك و التردد من قلوب عباد اللّه.

إنّ هؤلاء المنادين،بصفاتهم الأربع،يعتبرون أفضل المنادين و الدعاه فى العالم.

و برغم ما ذهب إليه بعض المفسّرين من قولهم بانطباق الصفات السابقه على شخص رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم أو هو و الأئمّه الذين يدعون إلى الحق،أو المؤذنين خاصه.لكن من الواضح أنّ للآيه مفهوما أوسع بحيث يشمل كلّ المنادين بالتوحيد ممّن تشملهم الصفات المذكوره.بالرغم من أن أفضل مصداق لذلك هو الرسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم[خاصه فى فتره نزول الآيه]

ثمّ يأتى بعد ذلك الأئمّه من أهل البيت عليهم السّلام،و بعدهم جميع العلماء و المجاهدين فى طريق الحق،و الآمرين بالمعروف و الناهين عن المنكر،و الداعين للإسلام من أى طائفه كانوا.

إنّ هذه الآيه فخر عظيم و عزّ كبير لكل أولئك،كى تتقوى عزائمهم و يربط على قلوبهم.

و إذا قيل بأن الآيه مدح لبلال الحبشى المؤذن الخاص لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم فذلك بسبب أنّه أطلق نداء التوحيد فى فتره من أحلك الفترات و أوحشها فى تأريخ الدعوه الإسلاميه،و عرّض روحه للخطر.

ثم كمّل هذه الأوصاف بإيمانه الراسخ،و استقامته التى لا نظير لها،و أعماله

الصالحه،و الاستمرار على نهج الإسلام الصحيح.

أمّا قوله تعالى: وَ قٰالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ فللمفسّرين فيه قولان:

الأوّل:أنّ(قال)هنا من(قول)و تعنى الاعتقاد،و يكون المعنى:الذى عنده الاعتقاد الراسخ بالإسلام.

الثّانى:أنّ(قول)بمعنى الحديث و التحدّث،و حين ذلك يكون المعنى:الذى يفتخر و يتباهى بالدين الإلهى،و ينادى بصوت مرتفع إننى من المسلمين.

المعنى الأوّل يبدو أكثر قبولا بالرغم من أنّ مفهوم الآيه يتحمل المعنيين.

بعد بيان الدعوه إلى اللّه و أوصاف الدعاه إلى اللّه،شرحت الآيات أسلوب الدعوه و طريقتها،فقال تعالى: وَ لاٰ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَ لاَ السَّيِّئَةُ (١) .

فى الوقت الذى لا يملك فيه أعداؤكم سوى سلاح الافتراء و الاستهزاء و السخريه و الكلام البذىء و أنواع الضغوط و الظلم،و يجب أن يكون سلاحكم- أنتم الدعاه-التقوى الطهر و قول الحق و اللين و الرفق و المحبّه.

إنّ المذهب الحق يستفيد من هذه الوسائل،بعكس المذاهب المصطنعه الباطله.

و بالرغم من أنّ(الحسنه)و(السيئه)تنطويان على مفهومين واسعين،إذ تشمل الحسنه كلّ إحسان و جميل و خير و بركه،و السيئه تشمل كلّ انحراف و قبح و عذاب،إلاّ أنّ الآيه تقصد ذلك الجانب المحدّد من السيئه و الحسنه،الذى يختص بأساليب الدعوه.

لكن بعض المفسّرين فسّر الحسنه بمعنى الإسلام و التوحيد،و السيئه بمعنى الشرك و الكفر.

و قال البعض:(الحسنه)هى الأعمال الصالحه.و(السيئه)الأعمال القبيحه.

و هناك من قال:إنّ(الحسنه)هى الصفات الإنسانيه النبيله،كالصبر و الحلم

۱- ۱) -تكرار«لا»فى«و لا السيئه»هو لتأكيد النفى.

و المداراه و العفو،بینما السیئه بمعنی الغضب و الجهل و الخشونه.

و لکن التّفسیر الأوّل هو الأفضل حسب الظاهر.

فی حدیث عن الإمام الصادق أنّه علیه السّلام قال فی تفسیر الآیه أعلاه: «الحسنه التقیه،السیئه الإذاعه» (۱) . و طبعا فان هذا الحدیث الشریف ناظر الی الموارد التی تکون فیها الاذاعه سببا فی إتلاف الطاقات و الکوادر الجیده و افشاء الخطط للأعداء.

ثم تضیف الآیه: اِدْفَعْ بِالَّتِی هِیَ أَحْسَنُ .

ادفع الباطل بالحق،و الجهل و الخشونه بالحلم و المداراه،و قابل الإساءه بالإحسان،فلا ترد الإساءه بالإساءه،و القبح بالقبح،لأنّ هذا أسلوب من همّه الانتقام،ثمّ إنّ هذا الأسلوب یقود إلی عناد المنحرفین أکثر.

و تشیر الآیه فی نهایتها إلی فلسفه و عمق هذا البرنامج فی تعبیر قصیر،فتقول:

إنّ هذا التعامل سیقود إلی: فَإِذَا الَّذِی بَیْنَکَ وَ بَیْنَهُ عَداوَهٌ کَأَنَّهُ وَلِیٌّ حَمِیمٌ .

إنّ ما یبیّنه القرآن هنا،مضافا إلی ما یشبهه فی الآیه(۹۶)من سوره المؤمنین فی قوله تعالی: اِدْفَعْ بِالَّتِی هِیَ أَحْسَنُ السَّیِّئَهَ یعتبر من أهم و أبرز أسالیب الدعوه،خصوصا حیال الأعداء و الجهلاء و المعاندین.و یؤید ذلک آخر ما توصلت إلیه البحوث و الدراسات فی علم النفس.

لأنّ کلّ من یقوم بالسیئه ینتظر الرد بالمثل،خاصه الأشخاص الذین هم من هذا النمط،و أحیانا یکون جواب السیئه الواحده عدّه سیئات.أمّا عند ما یری المسیء أنّ من أساء إلیه لا یرد السیئه بالسیئه و حسب،و إنّما یقابلها بالحسنه، عندها سیحدث التغییر فی وجوده،و سیؤثر ذلک علی ضمیره بشدّه فیوقظه، و ستحدث ثوره فی أعماقه،سیخجل و یحس بالحقاره و ینظر بعین التقدیر و الأکبار إلی من أساء إلیه.

۱- ۱) -مجمع البیان نهایه الحدیث عن الآیه.

و هنا ستزول الأحقاد و العداوات من الداخل و تترک مکانها للحبّ و المودّه.

و من الضروری أن نشیر هنا إلی أنّ هذا الأمر لا یمثل قانونا دائما،و إنّما هو صفه غالبه،لأنّ هناک أقلیه تحاول أن تسیء الاستفاده من هذا الأسلوب،فما لم ینزل بها ما تستحق من عقاب فإنّها لا تترک أعمالها الخاطئه.

و لکن فی نفس الوقت الذی نستخدم العقوبه و الشده ضدّ هذه الأقلیه،علینا أن لا نغفل عن أنّ القانون المتحکم بالأکثریه هو قانون:«ادفع السیئه بالحسنه».

لذلک رأینا أنّ رسول الإسلام صلّی اللّه علیه و اله و سلّم و القاده من أئمه أهل البیت علیهم السّلام کانوا یستفیدون دائما من هذا الأسلوب القرآنی العظیم،ففی فتح مکّه مثلا کان الأعداء -و حتی الأصدقاء-ینتظرون أن تسفک الدماء و تؤخذ الثارات من الکفار و المشرکین و المنافقین الذین أذاقوا المؤمنین ألوان الأذی و العذاب فی مکّه و خارجها،من هنا رفع بعض قاده الفتح شعار«الیوم یوم الملحمه،الیوم تسبی الحرمه،الیوم أذلّ اللّه قریشا»لکن ما کان من رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم و تنفیذا لأخلاقیه «ادفع السیئه بالحسنه»إلاّ أن عفا عن الجمیع و أطلق کلمته المشهوره:«اذهبوا فأنتم الطلقاء».ثمّ أمر صلّی اللّه علیه و اله و سلّم أن یستبدل الشعار الانتقامی بشعار آخر یفیض إحسانا و کرما هو:«الیوم یوم المرحمه،الیوم أعزّ اللّه قریشا» (۱) .

لقد أحدث هذا الموقف النبوی الکریم عاصفه فی أرض مشرکی مکّه حتی أنّه علی حدّ وصف کتاب اللّه تعالی بدأوا: یَدْخُلُونَ فِی دِینِ اللّهِ أَفْواجاً (۲) .

لکن برغم ذلک،نری أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم استثنی بعض الأشخاص من العفو العام هذا،کما نقله أصحاب السیره،لأنّهم کانوا خطرین و لم یستحقوا العفو النبوی الکریم الذی عبّر فیه رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم عن خلق الإسلام و منطق النّبیین حینما

قال:

«لا أقول لکم إلاّ کما قال یوسف لإخوته:لا تثریب علیکم الیوم یغفر اللّه لکم و هو

۱- ۱) -بحار الأنوار،المجلد ۲۱،صفحه ۱۰۹.

۲- ۲) -سوره النصر،آیه ۲.

أرحم الراحمين» (۱) .

«ولی»هنا بمعنی الصدیق.و(حمیم)تعنی فی الأصل الماء الحار المغلی،و إذا قیل لعرق جسم الإنسان(حمیم)فذلک لحرارته،و لهذا السبب یطلق اسم «الحمّام»علی أماکن الغسل،و یقال أیضا للأصدقاء المخلصین و المحبین للشخص «حمیم»و الآیه تقصد هذا المعنی.

و ضروری أن نشیر إلی أنّ قوله تعالی: کَأَنَّهُ وَلِیٌّ حَمِیمٌ حتی و إن لم تکن تعنی أنّ الشخص لم یکن کذلک حقا،إلا أنّ ظاهره سیکون کذلک علی الأقل.

إنّ هذا الأسلوب من التعامل مع المعارضین و الأعداء لیس بالأمر العادی السهل،و الوصول إلیه یحتاج إلی بناء أخلاقی عمیق،لذلک فإنّ الآیه التی بعدها تبین الأسس الأخلاقیه لمثل هذا التعامل فی تعبیر قصیر ینطوی علی معانی کبیره،حیث یقول تعالی: وَ مٰا یُلَقّٰاهٰا إِلاَّ الَّذِینَ صَبَرُوا (۲) .

و کذلک: وَ مٰا یُلَقّٰاهٰا إِلاّٰ ذُو حَظٍّ عَظِیمٍ .

علی الإنسان أن یجاهد نفسه مدّه طویله حتی یستطیع أن یسیطر علی غضبه،یجب أن تکون روحه قویه فی ظلّ الإیمان و التقوی حتی لا یستطیع أن یتأثر بسرعه و بسهوله بإیذاء الأعداء،و لا یطغی عنده حب الانتقام،فتلزمه الروح الواسعه و انشراح الصدر بالمقدار الکافی،حتی یصل الإنسان إلی هذه المرحله من الکمال بحیث یقابل السیئات بالإحسان.و علیه أن یتجاوز مرحله العفو لیصل إلی منزله«دفع السیئه بالحسنه»و أن یحتسب کلّ ذلک فی سبیل اللّه تعالی بغیه تحقیق الأهداف المقدّسه.

و هنا أیضا-کما تلاحظون-تواجهنا قضیه«الصبر»بوصف هذه الخصله الأساس المتین لکل الملکات الأخلاقیه الفاضله،و هی شرط فی التقدم المعنوی

ص:۴۰۸

۱- ۱) -بحار الأنوار،المجلد ۲۱،صفحه ۱۳۲.

۲- ۲) -یرجع ضمیر(یلقاها)إلی(الخصله)أو(الوصیه)المستفاده من الجمله السابقه.

و المادی (۱) .

إنّ هنـاک-بلاـ شک-موانع تحول دون الوصول إلی هـذا الهـدف العظیم،و إنّ وساوس الشیطان تمنع الإنسان من تحقیق ذلک بوسائـل مختلفه،لـذلک نری الآـیه الأـخیره تخاطب الرّسول صـلّی اللّه علیه و اله و سـلّم بوصـفه الأسوه و القـدوه فتقول له: وَ إِمّا یَنْزَغَنَّکَ مِنَ الشَّیْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِیعُ الْعَلِیمُ (۲) .

«نزغ»تعنی الـدخول فی عمل ما لإفساده،و لهـذا السـبب یطلق علی الوساوس الشـیطانیه«نزغ»و هـذا التحـذیر بسـبب ما یراود ذهن الإنسـان من مفـاهیم مغلوطه خطره،إذ یقوم بعض أدعیاء الصـلاح بتوجیه النصائـح علی شاکله قولهم:لا یمکن إصـلاح الناس إلاّ بـالقوّه.أو یجب غسل الـدم بالـدم. أو الترحم علی الـذئب ظلم للخراف و أمثال ذلک من الوساوس التی تنتهی إلی مقابله السـیئه بالسیئه.

القرآن الکریم یقول:إیّاکم و السـقوط فی مهاوی هـذه الوساوس،و لا تلجأوا إلی القوّه إلاّ فی موارد معـدوده،و عند ما یواجهکم أمثال هذا الکلام فاستعینوا باللّه و اعتمدوا علیه لأنّه یسمع الکلام و یعلم النیات.

و أخیرا،تتضمّن الآیه الدعوه إلی الاستعاذه باللّه علی مفهوم واسع،و ما ذکر هو أحد المصادیق لذلک.

ملاحظتان

اشاره

أوّلا:برنامج الدعاء إلی اللّه

لقد تضمّنت الآیات الأربع-أعلاه-أربعه بحوث بالنسبه إلی کیفیه الدعوه

۱- ۱) -اعتقـد بعض المفسّـِرین أن قوله تعـالی: وَ ما یُلَقّاها إِلاّـ ذُو حَظٍّ عَظِیمٍ إشاره إلی الثواب العظیم لمثل هؤلاء الأشـخاص العافین الذی ینالهم فی الآخره،لکن هذا التّفسیر مستبعد بسبب أنّ الآیه ترید أن تبین الأساس الأخلاقی لهذا العمل العظیم.

۲- ۲) -«نزغ»فی الآیه الکریمه یمکن أن تکون بنفس معناها المصدری أو أن تکون«اسم فاعل».

إلی اللّه تعالی.و الخطوات الأربع هی:

أوّلا:البناء الذاتی للدعاه من حیث الإیمان و العمل الصالح.

ثانیا:الاستفاده من أسلوب«دفع السیئه بالحسنه».

ثالثا:تهیئه الأرضیه الأخلاقیه لإنجاز هذا الأسلوب و العمل به.

رابعا:رفع الموانع من الطریق و محاربه الوساوس الشیطانیه.

لقد قدّم لنا رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم و الأئمّه من أهل بیته علیهم السّلام خیر أسوه و قدوه فی تنفیذ هذا البرنامج و الالتزام به،و الالتزام بهذا البرنامج یعتبر أحد الأسباب التی أدّت بالإسلام فی ذلک العصر المظلم الی الاتساع و الانتشار.

و الیوم یشهد علم النفس العدید من البحوث و الدراسات حول وسائل التأثیر علی الآخرین،إلاّ أنّها تعتبر شیئا تافها فی مقابل عظمه الآیات أعلاه، خصوصا و أن البحوث هذه عاده ما تتعامل مع ظواهر الإنسان و تستهدف الکسب السریع العاجل و لو من خلال التمویه و الخداع،لکن البرنامج القرآنی یخوض فی أعماق النفس البشریه و یؤسس قواعد تأثیره علی مضمون الإیمان و التقوی.

و الیوم،ما أحلی أن یلتزم المسلمون ببرنامج دینهم،و یعمدون إلی نشر الإسلام فی عالم متلهف إلی قیم السماء.

أخیرا تنهی هذه الفقره بإضاءه نبویه نقتبسها عن تفسیر«علی بن إبراهیم» الذی ورد فیه:«أدّب اللّه نبیّه فقال: وَ لاٰ تَسْتَوِی الْحَسَنَهُ وَ لاَ السَّیِّئَهُ ادْفَعْ بِالَّتِی هِیَ أَحْسَنُ ،قال:ادفع سیئه من أساء إلیک بحسنتک،حتی یکون اَلَّذِی بَیْنَکَ وَ بَیْنَهُ عَدٰاوَهٌ کَأَنَّهُ وَلِیٌّ حَمِیمٌ » .(۱)

ثانیا:الإنسان فی مواجهه عواصف الوسواس:

ثمّه منعطفات صعبه فی حیاه المؤمنین یمکن فیها الشیطان،و یحاول أن ینزغ

۱- ۱) -نور الثقلین،المجلد الرابع،صفحه ۵۴۹.

و یحید بالإنسان عن طریق السعاده و کسب رضا اللّه تعالی.

و علی الإنسان فی مقابل وسواس الشیطان أن یعتمد فی تجاوزها علی اللّه، و إلاّ فإنّه لا یستطیع ذلک لوحده،فعلیه أن یتوکل علی اللّه لیجتاز عقبات الطریق و مخاطره،و یتمسک بحبل اللّه المتین.

لقد ورد،فی الحدیث أن شخصا أساء لآخر فی محضر رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم فثار الغضب فی قلبه و اشتعلت فیه هواجس الثار،فقال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم:«إنّی لأعلم کلمه لو قالها لذهب عنه الغضب:أعوذ باللّه من الشیطان الرجیم».

فقال الرجل:أ مجنونا ترانی؟ فاستند رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم إلی القرآن و تلا قوله تعالی: وَ إِمّٰا یَنْزَغَنَّکَ مِنَ الشَّیْطٰانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللّٰهِ (۱) .

و هذه إشاره إلی أنّ ثوره الغضب من وساوس الشیطان،مثلما تعتبر ثوره الشهوه و الهوی من وسواسه أیضا.

و نقرأ فی کتاب«الخصال»أنّ أمیر المؤمنین علی بن أبی طالب علیه السّلام علّم أصحابه أربعمائه باب تنفع المسلمین فی الدین و الدنیا،من ضمنها

قوله علیه السّلام لهم:

«إذا وساوس الشیطان إلی أحدکم فلیستعذ باللّه و لیقل:آمنت باللّه مخلصا له الدین» (۲) .

۱- ۱) -روح المعانی،المجلد ۲۴،صفحه ۱۱۱.

۲- ۲) -نور الثقلین،المجلد ۴،صفحه ۱۵۵۱.

الآیات [سوره فصلت (۴۱): الآیات ۳۷ الی ۳۹]

اشاره

وَ مِنْ آیاتِهِ اَللَّیْلُ وَ اَلنَّهارُ وَ اَلشَّمْسُ وَ اَلْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَ لا لِلْقَمَرِ وَ اُسْجُدُوا لِلّهِ اَلَّذِی خَلَقَهُنَّ إِنْ کُنْتُمْ إِیّاهُ تَعْبُدُونَ (۳۷) فَإِنِ اِسْتَکْبَرُوا فَالَّذِینَ عِنْدَ رَبِّکَ یُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّیْلِ وَ اَلنَّهارِ وَ هُمْ لا یَسْأَمُونَ (۳۸) وَ مِنْ آیاتِهِ أَنَّکَ تَرَی اَلْأَرْضَ خاشِعَهً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَیْهَا اَلْماءَ اِهْتَزَّتْ وَ رَبَتْ إِنَّ اَلَّذِی أَحْیاها لَمُحْیِ اَلْمَوْتی إِنَّهُ عَلی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ (۳۹)

التّفسیر

اشاره

السّجده للّه تعالی:

تعتبر هـذه الآیات بـدایه فصل جدیـد فی هـذه السوره،فهی تختص بقضایا التوحید و المعاد،و دلائل النبوه و عظمه القرآن،و هی فی الواقع مصداق واضح للدعوه إلی اللّه فی مقابل دعوه المشرکین إلی الأصنام.

تبدأ أوّلا من قضیه التوحید،فتدعو الناس إلی الخالق عن طریق الآیات

ص:۴۱۲

الآفاق (١) : وَ مِنْ آیاتِهِ اللَّیْلُ وَ النَّهارُ وَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ فاللیل و ظلمته للراحه، و النهار وضوءه للحرکه.

و هذان التوأمان یقومان بإداره عجله حیاه الناس بشکل متناوب و منظم، بحیث لو کان أحدهما دائمیا أو استمر لمده أطول،فستصاب جمیع الکائنات بالفناء،لذا فإنّ الحیاه تنعدم علی سطح القمر حیث تعادل لیالیه(١۵)لیله أرضیه و نهاره بهذا المقدار أیضا.

إنّ لیالیه المظلمه البارده تجعل کلّ شیء جامدا،أمّا نهاره الطویل الحار فإنّه یحرق کلّ شیء،لذلک لا یستطیع الإنسان و کائنات أرضنا أن تعیش علی القمر.

أمّا الشمس فهی مصدر کلّ البرکات المادیه فی منظومتنا،فالضوء و الحراره و الحرکه و نزول المطر،و نمو النباتات و نضج الفواکه،و حتی ألوان الورود الجمیله، کل ذلک یدین فی وجوده إلی الشمس.

القمر یقوم بدوره بإضاءه اللیالی المظلمه،وضوءه دلیل السائرین فی دروب الصحراء،و هو یجلب الخیرات بتأثیره علی میاه البحار و حدوث الجزر و المد فیه.

و لعلّ البعض قام بالسجود لهذین الکوکبین السماویین و بعبادتهما بسبب الخیرات و البرکات الآنفه الذکر،فتاهوا فی عالم الأسباب،و لم یستطیعوا الوصول إلی مسبّب الأسباب.

و لذلک نری القرآن بعد هذا البیان یقول مباشره: لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَ لا لِلْقَمَرِ وَ اسْجُدُوا لِلّهِ الَّذِی خَلَقَهُنَّ إِنْ کُنْتُمْ إِیّاهُ تَعْبُدُونَ (٢) .

فما ذا لا تتوجهوا بالسجود و العباده إلی خالق الشمس و القمر؟

١- ١) -ینبغی الالتفات إلی أنّ السجده هنا واجبه فی حال سماع الآیه أو تلاوتها.

٢- ٢) -یرجع ضمیر التأنیث فی(خلقهن)إلی اللیل و النهار و الشمس و القمر کما یقول علماء اللغه و أصحاب التّفسیر،إذ أنّ ضمیر جمع المؤنث العاقل قد یعود أحیانا إلی جمع غیر العاقل کما یقال مثلا(الأقلام بریتهنّ)و البعض یعتقد أنّ الضمیر هنا یرجع للآیات التی هی جمع مؤنث لغیر العاقل. و احتمل البعض أن الضمیر یعود علی الشمس و القمر فقط باعتبار آنها جنس تشمل جمیع الکواکب و کأنّها تتمتع بعقل و شعور.

و لماذا تعبدون كائنات هى نفسها خاضعه لقوانين الخلقه و نظام الوجود،و لها شروق و غروب و تخضع التغييرات؟ إنّ السجود لا ينبغى إلاّ للّه خالق هذه الموجودات!إنّ خالق هذه الموجودات و مودع النظم و القوانين فيها لا يغرب و لا يأفل و لا تمتد يد التغيير إلى محضر كبريائه عزّ و جلّ.

و بهذا الشكل تنفى الآيات أحد الفروع الواسعه لانتشار الشرك و عباده الأصنام المتمثله فى عباده الكائنات الطبيعيه النافعه،فينبغى للجميع أن يبحثوا عن عله العلل و أن لا يتوقفوا عند المعلول،نعم ينبغى البحث عن خالق هذه الموجودات! إنّ هذه الآيه تستدل-فى الواقع-على وجود الخالق الواحد عن طريق النظام الواحد الذى يتحكم بالشمس و القمر و الليل و النهار، و إن حاميته تعالى على هذه الموجودات تعتبر دليلا على وجوب عبادته.

قوله تعالى: إِنْ كُنْتُمْ إِيّٰاهُ تَعْبُدُونَ فيه إشاره إلى ملاحظه مؤدّاها:إذا كنتم تريدون عباده الخالق فعليكم إلغاء غيره من الشركاء فى العباده،لأنّ عبادته لا تكون إلى جانب عباده غيره.

و إذا لم يؤثر هذا الدليل المنطقى فى أفكار هؤلاء،و استمروا مع ذلك فى عباده الأصنام و الموجودات الأخرى،و نسوا المعبود الحقيقى،فاللّه تعالى يخاطبهم بعد ذلك بقوله: فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَ النَّهٰارِ وَ هُمْ لاٰ يَسْأَمُونَ (1) .

فليس مهما أن لا تسجد مجموعه من الجهله و الغافلين حيال جبروت اللّه

---

۱ – ۱) -«لاـ يسأمون»:من كلمه(السئامه)و تعنى التعب من الاستمرار فى العمل أو فى موضوع معين. ضمنا فإنّ جمله(فإن استكبروا)جمله شرطيه جزاؤها محذوف،و التقدير هو:فإن استكبروا عن عباده اللّه و توحيده فإن ذلك لا يضرّه شيئا».

و ذاته المقدّسه الطاهره،فهذا العالم الواسع ملیء بالملائکه المقرّبین الذین یرکعون و یسجدون و یسبحون له دائما و لا یفترون أبدا.

ثم إنّ هؤلاء هم بحاجه إلی عباده اللّه و لا یحتاج تعالی لعبادتهم،لأنّ فخرهم و کمالهم لا یتمّ إلاّ فی ظل العبودیه له سبحانه و تعالی.

و لقد ذکرنا أنّ الآیات أعلاه هی من آیات السجده،،و ثمّه اختلاف بین فقهاء أهل السنه فی أنّ السجده هل تکون واجبه بعد بدایه الآیه الأولی(تعبدون)أو أنّها تکون کذلک بعد تمام الآیتین(یسأمون)؟ ذهب الشافعی و مالک إلی الاحتمال الأول،بینما رجح آخرون کأبی حنیفه و أحمد بن حنبل الاحتمال الثّانی.

إلاّ أنّ موقع السجده الواجبه حسب اعتقاد علماء الإمامیه،وفقا للرّوایات الوارده عن أهل البیت علیهم السّلام،هی الآیه الأولی(تعبدون)و الآیه الکریمه هی من آیات السجده الواجبه فی القرآن الکریم.

و ضروری أن نشیر هنا إلی أنّ الواجب هو أصل السجده،أمّا الذکر فهو مستحب،و نقرأ فی روایه أنّ أقل هذا الذکر فی السجده هو القول:

«لا إله إلاّ اللّه حقّا حقّا،لا إله إلا اللّه إیمانا و تصدیقا،لا إله إلا اللّه عبودیه و رقا سجدت لک یا ربّ تعبدا ورقا،لا مستنکفا و لا مستکبرا بل أنا عبد ذلیل خائف مستجیر» (١) .

نعود مرّه اخری إلی آیات التوحید التی تعتبر الأرضیه للمعاد،و إذا کان الحدیث قد شمل فی السابق الشمس و القمر و الآیات السماویه،فإنّ الحدیث هنا یدور حول الآیات الأرضیه.

یقول تعالی: وَ مِنْ آیاتِهِ أَنَّکَ تَرَی الْأَرْضَ خاشِعَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَیْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَ رَبَتْ .

هذه الأرض المیته الیابسه الخالیه من الحرکه و آثار الحیاه،أی قدره حولتها

١- ١) -وسائل الشیعه،کتاب الصلاه،المجلد الرابع،صفحه ٨٨۴[باب ۴۶ من أبواب قراءه القرآن،حدیث رقم(٢)] .

إلى نبض دائم يمور بالحياه و الحركه،إنّه الماء،و إنّه لدليل كبير على قدره اللّه الأزليه،و علامه على وجود ذاته المقدّسه.

ثم تنتقل الآيه من قضيه التوحيد المتمثله هنا بالحياه التى ما زالت تحيطها الكثير من الأسرار و الخفايا و الغموض،إلى قضيه المعاد، حيث يقول تعالى: إِنَّ الَّذِی أَحْیٰاهٰا لَمُحْیِ الْمَوْتیٰ .

نعم: إِنَّهُ عَلیٰ کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ .

فدلائل قدرته واضحه فى كلّ مكان،و مع هذا الوضع فكيف نشكّ بالمعاد و نعتبره محالا،أليس هذا سوى الجهل و الغفله؟ «خاشعه»من(الخشوع)و تعنى فى الأصل التضرع و التواضع الملازم للأدب.

و استخدام هذا التعبير بخصوص الأرض الميته اليابسه،يعتبر نوعا من الكنايه.

فالأرض اليابسه الفاقده للماء ستخلو من أى نوع من أنواع الثبات،و ستشبه الإنسان الساقط أرضا أو الميت الذى لا حراك فيه،إلاّ أن نزول المطر سيهب لها الحياه و يجعلها تتحرك و تنمو.

«ربت»من(ربو)على وزن(غلو)و تعنى الزياده و النمو،و الربا مشتق من نفس هذه الكلمه،لأنّ المرابى يطلب دينه مع الزياده.

«اهتزت»من«هز»على وزن«حظ»و تعنى التحريك الشديد.

و حول«المعاد الجسمانى»و أدلته و كيفيه استدلال عليه من عالم النبات تقدم بحث مفصّل فى نهايه سوره«يس»من هذا التّفسير.

ص:۴۱۶

الآيات [سوره فصلت (۴۱): الآيات ۴۰ الى ۴۲]

اشاره

إِنَّ اَلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لاٰ يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَ فَمَنْ يُلْقىٰ فِي اَلنّٰارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ اَلْقِيٰامَهِ اِعْمَلُوا مٰا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (۴۰) إِنَّ اَلَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمّٰا جٰاءَهُمْ وَ إِنَّهُ لَكِتٰابٌ عَزِيزٌ (۴۱) لاٰ يَأْتِيهِ اَلْبٰاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لاٰ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (۴۲)

التّفسير

اشاره

محرفوا آيات الحق:

المجموعه التى بين أيدينا من آيات السوره الكريمه،بدأت بتهديد الذين يقومون بتحريف علائم التوحيد،و تضليل الناس،حيث يقول تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيٰاتِنٰا لاٰ يَخْفَوْنَ عَلَيْنٰا .

من الممكن لهؤلاء أن يضلّوا الناس بأسلوب المغالطه و باستخدام السفسطه الكلاميه،و يخفوا ذلك عن الناس.إلاّ أنّه ليس بوسعهم إخفاء ذرّه ممّا يقومون به عن اللّه تبارك و تعالى.

«يلحدون»من(إلحاد)و هى فى الأصل من(لحد)على وزن(عهد)و تعنى

الحفره الواقعه فی جانب واحد،و لهذا السبب یطلق علی الحفره فی جانب القبر اسم«اللحد».

ثمّ أطلقت کلمه(إلحاد)علی أی عمل یتجاوز الحد الوسط إلی الإفراط أو التفریط،و هی لذلک تطلق لوصف الشرک و عباده الأصنام،و یقال لمن لا یؤمن باللّه تعالی(الملحد).

و المقصود من«الإلحاد فی آیات اللّه»هو إیجاد الوساوس و التمویه فی أدله التوحید و المعاد التی ذکرتها الآیات السابقه بعنوان«و من آیاته»أو جمیع الآیات الإلهیه،سواء منها الآیات التکوینیه السابقه أو الآیات التشریعیه النازله فی القرآن الکریم و الکتب السماویه الأخری.

إنّ المذاهب المادیه و الإلحادیه فی عالمنا الیوم التی تعتبر الدین ولید الجهل أو الخوف أو نتاج العامل الاقتصادی و الأمور الأخری لإضلال الناس،هی بلا شک من مصادیق الخطاب فی هذه الآیه الکریمه.

القرآن الکریم أوضح جزاء هؤلاء فی إطار مقارنه واضحه فقال تعالی:

أَ فَمَنْ یُلْقیٰ فِی النّٰارِ خَیْرٌ أَمْ مَنْ یَأْتِی آمِناً یَوْمَ الْقِیٰامَهِ

؟ الأشخاص الذین یحرقون ایمان الناس و عقائدهم بنیران الشبهات و التشکیکات سیکون جزاؤهم نار جهنّم،بعکس الذین أوجدوا المحیط الآمن للناس بهدایتهم الی التوحید و الإیمان،فإنّهم سیکونون فی أمان یوم القیامه ألیس ذلک الیوم هو یوم تتجسد فیه أعمال الإنسان فی هذه الدنیا؟ و قال بعض المفسّرین:إنّ الآیه تقصد«أبا جهل»«أبو جهل»کنموذج للغوایه و لأهل النّار،و فی الجانب المقابل ذکروا«حمزه»عم النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم أو«عمار بن یاسر»لکن من الواضح أنّ هذا القول لا یعدو أن یکون مصداقا للآیه ذات المفهوم الواسع.

و الطریق فی هذا الجزء من الآیه أنّ التعبیر القرآنی یستخدم کلمه(إلقاء)فی

مخاطبه أهل النّار كدليل على عدم امتلاكهم الخيار فى أمرهم،بينما يستخدم كلمه «يأتى»فى مخاطبه أهل الجنّه،كدليل على احترامهم و حريتهم و إرادتهم فى اختيار الأمن و الهدوء.

و فوق كلّ هذا فقد استخدمت الآيه تعبير الأمان من العذاب كنايه عن الجنّه، بينما استخدمت نار جهنم بشكل مباشر،و فى ذلك إشاره إلى أنّ أهم قضيه فى ذلك اليوم هى«الأمن».

و عند ما ييأس الإنسان من هدايه شخص يخاطبه بقوله:افعل ما شئت.لذا فالآيه تقول لأمثال هؤلاء: اِعْمَلُوا مٰا شِئْتُمْ .

لكن عليكم أن تعلموا: إِنَّهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .

لكن هذا الأمر لا يعنى أنّ لهم الحريه فى أن يعملوا ما يشاءون،أو أن يتصرفوا بما يرغبون،بل هو تهديد لهم بأنّهم لا يصغون لكلام الحق، إنّه تهديد يتضمّن توعّد هؤلاء و الصبر على أعمالهم إلى حين.

الآيه التى بعدها تتحول من الحديث عن التوحيد و المعاد إلى القرآن و النبوّه، و تحذّر الكفار المعاندين بقوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمّٰا جٰاءَهُمْ (١) .

إنّ إطلاق وصف«الذكر»على القرآن يستهدف تذكير الإنسان و إيقاظه، و شرح و تفصيل الحقائق له بشكل إجمالى عن طريق فطرته،و قد ورد نظير ذلك فى الآيه(٩)من سوره«الحجر»فى قوله تعالى: إِنّٰا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنّٰا لَهُ لَحٰافِظُونَ .

ثمّ تنعطف الآيه لبيان عظمه القران فتقول: وَ إِنَّهُ لَكِتٰابٌ عَزِيزٌ .

إنّه كتاب لا يستطيع أحد أن يأتى بمثله أو أن يتغلب عليه،و منطقه عظيم

١- ١) -لقد ذكر المفسّرون عدّه احتمالات حول خبر«إنّ الذين»أنسبها أن تقول بأنّ الخبر هو جمله(لا يخفون علينا)حيث حذف بقرينه الآيه السابقه.و قال البعض:إنّ الخبر هو جمله«يلقون فى النّار»المستفاده من الآيه السابقه،بينما قال البعض بأنّه جمله«أولئك ينادون من مكان بعيد»التى ترد فى الآيات القادمه،لكن الرأى الأوّل أرجح.

و استدلاله قوى،و تعبيره بليغ منسجم و عميق،تعليماته جذريه،و أحكامه متناسقه متوافقه مع الاحتياجات الواقعيه للبشر فى أبعاد الحياه المختلفه.

ثم تذكر الآيه صفه اخرى مهمّه حول عظمه القرآن و حيويته،فيقول تعالى:

لاٰ يَأْتِيهِ الْبٰاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لاٰ مِنْ خَلْفِهِ

لأنّه: تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ .

أفعال اللّه عز و جل لا تكون إلاّ وفق الحكمه و فى غايه الكمال.لهذا فهو أهل للحمد دون غيره.

لقد ذكر المفسّرون عدّه احتمالات حول قوله تعالى: لاٰ يَأْتِيهِ الْبٰاطِلُ... إلاّ أن أشملها هو أنّ أى باطل لا يأتيه،من أى طريق كان،و مهما كان الأسلوب،و هذا يعنى عدم وجود تناقض فى مفاهيمه،و لا ينقض بشيء من العلوم،أو بحقائق الكتب السابقه،و لا يعارض كذلك بالاكتشافات العلميه المستقبليه.

لا يستطيع أحد أن يبطل حقائقه،و لا يمكن أن ينسخ فى المستقبليه.

لا يوجد أى تعارض فى معارفه و قوانينه و وصاياه و أخباره،و لا يكون ذلك فى المستقبل أيضا.

لم تصل إليه يد التحريف بزياده أو نقص فى آيه أو كلمه،و لن يطاله ذلك مستقبلا.

إنّ هذه الآيه تعبير آخر لمضمون الآيه(٩)من سوره«الحجر»حيث قوله تعالى: إِنّٰا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنّٰا لَهُ لَحٰافِظُونَ (١) .

و من خلال ما قلناه نستنتج أن قوله تعالى: مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لاٰ مِنْ خَلْفِهِ كنايه عن جميع الجوانب و الجهات،بمعنى أنه لن يصيبه البطلان أو الفساد من جميع الأوجه و الجوانب،و ما ذهب إليه البعض من أن ذلك كنايه للحال و المستقبل،فان

---

۱ – ۱) -لقد اختيار هذا التّفسير الزمخشرى فى كشافه،و للعلاّمه الطباطبائى حديث يشبه هذا فى تفسير الميزان،فى حين حدّد بعض المفسّرين مصطلح الباطل بالشيطان أو المحرفين،أو الكذب،و ما شابه،و قد ورد فى حديث عن الباقر و الصادق قولهما عليهما السلام:«إنّه ليس فى أخباره عما مضى باطل،و لا فى أخباره عمّا يكون فى المستقبل باطل»كما نقل عنهما عليهما السلام صاحب مجمع البيان،و واضح أن ما ذكر هو مصاديق لمفهوم الآيه.

قولهم هذا مصداق للمفهوم الأول.

«الباطل»كما يرى الراغب فی مفرداته:هو ما يقابل الحق،و لكن قد يفسّر أو يراد به أحيانا أحد مصاديقه كالشرك و الشيطان و المعدوم و الساحر.

و يطلق على الشجاع ب«البطل»لأنّه يبطل أعداءه و يقتلهم أو يلقى بهم خارجا.

لكن«باطل»فی الآيه تنطوی على مفهوم مطلق غير محدّد بمصداق معين.

و التعبير الأخير فی الآيه تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ دليل واضح على عدم وصول الباطل بأی طريق من الطرق إلى القرآن الكريم،فالباطل قد يسرى الى الكلام الذی يصدر من الأفراد ذوی العلم المحدود و القدرات النسبيه.

أمّا الذی يتصف بالعلم المطلق و الحكمه المطلقه و يجمع كلّ الصفات الكماليه التی تجعله أهلا للحمد، فلا يطرأ على كلامه التناقض و الاختلاف،و لا ينسخ أو ينقض،أو تمتد إليه يد التحريف،و لا يتناقض كلامه مع الكتب السماويه و الحقائق السابقه،و لا يعارض بالمكتشفات العلميه الراهنه،أو تلك التی يكشفها المستقبل.

و أخيرا،الآيه واضحه الدلاله على نفی التحريف عن القرآن الكريم،سواء من جهه الزياده أو النقصان(هناك بحث مفصل حول نفی التحريف أوردناه فی نهايه الحديث عن الآيه(۹)من سوره«الحجر».

سؤال:

قد يقال:إذا كان الباطل هو ما أشرنا إليه،أی كلّ ما يتصف بأنّه«المخالف الحق»فإننا فی التفسير الآيه(و كذلك المفسّرين الآخرين)فسّرناه بمعنى«المبطل» فكيف يتسق ذلك؟ الإجابه على هذا السؤال تكمن فی ملاحظه دقيقه فی الأسلوب القرآنی، فالقرآن لا يقول:سوف لا يأتی باطل بعد هذا الكتاب السماوی،بل يقول لا يأتی الباطل إلى هذا الكتاب(أی القرآن)[ينبغی الانتباه إلى ضمير جمله:يأتيه]

.

و معنی الکلام أن لا شیء یستطیع أن یصل إلیه و یبطله.(فدقق فی ذلک).

ص :۴۲۲

الآیات [سوره فصلت (۴۱): الآیات ۴۳ الی ۴۶]

اشاره

مٰا یُقٰالُ لَکَ إِلاّٰ مٰا قَدْ قِیلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِکَ إِنَّ رَبَّکَ لَذُو مَغْفِرَهٍ وَ ذُو عِقٰابٍ أَلِیمٍ (۴۳) وَ لَوْ جَعَلْنٰاهُ قُرْآناً أَعْجَمِیًّا لَقٰالُوا لَوْ لاٰ فُصِّلَتْ آیٰاتُهُ ءَ أَعْجَمِیٌّ وَ عَرَبِیٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِینَ آمَنُوا هُدیً وَ شِفٰاءٌ وَ اَلَّذِینَ لاٰ یُؤْمِنُونَ فِی آذٰانِهِمْ وَقْرٌ وَ هُوَ عَلَیْهِمْ عَمًی أُولٰئِکَ یُنٰادَوْنَ مِنْ مَکٰانٍ بَعِیدٍ (۴۴) وَ لَقَدْ آتَیْنٰا مُوسَی اَلْکِتٰابَ فَاخْتُلِفَ فِیهِ وَ لَوْ لاٰ کَلِمَهٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّکَ لَقُضِیَ بَیْنَهُمْ وَ إِنَّهُمْ لَفِی شَکٍّ مِنْهُ مُرِیبٍ (۴۵) مَنْ عَمِلَ صٰالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ أَسٰاءَ فَعَلَیْهٰا وَ مٰا رَبُّکَ بِظَلاّٰمٍ لِلْعَبِیدِ (۴۶)

التّفسیر

اشاره

کتاب الهدایه و الشفاء:

قام الکفار و المشرکون بمحاربه رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم و تکذیبه،و التصدی للإسلام و القرآن و الآیات السابقه کانت تحکی عن الحادهم و کفرهم بآیات اللّه لذلک جاءت الآیه الأولی من الآیات التی بین أیدینا لمواساه النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم و ارشاد

ص:۴۲۳

المسلمين الذين يواجهون الأذى بأنّ لا محيص لهم عن الاستقامه و الصبر.

يقول تعالى: مٰا يُقٰالُ لَکَ إِلاّٰ مٰا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِکَ .

فإذا كانوا يتهمونك بالجنون و الكهانه و السحر،فقد أطلقوا هذه الأوصاف على من قبلك من الأنبياء و المرسلين.

إنّ دعوتك لـدين الحق ليست جديـده،و إنّ ما تواجهه و أنت تدعو للدين الجديد ليس جديدا أيضا،لذلك ما عليك-يا رسول اللّه-إلاّ أن ترابط بقوّه و تلزم ما أنت عليه و لا تهتم بكلام هؤلاء،لأنّ اللّه معك.

احتمل بعض المفسّـرين أن يكون المراد من الآيه هو:أنّ الكلام الذى قيل لك من قبل اللّه هو نفس الكلام الذى قيل لمن قبلك من الأنبياء (۱) .

لكن المعنى الأوّل أنسب فى المقام،خاصه مع ملاحظه سياق الآيات القادمه.

يقول اللّه تبارك و تعالى فى نهايه الآيه: إِنَّ رَبَّکَ لَذُو مَغْفِرَهٍ وَ ذُو عِقٰابٍ أَلِيمٍ .

فرحمته و مغفرته للمصدّقين،و عذابه للمكذبين و المعارضين.

و هذا الجزء من الآيه هو بشاره للمؤمنين و تشويق لهم،و إنذار للكفار و تهديد لهم.

إنّ تقـديم(المغفره)على(العقـاب)يشـبه-فى الواقع-الموارد الأـخرى،و هو دليل على تقـدّم رحمته تعالى على غضـبه،كما جاء فى المأثور من الدعاء:«يا من سبقت رحمته غضبه» (۲) .

الآـيه التى بعـدها تتحـدث عن ذرائع هؤلاـء المعانـدين،و ترد على واحـده منهـا، إذ هم كانوا يقولون:لماذا لم ينزل القرآن بلسان الأعاجم حتى نهتم به أكثر و يستفيد منه غير العرب؟

۱- ۱) -هذا الاحتمال يمكن ملاحظته فى تفسير«مجمع البيان»و«التّفسير الكبير»و لكنّ كليهما رجح التفسير الأوّل.

۲- ۲) -عن دعاء الجوشن الكبر.الفصل(۱۹)الجمله الثامنه.

إنّهـا حجّه عجيبه! و لعلّهم كـانوا يسـتهدفون منها عـدم فهم الناس القرآن حتى لا يضـطروا إلى منعهم عنه،كما حكى القرآن عن سلوكهم هذا فى آيه سابقه فى قوله تعالى:

لا تَسْمَعُوا لِهٰذَا الْقُرْآنِ وَ الْغَوْا فِيهِ

(۱)

.

و هنا يجيب القرآن على هذا القول بقوله: وَ لَوْ جَعَلْنٰاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيًّا لَقٰالُوا لَوْ لاٰ فُصِّلَتْ آيٰاتُهُ .

ثم يضيفون:يا للعجب قرآن أعجمى من رسول عربى؟: ءَ أَعْجَمِيٌّ وَ عَرَبِيٌّ .

أو يقولون:كتـاب أعجمى لأـمّه تنطق بـالعربيه؟! و الآـن و بـالرغم من نزوله بلسان عربى،و الجميع يـدرك معانيه بوضوح و يفهم عمق دعوه القرآن،إلاّ أنّهم و مع ذلك نراهم يصرخون: لاٰ تَسْمَعُوا لِهٰذَا الْقُرْآنِ وَ الْغَوْا فِيهِ .

إنّ الآـيه تتحـدث فى الواقع عن المرض الكـامن فى نفـوس هؤلاـء و عجزهم عن مـواكبه الهـدى و النـور الـذى أنزل عليهم من ربّهم،فـإذا جـاءهم بلسـانهم العربى قـالوا:هو السـحر و،الأسـطوره،و إذا جـاءهم بلسـان أعجمى فإنّهم سـيعتبرونه غير مفهوم،و إذا جـاءهم مزيجـا مـن الألفـاظ العربيـه و الأـعجميه عنـدها سـيقولون بـأنّه غير مـوزون (۲) !! و ينبغى الانتبـــاه هنـــا إلى أنّ كلمه(أعجمى)من«عجمه»على وزن«لقمه» و تعنى عـدم الفصاحه و الإبهام فى الكلام،و تطلق«عجم»على غير العرب لأن العرب لا يفهمون كلامهم بوضوح،و تطلق«أعجم»على من لا يجيد الحديث و الكلام سواء كان عربيا أو غير عربى.

بناء على هذا فإنّ(أعجمى)هى(أعجم)منسوبه بالياء.

۱- ۱) -فى تفسير الفخر الرازى نقرأ قوله:نقلوا فى سبب نزول هذه الآيه أنّ الكفار لأجل التعنت قالوا:لو نزل القرآن بلغه العجم».

۲- ۲) -بعض المفسّرين فسّر قوله تعالى: ءَ أَعْجَمِيٌّ وَ عَرَبِيٌّ بنفس معناه المباشر أى مزيج و خليط بين العربى و الأعجمى.

ثم يخاطب القرآن الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم بالقول: قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَ شِفٰاءٌ .

أمّا لغيرهم: وَ الَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ فِي آذٰانِهِمْ وَقْرٌ أىّ«ثقل»و لذلك لا يدركونه.

ثم إنّه: وَ هُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى (١) .أىّ أنّهم لا يرونه بسبب عماهم،فهؤلاء كالاشخاص الذين ينادون من بعيد: أُولٰئِكَ يُنٰادَوْنَ مِنْ مَكٰانٍ بَعِيدٍ .

و من الواضح أنّ مثل هؤلاء الأشخاص لا يسمعون و لا يبصرون.فلأجل العثور على الطريق و الوصول إلى الهدف لا يكفى وجود النور وحده،فيجب أن تكون هناك عن تبصر،كذلك يقال فى مسأله التعلّم،حيث لا يكفى وجود المبلّغ و الداعيه الفصيح،بل ينبغى أن تكون هناك أذن تسمع و تعى،فلا شك فى بركه المطر و تأثيره فى نمو النباتات.و لكن المسأله فى الأرض.طيبه أم خبيثه!! فالذين يتعاملون مع القرآن بروح تبحث عن الحقيقه سيهتدون و ستشفى نفوسهم و صدورهم به،حيث يعالج القرآن الكريم الأمراض الأخلاقيه و الروحيه، ثم يشدّون الرحال للسفر نحو الآفاق العاليه فى ظل نور القرآن و هداه.

أمّا ماذا يستفيد المعاندون و المتعصبون و أعداء الحق و الحقيقه و أعداء الأنبياء و الرسل،من كتاب اللّه تعالى،فهم فى الواقع مثلهم مثل الأعمى و الأصم و من ينادى من مكان بعيد،فهل تراه يسمع النداء أو يستجيب لهداه،إنّهم كمن أصيب بالعمى و الصمم المضاعف،و هو بعد ذلك فى مكان بعيد!! و نقل بعض المفسّرين أنّ أهل اللغه يقولون لمن يفهم:أنت تسمع من قريب.

و يقولون لمن لا يفهم:أنت تنادى من بعيد (٢) .

«و ثمّه شرح مفصل حول شفاء القرآن و معالجته لآلام الإنسان الروحيه»

١- ١) -بعض المفسّرين ذهب إلى القول بأنّ الجمله أعلاه معناها هو:أنّ القرآن هو سبب فى عمى هذه الفئه و عدم رؤيتها»فى حين أنّ الراغب فى المفردات و ابن منظور فى لسان العرب اعتبروا قول العرب«عمى عليه»بمعنى أنّه«اشتبه حتى صار الإضافه إليه كالأعمى»و بناء على هذا يكون المراد من الآيه هو ما ذهبنا إليه فى المتن.

٢- ٢) -يلاحظ ذلك فى تفسير القرطبى حديثه عن الآيه.

یمکن مراجعته ذیل الآیه(۸۲)من سوره الإسراء.» الآیه التالیه تستمر فی مواساه رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم و المؤمنین معه و تقول لهم:إنّ للعناد و الإنکار تأریخ طویل فی حیاه النبوات: وَ لَقَدْ آتَیْنا مُوسَی الْکِتٰابَ فَاخْتُلِفَ فِیهِ .

و إذ تری أنّنا لا نعجل فی عقاب هؤلاء الأعداء المعاندین، فذلک لأنّ المصلحه،تقتضی أن یکونوا أحرارا حتی تتمّ الحجّه علیهم: وَ لَوْ لاٰ کَلِمَهٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّکَ لَقُضِیَ بَیْنَهُمْ أی لکان العقاب قد شملهم بسرعه.

إنّ التأجیل الإلهی إنما یتم هنا لمصلحه الناس و من أجل المزید من فرص الهدایه و النور،و بغیه إتمام الحجه علیهم،و هذه السّنه کانت نافذه فی جمیع الأقوام السابقه،و هی تجری فی قومک أیضا.

لکنّهم لم یصدّقوا بهذه الحقیقه بعد: وَ إِنَّهُمْ لَفِی شَکٍّ مِنْهُ مُرِیبٍ .

«مریب»من«ریب»بمعنی الشک الممزوج بسوء الظن و القلق،لذلک فمعنی الآیه:إنّ المشرکین لا یشکون فی کلامک و حسب،بل یزعمون وجود القرائن علی بطلانه و التی تؤدی بزعمهم إلی الریب.

بعض المفسّرین احتمل أنّ مراد الجمله الأخیره هم الیهود و کتاب موسی علیه السّلام، بمعنی أنّ هؤلاء القوم لا یزالون یشکون فی التوراه،لکن بعد هذا المعنی یرجح التّفسیر الأول (۱) .

فی الآیه الأخیره-من المجموعه-نقف أمام قانون عام یرتبط بأعمال الناس، و قد أکّده القرآن مرارا.و هذا القانون یکمل البحث السابق بشأن استفاده المؤمنین من القرآن،بینما یحرم غیر المؤمنین أنفسهم من فیض النور الإلهی و الهدی الرّبانی.

یقول تعالی فی هذا القانون:

۱- ۱) -ینبغی أن یلاحظ أن الآیه بعینها وردت فی سوره هود آیه(۱۱۰).

مَنْ عَمِلَ صٰالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ أَسٰاءَ فَعَلَيْهٰا وَ مٰا رَبُّکَ بِظَلاّمٍ لِلْعَبِيدِ

.

لذا فإنّ من لم يؤمن بهذا الكتاب و الدين العظيم فسوف لن يضروا اللّه تعالى و لا يضروك،لأن الحسنات و السيئات تعود إلى أصحابها،و هم الذين سينالون حلاوه أعمالهم و مرارتها.

مسائل:

اشاره

أوّلا:الإختيار و العداله

قوله تعالى: وَ مٰا رَبُّکَ بِظَلاّمٍ لِلْعَبِيدِ دليل واضح على قانون الإختيار و حربه الإراده،و فيه حقيقه أنّ اللّه لا يعاقب أحدا بدون سبب،و لا يزيد فى عقاب أحد دون دليل،فسياسته فى عباده العداله المحضه،لأنّ الظلم يكون بسبب النقص و الجهل و الأهواء النفسيه،و الذات الإلهيه المقدسه منزّهه عن كلّ هذه العيوب و النواقص.

كلمه«ظلاّم»و التى هى صيغه مبالغه بمعنى«كثير الظلم»،يمكن أن تشير- هنا و فى آيات قرآنيه اخرى-إلى أنّ العقاب دون سبب من قبل الخالق العظيم يعتبر مصداقا للظلم الكثير،لأنّه تعالى منزّه عن هذا الفعل.

و ذهب بعضهم الى أن اللّه تعالى له عباد كثر،فلو أراد أن يظلم كلّ واحد منهم بجزء يسير قليل،عندها سيكون مصداقا ل«ظلاّم».

و هذان التّفسيران لا يتعارضان فيما بينهما.

المهم هنا أنّ القرآن و فى هذه الآيات البينات نفى الجبر الذى يؤدى الى اشاعه الفساد و ارتكاب أنواع القبائح،و الاعتقاد به يؤدى إلى إلغاء أى نوع من المسؤوليه و التكليف،بينما الجميع مسئولون عن أعمالهم،نتائجها تعود بالدرجه الأولى عليهم.

ص :۴۲۸

لذلک نقرأ

فی حدیث عن الإمام علی بن موسی الرضا علیه السّلام فی الإجابه علی هذا السؤال: هل یجبر اللّه عباده علی المعاصی؟ فقال:«لا،بل یخیرهم و یمهلهم حتی یتوبوا».

فسئل علیه السّلام مجددا:هل کلف عباده ما لا یطیقون؟ أجاب الإمام علیه السّلام:«کیف یفعل ذلک و هو یقول: وَ مٰا رَبُّکَ بِظَلاّٰمٍ لِلْعَبِیدِ ».

ثم أضاف الإمام الرضا علیه السّلام:«إنّ أبی موسی بن جعفر نقل عن أبیه جعفر بن محمّد من زعم أنّ اللّه یجبر عباده علی المعاصی أو یکلفهم ما لا یطیقون فلا تأکلوا ذبیحته،و لا تقبلوا شهادته،و لا تصلوا وراءه و لا تعطوه من الزکاه شیئا» (۱) .

إنّ هذا الحدیث الشریف یشیر-ضمنا-إلی هذه الملاحظه الدقیقه.و هی إنّ الجبریین ینتهون فی عقیدتهم إلی القول ب«التکلیف بما لا یطاق»لأنّ الإنسان إذا کان مجبورا علی الذنب من ناحیه، و ممنوعا عنه من ناحیه اخری،فهذا یکون مصداقا واضحا للتکلیف بما لا یطاق.

ثانیا:الذنوب و سلب النعم

فی حدیث عمیق الدلاله لأمیر المؤمنین نقرأ

قوله علیه السّلام: «و أیم اللّه!ما کان قوم قط فی غض نعمه من عیش فزال عنهم إلاّ بذنوب اجترحوها،لأنّ اللّه لیس بظلام للعبید».

ثم أضاف علیه السّلام:

«و لو أنّ الناس حین تنزل بهم النقم،و تزول عنهم النعم،فزعوا إلی ربّهم بصدق من نیاتهم،و وله من قلوبهم،لردّ علیهم کلّ شارد،و أصلح لهم کلّ فاسد.» (۲) .

۱- ۱) -عیون أخبار الرضا،نقلا عن نور الثقلین،المجلد ۴،صفحه ۵۵۵.

۲- ۲) -نهج البلاغه،الخطبه ۱۸۸.

إنّ هذا النص العلوی الکریم یوضح-بجلاء-علاقه الذنوب بسلب النعم و زوالها.

ثالثا:لماذا کلّ هذا التحجج؟!

لا ـ شک أنّ اللغه العربیه أغنی اللغات و أوسعها،و لکن مع هـذا فإنّ عظمه القرآن لیست لأنّه باللغه العربیه،بل تعود عربیه القرآن إلی أنّ اللّه یرسل الرسل بلسان قومهم کی یؤمنوا أولا،ثمّ ینتشر الدین إلی الآخرین.

لکن أصحاب الـذرائع و الحجج یطرحون فی کلّ موقف حجه أو ذریعه غیر منطقیه،و هم یعلمون أنّهم بأسلوبهم هذا لا یبحثون عن الحقیقه و لا ینشدونها.

إنّهم یقولون مرّه:لماذا نزل القرآن بـالعربیه؟ألم یکن من الأفضـل أن ینزل کلّه أو جزء منه بلغه اخری حتی یفهمه الآخرون؟(فی حین أنّهم کانوا یهدفون إلی تحقیق شیء آخر هو أن لا ینجذب عامه العرب نحو القرآن الکریم).

و لو حقّق لهم هـذا الطلب فسیقولون:کیف یکون الرّسول عربیـا و کتـابه غیر عربی؟ هؤلاء إنّما یهربون من الحق من خلال التـذرّع.و عاده ما یکون أسلوب التـذرّع و إثاره الحجـج دلیلا علی وجود عله اخری و هدف آخر یخفیه الإنسان و یغطّی علیه،و علّه هؤلاء القوم کانت أنّ عامه الناس شغفوا بالقرآن الکریم و انجذبوا إلیه،فأصبحت مصالحهم فی خطر،لذا فقد استخدموا کلّ الوسائل المتاحه لهم لمواجهه الإسلام دعوه و کتابا و نبیّا.

بدایه الجزء الخامس و العشرون من القرآن الکریم

ص :431

الآيات [سوره فصلت (۴۱): الآيات ۴۷ الى ۴۸]

اشاره

إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ اَلسّٰاعَهِ وَ مٰا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرٰاتٍ مِنْ أَكْمٰامِهٰا وَ مٰا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثىٰ وَ لاٰ تَضَعُ إِلاّٰ بِعِلْمِهِ وَ يَوْمَ يُنٰادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكٰائِي قٰالُوا آذَنّٰاكَ مٰا مِنّٰا مِنْ شَهِيدٍ (۴۷) وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مٰا كٰانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَ ظَنُّوا مٰا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (۴۸)

التّفسير

اشاره

اللّه العالم بكلّ شيء:

الآيه الأخيره-في المجموعه السابقه-تحدثت عن قانون تحمّل الإنسان لمسؤوليه أعماله خيرا كانت أم شرا،و عوده آثار أعماله على نفسه،و هي إشاره ضمنيه لقضيه الثواب و العقاب في يوم القيامه.

و هنا يطرح المشركون هذا السؤال:متى تكون هذه القيامه التي تتحدّث عنها؟الآيتان اللتان نبحثهما تجيبان أولا عن هذا السؤال،إذ يقول القرآن:إنّ اللّه وحده يختص بعلم قيام الساعه: إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السّٰاعَهِ .

فلا يعلم بذلك نبيّ مرسل و لا ملك مقرّب،و يجب أن يكون الأمر كذلك لأغراض تربويه يكون فيها المكلّف على استعداد دائم للمحاسبه في أي ساعه.

ثم تضیف الآیه:لیس علم الساعه لوحدها من مختصات العلم الإلهی فحسب،بل یندرج معها أشیاء اخری مثل أسرار هذا العالم،و ما یختص بالکائنات الظاهره و المخفیه: وَ مٰا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرٰاتٍ مِنْ أَکْمٰامِهٰا وَ مٰا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثیٰ وَ لاٰ تَضَعُ إِلاّٰ بِعِلْمِهِ (۱) .إنّ النباتات لا تنمو،و الحیوانات لا تتکاثر،و لا یضع الإنسان نطفه إلاّ بأمر الخالق العظیم و،بمقتضی علمه و حکمته.

«أکمام»جمع«کم»علی وزن«جم»و تعنی الغلاف الذی یغطّی الفاکهه و«کم»علی وزن«قم»تعنی الجزء من الرداء الذی یغطّی الید.أمّا«کمه»علی وزن«قبه»فهی القلنسوه علی الرأس (۲) .

قال العلاّمه الطبرسی فی مجمع البیان:تکمم الرجل فی ثوبه،أی غطّی الشخص نفسه بلباسه.

أمّا الفخر الرازی فیفسّر«الأکمام»بمعنی القشره التی تغطی الفاکهه.

و هناک من المفسّرین من فسروها بأنّها:«وعاء الثمره» (۳) .

و یبدو أنّ جمیع هذه الآراء تعود إلی معنی واحد،و لأنّ أدق المراحل فی عالم الکائن الحی هی مرحله النمو فی الرحم و الولاده،لذلک أکّد القرآن علی هاتین القضیتین،سواء فی عالم الإنسان و الحیوان،أم فی عالم النبات.

فاللّه هو الذی یعلم بالنطف و زمان انعقادها فی الأرحام و لحظه ولادتها، و یعلم متی تتشکل الثمار و تنمو،و متی تخرج من أغلفتها.

ثم یضیف السیاق القرآنی:إنّ هذه المجموعه التی تنکر القیامه و تستهزئ بها،ستتعرض إلی مشهد یقال لهم فیه: وَ یَوْمَ یُنٰادِیهِمْ أَیْنَ شُرَکٰائِی قٰالُوا آذَنّٰاکَ مٰا مِنّٰا مِنْ شَهِیدٍ (۴) .

۱- ۱) -«من»فی«من الثمرات»و«من أنثی»و کذلک فی«من شهید»تأتی فی نهایه الآیه کلّها،زائده جاءت هنا للتأکید.

۲- ۲) -یلاحظ الراغب فی المفردات.

۳- ۳) -تفسیر المیزان و تفسیر المراغی.

۴- ۴) -«آذناک»من«إیذان»بمعنی الإعلان،و جمله«یومینادیهم»تتعلق بمحذوف.و التقدیر:«اذکر یوم ینادیهم...».

فما كنّا نقوله هو كلام باطل كان كلاما نابعا من الجهل و العناد و التقليد و الأعمى،و اليوم عرفنا مدى بطلان ادعاءاتنا الواهيه.

و هؤلاء فى نفس الوقت الـذى يسـجلون اعترافهم السابق،فهم أيضا لا يشاهـدون أثرا للمعبودات التى كانوا يعبدونها من دون اللّه من قبل: وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مٰا كٰانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ .

إنّ مشهد القيامه مشهد موحش مهول بحيث يأخذ منهم الألباب،فينسون خواطر تلك الأصنام و المعبودات التى كانوا يعبدونها و يسـجدون لها و يذبحون لها القرابين،بل و كانوا أحيانا يضـحون بأرواحهم فى سبيلهم،و كانوا يظنون أنّها تحل لهم مشـكلاتهم و تنفعهم يوم الحاجه...إنّ كلّ ذلك أصبح وهما كالسراب.

ففى ذلك اليوم سيعلمون: وَ ظَنُّوا مٰا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ .

«محيص»من«حيص»على وزن«حيف»و تعنى العدول و التنازل عن شىء، و لأنّ(محيص)اسم مكان،فهى تعنى هنا الملجأ و المفر.

«ظنوا»من«ظنّ»و لها فى اللغه معنى واسع،فهى أحيانا بمعنى اليقين،و تأتى أيضا بمعنى الظن.و فى الآيه مورد البحث جاءت بمعنى اليقين،إذ أنّهم سيحصل لهم فى ذلك اليوم اليقين حيث لا مفرّ و لا نجاه من عذاب اللّه.

يقول الراغب الأصـفهانى فى المفردات:«ظن»تعنى الاعتقاد الحاصل من الـدليل و القرينه،و هـذا الاعتقاد قد يكون قويا فى بعض الأحيان و يصل إلى مرحله اليقين،و أحيانا يكون ضعيفا لا يتجاوز حدّ الظن.

(۴)

-لقد ذكروا لهذه الجمله تفسيرا آخر هو:لا يوجد بيننا اليوم من يشهد بوجود شريك لك،و الكل ينكر وجود الشريك.

الآیات [سوره فصلت (۴۱): الآیات ۴۹ الی ۵۲]

اشاره

لاٰ یَسْأَمُ اَلْإِنْسٰانُ مِنْ دُعٰاءِ اَلْخَیْرِ وَ إِنْ مَسَّهُ اَلشَّرُّ فَیَؤُسٌ قَنُوطٌ (۴۹) وَ لَئِنْ أَذَقْنٰاهُ رَحْمَهً مِنّٰا مِنْ بَعْدِ ضَرّٰاءَ مَسَّتْهُ لَیَقُولَنَّ هٰذٰا لِی وَ مٰا أَظُنُّ اَلسّٰاعَهَ قٰائِمَهً وَ لَئِنْ رُجِعْتُ إِلیٰ رَبِّی إِنَّ لِی عِنْدَهُ لَلْحُسْنیٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ اَلَّذِینَ کَفَرُوا بِمٰا عَمِلُوا وَ لَنُذِیقَنَّهُمْ مِنْ عَذٰابٍ غَلِیظٍ (۵۰) وَ إِذٰا أَنْعَمْنٰا عَلَی اَلْإِنْسٰانِ أَعْرَضَ وَ نَأیٰ بِجٰانِبِهِ وَ إِذٰا مَسَّهُ اَلشَّرُّ فَذُو دُعٰاءٍ عَرِیضٍ (۵۱) قُلْ أَ رَأَیْتُمْ إِنْ کٰانَ مِنْ عِنْدِ اَللّٰهِ ثُمَّ کَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِی شِقٰاقٍ بَعِیدٍ (۵۲)

التّفسیر

فی نفس الاتجاه الذی تحدّث فیه الآیات السابقه،نلتقی مع مضمون المجموعه الجدیده من الآیات التی بین أیدینا،و التی تواصل حدیثها عن صور اخری حیّه و ناطقه من حیاه أناس من عدیمی الإیمان و ضعافه،الذین یحملون أفکارا غیر ناضجه و مواقف مهزوزه و لا یمتلکون القدره علی تحمل الصعاب.

ص: ۴۳۶

يقول تعالى: لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ .

فليس لحرص الإنسان من نهايه،فكلما يحصل على شيء يطالب بالمزيد، و مهما يعطى لا يكتفى بذلك.

و لكنّه: وَ إِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُسٌ قَنُوطٌ .

و المقصود بالإنسان هنا الإنسان غير المتربى بعد بأصول التربيه الإسلاميه، و الذى لم يتنور قلبه بالمعرفه الإلهيه و الإيمان باللّه،و لم يحسّ بالمسؤوليه بشكل كامل.إنّها كنايه عن الناس المتقوقعين فى عالم الماده بسبب الفلسفات الخاطئه، فهم لا يملكون الروح العاليه التى تؤهلهم للصبر و الثبات،و تجاوز الحدود الماديه إلى ما وراءها من القيم العظيمه.

هؤلاء يفرحون إذا أقبلت الدنيا عليهم،و ييأسون و يحزنون إذا ما أدبرت عنهم،و لا يملكون ملجأ يلجأون إليه،و لا يدخل نور الأمل و الهدايه إلى قلوبهم.

و ينبغى أن نشير أيضا إلى أنّ«دعاء»تأتى أحيانا بمعنى المناداه،و أحيانا بمعنى الطلب،و فى الآيه التى نبحثها جاءت بالمعنى الثّانى.

لذا فقوله تعالى: لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ يعنى لا يمل و لا يتعب الإنسان أبدا من طلب الخير و الجميل.

و ثمّه بيّن المفسّرين اختلاف فى الرأى حول«يؤوس»و«قنوط»فيما إذا كانا بمعنى واحد أم لا؟ يرى البعض أنّهما بمعنى واحد،و التكرار للتأكيد (۱) .

و قال البعض الآخر:«يؤوس»من«يئس»بمعنى اليأس فى القلب،أمّا «قنوط»فتعنى إظهار اليأس على الوجه و فى العمل (۲) .

أمّا«الطبرسى»فقد قال فى مجمع البيان:إنّ الأوّل هو اليأس من الخير،بينما

۱- ۱) -تفسير الميزان،المجلد ۱۷،صفحه ۴۲۶.

۲- ۲) -الفخر الرازى فى التّفسير الكبير،المجلد ۲۷،صفحه ۱۳۷،و روح المعانى،المجلد ۲۵،صفحه ۴.

الثّانی هو الیأس من الرحمه (١) .

و لکن الذی نستفید،من الاستخدام القرآنی أنی الاثنین یستخدمان تقریبا للدلاله علی معنی واحد،فنقرأ فی قصه یوسف-مثلا-أنّ یعقوب علیه السّلام حذّر أبناءه من الیأس من رحمه اللّه،فی حین کانت قلوبهم یائسه من العثور علی یوسف، و کانوا أیضا یظهرون علامات الیأس. (٢) .

و فی حاله إبراهیم علیه السّلام نری أنّه عجب من البشاره التی زفتها إلیه الملائکه بالولد،لکن الملائکه قالت له: بَشَّرْنٰاکَ بِالْحَقِّ فَلاٰ تَکُنْ مِنَ الْقٰانِطِینَ (٣) .

الآیه التالیه تشیر إلی صفه اخری من صفات الإنسان الجاهل البعید عن العمل و الإیمان متمثله بالغرور: وَ لَئِنْ أَذَقْنٰاهُ رَحْمَهً مِنّٰا مِنْ بَعْدِ ضَرّٰاءَ مَسَّتْهُ لَیَقُولَنَّ هٰذٰا لِی (۴) أی إنّنی مستحق و لائق لمثل هذه المواهب و المقام.

إنّ الإنسان المغرور ینسی أنّ البلاء کان من الممکن أن یشمله عوضا عن النعمه،تماما کما قال قارون: قٰالَ إِنَّمٰا أُوتِیتُهُ عَلیٰ عِلْمٍ عِنْدِی (۵) .

تضیف الآیه بعد ذلک أنّ هذا الغرور یقود الإنسان فی النهایه إلی إنکار الآخره حیث یقول: وَ مٰا أَظُنُّ السّٰاعَهَ قٰائِمَهً .و لنفرض أنّ هناک قیامه فإنّ حالی سیکون أحسن من هذا: وَ لَئِنْ رُجِعْتُ إِلیٰ رَبِّی إِنَّ لِی عِنْدَهُ لَلْحُسْنیٰ .

إنّ هذه الحاله تشابه ما استمعنا إلیه فی سوره الکهف من قصه الرجلین الذین کان أحدهما غنیا مغرورا،و الثّانی عارفا مؤمنا،حیث حکت الآیه علی لسان الثری المغرور قوله:

١- ١) -مجمع البیان،المجلد ٩،صفحه ١٨.

٢- ٢) -یوسف،الآیه ٨٧ فما فوق.

٣- ٣) -الحجر-۵۵.

۴- ۴) -ذهب بعض المفسرین للقول بأن جمله«هذا لی»تعنی أن هذه النعمه ستبقی دائما لی،أی إنها فی الحقیقه توضح دوام ذلک،إلا أن التفسیر الذی عرضناه أعلاه أنسب بالرغم من إمکان الجمع بین الإثنین،أی إنهم یعتبرون أنفسهم مستحقین للنعم، و یتصورونها دائمه لهم أیضا.

۵- ۵) -القصص،الآیه ٧٨.

مٰا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هٰذِهِ أَبَداً، وَ مٰا أَظُنُّ السّٰاعَهَ قٰائِمَهً وَ لَئِنْ رُدِدْتُ إِلىٰ رَبِّی لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهٰا مُنْقَلَباً

(۱)

.

لكنّ اللّه يحذّر أمثال هؤلاء بقوله تعالى: فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمٰا عَمِلُوا وَ لَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذٰابٍ غَلِيظٍ .

«العذاب الغليظ»هو العذاب الشديد المتراكم.

نفس هـذا المعنى لاحظنـاه فی مكـان آخر من القرآن،فی قوله تعالى فی الآيه (۱۰)من سوره هود: وَ لَئِنْ أَذَقْنٰاهُ نَعْمٰاءَ بَعْدَ ضَرّٰاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئٰاتُ عَنِّی إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ .

الآيه التی بعدها تذكر حاله ثالثه لمثل هؤلاء،هی حاله النسيان عند النعمه و فزع و الجزع عند المصيبه.

يقول تعالى: وَ إِذٰا أَنْعَمْنٰا عَلَى الْإِنْسٰانِ أَعْرَضَ وَ نَأىٰ بِجٰانِبِهِ أما: وَ إِذٰا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعٰاءٍ عَرِيضٍ .

«نـآ»من«نـأی»علی وزن«رأی»و تعنی الابتعـاد،و عنـد مـا تقترن مع كلمه «بجـانبه»فتكون كنـايه عن التكبر و الغرور،لأنّ المتكبرين ينأون بوجوههم دون اهتمام و يبتعدون.

«العريض»مقابل الطويل،و يستخدم العرب هاتين الكلمتين للدلاله على الزياده و الكثره.

و فی الايه(۱۲)من سوره يونس نری معـانی شبيهه لمـا نحن بصـدده،حيث يقول تعـالى: وَ إِذٰا مَسَّ الْإِنْسٰانَ الضُّرُّ دَعٰانٰا لِجَنْبِهِ أَوْ قٰاعِداً أَوْ قٰائِماً فَلَمّٰا كَشَفْنٰا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنٰا إِلىٰ ضُرٍّ مَسَّهُ كَذٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ .

إنّ الإنسان الـذی يفتقـد الإيمان و التقوی يكون عرضه لمثل هـذه الحالات، فهو مع إقبال النعم مغرور ناس للّه، و إذا أدبرت عنه قنوط يائس كثير الجزع.

و فی الجانب المقابل نری أنّ رجال الحق و أتباع الأنبياء و الرسل لا يتغيرون

ص: ۴۳۹

۱- ۱) -الكهف،الآيات،۳۵-۳۷.

إذا أقبلت عليهم النعم،و لا يهنون أو ييأسون أن يجزعون عند إدبارها،إنّهم مصداق قوله تعالى: رِجالٌ لاٰ تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَ لاٰ بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللّٰهِ فأربح التجاره لا تنسيهم ربّهم،إنّهم عارفون حق المعرفه بفلسفه النعمه و البلاء فى هذه الدنيا، يعلمون أنّ الابتلاءات ناقوس خطر لهم،بينما النعم اختبار و امتحان إلهى لهم.

و من الابتلاء ما يكون أحيانا عقوبه للغفله و النسيان،و النعم لإثاره دوافع الشكر لدى العباد.

و يلفت النظر هنا طرافه الاستخدام القرآنى لكلمتى«أذقنا»و«مسه»و التى تعنى أنّهم مع قليل جدا من إقبال الدنيا عليهم يتغيرون و ينسون و يصابون بالغرور، و هؤلاء مع«مسّه»قليله من ضرر أو بلاء يصابون باليأس و القنوط.

من هنا نقف على قيمه سعه الروح،و تدفق النفس بالإيمان،و اتساع آفاق الفكر،و انشراح الصدر،و استعداد الإنسان لمواجهه المشاكل و الصعاب،و تحدى المزالق و الأهواء،التى تعتبر جميعا من ثمار الإيمان و التقى.

يقول شهيد المحراب الإمام أمير المؤمنين على عليه السّلام فى أحد أدعيته التى تعتبر درسا لأصحابه:

«نسأل اللّه سبحانه أن يجعلنا و إيّاكم ممن لا تبطره نعمه، و لا تقصر به عن طاعه ربّه غايه،و لا تحل به بعد الموت ندامه و كئابه» (۱) .

الآيه الأخيره تتضمن الخطاب الأخير لهؤلاء،و تبيّن لهم-بوضوح-الأصل العقلى المعروف بدفع الضرر المحتمل،حيث تخاطب النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم فتقول: قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقاقٍ بَعِيدٍ (۲) .

و من الواضح أن هذا الكلام إنّما يقال للاشخاص الذين لا ينفع معهم أىّ دليل منطقى لشدّه عنادهم و تعصبهم.فالآيه تقول لهؤلاء:إذا كنتم ترفضون حقانيه

۱- ۱) -نهج البلاغه،الخطبه رقم ۶۴.

۲- ۲) -«أرأيتم»تأتى عاده بمعنى«أخبرونى»و تفسّر بنفس المعنى.

القرآن و التوحيد و وجود عالم ما بعد الموت و تصرون عليه،فأنتم لا تملكون حتما دليلا قاطعا على هذا الرفض،لذا يبقى ثمّه احتمال فى أن تكون دعوه القرآن و قضيه المعاد حقيقه موجوده،عندها عليكم أن تتصوروا المصير الأسود الموحش الذى ينتظركم لعنادكم و ضلالكم و معارضتكم الشديده إزاء الدين الإلهى.

إنّه نفس الأسلوب الذى نقرأ عنه فى محاججه أئمّه المسلمين لأمثال هؤلاء الأفراد،كما نرى ذلك واضحا فى الحادثه التى ينقلها العلّامه الكلينى فى «الكافى»حيث يذكر فيه الحوار الذى دار بين الإمام الصادق عليه السّلام و ابن أبى العوجاء.

فمن المعروف أنّ«عبد الكريم بن أبى العوجاء»كان من ملاحظه عصره و دهرييها،و قد حضر الموسم(الحج)أكثر من مرّه و التقى مع الإمام الصادق فى مجالس حوار،انتهت إلى رجوع بعض أصحابه عنه إلى الإسلام،و لكنّ ابن أبى العوجاء لم يسلم،و قد صرح الإمام(ع)بأن سبب ذلك هو إنّه أعمى و لذلك لا يسلم.

و الحادثه موضع الشاهد هنا،هى

أنّ الإمام بصر بابن أبى العوجاء فى الموسم فقال له:ما جاء بك إلى هذا الموضع؟ فأجاب ابن أبى العوجاء:عاده الجسد،و سنه البلد،و لننظر ما الناس فيه من الجنون و الحلق و رمى الحجاره! فقال له الإمام:أنت بعد على عتوك و ضلالك يا عبد الكريم (1)
.

و عند ما أراد أن يبدأ بالمناقشه و الجدال

قال له الإمام عليه السّلام: لا جدال فى الحج.

۱- ۱) -يناديه الإمام بهذا الاسم،و هو اسمه الحقيقى مع كونه منكرا للّه لكى يشعره مهانه ما هو عليه و هذا اسمه.

ثم قال له:إن یکن الأمر کما تقول،و لیس کما نقول،نجونا و نجوت.و إن یکن الأمر کما نقول،و هو کما نقول نجونا و هلکت.

فأقبل عبد الکریم علی من معه و قال:وجدت فی قلبی حزازه(ألم)فردّونی، فردوه فمات (۱) .

مسأله:

یثـار هنـا السؤال الآـتی:لقـد قرأنـا فی الآیـات التی نبحثهـا قوله تعـالی: إِذٰا مَسَّهُ الشَّرُّ فَـذُو دُعٰـاءٍ عَرِیضٍ و لکنّا نقرأ فی سوره«الإسـراء»قوله تعالی: وَ إِذٰا مَسَّهُ الشَّرُّ کٰانَ یَؤُساً (۲) و السؤال هنـا کیـف نوفق بین الآـیتین،إذ المعروف أنّ الـدعاء دلیل الأمـل،فی حیـن تتحـدث الآـیه الأـخری عن یـأس أمثـال هؤلاـء؟ أجـاب بعض المفسّـرین علی هـذا السؤال بتقسیم النـاس إلی مجموعتین، مجموعه تیأس نهائیا عند ما تصاب بالشر و البلاء،و اخری تصر علی الدعاء برغم ما بها من فزع و جزع (۳) .

البعض الآخر قال:إنّ الیأس یکون من تأمّل الخیر أو دفع الشـر عن طریق الأسـباب المادیه العادیه،و هـذا لا ینافی أن یلجأ الإنسان إلی اللّه بالدعاء (۴) .

و یحتمل أن تکون الإجابه من خلال القول بأنّ المقصود من فَذُو دُعٰاءٍ عَرِیضٍ

۱- ۱) -الکافی،المجلد الأول،ص ۷۷-۷۸،کتاب التوحید باب حدوث العالم.

۲- ۲) -الإسراء،الآیه ۸۳.

۳- ۳) -تفسیر روح البیان،المجلد الثامن،صفحه ۲۸۰.

۴- ۴) -تفسیر المیزان،مجلد ۱۷،ص ۴۲۸،لکن هـذا التفسـیر لا یناسب المقام کثیرا،خاصه و إن الآیات أعلاه هی بصدد ذم مثل هؤلاء الأشخاص،فی حین أن قطع الأمل من الأسباب الظاهریه و التوجه نحو الله لیس عیبا و حسب،بل یستحق التنویه و المدح.

هو ليس الطلب من اللّه،بل الجزع و الفزع الكثير،و دليل ذلك قوله تعالى فى الآيه(۲۰)من سوره المعارج: إِنَّ الْإِنْسانَ خُلِقَ هَلُوعاً إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً .

أو أن الآيتين تعبّران عن حالتين،إذ أنّ هؤلاء الأفراد يقومون أولا بالدعاء و طلب الخير من النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم و هم فزعون جزعون،ثمّ لا تمرّ فتره قصيره إلاّ و يصابون باليأس الذى يستوعب وجودهم كلّه.

ص :۴۴۳

الآیتان [سوره فصلت (۴۱): الآیات ۵۳ الی ۵۴]

اشاره

سَنُرِیهِمْ آیاتِنا فِی اَلْآفاقِ وَ فِی أَنْفُسِهِمْ حَتّی یَتَبَیَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ اَلْحَقُّ أَ وَ لَمْ یَکْفِ بِرَبِّکَ أَنَّهُ عَلی کُلِّ شَیْءٍ شَهِیدٌ (۵۳) أَلا إِنَّهُمْ فِی مِرْیَهٍ مِنْ لِقاءِ رَبِّهِمْ أَلا إِنَّهُ بِکُلِّ شَیْءٍ مُحِیطٌ (۵۴)

التّفسیر

اشاره

علائم الحق فی العالم الکبیر و الصغیر:

الآیتان الختامیتان فی هذه السوره تشیران إلی موضوعین مهمین،و هما بمثابه الخلاصه الأخیره لبحوث هذه السوره المبارکه.

فالآیه الأولی تتحدث عن التوحید(أو القرآن)،و الثانیه عن المعاد.

یقول تعالی: سَنُرِیهِمْ آیاتِنا فِی الْآفاقِ وَ فِی أَنْفُسِهِمْ حَتّی یَتَبَیَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ .

«آیات الآفاق»تشمل خلق الشمس و القمر و النجوم و النظام الدقیق الذی یحکمها،و خلق أنواع الأحیاء و النباتات و الجبال و البحار و ما فیها من عجائب و أسرار لا تعد و لا تحصی،و ما فی عالم الأحیاء من عجائب لا تنتهی،إنّ کلّ هذه الآیات هی دلیل علی التوحید و علی وجود اللّه.

أمّا«الآیات النفسیه»مثل خلق أجهزه جسم الإنسان،و النظام المحیر الذی

يتحكم بالمخ و حركات القلب المنتظمه و الشرايين و العظام و الخلايا،و انعقاد النطفه و نمو الجنين فی ظلمات الرحم.ثمّ أسرار الروح العجيبه.إنّ كلّ ذلک هی كتاب مفتوح لمعرفه الإله الخالق العظيم.

صحيح أنّ هذه الآيات قد طرقت سابقا بمقدار كاف من قبل اللّه تعالى،إلاّ أنّ هذه العمليه و الإراءه مستمره،لأنّ(سنريهم)فعل مضارع يدل على الاستمرار، و إذا عاش الإنسان مئات الآلاف من السنين،فسوف تنكشف له فی كلّ زمان علامات و آيات إلهيه جديده،لأنّ أسرار العالم لا تنتهی.

إنّ كافه كتب و بحوث العلوم الطبيعيه و ما يتصل بمعرفه الإنسان فی أبعاده المختلفه(التشريح،فسلجه الأعضاء،علم النفس،و التحليل النفسی)و كذلک العلوم التی تختص بمعرفه النباتات و الحيوانات و الهيئه و الطبيعه و غير ذلک،تعتبر فی الواقع كتبا و بحوثا فی التوحيد و معرفه الخالق(جلّ و علا)لأنّها عاده ما ترفع الحجب عن الأسرار العجيبه لتبيّن قدرا من حكمه الخالق العظيم،و قدرته الأزليه، و علمه الذی أحاط بكل شیء.

أحيانا يستحوذ علم واحد من هذه العلوم،بل فرع من فروعه المتعدّده على اهتمام عالم من العلماء فيصرف عمره فی سبيله،و فی النهايه يقرّر قائلا:مع الأسف لا زلت لا أعرف شيئا عن هذا الموضوع،و ما علمته لحد الآن تجعلنی أغوص أكثر فی أعماق جهلی، نعود الآن إلى الآيه التی تنتهی بجمله ذات مغزى حيث يقول تعالى: أَ وَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (1) .

و هل هناک شهاده أفضل و أعظم من هذه التی كتبت بخط القدره التكوينيه على ناصيه جميع الكائنات،على أوراق الشجر،فی الأوراد و الزهور،و بين

۱- ۱) -ذهب الكثير من المفسّرين إلى أنّ«الباء»زائده و«ربک»تقوم مقام الفاعل.و جمله«أنّه على كلّ شیء شهيد»«بدل» ذلک،و المعنى يكون هكذا:«أولم يكفهم أن ربّک على كلّ شیء شهيد».

طبقات المخ العجيبه،و على الأغشيه الرقيقه للعين،و فى آفاق السماء و بواطن الأرض،و فى كلّ شىء من الوجود تجد أثرا يدل على الخالق،و شهاده تكوينيه على وحدانيته و قدرته و حكمته و علمه(سبحانه و تعالى).

إنّ ما قلناه أعلاه هو أحد التّفسيرين المعروفين للآيه،إذ بناء على هذا التّفسير فإن الآيه بجميعها تتحدث عن قضيه التوحيد،و تجلّى آيات الحق فى الآفاق و الأنفس.

أمّا التّفسير الثّانى فيذهب إلى قضيه إعجاز القرآن،و خلاصته أنّ اللّه يريد أن يقول:لقد عرضنا معجزاتنا و دلائلنا المختلفه لا فى جزيره العرب و حسب،و إنّما فى نواحى العالم المختلفه،و فى هؤلاء المشركين أنفسهم،حتى يعلموا بأنّ هذا القرآن على حق.

فمن آيات الآفاق ما تمثّل بانتصار الإسلام فى ميادين الحرب المختلفه، و فى ميدان المواجهه الفكريه و المنطقيه،ثمّ انتصاره فى المناطق التى فتحها و حكم فيها على أفكار الناس.

ثم إنّ نفس المجموعه من المسلمين التى كانت فى مكّه،كيف يسّر اللّه لها أمرها بالهجره،ثمّ انطلقت إلى بقاع الدنيا،لتدين لدينها الشعوب فى مناطق واسعه من العالم و رفع رايه الإسلام.

و من آيات الأنفس ما تمثل فى انتصار المسلمين على مشركى مكّه فى معركه بدر،و فى يوم فتح مكّه،و نفوذ نور الإسلام إلى قلوب العديد منهم.

إنّ هذه الآيات الآفاقيه و الأنفسيه أثبتت أنّ القرآن على حق.

و هكذا فإنّ الخالق العظيم الذى يشهد على كلّ شىء،شهد أيضا على حقانيه القرآن عن هذا الطريق.

و بالرغم من أنّ لكل واحد من هذين التّفسيرين قرائن و أدله ترجحه،إلاّ أن

التأمل فی نهایه الآیه و الآیه التی تلیها یکشف عن رجاحه التّفسیر الأوّل (۱) .

و ثمّه أقوال اخری فی تفسیر الایه ترکناها لعدم جدواها.

الآیه الأخیره فی السوره تشیر إلی الأساس و السبب فی شقاء هذه المجموعه المشرکه الفاسده،إذ یقول تعالی عنهم: أَلاٰ إِنَّهُمْ فِی مِرْیَهٍ مِنْ لِقٰاءِ رَبِّهِمْ .

و لأنّهم لا یؤمنون بیوم الحساب و الجزاء،فهم یقومون بأنواع الجرائم و المعاصی مهما کانت،و مهما بلغت.إنّ حجب الغفله و الغرور تهیمن علی هؤلاء فتنسیهم لقاء اللّه،ممّا یؤدی بهم إلی السقوط عن مصاف الإنسانیه.

و لکنّهم یجب أن یعلموا: أَلاٰ إِنَّهُ بِکُلِّ شَیْءٍ مُحِیطٌ .

إنّ جمیع أعمالهم و نوایاهم حاضره فی علم اللّه،و کل ذلک یسجّل لمحکمه القیامه و الحشر.

«مریه»علی وزن«جزیه»و«قریه»تعنی التردّد فی اتخاذ القرار،و البعض اعتبرها بمعنی الشک و الشبهه العظیمه،و الکلمه مأخوذه فی الأصل من«مریت الناقه»بمعنی عصر ثدی الناقه بعد حلبها أملا بوجود بقایا الحلیب فیه،و لأنّ هذا العمل مع الشک و التردّد،فقد وردت هذه الکلمه بهذا المعنی.

و عند ما نسمع إطلاق کلمه«المراء»علی«المجادله»فذلک لما یحاوله

۱- ۱) -التّفسیر الأوّل له أربعه مرجحات هی: أولا:إنّ أکثر ما تؤکد علیه الآیات هو قضیه التوحید و أدلته. ثانیا:إنّ تعبیری«آفاق و أنفس»أکثر تناسبا مع آیات التوحید. ثالثا:نشیر نهایه الآیه فی قوله تعالی: أَ وَ لَمْ یَکْفِ بِرَبِّکَ أَنَّهُ عَلیٰ کُلِّ شَیْءٍ شَهِیدٌ إلی قضیه التوحید،و شهاده اللّه التکوینیه علی حقانیه ذاته المنزّهه. رابعا:الآیه التی تلیها تتحدث عن المعاد،و نحن نعرف أنّ المبدأ و المعاد غالبا ما یقترن أحدهما بالآخر. أما التّفسیر الأوّل فله ثلاثه مرجحات هی: أوّلا:إنّ ضمیر«إنّه»مفرد للغائب،فی حین أنّ ضمیر«آیاتنا»متکلّم مع الغیر،و هذه إشاره إلی أنّ کلّ ضمیر من الضمیرین یختص بمتابعه موضوع خاص. ثانیا:إنّ الآیه السابقه کانت حول القرآن بالخصوص. ثالثا:إنّ جمله«سنریهم»التی هی فعل مضارع للاستمرار،تفید هذا المعنی بالذات،أی أنّ الآیات المذکوره سنعرضها فیما بعد.

الإنسان من إخراج ما فی ذهن الطرف الآخر.

و الآیه-فی هذا الجزء منها-رد علی شبهات الکفار بخصوص المعاد،فهؤلاء یقولون:کیف یمکن لهذا التراب المتناثر المختلط مع بعضه البعض أن ینفصل؟و من یستطیع أن یجمع أجزاء الإنسان؟و الأکثر من ذلک:من الـذی یحیط بنیات الناس و أعمالهم علی مدی تأریخ البشریه؟ القرآن یجیب علی کلّ ذلک بالقول:کیف یمکن للخالق المحیط بکل شیء أنّ لا تکون هذه الأمور طوع قدرته و واضحه بالنسبه له؟ ثم إنّ دلیل إحاطه علمه بکل شیء،هو تدبیره لکل هذه الأمور،فکیف یجوز له أن لا یعلم بأمور ما خلق و دبّر؟ بعض المفسّرین اعتبر أنّ الآیه تختص بالتوحید و لیس بالمعاد،حیث یقول العلامه الطباطبائی فی ذلک:«الذی یفیده السیاق أنّ فی الآیه تنبیها علی أنّهم لا ینتفعون بالاحتجاج علی وحدانیته تعالی بکونه شهیدا علی کلّ شیء،و هو أقوی براهین التوحید و أوضحها لمن تعقل،لأنّهم فی مریه و شک من لقاء ربّهم،و هو تعالی غیر محجوب بصفاته و أفعاله عن شیء من خلقه» (۱).

و لکن هذا التّفسیر مستبعد نظرا لأنّ تعبیر«لقاء اللّه»عاده ما یأتی للکنایه علی یوم القیامه.

بحوث

اشاره

أوّلا:التوحید بین دلیل«النظم»و دلیل«الصدّیقین»

أشار الفلاسفه فی بحوثهم حول التوحید إلی الأهمیه الکبیره لنوعین من الاستدلال علی الخالق جلّ و علا:أحدهما الاستدلال من خلال«النظم».

۱- ۱) -تفسیر المیزان.المجلد(۱۷).صفحه(۴۰۵).

و الآخر دليل«الصديقين».

و دليل«النظم»كما يظهر من اسـمه،يبـدأ من نظام عالم الوجود و أسـراره و دقائقه،ليرشـد إلى مصدر العلم و القدره و الخلق الذى أوجد ذلك و دبره،و القرآن الكريم مليء بهذا النوع من الاستدلال،فهو يذكر نماذج كثيره عن آيات اللّه فى السماء و الأرض و فى مظاهر الحياه و نظمها و ما يمور فيها من كائنات،و ينتهى من هذا الطريق إلى إثبات وجود الصانع المدبّر(جلّ و علا).

إنّ كلّ شـخص يسـتطيع استيعاب هذا النوع من الاسـتدلال مهما كان مسـتواه و على قدر ما يجمل من علم و إدراك، إذ يستفيد منه أكبر العلمـاء على قـدر اسـتعداده و ثقـافته استيعابه،فى نفس الوقت الـذى يسـتفيد منه الأمّى و غير المتعلّم و غير المطّلع على فنون العلوم و المعرفه.

أمّـا دليل«الصـديقين»فهو نوع من الاسـتدلال يقوم بالوصول إلى(الـذات) بواسـطه(الـذات)نفسـها،و مثل هؤلاء يعرفونه تعالى من خلال وجوب وجوده.

بعبـاره اخرى:إنّ الممكنـات و المخلوقـات لاـ تكون هنـا واسـطه لإثبـات وجوده،بل إنّ ذاته بنفسه تـدل على ذاته،و يكون تعالى مصداقا ل

«يا من دلّ على ذاته بذاته» (١) و مصداقا أيضا ل شَهِدَ اللّٰهُ أَنَّهُ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ (٢) .

إنّ هذا الاسـتدلال اسـتدلال فلسـفى معقد بحيث لا يستطيع أن يحيط بكنهه و بأعماقه إلاّ من يحيط بمبادئه،و ليس من قصدنا هنا تبسـيط الـدليل فـذلك شـأن الكتب الفلسـفيه،و إنّما أردنا من خلال هـذا العرض أن نقف على آراء بعض المفسّـرين من الـذين يعتقـدون بـأنّ مطلع الآـيه فى قوله تعـالى: سَـنُرِيهِمْ آيٰاتِنٰا فِي الْآفٰاقِ يتضـمّن إشاره إلى دليل«النظم»و العله و المعلول.بينما اعتبروا نهايه الآيه فى قوله تعالى: أَ وَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ إشاره إلى دليل

١- ١) -هذا المقطع من دعاء الصباح المنقول عن أمير المؤمنين عليه السّلام.

٢- ٢) -آل عمران،الآيه ١٨.

«الصديقين».

و لكن ليس ثمّه قرائن واضحه من نفس الآيه تؤيد فكره هذا الاستنتاج!

ثانيا:حقيقه إحاطه اللّه بكل شيء

يجب أن لا نتصور-مطلقا-أنّ إحاطه الخالق جلّ و علا بالموجودات و الكائنات تشبه إحاطه الهواء الذى يلف الكره الأرضيه و يغلّفها،لأنّ مثل هذه الإحاطه هى دليل المحدوديه،بل الإحاطه المعنيه هنا تتضمن معنى دقيقا و لطيفا يتمثل فى ارتباط كلّ الكائنات و الموجودات بالذات المقدسه.

و بعباره اخرى:لا يوجد فى عالم الوجود سوى وجود أصيل واحد قائم بذاته، و بقيه الموجودات و الكائنات تعتمد عليه و ترتبط به،بحيث لو زال هذا الارتباط لحظه واحده فلا يبقى شيء منها.

إنّ هذه الإحاطه نتلمّس كنهها و حقيقتها فى الكلمات الوارده عن أمير المؤمنين عليه السّلام إذ يقول:«مع كلّ شيء لا بمقارنه،و غير كلّ شيء لا بمزايله».

و قد نلمح هذا المعنى بعينه فيما ذكره الإمام الحسين عليه السّلام فى دعاء عرفه ذى المحتوى العميق،إذ

يقول فيه: «أ يكون لغيرك من الظهور ما ليس لك،حتى يكون هو المظهر لك؟متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك؟و متى بعدت حتى تكون الآثار هى التى توصل إليك؟عميت عين لا تراك عليها رقيبا،و خسرت صفقه عبد لم تجعل له من حبك نصيبا» (۱) .

ثالثا:آيات الآفاق و الأنفس

لو أتيح للإنسان أن ينكر كلّ ما يستطيع،فهو لا يستطيع أن ينكر وجود نظام دقيق قائم يعم بنسقه عالم الوجود،فأحيانا يقضى عالم معين كلّ عمره بالدرس

۱- ۱) -مقطع من دعاء الإمام الحسين عليه السّلام فى يوم عرفه،و هو ممّا تذخر به كتب الأدعيه.

و المطالعه حول تركيب العين و أسرارها أو المخ أو القلب،و يقرأ الكتب الكثيره ممّا كتب حول الموضوع،إلّا أنّه أخيرا يعترف بأنّ هناك أسرارا كثيره حول موضوعه لا تزال مجهوله.

و هنا يجب أن لا يغيب عن بالنا أنّ علوم علماء اليوم،ليست هى سوى نتيجه متراكمه لجهود و دراسات آلاف العلماء عبر تأريخ البشر.

إنّ العالم اليوم ينطق فى كلّ جزء من أجزائه بوجود قدره أزليه تمكن وراءه، فكل شيء يدل على الصانع لمدبّر،و أى نبات ينبت على الأرض يهتف«وحده لا شريك له».

نستطيع هنا أن نترك الحديث عن القضايا العلميه المعقده،و نتجه إلى ظواهر عاديه ممّا ينتشر حولنا،لنتلمّس فيها أدله واضحه على إثبات الصانع العظيم.

و لا بأس هنا من ذكر هذين المثالين:

المثال الأول:الجميع يعرف أنّ هناك تقوّس فى أخمص قدم كلّ إنسان بحيث لا يبدو الأمر ملفتا للنظر مطلقا،و لكنّا نسمع فى معاملات الفحص الطبى الخاص بأداء الخدمه العسكريه،أنّ الشاب الذى يفتقد مثل هذا التقوّس يعفى من الخدمه العسكريه أو يحال إلى الأعمال المكتبيه الإداريه.

إنّ الإنسان الذى يفتقد مثل هذا التقوس يتعب بسرعه،و لا يملك الاستعداد الكافى لأداء الخدمه العسكريه التى تستدعى المشى الطويل.

و هكذا كلّ شيء فى هذا العالم و فى وجود الإنسان مخلوق بدقّه و نظم،حتى التقوس البسيط فى أخمص قدم الإنسان! المثال الثّانى:فى داخل فم الإنسان و عينه منابع فوّاره منتظمه و دقيقه الإفراز،يخرج من فتحتها الصغيره على مدى حياه الإنسان سائلان مختلفان تماما،لولاهما لما استطاع الإنسان أن يكون قادرا على الرؤيه أو التحدّث أو مضغ الطعام و بلعه.

بعباره اخری:إنّ الحیاه مستحیله بدون هذین السائلین العادیین ظاهرا! فبدون أن یکون سطح العین رطبا بشکل دائم یستحیل دوران الحدقه التی ستصاب بآلام کثیره و الأذی بمجرّد ملامستها لأجسام صغیره،بل ستمنعها هذه الأجسام عن الحرکه.

کذلک إذا لم یکن فم الإنسان و بلعومه رطبا،فإنّ الکلام یصبح أمرا مستحیلا بالنسبه له،و کذلک مضغ الطعام و بلعه.بل و حتی التنفس إذا کان الفم جافا.

و کذلک ینبغی أن تکون التجاویف الأنفیه رطبه دائما حتی یسهل دخول الهواء و مروره باستمرار.

و الدقیق هنا أنّ ماء العین ینزل عبر قنوات خاصه من العین إلی الأنف للمحافظه علی رطوبته،و إذا قدّر لهذا المجری أن یغلق لیوم واحدا فقط-کما نشاهد ذلک فی حال بعض المرضی-فإن الدموع ستسیل علی الوجه بشکل دائم و سیکون لها منظر مزعج مؤذ.

و نفس الکلام یقال بالنسبه للغدد اللعابیه فی الفم،فقلّه إفرازاتها تزید من جفاف اللسان و الفم و البلعوم،و کثرته تعوق التحدث و تجعل اللعاب یسیل من الفم إلی الخارج.

ثم إنّ المذاق الملحی للغدد الدمعیه یؤدی إلی حفظ أنسجه العین ضدّ الأجسام الغریبه بمجرّد دخولها إلی العین.

بینما یفتقد اللعاب لأی طعم،کی یستطیع الإنسان أن یشعر بالمذاق الخاص للأطعمه،بینما تساعد الأملاح الموجوده فیه علی هضم الطعام.

و إذا تدبرنا فی طبیعه التکوین الکیمیاوی و الفیزیائی لسوائل هذه الغدد و أنظمتها الدقیقه و منافعها،نتبیّن عندها أنّ وجودها لا یمکن أن یکون مجرّد صدفه عمیاء لا تعقل و لا تعی،بل هی من آیات اللّه الأنفسیه و مصداق لقوله الحق جلّ و علا: سَنُرِیهِمْ آیاتِنا فِی الْآفاقِ وَ فِی أَنْفُسِهِمْ حَتّی یَتَبَیَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ .

و فی إشاره عابره لکنّها کبیره الدلاله و المعنی،یتحدث الإمام الصادق فی الحدیث المعروف بتوحید المفضّل،الذی هو غنی جدّا فی الإشاره إلی الآیات الآفاقیه و الأنفسیه للّه فی الوجود،

یقول علیه السّلام: «أی مفضل!تأمل الریق و ما فیه من المنفعه،فإنّه جعل یجری جریانا دائما إلی الفم،لیبل الحلق و اللهوات فلا یجف، فإنّ هذه المواضع لو جعلت کذلک کان فیه هلاک الإنسان،ثمّ کان لا یستطیع أن یسیغ طعاما إذا لم یکن فی الفم بله تنفذه،تشهد بذلک المشاهده» (1) .

فإذا تجاوزنا جسم الإنسان فإنّ روحه بؤره للعجائب بحیث حیّرت جمیع العلماء.و ثمّه آلاف الآلاف من هذه الآیات البینات التی تشهد جمیعا«أنّه الحق».

و هنا یلتقی صوتنا-بدون إراده منّا-مع صوت الحسین علیه السّلام،و نقول:

«عمیت عین لا تراک»!! نهایه سوره فصّلت

ص:453

1- 1) -بحار الأنوار،المجلد 3،صفحه 77.

سوره الشّوری

اشاره

مکیّه و عدد آیاتها ثلاث و خمسون آیه

ص: ۴۵۵

نظره عامه فی محتوی السوره:

إنّ إطلاق اسم«الشوری»علی هذه السوره المبارکه یعود إلی محتوی الآیه (۳۸)منها و التی تدعو المسلمین إلی المشوره فی أمورهم.

و لکن بالإضافه إلی هذا الموضوع،و إلی ما تتضمنه السوره من بحوث و مضامین السور المّکیه من بحث فی المبدأ و المعاد،و القرآن و النبوّه،فإنّها تتناول قضایا اخری یمکن الإشاره إلیها مختصرا بما یلی من نقاط:

القسم الأول:و هو أهم أقسام السوره،یشتمل البحث فیه علی قضیه الوحی الذی یمثل طریق ارتباط الأنبیاء علیهم السّلام باللّه تبارک و تعالی.

و الملاحظ أنّ هذا الموضوع یلقی بظلاله علی جمیع أجزاء السوره،فالسوره تبدأ بالإشاره إلیه و تنتهی به أیضا.

و کامتداد لهذا الموضوع تثیر السوره بحوثا حول القرآن و نبوه نبیّ الإسلام و بدایه الرساله منذ أیام نبیّ اللّه نوح علیه السّلام.

القسم الثّانی:إشارات عمیقه المعنی إلی دلائل التوحید،و آیات اللّه فی الآفاق و الأنفس التی تکمّل البحث فی موضوع الوحی.

و فی هذا القسم ثمّه بحوث حول توحید الربوبیه.

القسم الثّالث:فی السوره إشارات إلی قضیه المعاد و مصیر الکفار فی القیامه.

ص :۴۵۷

و هو محدود قياسا إلى الأقسام الأخرى.

القسم الرابع:تشتمل السوره على مجموعه من البحوث الأخلاقيه التى تعكسها السوره بشكل خاص و دقيق.فهى تدعو أحيانا إلى ملكات خاصه مثل الاستقامه و التوبه و العفو و الصبر و إطفاء نار الغضب.

و تنتهى فى المقابل عن الرذيله،و الطغيان فى مقابل النعم الإلهيه،أو العناد و عباده الدنيا،و كذلك تنهى عن الفزع و الجزع عند ظهور المشاكل.

إنّ السوره تنطوى على مجموعه متكامله من دروس الهدى هى فى الواقع شفاء للصدور و مسالك نور فى طريق الحق.

فضيله تلاوه السوره:

جاء

فى حديث عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم قوله: «من قرأ سوره حم عسق كان ممن تصلّى عليه الملائكه،و يستغفرون له و يترحمون عليه» (۱) .

و

فى حديث آخر عن الصادق نقرأ قوله عليه السّلام «من قرأ حم عسق بعثه اللّه يوم القيامه و وجهه كالقمر ليله البدر،حتى يقف بين يدى اللّه عزّ و جلّ فيقول:عبدى أدمنت قراءه حم عسق و لم تدر ما ثوابها،أمّا لو دريت ما هى و ما ثوابها لما مللت من قراءتها،و لكن سأجزيك جزاءك،أدخلوه الجنّه».

و عند ما يدخل الجنّه يرفل بأنواع النعم الإلهيه التى ذكرها الإمام الصادق فى الحديث الآنف بشكل مفصل (۲) .

۱- ۱) -مجمع البيان،المجلد ۹-۱۰،ص ۳۱،طبعه دار المعرفه.

۲- ۲) -ثواب الأعمال،نقلا عن تفسير نور الثقلين،المجلد الرابع،صفحه ۵۵۶.

الآيات [سوره الشورى (۴۲): الآيات ۱ الى ۵]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِ حم (۱) عسق (۲) كَذٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَ إِلَى اَلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اَللّٰهُ اَلْعَزِيزُ اَلْحَكِيمُ (۳) لَهُ مٰا فِي اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِي اَلْأَرْضِ وَ هُوَ اَلْعَلِيُّ اَلْعَظِيمُ (۴) تَكٰادُ اَلسَّمٰاوٰاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَ اَلْمَلاٰئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي اَلْأَرْضِ أَلاٰ إِنَّ اَللّٰهَ هُوَ اَلْغَفُورُ اَلرَّحِيمُ (۵)

التّفسير

اشاره

تكاد السماوات يتفطّرن!

مره اخرى تواجهنا الحروف المقطّعه فى مطلع السوره،و هى هنا تنعكس بشكل مفصل،إذ بين أيدينا خمسه حروف.

«حم»موجوده فى بدايه سبع سور قرآنيه(المؤمن،فصلت،الشورى، الزخرف،الدخان،الجاثيه،و الأحقاف)و لكن فى سوره الشورى أضيف إليها مقطع عسق .

و قد ذكرنا مرارا أنّ للمفسّرين آراء و بحوثا كثيره حول هذه الحروف، يجملها صاحب مجمع البيان العلاّمه الطبرسى فى أحد عشر قولا،و قد ذكرنا أهم

تلک الأقوال فی مطلع الحدیث عن سور:البقره،آل عمران،و الأعراف،و مریم، و غضضنا الطرف عن غیر المهم منها.

و نذکر الآن بعضا لا بأس به من هذه الأقوال بالرغم من عدم قیام دلیل قاطع علی صحتها.

فمنها قولهم أنّ هـذه الحروف جاءت کأسلوب للفت أنظار الناس إلی القرآن، لأنّ المشرکین و المعاندین کانوا قد تواصوا فیما بینهم علی عدم استماع آیات اللّه، خاصّه عند ما کان رسول اللّه یقرؤها علیهم، إذ کانوا یثیرون الضوضاء،لذلک جاءت الحروف المقطعه(فی ۲۹ سوره قرآنیه)لتکون أسلوبا جدیدا فی جلب الانتباه.

و قـد ذکر العلاّمه الطباطبائی احتمالا آخر یمکن أن نضیفه إلی ما استخلصه العلاّمه الطبرسی من الأقوال الأحد عشر لیکون المجموع اثنا عشر تفسیرا.

و ما ذکره العلامه الطباطبائی و إن کان مثله مثل غیره من الأقوال ممّا لم یقم الدلیل القاطع علیه،إلاّ أنّه من المفید أن نستعرضه بإیجاز.

یقول العلاّمه الطباطبائی:«إنک إن تدبرت بعض التدبّر فی هذه السور التی تشترک فی الحروف المفتتح بها مثل المیمات و الراءات و الطواسین و الحوامیم، وجدت فی السور المشترکه فی الحروف من تشابه المضامین،و تناسب السیاقات ما لیس بینها و بین غیرها من السور».

«و یؤکّد ذلک ما فی مفتتح أغلبها من تقارب الألفاظ،کما فی مفتتح الحوامیم من قوله: تَنْزِیلُ الْکِتابِ مِنَ اللّهِ أو ما هو فی معناه،و ما فی مفتتح الراءات من قوله: تِلْکَ آیاتُ الْکِتابِ أو ما فی معناه،و نظیر ذلک فی مفتتح الطواسین،و ما فی مفتتح المیمات من نفی الریب عن الکتاب أو ما هو فی معناه».

«و یمکن أن یحدس من ذلک أن بین هذه الحروف المقطعه و بین مضامین السور المفتتحه بها ارتباطا خاصا،و یؤید ذلک ما نجده فی سوره الأعراف

المصدّره ب«المص»فی مضمونها کأنّها جامعه بین مضامین المیمات و ص[أی ما افتتح ب«ألم»و«ص»]

و کذا سوره الرعد المصدّره ب«المر»فی مضمونها کأنّها جامعه بین مضامین المیمات و الراءات».

«و لعلّ المتدبر لو تدبر فی مشترکات هذه الحروف،و قایس مضامین السور التی وقعت فیها بعضها إلی بعض،لتبیّن له الأمر أزید من ذلک» (۱) .

و ثمّه تفسیر آخر أشرنا إلیه سابقا،و هو احتمال أن تکون هذه الحروف إشارات و رموزا لأسماء الخالق و نعمه و قضایا اخری.

مثلا،فی السوره التی نبحثها اعتبروا الحاء إشاره إلی الرحمن،و المیم إلی المجید،و العین إلی العلیم،و السین إلی القدوس،و القاف إلی القاهر (۲) .

یعترض البعض علی هذا الکلام بقولهم:لو کان المقصود من الحروف المقطعه أن لا یعلم بها الآخرون فإنّ ذلک غیر صحیح،لأنّ هناک آیات اخری تصرّح بأسماء اللّه،و لکن یجب الانتباه إلی أنّ الرموز و الإشارات لا تعنی دائما أن یبقی الموضوع أو المعنی سرّیا،بل قد تکون أحیانا علامه للاختصار،و هذا الأمر کان موجودا سابقا،و هو مشهور فی عصرنا الراهن،بحیث أنّ أسماء العدید من المؤسسات و المنظمات الکبیره،تکون علی شکل مجموعه مختصره من الحروف المقطّعه التی یرمز کلّ منها إلی جزء من الاسم الأصیل.

بعد الحروف المقطعه تتحدث الآیه الکریمه عن الوحی،فتقول: کَذٰلِکَ یُوحِی إِلَیْکَ وَ إِلَی الَّذِینَ مِنْ قَبْلِکَ اللّٰهُ الْعَزِیزُ الْحَکِیمُ .

«کذلک»إشاره إلی محتوی السوره و مضامینها.

و مصدر الوحی واحد،و هو علم اللّه و قدرته،و محتوی الوحی فی الأصول و الخطوط العریضه واحد أیضا بالنسبه لجمیع الأنبیاء و الرسالات،بالرغم من أنّ

۱- ۱) -المیزان،للعلاّمه محمد حسین الطباطبائی،المجد ۱۸،صفحه ۸-۹.

۲- ۲) -یستفاد هذا التّفسیر عن حدیث للإمام الصادق علیه السّلام.یراجع تفسیر القرطبی،المجلد ۹،صفحه ۵۸۲۲.

هناک خصوصیات بین دعوه نبی و آخر بحسب حاجه الزمان و المسیره التکاملیه للبشر (۱) .

و ضروری أن نشیر إلی أنّ الآیات التی نبحثها أشارت إلی سبع صفات من صفات اللّه الکمالیه،لکل منها دور فی قضیه الوحی بشکل معین،و من ضمنها الصفتان اللتان نقرؤهما فی هذه الآیه: اَلْعَزِیزُ الْحَکِیمُ .

فعزته تعالی و قدرته المطلقه تقتضی سیطرته علی الوحی و محتواه العظیم.

و حکمته تستوجب أن یکون الوحی الإلهی حکیما متناسقا مع حاجات الإنسان التکاملیه فی جمیع الأمور و الشؤون.

و تعبیر«یوحی»دلیل علی استمرار الوحی منذ خلق اللّه آدم علیه السّلام حتی عصر النّبی الخاتم صلّی اللّه علیه و اله و سلّم لأن الفعل المضارع یفید الاستمرار.

قوله تعالی: لَهُ مٰا فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِی الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَلِیُّ الْعَظِیمُ .

إنّ مالکیته تعالی لما فی السماء و الأرض تستوجب ألّا یکون غریبا عن مخلوقاته و ما یؤول إلیه مصیرها،بل یقوم بتدبیر أمورها و حاجاتها عن طریق الوحی،و هذه هی الصفه الثّالثه من الصفات السبع.

أمّا«العلیّ»و«العظیم»اللذان هما رابع و خامس صفه له(سبحانه و تعالی) فی هذه الآیات،فهما یشیران إلی عدم حاجته لأی طاعه أو عبودیه من عباده، و إنّما قام تعالی بتدبیر أمر العباد عن طریق الوحی من أجل أن ینعم علی عباده.

الآیه التی بعدها تضیف: تَکٰادُ السَّمٰاوٰاتُ یَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ (۲) و ذلک بسبب نزول الوحی من قبل اللّه،أو بسبب التهم الباطله التی کان المشرکون و الکفّار ینسبونها إلی الذات المقدسه و یشرکون الأصنام فی عبادته.

۱- ۱) -بالرغم من الکلام الکثیر للمفسّرین حول المشار إلیه فی اسم الإشاره«کذلک»لکن یظهر أنّ المشار إلیه هو نفس هذه الآیات النازله علی النّبی الأکرم صلّی اللّه علیه و اله و سلّم لذا یکون مفهوم الآیه:إنّ الوحی هو بهذا الشکل الذی أنزله اللّه علیک و علی الأنبیاء السابقین،و قد استخدم اسم الإشاره للبعید بالرغم من قرب المشار إلیه،و ذلک للتعظیم و الاحترام.

۲- ۲) -«یتفطرن»من کلمه«فطر»علی وزن«سطر»و تعنی فی الأصل الشق الطولی.

و يتّضح ممّا سلف أنّ للجمله معنيين:

الأوّل:أنّها تختص بموضوع الوحى الذى هو حديث الآيات السابقه،و هو فى الواقع يشبه ما جاء فى الآيه(٢١)من سوره«الحشر»فى قوله تعالى: لَوْ أَنْزَلْنا هٰذَا الْقُرْآنَ عَلىٰ جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَهِ اللّٰهِ .

إنّه كلام اللّه الذى يزلزل السماوات عند نزوله و تكاد تتلاشى،فلو أنّه نزل على الجبال لتصدّعت،لأنّه كلام عظيم من خالق حكيم.

و الويل لقلب الإنسان،فهو الوحيد الذى لا يلين و لا يستسلم،و يصر على عناده و تكبره.

التّفسير الثّانى:أنّ السماوات تكاد تتفطّر و تتلاشى بسبب شرك المشركين و عبادتهم للأصنام من دون اللّه،بل هم يساوون بين أدنى الكائنات و الموجودات و بين المبدأ العظيم خالق الكون جلّ و علا.

التّفسير الأوّل يناسب الآيات التى نبحثها و التى تنصب حول الوحى و التّفسير الثّانى يناسب ما نقرؤه فى الآيتين(٩١،٩٠)من سوره«مريم»حيث يقول تعالى بعد أن يذكر قول الكفار-و قبح قولهم-باتخاذه ولدا(!!): تَكٰادُ السَّمٰاوٰاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَ تَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَ تَخِرُّ الْجِبٰالُ هَدًّا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمٰنِ وَلَداً .

و من الواضح أن ليس ثمّه تعارض بين التّفسيرين.

أمّا عن كيفيه انفطار السماوات و انهدام الجبال و هى موجودات جامده،فقد ذكروا كلاما و أقوالا متعدّده فى الموضوع تعرضنا لها فى نهايه حديثنا عن الآيتين المذكورتين من سوره مريم.

و إذا أردنا أن نقف على استخلاص عام لما قلناه هناك،فيمكن أن نلاحظ أنّ مجموعه عالم الوجود من جماد و نبات و غير ذلك لها نوع من العقل و الشعور، بالرغم من عدم إدراكنا له،و هم على هذا الأساس يسبحون اللّه و يحمدونه، و يخضعون له و يخشعون لكلامه.

أو أن يكون التعبير كنـايه عن عظمه و أهميه الموضوع،مثلمـا نقول مثلاـ:إنّ الحـادثه الفلاـنيه كانت عظيمه جـدّا و كأنّما انطبقت معها السماء على الأرض.

بقيه الآيه،قوله تعالى: وَ الْمَلاٰئِكَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ .

أمّـا الرابطه بين هـذا الجزء من الآـيه و الجزء الـذى سـبقه،فهو-وفقا للتفسـير الأوّل-أنّ الملائكه الـذين هم حمله الوحى العظيم و واسـطته،يسـبحون و يحمـدون اللّه دائمـا،يحمـدونه بجميع الكمالاـت،و ينزهونه عن جميع النواقص،و عنـد مـا ينحرف المؤمنون أحيانا،تقوم الملائكه بنصرهم و يطلبون المغفره لهم من اللّه تعالى.

أمّـا وفق التّفسـير الثّانى،فـإنّ تسبيـح الملاـئكه و حمـدهم إنّمـا يكون لتنزيهه تعـالى عما ينسب إليه من شـرك،و هم يسـتغفرون كذلك للمشركين الذين آمنوا و سلكوا طريق التوحيد و رجعوا إلى بارئهم جلّ جلاله.

و عنـد ما تسـتغفر الملائكه لمثل هـذا الذنب العظيم لدى المؤمنين،فهى حتما- و من باب أولى-تسـتغفر لجميع ما لهم من ذنوب اخرى.و قد يكون الإطلاق فى الآيه لهذا السبب بالذات.

نقرأ نظيرا لهذه البشـرى العظيمه فى الآيه(٧)من سوره المؤمن فى قوله تعـالى: اَلَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَ مَنْ حَوْلَهُ يُسَـبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنٰا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَهً وَ عِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تٰابُوا وَ اتَّبَعُوا سَبِيلَكَ .

و أخيرا تشـير نهـايه الآـيه الكريمه إلى سـادس و سـابع صـفه من صـفات اللّه تبارك و تعالى،و تنصب حول الغفران و الرحمه،و تتصل بقضيه الوحى و محتواه، و بخصوص وظائف المؤمنين،حيث يقول تعالى: أَلاٰ إِنَّ اللّٰهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ .

و بهذا الترتيب أتمّت الآيات الكريمات الإشاره إلى مجموعه متكامله من

الأسماء الحسنى المختصه باللّه تعالى و المرتبطه بالوحى.

و فى نهـايه الآـيه ثمّه إشاره لطيفه إلى اسـتجابه دعاء الملائكه بخصوص اسـتغفارهم للمؤمنين،بل أنّه تعالى يضـيف الرحمه إلى صفه الغفور ممّا يدل على عظيم فضله.

أمّا عن مسأله الوحى فسيكون لنا كلام مفصل فى نهايه هذه السوره إن شاء اللّه عند ما نتحدّث عن الآيتين(۵۲،۵۱).

هل تستغفر الملائكه للجميع؟

قد يطرح السؤال الآتى حول قوله تعالى: وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِى الْأَرْضِ .

و هو:الآـيه تفيـد اسـتغفار الملاـئكه لمطلق أهل الأرض سواء المؤمن منهم أو الكافر، فهل يمكن ذلك؟ لقـد أجابت الآيه(۷)من سوره المؤمن على هذا السؤال من خلال قوله تعالى: يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا .

و بناء على هذا فإنّ شـرط الاسـتغفار هو الإيمان،إضافه إلى كونهم معصومين، و هم بذلك لا يطلبون المسـتحيل للذين يفتقدون إلى أرضيه الغفران.

الآيات [سوره الشورى (۴۲): الآيات ۶ الى ۸]

اشاره

وَ اَلَّذِينَ اِتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيٰاءَ اَللّٰهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَ مٰا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (۶) وَ كَذٰلِكَ أَوْحَيْنٰا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ اَلْقُرىٰ وَ مَنْ حَوْلَهٰا وَ تُنْذِرَ يَوْمَ اَلْجَمْعِ لاٰ رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي اَلْجَنَّةِ وَ فَرِيقٌ فِي اَلسَّعِيرِ (۷) وَ لَوْ شٰاءَ اَللّٰهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وٰاحِدَةً وَ لٰكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشٰاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَ اَلظّٰالِمُونَ مٰا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَ لاٰ نَصِيرٍ (۸)

التّفسير

اشاره

انطلاقه من«أم القرى»:

تحدثت الآيات السابقه عن قضيه الشرك،لذلك فإنّ الآيه الأولى فى المجموعه الجديده،تتناول بالبحث نتيجه عمل المشركين و عاقبه أمرهم حيث يقول تعالى: وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيٰاءَ اللّٰهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ .

حتى يحاسبهم فى الوقت المناسب،و يعاقبهم جزاء أعمالهم.

ثم تخاطب الآيه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم بقوله تعالى: وَ مٰا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ إنّ مسئوليتك هى تبليغ الرساله و إيصال نداء اللّه الى جميع العباد.

ص: ۴۶۶

و ثمّه فی کتاب اللّه آیات اخری تشیر إلی هذا المعنی:

قوله تعالی: لَسْتَ عَلَیْهِمْ بِمُصَیْطِرٍ (۱) .

قوله تعالی: مٰا أَنْتَ عَلَیْهِمْ بِجَبّٰارٍ (۲) .

قوله تعالی: وَ مٰا جَعَلْنٰاکَ عَلَیْهِمْ حَفِیظاً (۳) .

قوله تعالی: مٰا عَلَی الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاٰغُ (۴) .

إنّ هذه الآیات تبیّن حقیقه حریه العباد و اختیارهم الطریق الذی یریدونه بإرادتهم و حریتهم،لأنّ القیمه الحقیقه للإیمان و العمل الصالح تمکن فی حریه الإختیار،و لیس للإیمان أو العمل الإجباری أی قیمه معنویه.

یعود القرآن إلی قضیه الوحی مرّه اخری،و إذا کانت الآیات السابقه قد تحدّثت عن أصل الوحی،فإنّ الکلام هنا ینصب حول الهدف النهائی له،إذ یقول تعالی: وَ کَذٰلِکَ أَوْحَیْنٰا إِلَیْکَ قُرْآناً عَرَبِیًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُریٰ وَ مَنْ حَوْلَهٰا و«امّ القری» هی مکّه المکرمه،ثمّ تنذر الناس من یوم القیامه و هو یوم الجمع الذی یجتمع فیه الناس للحساب و الجزاء: وَ تُنْذِرَ یَوْمَ الْجَمْعِ لاٰ رَیْبَ فِیهِ .

و فی ذلک الیوم ینقسم الناس إلی مجموعتین: فَرِیقٌ فِی الْجَنَّهِ وَ فَرِیقٌ فِی السَّعِیرِ .

و قد یکون التعبیر ب«کذلک»إشاره إلی أنّه مثلما أوحینا إلی الأنبیاء السابقین بلسانهم،فإنّنا کذلک أوحینا إلیک بلسانک،هذا القرآن العربی.

و علیه تکون«کذلک»إشاره إلی: وَ إِلَی الَّذِینَ مِنْ قَبْلِکَ .

و یمکن أن تکون إشاره إلی ما بعدها،یعنی أنّا أوحیناه إلیک بهذه الصوره

۱- ۱) -الغاشیه،الآیه ۲۲.

۲- ۲) -سوره ق،الآیه ۴۵.

۳- ۳) -الأنعام،الآیه ۱۰۷.

۴- ۴) -المائده،الآیه ۹۹.

قرآنا عربيا يهدف إلى الإنذار.

صحيح أنّنا نستفيد من نهايه الآيه أيّ من قوله تعالى: فَرِيقٌ فِي الْجَنَّهِ وَ فَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ أنّ مسئوليه النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم هى التبشير و الإنذار،و لكن بسبب ما للإنذار من تأثير أعمق فى نفوس الأفراد المعاندين و الجهله،لذا فإنّ الآيه استندت إلى «الإنذار»مرّتين فقط،مع اختلاف بينهما،إذ أنّ الكلام شمل فى المرحله الأولى إنذار المستمعين،بينما شمل فى الثانيه تخويفهم من شيء يجب أن يخافوه،يعنى القيامه و ما فيها من حساب و فضيحه ستكون مؤلمه و صعبه للغايه،بسبب حضور الأشهاد و الملائكه و الناس (۱) .

و قد يتساءل البعض هنا:إنّنا نستفيد من قوله تعالى: لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرىٰ وَ مَنْ حَوْلَهٰا أنّ الهدف من نزول القرآن هو لإنذار أهل مكّه و أطرافها.أ فلا يتنافى هذا المعنى مع مفهوم عالميه الإسلام؟ الجواب على هذا الاستفهام يتمّ من خلال ملاحظه المعنى الذى تستبطنه أُمَّ الْقُرىٰ .

إنّ كلمه«أمّ القرى»و هى أحد أسماء مكّه المكرّمه،مؤلّفه من كلمتين هما:«أمّ»و تعنى فى الأصل الأساس و البدايه فى كلّ شيء،و لهذا السبب تسمى الأمّ بهذا الاسم لأنّها أساس و أصل الأبناء.

ثمّ كلمه«قرى»جمع«قريه»بمعنى أى منطقه معموره أو مدينه،سواء كانت المدينه كبيره أم صغيره،أو مجرّد قريه.

و فى القرآن الكريم ثمّه أدله كثيره على هذا المعنى.

و الآن لنر لماذا سمّيت«مكّه»بأمّ القرى؟

۱- ۱) -ينبغى الانتباه،إلى أنّ(تنذر)تتعدى إلى مفعولين،و فى الآيه مورد البحث ذكر مفعولها الأوّل فى الجمله الأولى،و الثّانى فى الجمله الثانيه.و قد يصحب المفعول الثّانى بالباء فيقال:أنذره بذلك.

الرّوايات الإسلاميه تصرّح بأنّ الأرض كانت فی البدايه مغطاه جميعها بالماء،ثمّ بدأت اليابسه تظهر بشكل تدريجی من تحت هذه المياه.(تؤيد النظريات العلميه الآن هذا المعنی).

ثمّ تخبرنا الرّوايات بأنّ منطقه الكعبه كانت أوّلا منطقه ظهرت من تحت الماء،ثمّ بدأت اليابسه بالاتساع من جوار الكعبه،و يعرف ذلک بدحو الأرض.

و هكذا يتّضح أن مكّه هی أصل و أساس لجميع القری و المدن علی سطح الأرض،لذا فمتی قيل أُمَّ الْقُرىٰ وَ مَنْ حَوْلَهٰا فالمعنی سيشمل جميع الناس علی سطح الكره الأرضيه (۱) .

مضافا إلی ذلک،نحن نعرف أنّ الإسلام بدأ بالانتشار تدريجيا،ففی البدايه أمر النّبی صلّی اللّه عليه و اله و سلّم بإنذار المقرّبين إليه،كما ورد فی قوله تعالی: وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَکَ الْأَقْرَبِينَ (۲) كی تتقوی قاعده الإسلام و تصلب نواته،و يكون أكثر قدره و استعدادا للانتشار.

ثم جاءت المرحله الثانيه المتمثله بإنذار العرب،كما ورد فی قوله تعالی:

قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ

(۳)

.

و كذلک فی قوله تعالی: وَ إِنَّهُ لَذِكْرٌ لَکَ وَ لِقَوْمِکَ .

و عند ما ترسخت أعمده الإسلام بين هؤلاء القوم،و قوی عوده أمر رسول اللّه صلّی اللّه عليه و اله و سلّم بأوسع من ذلک،أن ينذر العالم و الناس كافه،كما نقرأ فی أوّل سوره الفرقان فی قوله تعالی: تَبٰارَکَ الَّذِی نَزَّلَ الْفُرْقٰانَ عَلىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعٰالَمِينَ نَذِيراً و فی آيات اخری.

۱- ۱) -جاء هذا التعبير فی سوره الأنعام كذلک الآيه(۹۲)و قد ذكرنا هناک توضيحا أوسع،فليراجع.

۲- ۲) -الشعراء،الآيه ۲۱۴.

۳- ۳) -فصلت،الآيه ۳،إنّ ما قلناه هو فی حال اعتبارنا كلمه(عربی)بمعنی اللغه العربيه،أمّا إذا فسرناها بالمعنی الفصيح فسيكون للآيه مفهوم آخر.

و بسـبب هـذا التكليف قـام رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و اله و سـلّم بإرسال الرسائل إلى زعماء العالم خارج الجزيره العربيه،و دعا كسرى و قيصر و النجاشى و غيرهم إلى الإسلام.

و وفق هـذه التعليمات قام أتباعه من بعـده بالدعوه إلى الإسـلام فى مختلف بقاع العالم،و نشـروا تعاليم الإسـلام فى جميع أرجاء المعموره.

أمّا لماذا سمّى يوم القيامه بيوم الجمع؟فهناك أقوال مختلفه منها:

بسبب ما يكون فيه من جمع بين الأرواح و الأجساد.

أو بسبب الجمع بين الإنسان و عمله.

أو بسبب الجمع بين الظالم و المظلوم.

و لكن يظهر أنّ السـبب يتمثل فى الجمع بين الخلائق من الأولين و الآخرين كما نقرأ ذلك واضحا فى قوله تعالى: قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَ الْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (١) .

و بما أن قوله تعالى: فَرِيقٌ فِى الْجَنَّهِ وَ فَرِيقٌ فِى السَّعِيرِ يقسّم الناس إلى فئتين، فإنّ الآيه التى بعـدها تضـيف: وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّهً وَاحِدَهً على الهدايه.

إلاّـ أنّ الإيمان الإجبارى ليست له قيمه،و كيف يمكن لمثل هـذا الإيمان أن يكون معيارا للكمال الإنسانى؟ إنّ التكامل الحقيقى هو أن يسير الإنسان بإرادته و بمنتهى الإختيار و الحريه.

إنّ الآيـات القرآنيه مليئه بـأدله حريه الإنسـان،و مثـل هـذا الإختيـار هو مـا يميّز الإنسان عاده عن غيره من الكائنات الأخرى،و إذا سلبت منه إرادته و اختياره فكأنما سلبت منه إنسانيته.

۱- ۱) -الواقعه،الآيه ۵۰.

و كما أن سمه الحريه و الإختيار طريق إلى التكامل، فهى أيضا سنّه إلهيه لا قبل التغيير.

و لكن العجيب أمر البعض الـذين مـا زالوا على عقيـده الجبر،و هم يـدعون أتبـاعهم للأنبيـاء،فى حين أنّ قبول الجبر يسـاوى فى الواقع نفى مضـمون دعوه جميع الأنبياء،فلا معنى للتكليف حينئـذ،و لا للحساب و السؤال و الجواب،و لا النصـيحه و الموعظه،و بشـكل أولى الثواب و العقـاب! و مع عقيـده الجبـر لا معنى لتردّد الإنسـان فى أعمـاله،و لا معنى لنـدمه و عزيمته على تصـحيح الأخطاء! تشـير الآيه بعد ذلك إلى وصف أهل الجنّه و السعاده حيال أهل النّار،فيقول تعالى: وَ لٰكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشٰاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَ الظّٰالِمُونَ مٰا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَ لاٰ نَصِيرٍ .

و عند ما يشخّص أهل النّار بوصف«الظلم»فيبيّن أنّ المراد من«من يشاء» فى الجمله الأولى هم المجموعه التى لا ترتكب الظلم.

و على هذا الأساس يكون أهل العدل هم أصحاب الجنّه فى مقابل أهل الظلم الذى هم أهل النّار.

و لكن ينبغى الانتباه إلى أنّ«ظالم»هنا،و فى العديـد من الآيات القرآنيه الأخرى لها معنى واسع و لا تشـمل الـذين يظلمون غيرهم فقـط،بـل تشـمل الـذين يظلمون أنفسـهم أيضا،و تشـمل المنحرفين عقائـديا،و هل هناك ظلم أعلى من الشـرك و الكفر؟ يقول لقمان لابنه و هو يعظه: يٰا بُنَيَّ لاٰ تُشْرِكْ بِاللّٰهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (۱) .

و فى آيه اخرى نقرأ قوله تعالى:

۱- ۱) -لقمان،الآيه ۱۳.

أَلاٰ لَعْنَهُ اللّهِ عَلَى الظّالِمِينَ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللّهِ وَ يَبْغُونَهٰا عِوَجاً وَ هُمْ بِالْآخِرَهِ هُمْ كٰافِرُونَ .

و قال بعضهم فی الفرق بین«ولی»و«نصیر»أنّ«الولی»الذی یقوم بمساعده الإنسان دون طلبه.أما النصیر فأعلم من ذلک (۱) .

و یحتمل أن تشیر کلمه«ولی»إلی المشرف الذی یقوم بالحمایه و المساعده بحکم ولایته و دون أی طلب.

أمّا«النصیر»فالذی یقوم بنصر الإنسان و مساعدته بعد أن یطلب العون.

۱- ۱) -یلاحظ ذلک فی مجمع البیان،المجلد ۸،صفحه ۷۷۹،ذیل الآیه(۲۲)من العنکبوت.

الآيات [سوره الشوری (۴۲): الآيات ۹ الی ۱۲]

اشاره

أَمِ اِتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيٰاءَ فَاللّٰهُ هُوَ اَلْوَلِيُّ وَ هُوَ يُحْيِ اَلْمَوْتىٰ وَ هُوَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۹) وَ مَا اِخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اَللّٰهِ ذٰلِكُمُ اَللّٰهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ أُنِيبُ (۱۰) فٰاطِرُ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوٰاجاً وَ مِنَ اَلْأَنْعٰامِ أَزْوٰاجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَ هُوَ اَلسَّمِيعُ اَلْبَصِيرُ (۱۱) لَهُ مَقٰالِيدُ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ يَبْسُطُ اَلرِّزْقَ لِمَنْ يَشٰاءُ وَ يَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (۱۲)

التّفسير

اشاره

الولی المطلق:

أوضحت الآيات السابقه أن لا وليّ و لا نصير سوى اللّه،و الآيات التي بين أيدينا تعطى أدله على هذه القضيه،و تنفى الولايه لما دونه سبحانه و تعالى.

تقول الآيه بأسلوب التعجب و الإنكار: أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيٰاءَ (۱) .إلا

ص :۴۷۳

۱- ۱) -اعتبر بعض المفسّرين(كالزمخشرى فى الكشاف و الفخر،الرازى فى التّفسير الكبير-أنّ«أم»هنا بمعنى الاستفهام

أنّه: فَاللّٰهُ هُوَ الْوَلِيُّ .

فلو أراد هؤلاء أن يختاروا وليا،فعليهم أن يختاروا اللّه،لأنّ أدله ولايته واضحه فى الآيات السابقه،مع بيان أوصافه الكماليه،فالعزيز و الحكيم،و المالك و العلى و العظيم،و الغفور و الرحيم،هذه الصفات السبع التى مرّت علينا تعتبر- لوحدها-أفضل دليل على اختصاص الولايه به.

ثم تذكر دليلا آخر فتقول: وَ هُوَ يُحْيِ الْمَوْتىٰ .

و يجب اللجوء إليه لا لغيره،لأنّ المعاد و البعث بيده،و أنّ أكثر ما يخشاه الإنسان هو مصيره بعد الموت.

ثم تذكر دليلا ثالثا فتقول: وَ هُوَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

و هذه إشاره إلى أنّ الشرط الرئيسى للولى هو امتلاكه للقدره الحقيقه.

الآيه التى بعدها تشير إلى الدليل الرابع لولايته تعالى فتقول: وَ مَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللّٰهِ .فهو التوحيد الذى يستطيع أن يحل مشاكلكم.

إنّ من اختصاصات الولايه أن يستطيع الولى إنهاء اختلافات من هم تحت ولايته بحكمه الصائب،فهل تستطيع الأصنام و الشياطين التى تعبدونها أن تقوم بذلك،أم أنّ هذا الأمر يختص باللّه الحكيم و العالم و القادر على حل مشاكل عباده، و تنفيذه لحكمه و إرادته دون غيره؟ إذن فاللّه العزيز الحكيم هو الحاكم لا غيره.

لقد حاول بعض المفسّرين حصر مفهوم الاختلاف الذى تشير إليه الآيه فى قوله تعالى: مَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فى الاختلاف الوارد فى الآيات المتشابهه، أو فى الاختلاف و المخاصمات الحقوقيه فقط،إلاّ أنّ مفهوم الآيه أوسع من ذلك، إذ هى تشمل الاختلاف سواء كان فى المعارف الإلهيه و العقائد،أم الأحكام

(١)

-الإنكارى،أما البعض الآخر-كالطبرسى فى«مجمع البيان»و القرطبى فى«الجامع لأحكام القرآن»-فقد اعتبروها بمعنى«بل».

الشرعيه،أم القضايا الحقوقيه و القضائيه،أم غير ذلک ممّا يحدث بين الناس لقلّه معلوماتهم و محدوديتها،إنّ ذلک ينبغی أن يحل عن طريق الوحی،و بالرجوع إلی علم اللّه و ولايته.

و بعد ذکر الدلائل المختلفه علی اختصاص الولايه باللّه،تقول الآيات علی لسان النّبی صلّی اللّه عليه و اله و سلّم: ذٰلِكُمُ اللّٰهُ رَبِّی (۱) فهو الذی يتصف بهذه الأوصاف الکماليه و لهذا السبب: عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ أُنِيبُ أیّ أعود إليه فی المشکلات و الشدائد و الزلات.

جمله: ذٰلِكُمُ اللّٰهُ رَبِّی تشير إلی الربوبيه المطلقه للّه بمعنی الحاکميه المتزامنه مع التدبير.و نحن نعلم أنّ للربوبيه قسمين:القسم التکوينی الذی يعود إلی إراده نظام الوجود،و القسم التشريعی الذی يقوم بتوضيح الأحکام و وضع القوانين و إرشاد الناس بواسطه الرسل و الأنبياء عليهم السّلام.

و علی أساس ذلک طرحت الآيه فيما بعد قضيه«التوکل»و«الإنابه»حيث تعنی الأولی رجوع جميع الأمور الذاتيه فی النظام التکوينی إلی الخالق جلّ و علا.

و الثّانيه تعنی رجوع الأمور التشريعيه إليه (۲) .

الآيه التی تليها يمکن أن تکون دليلا خامسا علی ولايه اللّه المطلقه،أو دليلا علی ربوبيته،و استحقاقه دون غيره للتوکل و الإنابه،إذ تقول: فَاطِرُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ .

«فاطر»من ماده«فطر»و تعنی فی الأصل فتق شیء ما،و يقابلها«قط»التی تعنی بقول البعض الشق العرضی.

و کأنّما الآيه تشير إلی تفتق ستار العدم المظلم عند خلق الکائنات و خروج

۱- ۱) -فی بدايه هذه الجمله تکون کلمه«قل»مقدّره،فهذه الجمله و ما بعدها تتحدث عن لسان النبیّ فقط،أمّا جمله مَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَیْءٍ فهی استمرار لحديث الخالق جلّ و علا.و الذين اختاروا غير ذلک لم يسلکوا الطريق الصحيح فی الظاهر.

۲- ۲) -الميزان،المجلد ۱۸،الصفحه ۲۳.

الموجودات منه.

و بهذه المناسبه فإنّ«فطر»تطلق على«طلاع»التمر عند ما يتفتق و يخرج منه التمر.

و المقصود بالسماوات و الأرض هنا جميع السماوات و الأرض و ما فيها من كائنات و ما بينها،لأنّ الخالقيه تشملها جميعا.

ثم تشير الآيه إلى وصف آخر من أفعاله تعالى فتقول: جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوٰاجاً وَ مِنَ الْأَنْعٰامِ أَزْوٰاجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ (1) .

و هذه لوحدها تعتبر إحدى الدلائل الكبيره على تدبير اللّه و ربوبيته و ولايته، حيث خلق سبحانه و تعالى للناس أزواجا من أنفسهم،و هو يعتبر أساسا لراحه الروح و سكون النفس،و من جانب آخر يعتبر الزواج أساسا لبقاء النسل و استمراره،و تكاثره.

و بالرغم من أنّ خطاب الآيه موجّه للإنسان،و المعنى منصب عليه من خلال «يذرؤكم»إلاّ أنّ هذا الأمر هو حكم سائد و سنه جاريه في جميع الأنعام و الموجودات الحيه الأخرى التي تسرى عليها التكاثر بالمثل.

و في الواقع إنّ توجيه الخطاب للإنسان دونها يشير الى مقامه الكريم،و أما أمر البقيه فيتبيّن من خلال الإنسان كمثال.

الصفه الثّالثه التي تذكرها الآيه هو قوله تعالى: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .

إنّ هذا الجزء من الآيه يتضمّن حقيقه أساسيه في معرفه صفات اللّه الأخرى، و بدونها لا يمكن التوصّل إلى أي صفه من صفات اللّه،لأنّ أكبر منزلق يواجه السائرين في طريق معرفه اللّه يتمثل في «التشبيه»حيث يشبهون الخالق جلّ و علا بصفات مخلوقاته،و هو أمر يؤدي للسقوط في وادي الشرك!

1- 1) -الضمير في«فيه»يعود إلى«التدبير»أو«جعل الأزواج»و«يذرؤ»من«ذرأ»على وزن«زرع»و تعني«الخلق»لكنّه الخلق الذي يقترن و يتزامن مع إظهار الأفراد.و قد وردت أيضا بمعنى الانتشار.

إنّ وجود اللّه تعالى ليس له نهايه و لا يحد بحد،و كل شىء غيره له نهايه و حد من حديث القدر و العمر و العلم و الحياه و الإراده و الفعل...،و فى كلّ شىء.

و هذا هو خط تنزيه الخالق من نقائص الممكنات.

لذا فإنّ ما يثبت لغيره لا يصح عليه(سبحانه و تعالى)و لا ينطبق على ذاته المنزّهه،بل و لا معنى له.

فبالنسبه إلينا تكون بعض الأمور سهله و الأخرى صعبه،و بعض الأحداث وقع فى الماضى و بعضها يقع الآن،و منها ما يقع فى المستقبل.و بعض الأشياء صغير و بعضها كبير.

إنّ مقاييس هذه الأشياء و مدلولاتها و مفاهيمها تحتكم إلى وجودنا المحدود، و هى تلائم إدراكنا و حاجتنا إلى مقايسه الأشياء بغيرها.

أمّا هذه المواصفات و المقاييس و المصطلحات المحدوده،فإنّ أيا منها لا ينطبق على صفات اللّه،إذ لا معنى لديه للقرب و البعد،فالكل قريب و فى متناول إرادته،و لا معنى للصعب و السهل،فكل شىء سهل و طوع إرادته المطلقه، و لا يوجد مستقبل و ماض،فكل شىء بالنسبه إليه تعالى حضور و حال.

إنّ إدراك هذه المعانى غير مستطاع من دون تفريغ الذهن و تخليته ممّا هو فيه.

لهذا السبب يقال:إنّ من السهل معرفه أصل وجود الخالق جلّ و علا،لكن من الصعب معرفه صفاته.

يقول أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السّلام فى هذا الشأن:«و ما الجليل و اللطيف،و الثقيل و الخفيف،و القوى و الضعيف فى خلقه إلّا سواء» (۱) .

تشير نهايه الآيه إلى صفات اخرى من صفات اللّه: وَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ .

هو الخالق و المدبّر،و السميع و البصير،و فى نفس الوقت ليس له شبيه أو نظير

۱- ۱) -نهج البلاغه،الخطبه رقم ۱۸۴.

أو مثيل،و لهذا لا ينبغى الاستظلال إلّا تحت ولايته،و لا تصح العبوديه و الربوبيه إلّا له،و ذلك لا يكون ألّا بفك قيود عبوديه الغير،و تصريفها إليه دون غيره سبحانه و تعالى.

الآيه التى بعدها تتحدّث عن ثلاثه أقسام أخرى من صفات الفعل و الذات حيث توضح كلّ واحده منها قضيه الولايه و الربوبيه فى بعد خاص.

يقول تعالى: لَهُ مَقٰالِيدُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ .

فكل ما يملكه مالك هو منه سبحانه و تعالى،و كل ما يرغب به راغب ينبغى أن يطلبه منه،لأنّ له تعالى خزائن السماوات و الأرض و ليس«مفاتيحها» و حسب وَ لِلّٰهِ خَزٰائِنُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ (1) .

«مقاليد»جمع«مقليد»و تعنى المفتاح،و هى تستخدم ككنايه للسيطره الكامله على كلّ شيء ما،فيقال مثلا:إنّ مفتاح هذا الأمر بيدى،يعنى أنّ برنامجه و طريقه و شرائطه كلّها تحت قدرتى و فى يدى. (2) .

و فى الصفه الأخرى،و التى هى فى الواقع ثمره و نتيجه للصفه السابقه تقول الآيه: يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشٰاءُ وَ يَقْدِرُ لأنّ بيده تعالى جميع خزائن السماوات و الأرض فإنّ جميع الأرزاق فى قبضته،و يقسمها وفقا لمشيئته التى تصدر بمقتضى حكمته،و يلاحظ فيها مصلحه العباد.

إنّ من مقتضيات استفاده جميع الكائنات من رزقه تعالى هو العلم بمقدار حاجتها،و مكانها و سائر شؤون حياتها الأخرى،لذا تضيف الآيه فى آخر صفه قوله تعالى: إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

و هناك ما يشبه هذا الأمر و هو ما جاء فى الآيه(6)من سوره«هود»فى قوله تعالى: وَ مٰا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلاّٰ عَلَى اللّٰهِ رِزْقُهٰا وَ يَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهٰا وَ مُسْتَوْدَعَهٰا كُلٌّ فِي كِتٰابٍ مُبِينٍ .

1- 1) -المنافقون،آيه 7.

2- 2) -بهذا الخصوص لدينا بحث مفصل يمكن مراجعته فى نهايه الحديث عن الآيه(63)من سوره«الزمر».

و بذلک یتّضح أنّ الآیات الأربع التی بحثناها ذکرت إحدی عشره صفه من صفات اللّه الکمالیه سواء الذاتیه منها أو الفعلیه.

فقد وصفته بصفات الولایه المطلقه،إحیاء الموتی،قدرته علی کلّ شیء، خلقه للسماوات و الأرض،خلقه للأزواج و تکثیر النسل،لا یوجد مثیل له،سمیع، بصیر،له خزائن السماوات و الأرض،رزاق،و علیم بکل شیء.

إنّها صفات تکمل الواحده منها الأخری من حیث البیان،و کلّها دلیل علی ولایته و ربوبیته،و بالنتیجه تعتبر طریقا لإثبات توحیده فی العباده.

بحوث

اشاره

۱-معرفه صفات اللّه تعالی

إنّ علمنا و علوم الکائنات جمیعا محدود،لذا لا نستطیع أن نصل إلی کنه و حقیقه ذات الخالق غیر المحدوده،لأنّ المعرفه بحقیقه شیء ما تعنی الإحاطه به، فکیف یستطیع الکائن المحدود أن یحیط بالذات غیر المحدوده؟ و کذلک الحال بالنسبه لصفات اللّه،إذ لا یمکن معرفتها بالنسبه لنا،خصوصا و أنّ صفاته هی عین ذاته.

لذلک فعلمنا بذات الخالق و صفاته هو علم إجرائی،و أکثر ما یدور حول آثاره جلّ و علا.

من جانب آخر لا تستطیع ألفاظنا أن تبیّن ذات اللّه و صفاته المطلقه غیر المحدوده،لأنّ ألفاظنا موضوعه لتلبیه حاجاتنا فی حیاتنا الیومیه،لذلک سوف نصل إلی معانی خاطئه من خلال استخدام ألفاظنا فی توصیف صفات الخالق الکمالیه،کالعلم و القدره و الحیاه و الولایه و المالکیه،و سائر الصفات الأخری.

نقول مثلا:إنّ اللّه هو«الأول»و هو أيضا«الآخر»هو«الظاهر»و هو«الباطن» هو مع كلّ شىء و ليس مع شىء،و بعيد عن كلّ شىء إلاّ أنّه ليس غريبا عنه.

قد يبدو فى بعض هذه الألفاظ تناقض أو تضاد،لأنّ معانى الألفاظ نقيسها على الأشياء و الموجودات المحدوده،فيمكن أن يكون هو الأوّل و لا يكون الآخر،و الظاهر و لا يكون باطن،و لكن التفكير الدقيق فى ذات اللّه و صفاته يوصلنا إلى إمكانيه انطباق معانى هذه الألفاظ عليه،فهو الأوّل فى نفس الوقت الذى هو الآخر،و هو الباطن فى نفس الوقت الذى يكون فيه هو الظاهر أيضا.

و علينا أن نعترف هنا بأنّ المهم فى معرفه أوصافه الجماليه و الجلاليه هو أن ننتبه إلى حقيقه: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .

يشير

أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السّلام إلى هذه الحقيقه بوضوح فيقول:

«ما وحده من كيفه،و لا حقيقته أصاب من مثله،و لا إيّاه عنى من شبهه،و لا صمده من أشار إليه و توهمه» (١) .

و فى مكان آخر

يقول عليه السّلام: «كل مسمّى بالوحده غير قليل» (٢) .

خلاصه القول:يجب ولوج البحث فى صفات الخالق على ضوء قوله تعالى:

لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ

و علينا أن ننظر إلى ذاته المقدسه من خلال قوله تعالى: وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ و عباره«سبحان اللّه»فى العبادات و غيرها تشير إلى هذه الحقيقه.

٢-ملاحظه أدبيه

إنّ الكاف فى جمله لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ للتشبيه، و تعنى المثل أيضا.لذا فإنّ هذا التكرار أصبح سببا لأن يعتبر الكثير من المفسّرين أنّها زائده،و أنّها جاءت

١- ١) -الخطبه رقم(١٨۶).

٢- ٢) -نهج البلاغه،الخطبه رقم ۶۵.

للتأكيد.و أمثال ذلك كثير فى الكلمات الفصحى.

و لكن ثمّه تفسير أجمل،و هو أن يقال أحيانا:مثلك لا يهرب من ساحه الأحداث.أىّ أنّ الذى يملك الشجاعه و العقل و الذكاء مثلك،لا ينبغى عليه الهرب (و الخلاصه أن من يملك مثل صفاتك يجب أن يكون هكذا و هكذا).

و فى الآيه التى نبحثها سيكون المعنى هكذا:مثل الخالق الذى ذكرنا أوصافه- كالعلم الواسع و القدره العظيمه اللامتناهيه ليس له مثل».

ذهب أرباب اللغه و علماؤها إلى أنّ هناك بعض المصطلحات لها نفس معنى (مثل)إلاّ أنّها ليست مثلها فى-المفهوم من زاويه عموميتها و شموليتها،مثلا:

«ند»على وزن«ضد»و تقال عند ما يكون القصد من التشبيه الإشاره إلى المشابهه فى الجوهر و الماهيه.

«شبه»و تقال عند ما يكون الكلام عن الكيفيه فقط.

«مساوى»و تقال عند ما يكون الكلام عن الكميه فقط.

«شكل»و تقال عند ما يكون الكلام فى التشبيه عن المقدار و المساحه.

إلاّ أنّ«مثل»لها مفهوم أوسع و أكثر عموميه،بحيث تشمل جميع المفاهيم الآنفه الذكر.

لذا فإنّ اللّه عند ما يريد أن ينفى عن ذاته أى شبيه أو نظير يقول: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ (1) .

٣-بعض الملاحظات حول الرزق الإلهى:

أ:معيار بسط الرزق و تقديره:

يجب أن لا نتصوّر أبدا أن بسط الرزق يعنى محبه اللّه لنا،أو أن تضييق المعيشه هى دليل غضبه،لأنّ اللّه قد يختبر الإنسان بواسطه البسط فى رزقه،

1- 1) -لاحظ مفردات الراغب ماده«مثل».

و أحيانا يريد أن يمتحن صبره و مقاومته عن طريق التضييق بالمعيشه عليه.

و عن هذا الطريق يصار إلى تربيه الإنسان.

إنّ الثروه الكبيره قد تكون أحيانا سببا لعذاب أهلها و تعبهم و سلب استقرارهم و راحتهم النفسيه،حيث يقول القرآن فى الآيه(۵۵)من سوره التوبه.

فَلاٰ تُعْجِبْكَ أَمْوٰالُهُمْ وَ لاٰ أَوْلاٰدُهُمْ إِنَّمٰا يُرِيدُ اللّٰهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهٰا فِي الْحَيٰاهِ الدُّنْيٰا وَ تَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَ هُمْ كٰافِرُونَ .

و فى الآيتين(۵۵-۵۶)من سوره المؤمنين،نقرأ قوله تعالى: أَ يَحْسَبُونَ أَنَّمٰا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مٰالٍ وَ بَنِينَ نُسٰارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرٰاتِ بَلْ لاٰ يَشْعُرُونَ .

ب:تحديد الأرزاق لا يتعارض مع بذل الجهود:

إنّ الآيات التى تتحدث عن تحديد مقدار الرزق لا تتنافى مع سعى الإنسان فى مجال تحصيله للرزق.و ينبغى أن لا يكون الأمر مبعثا للخمول و الكسل و الهروب من تحمل مسئوليات الجهاد الفردى الاجتماعى،إذ هناك آيات قرآنيه كثيره تؤكد أهميه و قيمه السعى الإنسانى.

إنّ الهدف هو أن ندرك أنّنا رغم سعينا و عملنا فهناك يد خفيه تقوم أحيانا بحجب نتائج هذه الجهود،و تقوم فى بعض الأحيان بعكس ذلك،حتى لا ينسى الناس فى حياتهم الاجتماعيه الطويله أن ثمّه قدره اخرى هى قدره مسبب الأسباب و هى التى تدبر شؤون العالم.

و ينبغى هنا أن لا نلقى تبعات الكسل و الإهمال و التقاعس على مفهوم الرزق الإلهى المحدود لكل إنسان،لأنّه تعالى صرّح بأن عطاء الرزق يساوى ما يبذله الفرد من جهد و عناء.

ج:عدم اقتصار الرزق على المفهوم المادى:

للرزق معنى واسع بحيث يشمل الرزق المعنوى،بل إنّ الرزق الأصلى هو الرزق المعنوى،و فى الأدعيه نلتقى مع أمثله كثيره تؤكّد ذلك،فنقول حول الحج مثلا:

«اللهم ارزقنى حج بيتك الحرام».

و فى أدعيه طلب الطاعه تقول:

«اللهم ارزقنى توفيق الطاعه و بعد المعصيه».

و فى أدعيه أيام شهر رمضان نقول:

«اللهم ارزقنى فيه طاعه الخاشعين» (دعاء اليوم الخامس عشر).

و هكذا بالنسبه للهبات المعنويه الأخرى.

د:القرآن و الأسباب التى تؤدى إلى زياده الرزق:

لقد ذكر القرآن الكريم بعض الأمور التى تعتبر بحدّ ذاتها درسا لتربيه الإنسان و بنائه،ففى الآيه«۷»من سوره«إبراهيم»نقرأ قوله تعالى: لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ .

و فى الآيه«۱۵»من سوره«الملك»قوله تعالى: هُوَ الَّذِی جَعَلَ لَکُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِی مَنٰاکِبِهٰا وَ کُلُوا مِنْ رِزْقِهِ .

و فى سوره الأعراف،آيه«۹۶»قوله تعالى: وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرىٰ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنٰا عَلَيْهِمْ بَرَكٰاتٍ مِنَ السَّمٰاءِ وَ الْأَرْضِ .

ه:التضييق فى الرزق و القضيه التربويه:

أحيانا يكون ضيق الرزق لمنع الناس عن الطغيان،كما نقرأ فى قوله تعالى:

وَ لَوْ بَسَطَ اللّٰهُ الرِّزْقَ لِعِبٰادِهِ لَبَغَوْا فِی الْأَرْضِ

(۱)

.

۱- ۱) -الشوری،الآیه ۲۷.

ز:الرّزاق هو اللّه يؤكّد القرآن الكريم أنّ الـذى يعطى الرزق للناس هو اللّه،و عليهم أن لا يطلبوا من غيره،و عليهم بعد الإيمان و التوكل أن يعتمدوا على وسعهم و طاقاتهم،كما ورد فى الآيه(۳)من سوره«فاطر»فى قوله تعالى: هَلْ مِنْ خٰالِقٍ غَيْرُ اللّٰهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمٰاءِ وَ الْأَرْضِ .

و الآيه«۱۷»من«العنكبوت»فى قوله تعالى: فَابْتَغُوا عِنْدَ اللّٰهِ الرِّزْقَ .

و هكـذا تقطع التربيه القرآنيه روح الحـاجه لـدى الإنسـان إلى عبـاد مثله، و تجعله مرتبطـا بخـالقه و بارئه و رازقه،فتنمى فيه روح الإباء،و العبوديه و الانقطاع إلى اللّه.

و لدينا بحيث مفصل بخصوص الأرزاق و السـعى للحياه،و أسـباب الرزق و مصادره فى نهايه تفسـير الآيه«۷۱»من سوره«النحل»و كذلك فى نهايه تفسير الآيه«۶»من سوره«هود»،فليراجع هناك.

الآیتان [سوره الشوری (۴۲): الآیات ۱۳ الی ۱۴]

اشاره

شَرَعَ لَکُمْ مِنَ اَلدِّینِ مٰا وَصّٰی بِهِ نُوحاً وَ اَلَّذِی أَوْحَیْنٰا إِلَیْکَ وَ مٰا وَصَّیْنٰا بِهِ إِبْرٰاهِیمَ وَ مُوسیٰ وَ عِیسیٰ أَنْ أَقِیمُوا اَلدِّینَ وَ لاٰ تَتَفَرَّقُوا فِیهِ کَبُرَ عَلَی اَلْمُشْرِکِینَ مٰا تَدْعُوهُمْ إِلَیْهِ اَللّٰهُ یَجْتَبِی إِلَیْهِ مَنْ یَشٰاءُ وَ یَهْدِی إِلَیْهِ مَنْ یُنِیبُ (۱۳) وَ مٰا تَفَرَّقُوا إِلاّٰ مِنْ بَعْدِ مٰا جٰاءَهُمُ اَلْعِلْمُ بَغْیاً بَیْنَهُمْ وَ لَوْ لاٰ کَلِمَهٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّکَ إِلیٰ أَجَلٍ مُسَمًّی لَقُضِیَ بَیْنَهُمْ وَ إِنَّ اَلَّذِینَ أُورِثُوا اَلْکِتٰابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِی شَکٍّ مِنْهُ مُرِیبٍ (۱۴)

التّفسیر

اشاره

الإسلام عصاره شرائع جمیع الأنبیاء:

بما أن العدید من بحوث هذه السوره تتعلق بالمشرکین،و أن الآیات السابقه کانت تتحدث عن نفس هذا الموضوع أیضا،لذا فإنّ الآیات التی نبحثها تبیّن هذه الحقیقه،و هی أن دعوه الإسلام إلی التوحید لیست دعوه جدیده،إنّها دعوه جمیع الأنبیاء أولی العزم،و لیس أصل التوحید فحسب،بل إن جمیع دعوات الأنبیاء فی

القضایا الأساسیه و فی مختلف الأدیان السماویه کانت واحده.

تقول الآیه: شَرَعَ لَکُمْ مِنَ الدِّینِ مٰا وَصّٰی بِهِ نُوحاً و الذی هو أوّل نبیّ من أولی العزم.

و أیضا: وَ الَّذِی أَوْحَیْنٰا إِلَیْکَ وَ مٰا وَصَّیْنٰا بِهِ إِبْرٰاهِیمَ وَ مُوسیٰ وَ عِیسیٰ .

و بهذا الشکل فما کان موجودا فی شرائع جمیع الأنبیاء موجود فی شریعتک أیضا و«ما یمتلکه الصالحون جمیعا تملکه لوحدک».

إنّ عباره(من الدین)تبیّن أن التنسیق بین جمیع الشرائع السماویه لم یکن بخصوص التوحید أو أصول العقائد فحسب،بل فی کلّ مجموعه الدین الإلهی، فمن حیث الأساس و الجذور کانت واحده،بالرغم من أن تکامل المجتمع الإنسانی یقتضی أن تکون التشریعات و القوانین الفرعیه متناسقه مع تکامل الناس،و تسیر نحو التکامل حتی تصل إلی الحد النهائی و تختتم الأدیان.

لهذا السبب هناک أدله کثیره فی آیات قرآنیه اخری تبیّن أن الأصول العامه للعقائد و القوانین و التعلیمات واحده فی جمیع الأدیان.

فمثلا نقرأ فی القرآن الکریم بخصوص شرح حال العدید من الأنبیاء،أنّ أوّل دعوه لهم کانت:یٰا قَوْمِ اعْبُدُوا اللّٰهَ (1) .

و فی مکان آخر نقرأ: وَ لَقَدْ بَعَثْنٰا فِی کُلِّ أُمَّهٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللّٰهَ .

و أیضا فقد ورد الإنذار بالبعث فی دعوه العدید من الأنبیاء(الأنعام ۱۳۰، الأعراف ۵۹،الشعراء ۱۳۵،طه ۱۵،مریم ۳۱).

أمّا موسی و عیسی و شعیب علیه السّلام فیتحدثون عن الصلاه(طه ۱۴،مریم ۳۱، هود ۸۷).

و إبراهیم یدعو إلی الحج(الحج ۲۷).

و کان الصوم مشرّعا عند جمیع الأقوام السابقین(البقره ۱۸۳).

ص :۴۸۶

۱- ۱) -الأعراف(۵۹،۶۵،۷۳،۸۵)هود(۵۰،۶۱،۸۴)حیث جاءت بالترتیب بخصوص نوح،هود و صالح علیهم السّلام.

لذا،و كتعليمات عامّه لجميع الأنبياء العظام تقول الآيه فى الجمله الأخرى:

أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَ لاٰ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ

.

فهى توصى بأمرين مهمّين:

الأوّل:إقامه دين الخالق فى كلّ الأرض(و ليس العمل فحسب،بل إقامته و إحياؤه و نشره).

الثّانى:الاحتراز عن البلاء العظيم،يعنى الفرقه و النفاق فى الدين.

و بعد ذلك تقول: كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مٰا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ .

فلقد تطبع هؤلاء على الشرك و عباده الأصنام بسبب الجهل و التعصب لسنين طويله،و عشعش ذلك فى أعماقهم بحيث أصبحت الدعوه إلى التوحيد تخيفهم و توحشهم،إضافه لذلك فإن مصالح زعماء المشركين اللامشروعه محفوظه فى الشرك،فى حين أن التوحيد هو أساس ثوره المستضعفين،و يقف حائلا دون أهواء الطغاه و مظالمهم.

و كما أن انتخاب الأنبياء بيد الخالق،كذلك فإنّ هدايه الناس بيده أيضا: اَللّٰهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشٰاءُ وَ يَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ .

ملاحظات

و هناك ملاحظات فى هذه الآيه يجب الانتباه إليها:

۱-(شرع)من كلمه(شرع)و هى فى الأصل تعنى الطريق الواضح،حيث يقال(الشريعه)للطريق المؤدى إلى النهر،ثمّ استخدمت هذه الكلمه بخصوص الأديان الإلهيه و الشرائع السماويه،لأن طريق السعاده الواضح يتمثل فيها،و هى طريق الوصول إلى الإيمان و التقوى و الصلح و العداله.

و بما أنّ الماء هو أساس النظافه و الطهاره و الحياه،لذا فإنّ لهذا المصطلح

تناسب واضح مع الدين الإلهی الذی یؤدّی نفس هذه الأعمال من الناحیه المعنویه مع روح الإنسان و المجتمع البشری (۱) .

۲-لقد أشارت هذه الایه إلی خمسه من الأنبیاء الإلهیین فقط(نوح و إبراهیم و موسی و عیسی و محمّد علیهم السلام)لأنّ هؤلاء الخمسه هم الأنبیاء أولو العزم، أیّ أصحاب الدین و الشرائع،و فی الحقیقه فإنّ الآیه تشیر إلی انحصار الشریعه بهؤلاء الخمسه من الأنبیاء.

۳-فی البدایه ذکرت الآیه نوحا،لأنّ أوّل شریعه(أو الدین الذی یحتوی علی کلّ القوانین العبادیه و الاجتماعیه)نزلت عن طریقه،و کانت هناک تعلیمات و برامج محدوده للأنبیاء الذین سبقوه (۲) .

و لهذا السبب لم یشر القرآن و لا الرّوایات الإسلامیه إلی الکتب السماویه قبل نوح علیه السّلام.

۴-من الضروری أن نشیر إلی أنّه عند ذکر هؤلاء الخمسه،ثمّ ذکر نوح علیه السّلام فی البدایه ثمّ نبیّ الإسلام صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و بعد ذلک إبراهیم علیه السّلام و موسی علیه السّلام و عیسی علیه السّلام، و هذا الترتیب بسبب أن نوحا کان هو البادئ و الفاتح،و نبیّ الإسلام ذکر بعد ذلک بسبب عظمته،و ذکر الآخرون حسب الترتیب الزمنی لظهورهم.

۵-من الضروری أیضا أن نشیر إلی هذه الملاحظه،و هی أن القرآن یستخدم عباره: أَوْحَیْنا إِلَیْکَ بخصوص نبیّ الإسلام صلّی اللّه علیه و اله و سلّم،إلاّ أنّه استخدم عباره «وصیّنا»بالنسبه الی الآخرین،قد یکون هذا الاختلاف فی التعبیر بسبب أهمیه الإسلام بالنسبه لسائر الأدیان السماویه الأخری.

۶-وردت عباره(من یشاء)بالنسبه الی کیفیه انتخاب الأنبیاء فی نهایه الآیه،و التی قد تکون إشاره مجمله للمؤلهات الذاتیه للرسل الإلهیین.

ص: ۴۸۸

۱- ۱) -لقد جاء هذا المعنی بشکل مجمل فی لسان العرب و المفردات للراغب و بقیه کتب اللغه.

۲- ۲) -هناک شرح أوردناه بهذا الخصوص فی نهایه الآیه ۲۱۳ من سوره البقره.

أمّا بخصوص الأمم فقد تم استخدام عباره(من ينيب)«و التی تعنی الرجوع إلی الخالق و التوبه عن الذنب»حتی يتّضح معيار الهدايه الإلهيه و شرائطها للجميع، و يعثروا علی طريق الوصول إلی بحر رحمته.

جاء فی الحديث القدسی «من تقرب منّی شبرا تقربت منه ذراعا،و من أتانی يمشی أتيته هروله» (۱) .

و قد ورد هذا الاحتمال أيضا فی تفسير الجمله الأخيره،و هو أن(الاجتباء) لا يختص بالأنبياء فحسب،بل يشمل جميع العباد المخلصين الذين لهم المقام المحمود عند الخالق.

و بما أن أحد أركان دعوه الأنبياء أولی العزم هو عدم التفريق فی الدين،فقد كانوا يدعون لذلك حتما،لذا فقد يطرح هذا السؤال:ما هو أساس كلّ هذه الاختلافات المذهبيه؟ و قد أجابت الآيه الأخری علی هذا السؤال و ذكرت أساس الاختلافات الدينيه بأنّه: وَ مٰا تَفَرَّقُوا إِلاّٰ مِنْ بَعْدِ مٰا جٰاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ ،فالاختلافات لم تحدث إلّا بسبب حب الدنيا و المنصب و الظلم و الحسد و العداوه.

نعم،فعبيد الدنيا الظلمه و الحسودون الحاقدون وقفوا حيال أديان الأنبياء جميعا،و دفعوا كلّ مجموعه باتجاه معين كيما يثبتوا أركان زعامتهم و يؤمّنوا مصالحهم الدنيويه،و يكشفوا-علانيه-حسدهم و عداوتهم للمؤمنين الحقيقيين دين الأنبياء،و لكن كلّ هذا حصل بعد إتمام الحجه.

و بهذا الترتيب فإنّ أساس التفرق فی الدين لم يكن الجهل،بل كان الظلم و البغی و الانحراف عن الحق،و الأهواء و الآراء الشخصيه.

«فالعلماء الذين يطلبون الدنيا»و«و الحاقدون من الناس و المتعصبون» اتحدوا معا لزرع هذه الاختلافات.

۱- ۱) -التّفسير الكبير للفخر الرازی،المجلد ۲۷،ص ۱۵۷(نهايه الآيات التی نبحثها).

و تعتبر هـذه الآيه ردّا واضـحا على الـذين يقولون بأن الـدين أوجـد الاختلاف بين البشـر،و أدى الى إراقه دماء كثيره على مدى التاريخ،فلو دققوا فى الأمر لوجدوا أن الدين دائما هو أساس لوحده و الاتحاد فى المجتمع(كما حصل للإسلام و قبائل الحجاز و حتى الأقوام فى خارج الجزيره حيث انتهت الاختلافات و أصبحوا أمه واحده).

إلاّ أن السـياسات الاستعماريه هى التى أوجدت الفرقه بين الناس،و حرضت على الاختلافات،و كانت أساسا لإراقه الدماء،ففرض سياساتها و أهوائها على الأديان السماويه كان عاملا كبيرا آخر فى إيجاد الفرقه،و هذا بحد ذاته ينبع من (البغى)أيضا.

«البغى»كمـا يكشف أسـاسه اللغوى،يعنى(طلب التجـاوز و الاـنحراف عن خـط الوسـط و الميـل نحو الإفراط أو التفريط)سواء تمّ تطبيق هذا الطلب أم لا، و تختلف كميته و كيفيته،و لهذا السبب فغالبا ما يستخدم بمعنى الظلم.

و أحيانا يقال لأى طلب بالرغم من كونه أمرا جيدا و مرغوبا.

لـذا فـإنّ الراغب فى مفرداته يقسم(البغى)إلى نوعين:(ممـدوح)و(مـذموم) فالأـوّل يتجـاوز حـد العـداله و يصـل إلى الإحسـان و الإيثار،و تجاوز الواجبات و الوصول إلى المستحبات،و الثّانى يتجاوز الحق نحو الباطل.

ثم يضـيف القرآن الكريم: وَ لَوْ لاٰ كَلِمَهٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ حيث يهلك أتباع الباطل و ينصر أتباع الحق.

نعم،فالـدنيا هى محل الاختبار و التربيه و التكامل،و لا يحصل هـذا بدون حريه العمل،و هذا هو الأمر التكوينى الإلهى الذى كان موجودا منذ بدء خلق الإنسان و لا يقبل التغيير.إن هذه هى طبيعه الحياه الدنيويه،و لكن ما يمتاز به عالم الآخره هو أن جميع هذه الاختلافات ستنتهى و سوف تصل الإنسانيه إلى الوحده الكامله،و لهذا السبب يتمّ استخدام عباره(يوم الفصل)للقيامه.

أمّا آخر جمله فتقوم بتوضيح حال الأشخاص الذين جاؤوا بعد هذه المجموعه،أى الذين لم يدركوا عصر الرسل،بل جاؤا فى فتره طبع فيها المنافقون و المفرقون المجتمع البشرى بطابعهم الشيطانى،لذا لم يستطيعوا إدراك الحق بشكل جيد،حيث تقول: وَ إِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتٰابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (۱) .

و قد ذكروا فى حقيقه معنى كلمه(ريب)أن هذه الكلمه تطلق على الشك الذى يتبدل إلى الحقيقه أخيرا بعد أن يزال الستار عنه،و قد يكون هذا الأمر إشاره إلى ظهور نبىّ الإسلام صلّى اللّه عليه و اله و سلّم بالأدله الواضحه،حيث محى آثار الشك و الريب من قلوب طلاّب الحق.

ملاحظه

نقل تفسير على بن إبراهيم عن الإمام الصادق عليه السّلام فى قول اللّه تعالى: أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ قال الأمام، وَ لاٰ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كنايه عن أمير المؤمنين الإمام على عليه السّلام ثمّ قال: كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مٰا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ من أمر ولايه على اَللّٰهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشٰاءُ كنايه عن على(ع) (۲) .

و بديهى أنّ المقصود ليس تحديد الدين فى ولايه على عليه أفضل الصلاه و السلام،بل الهدف هو بيان هذه الحقيقه،و هى أنّ قضيه ولايه أمير المؤمنين الإمام على عليه السّلام تعتبر من أركان الدين أيضا.

ص: ۴۹۱

---

۱ - ۱) -وفقا لهذا التّفسير الذى يتناسق بشكل كامل مع الجمل السابقه،فإن ضمير(بعدهم)يعود إلى الأمم الأولى التى أوجدت الفرقه بين المذاهب و الأديان،و ليس إلى الأنبياء المذكورين فى الآيه السابقه(فدقق ذلك).

۲ - ۲) -تفسير نور الثقلين،المجلد الرابع،ص ۵۶۷.

الآیه [سوره الشوری (۴۲): آیه ۱۵]

اشاره

فَلِذٰلِکَ فَادْعُ وَ اِسْتَقِمْ کَمٰا أُمِرْتَ وَ لاٰ تَتَّبِعْ أَهْوٰاءَهُمْ وَ قُلْ آمَنْتُ بِمٰا أَنْزَلَ اَللّٰهُ مِنْ کِتٰابٍ وَ أُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَیْنَکُمُ اَللّٰهُ رَبُّنٰا وَ رَبُّکُمْ لَنٰا أَعْمٰالُنٰا وَ لَکُمْ أَعْمٰالُکُمْ لاٰ حُجَّهَ بَیْنَنٰا وَ بَیْنَکُمُ اَللّٰهُ یَجْمَعُ بَیْنَنٰا وَ إِلَیْهِ اَلْمَصِیرُ (۱۵)

التّفسیر

اشاره

فاستقم کما أمرت!

بما أن الآیات السابقه تحدثت عن تفرق الأمم بسبب البغی و الظلم و الانحراف، لذا فإنّ الآیه التی نبحثها تأمر النّبی بمحاوله حل الاختلافات و إعاده الحیاه إلی دین الأنبیاء،و أن یبذل منتهی الاستقامه فی هذا الطریق،فتقول:

فَلِذٰلِکَ فَادْعُ

(۱)

أی ادعوهم إلی الدین الإلهی الواحد و امنع الاختلافات.

ثم تأمره بالاستقامه فی هذا الطریق،فتقول: وَ اسْتَقِمْ کَمٰا أُمِرْتَ .

و لعل جمله«کما أمرت»إشاره إلی المرحله العالیه من الاستقامه،أو إلی أن

---

۱ – ۱) -بعض المفسّرین اعتبر«اللام»فی«لذلک»بمعنی«إلی»،و البعض الآخر بمعنی(التعلیل)و فی الحاله الأولی تکون کلمه (ذلک)إشاره إلی دین الأنبیاء السابقین،و فی الحاله الثانیه إشاره إلی اختلاف الأمم.

الاستقامه یجب أن تکون من حیث الکمیه و الکیفیه و الزمن و الخصوصیات الأخری مطابقه للقانون الإلهی.

و بما أن أهواء الناس تعتبر من الموانع الکبیره فی هذا الطریق،لذا تقول الآیه فی ثالث أمر لها: وَ لاٰ تَتَّبِعْ أَهْوٰاءَهُمْ ،لأن کلّ مجموعه ستدعوک إلی أهوائها و مصالحها الشخصیه،تلک الدعوه التی یکون مصیرها الفرقه و الاختلاف و النفاق، فعلیک القضاء علی هذه الأهواء،و جمع الکل فی ظل الدین الإلهی الواحد.

و بما أن لکل دعوه نقطه بدایه،لذا فإن نقطه البدایه هی شخص الرّسول صلّی اللّه علیه و اله و سلّم، حیث تقول الآیه فی رابع أمر لها: وَ قُلْ آمَنْتُ بِمٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ مِنْ کِتٰابٍ .فأنا لا أفرّق بین الکتب السماویه،اعترف بها جمیعا،و کلها تدعو إلی التوحید و المعارف الدینیه الطاهره و التقوی و الحق و العداله، و فی الحقیقه فإن دینی جامع لها و مکملها.

فأنا لست مثل أهل الکتاب حیث یقوم کلّ واحد بإلغاء الآخرین،فالیهود یلغون المسیحیین،و المسیحیون یلغون الیهود،و حتی أن أتباع کلّ دین أیضا یقبلون ما یتلاءم مع حاجاتهم و رغباتهم من کتبهم الدینیه،فانا أقبل بالکل لأن الکل له أصول أساسیه واحده.

و بما أن رعایه(أصل العداله)ضروری لإیجاد الوحده،لذا فإن الآیه تطرح ذلک فی خامس أمر لها فتقول: وَ أُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَیْنَکُمُ ،سواء فی القضاء و الحکم،أو فی الحقوق الاجتماعیه و القضایا الأخری (۱) .

و بهذا الشکل فإنّ الآیه التی نبحثها مؤلفه من خمس تعلیمات مهمّه،حیث تبدأ من أصل الدعوه،ثمّ تطرح وسیله انتشارها-یعنی الاستقامه-ثمّ تشیر إلی الموانع فی الطریق«کعباده الأهواء»ثمّ تبین نقطه البدایه التی تبدأ من النفس، و أخیرا الهدف النهائی و الذی هو توسیع و تعمیم العداله.

۱- ۱) -بعض المفسّرین حدّد(العداله)هنا بالقضاء،فی حین أنّه لا توجد قرینه علی هذه المحدودیه فی الآیه.

بعد هذه التعليمات الخمس،تشير إلى المشتركات بين الأقوام و التى تتلخص بخمس فقرات،حيث تقول: اَللّهُ رَبُّنا وَ رَبُّكَمْ و كل واحد مسئول عن اعماله لَنا أَعْمالُنا وَ لَكُمْ أَعْمالُكُمْ لا حُجَّهَ بَيْنَنا وَ بَيْنَكُمْ و ليس بيننا نزاع و خصومه، و لا امتياز لأحدنا على الآخر و ليست لدينا أغراض شخصيه اتجاهكم.

و عاده لا توجد حاجه إلى الاستدلال و الإحتجاج،لأن الحق واضح،إضافه إلى ذلك فإننا جميعا سوف نجتمع فى مكان واحد: اَللّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنا (۱) .

و الذى سوف يقضى بيننا فى ذلك اليوم هو الأحد الذى: وَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ .

و على هذا الأساس فإنّ إلهنا واحد،و نهايتنا ستكون فى مكان واحد، و القاضى الذى إليه المصير واحد،و بالرغم من كلّ هذا فإننا مسئولون جميعا حيال أعمالنا،و ليس هناك فرق لإنسان على آخر إلّا بالإيمان و العمل الصالح.

و ننهى هذا البحث بحديث جامع،

فقد ورد فى حديث عن الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و اله و سلّم: «ثلاث منجيات،و ثلاث مهلكات،فالمنجيات:العدل فى الرضا و الغضب،و القصد فى الغنى و الفقر،و خشيه اللّه فى السر و العلانيه،و المهلكات:

شح مطاع،و هوى متبع،و إعجاب المرء بنفسه» (۲) .

۱- ۱) -الضمير المتكلم مع الغير فى(بيننا)يشير إلى الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم و المؤمنين،و ضمير الجمع فى(بينكم)يشير إلى جميع الكفار،سواء كانوا أهل الكتاب أو المشركين.

۲- ۲) -مجمع البيان،نهايه الآيات التى نبحثها.و تحف العقول كلمات الرّسول الأعظم صلّى اللّه عليه و اله و سلّم.

الآیات [سوره الشوری (۴۲): الآیات ۱۶ الی ۱۸]

اشاره

وَ اَلَّذِینَ یُحَاجُّونَ فِی اَللّٰهِ مِنْ بَعْدِ مَا اُسْتُجِیبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دٰاحِضَهٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ عَلَیْهِمْ غَضَبٌ وَ لَهُمْ عَذٰابٌ شَدِیدٌ (۱۶) اَللّٰهُ اَلَّذِی أَنْزَلَ اَلْکِتٰابَ بِالْحَقِّ وَ اَلْمِیزٰانَ وَ مٰا یُدْرِیکَ لَعَلَّ اَلسّٰاعَهَ قَرِیبٌ (۱۷) یَسْتَعْجِلُ بِهَا اَلَّذِینَ لاٰ یُؤْمِنُونَ بِهٰا وَ اَلَّذِینَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهٰا وَ یَعْلَمُونَ أَنَّهَا اَلْحَقُّ أَلاٰ إِنَّ اَلَّذِینَ یُمٰارُونَ فِی اَلسّٰاعَهِ لَفِی ضَلاٰلٍ بَعِیدٍ (۱۸)

التّفسیر

اشاره

لا تستعجلوا بالساعه!!

الآیات السابقه کانت تتحدث عن واجبات النبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم،کاحترامه لمحتوی الکتب السماویه،و تطبیق العداله بین جمیع الناس و ترک أی محاججه أو خصومه بینه و بینهم.أمّا الآیات التی نبحثها،فلکی تکمّل البحث السابق و تثبت أن حقانیه نبیّ الإسلام لا تحتاج إلی دلیل،تقول: وَ الَّذِینَ یُحَاجُّونَ فِی اللّٰهِ مِنْ بَعْدِ مٰا اسْتُجِیبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دٰاحِضَهٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ و بما أن نقاشهم و محاججتهم لیس لکشف الحقیقه، بل للعناد و الإصرار تقول الایه وَ عَلَیْهِمْ غَضَبٌ .

وَ لَهُمْ عَذٰابٌ شَدِيدٌ

لعدم وجود غير هذا الجزاء للمعاندين.

و قد ذكر المفسّرون تفاسير مختلفه حول المقصود من جمله: مِنْ بَعْدِ مٰا اسْتُجِيبَ لَهُ .

فقالوا:إنّ المقصود هو استجابه عامه الناس من ذوى القلوب الطاهره، و الذين ليست لهم نوايا خبيثه،يستسلمون للحق و يخضعون له مستلهمين ذلك من الفطره الإلهيه و مشاهده محتوى الوحى و المعاجز المختلفه للنبى الأكرم صلّى اللّه عليه و اله و سلّم.

و قد يكون المقصود بها استجابه دعاء الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم بحق معارضيه كما فى يوم معركه بدر،حيث أدى ذلك إلى فناء قسم عظيم من جيش العدو و انكسار شوكته.

و أحيانا اعتبروا ذلك إشاره إلى قبول أهل الكتاب، حيث كانوا ينتظرون نبىّ الإسلام صلّى اللّه عليه و اله و سلّم قبل ظهوره،و يذكرون علامات ظهوره للناس من خلال كتبهم، و كانوا يظهرون الإيمان و الحب له،إلاّ أنّه بعد ظهور الإسلام أنكروا كلّ ذلك،لأن مصالحهم غير المشروعه أصبحت فى خطر.

و يبدو أن التّفسير الأوّل هو الأفضل،لأن التّفسير الثّانى يقتضى أن تكون هذه الآيات نازله بعد معركه بدر،فى حين أنّه لا دليل على هذا الأمر،و يظهر أن جميع هذه الآيات نزلت فى مكّه.

و التّفسير الثّالث لا يتلاءم مع أسلوب الآيه،لأنّه يجب أن يقال:«من بعد ما استجابوا له».

إضافه إلى أن ظاهر جمله: يُحَاجُّونَ فِى اللّٰهِ يشير إلى محاجحه المشركين بخصوص الخالق،و ليس أهل الكتاب بالنسبه الى النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم و لكن ما هى المواضيع المطروحه المشار إليها فى هذه المحاججه الباطله؟هناك اختلاف بين المفسّرين:

فقال البعض:إنّ المقصود هو ادعاء اليهود الذين يقولون بأن دينهم كان

موجودا قبل الإسلام و إن اسبقيته دليل على أفضليته.

أو،ما دمتم تدّعون الوحده فتعالوا و آمنوا بدين موسى عليه السّلام لأن الطرفين يقبلانه.

و لكن-كما قلنا-فإن من المستبعد أن يكون الكلام فى هذه الآيات مع اليهود أو أهل الكتاب،لأن«المحاجه فى اللّه»أكثر ما تخص المشركين،لذا فإنّ الجمله أعلاه تشير إلى الأدله الواهيه للمشركين فى قبولهم بالشرك،و التى منها شفاعه الأصنام أو اتباع دين الآباء و الأجداد.

على أيه حال،فالمعاندون الذين يصرون على عنادهم بعد وضوح الحق، سيفتضح أمرهم بين خلق اللّه،و سيشملهم غضب الخالق فى هذا العالم و العالم الآخر.

ثم يشير القرآن إلى أحد أدله التوحيد و قدره الخالق،و فى نفس الوقت يتضمّن إثبات النبوه حيال المتحاججين ذوى المنطق الواهى،حيث تقول الآيه:

اَللّٰهُ الَّذِى أَنْزَلَ الْكِتٰابَ بِالْحَقِّ وَ الْمِيزٰانَ

.

«الحق»كلمه جامعه تشمل المعارف و العقائد الحقه،و الأخبار الصحيحه و البرامج المتطابقه مع الحاجه الفطريه و الاجتماعيه،و ما شابه ذلك،لأن الحق هو الشيء الموجود الذى يطابق مصداقه الخارجى،و ليس له جنبه ذهنيه و خياليه.

و أمّا«الميزان»فله معنى عام فى مثل هذه الموارد،بالرغم من أن معناه اللغوى هو وسيله لقياس الوزن،إلاّ أنّه فى معناه الكنائى يطلق على أى معيار للقياس و القانون الإلهى الصحيح،و حتى شخص الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم و الأئمّه عليهم السّلام،حيث أن وجودهم معيار لتشخيص الحق من الباطل و ميزان يوم القيامه،و الميزان فى القيامه يراد به هذا المعنى.

بناء على هذا فإنّ الخالق أنزل كتابا على نبيّ الإسلام صلّى اللّه عليه و اله و سلّم بحيث يعتبر هو الحق،و الميزان للتقييم،و التدقيق فى محتوى هذا الكتاب سواء معارفه و عقائده،

و استدلالاته المنطقيه،أو قوانينه الاجتماعيه،و حتى برامجه لتهذيب النفوس و تكامل البشر...كلّ ذلك يعتبر دليلا على حقانيته.

إنّ هـذا المحتوى العظيم-بهـذا العمق-من شـخص أمّى لا يعرف القراءه و الكتابه،و قد نشا فى مجتمع يعتبر من أكثر المجتمعات تخلفا،يعتبر بحدّ ذاته دليلا على عظمه الخالق،و وجود عالم ما وراء الطبيعه،و حقانيه من جاء به.

و هكذا فإنّ الجمله أعلاه تعتبر جوابا للمشركين و لأهل الكتاب.

و بما أن نتيجه كلّ هـذه الأمور،خاصه ظهور الحق بشـكل كامل و العـداله و الميزان تتّضح فى يوم القيامه،لذا فإن الآيه تقول فى نهايتها: وَ مٰا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السّٰاعَةَ قَرِيبٌ .

فالقيامه عند ما تقام يحضر الجميع فى محكمه عدله،و يواجهون الميزان الذى يقيس حتى حبّه الخردل أو أصغر منها.

ثم يشير القرآن إلى موقف الكفار و المؤمنين حيال القيامه،فتقول الآيه:

يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ بِهٰا

.

فهؤلاء لا يقولون ذلك بسبب عشـقهم للقيامه و الوصول إلى لقاء المحبوب أبدا،إنّ كلامهم هذا من قبيل الاسـتهزاء و الإنكار،و لو كانوا يعلمون ما سيحل عليهم يوم القيامه لم يطلبوا مثل هذا الأمر.

وَ الَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهٰا وَ يَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ

(۱)

.

طبعـا لحظه قيـام القيـامه خـافيه على الجميع،حتى بالنسـبه للأنبيـاء المرسـلين و الملائكه المقربين،ليكون هـذا الأمر أسـلوبا تربويا مستمرا للمؤمنين،و اختبارا و إتمام حجه للمنكرين،و لكن لا يوجد أى شك فى أصل وقوعها.

۱- ۱) -«مشـفقون»من كلمه(إشفاق)و تعنى العلاقه المقترنه مع الخوف،فمتى ما تعدت بحرف(من)يطغى جانب الخوف عليها، و عنـد مـا تتعـدى بحرف(على)يطغى جـانب الانتباه و المراقبه عليها،و لـذا فإن الإنسان يقول لصاحبه و صـديقه:«أنا مشـفق عليك» (تفسير روح المعانى و مفردات الراغب).

و من هنا يتّضح مدى التأثير التربوى العميق للإيمان بالقيامه و محكمه العدل الإلهى الكبيره على المؤمنين خاصه فى احتمالهم حصول هذا الأمر فى أيه لحظه من اللحظات.

و كإعلان عام،تقول الآيه فى نهايتها: أَلاٰ إِنَّ الَّذِينَ يُمٰارُونَ فِي السّٰاعَهِ لَفِي ضَلاٰلٍ بَعِيدٍ لأن نظام هذا العالم يعتبر-بحد ذاته-دليلا على أنّه مقدمه لعالم آخر و بدونه سيكون خلق هذا العالم عبثا و ليس له أى معنى،و هذا لا يتناسب مع حكمه الخالق و لا مع عدالته.

و تشير عباره(ضلال بعيد)إلى أنّ الإنسان قد يضل الطريق أحيانا،إلاّ أنّه لا يبتعد عنه كثيرا،و بقليل من البحث و الجهد يمكنه أن يكتشف الطريق و أحيانا يكون البعد كبيرا جدا بحيث يصعب-أو يستحيل-عليه العثور على الطريق مرّه اخرى.

و الطريف فى الأمر أنّنا نقرأ

فى حديث عن النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و اله و سلّم: «سأل رجل رسول اللّه فى إحدى سفراته و بصوت مرتفع:يا محمّد...،فأجابه الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم و بصوت مرتفع مثل صوته«ما تقول؟».

قال الرجل:متى الساعه؟ قال الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم:«إنّها كائنه فما أعددت لها؟».

قال الرجل:حبّ اللّه و رسوله! قال الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم:«أنت مع من أحببت» (۱) .

۱- ۱) -تفسير المراغى،المجلد الخامس و العشرون،ص ۳۲.

الآيتان [سوره الشورى (۴۲): الآيات ۱۹ الى ۲۰]

اشاره

اَللّٰهُ لَطِيفٌ بِعِبٰادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشٰاءُ وَ هُوَ اَلْقَوِيُّ اَلْعَزِيزُ (۱۹) مَنْ كٰانَ يُرِيدُ حَرْثَ اَلْآخِرَهِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَ مَنْ كٰانَ يُرِيدُ حَرْثَ اَلدُّنْيٰا نُؤْتِهِ مِنْهٰا وَ مٰا لَهُ فِي اَلْآخِرَهِ مِنْ نَصِيبٍ (۲۰)

التّفسير

اشاره

مزرعه الدنيا و الآخره:

بما أن الآيات السابقه كانت تتحدث عن العذاب الإلهى الشديد و عن طلب منكرى المعاد للتعجيل بقيام القيامه،لذا فإنّ أوّل آيه نبحثها هنا تقرن«الغضب» الالهى مع«اللطف»الالهى فى معرض ردها على استعجال منكرى المعاد: اَللّٰهُ لَطِيفٌ بِعِبٰادِهِ .

فعند ما يهددهم بالعذاب الشديد فى موضع،يعدهم باللطف فى موضع آخر، ذلك اللطف الواسع غير المحدود و لا يعجّل فى عقاب الجاهلين المغرورين.

ثم تطرح الآيه أحد مظاهر لطفه العام و هو الرزق،فتقول: يَرْزُقُ مَنْ يَشٰاءُ .و هذا لا يعنى أن هناك جماعه محرومون من رزقه،بل المقصود البسط فى الرزق لمن يشاء،كما جاء فى الآيه ۲۶ من سوره الرعد: اَللّٰهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ

يَشٰاءُ وَ يَقْدِرُ .

و نقرأ فى آيه قادمه فى هذا السوره: وَ لَوْ بَسَطَ اللّٰهُ الرِّزْقَ لِعِبٰادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ (۱) .

و واضح أن(الرزق)هنا يشمل الرزق المعنوى و المادى،و الجسمانى و الروحانى فعند ما يكون هو مصدر اللطف و الرزق،فلما ذا تتوجهون نحو الأصنام التى لا ترزق و لا تتلطف،لا تحل مشاكلكم.

و تقول الآيه فى نهايتها: وَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ .

و عند ما يعد اللّه تعالى عباده بالرزق و اللطف فهو قادر على إنجاز هذا الأمر، و لهذا السبب لا يوجد أى تخلف فى وعوده أبدا.

و من الضرورى الانتباه إلى هذه الملاحظه و هى أن(لطيف)لها معنيان:الأوّل:

أنّه صاحب اللطف و المحبه و الرحمه.و الثّانى:علمه بجميع الأمور الصغيره و الخافيه،و بما أن رزق العباد يحتاج إلى الإحاطه و العلم بالجميع و فى أى مكان كانوا،سواء فى السماء أو فى الأرض،لذا فإن الآيه تشير فى البدايه إلى لطفه ثمّ إلى رزقه،كما أن القرآن يضيف فى الآيه(۶)من سوره هود و بعد أن يذكر: وَ مٰا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلاّٰ عَلَى اللّٰهِ رِزْقُهٰا قوله: وَ يَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهٰا وَ مُسْتَوْدَعَهٰا .

و طبعا لا يوجد أى تناقض بين هذين المعنيين،بل يكمل أحدهما الآخر، فاللطيف هو الشخص الذى يكون كاملا من حيث المعرفه و العلم،و من حيث اللطف و المحبّه لعباده،و بما أن الخالق يعلم باحتياجات عباده بشكل جيد فانه يسدد احتياجاتهم بأفضل وجه،لذا فهو الاجدر بهذا الاسم.

على أيه حال،فإنّ الآيه أعلاه أشارت إلى أربعه صفات من أوصاف الخالق:

اللطف،و الرزق،و القوّه،و العزّه،و هى أفضل دليل على مقام(ربوبيته)،لأن (الرب)يجب أن تتوفر فيه هذه الصفات.

۱- ۱) -الآيه ۲۷-نفس هذه السوره.

الآيه التی بعدها شبّهت أفراد العالم حیال رزق الخالق و کیفیه الاستفاده منه بالمزارعین الذین یقوم قسم منهم بالزراعه للآخره و القسم الآخر للدنیا،و تحدد عاقبه کلّ قسم منهم وفق تشبیه لطیف حیث تقول: مَنْ کٰانَ یُرِیدُ حَرْثَ الْآخِرَهِ نَزِدْ لَهُ فِی حَرْثِهِ وَ مَنْ کٰانَ یُرِیدُ حَرْثَ الدُّنْیٰا نُؤْتِهِ مِنْهٰا وَ مٰا لَهُ فِی الْآخِرَهِ مِنْ نَصِیبٍ (۱) .

إنه لتشبیه لطیف و کنایه جمیله،فجمیع الناس مزارعون،و هذه الدنیا مزرعه لنا،أعمالنا هی البذور،و الإمکانات الإلهیه هی المطر لهذه المزرعه،إلاّ أن هذه البذور تختلف کثیرا،فبعضها غیر محدوده النتاج و أبدیه،أشجارها دائمه الخضره و مثمره و بعضها الآخر قلیل النفع جدا،و تنتهی بسرعه،و تحمل ثمارا مرّه.

و فی الحقیقه،فإن عباره(یرید)تشیر إلی اختلاف الناس فی النیات، و مجموع هذه الآیه یعتبر توضیحا لما جاء فی الآیه السابقه من المواهب و الرزق الإلهی،فالبعض یستفید من هذه المواهب علی شکل بذور للآخره،و البعض الآخر یستعملها للتمتع الدنیوی.

و الطریف فی الأمر أن الآیه تقول بخصوص الذین یزرعون للآخره: نَزِدْ لَهُ فِی حَرْثِهِ إلاّ أنّها لا تقول أنّه لا یصیبهم شیء من متاع الدنیا،و بالنسبه لمن یزرع للدنیا تقول: نُؤْتِهِ مِنْهٰا وَ مٰا لَهُ فِی الْآخِرَهِ مِنْ نَصِیبٍ .

و علی هذا الأساس فلا طلاّب الدنیا یصلون إلی ما یریدون،و لا طلاّب الآخره یحرمون من الدنیا،و لکن مع الفارق،و هو أن المجموعه الأولی تذهب إلی الآخره بأید فارغه،و المجموعه الثانیه بأید مملوءه.

و قد جاء ما یشبه نفس هذا المعنی فی الآیه ۱۸ و ۱۹ من سوره الإسراء، و لکن بشکل آخر:

۱- ۱) -مصطلح(حرث)کما یقول الراغب فی مفرداته:تعنی فی الأصل:رمی البذر فی الأرض و تهیئتها للزراعه،و فی القرآن الکریم استخدمت عده مرات بهذا المعنی،و لکن لا یعلم سبب اعتبار بعض المفسرین أنها تعنی(العمل و الکسب).

مَنْ كٰانَ يُرِيدُ الْعٰاجِلَهَ عَجَّلْنٰا لَهُ فِيهٰا مٰا نَشٰاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنٰا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاٰهٰا مَذْمُوماً مَدْحُوراً وَ مَنْ أَرٰادَ الْآخِرَهَ وَ سَعىٰ لَهٰا سَعْيَهٰا وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولٰئِکَ کٰانَ سَعْيُهُمْ مَشْکُوراً .

عباره نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ تتلاءم مع ما ورد فی آیات قرآنیه اخری،مثل:

مَنْ جٰاءَ بِالْحَسَنَهِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثٰالِهٰا

(۱)

و لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَ يَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ (۲) .

علی أیه حال،فالآیه أعلاه صوره ناطقه تعکس التفکیر الإسلامی بالنسبه الی الحیاه الدنیا،الدنیا المطلوبه لذاتها،و الدنیا التی تعتبر مقدمه للعالم الآخر و مطلوبه لغیرها،فالإسلام ینظر إلی الدنیا علی أنّها مزرعه یقتطف ثمارها یوم القیامه.

و العبارات الوارده فی الروایات أو فی آیات قرآنیه اخری تؤکد هذا المعنی.

فمثلا تشبّه الآیه(۲۱۶)من سوره البقره المنفقین بالبذر الذی له سبعه سنابل، و فی کلّ سنبله مائه حبه،و أحیانا أکثر.و هذا نموذج لمن یبذر البذور للآخره.

و نقرأ

فی حدیث عن الرّسول صلّی اللّه علیه و اله و سلّم. «و هل یکب الناس علی مناخرهم فی النّار إلّا حصائد ألسنتهم» (۳) .

و

جاء فی حدیث آخر عن أمیر المؤمنین علیه السّلام: «إن المال و البنین حرث الدنیا، و العمل الصالح حرث الآخره،و قد یجمعهما اللّه لأقوام» (۴) .

و یمکن أن نستفید هذه الملاحظه من الآیه أعلاه،و هی أن الدنیا و الآخره تحتاجان إلی السعی،و لا یمکن نیلهما دون تعب و أذی،کما أن البذر و الثمر لا یخلوان من التعب و الأذی،لذا فالأفضل للإنسان أن یزرع شجره و یبذل جهده فی تربیتها،لیکون ثمرها حلو المذاق و دائمیا و أبدیا،و لیست شجره تموت بسرعه و تفنی.

۱- ۱) -الأنعام،الآیه ۱۶۰.

۲- ۲) -فاطر،الآیه ۳۰.

۳- ۳) -المحجه البیضاء،المجلد الخامس،ص ۱۹۳(کتاب آفات اللسان).

۴- ۴) -الکافی،وفقا لنقل نور الثقلین،المجلد الرابع،ص ۵۶۹.

و ننهی هذا الکلام

بحـدیث عن الرّسول الأـکرم صـلّی اللّه علیه و اله و سـلّم حیث یقول: «من کـانت نیّته الـدنیا فرق اللّه علیه أمره،و جعل الفقر بین عینیه،و لم یـأته من الـدنیا إلاّـ ما کتب له،و من کانت نیّته الآخره جمع اللّه شـمله،و جعل غناه فی قلبه،و أتته الـدنیا و هی راغمه» (۱) .

و ما هو مشهور بین العلماء أن

(الدنیا مزرعه الآخره) فهو فی الحقیقه اقتباس من مجموع ما ذکرناه أعلاه.

ص: ۵۰۴

۱- ۱) -مجمع البیان،نهایه الآیات التی نبحثها.

الآیات [سوره الشوری (۴۲): الآیات ۲۱ الی ۲۳]

اشاره

أَمْ لَهُمْ شُرَكٰاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ اَلدِّينِ مٰا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اَللّٰهُ وَ لَوْ لاٰ كَلِمَةُ اَلْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَ إِنَّ اَلظّٰالِمِينَ لَهُمْ عَذٰابٌ أَلِيمٌ (۲۱) تَرَى اَلظّٰالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمّٰا كَسَبُوا وَ هُوَ وٰاقِعٌ بِهِمْ وَ اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ فِي رَوْضٰاتِ اَلْجَنّٰاتِ لَهُمْ مٰا يَشٰاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذٰلِكَ هُوَ اَلْفَضْلُ اَلْكَبِيرُ (۲۲) ذٰلِكَ اَلَّذِي يُبَشِّرُ اَللّٰهُ عِبٰادَهُ اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ قُلْ لاٰ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ اَلْمَوَدَّةَ فِي اَلْقُرْبىٰ وَ مَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهٰا حُسْناً إِنَّ اَللّٰهَ غَفُورٌ شَكُورٌ (۲۳)

سبب النّزول

لقد ورد فی تفسیر مجمع البیان سبب نزول للآیات ۲۳ و حتی ۲۶ من هذه السوره أنّه ذکر أبو حمزه الثمالی فی تفسیره حدثنی عثمان بن عمیر عن سعید بن جبیر عن عبد اللّه بن عباس أنّ رسول اللّه حین قدم المدینه و استحکم الإسلام قالت الأنصار فیما بینها:نأتی رسول اللّه فنقول له إن تعروک أمور فهذه أموالنا

ص :۵۰۵

تحکم فیها غیر حرج و لا محظور علیک فأتوه فی ذلک فنزلت: قُلْ لاٰ أَسْئَلُکُمْ عَلَیْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّهَ فِی الْقُرْبیٰ فقرأها علیهم و قال تودون قرابتی من بعدی فخرجوا من عنده مسلّمین لقوله فقال المنافقون:إن هذا لشیء افتراه فی مجلسه أراد بذلک أن یذللنا لقرابته من بعده،فنزلت: أَمْ یَقُولُونَ افْتَریٰ عَلَی اللّٰهِ کَذِباً فأرسل إلیهم فتلاها علیهم فبکوا و اشتد علیهم فانزل اللّه: وَ هُوَ الَّذِی یَقْبَلُ التَّوْبَهَ عَنْ عِبٰادِهِ الآیه،فأرسل فی أثرهم فبشرهم و قال:(و یستجیب الذین،آمنوا و هم الذین سلّموا لقوله تعالی) (۱) .

التّفسیر

اشاره

أجر الرساله فی موده أهل البیت علیهم السّلام

بما أنّ الآیه ۱۳ من هذه السوره کانت تتحدث عن تشریع الدین من قبل الخالق بواسطه الأنبیاء أولی العزم،لذا فإن أوّل آیه فی هذا البحث-کاستمرار للموضوع-تقول فی مجال نفی تشریع الآخرین،و أن جمیع القوانین لیست معتبره قبال القانون الإلهی،و أن التقنین یختص بالخالق: أَمْ لَهُمْ شُرَکٰاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّینِ مٰا لَمْ یَأْذَنْ بِهِ اللّٰهُ .

فهو خالق و مالک و مدبر عالم الوجود،و لهذا السبب تنفرد ذاته المنزهه بحق التقنین،و لا یستطیع شخص أن یتدخل فی تشریعاته دون إذن،لذا فکل شیء باطل قبال تشریعه.

و بعد ذلک یقوم القرآن بتهدید المشرعین بالباطل،حیث تقول الآیه: وَ لَوْ لاٰ کَلِمَهُ الْفَصْلِ لَقُضِیَ بَیْنَهُمْ حیث یصدر الأمر بعذابهم.

و فی نفس الوقت یجب علیهم أن لا ینسوا هذه الحقیقه و هی: وَ إِنَّ الظّٰالِمِینَ لَهُمْ عَذٰابٌ أَلِیمٌ .

۱- ۱) -تفسیر مجمع البیان،ج ۹،ص ۲۹.

المقصود من(كلمه الفصل)هى المدّه المقرره المعطاه من قبل الخالق لمثل هؤلاء الأفراد،كى تكون لهم حريه العمل و تتم الحجه عليهم.

كما أن عباره(ظالمين)تتحدث عن المشركين الذين لهم عقائد منحرفه قبال القوانين الإلهيه و ذلك بسبب اتساع مفهوم الظلم،و إطلاقه على أى عمل ليس فى مورده.

و يظهر أن المقصود من(العذاب الأليم)هو عذاب يوم القيامه،لأن هذه العباره عاده ما تستخدم بهذا المعنى فى القرآن الكريم،و الآيه التى بعدها تشهد على هذه الحقيقه،و ما قاله بعض المفسّرين(كالقرطبى)من أن ذلك يشمل عذاب الدنيا و الآخره مستبعد.

ثم تذكر الآيه بيانا مجملا حول(عذاب الظالمين)ثمّ بيانا مفصلا عن(جزاء المؤمنين)،فتقول: تَرَى الظّٰالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمّٰا كَسَبُوا وَ هُوَ وٰاقِعٌ بِهِمْ . وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ فِى رَوْضٰاتِ الْجَنّٰاتِ .

«روضات»جمع(روضه)و تعنى المكان الذى يشتمل على الماء و الشجر الكثير، لذا فإن كلمه(روضه)تطلق على البساتين الخضراء،و نستفيد من هذه العباره بشكل واضح أن بساتين الجنّه متفاوته،و المؤمنون من ذوى الأعمال الصالحه فى أفضل بساتين الجنّه،و مفهوم هذا الكلام أنّ المؤمنين المذنبين سيدخلون الجنّه بعد أن يشملهم العفو الإلهى بالرغم من أن مكانهم ليس فى (الروضات).

إلّا أن الفضل الإلهى بخصوص المؤمنين ذوى الأعمال الصالحه لا ينتهى هنا،فسوف يشملهم اللطف الإلهى بحيث: لَهُمْ مٰا يَشٰاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ .

و لهذا الترتيب لا يوجد أى قياس بين(العمل)و(الجزاء)،بل إن جزاءهم غير محدود من جميع الجهات،لأن جمله: لَهُمْ مٰا يَشٰاؤُنَ تكشف عن هذه الحقيقه.

و الأجمل من ذلك عباره عِنْدَ رَبِّهِمْ حيث توضح اللطف الإلهى

اللامتناهی بشأنّهم،و هل هناک فوز أکبر من أن یصلوا إلی قرب مقام الخالق؟فکما یقول بخصوص الشهداء: بَلْ أَحْیٰاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ یُرْزَقُونَ ،کذلک یقول بشأن المؤمنین ذوی الأعمال الصالحه: لَهُمْ مٰا یَشٰاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ .

و لیس غریبا أن تقول الآیه فی نهایتها: ذٰلِکَ هُوَ الْفَضْلُ الْکَبِیرُ .

و قد قلنا-مرارا-أنّه لا یمکن شرح نعم الجنّه من خلال الکلام،فنحن المکبلون بقیود عالم الماده،لا نستطیع أن ندرک المفاهیم التی تتضمّنها جمله:

لَهُمْ مٰا یَشٰاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ

.فما ذا یرید المؤمنون؟و ما هی الألطاف الموجوده فی جوار قربه تعالی؟! و عاده عند ما یقوم الخالق العظیم بوصف شیء ما بالفضل الکبیر، فإنّ ذلک یکشف عن مقدار العظمه بحیث یکون أعظم من کلّ ما نفکر به.

و بعباره اخری:سوف یصل الأمر بهؤلاء العباد الخلّص أنّه سیتوفر لهم کلّ ما یریدونه،یعنی سیظهر فی وجودهم شعاع من قدره الخالق الأزلیه،أی إِنَّمٰا أَمْرُهُ إِذٰا أَرٰادَ شَیْئاً أَنْ یَقُولَ لَهُ کُنْ فَیَکُونُ (۱) ،فهل هناک فضیله موهبه أعظم من هذه؟ و لبیان عظمه هذا الجزاء تقول الآیه التی بعدها: ذٰلِکَ الَّذِی یُبَشِّرُ اللّٰهُ عِبٰادَهُ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ .

یبشرهم حتی لا تصعب عندهم آلام الطاعه و العبودیه و مجاهده هوی النفس و الجهاد حیال أعداء اللّه،و یقوم هذا الجزاء العظیم بترغیبهم و یعطیهم القدره و الطاقه الکبیره لسلوک طرق الحیاه الملیئه بالصعوبات و المشاکل للوصول إلی رضا الخالق.

و قد یتوهم أن نبیّ الإسلام صلّی اللّه علیه و اله و سلّم یرید جزاء و أجرا علی إبلاغ هذه الرساله، لذا فإنّ القرآن یأمر الرّسول بعد هذا الکلام لیقول: قُلْ لاٰ أَسْئَلُکُمْ عَلَیْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّهَ فِی الْقُرْبیٰ أی حبّ اهل بیتی.

۱- ۱) -سوره یس،الآیه ۸۲.

و موده ذوی القربی و محبتهم-کما سیأتی بیانها بشکل مفصل-ترتبط بقضیه الولایه و قبول قیاده الأئمه المعصومین علیهم السلام من آل الرّسول حیث تعتبر فی الحقیقه استمرارا لقیاده النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم و استمرارا للولایه الإلهیه،و جلیّ أن قبول هذه الولایه و القیاده کقبول نبوه النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم ستکون سببا لسعاده البشریه نفسها و ستعود نتائجها إلیها.

توضیح

هناک بحوث متعدده و تفاسیر مختلفه للمفسّرین فی تفسیر هذه الجمله،بحیث إذا ما نظرنا إلیها بدون أی موقف مسبق نشاهد أنّها ابتعدت عن المفهوم الأصلی للآیه بسبب الدوافع المختلفه،و ذکروا احتمالات لا تتلاءم مع محتوی الآیه، و لا مع سبب نزولها،و لا مع سائر القرائن التأریخیه و الروائیه.

و بشکل عام هناک أربعه تفاسیر معروفه للآیه:

۱-هو ما قلناه أعلاه،حیث أن المقصود من ذوی القربی هم أقرباء الرّسول صلّی اللّه علیه و اله و سلّم،و حبّهم یعتبر وسیله لقبول إمامه و قیاده الأئمّه المعصومین علیهم السّلام من نسل الرّسول صلّی اللّه علیه و اله و سلّم،و دعما لتطبیق الرساله.

و قد اختار هذا المعنی جمع من المفسّرین الأوائل،و جمیع المفسّرین الشیعه، و وردت روایات کثیره من طرق الشیعه و السنّه فی هذا المجال سنشیر إلیها لاحقا.

۲-المقصود هو أن جزاء الرساله و أجرها هو حب أمور معینه تقربکم من اللّه.

هذا التّفسیر الذی ذکره بعض مفسّری أهل السنه لا یتلاءم مع ظاهر الآیه أبدا،لأن معنی الآیه سیصبح هکذا:إننی أرید منکم أن تحبوا طاعه الخالق، و تودونه فی قلوبکم،فی حین أنّه یجب أن یقال:إننی أرید منکم أن تطیعوا

الخالق،(و ليس موده الطاعه الإلهيه).

إضافه إلى ذلك فإنّه لا يوجد أحد بين المخاطبين فى الآيه لا يرغب بالتقرب من الخالق،و حتى المشركين كانوا يرغبون بذلك،و كانوا يظنون أن عباده الأصنام تعتبر وسيله لهذا الأمر.

۳-المقصود حبّ أقرباءكم بعنوان أجر الرساله،أى بصله الرحم.و بملاحظه هذه التّفسير لا يوجد أى ترابط بين الرساله و أجرها،لأنّه ماذا يستفيد الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم من حبّ الشخص أقرباءه؟و كيف يمكن اعتبار هذا الأمر أجرا للرساله؟! ۴-المقصود أن أجرى هو أن تحفظوا قرابتى منكم،و لا تؤذوننى،لأنى أرتبط برابطه القرابه مع أكثر قبائلكم(لأن الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم كان يرتبط بقبائل قريش نسبيا،و بالقبائل الأخرى سببيا(عن طرق الزواج)،و عن طريق أمه بعض أهالى المدينه من قبيله بنى النجار،و عن طريق مرضعته بقبيله بنى سعد).

هذه العباره هى أسوأ تفسير مذكور للآيه،لأن طلب أجر الرساله هو من الأشخاص الذين آمنوا بها،و مع هؤلاء الأشخاص لا توجد حاجه إلى مثل هذا الكلام،فأولئك كانوا يحترمون النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم لأنّه مرسل إلهى،و لا توجد حاجه لاحترامه بسبب قرابته،لأن الاحترام الناشئ بسبب قبول الرساله فوق جميع هذه الأمور،و فى الواقع يجب اعتبار هذا التّفسير من الأخطاء الكبيره التى أصابت بعض المفسّرين و مسخت مفهوم الآيه بشكل كامل.

و لكى نفسه حقيقه محتوى الآيه بشكل أفضل،علينا طلب العون من الآيات القرآنيه الأخرى:

نقرأ فى العديد من آيات القرآن المجيد: مٰا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاّٰ عَلىٰ رَبِّ الْعٰالَمِينَ (۱) .

۱- ۱) -سوره الشعراء،الآيه ۱۸۰،۱۶۴،۱۴۵،۱۲۷،۱۰۹.

و هناک عبارات مختلفه تخصّ الرّسول،فقد ورد فی القرآن: قُلْ مٰا سَأَلْتُکَمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَکَمْ إِنْ أَجْرِیَ إِلاّٰ عَلَی اللّٰهِ (۱) .

و فی مکان آخر نقرأ: قُلْ مٰا أَسْئَلُکُمْ عَلَیْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاّٰ مَنْ شٰاءَ أَنْ یَتَّخِذَ إِلیٰ رَبِّهِ سَبِیلاً .

و أخیرا: قُلْ مٰا أَسْئَلُکُمْ عَلَیْهِ مِنْ أَجْرٍ وَ مٰا أَنَا مِنَ الْمُتَکَلِّفِینَ (۲) .

و عند ما نضع هذه الآیات الثلاثه إلی جانب الآیه التی نبحثها،یسهل علینا الاستنتاج:ففی مکان تنفی الآیه الأجر و الجزاء بشکل کامل.

و فی مکان آخر تقول الآیه:إننی أطلب الأجر من الأشخاص الذین یریدون سلوک الطریق إلی الخالق.

و بخصوص الآیه الثّالثه فإنّها تقول:إنّ الأجر الذی أطلبه منکم إنّما هو لکم.

و أخیرا فإن الآیه التی نبحثها تضیف:إن مودّه القربی هی أجر رسالتی،یعنی أن الأجر الذی طلبته منکم و یشمل هذه الخصوصیات:لا یعود نفعه إلیّ أبدا،بل ینفعکم بالکامل،و یعبّد الطریق أمامکم للوصول إلی الخالق.

و علی هذا الإساس،فهل تعنی الآیه شیئا آخر سوی قضیه استمرار خط رساله النّبی الکریم بواسطه القاده الإلهیین و خلفاءه المعصومین الذین کانوا جمیعهم من عائلته؟ لکن لأن الموده هی أساس هذا الارتباط نری أن الآیه أشارت بصراحه إلی ذلک.

و الطریف فی الأمر أن هناک خمسه عشر موردا فی القرآن المجید-غیر الذی ذکرنا-ذکر فیه کلمه(القربی)حیث أن جمیعها تعنی الأقرباء،و مع هذا الوضع لا نعلم لماذا یصر البعض بحصر معنی کلمه القربی فی(التقرب إلی اللّه) و یترکون المعنی الواضح و الظاهر المستخدم فی جمیع الآیات القرآنیه؟.

ص:۵۱۱

۱- ۱) -سبأ،الآیه ۴۷.

۲- ۲) -سوره ص،الآیه ۸۶.

و من الضروری الإشاره إلی هذه الملاحظه،و هی أنّه ورد فی آخر الآیه:

وَ مَنْ یَقْتَرِفْ حَسَنَهً نَزِدْ لَهُ فِیها حُسْناً إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ شَکُورٌ

.و هل هناک حسنه أفضل من أن یکون الإنسان دائما تحت رایه القاده الإلهیین،یحبّهم بقلبه،و یستمر علی خطهم،یطلب منهم التوضیح للقضایا المبهمه فی کلام الخالق،یعتبرهم القدوه و الأسوه و سیرتهم و عملهم هو المعیار.

الروایات الوارده فی تفسیر هذه الآیه

الدلیل الآخر علی التّفسیر أعلاه هو الروایات المتعدده الوارده فی مصادر أهل السنه و الشیعه،و المنقوله عن الرّسول صلّی اللّه علیه و اله و سلّم،حیث توضح أن المقصود من (القربی)هم أهل البیت و المقربون و خاصه الرّسول،و علی سبیل المثال نذکر:

-١

ینقل(أحمد بن حنبل)فی فضائل الصحابه بسنده عن سعید بن جبیر عن عامر: لما نزلت: قُلْ لا أَسْئَلُکُمْ عَلَیْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّهَ فِی الْقُرْبی قالوا:یا رسول اللّه! و من قرابتک؟من هؤلاء الذین وجبت علینا مودّتهم؟قال:«علی و فاطمه و ابناهما علیهم السلام،و قالها ثلاثا» (١) .

-٢

ورد فی(مستدرک الصحیحین)أن الإمام علی بن الحسین علیه السّلام قال: عند استشهاد أمیر المؤمنین الإمام علی علیه السّلام،وقف الحسن بن علی علیه السّلام یخطب فی الناس،و کان ممّا قال:إنا من أهل البیت الذین افترض اللّه مودتهم علی کلّ مسلم، فقال تبارک و تعالی لنبیّه: قُلْ لا أَسْئَلُکُمْ عَلَیْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّهَ فِی الْقُرْبی وَ مَنْ یَقْتَرِفْ حَسَنَهً نَزِدْ لَهُ فِیها حُسْناً فاقتراف الحسنه مودتنا أهل البیت (٢) .

ص:٥١٢

---

١ - ١) -إحقاق الحق،المجلد الثّالث،ص ٢،کما ذکر القرطبی:أیضا هذه الروایه فی نهایه الآیه التی نبحثها المجلد الثامن، ص ٥٨۴٣.

٢ - ٢) -مستدرک الصحیحین،المجلد الثّالث،ص ١٧٢،و قد نقل محب الدین الطبری نفس هذا الحدیث فی الذخائر ص ١٣٧،کما ذکر ابن حجر ذلک أیضا فی الصواعق المحرقه،ص ١٠١.

-۳

ذکر(السیوطی)فی(الدر المنثور)فی نهایه الآیه التی نبحثها عن مجاهد عن ابن عباس أنّه قال فی تفسیر آیه: قُلْ لاٰ أَسْئَلُکُمْ عَلَیْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّهَ فِی الْقُرْبیٰ :أن تحفظونی فی أهل بیتی و تودوهم بی (۱) .

و من هنا یتّضح ضعف ما ینقل عن ابن عباس بطریق آخر من أن المقصود هو عدم إیذاء النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم بسبب قرابته مع القبائل العربیه المختلفه.

۴-ینقل(ابن جریر الطبری)فی تفسیره بسنده عن(سعید بن جبیر)و بسند آخر عن(عمر بن شعیب)أن المقصود من هذه الآیه هم قربی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم (۲) .

۵-و

ینقل العلاّمه الطبرسی عن(شواهد التنزیل)للحاکم الحسکانی،الذی هو من المفسّرین و المحدثین المعروفین لأهل السنه،عن(أبی أمامه الباهلی)أن رسول الإسلام صلّی اللّه علیه و اله و سلّم قال: «إن اللّه خلق الأنبیاء من أشجار شتی،و أنا و علی من شجره واحده،فأنا أصلها،و علی فرعها،و فاطمه لقاحها،و الحسن و الحسین ثمارها،و أشیاعنا أوراقها-حتی قال-لو أن عبدا عبد اللّه بین الصفا و المروه ألف عام،ثمّ ألف عام،ثمّ ألف عام،حتی یصیر کالشن البالی،ثمّ لم یدرک محبتنا کبه اللّه علی منخریه فی النّار،ثمّ تلا: قُلْ لاٰ أَسْئَلُکُمْ عَلَیْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّهَ فِی الْقُرْبیٰ ».

و الطریف فی الأمر أن هذا الحدیث اشتهر بدرجه بحیث أن الشاعر المعروف الکمیت أشار إلی ذلک فی أشعاره،فقال:

وجدنا لکم فی آل حامیم آیه

تأوّلها منا تقیّ و معرب (۳)

۶-و

ینقل السیوطی أیضا فی(الدر المنثور)عن ابن جریر عن أبی الدیلم: عند ما تأسّر علی بن الحسین علیه السّلام،و أوقفوه فی بوابه دمشق،قال رجل من أهل الشام:

الحمد للّه الذی قتلکم و استأصلکم.

ص:۵۱۳

۱- ۱) -الدر المنثور،نهایه الآیه التی نبحثها،المجلد السادس،ص ۷.

۲- ۲) -تفسیر الطبری-المجلد ۲۵-ص ۱۶ و ۱۷.

٣- ٣) -مجمع البيان،المجلد التاسع،ص ٢٩.

قال علی بن الحسین علیه السّلام:هل قرأت القرآن؟ قال:نعم قال:هل قرأت سور حم.

قال:لا.

قال:أ لم تقرا هذه الآیه: قُلْ لاٰ أَسْئَلُکُمْ عَلَیْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّهَ فِی الْقُرْبیٰ .

قال:أ أنتم الذین أشارت لهم هذه الآیه؟ قال:بلی (۱) .

۷-نقل(الزمخشری)حدیثا فی«تفسیر الکشاف»و قد اقتبسه أیضا الفخر الرازی و القرطبی فی تفسیرهما،حیث یوضح هذا الحدیث مقام آل محمّد و أهمیه حبّهم،فیقول:

قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم: من مات علی حب آل محمّد مات شهیدا ألا و من مات علی حب آل محمّد مات مغفورا له ألا و من مات علی حب آل محمّد مات تائبا ألا و من مات علی حب آل محمّد مات مؤمنا مستکمل الإیمان ألا و من مات علی حب آل محمّد بشره ملک الموت بالجنه ثمّ منکر و نکیر ألا و من مات علی حب آل محمّد فتح له فی قبره بابان إلی الجنّه ألا و من مات علی حب آل محمّد جعل اللّه قبره مزار ملائکه الرحمه ألا و من مات علی حب آل محمّد مات علی السنه و الجماعه ألا و من مات علی بغض آل محمّد جاء یوم القیامه مکتوب بین عینیه آیس من رحمه اللّه ألا و من مات علی بغض آل محمّد مات کافرا

۱- ۱) -الدر المنثور،المجلد السادس،ص ۷.

ألا و من مات على بغض آل محمّد لم يشم رائحه الجنّه

(۱)

.

و الطريف فى الأمر أن(الفخر الرازى)بعد ذكر هذا الحديث الشريف الذى أرسله«صاحب الكشاف»إرسال المسلمات،يقول:«و أنا أقول:آل محمّـد هم الـذين يؤول أمرهم إليه،فكـل من كـان أمرهم إليه أشـد و أكمـل كانوا هم الآل،و لا شك أن فاطمه و عليا الحسن و الحسـين كان التعلق بينهم و بين رسول اللّه أشـد التعلقات،و هـذا كالمعلوم بالنقل المتواتر فوجب أن يكونوا هم الآل،و أيضا اختلف الناس فى الآل فقيل هم الأقارب و قيل هم أمته فإن حملناه على القرابه فهم الآل و إن حملناه على الأمه الـذين قبلوا دعوته فهم أيضا آل،فثبت أن على جميع التقديرات هم الآل،و أما غيرهم فيدخلون تحت لفظ الآل؟فمختلف فيه.

و

روى فيه صـاحب الكشـاف أنّه لما نزلت هـذه الآيه قيل:يا رسول اللّه من قرابتك هؤلاء الـذين وجبت علينا مودتهم؟فقال على و فـاطمه و ابناهمـا فثبت أن هؤلاـء الأـربعه أقـارب النّبى،و إذا ثبت هـذا وجب أن يكونوا مخصوصـين بمزيـد التعظيم و يـدل عليه وجوه:

الأول:قوله تعالى: إِلاَّ الْمَوَدَّهَ فِی الْقُرْبی و وجه الاستدلال به ما سبق.

الثّاني:لا شک أن النبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم كان يحب فاطمه و

قـال (فاطمه بضـعه منى يؤذينى ما يؤذيها) و ثبت بالنقل المتواتر عن رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و اله و سـلّم أنّه كان يحب عليا و الحسن و الحسين و إذا ثبت ذلک وجب على كلّ الأمه مثله لقوله: وَ اتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ و لقوله تعالى: فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ و لقوله: قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِی يُحْبِبْكُمُ اللّهُ و لقوله سبحانه: لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِی رَسُولِ اللّهِ أُسْوَهٌ حَسَنَهٌ .

الثّالث:أن الدعاء للآل منصب عظيم و لذلک جعل هذا الدعاء خاتمه التشهد

۱- ۱) -تفسـير الكشاف،المجلد الرابع،ص ۲۲۰ و ۲۲۱،تفسير الفخر الرازى،المجلد ۲۷،ص ۱۶۵ و ۱۶۶،تفسير القرطبى،المجلد الثامن،ص ۵۸۴۳،تفسير الثعلبى،نهايه الآيه التى نبحثها عن جليل بن عبد اللّه البجلى(وفقا لنقل المراجعات رساله رقم ۱۹).

فی الصلاه و هو قوله اللهم صل علی محمّد و علی آل محمّد و أرحم محمّدا و آل محمّدا.و هذا التعظیم لم یوجد فی حق غیر الآل،فکل ذلک یدل علی أن حبّ آل محمّد واجب.

و قال الشافعی رضی اللّه عنه:

یا راکبا قف بالمحصب من منی

و اهتف بساکن خیفها و الناهض

سحرا إذا فاض الحجیج إلی منی

فیضا کما نظم الفرات الفائض

إن کان رفضا حب آل محمّد

فلیشهد الثقلان أنی رافضی (۱)

نعم فهذا مقام آل محمّد الذین نتمسک بهم و نؤمن بهم کقاده لنا،و سراج لدیننا و دنیانا،و نعتبرهم أسوه و قدوه لنا،و نری أن استمرار خط النبوه فی إمامتهم.

و طبعا،فإن هناک روایات کثیره اخری غیر التی ذکرناها أعلاه،فی المصادر الإسلامیه،و قد اکتفینا بسبع روایات مراعاه للاختصار،و لکن لا بأس من ذکر هذه الملاحظه،و هی أنّه فی بعض المصادر الکلامیه کإحقاق الحق و شرحه المبسوط،ورد الحدیث المعروف أعلاه بشأن تفسیر الآیه: قُلْ لاٰ أَسْئَلُکُمْ عَلَیْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّهَ فِی الْقُرْبیٰ منقولا عن خمسین کتابا تقریبا من کتب أهل السنه،حیث یبیّن هذا الأمر مدی انتشار هذه الروایه و اشتهارها،بغض النظر عن المصادر الکثیره التی تنقل هذا الحدیث عن طریق أهل البیت علیهم السّلام.

بحوث

اشاره

۱-کلام مع المفسر المعروف(الآلوسی)

اشاره

فی هذا المجال یطرح سؤال ذکره الآلوسی فی تفسیر روح المعانی بشکل اعتراض علی الشیعه،و نحن نذکر ذلک علی شکل سؤال و نقوم بمناقشته:یقول:

۱- ۱) -تفسير فخر الرازى ۱۶۶/۲۷.

«و من الشيعه من أورد الآيه فی مقام الاستدلال علی إمامه علی کرم اللّه تعالی وجهه قال:علی کرم اللّه تعالی وجهه،واجب المحبه و کل واجب المحبه واجب الطاعه و کل واجب الطاعه صاحب الإمامه،ینتج،علی رضی اللّه عنه صاحب الإمامه و جعلوا الآیه دلیل الصغری،و لا یخفی ما فی کلامهم هذا من البحث أمّا أوّلا:فلأن الاستدلال بالآیه علی الصغری لا یتمّ إلاّ علی القول بأن معناها لا أسألکم علیه أجرا إلا أن تودوا قرابتی و تحبوا أهل بیتی و قد ذهب الجمهور إلی المعنی الأوّل و قیل فی هذا المعنی:إنّه لا یناسب شأن النبوّه لما فیه من التهمه فإن أکثر طلبه الدنیا یفعلون شیئا و یسألون علیه ما یکون فیه نفع لأولادهم و قراباتهم و أیضا فیه منافاه لقوله تعالی: وَ مٰا تَسْئَلُهُمْ عَلَیْهِ مِنْ أَجْرٍ و أمّا ثانیا:فلأنا لا نسلم أن کلّ واجب المحبه واجب الطاعه فقد ذکر ابن بابویه فی کتاب الإعتقادات أن الإمامیه اجمعوا علی وجوب محبه العلویه مع أنّه لا یجب طاعه کلّ منهم.

و أمّا ثالثا:فلا نسلم إن کلّ واجب الطاعه صاحب الإمامه أی الزّعامه الکبری و إلاّ لکان کلّ نبی فی زمنه صاحب ذلک و نص: إِنَّ اللّٰهَ قَدْ بَعَثَ لَکُمْ طٰالُوتَ مَلِکاً یأبی ذلک و أمّا رابعا:فلأن الآیه تقتضی أن تکون الصغری أهل البیت واجبو الطاعه و متی کانت هذه صغری قیاسهم لا ینتج النتیجه التی ذکروها و لو سلمت جمیع مقدماته،بل ینتج أهل البیت صاحبوا الإمامه و هم لا یقولون بعمومه...» (۱) .

تحلیل و مناقشه:

یمکن توضیح جواب العدید من هذه الإشکالات إذا راجعنا تصورنا لهذه

۱- ۱) -تفسیر روح المعانی ج ۲۵،ص ۳۲-۳۳.

الآیه-التی نبحثها-وفقا للقرائن المتعدده القویه الموجوده فی نفس هذه الآیه، و سائر الآیات القرآنیه الأخری:

قلنا:إن هذه المحبّه لیست أمرا عادیا،بل هی جزاء للنبوّه و أجرا للرساله، و لا بد أن یکون الأجر و الثمن مساویا للمثمن،حتی یمکن اعتباره جزاء له.

من جانب ثان فإن الآیات القرآنیه تؤّکد أنّ نفع هذه المحبه لیس شیئا یعود إلی النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم،بل ان حاصل ذلک یعود إلی المؤمنین أنفسهم،أو بعباره اخری یعتبر أمرا معنویا یؤثر فی هدایه المسلمین و تکاملهم.

و بهذا الترتیب فبالرغم من أنّه لا یستفاد من الآیه سوی وجوب المحبه،إلاّ أن وجوب المحبه هذه-بمراعاه القرائن المذکوره-لها علاقه بقضیه الإمامه التی تعتبر السند لمقام النبوه و الرساله.

و مع هذا التوضیح المختصر سنقوم ببحث الإشکالات أعلاه:

۱-یجب القول أنّ بعض الترسبات الذهنیه و اتخاذ المواقف المسبقه کانت سببا لعدم تفسیر بعض المفسّرین للآیه بموده أهل البیت،فمثلا فسّر بعضهم (القربی)لمعنی(التقرب من الخالق)فی حین أنّها وردت بمعنی الأقرباء فی جمیع الآیات القرآنیه التی تحتوی علی هذه الکلمه.

أو أنّ البعض فسّر ذلک بمعنی قرابه النّبی مع سائر القبائل العربیه،فی حین أن هذا التّفسیر یخل بنظام الآیه بشکل کامل،فأجر الرساله یطلب من الذین قبلوا تلک الرساله،فهل توجد حاجه للاهتمام بالقرابه و غض النظر عن الأذی لمن آمن برساله الرّسول صلّی اللّه علیه و اله و سلّم؟ إضافه إلی ذلک،لماذا نترک الرّوایات المتعدده التی تفسّر الآیه بولایه أهل بیت النّبیّ؟ لذا یجب الاعتراف بأنّ هذه المجموعه من المفسّرین لم یفسروا الآیه بأذهان خالیه من المواقف المسبقه،و إلاّ فإنه لا یوجد موضوع معقد ضمنها.

ص :۵۱۸

و من هنا يتوضح أن طلب مثل هذا الأجر لا يتعارض،لا مع منزله النبوه، و لا يشبه تقاليد اصحاب الدنيا،و يتناسق بشكل كامل مع الآيه(۱۰۴)من سوره يوسف التى تنفى أى نوع من الأجر،لأن أجر موده أهل البيت فى الحقيقه-لا- يستفيد منه النّبى،بل إن المسلمين هم الذين يستفيدون منه.

۲-صحيح أن وجوب المحبه العاديه لا- تكون دليلا- أبدا على وجوب الطاعه، لكن عند ما تكون هذه المحبه بمستوى الرساله،عندها سنتيقن بأنّها تشمل وجوب الطاعه،و من هنا يتّضح أن قول ابن بابويه(الشيخ الصدوق)لا يتعارض مع ما قلناه.

۳-صحيح أن أى طاعه واجبه لا يكون دليلا على منزله الإمامه و الزعامه الكبرى،و لكن يجب الانتباه إلى أن وجوب الطاعه التى هى أجر للرساله بما يناسب مقامها لا يمكن أن يكون شيئا سوى الإمامه.

۴-الإمام-بمعنى القائد-لا يمكن أن يكون أكثر من واحد فى أى عصر، و بناء على ذلك فإنّه لا يوجد أى معنى إمامه أئمّه أهل البيت عليهم السّلام جميعهم،إضافه لذلك يجب الاستفاده من دور الروايات فى هذا المجال لفهم معنى الآيه.

و الملفت للنظر أن الآلوسى نفسه يهتم كثيرا بموده أهل البيت،و يقول فى بضع سطور قبل هذا البحث:

«و الحق وجوب محبه قرابته عليه الصلاه و السلام من حيث أنّهم قرابته...و كلما كانت جهه القرابه أقوى كان طلب المودّه أشدّ...و آثار تلك الموده التعظيم و الاحترام و القيام بأداء الحقوق أتمّ قيام و قد تهاون كثير من الناس بذلك حتى عدوا من الرفض السلوك فى هاتيك المسالك.و أنا أقول قول الشافعى الشافى:

يا راكبا قف بالمحصّب من منى

و اهتف بساكن خيفها و الناهض

سحرا إذا فاض الحجيج إلى منى

فيضا كملتطم الفرات الفائض

إن كان رفضا حب آل محمّد

فليشهد الثقلان أنى رافضى

و مع هذا لا أعتقد الخروج عما يعتقده أكابر أهل السنه فى الصحابه رضى اللّه تعالى عنهم دينا،و أرى حبّهم فرضا على مبينا،فقد أوجبه الشارع و قامت على ذلك البراهين السواطع» (۱) .

۲-سفينه النجاه

ذكر الفخر الرازى فى نهايه هذا البحث ملاحظه،كما ذكرها الآلوسى أيضا فى روح المعانى بعنوان(ملاحظه لطيفه)و ذلك نقلا عن الفخر الرازى،حيث يعتقد أن بعض التناقضات ستزول من خلال هذه الملاحظه هى:

إن الرّسول الأكرم قال من جانب: «مثل أهل بيتى كمثل سفينه نوح من ركب فيها نجى» و من جانب آخر قال:أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم.

فنحن الآن تائهون فى بحر التكاليف،و أمواج الشبهات و الشهوات تعصف بنا من كلّ جانب،و من يريد أن يعبر هذا البحر يحتاج إلى شيئين:

الأول:السفينه الخاليه من أى عيب أو نقص.

و الثّانى:النجوم المتلألئه التى توضح الطريق.

فعند ما يركب الإنسان فى السفينه و تراقب عيناه النجوم الوضاءه،عندها سيكون هناك أمل بالنجاه.و بالمثل فأى واحد من أبناء السنه عند ما يركب فى سفينه حب آل محمّد و ينظر إلى الأصحاب(النجوم)عندها سيكون هناك أمل بأن يوصله الخالق جل و علا إلى السعاده و السلامه فى الدنيا و الآخره (۲) .

و كلنا نقول أن هذا التشبيه الشاعرى ليس دقيقا بالرغم من جماله،لأن سفينه نوح كانت مركب النجاه فى ذلك اليوم،عند ما غطت الأمواج العاصفه و المياه كل

۱- ۱) -تفسير روح المعانى،ج ۲۵،ص ۳۲.

۲- ۲) -تفسير الفخر الرازى،المجلد ۲۷،ص ۱۶۷.

العالم،و كانت فى حركه دائبه،و ليست مثل السفن العاديه التى لها مرفأ تتجه إليه مقتديه بالنجوم.

لقد كان الهدف السفينه نفسها،و النجاه من الغرق،حتى غاظ الماء و استوت على الجودى.

إضافه إلى ذلك فإنّ بعض الرّوايات الوارده فى كتب أهل السنه تنقل

عن الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و اله و سلّم أنّه قال: «النجوم أمان لأهل الأرض من الغرق و أهل بيتى أمان لأمتى من الاختلاف فى الدين» (۱) .

۳-تفسير«و من يقترف حسنه...»

«اقترف»فى جمله: وَ مَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهٰا حُسْناً مأخوذه فى الأصل من(قرف)على وزن(حرف)و تعنى قطع القشره الإضافيه من الشجره،أو من الجروح الحاصله،حيث تكون أحيانا علامه على شفاء الجرح و تحسنه،هذه الكلمه استخدمت فيما بعد فى الاكتساب سواء كان حسنا أو سيئا.

و لكن كما يقول الراغب-فإن هذا المصطلح استخدم فى السيئات أكثر ممّا هو فى الحسنات(بالرغم من أن الآيه التى نبحثها استخدمته فى الحسنات).لذلك فإن هناك مثل معروف يقول:الاعتراف يزيل الاقتراف.

و الطريف فى الأمر أنّ بعض التفاسير تنقل عن ابن عباس و(السدّ)أن المقصود من(اقتراف الحسنه)فى الآيه الشريفه هو موده آل محمّد (۲) .

و

جاء فى حديث ذكرناه سابقا عن الإمام الحسن بن على عليه السّلام: «اقتراف الحسنه مودتنا أهل البيت».

۱- ۱) -نقل(الحاكم)هذا الحديث عن ابن عباس فى المجلد الثّالث(المستدرك)ص ۱۴۹،ثمّ يقول:هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه.

۲- ۲) -مجمع البيان-نهايه الآيات التى نبحثها،و تفسير الصافى و القرطبى.

و واضح أنّ المقصود من هذه التفاسير أن معنى اكتساب الحسنه لا يتحدد بمودّه أهل البيت عليهم السّلام،بل له معنى أوسع و أشمل و لكن بما أن هذه الجمله وردت بعد قضيه مودّه ذى القربى،لذا فإن أوضح مصداق لاكتساب الحسنه هو هذه المودّه.

۴-مكان نزول هذه الآيات

هذه السوره(سوره الشورى)من السور المكّيه،كما قلنا فى البدايه، إلاّ أن بعض المفسّرين يعتقدون أن هذه الآيات الأربع(۲۳-۲۶)نزلت فى المدينه، و سبب النّزول الذى ذكرناه فى بدايه تفسير هذه الآيات يشهد على هذا المعنى.

و أيضا فإنّ الرّوايات التى تفسر أهل البيت بعلى و فاطمه و ابنيهما الإمام الحسن و الحسين عليهما السلام تناسب هذا المعنى،لأنّنا نعلم أن زواج على من سيده النساء عليهما السّلام تمّ فى المدينه،و ولاده الحسن و الحسين عليهما السّلام كانتا فى العام الثّالث و الرابع الهجرى على ما رواه المؤرخون.

ص:۵۲۲

الآیات [سوره الشوری (۴۲): الآیات ۲۴ الی ۲۶]

اشاره

أَمْ یَقُولُونَ اِفْتَریٰ عَلَی اَللّٰهِ کَذِباً فَإِنْ یَشَإِ اَللّٰهُ یَخْتِمْ عَلیٰ قَلْبِکَ وَ یَمْحُ اَللّٰهُ اَلْبٰاطِلَ وَ یُحِقُّ اَلْحَقَّ بِکَلِمٰاتِهِ إِنَّهُ عَلِیمٌ بِذٰاتِ اَلصُّدُورِ (۲۴) وَ هُوَ اَلَّذِی یَقْبَلُ اَلتَّوْبَهَ عَنْ عِبٰادِهِ وَ یَعْفُوا عَنِ اَلسَّیِّئٰاتِ وَ یَعْلَمُ مٰا تَفْعَلُونَ (۲۵) وَ یَسْتَجِیبُ اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ وَ یَزِیدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَ اَلْکٰافِرُونَ لَهُمْ عَذٰابٌ شَدِیدٌ (۲۶)

التّفسیر

اشاره

یقبل التوبه عن عباده:

هذه الآیات تعتبر استمرارا للآیات السابقه فی موضوع الرساله و أجرها، و مودّه ذوی القربی و أهل البیت علیهم السّلام.

فأوّل آیه تقول:إن هؤلاء القوم لا یقبلون الوحی الإلهی،بل: أَمْ یَقُولُونَ افْتَریٰ عَلَی اللّٰهِ کَذِباً و هـذا الإعتقاد ولیـد أفکارهم حیث ینسبونه إلی الخالق.

فی حین: فَإِنْ یَشَإِ اللّٰهُ یَخْتِمْ عَلیٰ قَلْبِکَ و یجردک من قابلیه إظهار هذه الآیات.

ص :۵۲۳

و فی الحقیقه،فإن هـذا الأمر إشاره إلی الاسـتدلال المنطقی المعروف،و هو أنّه إذا ادعی شـخص النبوه،و جاء بالآیات البینات و المعاجز،و شمله النصر الإلهی، فلو کذب علی الخالق فإن الحکمه الإلهیه تقتضی سحب المعاجز منه و فضحه و عدم حمایته،کما ورد فی الآیات(۴۴)إلی(۴۶)من سوره الحاقه: وَ لَوْ تَقَوَّلَ عَلَیْنا بَعْضَ الْأَقاوِیلِ لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْیَمِینِ ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِینَ .

و قد ذکر بعض المفسّرین احتمالات اخری فی تفسیر هذه الجمله،إلّا أن ما قلناه أعلاه هو أفضل و أوضح التفاسیر کما یظهر.

و نلاحظ أیضا أن إحدی التهم التی نسـبها الکفار و المشـرکون إلی الرّسول صلّی اللّه علیه و اله و سلّم هی أنّه یعتبر أجر الرساله فی مودّه أهل بیته و أنّه یکـذب علی الخالق فی هذا الأمر:(جاء ذلک وفقا للبحث فی الآیات السابقه)إلّا أن الآیه أعلاه نفت هذه التهمه عنه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم.

و لکن بالرغم من هـذا،فإن مفهوم الآیه لا یختص بهذا المعنی،فأعداء الرّسول کانوا یتهمونه بهذه التهمه فی کلّ القرآن و الوحی کما تقول الآیات القرآنیه الأخری،حیث نقرأ فی الآیه(۳۸)من سوره یونس: أَمْ یَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَهٍ مِثْلِهِ .

و ورد نفس هـذا المعنی باختلاـف بسـیط فی الآیـات(۱۳)و(۳۵)من سـوره هـود،و قسم آخر من الآیـات القرآنیه،حیث أنّ هـذه الآیات دلیل لما انتخبناه من تفسیر للآیه أعلاه.

ثم تقول الآیه لتأکید هذا الموضوع: وَ یَمْحُ اللّهُ الْباطِلَ وَ یُحِقُّ الْحَقَّ بِکَلِماتِهِ (۱) .

فهذه هی مسئولیه الخالق فی توضیح الحق و فضح الباطل وفقا لحکمته،و إلّا

۱- ۱) - لاـحظوا أنّ«یمـح»هی فی الأصل کانت(یمحو)حیث سـقطت الواو لأن الرسم القرآنی-عاده-هکـذا،مثل وَ یَدْعُ الْإِنْسانُ بِالشَّرِّ (الإسراء-۱۱)و سَنَدْعُ الزَّبانِیَهَ (العلق-۱۸)،إلاـ أنّه وفقـا للرسم الحـدیث فـإن الواو تـذکر فی جمیع هـذه الکلمات،إلّا أنّها تحذف فی القرآن غالبا.

فکیف یسمح لشخص بالکذب علیه و فی نفس الوقت ینصره و یظهر علی یدیه المعاجز؟ کما أن من الاخطاء الکبیره أن یتصور البعض قیام الرّسول صلّی اللّه علیه و اله و سلّم بهذا العمل مخفیا ذلک عن علم الخالق: إِنَّهُ عَلِیمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ .

و کما قلنا فی تفسیر الآیه ۳۸ من سوره فاطر،فإنّ(ذات)لا تعنی فی اللغه العربیه عین الأشیاء و حقیقتها،بل هو مصطلح من قبل الفلاسفه (۱) ،حیث أن ذات تعنی-(الصاحب)،عندها سیکون مفهوم جمله: إِنَّهُ عَلِیمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ إن الخالق علیم بالأفکار و العقائد المسیطره علی القلوب،و کأنما هی صاحبه هذا القلب و مالکته.

و هذه إشاره لطیفه إلی استقرار الأفکار و حاکمیتها علی قلوب و أرواح الناس(فدقق فی ذلک).

و بما أن الخالق یبقی طریق الرجعه مفتوحا أمام العباد،لذا فإن الآیات القرآنیه بعد ذم أعمال المشرکین و المذنبین القبیحه تشیر إلی أن الأبواب التوبه مفتوحه دائما:و لذا تقول الآیه محل البحث: وَ هُوَ الَّذِی یَقْبَلُ التَّوْبَهَ عَنْ عِبادِهِ وَ یَعْفُوا عَنِ السَّیِّئاتِ .

إلاّ أنکم إذا تظاهرتم بالتوبه و أخفیتم أعمالا اخری،فلا تتصوروا أن ذلک یخفی عن علم الخالق،لأنّه: وَ یَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ .

و قلنا فی سبب النّزول الذی ذکرناه فی بدایه الآیات السابقه،أنّه بعد نزول آیه المودّه،قال بعض المنافقین و ضعفاء الإیمان:إنّ هذا الکلام افتراه محمّد علی الخالق،و یرید به أن یذلنا بعده لأقربائه،عندها نزلت آیه: أَمْ یَقُولُونَ افْتَری عَلَی اللّهِ کَذِباً ردّا علیهم،و عند ما علموا بنزول هذه الآیه تندم بعضهم و بکی و بات قلق البال،فی ذلک الوقت نزلت الآیه: وَ هُوَ الَّذِی یَقْبَلُ التَّوْبَهَ... و بشرتهم بغفران

۱- ۱) -راجع مفردات الراغب.

الذنب إذا تابوا إلى اللّه توبه نصوحا.

أمّا آخر آيه فتوضح الجزاء العظيم للمؤمنين،و العذاب الأليم للكافرين فى جمل قصيره فتقول:إنّ اللّه تعالى يستجيب لدعاء المؤمنين و طلباتهم: وَ يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ .بل: وَ يَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ و سوف يعطيهم ما لم يطلبوا. وَ الْكافِرُونَ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ .

و قد تمّ ذكر تفاسير مختلفه لأمر الذى سيستجيبه من المؤمنين،حيث أن بعض المفسّرين حدد ذلك فى طلبات معينه،منها:

أنّه سيستجيب دعاء المؤمنين أحدهم للآخر.

و منها أنّه سيقبل عباداتهم و طاعاتهم.

و منها أن ذلک مختص بشفاعتهم لإخوانهم.

و لكن لا يوجد أى دليل على هذا التحديد،حيث أن الخالق سيستجيب أى طلب للمؤمنين الذين يعملون الصالحات و الأكثر من ذلک فإنّه سيهبهم من فضله أمورا قد لا تخطر على بالهم و لم يطلبوها،و هذا غايه اللطف و الرحمه الإلهيه بخصوص المؤمنين.

و

ورد فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام عن الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و اله و سلّم فى تفسير:

وَ يَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ

:«الشفاعه لمن وجبت له النّار ممن أحسن إليهم فى الدنيا» (۱) .

و لا يعنى هذا الحديث العظيم فى معناه اقتصار الفضل الإلهى بهذا الأمر فحسب،بل يعتبر أحد مصاديقه الواضحه.

۱- ۱) -تفسير«مجمع البيان»نهايه الآيات التى نبحثها.

الآيات [سوره الشوری (۴۲): الآيات ۲۷ الی ۳۱]

اشاره

وَ لَوْ بَسَطَ اَللّٰهُ اَلرِّزْقَ لِعِبٰادِهِ لَبَغَوْا فِی اَلْأَرْضِ وَ لٰكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مٰا يَشٰاءُ إِنَّهُ بِعِبٰادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (۲۷) وَ هُوَ اَلَّذِی يُنَزِّلُ اَلْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مٰا قَنَطُوا وَ يَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَ هُوَ اَلْوَلِيُّ اَلْحَمِيدُ (۲۸) وَ مِنْ آيٰاتِهِ خَلْقُ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ مٰا بَثَّ فِيهِمٰا مِنْ دٰابَّةٍ وَ هُوَ عَلیٰ جَمْعِهِمْ إِذٰا يَشٰاءُ قَدِيرٌ (۲۹) وَ مٰا أَصٰابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمٰا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَ يَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ (۳۰) وَ مٰا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِی اَلْأَرْضِ وَ مٰا لَكُمْ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لاٰ نَصِيرٍ (۳۱)

سبب النّزول

نقل عن الصحابی المعروف(خباب بن الأرث)أن الآيه الأولی: وَ لَوْ بَسَطَ... نزلت فينا،و ذلک بسبب أنّنا كنّا ننظر إلی الأموال الكثيره لبنی قريظه و بنی النظير و بنی القينقاع من اليهود،و كنّا نرغب بامتلاكنا لمثل هذه الأموال،إلاّ أن هذه الآيه نزلت و حذرتنا من أن الخالق لو بسط لنا فی الرزق فسوف نطغی (۱) .

۱- ۱) -تفسير الفخر الرازی،تفسير أبو الفتوح الرازی،و تفسير القرطبی(نهايه الآيه التی نبحثها).

و فی تفسیر(الدر المنثور)ورد حدیث آخر،و هو أن هذه الآیه نزلت فی أهل الصفّه،لأنّهم کانوا یأملون بتحسن وضع دنیاهم (۱) .

و هناک تفصیل فی نهایه الآیات بخصوص أصحاب الصفه و من هم؟

التّفسیر

اشاره

المترفون الباغون:

قد یکون ارتباط هذه الآیات بالآیات السابقه بلحاظ ما ورد فی آخر آیه من الآیات السابقه من أن الخالق یستجیب دعوه المؤمنین،و فی أعقاب ذلک یطرح هذا السؤال:لماذا نری البعض منهم فقراء، و لا ینالون ما یرغبونه مهما یدعون؟تقول الآیه: وَ لَوْ بَسَطَ اللّٰهُ الرِّزْقَ لِعِبٰادِهِ لَبَغَوْا فِی الْأَرْضِ وَ لٰکِنْ یُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مٰا یَشٰاءُ .

و بهذا الترتیب فإنّ تقسیم الأرزاق یقوم علی حساب دقیق من قبل الخالق تجاه عباده،و هذا یحدث بسبب: إِنَّهُ بِعِبٰادِهِ خَبِیرٌ بَصِیرٌ .

فهو یعلم بمقدار استیعاب أی شخص فیعطیه الرزق وفقا لمصلحته،فلا یعطیه کثیرا لئلا یطغی،و لا قلیلا لئلا یستغیث من الفقر.

و جاء ما یشبه هذا المعنی فی الآیه(۶)و(۷)من سوره العلق: إِنَّ الْإِنْسٰانَ لَیَطْغیٰ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنیٰ .

و هو حقّا کذلک،فالبحث فی أحوال الناس یدل علی هذه الحقیقه الصادقه، و أنّه عند ما تقبل الدنیا علیهم و یعیشون فی رفاهیه وسعه،ینسون الخالق و یبتعدون عنه و یغرقون فی بحر الشهوات،و یفعلون ما لا ینبغی فعله،و یشیعون الظلم و الجور و الفساد فی الأرض.

و فی تفسیر آخر عن(ابن عباس)فی هذه الآیه ورد أن المقصود من(البغی)

۱- ۱) -ینقل الدر المنثور هذا الحدیث عن الحاکم و البیهقی و أبی نعیم(ج ۶ ص ۸).

ليس الظلم و الجور،و إنّما(بغى)تعنى(طلب)أى يكون معنى الآيه أنّهم يطلبون أكثر و لا يشبعون.

إلاّـ أنّ التّفسير الأوّل مقبول من قبل عدّه مفسّرين و هو الأفضل كما يظهر، لأن عباره: يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ وردت عده مرات فى الآيات القرآنيه بمعنى الفساد و الظلم فى الأرض،مثل: فَلَمّا أَنْجاهُمْ إِذا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ (۱) و إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النّاسَ وَ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ (۲) .

صحيح أن(بغى)وردت بمعنى(طلب)أيضا،إلاّ أنّها متى ما تذكر مع كلمه (فى الأرض)فإنها تعنى الفساد و الظلم فى الأرض.

و هنا يطرح سؤالان:

الأوّل:لو كان تقسيم الأرزاق وفق هذا البرنامج،فلما ذا إذن نرى أشخاصا لهم رزق وفير و قد أفسدوا و طغوا كثيرا فى الدنيا و لم يمنعهم الخالق،سواء على مستوى الأفراد،أو الدول الناهبه و الظالمه؟ و فى الجواب على هذا السؤال يجب الانتباه إلى هذه الملاحظه،و هى أن بسط الرزق أحيانا قد يكون أسلوبا للامتحان و الاختبار،لأن جميع الناس يجب أن يختبروا فى هذا العالم،فقسم منهم يختبرون بواسطه المال.

و أحيانا قد يكون بسط الرزق لبعض الافراد لكى يعلموا بأن الثروه لا تجلب السعاده،فعسى أن يعثروا على الطريق و يرجعوا إلى خالقهم،و نحن الان نرى بعض المجتمعات غرقى بأنواع النعم و الثروات،و فى نفس الوقت شملتهم مختلف المصائب و المشاكل،كالخوف،و القتل،و التلوث الخلقى،و القلق بأنواعه المختلفه.

فأحيانا تكون الثروه غير المحدوده نوعا من العقاب الإلهى الذى يشمل

۱- ۱) -يونس،الآيه ۲۳.

۲- ۲) -آيه ۴۲ من نفس هذه السوره.

بعض الناس،فإذا نظرنا إلى حياتهم من بعيـد نراها جميله،أمّا إذا تفحصـناها عن قرب فسوف نشاهـد التاسـعه بأدنى حالاتها!،و فى هذا المجال هناك قصص عديده لسلاطين الثروه فى الدنيا،حيث يطول بنا المقام لو أردنا سردها.

السؤال الآـخر هو:ألاـ يعنى هـذا الكلاـم أنّه متى مـا كـان الإنسـان فقيرا فلاـ ينبغى له السـعى للتوسع فى الرزق،لأـن الخـالق جعل مصلحته فى هذا الفقر؟ و للجواب على هذا السؤال نقول:إنه قد تكون قله الرزق بسبب كسل الإنسان و تهاونه أحيانا،فهذا النقص و الحرمـان ليس ما يريـده اللّه حتما،بل بسـبب أعماله،و الإسـلام يـدعو الجميع إلى الجهـد و الجهاد و المثابره وفقا لتأكيـده على أصل السـعى و بـذل الجهد الذى يشـير إليه القرآن فى آيات عديده،و سـنه الرّسول صـلّى اللّه عليه و اله و سـلّم و الائمه الأطهار عليهم السّلام.

و لكن عنـد ما يبـذل الإنسان منتهى جهـده،و رغم ذلك تغلق الأبواب فى وجهه، عليه أن يعلم بأن هناك مصـلحه معينه فى هـذا الأمر،فلا يجزع،و لا ييأس،و لا ينطق بالكفر،و يستمر فى محاولاته و يستسلم لرضا الخالق أيضا.

و تجـدر الإشاره إلى هـذه الملاحظه و هى أن كلمه(عباده)لا تتعارض أبدا مع الطغيان عند بسط الرزق،لأن هذه العباره تسـتخدم فى الأفراد الصالحين و السيئين و المتوسطى الحال،مثل: قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَهِ اللّهِ .

صحيـح أن الخالق ينزل الرزق بقـدر حتى لا يطغى العباد،إلاّ أنّه لا يمنعهم أو يحرمهم،لذا فإن الآيه التى بعدها تقول: وَ هُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ ما قَنَطُوا وَ يَنْشُرُ رَحْمَتَهُ .

و لماذا لا يكون هـذا: وَ هُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيـدُ ؟ هـذه الآيه تتحدث عن آيات و علائم التوحيد فى نفس الوقت الذى تبيّن فيه نعمه و لطف الخالق،لأن نزول المطر يشتمل على نظام دقيق للغايه و محسوب،

فعند ما تشرق الشمس على المحيطات تفصل ذرات الماء الدقيقه عن الأملاح و ترسلها على شكل سحب إلى السماء،ثمّ تقوم طبقات الجو العليا البارده بتكثيفها،ثمّ تحملها الرياح إلى الأراضى اليابسه،ثمّ تتحول أخيرا إلى قطرات مطر بسبب بروده الهواء و ضغطه الخاص و تهطل على الأرض،و تنفذ فيها دون تخريب.

نعم،فلو دققنا النظر فى هذا النظام،فسنجد علائم قدره الخالق و علمه متجليه فيه،فهو الولى الحميد الذى يقوم بتأمين كلّ حاجات العباد و تشملهم ألطافه العديده.

و لا بدّ القول أن كلمه(غيث)تعنى المطر النافع،كما يقول العديد من المفسّرين و بعض علماء اللغه،فى حين أن(المطر)يطلق على جميع الأنواع الأخرى النافعه و الضاره.

لذا،فبعد تلك الجمله وردت عباره: وَ يَنْشُرُ رَحْمَتَهُ .

يا له من تعبير لطيف و شامل!فهو ينشر رحمته لإحياء الأراضى الميته،و نمو النباتات و تنظيف الهواء،و تأمين ماء الشرب للإنسان و باقى الكائنات الحيه، و الخلاصه فى جميع المجالات.

فلو أراد الإنسان أن يدرك مفهوم هذه الجمله القرآنيه،فإنّ عليه أن يتوجه نحو الجبال و السهول بعد نزول المطر و عند ما تشرق الشمس،كى يشاهد الجمال و اللطافه و رحمه الخالق الواسعه و هى تعمر كلّ مكان.

و قد تكوه الاستفاده من كلمه(غيث)بسبب أن لها جذورا مشتركه مع (غوث)المأخوذه من الإغاثه،و لهذا السبب فإن بعض المفسّرين اعتبر الكلمه أعلاه إشاره إلى أى إغاثه من قبل الخالق بعد اليأس و نشر رحمته (۱) .

و لهذه المناسبه-أيضا-فإن الآيه التى بعدها تتحدث عن أهم آيات علم

۱- ۱) -يقول الراغب فى مفرداته:الغوث يقال فى النصره،و الغيث فى المطر.

و قدره الخالق،حيث تقول: وَ مِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّهٍ .

فالسموات بعظمتها،بمجراتها و كواكبها،بملايين الملايين من النجوم العظيمه اللامعه،بنظامها الدقيق الذى يبهت الإنسان عند مطالعته لها.و الأرض بمنابعها الحياتيه و نباتاتها المتنوعه و لورود و الفواكه بمختلف البركات و المواهب و الجمال!كلها تعتبر آيات و علائم تدل عليه...هذا من جانب.

و من جانب آخر فالأحياء فى الأرض و السماء،كأنواع الطيور،و مئات الآلاف من الحشرات،و أنواع الحيوانات الأليفه و المتوحشه،و الزواحف، و الأسماك بأنواعها و أحجامها،و العجائب المختلفه الموجوده فى كلّ نوع من هذه الأنواع،و الأهم من ذلك حقيقه(الحياه) و أسرارها التى لم يستطع أحد التوصل إلى كنهها بعد آلاف السنين من البحوث لملايين العلماء،كلّ ذلك هو من آيات الخالق.

و الملفت للنظر أن(دابه)تشمل الكائنات الحيه المجهريه التى لها حركات لطيفه و عجيبه،و تشمل الحيوانات الكبيره العملاقه التى يصل طولها إلى عشرات الأمتار و وزنها إلى عشرات الأطنان،فكل صنف يسبّح على طريقته الخاصه و يحمد الخالق،و يبيّن عظمته تعالى و قدرته و علمه اللامحدود،بلسان حاله.

و تقول الآيه فى نهايتها: وَ هُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ (۱) .

أمّا ما هو المقصود من جمع الأحياء الذى تذكره هذه الآيه؟فقد ذكر العديد من المفسّرين أنّه الجمع للحساب و جزاء الأعمال فى القيامه،و يمكن اعتبار الآيات التى تذكر القيامه بعنوان(يوم الجمع)دليلا على هذا المعنى(مثل الآيه ۷ من نفس هذه السوره و الآيه ۹ من سوره التغابن).

۱- ۱) -(إذا)و كما يقول صاحب الكشاف،تدخل على الفعل المضارع كما تدخل على الفعل الماضى،مثل وَ اللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى و لكن الفعل أكثر ما يكون بعد(إذا)على شكل الماضى و قليل جدا على شكله المضارع.

و هنا قد يطرح هذا السؤال و هو:هل أن جميع الأحياء سيحشرون يوم القيامه،حتى غير الإنسان؟حيث يقال أحيانا أن كلمه(دابه)تطلق على غير الإنسان.و هنا ستطرح هذه المشكله و هى كيف ستحشر الأحياء من غير الإنسان للحساب.فى حين أنّها لا تتمتع بعقل و لا اختيار و لا تكليف؟ و قد ورد جواب هذا السؤال فى نهايه الآيه(۳۸)من سوره الأنعام: وَ مٰا مِنْ دَابَّهٍ فِی الْأَرْضِ وَ لاٰ طٰائِرٍ یَطِیرُ بِجَنٰاحَیْهِ إِلاّٰ أُمَمٌ أَمْثٰالُکُمْ مٰا فَرَّطْنٰا فِی الْکِتٰابِ مِنْ شَیْءٍ ثُمَّ إِلیٰ رَبِّهِمْ یُحْشَرُونَ .

و قلنا أن حياه العديد من الحيوانات مقترنه مع نظام بديع و عجيب،فما المانع من أن تكون أعمالها نتاج نوع من العقل و الشعور فيها؟و هل هناك ضروره لإرجاع جميع هذه الأمور إلى الغريزه؟و فى هذه الحاله يمكن تصور نوع من الحشر و الحساب لها(اقرأ شرحا أكثر لهذا الموضوع فى ذيل تفسير الآيه ۳۸ من سوره الأنعام).

و يحتمل فى تفسير الآيه أعلاه أن المقصود من(الجمع)الجانب المقابل ل(بث)،أى أن(بت)تشير إلى خلق أنواع الكائنات الحيه باختلافها،ثمّ إذا شاء الخالق(جمعها)و أفناها.فكما أن العديد من الأحياء-(على مدى التاريخ)- انتشرت بشكل عجيب،ثمّ انقرضت و اختفت فيما بعد.كذلك جمعها و إبادتها يكون بيد الخالق،فهى فى الحقيقه تشبه الآيات التى تقول:يحيى و يميت(أى الخالق).

و بهذا فإنّ قضيه حساب الحيوانات سوف تكون أجنبيه عن هذه الآيه.

النجوم السماويه الآهله:

من الاستنتاجات المهمّه التى نستنتجها من خلال هذه الآيه،أنّها تدل على وجود مختلف الأحياء فى السماوات،و بالرغم من عدم صدور الرأى النهائى

للعلماء بهذا الخصوص،إلاّ أنّهم يقولون و على نحو الإيجاز:هناك احتمال قوى بوجود عدد كبير من النجوم من بين الكواكب السماويه تحتوى على كائنات حيه، إلاّ أن القرآن يصرح بهذه الحقيقه،من خلال: وَ مٰا بَثَّ فِيهِمٰا مِنْ دٰابَّةٍ .

و ما يقوله بعض المفسّرين من احتمال تخصص(فيهما)بالكره الأرضيه غير سديد،لوجود ضمير المثنى و الذى يعود إلى السماء و الأرض معا،و كذلك لا يصح ما قيل فى تفسير(دابه)بالملائكه،لأن دابه تطلق عاده على الكائنات الماديه.

و يمكن استفاده هذا المعنى أيضا من خلال الآيات القرآنيه المتعدده الأخرى.

و

فى حديث ورد عن الإمام على بن أبى طالب عليه السّلام أنّه قال: «هذه النجوم التى فى السماء مدائن مثل المدائن التى فى الأرض مربوطه كلّ مدينه إلى عمود من نور» (۱) .

و هناك روايات اخرى متعدده فى هذا المجال(يمكن مراجعه كتاب«الهيئه و الإسلام»لمزيد من المعلومات).

و بما أن الآيات السابقه كانت تتحدث عن الرحمه الإلهيه،لذا يطرح سؤال فى هذا المجال،و هو كيف تجتمع الرحمه و كل هذه المصائب التى تصيبنا؟ الآيه الأخرى تجيب على هذا السؤال و تقول: وَ مٰا أَصٰابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمٰا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ .

ثم إن هذا الجزاء ليس جزاء على جميع أعمالكم القبيحه،لأنّه وَ يَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ .

ص: ۵۳۴

۱- ۱) -سفينه البحار-كلمه نجم-المجلد الثّانى-ص ۵۷۴،نقلا عن تفسير على بن إبراهيم القمى.

ملاحظات

اشاره

علّه المصائب:

و من الضروری الانتباه إلی بعض الملاحظات الوارده فی هذه الآیه:

۱-تبیّن هـذه الآیـه و بوضوح أن المصـائب التی تصـیب الإنسـان هی نوع من التحـذیر و العقـاب الإلـهی(بالرغم من وجود بعض الاستثناءات التی سنشیر إلیها فیما بعد).

و بهذا الترتیب سیتوضح لنا جانب من فلسفه الحوادث المؤلمه و المشاکل الحیاتیه.

و الطریف فی الأمر أنّنا نقرأ فی حدیث عن الإمام علی علیه السّلام أنّه

نقل عن الرّسول صـلّی اللّه علیه و اله و سـلّم قوله: «خیر آیه فی کتاب اللّه هـذه الآیه،یا علی ما من خدش عود، و لا نکبه قدم إلا بذنب،و ما عفی اللّه عنه فی الدنیا فهو أکرم من أن یعود فیه،و ما عاقب علیه فی الدنیا فهو أعدل من أن یثنی علی عبده» (۱) .

و هکذا فإنّ هذه المصائب إضافه إلی أنّها تقلل من حمل الإنسان، فإنها تجعله یتزن فی المستقبل.

۲-بالرغم من عمومیه الآیه و شمولها کلّ المصائب،لکن توجد استثناءات لکم عامّ،مثل المصائب و المشاکل التی أصابت الأنبیاء و الأئمه المعصومین علیهم السّلام بهدف الاختبار أو رفع مقامهم.

و أیضا المصائب بهـدف الاختبار التی تشـمل غیر المعصومین.أو المصائب التی تحدث بسـبب الجهل أو عدم الدقه فی الأمور و عدم الاستشاره و التساهل و التی هی آثار تکوینیه لأعمال الإنسان نفسه.

و بعباره اخری فإن الجمع بین الآیات القرآنیه المختلفه-و الأحادیث-

---

۱- ۱) -مجمع البیان،المجلد ۹،ص ۳۱(نهایه الآیات التی نبحثها)و قد ورد ما یشـبه هذا الحدیث فی(الدر المنثور)و تفسـیر(روح المعانی)مع بعض الاختلاف و ذلک فی نهایه الآیات التی نبحثها،و الأحادیث فی هذا المجال کثیره.

یقتضی التخصیص فی بعض الموارد بالنسبه لهذه الآیه العامه،و لیس هذا موضوعا جدیدا لیکون محل نقاش بعض المفسّرین.

و خلاصه القول فإنّ هناک غایات مختلفه للمصائب و المشاکل التی تصیب الإنسان،حیث تمّت الإشاره إلیها فی المواضیع التوحیدیه و بحوث العدل الإلهی.

فالملکات تنمو و تتکامل تحت ضغط المصائب،و یکون هناک حذر بالنسبه للمستقبل،و یقظه من الغرور و الغفله و کفاره للذنب و...

و بما أن أغلب أعمال الأفراد لها طبیعه جزائیه و تکفیریه،لذا فإنّ الآیه تطرح ذلک بشکل عام.

و لذا فقد ورد فی الحدیث أنّه و عند ما دخل علی بن الحسین علیه السّلام علی یزید بن معاویه،نظر إلیه یزید و قال:یا علی،ما أصابکم من مصیبه فبما کسبت أیدیکم (إشاره إلی أنّ مأساه کربلاء هی نتیجه أعمالکم).

إلاّ أنّ الإمام علیه السّلام أجابه مباشره:

«کلا ما نزلت هذه فینا،إنّما نزل فینا: مٰا أَصٰابَ مِنْ مُصِیبَهٍ فِی الْأَرْضِ وَ لاٰ فِی أَنْفُسِکُمْ إِلاّٰ فِی کِتٰابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهٰا إِنَّ ذٰلِکَ عَلَی اللّٰهِ یَسِیرٌ لِکَیْلاٰ تَأْسَوْا عَلیٰ مٰا فٰاتَکُمْ وَ لاٰ تَفْرَحُوا بِمٰا آتٰاکُمْ فنحن الذین لا نأسی علی ما فاتنا من أمر الدنیا،و لا نفرح بما أوتینا» (۱) .

و ننهی هذا الکلام

بحدیث آخر عن الإمام الصادق علیه السّلام فعند ما سئل عن تفسیر الآیه أعلاه قال:تعلمون أن علیا و أهل بیته قد أصیبوا بالمصائب من بعده،فهل کان ذلک بسبب أعمالهم؟فی حین أنّهم أهل بیت الطهر،و العصمه من الذنب،ثمّ أضاف:نص إنّ رسول اللّه کان یتوب إلی اللّه و یستغفر فی کلّ یوم و لیله مائه مره من غیر ذنب،إنّ اللّه یخص أولیاءه بالمصائب لیأجرهم علیها من غیر ذنب (۲) .

۳-البعض یشکک فی أن یکون المقصود من المصائب فی هذه الآیه مصائب

۱- ۱) -تفسیر علی بن بن إبراهیم طبقا لنور الثقلین،المجلد الرابع،ص ۵۸۰.

۲- ۲) -أصول الکافی طبقا لنور الثقلین،المجلد الرابع،ص ۵۸۱.

الدنیا،لأن الدنیا هی دار العمل و لیس دار الثواب و الجزاء.

و هـذا خطأ کبیر،لوجود آیات و روایات متعـدده تؤکـد أن الإنسان یری- أحیانا-جانبا من نتیجه أعماله فی هـذه الدنیا،و ما یقال من أن الـدنیا لیست دارا للجزاء و لاـ تتم فیهـا تصـفیه جمیع الحسابـات،لاـ یعنی عـدم الجزاء بشـکل مطلق، حیث أن إنکار هـذه الحقیقه یشبه إنکار البدیهیات،کما یقول المطّلعون علی المفاهیم الاسلامیه.

۴-أحیانا قد تکون المصائب جماعیه،و بسبب ذنوب الجماعه،کما نقرأ فی الآیه(۴۱)من سوره الروم: ظَهَرَ الْفَسادُ فِی الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ بِما کَسَبَتْ أَیْدِی النّاسِ لِیُذِیقَهُمْ بَعْضَ الَّذِی عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ یَرْجِعُونَ .

و واضح أن هذا یختص بالمجتمعات الإنسانیه التی أصیبت بالمصائب بسبب أعمالها.

و ورد فی الآیه ۱۱ من سوره الرعد: إِنَّ اللّهَ لا یُغَیِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتّی یُغَیِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ .

و هـذه الآیـات تـدل علی وجود ارتبـاط و علاـقه قریبه بین أعمـال الإنسـان و النظام التکوینی للحیاه،فإذا سار الناس وفقا لأصول الفطره و قوانین الخلق فستشملهم البرکات الإلهیه،و عند فسادهم یفسدون حیاتهم.

و أحیانا قد یصدق هذا الأمر بخصوص آحاد الناس،فکل إنسان سـیصاب فی جسـمه و روحه أو أمواله و متعلقاته الأخری بسـبب الذنب الذی یرتکبه،کما جاء فی الآیه أعلاه (۱) .

علی أیه حال،فقد یتصور البعض أنّهم یستطیعون الهروب من هذا القانون الإلهی الحتمی.لذا فإن آخر آیه فی هذا البحث تقول:

۱- ۱) -المیزان،المجلد ۱۸،ص ۶۱.

وَ مٰا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ

(۱)

.و فی السماء بطریق اولی و کیف تستطیعون الهروب من قدرته و حاکمیته فی حین أن کلّ عالم الوجود هو فی قبضته و لا منازع له؟ و إذا کنتم تعتقدون بوجود من سیساعدکم و ینصرکم،فاعلموا: وَ مٰا لَکُمْ مِنْ دُونِ اللّٰهِ مِنْ وَلِیٍّ وَ لاٰ نَصِیرٍ .

قد یکون الفرق بین(الولی)و(النصیر)هو أن الولی هو الذی یقوم بجلب المنفعه،و النصیر هو الذی یقوم بدفع الضرر،أو أن الولی یقال لمن یدافع بشکل مستقل،و النصیر یقال لمن یقف إلی جانب الإنسان و یقوم بنصرته.

و فی الحقیقه فإن آخر آیه تجسد ضعف و عجز الإنسان،و الآیه التی قبلها عداله الخالق و رحمته (۲) .

مسائل مهمّه

اشاره

الاولی:مصائبکم بما کسبت أیدیکم:

یتصور العدید من الناس أن علاقه أعمال الإنسان بالجزاء الإلهی مثل العقود الدنیویه و ما تحتویه من الأجر و العقاب،فی حین قلنا-مرارا-إن هذه العلاقه أقرب ما تکون إلی الارتباط التکوینی منه إلی الارتباط التشریعی.

و بعباره اخری فإنّ الأجر و العقاب أکثر ما یکون بسبب النتیجه الطبیعیه و التکوینیه لأعمال الإنسان حیث یشملهم ذلک.و الآیات أعلاه خیر شاهد علی هذه الحقیقه.

و بهذا الخصوص هناک روایات کثیره فی المصادر الإسلامیه نشیر إلی بعضها

۱- ۱) -«معجزین»من کلمه(إعجاز)إلاّ أنّها وردت فی العدید من الآیات القرآنیه بمعنی الهروب من محیط القدره الإلهیه و من عذابه،حیث یقتضی معناها ذلک.

۲- ۲) -فی ظلال القرآن-المجلد السابع ص ۲۹۰.

لتکمیل الموضوع:

-۱

ورد فی إحدی خطب نهج البلاغه: «ما کان قوم قط فی غض نعمه من عیش،فزال عنهم إلاّ بذنوب اجترحوها،لأن اللّه لیس بظلام للعبید،و لو أنّ الناس حین تنزل بهم النقم،و تزول عنهم النعم،فزعوا إلی ربّهم بصدق من نیاتهم،و وله من قلوبهم،لردّ علیهم کلّ شارد،و أصلح لهم کلّ فاسد» (۱) .

۲-و هناک

حدیث آخر عن أمیر المؤمنین الإمام علی علیه السّلام فی(جامع الأخبار) حیث یقول: «إنّ البلاء للظالم أدب،و للمؤمن امتحان،و للأنبیاء درجه، و للأولیاء کرامه» (۲) .

و هذا الحدیث خیر شاهد للاستثناءات التی ذکرناها لهذه الآیه.

و

ورد فی حدیث آخر عن الإمام الصادق علیه السّلام فی الکافی أنّه قال: «إنّ العبد إذا کثرت ذنوبه،و لم یکن عنده من العمل ما یکفرها،ابتلاه بالحزن لیکفرها» (۳) .

۴-و هناک باب خاص لهذا الموضوع فی کتاب أصول الکافی یشمل ۱۲

حدیثا (۴) .

و کل هذه هی غیر الذنوب التی صرحت الآیه أعلاه بأن الخالق سیشملها بعفوه و رحمته،حیث أنّها-بحد ذاتها-کثیره.

الثانیه:اشتباه کبیر

قد یستنتج البعض بشکل خاطئ من هذه الحقیقه القرآنیه و یقول بوجوب الاستسلام لأی حادثه مؤسفه،إلاّ أن هذا الأمر خطیر للغایه،لأنّه یستفید من هذا الأصل القرآنی التربوی بشکل معکوس و یستنتج نتیجه تخدیریه.

۱- ۱) -نهج البلاغه-الخطبه ۱۷۸.

۲- ۲) -بحار الأنوار،المجلد ۸۱،ص ۱۹۸.

۳- ۳) -الکافی،-المجلد الثّانی،کتاب الإیمان و الکفر-باب تعجیل عقوبه الذنب-الحدیث ۲.

۴- ۴) -المصدر السابق.

فالقرآن لا يقول أبدا بالاستسلام حيال المصائب و عدم السعى لحل المشاكل،و الركون للظلم و الجور و المرض،بل يقول:إذا شملتك المصائب بالرغم من سعيك و محاولاتك لدفعها،فاعلم أن ذلك هو كفاره الذنوب التى قمت بها و ارتكبتها،عليك أن تفكر بأعمالك السابقه،و تستغفر لذنوبك،و تصلح نفسك و تكتشف نقاط ضعفك.

و إذا ورد فى الروايات أن هذه الآيه من أفضل آيات القرآن،فذلك بسبب تأثيرها التربوى المهم،و من جانب آخر تقوم بتخفيف هموم الإنسان،و تعيد الأمل و عشق الخالق إلى قلبه و روحه.

الثّالثه:من هم أصحاب الصفه؟

الذين يذهبون إلى زياره قبر النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم فى المدينه،يشاهدون مكانا مرتفعا قليلا عن الأرض فى زاويه المسجد و قرب القبر الشريف حيث عزلت أطرافه بشكل جميل عن باقى المسجد،كما أن الكثير ينتخب هذا المكان لتلاوه القرآن و الصلاه.

هذا المكان يذكرنا بمكان(الصفّه)و هو المحل الذى هيأه النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم لمجموعه من الغرباء الذين اعتنقوا الإسلام و لم يكن لديهم مأوى سوى المسجد (۱) .

توضيح:

أوّل شخص غريب اعتنق الإسلام و لم يكن يملك مكانا فى المدينه هو شاب من أهل اليمامه يسمى(جويبر)حيث أن قصه زواجه الشهيره مع(الذلفاء)تعتبر من أجمل حوادث محاربه الفواصل الطبقيه فى التاريخ الإسلامى.

۱- ۱) -«صفه»على وزن(غصّه)و تعنى فى اللغه الصيفيه المغطاه بسعف النحل.

و قد سمح له الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم بالمبيت ليلا فى المسجد،لأنّه لا يملك مكانا للاستراحه و السكن،و عند ما كثر عدد الغرباء-و كلهم سكن المسجد-أدى ذلك إلى وضع سلبى للمسجد،أمر الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم بإخراجهم من المسجد و تطهيره، و أغلقت أبواب بيوت الصحابه التى كانت شارعه إلى المسجد بأمر الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم ما عدا بيت على و فاطمه عليهما السّلام.

عندها أمر الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم بتسقيف مكان معين بسعف النخل ليكون محلا لسكن الغرباء و الفقراء،و كان بنفسه يزورهم و يعطيهم الماء و التمر و الخبز و المواد الغذائيه الأخرى،و قام باقى المسلمين بالاهتمام بهم و مساعدتهم عن طريق الزكاه و أنواع الإنفاق الأخرى.

و قد اشترك هؤلاء فى المعارك الإسلاميه و جاهدوا بإخلاص،و قد وردت بعض الآيات القرآنيه لتذكر فضلهم و صفاءهم و طهرهم،و قد سمّوا(بأصحاب الصفّه)لأنّهم سكنوا تلك(الصفّه).

ص :۵۴۱

الآيات [سوره الشوری (۴۲): الآيات ۳۲ الی ۳۶]

اشاره

وَ مِنْ آیاتِهِ اَلْجَوارِ فِی اَلْبَحْرِ کَالْأَعْلامِ (۳۲) إِنْ یَشَأْ یُسْکِنِ اَلرِّیحَ فَیَظْلَلْنَ رَواکِدَ عَلی ظَهْرِهِ إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیاتٍ لِکُلِّ صَبّارٍ شَکُورٍ (۳۳) أَوْ یُوبِقْهُنَّ بِما کَسَبُوا وَ یَعْفُ عَنْ کَثِیرٍ (۳۴) وَ یَعْلَمَ اَلَّذِینَ یُجادِلُونَ فِی آیاتِنا ما لَهُمْ مِنْ مَحِیصٍ (۳۵) فَما أُوتِیتُمْ مِنْ شَیْءٍ فَمَتاعُ اَلْحَیاهِ اَلدُّنْیا وَ ما عِنْدَ اَللّٰهِ خَیْرٌ وَ أَبْقی لِلَّذِینَ آمَنُوا وَ عَلی رَبِّهِمْ یَتَوَکَّلُونَ (۳۶)

التّفسير

اشاره

هبوب الرياح المنتظمه و حركه السفن عليهم السّلام

مرّه اخرى نشاهـد أنّ هذه الآيات تقوم بتبيان علائم الخالق و أدله التوحيد، و تستمر فى البحث الذى أشارت إليه الآيات السابقه بهذا الخصوص.

و هنا تذكر موضوعا يتعامل معه الإنسان كثيرا فى حياته الماديه،خصوصا المسافرين عبر البحار و سكان السواحل،حيث تقول الآيه: وَ مِنْ آیاتِهِ الْجَوارِ فِی الْبَحْرِ کَالْأَعْلامِ .

«جوار»جمع(جاريه)و هى صفه للسفن حيث لم تذكر للاختصار،و عاده فإن

الآیه تقصد حرکه السفن،و لذا فقد استخدمت هذه الصفه.

و یقال للبنت الشابه«جاریه»لأن الشباب و النشاط یجری فی عروقها و وجودها.

«أعلام»جمع(علم)علی وزن(قلم)و تعنی الجبل،إلاّ أنّها فی الأصل بمعنی العلامه و الأثر الباقی الذی یخبر عن شیء معین،مثل(علم الطریق)و(علم الجیش)و ما شابه.

أمّا لماذا سمّی الجبل بالعلم؟فذلک لأنّه ظاهر من بعید،و أحیانا کانوا یشعلون النّار فوق قمته حتی تکون منارا للسائرین،إلاّ أنّ وجود النّار و عدمها لا یؤثر فی التسمیه.

و علی هذا الأساس فإنّ القرآن یعتبر حرکه السفن العملاقه فی هذه الآیه- کما فی الآیات المتعدده الأخری-بسبب هبوب الریاح المنتظمه،من آیات الخالق.

فلیس مهمّا حرکه السفینه الصغیره أو الزوارق علی سطح الماء بسبب هبوب الریاح،المهم حرکه السفن و البواخر العملاقه بحمولتها الکبیره و مسافریها المتعددین عند هبوب الریاح،فتقطع آلاف الأمیال و تصل إلی مرساها.

فمن الذی خلق هذه المحیطات بخصوصیاتها و میاهها و عمقها؟من أعطی للخشب الذی تصنع منه السفن خاصیه الطفو علی سطح الماء؟ و من یأمر الریاح بالهبوب بشکل منظم علی سطح البحار و المحیطات کی یستطیع الإنسان أن یصل من نقطه إلی اخری بالاستفاده من هذه الریاح؟ نعم،فلو أخذنا بعین الإعتبار الخرائط التی یملکها البحاره بخصوص حرکه الریاح،و المعلومات التی یملکها البشر حول هبوب الریاح من القطبین نحو خط الإستواء و من خط الإستواء إلی القطبین،و أیضا هبوب الریاح المتناوبه من السواحل و الیابسه نحو البحار و بالعکس،عندها سندرک أن هذا الأمر مخطط و له

نظام.

فی زماننا،تقوم المحرکات الضخمه بتحریک السفن و دفعها إلی الأمام،إلاّ أنّ الریاح تبقی مؤثره أیضا فی حرکه هذه السفن.

و للتأکید أکثر تقول الآیه: إِنْ یَشَأْ یُسْکِنِ الرِّیحَ فَیَظْلَلْنَ رَوٰاکِدَ عَلیٰ ظَهْرِهِ .

و کاستنتاج تضیف الآیه فی نهایتها: إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیٰاتٍ لِکُلِّ صَبّٰارٍ شَکُورٍ .

نعم،فهبوب الریاح،و حرکه السفن،و خلق البحار،و النظام الخاص المتناسق الذی یتحکم بهذه الأمور...کلّها آیات مختلفه للذات المقدسه.

و نعلم أن هبوب الریاح یتمّ بسبب الاختلاف فی درجه الحراره بین منطقتین علی الکره الأرضیه،لأنّ الهواء یتمدد بسبب الحراره و یتحرک نحو الأعلی، و یضغط علی الهواء المحیط به و یقوم بتحریکه،و من جانب آخر یترک مکانه للهواء المجاور له عند تحرکه نحو الطبقات العلیا،فلو سحب الخالق هذه الخاصیه (خاصیه التمدد)من الهواء،عندها سیطغی السکون و الهدوء القاتل و ستقف السفن الشراعیه فی عرض البحار دون أیه حرکه.

«صبار»و(شکور)صیغتا مبالغه حیث تعطی الأولی معنی کثره الصبر، و الثانیه کثره الشکر.و هذان الوصفان الواردان فی هذه الآیه-و فی موارد اخری (۱) -یشیران إلی ملاحظات لطیفه.

فهاتان الصفتان توضحان حقیقه الإیمان،لأن المؤمن صبور فی المشاکل و الابتلاءات و شکور فی النعم،و

قد ورد فی حدیث عن الرّسول صلّی اللّه علیه و اله و سلّم: «الإیمان نصفان:نصف صبر و نصف شکر» (۲) .

إضافه إلی ذلک،فإنّ البحث فی أسرار نظام الخلق یحتاج إلی الصبر و الاستمرار و تخصیص الوقت الکافی،و من جانب ثان یستحق شکر لمنعم.

ص:۵۴۴

۱- ۱) -إبراهیم-۵،لقمان-۳۱،سبأ-۱۹،و الآیه التی نبحثها.

۲- ۲) -تفسیر الصافی،مجمع البیان،الفخر الرازی،و القرطبی نهایه الآیه(۳۱)من سوره لقمان.

فمتی مـا توفر هـذان العاملان عنـدها یکون الإنسان مؤهلا للبحث فی هـذه الآیات،و عاده فإنّ البحث فی أسـرار الخلق یعتبر بحد ذاته نوعا من الشکر.

و من جانب ثالث،فإنّ هاتین الصـفتین تتجسدان فی الإنسان أکثر من أی وقت مضـی متی ما رکب فی السفینه،حیث الصبر حیال حوادث و مشاکل البحار، و الشکر عند الوصول إلی الساحل.

مرّه اخری،لتجسـید عظمه هذه النعمه الإلهیه،تقول الآیه الأخری: أَوْ یُوبِقْهُنَّ بِمٰا کَسَبُوا أیّ لو شاء لأباد هذه السفن بسبب الأعمال التی ارتکبها المسافرون.

و کما قرأنا فی الآیات الماضیه،فإنّ المصائب التی تصیب الإنسان غالبا ما تکون بسبب أعماله.

إلاّ أنّه بالرغم من ذلک فإن اللطف الإلهی یشمل الإنسان: وَ یَعْفُ عَنْ کَثِیرٍ .

فلو لاـ عفـو الخـالق لـم یکـن لینجـو أحـد مـن عـذاب الخـالق سـوی المعصـومین و الخـواص و الطـاهرین،کمـا نقرأ ذلـک فی الآیه(۴۵)من سوره فاطر: وَ لَوْ یُؤٰاخِذُ اللّٰهُ النّٰاسَ بِمٰا کَسَبُوا مٰا تَرَکَ عَلیٰ ظَهْرِهٰا مِنْ دَابَّهٍ وَ لٰکِنْ یُؤَخِّرُهُمْ إِلیٰ أَجَلٍ مُسَمًّی .

نعم،فهو یسـتطیع أن یمنع الریاح من الهبوب حتی تقف السـفن فی وسط البحار و المحیطات،أو یحوّل هذه الریاح إلی عواصـف هو جاء تدمر هذه السفن و البواخر،إلاّ أن لطفه العام یمنع هذا العمل.

وَ یَعْلَمَ الَّذِینَ یُجٰادِلُونَ فِی آیٰاتِنٰا مٰا لَهُمْ مِنْ مَحِیصٍ

(۱)

و ما لهم من ملجأ سوی ذاته المنزهه.

فهؤلاء سوف لا یشملهم العفو الإلهی،لأنّهم عارضوه بعلم و وعی،و استمروا

۱ – ۱) –جمله وَ یَعْلَمَ الَّذِینَ یُجٰادِلُونَ... کمـا یقول الزمخشـری فی کشـافه:وردت منصوبه بسـبب عطفها علی تعلیل محـذوف و تقـدیره:لینتقم منهم و یعلم الـذین یجادلون...فالهـدف أن ینتقم الخـالق من هـذه المجموعه،و الهـدف أن یعلم المجادلون بعـدم وجود طریق للنجاه.

فی محاربته عن عداوه و عناد،فهؤلاء سوف لا یشملهم عفوه و رحمته، و لا خلاص لهم من عذابه.

«محیص»مأخوذه من کلمه(حیص)علی وزن(حیف)و تعنی الرجوع و العدول عن أمر ما،و بما أن(محیص)اسم مکان،لذا وردت هذه الکلمه،بمعنی محل الهروب أو الملجأ.

و الکلام فی آخر آیه موجّه إلی الجمیع حیث تقول: فَمٰا أُوتِیتُمْ مِنْ شَیْءٍ فَمَتٰاعُ الْحَیٰاهِ الدُّنْیٰا .

فلا تتصوروا أنّه سیبقی لکم،لأنّه کالومیض الذی یبرق ثمّ یخبو،و کالشمعه فی مهبّ الریح و الفقاعه علی سطح الماء،و لکن وَ مٰا عِنْدَ اللّٰهِ خَیْرٌ وَ أَبْقیٰ لِلَّذِینَ آمَنُوا وَ عَلیٰ رَبِّهِمْ یَتَوَکَّلُونَ .

فلو استطعتم أن تستبدلوا هذا المتاع الدنیوی الزائل المحدود التافه بمتاع أبدی خالد،فتلک هی التجاره المربحه العدیمه النظیر.

فالمواهب فی هذه الدنیا لا تخلو من المشاکل،حیث توجد الأشواک دائما إلی جانب الورود،و المحبطات إلی جانب الآمال،فی حین أن الأجر الإلهی لا یحتوی علی أی إزعاجات،بل هو خیر خالص و متکامل.

و من جانب آخر فإن هذه المواهب مهما کانت فستزول حتما،إلاّ أن الجزاء الأخروی أبدی خالد،عندها هل یقبل العقل أن یستغنی الإنسان عن هذه التجاره المربحه،أو یصاب بالغرور و الغفله و تبهره زخارف الدنیا؟ لذا فإننا نقرأ فی الآیه ۳۸ من سوره التوبه: أَ رَضِیتُمْ بِالْحَیٰاهِ الدُّنْیٰا مِنَ الْآخِرَهِ فَمٰا مَتٰاعُ الْحَیٰاهِ الدُّنْیٰا فِی الْآخِرَهِ إِلاّٰ قَلِیلٌ .

و أساسا،فإنّ«الحیاه الدنیا»(بالمعنی المتقدم)تشیر إلی الحیاه الدنیه و الحقیره،و طبیعی أن أی متاع أو وسائل للاستفاده من مثل هذه الحیاه ستکون- أیضا-مثلها فی القیمه.

ص :۵۴۶

لذا

فقد ورد فی حدیث عن الرّسول صلّی اللّه علیه و اله و سلّم أنّه قال: «و اللّه ما الدنیا فی الآخره إلاّ مثل أن یجعل أحدکم إصبعه هذه فی الیم،فلینظر بم ترجع؟!» (1) .

و الملفت للنظر أنّه ورد فی هذه الآیه التأکید علی الإیمان و التوکل،و هذا بسبب أن نیل الأجر الإلهی هو للذین یفوضون أمورهم فی جمیع الأعمال و یستسلمون له تعالی إضافه إلی الإیمان،لأن التوکل یعنی تفویض الأمور.

و تقابل هذه المجموعه أشخاص یجادلون فی آیات اللّه بسبب حب الدنیا و الارتباط بالمتاع الزائل،و یقلبون الحقائق،و بهذا الترتیب فإن آخر آیه هی بمثابه تعلیل للآیه التی قبلها،و التی کانت تتحدث عن الذین یجادلون فی آیات اللّه.

1- 1) -روح البیان،المجلد الثّالث،ص 429(نهایه الآیه 38 من سوره التوبه)

الآیات [سوره الشوری (۴۲): الآیات ۳۷ الی ۴۰]

اشاره

وَ اَلَّذِینَ یَجْتَنِبُونَ کَبٰائِرَ اَلْإِثْمِ وَ اَلْفَوٰاحِشَ وَ إِذٰا مٰا غَضِبُوا هُمْ یَغْفِرُونَ (۳۷) وَ اَلَّذِینَ اِسْتَجٰابُوا لِرَبِّهِمْ وَ أَقٰامُوا اَلصَّلاٰهَ وَ أَمْرُهُمْ شُوریٰ بَیْنَهُمْ وَ مِمّٰا رَزَقْنٰاهُمْ یُنْفِقُونَ (۳۸) وَ اَلَّذِینَ إِذٰا أَصٰابَهُمُ اَلْبَغْیُ هُمْ یَنْتَصِرُونَ (۳۹) وَ جَزٰاءُ سَیِّئَهٍ سَیِّئَهٌ مِثْلُهٰا فَمَنْ عَفٰا وَ أَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَی اَللّٰهِ إِنَّهُ لاٰ یُحِبُّ اَلظّٰالِمِینَ (۴۰)

التّفسیر

اشاره

المؤمنون لا یستسلمون للظلم:

هذه الآیات استمرار للبحث الوارد فی الآیات السابقه بخصوص الأجر الإلهی للمؤمنین المتوکلین.

فبعد ذکر الإیمان و التوکل اللذین لهما طبیعه قلبیه،تشیر هذه الآیات إلی سبعه أنواع من البرامج العملیه للصفتین السابقتین سواء کانت إیجابیه أو سلبیه، فردیه أو اجتماعیه،مادیه أو معنویه،و هذه البرامج توضح أسس المجتمع الصالح و الحکومه الصالحه القویه.

و الملفت للنظر أنّ هذه الآیات نزلت فی مکّه-کما یظهر-و فی ذلک الیوم لم

یکن قد تأسس المجتمع الإسلامی بعد،و لم یکن هناک وجود للحکومه الإسلامیه، إلاّ أن هذه الآیات أعطت التفکیر الإسلامی الصحیح فی هذا الخصوص منذ ذلک الیوم،حیث کان الرّسول الکریم صلّی اللّه علیه و اله و سلّم یعلّمهم و یربّیهم لغرض الاستعداد لبناء المجتمع الإسلامی فی المستقبل.

فأوّل صفه تبدأ من التطهیر حیث تقول الآیه أن الثواب الإلهی العظیم سوف یکون من نصیب المؤمنین المتوکلین: وَ الَّذِینَ یَجْتَنِبُونَ کَبٰائِرَ الْإِثْمِ وَ الْفَوٰاحِشَ (۱) .

«کبائر»جمع«کبیره»و تعنی الذنوب الکبیره،أمّا ما هو المعیار فی الکبائر؟ البعض فسّرها بالذنوب التی توعد القرآن فی آیاته بعذاب النّار لها،و أحیانا الذنوب التی تستوجب الحدّ الشرعی.

و قد احتمل البعض أنّها إشاره للبدع و إیجاد الشبهات الاعتقادیه فی أذهان الناس.

و لکننا لو رجعنا إلی المعنی اللغوی کلمه«کبیره»فإنّها تعنی الذنب الذی یکون کبیرا و مهما من وجهه نظر الإسلام،و أحد علائم أهمیته أنّه ورد فی القرآن المجید و توعد بالعذاب علیه،و قد ورد تفسیر للکبائر فی روایات أهل البیت علیهم السّلام بأنّها:

«التی أوجب اللّه عزّ و جلّ علیها النّار» (۲) .

و علی هذا الأساس فلو توضحت أهمیه و عظمه الذنب بطرق اخری،عندها سیشمله عنوان(الکبائر).

«فواحش»جمع«فاحشه»و تعنی الأعمال القبیحه للغایه و الممقوته،و ذکر هذه العباره بعد کلمه(الکبائر)من قبیل ذکر الخاص بعد العام،و فی الحقیقه فإنّ

۱- ۱) -یعتقد غالب المفسّرین أن اَلَّذِینَ یَجْتَنِبُونَ عطف ل لِلَّذِینَ آمَنُوا فی الآیه السابقه،بالرغم من احتمال البعض أنّها مبتدأ خبره محذوف(و فی التقدیر و الذین یجتنبون...لهم مثل ذلک من الثواب)إلاّ أن المعنی الأوّل أفضل ظاهرا.
۲- ۲) -نور الثقلین،المجلد الأوّل،ص ۴۷۳.

التأكيد على الذنوب القبيحه للغايه بعد ذكر اجتناب المؤمنين الحقيقيين عن جميع الذنوب الكبائر،للتأكيد على أهميه ذلك.

و على هـذا الأسـاس فـإنّ أوّل علائـم الإيمـان و التوكـل هو الاجتنـاب عن (الكبـائر)،فكيف يمكن للإنسان أن يـدعى الإيمان و التوكل على الخالق،فى حين أنّه مصاب بأنواع الـذنوب و قلبه و كر من أوكار الشـيطان؟! أمّا ثانى صـفه،و التى لها طبيعه تطهيريه أيضا،فهى السيطره على النفس عند الغضب الذى يعتبر من أشدّ حالات الإنسان حيث تقول الآيه: وَ إِذا ما غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ .

فهؤلاء لا يفقدون السيطره على أنفسهم عند الغضب و لا يرتكبون الجرائم عنده،و الأكثر من ذلك غسل قلوبهم و قلوب الآخرين من الحقد بواسطه مياه العفو و الغفران.

و هذه الصفه لا تتوفر إلّا فى ظل الإيمان الحقيقى و التوكل على الحق.

و الطريف فى الأمر أن الآيه لا تقول:إنّهم لا يغضـبون،لأنّ الغضب من طبيعه الإنسان،و هناك ضروره له فى بعض الأحيان خاصه عند ما يكون للّه و فى طريق إحقاق الحق،بل تقول:إنّهم لا يلوثون أنفسهم بالذنب عند الغضب،و بكل بساطه يعفون و يغفرون،و يحب أن يكونوا هكـذا،فكيف يمكن للإنسـان أن ينتظر العفو الإلـهى فى حين أن أعماقه مليئه بالحق و حب الانتقام،و لا يعترف بأى قانون عند الغضب؟و إذا شاهدنا التأكيد على الغضب هنا،فذلك لأنّ هذه الحاله كالنار الحارقه التى تلتهب فى داخل أعماق الإنسـان،و هنـاك الكثيرون الـذين لا يسـتطيعون ضـبط أنفسـهم فى تلـك الحاله،إلّا أن المؤمنين الحقيقيين لا يستسـلمون أبـدا للغضب.

و

ورد فى حديث عن الإمام الباقر عليه السّلام: «من ملك نفسه إذا رغب،و إذا رهب،

و إذا غضب،حرم اللّه جسده على النّار» (۱) .

الآيه الأخرى تشير إلى الصفه الثّالثه و الرّابعه و الخامسه و السادسه،حيث تقول: وَ الَّذِينَ اسْتَجٰابُوا لِرَبِّهِمْ .

وَ أَقٰامُوا الصَّلاٰهَ

.

أَمْرُهُمْ شُورىٰ بَيْنَهُمْ

(۲)

.

وَ مِمّٰا رَزَقْنٰاهُمْ يُنْفِقُونَ

.

فالآيه السابقه كانت تتحدث عن تطهير النفس من الذنوب و التغلب على الغضب،إلاّ أنّ الآيه التى نبحثها تتحدث عن بناء النفس فى المجالات المختلفه، و من أهمها إجابه دعوه الخالق،و التسليم حيال أوامره،حيث أن الخير كلّ الخير تجسد فى هذا الأمر.فهم مستسلمون بكل وجودهم لأوامره،و ليست لهم إراده إزاء إرادته،و يجب أن يكونوا هكذا،لأنّ الاستسلام و الاستجابه أمران حتميان بعد تطهير القلب و الروح من آثار الذنب الذى يعيق السير نحو الحق.

و نظرا لوجود بعض القضايا المهمّه فى التعليمات الإلهيه يجب الإشاره إليها بالخصوص،لذا نرى أن الآيه أشارت إلى بعض المواضيع المهمّه و خاصه(الصلاه) التى هى عمود الدين و حلقه الوصول بين المخلوق و الخالق و مربيه النفوس، و تعتبر معراج المؤمن و تنهى عن الفحشاء و المنكر.

بعد ذلك تشير الآيه إلى أهم قضيه اجتماعيه و هى«الشورى»فبدونها تعتبر جميع الأعمال ناقصه،فالإنسان الواحد مهما كان قويا فى فكره و بعيدا فى نظره، إلاّ أنّه ينظر للقضايا المختلفه من زاويه واحده أو عدّه زوايا،و عندها ستختفى عنه الزوايا و الأبعاد الأخرى،إلاّ أنّه و عند التشاور حول القضايا المختلفه تقوم العقول

۱- ۱) -تفسير على بن إبراهيم-طبقا لنقل نور الثقلين،المجلد الرابع،ص ۵۸۳.

۲- ۲) -يقول بعض المفسّرين أنّه متى ما كانت(شورى)مصدرا و تعنى المشاوره يجب أن تضاف لها كلمه(ذو)و يصبح تقدير الجمله(أمرهم ذو شورى بينهم)...أو للمبالغه و التأكيد،لأن ذكر(المصدر)بدلا من(الصفه)يوصل هذا المعنى عاده،لكن إذا كانت

شوری کما یقول الراغب فی مفرداته بمعنی(الأمر الذی یتشاور فیه)عندها لا حاجه للتقدیر(لاحظ ذلک).

العقول و التجارب المختلفه بمساعده بعضها البعض،عند ذلك ستتوضح الأمور و تقل العيوب النواقص و يقل الانحراف.

لذا

فقد ورد فی حديث عن الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم أنّه قال: «ما من رجل يشاور أحدا إلّا هدى إلى الرشد».

و الملفت للنظر أن العباره وردت هنا على شكل برنامج مستمر للمؤمنين، ليس فی عمل واحد و مؤقت،بل يجب أن يكون التشاور فی جميع الأعمال.

و الطريف فی الأمر أن الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم كان أيضا يتشاور مع أتباعه و أنصاره فی القضايا الاجتماعيه المهمّه و التنفيذيه و الصلح و الحرب و الأمور المهمّه الأخرى بالرغم من تكامل عقله و ارتباطه بمصدر الوحی،و كان يشاور أصحابه أحيانا بالرغم من المشكل التی تحصل من جراء ذلك،لكی يكون أسوه و قدوه للناس، لأن بركات الاستشاره أكثر بكثير من احتمالات ضررها.

و هناك تفصيلات فی نهايه الآيه(١۵٩)من سوره آل عمران بخصوص (الاستشاره)و(شروط الشورى)و(أوصاف الذين يجب استشارتهم) و(مسئوليه المستشار)حيث لا نرى ضروره إلى إعاده ذلك،إلّا أنّه يجب أن نضيف بعض الملاحظات الأخرى:

أ-الشورى تختص بالأعمال التنفيذيه و معرفه الموضوع و ليست لمعرفه الأحكام،لأنّها يجب أن تؤخذ من مصدر الوحی و من الكتاب و السنه،و عباره (أمرهم)تشير إلى هذا المعنى أيضا،لأن الأحكام ليست من شأن الناس،بل هی من أمر الخالق.

و لذا فلا أساس لما يقوله بعض المفسّرين كالآلوسی من أن الشورى تشمل الأحكام أيضا،حيث لا يوجد نص خاص بذلك،خاصه و أنّنا نعتقد بعدم وجود أی أمر فی الإسلام ليس له نص عام أو خاص صادر بشأنّه،و إلّا فما فائده اَلْيَوْمَ

أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ

(۱)

[يجب قراءه تفصيلات عن هذا المعنى فى كتب أصول الفقه بخصوص بطلان الاجتهاد بمعنى التقنين فى الإسلام]

.

ب-قال بعض المفسّرين إن شأن نزول عباره: أَمْرُهُمْ شُورىٰ بَيْنَهُمْ خاص بالأنصار بخصوص الأنصار،إما لأن أعمالهم قبل الإسلام كانت وفقا للشورى،أو هى إشاره إلى تلك المجموعه من الأنصار الذين آمنوا قبل هجره النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم و بايعوه فى(العقبه)،و دعوه إلى المدينه(لأن هذه السوره مكيه،و الآيات أعلاه نزلت فى مكّه كما يظهر أيضا).

و على أيه حال،فإن الآيه لا تختص بسبب نزولها،بل توضح برنامجا عاما و جماعيا.

و ننهى هذا الكلام بحديث

عن أمير المؤمنين الإمام على عليه السّلام حيث يقول:

«لا ظهير كالمشاوره،و الاستشاره عين الهدايه» (۲) .

و من الضرورى الإشاره إلى أن آخر صفه وردت فى هذه الآيه لا تشير إلى الإنفاق المالى فحسب،و إنّما إنفاق كلّ ما أعطاه الخالق من الرزق كالمال و العقل و الذكاء و التجربه،و التأثير الاجتماعى،و الخلاصه:الإنفاق من كلّ شىء.

و تقول الآيه بخصوص سابع صفه للمؤمنين الحقيقيين: وَ الَّذِينَ إِذٰا أَصٰابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ أىّ أنّهم إذا تعرضوا للظلم لا يستسلمون له،بل يطلبون النصر من الآخرين.

و واضح أنّ الآخرين مكلفون بالانتصار ضد الظلم،لأن طلب النصر دون النصره يعتبر لغو و لا فائده فيه،و فى الحقيقه فإن المظلوم مكلف بمقاومه الظالم و طلب النصره،و أيضا فإن المؤمنين مكلفون بإجابته،كما ورد فى الآيه(۷۲)من سوره الأنفال حيث نقرأ: وَ إِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ .

۱- ۱) -المائده،الآيه ۳.

۲- ۲) -وسائل الشيعه،المجلد الثامن،ص ۴۲۵(باب ۲۱ من أبواب الأحكام العشره).

هـذا البرنامـج الإيجـابى البناء يحـذر الظالمين من مغبه ظلم المؤمنين،حيث أنّهم لا يسـكتون على ذلك و يقفون بوجوههم.و هو أيضا يؤمّل المظلومين بأن الآخرين سوف ينصرونكم عند استغاثتكم.

«ينتصرون»من كلمه«انتصار»و تعنى طلب النصر،إلاّ أن البعض فسرها بمعنى«التناصر»و النتيجه واحده للتوضيح الذى ذكرناه.

على أيه حال،فأى مظلوم إذا لم يسـتطع أن يقف بوجه الظلم بمفرده،فعليه ألا يسـكت،بل يسـتفيد من طاقات الآخرين و النهوض بوجه الظلم،و مسئوليه جميع المسلمين الاستجابه لاستغاثته و ندائه.

و لكن بم أنّ التناصـر يجب أن لا يخرج عن حد العدل و ينتهى إلى الانتقام و الحقد و التجاوز عن الحد،لذا فإن الآيه التى بعدها اشترطت ذلك بالقول:

وَ جَزٰاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهٰا

.

يجب أن لا تتجاوزوا عن الحد بسبب أن أصدقاءكم هم الذين ظلموا فتنقلبوا إلى أشخاص ظالمين،و خاصه الإفراط فى الرد على الظلم فى مجتمعات كالمجتمع العربى فى بدايه الإسلام،لذا يجب التمييز بين نصره المظلوم و الانتقام.

و عمل الظالم يجب أن يسـمى ب(سـيئه)إلاّ أن جزاءه و عقابه ليس(سـيئه)و إذا وجدنا أنّ الآيه عبّرت عن ذلك بالسـيئه فبسـبب التقابل بالألفاظ و اسـتخدام القرائن،أو أنّ الظالم يعتبرها(سـيئه)لأنّه يعاقب،أو يحتمل أن يكون اسـتخدام لفظه(السيئه)لأنّ العقاب أليم و مؤذ،و الألم و الأذى بحدّ ذاته(سىء)بالرغم من أن قصاص الظالم و معاقبته يعتبر عملا حسنا بحد ذاته.

و هذا يشبه العباره الوارده فى الآيه(١٩۴)من سوره البقره: فَمَنِ اعْتَدىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدىٰ عَلَيْكُمْ وَ اتَّقُوا اللّٰهَ .

على أيه حـاله،فـإنّ هـذه العباره يمكن أن تكون مقـدمه للعفو الوارد فى الجمله التى بعـدها،و كأنّما تريـد الآيه القول:إنّ العقاب مهما كان فهو نوع من الأذى،و إذا

ندم الشخص عندها يستحق العفو.

لذا ففى مثل هذه الموارد ينبغى عليكم العفو،لأن فَمَنْ عَفا وَ أَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللّهِ .

صحيح أنّه فقد حقه و لم يحصل على شىء فى الظاهر،إلاّ أنّه بسبب عفوه، العفو الذى يعتبر أساس انسجام المجتمع و التطهّر من الأحقاد و زياده أواصر الحب و زوال ظاهره الانتقام و الاستقرار الاجتماعى،فقد تعهد الخالق بأن يعطيه من فضله الواسع،و يا لها من عباره لطيفه(على اللّه)حيث أن الخالق يعتبر نفسه مدينا لمثل هؤلاء الأشخاص و يقول بأن أجرهم علىّ.

و تقول الآيه فى نهايتها: إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظّالِمِينَ .

و قد تكون هذه الجمله إشاره إلى بعض الملاحظات:

فأوّلا:قد يكون العفو بسبب أن الإنسان لا يستطيع أحيانا السيطره على نفسه بدقه عند العقاب و القصاص،و قد يتجاوز الحد و يكون فى عداد الظالمين.

و ثانيا:إن هذا العفو ليس بمعنى الدفاع عن الظالمين،لأن اللّه لا يحب الظالمين أبدا،بل إن الهدف هو هدايه الضالين و تثبيت الأواصر الاجتماعيه.

و ثالثا:إنّ الذين يستحقون العفو هم الذين يكفون عن الظلم و يندمون على ما ارتكبوه فى الماضى،و يقومون بإصلاح أنفسهم،و ليس للظالمين الذين يزدادون جرأه بواسطه هذا العفو.

و بعباره أوضح،فإنّ كلاّ من العفو و العقاب له موقعه الخاص،فالعفو يكون عند ما يستطيع الإنسان الانتقام،و هذا يسمى العفو البناء،لأنّه يمنح المظلوم المنتصر قابليه السيطره على النفس و صفاء الروح،و أيضا يفرض على الظالم المغلوب إصلاح نفسه.

و العقاب و الانتقام و الردّ بالمثل يكون عند ما يبقى الظالم مستمرا فى غيه و ضلاله،و المظلوم لم يثبّت أركان سيطرته بعد،فالعفو هنا يكون من موقع الضعف

فیجب الردّ بالمثل.

و

قد ورد فی حدیث عن الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و اله و سلّم أنّه قال: «إذا کان یوم القیامه نادی مناد:من کان أجره علی اللّه فلیدخل الجنّه،فیقال:من ذا الذی أجره علی اللّه؟ فیقال:العافون عن الناس،فیدخلون الجنّه بغیر حساب» (۱) .

و هذا الحدیث-فی الحقیقه-هو النتیجه المستوحاه من آخر آیه فی هذا البحث،و الإسلام الأصیل هو هذا.

۱- ۱) -مجمع البیان-نهایه الآیه التی نبحثها.

الآيات [سوره الشورى (۴۲): الآيات ۴۱ الى ۴۳]

اشاره

وَ لَمَنِ اِنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولٰئِكَ مٰا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (۴۱) إِنَّمَا اَلسَّبِيلُ عَلَى اَلَّذِينَ يَظْلِمُونَ اَلنّٰاسَ وَ يَبْغُونَ فِي اَلْأَرْضِ بِغَيْرِ اَلْحَقِّ أُولٰئِكَ لَهُمْ عَذٰابٌ أَلِيمٌ (۴۲) وَ لَمَنْ صَبَرَ وَ غَفَرَ إِنَّ ذٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ اَلْأُمُورِ (۴۳)

التّفسير

اشاره

الظلم و الإنتصار:

تعتبر هذه الآيات-فى الحقيقه-تأكيدا و توضيحا و تكميلا للآيات السابقه بشأن الإنتصار و معاقبه الظالم و العفو فى المكان المناسب،و الهدف من ذلک أن معاقبه الظالم و الانتقام منه من حق المظلوم،و لا يحق لأحد منعه عن حقه،و فى نفس الوقت فإذا صادف أن سيطر المظلوم على الظالم و انتصر عليه،و عند ذلک صبر و لم ينتقم فإن ذلک يعتبر فضيله كبرى.

فأوّلا تقول الآيه: وَ لَمَنِ اِنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولٰئِكَ مٰا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (۱) فلا يحق لأحد أن يمنع هذا العمل،و لا يلوم ذلک الشخص أو يوبخه أو يعاقبه،

ص: ۵۵۷

۱- ۱) -عباره(ظلمه)هى من باب إضافه المصدر إلى المفعول.

و لا يتوانى فى نصر مثل هذا المظلوم،لأن الإنتصار و طلب العون من الحقوق الطبيعيه لأى مظلوم،و نصر المظلومين مسئوليه كلّ إنسان حر و متيقظ الضمير.

إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النّٰاسَ وَ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ

.

و إضافه إلى عقابهم الدنيوى أُولٰئِكَ لَهُمْ عَذٰابٌ أَلِيمٌ ينتظرهم فى الآخره.

يقول بعض المفسّرين حول الاختلاف بين جمله يَظْلِمُونَ النّٰاسَ و جمله يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أن الجمله الأولى إشاره إلى موضوع(الظلم) و الثانيه إلى(التكبر) (۱) .

البعض الآخر اعتبر الأولى إشاره إلى(الظلم)و الثانيه إشاره إلى(الوقوف بوجه الحكومه الإسلاميه).

«بغى»تعنى فى الأصل الجد و المثابره و المحاوله للحصول على شىء ما، و لكن كثيرا ما تطلق على المحاولات لغصب حقوق الآخرين،و التجاوز عن حدود و حقوق الخالق،لذا فإن للظلم مفهوما خاصا و للبغى مفهوما عاما يشمل أى تعد أو تجاوز للحقوق الإلهيه.

عباره(بغير الحق)تأكيد لهذا المعنى،و على هذا الأساس فإنّ الجمله الثانيه من باب ذكر العام بعد ذكر الخاص.

أمّا آخر آيه فتشير مرّه اخرى إلى الصبر و العفو،لكى تؤكّد أن الانتقام و العقاب و القصاص من الظالم لا يمنع المظلوم من العفو،حيث تقول: وَ لَمَنْ صَبَرَ وَ غَفَرَ إِنَّ ذٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (۲) .

«العزم»فى الأصل يعنى(التصميم لإنجاز عمل معين)،و يطلق على الإراده القويه،و قد تكون عباره(عزم الأمور)إشاره إلى أن هذا العمل من الأعمال التى أمر اللّه بها و لا يمكن أن تنسخ،أو أنّه من الأعمال التى يجب أن يشد الإنسان

۱- ۱) -تفسير(الكشاف)،(روح المعانى)و(روح البيان)نهايه الآيات التى نبحثها.

۲- ۲) -اللام فى(لمن صبر)هى لام القسم و فى(لمن عزم الأمور)للتأكيد،و الاثنان يوضحان أهميه هذا الأمر الإلهى أى(العفو).

العزم لها،و أيا كان من المعنيين فهو يدل على أهميه هذا العمل.

و الملفت للنظر ذكر(الصبر)قبل(الغفران)،لأنّه مع عدم وجود الصبر لا يمكن أن يحصل العفو و الغفران،حيث يفقد الإنسان السيطره على نفسه و يحاول الانتقام مهما كان.

و مره اخرى نذكّر بهذه الحقيقه،و هى أن العفو و الغفران مطلوبان فى حال القوه و الاقتدار،و أن يستفيد الطرف المقابل من ذلك بأفضل شكل أيضا،و قد تكون عباره«من عزم الأمور»لتأكيد هذا المعنى أيضا،لأنّ التصميم بخصوص شىء معين يحدث عند ما يكون الإنسان قادر على إنجاز ذلك الشىء،على أيه حال فإن العفو الذى يكون مفروضا من قبل الظالم،أو يشجعه فى عمله و يجرئه على ذلك،غير مطلوب.

بعض الرّوايات فسّرت الآيات أعلاه بثوره الإمام المهدى(عج)و انتقامه و انتصاره على الظالمين و المفسدين فى الأرض.و كما قلنا عدّه مرات سابقا فإن مثل هذه التفاسير من قبيل بيان المصداق الواضح و لا تمنع من عموميه مفهوم الآيه و شموليته (۱) .

۱- ۱) -تفسير نور الثقلين،المجلد الرابع،ص ۵۸۵.

الآیات [سوره الشوری (۴۲): الآیات ۴۴ الی ۴۶]

اشاره

وَ مَنْ یُضْلِلِ اَللّٰهُ فَمٰا لَهُ مِنْ وَلِیٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَ تَرَی اَلظّٰالِمِینَ لَمّٰا رَأَوُا اَلْعَذٰابَ یَقُولُونَ هَلْ إِلیٰ مَرَدٍّ مِنْ سَبِیلٍ (۴۴) وَ تَرٰاهُمْ یُعْرَضُونَ عَلَیْهٰا خٰاشِعِینَ مِنَ اَلذُّلِّ یَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِیٍّ وَ قٰالَ اَلَّذِینَ آمَنُوا إِنَّ اَلْخٰاسِرِینَ اَلَّذِینَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ أَهْلِیهِمْ یَوْمَ اَلْقِیٰامَهِ أَلاٰ إِنَّ اَلظّٰالِمِینَ فِی عَذٰابٍ مُقِیمٍ (۴۵) وَ مٰا کٰانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِیٰاءَ یَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ وَ مَنْ یُضْلِلِ اَللّٰهُ فَمٰا لَهُ مِنْ سَبِیلٍ (۴۶)

التّفسیر

اشاره

هل من سبیل للرجعه؟

الآیات السابقه کانت تتحدث عن الظالمین،أمّا الآیات التی نبحثها فتشیر إلی عاقبه هذه المجموعه و جوانب من عقابها.

فهی تعتبرهم من الضالین الذین لا یملکون أی ولی،فتقول: وَ مَنْ یُضْلِلِ اللّٰهُ فَمٰا لَهُ مِنْ وَلِیٍّ مِنْ بَعْدِهِ .

ص :۵۶۰

الملمّون بتعابير القرآن بخصوص الهدايه و الضلاله،يعرفون بوضوح أنّه لا الهدايه و لا الضلاله مفروضه و جبريه،إنّما هما نتيجتان مباشرتان لأعمال الناس.

فأحيانـا يقوم الإنسان بعمل معين و بسـببه يسـلب الخالق منه التوفيق و يطمس على قلبه و يمنع عنه نور الهـدايه و يتركه سابحا فى الظلمات.

و هذا هو عين الإختيار و الحريه،فلو أن شخصا أصر على شرب الخمر و أصيب بأنواع الأمراض،فإنه هو الذى جلب هذا الوضع و هذه الأمراض إلى نفسه،فالخالق مسبب الأسباب و يعطى التأثيرات المختلفه للأشياء،و لهذا السبب تربط النتائج به أحيانا (١) .

على أيه حال،فإن هـذا أحـد أكثر العقوبات ألما بالنسبه للظالمين،ثمّ تضـيف الآيه: وَ تَرَى الظّالِمِينَ لَمّا رَأَوُا الْعَذابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ .

فقـد تحـدث القرآن المجيد عده مرات عن طلب الكافرين و الظالمين العوده، فأحيانا عند الموت مثل الآيه(٩٩)و(١٠٠)من سوره المؤمنون: حَتّى إِذا جاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّى أَعْمَلُ صالِحاً فِيما تَرَكْتُ .

و أحيانا عنـد القيامه عند ما يقتربون من الجحيم،كما تقول الآيه(٢٧)من سوره الأنعـام: وَ لَوْ تَرى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النّارِ فَقالُوا يا لَيْتَنا نُرَدُّ وَ لا نُكَذِّبَ بِآياتِ رَبِّنا وَ نَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ .

و لكن مهمـا كـانت هـذه الطلبـات فإنهـا سـتواجه بالرفض،لأن العوده غير ممكنه أبـدا،و هـذه سـنه إلهيه لا تقبل التغيير،فكما أن الإنسان لا يمكنه الرجوع من الكهوله إلى الشباب،أو من الشـباب إلى الطفوله،أو من الطفوله إلى عالم الأجنه، كـذلك يسـتحيل الرجوع إلى الوراء و العوده إلى الدنيا من عالم البرزخ أو الآخره.

الآيه الأخرى تذكر ثالث عقاب لهذه المجموعه حيث تقول:

ص :٥٦١

١- ١) -هناك شرح مفصل فى هذا الخصوص فى نهايه الآيه(٣٦)من سوره الزمر،حيث أوضحنا جميع جوانب هذا الموضوع.

وَ تَراهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْها خاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ

(۱)

.

فالقلق و الخوف الشديد يسيطران على وجودهم،و الذله و الاستسلام يطغيان عليهم،و انتهى كلّ شيء من التكبير و محاربه و ظلم و إيذاء المظلومين، و ينظرون من طرف خفى إلى النّار.

هذه صوره لحاله شخص يخشى من شيء أشد خشيه و لا يريد أن ينظر إليه بعينين مفتوحتين،و فى نفس الوقت لا يستطيع أن يتغافل عنه،لذا فهو مجبور على النظر إليه،لكن بطرف خفى.

بعض المفسّرين قالوا:إنّ جمله(طرف خفى)تعنى هنا النظر بعين نصف مفتوحه،لأنّهم لا يستطيعون فتح العين كامله من شده الخوف و الهول العظيم،أو أنّهم من شده الانهيار و الإعياء لا يستطيعون فتح العين بشكل كامل.

فعند ما تكون حاله الإنسان هكذا قبل أن يدخل النّار...فما ذا سيجرى عليه عند ما يطؤها و يهوى فى أعماقها؟! أمّا آخر عقاب ذكر هنا،فهو سماع اللوم و التوبيخ الأليم من المؤمنين،كما جاء فى آخر الآيه: وَ قالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ أَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَهِ .

فهل هناك خساره أعظم من أن يخسر الإنسان نفسه،ثمّ زوجه،و أبناءه و أقرباءه؟و نصيبه نار الفراق و هو فى داخل العذاب الإلهى؟! ثم تضيف:يا أهل المحشر: أَلا إِنَّ الظّالِمِينَ فِي عَذابٍ مُقِيمٍ .

إنّه العذاب الذى ليس هناك أمل بانتهائه،و لا يتحدد بزمان معين.إنّه العذاب الذى يحرق أعماق الروح و ظاهر الجسد على السواء.

و ليس من لمستبعد أن يكون القائل لهذا الكلام هم المؤمنون الحقيقيون،و هم

۱- ۱) -«طرف»«بتسكين الراء»مصدر و تعنى دوران العين،و طرفه العين تعنى حركه واحده للعين،و الضمير فى(عليها)يعود إلى العذاب،صحيح أن العذاب مذكر لكنّه يعنى هنا النّار و جهنم و ضمير المؤنث يعود إليها.

الأنبياء و الأولياء و أتباعهم الخاصين،حيث أنّهم مطهرون من الذنب،و المظلومين الذين أوذوا كثيرا من قبل هؤلاء الظالمين،و من حقهم التحدث بهذا الكلام فى ذلك اليوم(و قد أشارت روايات أهل البيت عليهم السلام إلى هذا المعنى) (۱) .

و من الضـرورى الإشاره إلى هـذه الملاحظه،و هى أن(العـذاب الخالد)لهؤلاء الظالمين،يدل على أن المقصود هم الكافرون،كما ورد فى بعض الآيات القرآنيه:

وَ الْكافِرُونَ هُمُ الظّالِمُونَ .

الآيه التى بعدها تشهد على هذه الحقيقه،حيث تقول: وَ ما كانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِياءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللّهِ .

فهؤلاـء قطعوا أواصـر ارتبـاطهم بالعباد المخلصـين و الأنبياء و الأولياء،لـذلك لا يملكون ناصـرا أو معينا فى ذلك اليوم،و القوى الماديه سينتهى مفعولها فى ذلك اليوم أيضا،و لهذا السبب سيواجهون العذاب الإلهى بمفردهم.

و لتأكيد هذا المعنى تقول الآيه فى نهايتها: وَ مَنْ يُضْلِلِ اللّهُ فَما لَهُ مِنْ سَبِيلٍ .

و فى الآيات السابقه قرأنا: وَ مَنْ يُضْلِلِ اللّهُ فَما لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ .

فهنـاک تنفى الولى،و هنـا تنفى السبيـل،حيث أنّه و لأجـل الوصول إلى الهـدف، يجب أن يكون هنـاک طريق،و يجب أن يتوفّر الدليل،إلّا أن هؤلاء الضالين محرومون من هذا و ذاک.

۱- ۱) -نور الثقلين،المجلد الرابع،ص ۵۸۶.

الآيات [سوره الشورى (۴۲): الآيات ۴۷ الى ۵۰]

اشاره

اِسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لاٰ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اَللّٰهِ مٰا لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَ مٰا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ (۴۷) فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمٰا أَرْسَلْنٰاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ اَلْبَلاٰغُ وَ إِنّٰا إِذٰا أَذَقْنَا اَلْإِنْسٰانَ مِنّٰا رَحْمَةً فَرِحَ بِهٰا وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمٰا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ اَلْإِنْسٰانَ كَفُورٌ (۴۸) لِلّٰهِ مُلْكُ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ يَخْلُقُ مٰا يَشٰاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشٰاءُ إِنٰاثاً وَ يَهَبُ لِمَنْ يَشٰاءُ اَلذُّكُورَ (۴۹) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرٰاناً وَ إِنٰاثاً وَ يَجْعَلُ مَنْ يَشٰاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (۵۰)

التّفسير

اشاره

الأولاد...هبه الرحمن:

بما أنّ الآيات السابقه ذكرت جانبا من العقاب الأليم الموحش للكافرين و الظالمين،فإنّ الآيات أعلاه تحذر جميع الناس من هذا المصير المشؤوم، و تدعوهم إلى الاستجابه لدعوه الخالق و العوده إلى طريق الحق.

ص: ۵۶۴

فأوّل آيه تقول: اِسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لاٰ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللّٰهِ (۱) .

و إذا كنتم تتصورون وجود ملجأ آخر سوى لطفه،و أحـدا يحميكم غير رحمته،فإنّكم على خطا،لأن: مٰا لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَ مٰا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ .

عباره يَوْمٌ لاٰ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللّٰهِ تشير إلى يوم القيامه،و ليس إلى يوم الموت.

كما أن عباره(من اللّه)تشير إلى أن أحدا لا يستطيع أن يتخذ قرارا بعدم العوده قبال أمر الخالق جلّ و علا.

و على أيه حال،فجميع الطرق التى يعتقـد أنّها تنقذ الشـخص من العذاب الإلهى تكونن مغلقه فى ذلك اليوم،و أحدها هو العوده إلى عالم الدنيا و التكفير عن الذنوب و الخطايا.

أمّا الآخر فهو وجود ملجإ يأمن الإنسان عند اللجوء إليه.

و أخيرا وجود من يقوم بالدفاع عن الإنسان.

فكل جمله من الجمل الثلاث-للآيه أعلاه-تنفى واحدا من هذه الطرق.

و قد فسّر بعضـهم جمله مٰا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ بمعنى أنكم لا تستطيعون أن تنكروا ذنوبكم هناك،لأن الأدله و الشهود كثيرون بحيث لا مجال للإنكار،إلاّ أن المعنى الأوّل أفضل كما يبدو.

الآيه التى بعدها تخاطب الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم و تواسيه قائله: فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمٰا أَرْسَلْنٰاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً فلا تحزن عليهم لأنّك لست مسئولا عن حفظهم من الانحراف.

إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاٰغُ

سواء قبلوا بذلك أم لم يقبلوا.

يجب عليك أن تقوم بإبلاغ الرساله الإلهيه بأفضل وجه،و تتم الحجّه عليهم، أمّا القلوب المهيأه فسوف تقبل بـذلك بالرغم من أن كثيرا من الجاهلين سوف

۱- ۱) -قـد تكون عباره(من اللّه)فى الجمله أعلاه بمعنى(من قبل اللّه)يعنى لا توجـد عوده من قبل الخالق،و قد تكون بمعنى(فى مقابل اللّه)يعنى لا يوجد من يستطيع أن يعيدكم إلى هذه الدنيا ضد إراده الخالق.

یعرضون عنها،و لکنک لست مسئولا عنهم.

و قد ورد ما یشبه هذا المعنی فی بدایه هذه السوره فی قوله تعالی: وَ مٰا أَنْتَ عَلَیْهِمْ بِوَکِیلٍ (۱) .

ثمّ ترسم صوره لحال هذه الجماعه غیر المؤمنه و المعرضه عن الحق فتقول:

وَ إِنّٰا إِذٰا أَذَقْنَا الْإِنْسٰانَ مِنّٰا رَحْمَهً فَرِحَ بِهٰا

و یغفل عن ذکر الخالق: وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَیِّئَهٌ بِمٰا قَدَّمَتْ أَیْدِیهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسٰانَ کَفُورٌ .

فلا النعم الإلهیه و شکر المنعم توقظ هذا الإنسان و تجرّه نحو الشکر و المعرفه و الطاعه،و لا العقوبات التی تصیبه بسبب الذنوب توقظه من نوم الغفله،و لا تؤثر فیه دعوه الرّسول صلّی اللّه علیه و اله و سلّم.

فعوامل الهدایه من حیث«التشریع»هی دعوه رسل الخالق،و من حیث «التکوین»قد تکون النعم و قد تکون المصائب،إلاّ أن هؤلاء الجهله ذوی القلوب المیته لا تؤثر فیهم أیّ من هذه العوامل،و هذا بسببهم أنفسهم و لیس بسببک،لأنّک قمت بمسؤولیتک فی الإبلاغ.

و قد تکون عباره«إذا أذقنا»فی الآیه أعلاه(و هی هنا بخصوص رحمه الخالق،و فی آیات قرآنیه اخری بخصوص العذاب الإلهی)إشاره إلی أن النعم و المصائب فی هذه الدنیا تعتبر لا شیء بالنسبه إلی نعم و مصائب الآخره.أو قد تکون بمعنی أن هؤلاء الأشخاص یصابون بالغرور و الطغیان بمجرّد قلیل من النعمه،و الیأس و الکفر بقلیل من المصائب.

و من الضروری الإشاره إلی هذه الملاحظه،و هی أن الخالق یوکل النعم إلی نفسه،لأن رحمته تقتضی ذلک،بینما یوکل المصائب و الابتلاءات إلیهم،لأنّها نتیجه أعمالهم.

و استخدام کلمه(الإنسان)فی مثل هذه الآیات تشیر إلی طبیعه(الإنسان غیر

۱- ۱) -الشوری،الآیه ۶.

المهذّب)حيث أنّه ذو تفكير قصير و نفسيه ضعيفه، و تكرار ذلك-فى الآيه أعلاه- يؤكّد على هذا المعنى.

ثمّ لبيان حقيقيه أن أى نعمه و رحمه فى هذا العالم مصدرها الخالق،و لا يملك الأفراد شيئا من عندهم،أشارت الآيه إلى قضيه عامه و مصداق واضح لهذه الحقيقه،حيث تقول: لِلّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ يَخْلُقُ ما يَشاءُ .

و لهذا السبب فإنّ الكل يأكل من مائده نعمه،و يحتاج إلى لطفه و رحمته، فليس منطقيا الغرور عند النعمه،و لا اليأس عن المصيبه.

و«نموذج»واضح لهذه الحقيقه و أن كلّ ما موجود هو منه،و الأفراد لا يملكون شيئا من عندهم هو أنّه: يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ إِناثاً وَ يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ الذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْراناً وَ إِناثاً وَ يَجْعَلُ مَنْ يَشاءُ عَقِيماً .

و بهذا الترتيب فإن الناس يقسّمون إلى أربع مجاميع:من عنده الأولاد الذكور و يريد البنات،و من عنده البنات و يريد الذكور،و من عنده الذكور و الإناث، و المجموعه التى تفتقد الأبناء و يأملون و يرغبون فيهم.

و العجيب أن أى شخص لا يستطيع الانتخاب فى هذا المجال سواء فى الماضى أو فى الوقت الحاضر،بالرغم من تقدم و تطور العلوم،و رغم المحاولات العديده فإن أحدا لم يستطع أن يهب الأبناء للعقيم الحقيقى، أو يعين نوع المولود وفقا لرغبه الإنسان بالرغم من دور بعض الأطعمه أو الأدويه فى زياده احتمال ولاده الذكر أو الأنثى،إلّا أن هذا يبقى مجرّد احتمال و لا توجد أيه نتيجه حتميه لهذا الأمر.

و هذا نموذج واضح لعجز الإنسان،و دليل على المالكيه و الحاكميه و الخالقيه للبارئ جلّ و علا،و هل هناك مثال أوضح من هذا؟ و الطريف فى الأمر أن هذه الآيات قدّمت الإناث على الذكور،لكى توضح

الأهميه التى يعطيها الإسلام لمنزله المرأه،و من جانب ثان تقول للذين لهم تصورات خاطئه عن ولاده البنت أو الأنثى-و يكرهونها-أن الخالق يعطى الشىء الذى يريده هو و ليس ما تريدونه أنتم،و هذا دليل على أنّه هو الذى ينتخب.

إن استخدام عباره(يهب)تعتبر دليلا واضحا على أن الإناث و الذكور من هدايا الخالق و هباته،و ليس صحيحا للمسلم الحقيقى التفريق بين الإثنين.

كما أن استخدام عباره(يزوجهم)لا تعنى التزويج هنا،بل تعنى جمع الهبتين (الإناث و الذكور)لبعض الناس و بعباره اخرى فإن مصطلح(التزويج)يأتى أحيانا بمعنى المجمع بين الأشياء المختلفه أو الأنواع المتعدده،لأن(زوج)تعنى فى الأصل شيئين أو شخصين متقارنين.

و اعتبر بعضهم هذه الآيه بمعنى ولاده الذكور و الإناث على الترتيب، و البعض الآخر اعتبرها بمعنى ولاده التوائم،يعنى الذكر و الأنثى.

و لكن العباره أعلاه لا تدل على أى من التفاسير المذكوره.

إضافه إلى ذلك فإنها لا تتناسب مع ظاهر الآيه،لأن الآيه تريد الكلام عن مجموعه ثالثه رزقها اللّه البنات و البنين.

و على أيه حال،فإن المشيئه الإلهيه هى التى تتحكم فى كلّ شىء و ليس فى قضيه ولاده الأبناء فحسب،فهو القادر و العليم و الحكيم،حيث يقترن علمه بقدرته،لذا فإنّ الآيه تقول فى نهايتها: إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ .

و من الضرورى أن نشير إلى أن كلمه(عقيم)المأخوذه من كلمه(عقم)-على وزن(بخل)و كذلك على وزن(فهم)-و تعنى فى الأصل الجفاف و التصلب المانع من قبول التأثير،و النساء العقيمات تطلق على اللواتى تكون أرحامهن غير مستعده لتقبل النطفه و نمو الطفل،كما تسمى بعض الرياح بالرياح العقيمه لعدم قدرتها على ربط الغيوم الممطره،و«اليوم العقيم»يطلق على اليوم الذى ليس فيه

سرور و فرح،کما یسمی یوم القیامه بالیوم العقیم بسبب عدم وجود یوم بعد ذلک الیوم یمکن فیه التعویض عن الماضی.

و أخیرا فإن الغذاء(المعقم)یطلق علی الغذاء الذی تم القضاء علی جمیع میکروباته،بحیث لا یمکنها النمو فی ذلک المحیط.

الآیه [سوره الشوری (۴۲): آیه ۵۱]

اشاره

وَ مٰا كٰانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اَللّٰهُ إِلاّٰ وَحْياً أَوْ مِنْ وَرٰاءِ حِجٰابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مٰا يَشٰاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (۵۱)

سبب النّزول

فیما یلی خلاصه لما ذکره بعض المفسّرین من سبب النّزول فی هذه الآیه:

جاء عدد من الیهود إلی الرّسول صلّی اللّه علیه و اله و سلّم و قالوا له:لماذا لا تتکلم مع الخالق؟و لماذا لا تنظر إلیه؟فلو کنت نبیّا حقّا فافعل مثل موسی حیث نظر إلی الخالق و تحدث معه،و سوف لا نؤمن بک أبدا حتی تفعل ما نطلبه منک،عندها أجابهم النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم:

إنّ موسی لم یر الخالق أبدا،هنا نزلت الآیه أعلاه(حیث وضحت کیفیه الارتباط بین الأنبیاء و الخالق) (۱) .

التّفسیر

اشاره

طرق ارتباط الأنبیاء بالخالق:

هذه السوره،کما قلنا فی بدایتها،تهتم بشکل خاص بقضیه الوحی و النبوّه،

۱- ۱) -تفسیر القرطبی،المجلد الثامن،ص ۵۸۷۳.

فهی تبدأ بالوحی و تنتهی به،لأن الآیات الأخیره تتحدث عن هذا الموضوع(أی الوحی).

و بما أن الآیات السابقه کانت تتحدث عن النعم الإلهیه،لذا فإنّ هذه الآیات تتحدث عن أهم نعمه إلهیه و أکثرها فائده لعالم البشریه،ألا و هی قضیه الوحی و الارتباط بین الأنبیاء و الخالق.

فی البدایه تقول الآیه: وَ مٰا کٰانَ لِبَشَرٍ أَنْ یُکَلِّمَهُ اللّٰهُ إِلاّٰ وَحْیاً لأنّ الخالق منزه عن الجسم و الجسمانیه.

أَوْ مِنْ وَرٰاءِ حِجٰابٍ

کما کان یفعل موسی حیث أنّه کان یتحدث فی جبل الطور،و کان یسمع الجواب عن طریق الأمواج الصوتیه التی کان یحدثها الخالق فی الفضاء،دون أن یری أحدا،لأنّه لا یمکن مشاهده الخالق بالعین المجرّده.

أَوْ یُرْسِلَ رَسُولاً

کما کان یقوم به جبرائیل الأمین و ینزل علی الرّسول صلّی اللّه علیه و اله و سلّم فَیُوحِیَ بِإِذْنِهِ مٰا یَشٰاءُ .

نعم،فلا یوجد طریق آخر سوی هذه الطرق الثلاثه لتحدث الخالق مع عباده ل إِنَّهُ عَلِیٌّ حَکِیمٌ .

فهو أعلی و أجل من أن یری أو یتکلم عن طریق اللسان،و کل أفعاله حکیمه، و یتمّ ارتباطه بالأنبیاء وفق برنامج.

هذه الآیه تعتبر-فی الحقیقه-ردا علی الذین یتصورون-بجهاله- أن الوحی یعنی مشاهده الأنبیاء للخالق و هم یتکلمون معه،حیث أن الآیه تعکس بشکل دقیق و مختصر حقیقه الوحی و الروح.

و من مجمل الآیه نستفید أن الارتباط بین الأنبیاء و الخالق یتمّ عبر ثلاثه طرق هی:

۱-الإیحاء،حیث کان کذلک بالنسبه للعدید من الأنبیاء مثل نوح،حیث

تقول الآيه: فَأَوْحَيْنا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَ وَحْيِنا (۱) .

۲- مِنْ وَراءِ حِجابٍ كما كان الخالق يتكلم مع موسى فى جبل طور، وَ كَلَّمَ اللّهُ مُوسى تَكْلِيماً (۲) .

و قد اعتبر البعض أيضا أن مِنْ وَراءِ حِجابٍ تشمل الرؤيا الصادقه و الحقيقيه.

۳-إرسال الرّسول،كما فى الوحى الى الرّسول الأعظم صلّى اللّه عليه و اله و سلّم،فالآيه تقول:

مَنْ كانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللّهِ

(۳)

.

و لم يقتصر الوحى على هذا الطريق بالنسبه للرسول الأعظم صلّى اللّه عليه و اله و سلّم بل كان يتمّ بطرق اخرى أيضا.

و من الضرورى أن نشير إلى أن الوحى قد يتمّ أحيانا فى اليقظه،كما أشير إلى ذلك أعلاه،و أحيانا فى المنام عن طريق الرؤيا الصادقه،كما جاء بشأن إبراهيم و أمره بذبح ابنه إسماعيل عليهما السّلام[بالرغم من اعتبار بعضهم أن ذلك مصداق ل مِنْ وَراءِ حِجابٍ .

و بالرغم من أن الطرق الثلاثه التى ذكرتها الآيه تعتبر الطرق الرئيسيه للوحى، إلاّ أن بعضا من هذه الطرق لها فروع بحد ذاتها،فالبعض يعتقد أن الملائكه تقوم بإنزال الوحى عبر أربعه طرق:

۱-يقوم الملك بإلقاء الوحى إلى روح النّبى و قلبه دون أن يتجسد أمامه أىّ النفث فى الروع كما نقرأ ذلك

فى حديث عن النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم حيث تقول: «إن روح القدس نفث فى روعى أنّه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتقوا اللّه و اجملوا فى الطلب».

۱- ۱) -المؤمنون،الآيه ۲۷.

۲- ۲) -النساء،الآيه ۱۶۴.

۳- ۳) -البقره،الآيه ۹۷.

۲-يتقمص الملك أحيانا شكل الإنسان و يتحدث مع النّبى(حيث تذكر الأحاديث أن جبرئيل ظهر بصوره دحيه الكلبى) (۱) .

۳-و أحيانا يكون على شكل رنين الجرس الذى يدوى صوته فى الآذان، و كان هذا أصعب أنواع الوحى بالنسبه للرسول حيث كان يتصبب عرقا حتى فى الأيّام البارده،و إذا كان راكبا على دابه فإنّها كانت تقف و تجثو على الأرض.

۴-كما كان يظهر جبرئيل أحيانا بصورته الأصليه التى خلقه اللّه عليها،و هذا ما حدث مرتين فقط طوال حياه رسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم[كما سيأتى تفصيل ذلك فى سوره النجم-الآيه ۱۲]

(۲) .

بحثان

اشاره

الأوّل:الوحى فى اللغه و القرآن و السنه

يرى الراغب فى مفرداته إن أصل الوحى يعنى الإشاره السريعه سواء بالكلام الخافت،أو الصوت الخالى من التراكيب الكلاميه،أو الإشاره بالأعضاء (بالعين و اليد و الرأس)أو بالكتابه.

و من خلال ذلك نستفيد أن الوحى يشتمل على السرعه من جانب و الإشاره من جانب آخر،لذا فإن هذه الكلمه تستخدم للارتباط الخاص و السريع للأنبياء مع عالم الغيب،و ذات الخالق المقدسه.

---

۱ - ۱) -«دحيه بن خليفه الكلبى»هو أخو الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم فى الرضاعه،و كان من أجمل الناس فى ذلك الزمان،حيث كان جبرئيل يظهر على صورته عند مجيئه للرسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم[مجمع البحرين-كلمه دحى] ،و كان من أشهر صحابه الرّسول و معروفا بالوجه الحسن،و قد أرسله النّبى الأكرم إلى قيصر الروم(هرقل)حاملا رساله منه فى العام السادس أو السابع للهجره، و بقى حيا إلى أيّام خلافه معاويه.

۲- ۲) -فى ظلال القرآن،المجلد السابع،ص ۳۰۶.

و هنـاک معـان مختلفه(للوحی)فی القرآن المجیـد و فی لسـان الأخبار،فأحیانا تکون بخصوص الأنبیاء،و أحیانا للناس الآخرین،و أحیانا تطلق للارتباط الخاص بین الناس،و أحیانا الارتباط الخاص بین الشیاطین،و أحیانا بخصوص الحیوانات.

و أفضـل کلاـم فی هـذا المجال هو ما ورد عن علی علیه السّـلام فی رده لشـخص سأل عن الوحی،حیث قسـمه الإمام إلی سـبعه أقسام هی:

۱-وحی الرساله و النبوّه:مثل إِنّا أَوْحَیْنا إِلَیْکَ کَما أَوْحَیْنا إِلی نُوحٍ وَ النَّبِیِّینَ مِنْ بَعْدِهِ وَ أَوْحَیْنا إِلی إِبْراهِیمَ وَ إِسْماعِیلَ وَ إِسْحاقَ وَ یَعْقُوبَ وَ الْأَسْباطِ وَ عِیسی وَ أَیُّوبَ وَ یُونُسَ وَ هارُونَ وَ سُلَیْمانَ وَ آتَیْنا داوُدَ زَبُوراً (۱) .

۲-الوحی بمعنی الإلهام:مثل وَ أَوْحی رَبُّکَ إِلَی النَّحْلِ (۲) .

۳-الوحی بمعنی الإشاره:مثل فَخَرَجَ عَلی قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرابِ فَأَوْحی إِلَیْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُکْرَهً وَ عَشِیًّا (۳) .

۴-الوحی بمعنی التقدیر:مثل وَ أَوْحی فِی کُلِّ سَماءٍ أَمْرَها (۴) .

۵-الـوحی بمعنی الأـمر:مثـل وَ إِذْ أَوْحَیْتُ إِلَی الْحَوارِیِّینَ أَنْ آمِنُوا بِی وَ بِرَسُولِی (۵) ۶-الوحی بمعنی الأکاذیب:مثل وَ کَذلِکَ جَعَلْنا لِکُلِّ نَبِیٍّ عَدُوًّا شَیاطِینَ الْإِنْسِ وَ الْجِنِّ یُوحِی بَعْضُهُمْ إِلی بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً (۶) .

۷-الوحی بمعنی الإخبار:مثل

۱- ۱) -النساء،الآیه ۱۶۳.

۲- ۲) -النحل،الآیه ۶۸.

۳- ۳) -مریم،الآیه ۱۱.

۴- ۴) -فصلت،الآیه ۱۲.

۵- ۵) -المائده،الآیه ۱۱۱.

۶- ۶) -الأنعام،الآیه ۱۱۲.

وَ جَعَلْنٰاهُمْ أَئِمَّهً یَهْدُونَ بِأَمْرِنٰا وَ أَوْحَیْنٰا إِلَیْهِمْ فِعْلَ الْخَیْرٰاتِ

(۱)

.

و یمکن أن تکون لبعض هـذه الأقسام السـبعه فروعا اخری تزیـد عند اسـتعمالها من اسـتخدامات الوحی فی الکتاب و السـنه،لذا فإن«التفلیسی»ذهب فی کتابه(وجوه القرآن)الی وجود عشر معانی أو أوجه للوحی،و بعضهم ذکر عددا أکثر من هذا.

و مـن خلاـل هـذه الاسـتخدامات المختلفـه للـوحی و مشـتقاته نسـتنتج أن الـوحی الإـلهی علی نـوعین:(وحی تشـریعی)و(وحی تکوینی).

فـالوحی التشـریعی هو ما کان ینزل علی الأنبیاء،و یمثل العلاقه الخاصه بینهم و بین الخالق،حیث کانوا یسـتلمون الأوامر الإلهیه و الحقائق عن هذا الطریق.

أمّـا الوحی التکوینی فهو فی الحقیقه وجود الغرائز و القابلیـات و الشـروط و القوانین التکوینیه الخـاصه التی أوجـدها الخـالق فی أعماق جمیع الکائنات فی هذا العالم.

الثّانی:حقیقه(الوحی)المجهوله

اشاره

لقد قیل الکثیر حول حقیقه الوحی،و لکن بما أن هذا الارتباط المجهول خارج حدود إدراکاتنا،لذا فإن هذه الکلمات لا تسـتطیع أن تعطی صوره الواضـحه للموضوع،و أحیانـا تؤدی الی الاـنحراف عن جـاده الصواب،و قـد ذکرنـا آنفـا ما یمکن قوله فی هـذا المجـال،و فی الحقیقه فـإن مـا یمکن قوله بشـکل جمیـل و مختصـر،و لم تصل بحوث المفکرین و العلماء لأکثر من ذلک،و فی نفس الوقت لا بدّ هنا من ذکر بعض التفاسیر التی طرحها الفلاسفه القدماء و الجدد حول الوحی:

۱- ۱) -الأنبیاء،الآیه ۷۳. بحار الأنوار-المجلد ۱۸-ص ۲۵۴.

۱–تفسير بعض الفلاسفه القدماء

يرى هؤلاء–وفقا لمقدمات مفصله–أن الوحى هو عباره عن الاتصال الخارق(لنفس الرّسول)مع(العقل الفعّال)المسيطر بظله على عالم(الحس المشترك)و(الخيال).

و توضيح ذلک:

أنّ القدماء كانوا يعتقدون أن الروح الإنسانيه لها ثلاث قوى:قوّه الحس المشترک و بواسطتها يدرک الإنسان صور المحسوسات،و(قوّه الخيال)و بواسطتها يدرک بعض الصور الذهنيه،و(القوه العقليه)التى يدرک بواسطتها الصور الكليه.

و من جانب آخر،فهم يعتقدون بنظريه الأفلاک التسعه لبطليموس،و كانوا يعتقدون بوجود(النفس المجرّده)لها مثل(الروح لأجسادنا)و يضيفون:إن هذه النفوس الفلكيه تستلهم من كائنات مجرّده تسمى(العقول)،و على هذا الأساس فهم يقولون بوجود(تسعه عقول)تختص(بالأفلاک التسعه).

و من جانب ثالث كانوا يعتقدون أن النفوس الإنسانيه و أرواحها يجب أن تستلهم من الكائن المجرد الذى يسمى ب(العقل الفعال)و ذلک لأجل إظهار القابليات و إدراک الحقائق،حيث كان يسمى ب(العقل العاشر)،أمّا سبب تسميته بالفعال فلأنّه أساس حدوث القابليات للعقول الجزئيه.

و من جانب رابع كانوا يعتقدون أنّه مهما قويت الروح الإنسانيه فإنّه سيزداد ارتباطها و اتصالها بالعقل الفعال الذى هو خزانه و مصدر المعلومات،لذا فإنّ الروح القويه و الكامله تستطيع أن تكتسب أوسع المعلومات من(العقل الفعال) بأمر من الخالق،و ذلک فى أقصر مده.

و أيضا فإذا قويت(قوّه الخيال)فانّها تستطيع أن تنقل هذه المفاهيم إلى الحس بشكل أفضل،و عند ما يقوى الحس المشترک الإنسان أن يدرک القضايا

المحسوسه الخارجيه بشكل أفضل أيضا.

و من خلال هذه المقدمات سيتنتجون أن روح النّبى لها ارتباط و اتصال كبير جدا بالعقل الفعال،لأنّها قويه بشكل خارق،و لهذا السبب تستطيع أن تأخذ المعلومات بشكل عام من العقل الفعال فى أكثر الأوقات.

و بما أن القوه الخياليه للنبى قويه جدا أيضا،و فى نفس الوقت تتبع القوه العقليه،لذا فإنها(أى القوه الخياليه)تستطيع أن تعطى صورا محسوسه مناسبه للصور الكليه المأخوذه من العقل الفعال،و،أن ترى نفسها ضمن أطر حسيه فى أفق الذهن،فمثلا لو كانت تلك الحقائق العامه من باب المعانى و الأحكام فسيسمعها من لسان شخص بمنتهى الكمال،و ذلك على شكل ألفاظ موزونه بمنتهى الفصاحه و البلاغه.

و لأن قوته الخياليه مسيطره بشكل كامل على الحس المشترك،لذا فإنّها تستطيع أن تعطى طبيعه حسيه لهذه الصور،و يستطيع النّبى أن يرى ذلك الشخص بعينه و يسمع ألفاظه بإذنه.

نقد و تحليل

هذه النظريه تعتمد على مقدمات يعتبر القسم الأعظم منها مرفوضا فى الوقت الحاضر،فمثلا أفلاك بطليموس التسع و النفوس و العقول المرتبطه بها تعتبر جزءا من الأساطير،لعدم وجود أى دليل على إثباتها،بل و توجد أدله ضدها.

و من جانب آخر فإن هذه الفريضه لا تتلاءم مع الآيات القرآنيه بخصوص الوحى،لأن الآيات القرآنيه تصرّح بأن الوحى نوع من الارتباط مع الخالق الذى قد يكون عن طريق الإلهام أحيانا،و أحيانا اخرى عن طريق الملك أو سماع الأمواج الصوتيه أمّا القول بأنّه وليد القوه الخياليه و الحس المشترك و أمثال ذلك فهو فى غايه الضعف و عدم الانسجام مع الآيات القرآنيه.

و من الإشكالات الأخرى على هذا الكلام هو تصنيفه للنبى فى قائمه الفلاسفه و النوابغ بعقل و روح أقوى،فى حين أنّنا نعلم أن طريق الوحى مغاير تماما لطريق الإدراكات العقليه.

فهذه المجموعه من الفلاسفه أساءت لأساس الوحى و النبوه دون قصد و لأنّهم لم يلمّوا بالحقيقه سلكوا طريق الخيال و الأسطوره.

و هناك تفصيلات أكثر عن هذا الموضوع تأتى ضمن البحوث القادمه.

۲-تفسير بعض الفلاسفه الجدد

هذه المجموعه من الفلاسفه اعتبرت الوحى باختصار نوعا من(الشعور الباطن)و جاء فى(دائره معارف القرن العشرين)حول الوحى ما يلى:

(كان الغربيون إلى القرن السادس عشر كجميع الأمم المتدينه يقولون بالوحى لأن كتبهم مشحونه بأخبار الأنبياء،فلما جاء العلم الجديد بشكوكه و مادياته ذهبت الفلسفه الغربيه إلى أن مسأله الوحى من بقايا الخرافات القديمه و تغالت حتى أنكرت الخالق و الروح معا و عللت ما ورد عن الوحى فى الكتب القديمه بأنّه إمّا اختلاف من المتنبأه أنفسهم لجذب الناس إليهم و تسخيرهم لمشيئتهم،و إمّا إلى هذيان مرض يعترى بعض العصبيين فيخيل إليهم أنّهم يرون أشباحا تكلمهم و هم لا يرون فى الواقع شيئا.رواج هذا التعليل فى العالم الغربى حتى صار مذهب العلم الرسمى،فلما ظهرت آيه الأرواح فى امريكا سنه ۱۸۴۶ و سرت منها إلى أوروبا كلها و أثبت للناس بدليل محسوس وجود عالم روحانى آهل بالعقول الكبيره و الأفكار الثاقبه تغير وجه النظر فى المسائل الروحانيه،و حييت مسأله الوحى بعد أن كانت فى عداد الأضاليل القديمه،و أعاد العلماء النحت فيها على قاعده العلم التجريبى المقرر لا على أسلوب التقليد الدينى و لا من طريق الغرب فى مهامه الخيالات،فتأدوا إلى نتائج و إن كانت غير ما قرره علماء الدين

الإسلامی إلا أنّها خطوه کبیره فی سبیل إثبات أمر عظیم کان قد أحیل إلی عالم الأمور الخرافیه) (۱) .

و الکلام فی هذا المجال کثیر،إلّا أن خلاصته أنّهم اعتبروا الوحی تجلیا للوجدان الخفی و إظهارا لعالم اللاشعور فی الإنسان الذی هو أقوی بکثیر من عالم الشعور فیه و بما أنّ الأنبیاء کانوا رجالا متمیّزین فقد کانوا یتمتعون بوجدان قوی جدّا و ذی ترشحات مهمّه.

نقد و تحلیل

واضح أن ما تقوله هذه المجموعه هو افتراض بحت،حیث لم یذکروا أیّ دلیل علی ذلک،و فی الحقیقه فقد اعتبروا الأنبیاء أفرادا لهم نبوغ فکری و شخصیه عظیمه،دون أن یقبلوا ارتباطهم بمصدر عالم الوجود(الخالق العظیم)و اکتسابهم للعلوم عن طریقه و من خارج کیانهم.

إنّ مصدر خطئهم هو أنّهم أرادوا قیاس الوحی وفقا لمعاییر العلوم التجریبیه، و نفی أی شیء خارج دائرتها،و جمیع الموجودات فی هذا العالم یجب أن تدرک بهذا المعیار،و إلّا فهو غیر موجود.

هذا الأسلوب من التفکیر ترک آثاره السیئه،لیس فی موضوع الوحی فحسب،بل فی العدید من البحوث الفلسفیه و العقائدیه الأخری.لذا فإن هذا التفکیر مرفوض من أساسه،لأنّهم لم یذکروا أیّ دلیل علی تقیید جمیع الکائنات فی العالم بالکائنات المادیه و ما ینتج عنها.

۳-النبوغ الفکری

البعض الآخر تجاوز هذه الأقوال و أعلن بشکل رسمی أن الوحی نتیجه

۱- ۱) -دائره المعارف القرن العشرین ۱۰/ماده(وحی).

للنبوغ الفكری للأنبیاء،و یقول:إنّ الأنبیاء کانوا أفرادا ذوی فطره طاهره و نبوغ خارق،حیث کانوا یدرکون مصالح المجتمع الإنسانی،و بواسطته یضعون له المعارف و القوانین.

و هذا الکلام فی الواقع ینکر بصراحه نبوّه الأنبیاء،و یکذب أقوالهم،و یتهمهم بأنواع الأکاذیب(العیاذ باللّه).

و بعباره أوضح فإنّ أیّا ممّا ذکرناه لا یعتبر تفسیرا للوحی،و إنّما هی افتراضات مطروحه فی حدود الأفکار،و لأنّهم أصروا علی عدم الاعتراف بوجود قضایا اخری خارج إطار معلوماتهم،لذا فإنّهم واجهوا الطریق المسدود.

الکلام الحق فی الوحی:

لا-یمکننا الاحاطه-بلا شک-بحقیقه الوحی و ارتباطاته،لأنّه نوع من الإدراک خارج عن حدود إدراکنا،و هو ارتباط خارج عن حدود ارتباطاتنا المعروفه.فعالم الوحی بالنسبه لنا عالم مجهول و فوق إدراکاتنا،فکیف یستطیع إنسان ترابی أن یرتبط مع مصدر عالم الوجود؟! و کیف یرتبط الخالق الأزلی الأبدی مع مخلوق محدود و ممکن الوجود! و کیف یتیقن النّبی عند نزول الوحی أن هذا الارتباط معه؟ هذه أسئله یصعب الجواب علیها بالنسبه لنا،و لا داعی للإصرار علی فهمها.

أمیا الموضوع الذی یعتبر معقولا بالنسبه لنا و یمکن قبوله فهو وجود-أو إمکانیه وجود-هذا الارتباط المجهول.

فنحن نقول:لا-یوجد أیّ دلیل عقلی ینفی إمکانیه مثل هذا الأمر،بل علی العکس من ذلک حیث نری ارتباطات مجهوله فی عالمنا نعجز عن تفسیرها، و هذه الارتباطات تؤّکد وجود مرئیات و مدرکات اخری خارج حدود حواسنا و ارتباطاتنا.

و لا بأس من ذكر مثال لتوضيح هذا الموضوع...

لنفرض أنّنا كنا فى مدينه كلّ أهلها من العميان(عميان منذ الولاده)و نحن الوحيدون ننظر بعينين،فكل أهل المدينه لهم أربعه حواس(على فرض أن الحواس الظاهريه للإنسان خمسه)و نحن الوحيدون نملك خمسه حواس.عندها سنشاهد أحداثا كثيره فى هذه المدينه،و عند ما نخبر أهل هذه المدينه سيتعجبون جميعهم من هذه الحاسه الخامسه التى تستطيع أن تدرک هذه الحوادث المتعدده، و مهما حاولنا شرح حاسه النظر لهم و فوائدها و آثارها فإنّهم لا يستطيعون فهم ذلک.فمن جانب لا يستطيعون نكران ذلک لإدراكهم آثارها،و من جانب آخر لا يقدرون على درک حقيقه حاسه النظر،لأنّهم غير قادرين على النظر طيله حياتهم و لو للحظه واحده.

و لا نريد القول أن الوحى هو(الحاسه السادسه)،بل هو نوع من الارتباط و الإدراک لعالم الغيب و الذات الإلهيه المقدسه،و لأننا نفقد ذلک لا نستطيع أن ندرک كنهه بالرغم من إيماننا بوجود الوحى لوجود آثاره.

إنّنا نرى رجالا عظماء يدعون الناس الى أمور هى فوق مستوى أفكار البشر،و يدعوهم إلى الدين الإلهى،و عندهم من المعاجز الخارقه ما يفوق طاقه الإنسان،حيث توضح هذه المعاجز ارتباطهم بعالم الغيب،فالآثار واضحه إلّا أن الحقيقه مخفيه.

هل توصلنا-نحن إلى معرفه جميع أسرار هذا العالم،كى ننفى الوحى لصعوبه إدراكه بالنسبه لنا؟! و حتى فى عالم الحيوانات،فهناک ظواهر مجهوله نعجز عن تفسيرها،فهل توضحت لنا الحياه المجهوله لبعض الطيور المهاجره التى قد تقطع ثمانيه عشر ألف كيلومتر من القطب الشمالى و حتى الجنوبى أو العكس؟فكيف تعرف هذه الطيور الطريق بدقه مع أنّها قد تسافر أحيانا فى النهار و أحيانا اخرى فى الليالى

المظلمه،فی حین أنّنا لا نستطیع أحیانا أن نسیر مقدارا یسیرا من طریقها ما لم یکن لدینا أجهزه و وسائل معینه توضح لنا لمسیر؟ و هناک بعض الأسماک التی تعیش فی أعماق البحار و المحیطات،و عند ما ترید أن تضع بیوضها تعود إلی مسقط رأسها الذی یبعد أحیانا آلاف الکیلومترات،فکیف تستطیع هذه الأسماک أن تهتدی إلی مسقط رأسها بهذه السهوله؟! و هناک العدید من هذه الأمثله المجهوله فی حیاتنا تمنعنا انکار و نفی کل شیء،و تذکرنا بوصیه الفیلسوف«ابن سینا»الذی یقول:«کل ما قرع سمعک من الغرائب فضعه فی بقعه الإمکان ما لم یزدک عنه قاطع البرهان.» و الآن لنر ادلّه المادیین فی إنکار الوحی.

منطق منکری الوحی:

یذکر بعض المادیین لدی طرح مسأله الوحی بأن الوحی خلاف العلم! و إذا سألناهم کیف ذلک؟یقولون بلهجه المغروره و الواثق من نفسه:إنّه یکفی لانکار شیء أن العلوم الطبیعیه لم تثبته.و نحن لا نقبل إلاّ المواضیع التی أثبتتها العلوم التجریبیه وفق معاییرها الخاصه.

و إضافه لذلک فنحن لم نواجه فی تحقیقاتنا العلمیه حول جسم الإنسان و روحه،شیئا مجهولا یستطیع أن یربطنا بعالم ما وراء الطبیعه.

کیف یمکننا أن نصدق بأن الأنبیاء،الذین هم بشر مثلنا،لهم إحساس غیر إحساسنا و إدراک فوق إدراکنا؟

الإیراد الدائمی و الرد الدائمی:

مثل هذا التعامل للمادیین مع الوحی لا یرتبط بهذا الخصوص فحسب،

ص:۵۸۲

فهؤلاء لهم مثل هذا التحليل حيال جميع القضايا التى تختص بما وراء الطبيعه، و لأجل التوضيح نقول لهم دائما:لا تنسوا أن حدود العلم هى عالم الماده، و الأجهزه و الوسائل المستخدمه فى البحوث العلميه-كالمختبرات و التلسكوبات و الميكروسكوبات و قاعات التشريح-كلها محدود بحدود هذا العالم،فهذه العلوم و أجهزتها لا تستطيع أن تتحدث أبدا عما هو موجود خارج حدود عالم الماده،لا بالنفى و لا بالإثبات،و الدليل على ذلك واضح،لأن هذه الأجهزه و الوسائل لها قدره محدوده و محيط خاص بها.

بل إنّ أجهزه كلّ واحد من العلوم الطبيعيه لا يستطيع أن يكون فاعلا بالنسبه للعلم الآخر،فمثلا نحن لا نستطيع أن ننكر وجود ميكروب السل إذا لم نشاهده بواسطه التلسكوب العظيم المستخدم فى النجوم،أو ننفى وجود كوكب البلوتون لأنّنا لم نشاهده بواسطه الميكروسكوب أو المجهور.

فالوسائل تتناسب مع نوع العلم دائما،أما الوسائل المستخدمه لمعرفه ما وراء الطبيعه،فهى ليست سوى الاستدلالات العقليه القويه التى تفتح لنا الآفاق نحو ذلك العالم الكبير.

فالذين يخرجون العلم عن محيطه و حدوده ليسوا علماء و لا فلاسفه،إنّما يدعون ذلك،و فى نفس الوقت هم خاطئون و ضالون.

المهم إنّنا نرى أشخاصا عظاما جاؤوا و ذكروا لنا أمورا هى خارج حدود معرفه البشر،و هذا يؤكّد ارتباطهم بما وراء عالم الماده.أمّا كيف يكون هذا الارتباط المجهول؟فهذا ما لم يتضح لنا،إنّما المهم هو أنّنا نعلم بوجود مثل هذا الارتباط.

بعض الأحاديث بخصوص قضيه الوحى:

هناك روايات عديده وردت فى المصادر الإسلاميه بخصوص الوحى،حيث

توضح جوانب من هذا الارتباط المجهول للأنبياء بمصدر الوحی:

۱-یمکن الاستفاده من بعض الرّوایات أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم کان فی حاله عادیه عند نزول الوحی علیه عن طریق الملک،إلّا أنّه کان یشعر بحاله خاصه عند الارتباط المباشر-بدون واسطه-و أحیانا یشعر بالغشیه،کما

ورد فی کتاب التوحید للشیخ الصدوق عن الإمام الصادق علیه السّلام عند ما سألوه عن الغشیه التی کانت تصیب رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم إذا نزل علیه الوحی قال:«ذلک إذا لم یکن بینه و بین اللّه أحد،ذاک إذا تجلّی اللّه له (۱) ».

۲-کان جبرئیل ینزل علی النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم بشکل مؤدب و باحترام کامل،کما

ورد فی الحدیث عن الإمام الصادق علیه السّلام حیث یقول: «کان جبرئیل إذا أتی النّبی قعد بین یدیه قعده العبید و کان لا یدخل حتی یستأذنه» (۲) .

۳-یمکن الاستفاده من روایات اخری أن النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم کان یشخص جبرئیل بشکل جید،و ذلک بتوفیق من اللّه(و الشهود الباطنی)کما جاء

فی حدیث عن الإمام الصادق علیه السّلام حیث یقول: «ما علم رسول اللّه أن جبرئیل من قبل اللّه إلّا بالتوفیق» (۳) .

۴-هناک تفسیر لقضیه غشیه النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم عند نزوله الوحی ورد فی حدیث منقول عن ابن عباس حیث یقول:کان النّبی إذا نزل علیه الوحی وجد منه ألما شدیدا و یتصدع رأسه،و یجد ثقلا(و ذلک)قوله تعالی: إِنّا سَنُلْقِی عَلَیْکَ قَوْلاً ثَقِیلاً و سمعت أنّه نزل جبرئیل علی رسول اللّه ستین ألف مرّه (۴) .

۱- ۱) -(توحید الصدوق)نقلا عن بحار الأنوار،المجلد ۱۸،ص ۲۵۶.

۲- ۲) -علل الشرائع نقلا عن بحار الأنوار،المجلد ۱۸،ص ۲۵۶.

۳- ۳) -بحار الأنوار،المجلد ۱۸،ص ۲۵۶.

۴- ۴) -بحار الأنوار،المجلد ۱۸،ص ۲۶۱.

الآیتان [سوره الشوری (۴۲): الآیات ۵۲ الی ۵۳]

اشاره

وَ كَذٰلِكَ أَوْحَيْنٰا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنٰا مٰا كُنْتَ تَدْرِي مَا اَلْكِتٰابُ وَ لاَ اَلْإِيمٰانُ وَ لٰكِنْ جَعَلْنٰاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشٰاءُ مِنْ عِبٰادِنٰا وَ إِنَّكَ لَتَهْدِي إِلىٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِيمٍ (۵۲) صِرٰاطِ اَللّٰهِ اَلَّذِي لَهُ مٰا فِي اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِي اَلْأَرْضِ أَلاٰ إِلَى اَللّٰهِ تَصِيرُ اَلْأُمُورُ (۵۳)

التّفسیر

اشاره

القرآن روح من الخالق:

بعد البحث العام الذی ورد فی الآیه السابقه بخصوص الوحی،تتحدث الآیات التی نبحثها عن نزول الوحی علی شخص الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و اله و سلّم حیث تقول: وَ كَذٰلِكَ أَوْحَيْنٰا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنٰا .

قد تکون عباره(کذلک)إشاره إلی الأنواع ثلاثه للوحی الوارده فی الآیه السابقه،و التی تحققت جمیعها بالنسبه للنّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم،فأحیانا کان یرتبط بذات الخالق المنزه و المطهره بشکل مباشر،و أحیانا عن طریق ملک الوحی،و أحیانا عن طریق سماع لحن خاص یشبه الأمواج الصوتیه،کما أشارت الرّوایات

الإسلاميه إلى جميع ذلك،و بيّنا شرح ذلك فى نهايه الآيه السابقه.

و هناك قولان للمفسرين بخصوص المقصود من كلمه(روح)فى هذه الآيه:

الأوّل:إن المقصود هو القرآن الكريم،لأنّه أساس حياه القلوب و حياه جميع الأحياء،و قد اختار هذا القول أكثر المفسّرين (۱) .

و يقول الراغب فى مفرداته:سمى القرآن روحا فى قوله: وَ كَذٰلِكَ أَوْحَيْنٰا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنٰا و ذلك لكون القرآن سبب للحياه الأخرويه.

و هذا المعنى يتلاءم بشكل كامل مع القرائن المختلفه الموجوده فى الآيه مثل عباره(كذلك)التى تشير إلى قضيه الوحى،و عباره(أوحينا)و عبارات اخرى بخصوص القرآن وردت فى نهايه هذه الآيه.

و بالرغم من أن(روح)وردت غالبا بمعانى اخرى سائر آيات القرآن،إلاّ أنّه -وفقا للقرائن أعلاه-يظهر أنّها وردت هنا بمعنى القرآن.

و قد قلنا أيضا فى تفسير الآيه ۲ من سوره النحل: يُنَزِّلُ الْمَلاٰئِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلىٰ مَنْ يَشٰاءُ مِنْ عِبٰادِهِ أن كلمه(روح)فى هذه الآيه-وفقا للقرائن- وردت بمعنى (القرآن و الوحى و النبوه)و فى الحقيقه فإن هاتين الآيتين تفسر إحداهما الأخرى.

فكيف يمكن للقرآن أن لا يكون روحا فى حين أنّنا نقرأ فى الآيه(۲۴)من سوره الأنفال: يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلّٰهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذٰا دَعٰاكُمْ لِمٰا يُحْيِيكُمْ .

التّفسير الثّانى:أنّ المقصود هو(روح القدس)(أو ملك أفضل حتى من جبرائيل و ميكائيل و كان يلازم النّبى دائما).

و وفقا لهذا التّفسير فإن(أوحينا)تكون بمعنى(أنزلنا)يعنى أنزلنا روح القدس عليك،أو ذلك الملك العظيم(بالرغم من أنّنا لم نر كلمه(أوحينا)لهذا

۱- ۱) -الطبرسى فى مجمع البيان،الشيخ الطوسى فى التبيان،الفخر الرازى فى التّفسير الكبير المراغى فى تفسير المراغى و جماعه آخرون.

المعنى فى الآيات القرآنيه الأخرى).و يؤيـد ذلك بعض الروايات المـذكوره فى مصادر الحـديث المعروفه،و لكن-كما قلنا-فإن التّفسـير الأـوّل ملاـءمه مع الآـيه لوجود القرائن المتعـدده،لـذا يمكن أن تكون مثـل هـذه الرّوايات التى تفسـر الروح بمعنى روح القدس أو الملك المقرب من الخالق،إشاره إلى المعنى الباطنى للآيه.

على أيه حال،فإنّ الآيه تضيف: مٰا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتٰابُ وَ لاَ الْإِيمٰانُ وَ لٰكِنْ جَعَلْنٰاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشٰاءُ مِنْ عِبٰادِنٰا .

فهذا هو اللطف الإلهى الذى شملك أنزل عليك هذا الوحى السماوى و آمنت بكل ما يحتويه.

فالإـراده الإـلهيه كـانت تقتضـى أن يهـدى عباده الآخرين فى ظل هـذا النور السـماوى،و أن يشـمل الشـرق و الغرب-بل و جميع القرون و الأعصار حتى النهايه -إضافه إلى هدايتك أنت إلى هذا الكتاب السماوى الكبير و تعليماته.

بعض المنحرفين فكريـا كـانوا يتصورون أن هـذه الجمله تـبيّن أن الرّسول لم يكن يؤمن بـاللّه قبـل نبوته،فى حين أن معنى الآـيه واضـح،حيث أنّهـا تقول:إنّـك لم تكن تعرف القرآن قبـل نزوله و لم تكن تعرف تعليماته و تؤمن به و هـذا لا يتعارض أبـدا مع اعتقاد الرّسول التوحيدى و معرفته العاليه بأصول العباده للّه و عبوديته له.

و الخلاصه،إن عدم معرفه محتوى القرآن يختلف عن موضوع عدم معرفه اللّه.

فحياه الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم قبل مرحله النبوه و الوارده فى كتب التاريخ،تعتبر دليلا حيا على هذا المعنى.و الأوضح من ذلك ما

ورد عن أمير المؤمنين على عليه السّـلام فى نهـج البلاـغه: «و قـد قرن اللّه به من لـدن أن كـان فطيمـا أعظم ملـك من ملاـئكته، يسلك به طريق المكارم،و محاسن أخلاق العالم،ليله و نهاره» (۱) .

و تضيف الآيه فى نهايتها: وَ إِنَّكَ لَتَهْدِي إِلىٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِيمٍ .

فالقرآن نور للجميع و ليس لك فحسب،و هو وسيله لهدايه البشر إلى الصراط.

۱- ۱) -نهج البلاغه-الخطبه ۱۹۲(الخطبه القاصعه).

المستقیم،و موهبه إلهیه عظیمه بالنسبه للسائرین علی طریق الحق،و هو ماء الحیاه بالنسبه للعطاشی کی ینتهلوا منه.

و قد ورد نفس هذا المعنی بعباره اخری فی الآیه(۴۴)من سوره فصلت حیث تقول الآیه: قُلْ هُوَ لِلَّذِینَ آمَنُوا هُدیً وَ شِفاءٌ وَ الَّذِینَ لا یُؤْمِنُونَ فِی آذانِهِمْ وَقْرٌ .

ثم تقول الآیه مفسره للصراط المستقیم: صِراطِ اللّهِ الَّذِی لَهُ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ .

و هل هناک طریق أکثر استقامه من الطریق الذی ینتهی بخالق عالم الوجود؟ و هل هناک أحسن من هذا الطریق؟ فالسعاده الحقیقیه هی السعاده التی یدعو إلیها الخالق،و الوصول إلیها یجب أن یکون عبر الطریق الوحید الذی انتخبه الباریء لها.

أمّا آخر جمله فی هذه الآیه-و هی آخر آیه فی سوره الشوری-فهی فی الحقیقه دلیل علی أن الطریق المستقیم هو الطریق الوحید الذی یوصل إلی الخالق، حیث تقول: أَلاٰ إِلَی اللّهِ تَصِیرُ الْأُمُورُ .

فبما أنّه یملک عالم الوجود و یحکمه و یدبره لوحده،و بما أن برامج تکامل الإنسان یجب أن تکون تحت إشراف هذا المدبّر العظیم،لذا فإن الطریق المستقیم هو الطریق الوحید الذی یوصل إلیه،و الطرق الأخری منحرفه و تؤدی إلی الباطل، و هل هناک حق فی هذا العالم غیر ذاته المقدسه؟! هذه الجمله بشری للمتقین،و هی فی نفس الوقت تهدید للظالمین و المذنبین، لأن الجمیع سوف یرجعون إلی الخالق.

و هی دلیل علی أن الوحی یجب أن یکون من الخالق فقط،لأن جمیع الأمور ترجع إلیه و تدبیر کلّ شیء بیده،و لهذا السبب وجب أن یکون الباریء تعالی هو مصدر الوحی بالنسبه للأنبیاء حتی تتمّ الهدایه الحقیقیه.

و هكـذا نرى أن بـدايه و نهايه هذه الآيات منسـجمه فيما بينها و مترابطه،و نهايه السوره-أيضا-يتلاءم مع بديتها و الموضوع العام السارى عليها.

ملاحظات

اشاره

۱-ماذا كان دين الرّسول الأعظم قبل نبوته؟

لاـ يوجـد شـك فى أن الرّسـول الأـكرم صـلّى اللّـه عليـه و الـه و سـلّم لـم يسـجد لصـنم قبـل بعثتـه أبـدا،و لـم ينحرف عن خط التوحيد،فتاريخ حياته يعكس بوضوح هذا المعنى،إلاّ أن العلماء يختلفون فى الدين الذى كان عليه:

فذهب بعضـهم أنّه دين المسـيح عليه السّـلام،لأن المسيحيه كانت الدين الوحيد الرسمى غير المنسوخ قبل بعثه الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم.

و قال البعض الآخر:إنه دين إبراهيم عليه السّـلام،لأنّه(شـيخ الأنبياء)و أبوهم،و قد ذكرت بعض آيات القرآن أن دين الإسـلام هو دين إبراهيم: مِلَّهَ أَبِيكُمْ إِبْراهِيمَ (۱) .

أمّا البعض الآخر فلم يذكر شيئا و اكتفى بالقول بأننا نعلم بأنّه كان على دين معين إلاّ أنّه لم يتوضح لنا ما هو.

و بالرغم من أن كلا من هذه الأقوال يستند إلى دليل معين،إلاّ أنّها ليست قطعيه،و أفضلها قول آخر و هو:لقد كان الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم يملك برنامجا خاصا من قبل الخالق و كان يعمل به،و فى الحقيقه فقد كان له دين خاص حتى زمان نزول الإسلام عليه.

و الدليل على هذا الكلام الجمله التى ذكرناها قبل قليل،و الوارد فى نهج البلاغه،و هو«و لقد قرن اللّه به و من لدن أن كان فطيما أعظم ملك من ملائكته،

۱- ۱) -الحج،الآيه ۷۸.

يسلك به طريق المكارم،و محاسن أخلاق العالم ليله و نهاره».

فوجود مثل هذا الملك يدل على وجود برنامج خاص.

و الدليل الآخر هو أنّ التاريخ لم يذكر لنا أبدا أن الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم انشغل بالعباده فى معابد اليهود أو النصارى أو الأديان الأخرى،و لم يكن إلى جوار الكفار فى معابدهم،و لا إلى جوار أهل الكتاب فى كنائسهم،و فى نفس الوقت فقد استمر فى سلوك طريق التوحيد و كان متمسكا بقوه بالأصول الأخلاقيه و العباده الإلهيه.

و قد وردت عدّه روايات-وفقا لنقل العلاّمه المجلسى فى بحار الأنوار-فى المصادر الإسلاميه عن أن الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم كان مؤيدا منذ بدايه عمره بروح القدس.

و حتما فإنّه كان يعمل وفقا لما يستلهمه من روح القدس (۱) .

و يرى العلاّمه المجلسى أن الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم كان نبيا قبل أن يكون رسولا، فالملائكه كانت تتحدث معه أحيانا و كان يسمع صوتها،و أحيانا كان الإلهام الإلهى ينزل عليه ضمن الرؤيا الحقيقيه الصادقه،و بعد أربعين سنه وصل إلى منزله الرساله و نزل القرآن و الإسلام عليه،و قد ذكر لذلك سته أدله حيث يتلاءم بعضها مع ما ذكرناه أعلاه(للاستزاده راجع المجلد ۱۸ من بحار الأنوار ص ۲۷۷ فما بعدها).

۲-الجواب على سؤال

بعد هذا البحث قد يطرح هذا السؤال:لماذا تقول الآيه: مٰا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتٰابُ وَ لاَ الْإِيمٰانُ رغم ما ذكرناه من إيمان و أعمال النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم قبل نبوّته؟ و بالرغم من أنّه ورد جواب هذا السؤال بشكل موجز فى تفسير الآيه،إلاّ أنّه من الأفضل إعطاء توضيح أكثر بهذا الخصوص.

المقصود أنّ الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم لم يكن يعرف بتفصيلات هذا الدين و لا بمحتوى

۱- ۱) -بحار الأنوار،ج ۱۸،ص ۲۸۸.

القرآن،قبل نزوله و قبل تشريع الإسلام.

أمّا كلمه الإيمان،فلو لا حظنا أن هذه الكلمه وردت بعد الكتاب،و بملاحظه الجمل الأخرى الوارده بعدها فى الآيه،يتضح أن المقصود بها هو الإيمان بمحتوى هذا الكتاب السماوى و ليس مطلق الإيمان،لذا لا يوجد أى تعارض مع ذكرناه،و لا يمكن أن تكون هذه الجمله وسيله لذوى النفوس المريضه كى يستدلوا بها على نفى الإيمان بشكل مطلق عن الرّسول،و ينكرون الحقائق التاريخيه فى هذا المجال.

و قد ذكر بعض المفسّرين أجوبه اخرى لهذا السؤال منها:

أ-المقصود من الإيمان ليس الإعتقاد لوحده،بل مجموع الإعتقاد و الإقرار باللسان و الأعمال و هذا هو المقصود به فى التعبير الإسلامى.

ب-المقصود من الإيمان هو الإعتقاد بالتوحيد و الرساله،و نحن نعلم أن النّبى كان موحدا،إلاّ أنّه لم يكن يؤمن برسالته بعد.

ج-المقصود من الإيمان هو أركان الإيمان التى لا يتوصل إليها الإنسان عن طريق العقل،و الطريق الوحيد لذلك هو الأدله النقليه(مثل العديد من خصوصيات المعاد).

د-هناك محذوف فى هذه الآيه و فى التقدير:ما كنت تدرى كيف تدعو الخلق إلى الإيمان (۱) .

و لكن حسب اعتقادنا فإن المعنى الأوّل أفضل المعانى و أكثرها تلاؤما مع محتوى الآيه.

۳-ملاحظه أدبيه

هناک كلام كثير حول الضمير فى جمله: لٰكِنْ جَعَلْنٰاهُ نُوراً لمن يعود،

ص:۵۹۱

۱- ۱) -الآلوسى فى روح المعانى،المجلد ۲۵،ص ۵۵،و قد ذكر احتمالات اخرى إلاّ أنّنا لم نذكرها لعدم أهميتها.

فـذهب البعض أن المقصود هو القرآن نفسه،الكتـاب السـماوى العظيم لرسول الإسـلام صـلّى اللّه عليه و اله و سـلّم،و يحتمل أن يكون هذا النور هو النور الإلهى ل(الإيمان).

و لكن الأفضـل أن يعود هـذا الضـمير إلى الإـثنين(القرآن و الإيمـان)،فمـا دامـا ينتهيان بحقيقه واحـده،لـذا فلا مانع من أن يعود الضمير المفرد إليهما.

إلهى،نور قلوبنا دائما بنور إيمانك،و اهدنا بلطفك إلى الخير و السعاده.

إلهى،ترحّم علينا بالصبر و التحمل حتى لا نطغى عند النعم و لا نجزع عند المصائب و الفتن.

إلهى،اجعلنـا فى صفّ المؤمنين المخلصـين فى ذلـك اليوم الـذى يكون فيه الظالمون و المسـتكبرون حيارى تائهين،و المؤمنون مصونين فى ظل حمايتك، آمين ربّ العالمين نهايه سوره الشورى

ص :۵۹۲

ص :

ص :

ص :

ص :

ص :

ص :

ص :

تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم

هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

الزمر: ۹

المقدمة:

تأسّس مركز القائمية للدراسات الكمبيوترية فی أصفهان بإشراف آية الله الحاج السيد حسن فقيه الإمامی عام ۱۴۲۶ الهجری فی المجالات الدينية والثقافية والعلمية معتمداً علی النشاطات الخالصة والدؤوبة لجمع من الإخصائيين والمثقفين فی الجامعات والحوزات العلمية.

إجراءات المؤسسة:

نظراً لقلة المراكز القائمة بتوفير المصادر فی العلوم الإسلامية وتبعثرها فی أنحاء البلاد وصعوبة الحصول علی مصادرها أحياناً، تهدف مؤسسة القائمية للدراسات الكمبيوترية فی أصفهان إلی التوفير الأسهل والأسرع للمعلومات ووصولها إلی الباحثين فی العلوم الإسلامية وتقدم المؤسسة مجاناً مجموعة الكترونية من الكتب والمقالات العلمية والدراسات المفيدة وهی منظمة فی برامج إلكترونية وجاهزة فی مختلف اللغات عرضاً للباحثين والمثقفين والراغبين فيها.

وتحاول المؤسسة تقديم الخدمة معتمدة علی النظرة العلمية البحتة البعيدة من التعصبات الشخصية والاجتماعية والسياسية والقومية وعلی أساس خطة تنوی تنظيم الأعمال والمنشورات الصادرة من جميع مراكز الشيعة.

الأهداف:

نشر الثقافة الإسلامية وتعاليم القرآن وآل بيت النبیّ عليهم السلام

تحفيز الناس خصوصا الشباب علی دراسة أدقّ فی المسائل الدينية

تنزيل البرامج المفيدة فی الهواتف والحاسوبات واللابتوب

الخدمة للباحثين والمحققين فی الحوازت العلمية والجامعات

توسيع عام لفكرة المطالعة

تهميد الأرضية لتحريض المنشورات والكتّاب علی تقديم آثارهم لتنظيمها فی ملفات الكترونية

السياسات:

مراعاة القوانين والعمل حسب المعايير القانونية

إنشاء العلاقات المترابطة مع المراكز المرتبطة

الاجتنباب عن الروتينية وتكرار المحاولات السابقة

العرض العلمی البحت للمصادر والمعلومات

الالتزام بذكر المصادر والمآخذ فی نشر المعلومات

من الواضح أن يتحمل المؤلف مسؤولية العمل.

نشاطات المؤسسة:

طبع الكتب والملزمات والدوريات

إقامة المسابقات فی مطالعة الكتب

إقامة المعارض الالكترونية: المعارض الثلاثية الأبعاد، أفلام بانوراما فی الأمكنة الدينية والسياحية

إنتاج الأفلام الكرتونية والألعاب الكمبيوترية

افتتاح موقع القائمية الانترنتی بعنوان : www.ghaemiyeh.com

إنتاج الأفلام الثقافية وأقراص المحاضرات و...

الإطلاق والدعم العلمی لنظام استلام الأسئلة والاستفسارات الدينية والأخلاقية والاعتقادية والردّ عليها

تصميم الأجهزة الخاصة بالمحاسبة، الجوال، بلوتوث Bluetooth، ويب كيوسك kiosk، الرسالة القصيرة ((sms

إقامة الدورات التعليمية الالكترونية لعموم الناس

إقامة الدورات الالكترونية لتدريب المعلمين

إنتاج آلاف برامج فی البحث والدراسة وتطبيقها فی أنواع من اللابتوب والحاسوب والهاتف ويمكن تحميلها علی ٨ أنظمة؛

١.JAVA

٢.ANDROID

٣.EPUB

۴.CHM

۵.PDF

۶.HTML

٧.CHM

٨.GHB

إعداد ۴ الأسواق الإلكترونية للكتاب علی موقع القائمية ويمكن تحميلها علی الأنظمة التالية

١.ANDROID

٢.IOS

٣.WINDOWS PHONE

۴.WINDOWS

وتقدّم مجاناً فی الموقع بثلاث اللغات منها العربية والانجليزية والفارسية

الكلمة الأخيرة

نتقـدم بكلمـة الشـكر والتقـدير إلى مكاتب مراجع التقليـد منظمات والمراكز، المنشورات، المؤسـسات، الكتّاب وكل من قدّم لنا المساعدة فى تحقيق أهدافنا وعرض المعلومات علينا.

عنوان المكتب المركزى

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آباده اى، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلى، الرقم ١٢٩، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir

البريد الالكترونى : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزى ٠٣١٣٤٤٩٠١٢٥

هاتف المكتب فى طهران ٨٨٣١٨٧٢٢ ـ ٠٢١

قسم البيع ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩شؤون المستخدمين ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩.